المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

الفتوح العربية الكبرى

كيف غيّر انتشار الإسلام العالم الذى نعيش فيه



1287

تأليف
هيو كينيدى

ترجمة وتقديم وتعليق:
قاسم عبده قاسم



يطرح هذا الكتاب السؤال ويجيب عنه، والسؤال الذى يطرحه الكتاب: لماذا؟ وكيف؟ لماذا كان نجاح المسلمين سريعًا وواسع النطاق بحيث فتحوا معظم أنحاء عالم القرنين السابع والثامن الميلاديين فى غضون قرن من الزمان تقريبًا؟ وكيف تمكنوا من تحويل الفتح إلى تغيير دائم فى مصائر المناطق والشعوب؟

هذان السؤالان الجوهريان، وما يتفرع عنهما بالضرورة من أسئلة، هما اللذان تدور فصول الكتاب حولهما. والكتاب مناقشة علمية مدهشة لجميع جوانب هذين السؤالين؛ ويطرح المؤلف أفكارًا جديدة مدهشة حول قيمة المصادر التاريخية العربية، وما تحمله من سرديات ومعلومات تعبر عن رؤية النخبة الإسلامية لنفسها زمن تدوين هذه الروايات.

المركز القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٢٨٧
- الفتوح العربية الكبرى (كيف غيّر انتشار الإسلام العالم الذى نعيش فيه)
- هيو كينيدى
- قاسم عبده قاسم
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة كتاب:

The Great Arab Conquests

How the Spread of Islam Changed the World We Live In

by : Hugh Kennedy

" First published by weidenfeld & Nicolson Ltd, London "

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

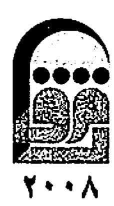
E.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

الفتوح العربية الكبرى

كيف غيّر انتشار الإسلام العالم الذى نعيش فيه

تــألــيــــف : هيـو كيـنـيدى

ترجمة وتقديم وتعليق : قاسم عبده قاسم



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كينيدى ، هيو
الفتوح العربية الكبرى (كيف غير انتشار الإسلام العالم الذى نعيش فيه) / تأليف : هيو كينيدى ؛ ترجمة وتقديم وتعليق : قاسم عبده قاسم ؛ ط١ - القاهرة ، المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٨
٥٦٨ ص ؛ ٢٤ سم
١ - التاريخ الإسلامى .
٢ - انتشار الإسلام .
(أ) قاسم ؛ قاسم عبده (مترجم ومقدم ومعلق)
(ب) العنوان
٩٥٣

رقم الإيداع ٢٠٠٨/٢٢٨٦٨
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 437 - 969 - 1
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتـــويات

مقدمة المترجم

هذا الكتاب يطرح السؤال ويجيب عليه. والسؤال الذى يطرحه الكتاب هو: لماذا؟ وكيف؟ لماذا كان نجاح المسلمين سريعًا وواسع النطاق بحيث فتحوا معظم أنحاء عالم القرنين السابع والثامن الميلاديين فى غضون قرن من الزمان تقريبًا؟ وكيف تمكنوا من تحويل الفتح إلى تغيير دائم فى مصائر المناطق والشعوب؟.

هذان السؤالان الجوهريان ، وما يتفرع عنهما بالضرورة من أسئلة، هما اللذان تدور فصول الكتاب حولهما. والكتاب مناقشة علمية مدهشة لكافة جوانب هذين السؤالين؟ ويطرح المؤلف أفكارًا جديدة مدهشة حول قيمة المصادر التاريخية العربية وما تحمله من سرديات، ومعلومات تعبر عن رؤية النخبة الإسلامية لنفسها زمن تدوين هذه الروايات. كما يربط بين هذه الروايات التى حملتها المصادر العربية عن حركة الفتوح الإسلامية، وما جاء فى المصادر الأخرى المعاصرة؛ وفى هذا كله يعتمد المؤلف على النصوص الأصلية على نحو يكشف عن اطلاعه الواسع على المصادر العربية ومعرفته الواعية بالشعر العربى الذى يستشهد به فى كثير من الأحيان. وعلى الرغم من أن استشهاداته الكثيرة بالمصادر العربية ودواوين الشعر العربية قد زادت من عبء الترجمة ومشاقها؛ فإنها كانت ذات قيمة كبيرة فى تنوير النص الأصلى وتدعيمه.

ومن ناحية أخرى، فإن فهم المؤلف للمصادر العربية جعله يفهم تاريخ الفتوح الإسلامية على نحو يخالف التيار السائد فى البحث التاريخى الأوروبى والأمريكى. وهو أيضًا، ينطلق من أرضية علمية وأكاديمية واعية لا تشوشها عوامل الهوى، ولا تضعفها علامات الموقف المسبق والانحيازات الثقافية، أو العداء السياسى ضد الإسلام والمسلمين.

فالمؤلف "هيو كينيدى" رجل يسعى وراء الحقيقة التاريخية سعيًا موضوعيًا حسبما تكشف صفحات هذا الكتاب المدهش؛ وفى سعيه هذا بحًا عن الإجابة المناسبة للسؤال "لماذا"؟ والسؤال "كيف"؟ يتناول المؤلف جوانب تاريخ حركة الفتوح الإسلامية كافة، وهو فى تناوله هذا يطوف بنا أرجاء العالم الذى فتحه المسلمون: الشام والعراق ومصر وبلاد المغرب وشبه جزيرة أيبيريا، وإيران، وبلاد ما وراء النهر وحوض نهر السند فى شبه القارة الهندية.

ويكشف المؤلف عن عدد من الحقائق المهمة فى هذا الموضوع؛ كيف كانت معظم هذه الفتوح "فتوحًا سلمية"؛ فقد كانت المعارك التى جرت فى غمار حركة الفتوح الإسلامية قليلة ودارت حول بعض المدن والحصون فى معظمها؛ على حين كانت فتح مناطق كثيرة يتم "صلحًا". ومن ناحية أخرى، كانت كثير من المناطق التى تم فتحها ترى فى الفاتحين المسلمين سادة أفضل من سادتهم القدامى؛ ولذلك فإن السكان عمومًا اتخذوا موقفًا محايدًا، أو ساعدوا المسلمين أحيانًا كما حدث فى مصر وفى أعالى العراق،...، وغيرها.

ومن الطبيعى ألاَّ يتخذ المؤلف موقف الرجل المسلم؛ ومن هنا لا يصح لنا أن نطلب منه أن يتحدث بلسان المسلمين، أو يؤمن بدينهم ونبيهم ويدافع عن مواقفهم، ويتبنى قضاياهم. ويؤدى هذا بالضرورة إلى أن نختلف معه فى بعض الأحيان. كما أن المؤلف، بطبيعة الحال، ابن ثقافة أخرى ترى الأمور بمنظور مختلف؛ وهو ما يتسبب فى اختلاف وجهات النظر حول بعض جوانب تاريخ الفتوح الإسلامية. وقد أدى ذلك إلى أن نقوم بإثبات نقاط الاختلاف فى مكانها وفى حينها، وليس من المنطقى أن نكرر هنا الآراء التى اختلفنا فيها مع المؤلف وإن كنا نعترف له بالفضل والعلم والمعرفة الواسعة بالموضوع الذى تصدى لدراسته والبحث فيه.

ومن ناحية أخرى، فإن الكتاب الذى نقدمه فى ترجمته العربية للمرة الأولى، يعتبر إضافة مهمة فى مجاله الذى يحتاج إلى المزيد من البحث والدراسة، وربما يكون حافزًا لكل من يبحث من أبناء اللغة العربية لدراسته من منظور موضوعى، ينأى بنفسه بعيدًا

عن الخطابية والحماسة الفارغة والتبنى الكامل لكل ما جاء فى المصادر التاريخية العربية من روايات عن الفتوح الباكرة، دونما نقد أو تحليل أو استخدام لأدوات البحث التاريخى العلمى. لقد بحث المؤلف، ودرس موضوعه بشكل جدى، وجاءت النتيجة إيجابية بشكل مدهش، وبغض النظر عن نقاط الاختلاف معه - التى أثبتناها فى تعليقات موجزة - فإن الكتاب يمتاز على كتب كثيرة فى مجاله كتبها باحثون غربيون فى أجيال سابقة وفى الجيل الحالى؛ ووجه الامتياز يتمثل فى درجة الموضوعية العالية التى تنطق بها صفحات الكتاب الكثيرة.

أما عن الترجمة، فإن متاعبها ومشاقها معروفة لكل من يكابدها؛ ولا حاجة بنا لأن نثقل بها على القارئ الكريم؛ ولكن ترجمة كتاب من هذا النوع تتطلب الرجوع إلى المصادر التى نقل عنها المؤلف النصوص التى استخدمها لكى ينسج منها تلك السرديات المدهشة التى ضمنها فصول الكتاب، وقد رجعت إلى دواوين الشعر وإلى المصادر التاريخية الضرورية لكى نورد النصوص الأصلية التى اعتمد عليها المؤلف. وقد راعيت أن تكون الترجمة فى لغة عربية سلسلة بقدر الإمكان، وقد ساعدنى على هذا أن لغة النص الأصلى تتسم بالسهولة والبساطة التى تدل على اقتدار المؤلف، وأرجو أن أكون قد حققت الهدف الذى سعيت إليه فى هذه الترجمة، كما أرجو أن يسامحنى القارئ فى مواطن الخطأ والزلل.

وإننى إذ أعلن عن سعادتى بترجمة هذا الكتاب الذى كان بالنسبة لى شخصيًا سياحة علمية ممتعة، أرجو أن يكون ذا فائدة بالنسبة للقارئ العربى، وأن يجد فيه المتعة والفائدة التى لقيتها.

دكتور قاسم عبده قاسم

الإهـــداء

إلـى .. CJG

حـبيبتـى

شكر واعتراف بالجميل

أدين بالكثير من الفضل للناس الذين ساعدونى وساندونى فى كتابة هذا الكتاب . بل إن الكتاب يدين بوجوده كليًا لچورچينا كابل كابل ولاند Georgina Capel of Capel & Land التى اقترحت بداية أن أتناول موضوع الفتوحات الإسلامية الباكرة الواسع، فلها شكرى. كما أننى ممتن للغاية لمؤسسة ليڤرهولم ترست Leverhulme Trust بسبب جائزة زمالة الدراسة التى ساعدتنى على الإعداد لهذا العمل . وأحسُّ بالامتنان ، أيضًا ، لزملائى فى مدرسة التاريخ بسانت أندروز الذين وفروا لى، على مرِّ السنين ، بيئة فكرية مساندة وأحاطونى بقدر كبير من الصداقة الطيبة. وأود أيضا أن أشكر بينى جاردينر Penny Gardiner المحررة التى حررت الكتاب فى ويدينفد ونيكولسون. فهذا هو الكتاب الثالث الذى عملنا فيه معًا وأدين لها بالكثير لمهارتها وحماستها ، كما أشكر توم جريفز Tom Graves على ما قام به من عمل فى الصور والرسوم . وعلاوة على هذا فإنه بحب علىَّ أن أعترف بالجميل لمشاركة أولئك الأصدقاء وأفراد العائلة الذين ساندونى فى هذا العمل الذى استحوذ علىَّ أحيانا وشغلنى طوال الوقت . وإنى لشاكر لهم فضلهم للغاية وممتن لصبرهم وتفهمهم .

مقدمة المؤلف

فى ثمانينيات القرن السابع الميلادى، كان هناك راهب اسمه حنا باربنكايا يؤلف ملخصًا لتاريخ العالم فى ديره النائى بالقرب من نهر دجلة سريع الجريان ، تحتضنه الجبال التى تقع الآن فى جنوب شرق تركيا . وعندما وصل إلى كتابة تاريخ الزمن الذى يعيش فيه استغرق فى تأمل الفتح العربى للشرق الأوسط، الذى كان لا يزال ماثلاً فى الذاكرة . وعندما فكر فى هذه الأحداث الدرامية انتابته الحيرة فسأل نفسه «كيف يمكن لرجال عراة ، يركبون دونما درع أو ترس، أن يتمكنوا من الانتصار ... ويحطوا من شأن روح الكبرياء الفارسية؟» . وقد صدمه أكثر أنه «لم تمر سوى فترة زمنية قصيرة حتى تم تسليم العالم بأسره إلى العرب؛ لقد أخضعوا كل المدن الحصينة، وفرضوا سلطانهم من البحر إلى البحر، ومن الشرق إلى الغرب – مصر ، ومن كريت إلى قبادوقيا، ومن اليمن إلى أبواب آلان (فى القوقاز) ، والأرمن، والشوام ، والفرس ، والبيزنطيين والمصريين ، وكافة المناطق فيما بينها : «كانت أيديهم فوق الجميع» كما يقول النبى».

وبالنسبة لحنا باربنكايا ، الذى كان راهبًا تقيًا ، كانت الإجابة واضحة: إنها إرادة الرب. لم يكن هناك آخر يمكن أن يفسِّر هذه الثورة الخارقة للعادة تمامًا فى أمور البشر . والآن ، بعد ثلاثة عشر قرنا من الزمان، فى عالم لايكون التدخل الإلهى تفسيرًا كافيًا للتغيرات التاريخية الكبرى بالنسبة لكثير من الناس، تأتى محاولة اقتراح أنماط مختلفة من الإجابات على السؤال الذى طرحه حنا.

يهتم هذا الكتاب بثلاثة موضوعات رئيسية . أولها قصة أحداث الفتوح الإسلامية بقدر ما يمكننا إعادة بنائها . ويتخذ الكتاب شكلا سرديًا صريحًا . إنه حكاية تحكى

كيف أن عدداً صغيراً من الرجال ذوى العزم والإيمان الراسخ قد استطاعوا تغطية مساحات شاسعة ، عبر أراضى قاحلة غير قابلة للسكنى ، وأن يقهروا إمبراطوريات وممالك عظمى وأن يحكموا أراضيها (من غير المحتمل أن يكون أى جيش من الجيوش العربية الإسلامية قد زاد عن عشرين ألف رجل عدداً، وكثير من هذه الجيوش كانت أصغر كثيراً) . إنها حكاية الشجاعة والجسارة ، بيد أنها أيضا حكاية القسوة والتدمير . وآمل أن يعطى هذا الكتاب، الذى يصدق فى اعتماده على الأدلة والبراهين ، بعض الانطباع عن هذه الأحداث الحيوية.

والموضوع الثانى هو استقرار العرب بعد الفتح ، أين عاشوا وكيف استغلوا الموارد الهائلة التى آلت إليهم. وهذا بدوره يثير موضوع كيف استطاع العرب الحفاظ على هويتهم وثقافتهم الخاصة فى خضم بحر من الغرباء الذين كانوا معادين غالبًا، ووفروا فى الوقت نفسه بيئة شجعت الكثير من أبناء البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام، وفى منطقة الهلال الخصيب، ومصر ، وشمال أفريقيا ، اتخذوا العربية لسانًا. هذه العملية أساسية لفهم عملية خلق هوية عربية إسلامية والحفاظ عليها بحيث أنها لا تزال سائدة فى الكثير من الأراضى التى فُتحت فى هذه الفترة.

وأخيراً ، إنه كتاب عن الذاكرة وخلق الذكريات. ولانكاد نملك سجلات أو أوصاف معاصرة تماماً للفتوح الإسلامية. إذ إن جميع الروايات التى وصلت إلينا قد مرَّت عبر عدة مراحل من التحرير والمراجعة وإضافة معلومات جديدة وأحيانا زائفة . وقد مال مؤرخون آخرون إلى استبعاد الكثير من هذه المادة لأنها ليست سجلاً دقيقًا لما «حدث بالضبط» . وفى الحقيقة ، إنها مثيرة تماماً باعتبارها تعبيراً عن الذاكرة الاجتماعية ، وعن الكيفية التى أعاد بها المسلمون بناء ماضيهم وشرحوا مجئ الإسلام إلى المناطق التى يعيشون فيها الآن. ويمكن أن نخرج من التحقيق فى أسس الأساطير التى تدور حول الجماعة الإسلامية الباكرة ، بالكثير عن رؤية المسلمين للعالم فى القرن الأول من التاريخ الإسلامى.

ولقد حاولت أن أقدم رواية عن تاريخ الفتوح العربية الإسلامية فى الشرق الأوسط والعالم الأوسع، كما حدثت بين وفاة النبى محمد سنة ٦٣٢م وسقوط الخلافة الأموية فى سنة ٧٥٠م. وتاريخ البداية واضح بما فيه الكفاية. وعلى الرغم من أن جذور الفتوح تضرب فى تربة السياسات والأفعال التى قام بها النبى فى حياته، فإنه لم يحدث حتى وفاته أن بدأت الجيوش الإسلامية فى غزو الأراضى خارج شبه الجزيرة العربية. أما تاريخ النهاية فهو أكثر اعتباطًا ، لأنه يغفل بعض الفتوح المهمة – فتح صقلية وكريت على سبيل المثال – ولكن فى المصطلح الواسع، فإن حدود العالم المسلم كما أرسيت بحلول سنة ٧٥٠م بقيت دونما تغيير بدرجة كبيرة حتى التوسع فى الهند حوالى سنة ١٠٠٠م.

كان للفتوح العربية أثر كبير على التاريخ الإنسانى، كما أن نتائج هذه السنوات المضطربة قد شكلت العالم الذى نعيش فيه اليوم. بيد أنه لايوجد شىء حتمى حول الهوية العربية/ الإسلامية للشرق الأوسط. وفى سنة ٦٣٢م، كان الإسلام محصورًا فى نطاق أبناء القبائل الناطقين بالعربية الذين يعيشون فى شبه الجزيرة العربية والحواف الصحراوية لبلاد الشام والعراق. كان معظم أهل الشام يتحدثون اليونانية أو الآرامية ؛ وفى مصر كان السكان يتحدثون اليونانية أو القبطية ؛ وفى إيران يتحدثون الفهلوية؛ وفى شمال أفريقيا يتحدثون اللاتينية ، أو اليونانية، أو البربرية . ولم يكن منهم مسلمون . وفى مصر وشمال أفريقيا ، وهى الأراضى التى نفكر فيها الآن باعتبارها إسلامية خالصة ، لم يكن هناك مسلمون ولم يكن هناك بالفعل من يتحدث العربية ، ويصدق الشىء نفسه على إيران وأفغانستان. ومدى التحول وسرعته أمر يثير الدهشة ؛ ففى غضون مائة سنة من وفاة النبى، كانت هذه البلاد جميعا، إلى جانب إسبانيا ، والبرتغال، وأوزبكستان ، وتركمانستان ، وجنوب باكستان (السند) ، تحت حكم نخبة مسلمة من الناطقين بالعربية ، وفيها جميعًا كان السكان المحليون قد بدأوا اعتناق الدين الجديد.

وسرعة الفتوح الإسلامية مذهلة ، ولكن كانت هناك فتوح سريعة أخرى فى مجرى التاريخ الإنسانى يمكن أن نقارنها بها على نحو ما . وترد إلى الذهن مباشرة فتوح الإسكندر الأكبر وچنكيز خان . وما يجعل الفتوح العربية الإسلامية لافتة يتمثل فى بقاء الأثر الذى أحدثته على اللغة والديانة فى الأراضى المفتوحة . وإسبانيا والبرتغال البلدان الوحيدان اللذان تم فتحهما فى تلك الفترة ثم طُرد المسلمون منهما؛ وعلى النقيض نفكر الآن فى مصر باعتبارها مركزا رئيسيًا للثقافة العربية وفى إيران باعتبارها حصن الإسلام المتشدد.

ومن الواضح أن مثل هذا التغير السريع والهائل يحتاج إلى بحث وتحقيق تاريخى ، بيد أن الأدب المكتوب الذى يمكن تناوله عن الموضوع محدود ومقيد للغاية . ويرجع هذا جزئيًا إلى الحدود الإقليمية فى المهنة التاريخية. ذلك أن الكتاب المرجعى الرئيسى The Cambridge Ancient History على سبيل المثال، ينتهى بالمجلد السادس ، الذى يقف بنا عند اغتيال الإمبراطور موريس سنة ٦٠٢ ميلادية . ويبدأ The Cambridge History of Islam ، بطبيعة الحال ، بحياة النبى محمد ودعوته . وتنعكس الفجوة على نحو أشد اتساعًا فى الطريقة التى يتم بها تعليم التاريخ والبحث فيه فى الجامعات الحديثة: إذ إن التاريخ الكلاسيكى/ القديم منفصل عن التاريخ الوسيط / الإسلامى. وهذا بدوره ناتج جزئيًا من عواقب التقسيم اللغوى: فالمؤرخون يميلون إلى الانقسام ما بين أولئك الذين يمكنهم استخدام المصادر اللاتينية واليونانية من ناحية ، وأولئك الذين يستخدمون العربية والفارسية من ناحية أخرى؛ وقلائل وأنا لست منهم بالتأكيد، يشعرون بأنهم قادرون وماهرون فى كل المصادر .

كما أن طبيعة المصادر كانت قد أدت أيضًا إلى إثناء المؤرخين عن محاولة تقديم سرد جسور وواضح عن هذه الأحداث التى هزت العالم. وربما يستمتع المؤرخون بالجدل حول التفسيرات والمقاربات ولكن عندما يتعلق الأمر بتواريخ الأحداث المهمة ونظامها، فإن المؤرخ يلتمس الدقة. وفى قصة الفتوح العربية الكبرى هناك أسئلة أساسية عن الحقيقة ، أو نظام الأحداث فى فتح بلاد الشام، مثلا، أو تاريخ معركة القادسية فى العراق، وهى أمور لا يمكن ببساطة أن نكون على يقين فيها . وفى هذا

الكتاب حاولت بناء سرد مقبول للأحداث الرئيسية ، ولكن سيكون من الخطأ أن نزعم أن هذا هو إعادة البناء الوحيد الممكن، أو أن نخفى حقيقة أننى قمت باختيارات وأحكام قامت أحيانا على أساس من الاحتمال والترجيح بقدر ما كانت مبنية على أساس من الأدلة الراسخة.

وهناك أيضا ما يمكن للمرء أن يسميه، إذا ما استخدمنا تعبيراً شائعًا معاصراً ، الفيل فى الغرفة : فالموضوع ببساطة كبير جداً وواضح جدا لدرجة أن المؤرخين يترددون فى تناوله ، ويفضلون العمل فى مشروعات أصغر حول حواف الغرفة حيث يشعرون بالراحة فى تخصصهم. وربما يكون مستحيلاً ، وربما يكون تهوراً وحماقة أن يحاولوا، بيد أن هذا الكتاب محاولة لوصف هذه المعضلة التاريخية ودراستها .

وفى عملى هذا أقف على أكتاف العمالقة . إذ إن هذا الكتاب ولا خجل يستغل ويأخذ من الأبحاث العلمية التى تمت فى العقود القليلة الماضية . ومع المخاطرة بأن أكون انتقائيًا بشكل غير ملائم ، يجب أن أبرز الكتب التالية ، الفتوح الإسلامية الباكرة لفريد دونر. Fred Donner, The Early Islamic Conquests ، والعراق بعد الفتح الإسلامى ، لمايك مورونى Mike Morony, Iraq after the Muslim Conquests ، وكتاب والتر كايجى Walter Kaegi عن التاريخ العسكرى، وكتاب ديك بوليير Dick Bullier عن التحول إلى الإسلام ، وما كتبه روبرت هويلاند Robert Hoyland عن آراء غير المسلمين فى الإسلام الباكر ، وعمل لارى كونراد Larry Conrad وتشيس روبنسون Chase Robinson فى مجال التدوين التاريخى. وقد اعتمدت أيضا على أعمال الأجيال القديمة من المؤرخين ، والتى لا تزال تحمل الكثير الذى تعلمه لنا – هاملتون جب وما كتبه عن الفتوح العربية فى وسط آسيا ، وڤاسيلى فلاديميروڤيتش عن تركستان ، وألفرد بتلر عن فتح العرب لمصر . وأدين أيضا لهؤلاء ، وغيرهم من الباحثين الأحياء منهم والأموات، بديون ستتجلى واضحة لأى واحد على ألفة بالمجال.

هذا كتاب تاريخ سردى، ويعتمد بشدة على المصادر السردية . وقد ناقشت طبيعة هذه القصص وتكوينها بقدر من الإطالة فى المدخل، ولكن ينبغى أن أقول كلمات قليلة عن كيفية تناولى لها . فالحكايات عن الفتوح الإسلامية الباكرة مثقلة بالارتباك

وعدم إمكانيتـها ، وغالبًا ما يكون من المسـتحيل قبولها على ما هـى عليه . وقد مال الباحثون حديثا إلى تناول هـذه الحكايات بطريقتين : إما رفضـها باعتبار أنها بلا قيمة يعـول عليـها لعدم دقـتـها ولاتسـتـحق اهتمـام المؤرخين الجـادين ؛ أو ينتقـون منهـا مـا يريدونه من التـفاصـيل ، والأسـمـاء والأمـاكن ومـا إلى ذلك. وقد حـاولت القـيـام بشىء مختلف اختلافًا يسيرًا: أن أقرأ القصص واستخدمها من أجل ما تحاول أن تخبرنا به؛ أن أعمل مع التيار وليس ضده ، أن أعتلى أمواج السرد لكى تحملنى مـعـها. ولايعنى هذا قبول الروايات العربية الباكرة باعتبـارهـا سجلات دقيقـة «لمـا حدث بالفعل» ، ولكن قبولها باعتبارها انعكاسات للذاكرة الاجتماعية الإسلامية فى القرنين السـابع والثامن الميلاديين واستخدامها كما هـى .

وثمة حالة خاصة فى الموضوع تتمثل فى استخدام الكلام المباشر . إذ إن الروايات العربية الباكرة مليئة بتسجيلات لمحادثات وقطع بلاغية وغالبا ما اقتسبتها فى الكلام المباشر . ولاينبغى أن نأخذ هـذا على أنه يعنى أننى أصدق أن هذه الكلمات قد قيلت فعلاً فى المناسبة التى يصفها الكتاب . وعلى أية حال ، فهناك أسباب قوية لاتخاذ هذه المقـاربة . ذلك أن الخطب غـالبًـا مـا تكون الوسيلة التى يتم بهـا عرض وجـهـات النظر المختلفة فـى المصادر بالتفصيل. فأوصـاف مجالس الحرب ، مثلاً ، تتيح للكاتب مناقشة الموضوعات والخيارات التى واجهت الجيوش الإسلامية ، لكى يبين لماذا فعلوا مـا فعلوا ولاستكشـاف الطرق التى لم يتم اتخاذها . والسبب الثانى هـو الرغبة فى بيان طبيعة المادة العربية وأن أكون صادقًا تجاهها، لاسيما بالنسبة للقراء الذين ليسوا على ألفة بهذا المجال، وأن أعطى نسيجًا وتنوعًا لما يمكن أن ينقلب إلى سرد ممل جاف .

هذا الكتاب مـحاولة لرواية قصة أحد أهم التـغيرات التى جرت فى تاريخ العـالم، وهو تغير أثرت نتائجه تـأثيرًا شـامـلاً فى العـالم الذى نعيش فيه اليوم. وقد حـاولت أن أجعله سهل القراءة ، بل مسليًا ، بالنسبة للطلاب والقارئ العام على السواء . ولاشك فى أن الباحثين سوف ينتجون فى المستقبل أعمالاً أكثر اكتمالاً ، وأكثر شمولاً ، وأكثر روعة ؛ ولكن إذا كـان هـذا العمل يثير تـأملات أوسع فى هذه الأحـداث الباقية فإنه يكون قد أوفى بالغرض منه.

المصطلحات والشروط

يهتم هذا الكتاب بفتح الأراضى الإسلامية المركزية على أيدى جيوش المسلمين فى القرن الذى أعقب وفاة النبى محمد سنة ٦٣٢م. ولكى أوضح الموضوعات فمن المهم أن أحدد بعض المصطلحات . «فالفتح» قد يبدو للوهلة الأولى مصطلحًا غير مثير للجدل، ينطوى على خضوع فريق ما لفريق آخر من خلال استخدام القوة العسكرية . وعلى أية حال ، فإن الأمور قد تكون أشد تعقيداً . وتستخدم المصادر العربية مصطلح «فتح» لوصف عملية الاستيلاء على أراضى الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية . وأصل الكلمة فى اللغة العربية من فعل «فتح»، ولكن الفتح فى الأدبيات التى تتحدث عن الفتوح الإسلامية ينطوى على استخدام القوة بشكل واضح . وكان يمكن أن يتخذ الفتح عدة أشكال مختلفة وهو ما حدث بالفعل . فمن ناحية يعنى النهب العنيف والوحشى لمدينة ما، وسلب ثروتها وإعدام الكثير من المدافعين عنها أو قتلهم جميعًا. ونهب اصطخر فى فارس أو بيكند فيما وراء النهر مثالان واضحان على هذا. ولكن الفتح غالبًا ما كان عملية أكثر سلمية . إذ كان على الناس فى الريف أن يوافقوا على الشروط المفروضة، التى كانت تضمن عادة دفع الجزية والوعد بعدم مساندة أعداء المسلمين. وكانت الموافقة تتم بسبب استخدام القوة، أو قبول السيادة . فالكثير من المناطق الجبلية الأشد وعورة فى إيران، وشمال أفريقيا، وإسبانيا لابد أن تكون قد «فتحت» دون أن يقوم أى عربى بزيارة المنطقة ، لأنهم لم يكونوا قد استقروا بعد بالقدر الذى يتيح لهم حكمها وجباية ضرائبها. لقد كان «الفتح» يعنى أشياء مختلفة لأناس مختلفين فى أماكن مختلفة فى أزمنة مختلفة.

الفتح ، والاستيطان واعتناق الإسلام

كانت الفتوح الإسلامية الباكرة تعنى فرض نخبة سياسية ودينية جديدة على الأراضى المفتوحة . وغالبًا ما كان الفتح متبوعًا بعملية استيطان تتم فيها إقامة أعداد من العرب، وكثير منهم من أصول بدوية ، إقامة دائمة فى الأراضى المفتوحة، وغالبًا فى

مدن جديدة تأسست خصيصًا لهذا الغرض. وبينما حدث الفتح والاستيطان بسرعة نسبيًا ، واكتمل فى الشرق الأوسط سنة ٦٥٠م بدرجة كبيرة ، كان اعتناق الشعوب الخاضعة للدين الإسلامى عملية بطيئة استغرقت وقتًا طويلاً ، ولم يحدث حتى القرن العاشر والقرن الحادى عشر أن تحولت غالبية السكان إلى الإسلام . ولم يستغرق الفتح والاستقرار سوى عقد واحد من الزمان؛ أما اعتناق الغالبية للدين الإسلامى فقد استغرق ثلاثمائة سنة.

العرب والمسلمون

يمكن تحديد مصطلح العرب بشكل مفيد وبسيط على أنه يعنى كل من كانت العربية لسانه. وفى سنة ٦٣٢م كان العرب يسكنون شبه الجزيرة العربية وصحراء الشام وأطرافها . وبينما كانت الفتوح تمضى قُدُمًا صار المزيد من الناس من الناطقين باللغة العربية ، كما أن كثيراً من الناس الذين لم تكن تجرى فى عروقهم «دماء عربية» صاروا من المتحدثين بالعربية باعتبارها لغتهم الأصلية. وفى كثير من المناطق التى جرت فيها عملية الامتزاج بين الفاتحين والمقهورين بسرعة أكبر من غيرها ، كانت الفروق بين العرب وغير العرب قد باتت غير واضحة مع نهاية القرن الهجرى الأول.

فى سنة ٦٣٢م كان جميع المسلمين تقريبًا من العرب، وفى السنوات الأولى من الفتوح يمكن أن نستخدم مصطلح عرب ومصطلح مسلمون بالتبادل لوصف جيوش الفتح . وعندما نتحرك صوب أواخر القرن السابع وبواكير القرن الثامن الميلاديين، سيكون مثل هذا الاستخدام مضللاً على أية حال . ولم يكن العرب يشكلون سوى نسبة من الجيوش المسلمة التى فتحت شمال أفريقيا وإسبانيا وأسيا الوسطى، ولم تكن العروبة هى التى حددت تعريف هذه الجيوش، حتى لو كان القادة عربًا وكانت لغة القيادة والإدارة اللغة العربية ، ولكن هويتها باعتبارها جيوش الإسلام؛ أى أن الهوية الدينية حلت محل الهوية العرقية.

وإذا لم يكن كل المسلمين عربًا ، فإن العرب لم يكونوا كلهم مسلمين أيضًا . فقبل ظهور الإسلام ، كان عدد كبير من العرب قد اعتنقوا المسيحية ، لاسيما فى تلك المناطق من صحراء الشام التى كانت حدودها مشتركة مع الأراضى البيزنطية . وقد احتفظ بعضهم بديانتهم المسيحية بعد الفتوح ، وكان وضعهم بمثابة مشكلة أمام المشرعين المسلمين فى القرن الثامن الميلادى : هل ينبغى معاملتهم معاملة الشعب الخاضع ويدفعون ضريبة الرأس الكريهة أم يجب معاملتهم مثل العرب المسلمين ؟ فى بعض الحالات تم التوصل إلى حل وسط حيث كانوا يدفعون الزكاة فحسب، ولكن بمعدل يبلغ ضعف ما يدفعه أقرانهم المسلمون.

الرومان والبيزنطيون

اعتاد المؤرخون الحديث عن الامبراطورية البيزنطية عندما يصفون الإمبراطورية الرومانية الشرقية . وهو مصطلح كاف لتعريف الامبراطورية المسيحية والناطقة باليونانية فى القرنين السابع والثامن. وهو أيضا لايمت بصلة للغة التى كان الناس يتحدثون بها فى ذلك الوقت. فلم يحدث أنهم فى ذلك الوقت أو فى أى زمن آخر وصفوا أنفسهم فى الحياة العادية بأنهم «بيزنطيون». كانوا أنفسهم يعرفون أنهم رومان وكانوا يسمون أنفسهم هكذا ، على الرغم من أنهم استخدموا المصطلح اليونانى Romaioi . كما أن خصومهم المسلمين عرفوهم باسم «الروم»، أو الرومان ، فغالبًا ما كان هذا المصطلح يمتد ليشمل السكان المسيحيين اللاتين فى شمال أفريقيا وإسبانيا. وعلى الرغم من انتهاك لغة المصادر ، فإننى تقبلت الاستخدام البحثى لهذا المصطلح بقدر من التردد للإشارة إلى البيزنطيين والإمبراطورية البيزنطية بأسرها.

الخراج والجزية

كان الفاتحون العرب يطلبون على الدوام من الناس الذين قهروهم دفع مبالغ نقدية. وفى القرون اللاحقة، تم تقسيم هذه الضريبة العامة على أيدى الفقهاء المسلمين إلى فئتين متمايزتين، الخراج أو ضريبة الأرض والجزية أو ضريبة الرأس التى لايدفعها سوى غير المسلمين. وفى زمن الفتوح ، على أية حال، كانت أشد غموضًا، واستخدم مصطلح «الجزية» لوصف أى نوع من الضريبة أو الإتاوة .

الكنائس المسيحية

فى زمن الفتوح الإسلامية كانت هناك خمس كنائس كبرى أو طوائف مسيحية فى الشرق الأوسط، وكل منها تدعى أنها الكنيسة أو الطائفة «القويمة» . ففى شمال أفريقيا وإسبانيا كانت الكنيسة لاتينية اللغة تتوجه صوب روما بدلاً من القسطنطينية طلبًا للقيادة والسلطة المذهبية. ولم يكن هناك انقسام بين هذه الكنيسة والكنيسة الأرثوذكسية اليونانية ، وهو ما حدث فى وقت لاحق ، وإنما كانت هناك ثقافة كنسية مختلفة . ثم وجدت الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية الملكانية التى كانت عادة ما تتمتع بمساندة الحكومة الإمبراطورية فى القسطنطينية . وكانت هذه الكنيسة معروفة أيضا باسم الكنيسة الخلقدونية لأنها التزمت بالعقائد التى حددها مجمع خلقدونية فى سنة ٤٥١م حول طبيعة المسيح، وكنيسة الطبيعتين لأنها آمنت بوجود طبيعتين ، ناسوتية ولاهوتية ، فى شخص المسيح. وفى داخل الإمبراطورية الشرقية كانت المعارضة الرئيسية لهذه الكنيسة الراسخة تأتى من جانب الجماعات اليعقوبية التى تؤمن بالطبيعة الواحدة التى لايمكن تقسيمها للمسيح فى بلاد الشام ، ومن جانب الأقباط المؤمنين بالطبيعة الواحدة فى مصر . وكانوا يعرفون فى بلاد الشام باسم اليعاقبة نسبة إلى يعقوب البراذعى (مات سنة ٥٢١م) الذى كان هو المؤسس الفعلى للإكليروس

المونوفيزيتى المنفصل . أما الكنيسة النسطورية ، التى أخذت اسمها عن مؤسسها نسطوريوس (مات حوالى سنة ٤٥١م) الذى كان بطريرك القسطنطينية قبل أن يُخلع من منصبه بتهمة الهرطقة ، وكان معارضاً لكل من أصحاب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيت) وأصحاب مذهب الطبيعتين. وقد أدى الاضطهاد إلى استئصال الكنيسة النسطورية إلى حد كبير من الأراضى البيزنطية ولكنها استمرت مزدهرة فى أراضى الإمبراطورية الفارسية، لاسيما فى العراق، حيث كان النساطرة يشكلون أغلبية السكان . وأخيراً كانت هناك الطائفة المونوثيليتية التى ساندها الإمبراطور هرقل وحكومته . وهناك قصة اسكتلندية قديمة عن الغريب الذى يقترب من بلدة صغيرة ويسأل أحد الأهالى عن عدد الكنائس التى بها، لأن اسكتلندة كان بها عدة طوائف مختلفة على غرار ما كان فى الشرق الأوسط أواخر العصور القديمة . ويجيب الرجل «حسناً ، كان المعتاد أن توجد كنيستان ثم كان لدينا اتحاد ولذلك لدينا الآن ثلاث كنائس» . وهذا أساساً ما حدث فى عهد الإمبراطور هرقل . ففى محاولة لسد الفجوة المدمرة بين الكنيسة المونوفيزيتية والكنيسة الديوفيزيتية حول طبيعة التجسد ، توصل هرقل ومستشاروه اللاهوتيون إلى حل وسط ذكى فى صيغة أسموها المونوثيليتية . وكان حتماً ألا ترضى هذه الصيغة أياً من الجانبين ، كما أن محاولاته لفرض هذا المذهب الجديد بالقوة فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا أسفرت عن المزيد من السخط.

الهوامش وقائمة المصادر والمراجع

لقد اقتصدت فى استخدام الهوامش فى هذا الكتاب لكى أتجنب تحميل النص عبئاً زائداً من الأدوات البحثية . وقنعت بالإشارة إلى المصادر الرئيسية المستخدمة ، وأصول الاقتباسات المباشرة ، وأكثر الأدبيات الثانوية ارتباطاً بالموضوع . وفى حالة المصدرين الأولين اللذين اعتمدت عليهما أكثر من غيرهما ؛ تاريخ الرُسل والملوك للطبرى وفتوح البلدان للبلاذرى، أشرت إلى طبعتى ليدن الأصليتين. وسوف يجد القراء الذين يريدون الرجوع إلى الترجمات الإنجليزية إشارات إلى الطبعات فى هوامش النصوص المترجمة.

وقائمة المصادر والمراجع محددة بالطريقة نفسها . ذلك أن قائمة كاملة، تضم كل ما كتب عن أواخر العصر القديم وبداية الإسلام ، لابد أن تصل إلى آلاف العناوين . وقد كان غرضى أن ألزم نفسى فى حدود الكتب التى أفدت منها أفضل فائدة وتلك التى أعتبرها أكثر اتصالاً بالموضوع وأيسر للقارئ الذى يريد المزيد من استكشاف الموضوع فى الوصول إليها .

ملاحظة عن الترجمة والأسماء

هناك الآن معيار قياسى وطرق مقبولة لترجمة الحروف العربية فى خط وكتابة لاتينية . ولم اتخذ أيًا من هذه الطرق برمتها. فبالنسبة لغير المتخصص فى العربية ليس من المفيد تمامًا أن يكون قادرًا على التمييز بين نمطين من حروف (b,s,t) . وعلى أية حال ، سوف يدرك القراء العارفون بالعربية هذا الأمر. ففى اللغة العربية توجد حروف حركة طويلة وحروف حركة قصيرة على السواء وقد بينت هذه فى معظم الحالات . ولايبدو لى أن من المفيد معرفة أن اسم فاتح الشام العظيم خالد بن الوليد، مثلاً ، يمكن نطقه بعدة طرق فى اللغة الإنجليزية(*).

وتأتى الأسماء العربية من تنويعة من الموروثات المختلفة. إذ يرجع بعضها أصلاً إلى الكتاب المقدس: إبراهيم Abraham ، وإسحق هو Isaac، ويوسف هو Joseph وموسى هو Moses ويحيى هو John . وبعض الأسماء مثل عمر ، وعمرو ، وعثمان ، وعلى أسماء عربية خالصة بدون أى مضامين دينية. وكانت هناك أيضا أسماء تصف الشخص بأنه عبدالله أو «عبد» نسبة إلى أى اسم من أسماء الله الحسنى مثل عبدالملك، وعبد الرحمن.

(*) قام وليام الفاتح ، النورمانى بغزو إنجلترا سنة ١٠٦٦م بعد أن انتصر فى معركة هاستنجز على الأنجلو – سكسون. وقد كان الغزاة قادمين من إقليم نورماندى الفرنسى وأبدوا احتقارًا تامًا لكافة وجوه الثقافة الأنجلو – سكسونية . (المترجم)

وكان الرجال يُنسبون فى تسمياتهم إلى آبائهم مثل ابن فلان. كما نجد رجالاً يسمون ابن أبى فلان. أما النساء فكانت الواحدة منهن تعرف ببنت فلان، أو الأكثر شيوعًا أم فلان. وفى أيام الإسلام الأولى كان معظم العرب يحملون أيضا أسماء قبلية أو نسبة مثل «التميمى» أو «الأزدى» (من قبيلة تميم أو من قبائل الأزد) .

وتطرح تهجئة أسماء الأماكن مشكلات من نوع مختلف . وعلى العموم فقد استخدمت الأسماء الإنجليزية التقليدية حيثما توجد مثل Damascus بدلاً من دمشق و Aleppo بدلا من حلب الخ . وفى الأسماء مثل أذربيجان ، التى يوجد لها مقابل حديث، فقد فضلت الصيغ التى استخدمها Times Atlas of the World . وفى حالة الأسماء العربية الأقدم والأكثر غموضًا ، اليرموك أو القادسية مثلا، ترجمت الاسم العربى مستخدمًا التهجئة التى وردت فى معجم ياقوت الجغرافى ، الذى يرجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى السابع الهجرى ، والموسوم بـ «معجم البلدان» .

العملات

تؤكد سرديات الفتوح تأكيدًا كبيرًا على تقسيم الأموال ودفع الضرائب . ففى البداية استخدم المسلمون العملات التى كانت رائجة فى المناطق التى فتحوها ، أى الدرهم الفضى الساسانى (الدراخمة) والمعروف فى العربية باسم الدرهم . وكان الدرهم عملة فضية رقيقة تزيد قليلاً فى قطرها على سنتيمترين ووزنها حوالى ثلاثة جرامات . وقد بدأ المسلمون فى سك هذه الدراهم، أولاً حسب نماذج من النظائر الساسانية المضروبة ، مع بداية ستينيات القرن السابع الميلادى. وكان الدينار الذهبى أكثر قيمة ، وهو عملة صغيرة قطرها حوالى سنتيميتر واحد على أساس النوميسما البيزنطية ، وبدأ ضربها فى أثناء خلافة عبدالملك (٦٨٥-٧٠٥م) ومنذ ذلك الوقت، كانت جميع العملات الإسلامية تحمل كتابات خالصة، وتحمل نقوشًا عربية مكتوبة ولا تحمل صورًا . وفى شمال أفريقيا وإسبانيا كانت بعض العملات الإسلامية الباكرة تحمل صيغًا إسلامية مترجمة إلى اللاتينية .

الهـــوامش

(١) See S. Brock,'North Mesopotamia in the late seventh century: Book XV" of John Bar Penkaye's Ris Melle" Jerusalem Studies in Arabic and Islam 9 (1987); 51-75.

تصـــدير

ذكـرى أشـيـاء مـاضـيـة

يقوم فـهمنا للفتوح العربية التى جرت فى القرنين السـابع والثامن الميلاديين الأول والثانى الهجريين على أساس من المصـادر المكتوبة ، وإلى حد ما، على المصادر الأثرية. وللوهلة الأولى تبدو هذه المصادر وافرة؛ إذ إن عدداً هائلاً من صفحات المؤرخات العربية تصف هذه الانتصـارات بتفـصيل يفيض بالحب والإعجاب . أمـا الناس المقـهورون ، ولاسيما الأكليروس المسيحى من جميع الطوائف، فقد شاركوا فى رؤية مختلفة ، على حين أن أغلب الأدلة الأثرية، خاصة فى أراضى شرق المتوسط، تقدم لنا رؤية أخرى ثالثة. وعند الدراسـة المتـأنية الدقيـقة ، على أية حـال ، لايكون أى من هذه المصـادر واضـحاً أو سـهل الاستـخدام كما يبدو للوهلة الأولى: إذ إنهـا جميـعاً ينبـغى تمحيصها واستـخدامها بـحذر ، وعلى الرغم من طول السرديات ، فـهناك جوانب عديدة فى الفتوح لا نملك بالفعل أية معلومات عنها على الإطلاق.

وكل بحث تاريخى يتـشكل بالضـرورة بطبـيـعة المادة المصـدرية التى قـام على أسـاسـها. ومن ناحية فإن هذه مسألة تتعلق بالقدرة على الثقة بهذه المصـادر أو «هل يمكننا أن نصدق مـا نقرأ؟» وهى فى أبسط أشكالها مسـألة السؤال عمن كتبوا نصـًا مـا، ومـا أرادوا توصيله ومـا إذا كانوا منحـازين لجانب أو آخر . وعلى أية حـال، فإن الطرق التى تحـدد بها المصـادر البـحث؛ تمضى أبعد كثـيراً مما تذهب إليه اعتـبارات الثقـة بالمصادر والانحـياز إلى فريق مـا . وتحسم مصـالح المؤلفين وجامـعى الروايات التاريخيـة نوعية الأسئلة التى يمكننا طرحها . فـعلى سـبيل المثال، نحن فى بحثنا عن

الفتوح العربية يمكن أن نسأل ما المعارك التى تم خوضها ومن الذين شاركوا فيها. وإذا ما رغبنا فى النظر بمزيد من التفاصيل فى وجه المعركة لماذا انتصر جانب على حين لقى الهزيمة الجانب الآخر ، سنجد أنفسنا فى مواجهة حائط من الجهل لأن الكُتاب الذين نعتمد عليهم ، لم يكونوا ببساطة مهتمين بمتابعة هذه المسائل . إن مستوى المناقشة ومساحتها تتحدد على أيدى الكتاب القدامى، وهناك طرق كثيرة لايمكن ببساطة أن نسير فيها . فليس ممكنًا أن نكتب تاريخًا عن الفتوح حافلاً بتلك الخرائط الدقيقة للمعارك ، والتى يحبها معظم مؤرخى الشئون الحربية ، وفيها تظهر فيالق الجنود المشاة بشكل واضح فى مربعات سوداء مع أسهم داكنة «تبين كيف كان الفرسان يناورون حولهم». وإذا لم يكن هذا الكتاب يناقش الكثير من الأسئلة التى يتناولها التاريخ العسكرى عادة - مثل الإمداد والتموين - فليس سبب هذا أن هذه الموضوعات غير ممتعة ، وإنما لأنه لا تتوفر لدينا معلومات يمكن أن تساعدنا فى الإجابة على هذه الأسئلة. كما أن فهم مجال الوثائق وأوجه قصورها أمر حاسم وضرورى لفهم نقاط القوة ونقاط الضعف فى دراستى عن الفتوح العربية.

لقد أثرت الفتوح العربية فى الشرق الأوسط بشكل مباشر فى حياة ملايين الناس ، والكثير منهم متعلمون ، فى جزء من العالم كانت فيه ثقافة الكتابة قد تطورت على مدى آلاف السنين. بيد أن القلائل منهم هم الذين فكروا أن يسجلوا ما كانوا قد شهدوه وعاينوا تجربته. وعدد الروايات المعاصرة عن هذه العقود الحاسمة ، من ثلاثينيات القرن السابع الميلادى حتى أربعينيات القرن نفسه، يمكن أن تعد على أصابع اليد الواحدة ؛ بل إن الروايات التى لدينا عبارة عن شذرات خفيفة للغاية.

ولايعنى غياب روايات شهود العيان أننا لانملك أدلة تاريخية عما جرى فى هذه العقود الخطيرة على الإطلاق . وعلى العكس ، لدينا عددٌ هائل من الحكايات التى تخبرنا بفحوى ما حدث . وتتمثل المشكلة بالنسبة للمؤرخ فى أنها تروى فى سياق قصصى ، دونما استمرارية، وكثيرا ما تتناقض مع بعضها البعض - بل إنها تتناقض مع نفسها أحيانًا. وغالبًا ما يكون من المستحيل معرفة ما ينبغى أن نصدقه ونقبله

باعتباره رواية دقيقة معقولة عن الأحداث التى وقعت حقًا . وما يهمنا أكثر ، على أية حال ، هو ما تقدمه هذه الروايات فى ضوء مواقف الجماعات المختلفة وذكرياتها واحتفائها بما جرى.

كان الشرق الأوسط الذى فتحه المسلمون فى تلك العقود الباكرة مجتمعًا متعدد الثقافات، وعالمًا تعايشت فى رحابه لغات وديانات مختلفة فوق المساحة الجغرافية نفسها . وبعد نجاح الفتوح ، صارت العربية لغة النخبة الجديدة. وعلى كل حال ، فإنه حتى بالنسبة للحكومة استمرت استخدام لغة الإدارة الموجودة - اليونانية فى بلاد الشام ومصر ، والفارسية الوسطى (الفهلوية) فى العراق وإيران، واللاتينية فى إسبانيا - فى شئون الأعمال والحكم. وبعد جيلين، بدأ هذا الأمر يتغـــير . فحوالى سنة ٧٠٠م، أى بعد ستين سنة أو أكثر من الفتوح الأولى، أعلن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥م) أن اللغة العربية وحدها هى التى سوف تستخدم فى الإدارة . ولاغرو أن المرسوم كان فعًالاً . ومنذ هذا الوقت ، كان كل من يريد وظيفة فى الجهاز الإدارى المتوسع فى الدولة الإسلامية، سواء كان من العرب أو من غير العرب من حيث نسبه وتربيته ، مضطرًا إلى تعلم اللغة العربية كتابة وقراءة . وكانت النقوش على العملات الجديدة الخالية من الصور والعلامات الإرشادية على جوانب الطرق مكتوبة كلها باللغة العربية. ولم يكن هناك دافع لدى الناس لكى يتعلموا اليونانية أو الفهلوية لأنهما لاتوفران أى فرص عمل لهم. وكان فى ذلك الوقت تقريبًا ، فى مطلع القرن الثامن الميلادى، أن بدأ جمع الموروثات العربية عن الفتوح وتدوينها.

لقد ألهمت الأحداث الخطيرة التى جرت فى القرنين السابع والثامن الميلاديين تراثًا ممتدًا باللغة العربية ، زعم أنه يصف ما كان قد حدث آنذاك. بيد أن الذكريات والحكايات عن الفتح الإسلامى كانت أكثر من التسجيلات التى سجلت «الأشياء التى طواها النسيان طويلاً والمعارك التى وقعت منذ زمن بعيد» . لقد كانت الأساطير المؤسسة للفتوح فى المجتمع المسلم بالمنطقة هى التى ولَّدتها هـذه الذكريات وحكايات الفتح . وقد تطورت لأنها ساعدت فى تفسير كيفية قدوم الإسلام إلى البلاد وتبرير هزيمة النخب السابقة واستبدالها. ولاتتعامل هذه الروايات مع الأعراق أى مولد الناس وأصولهم،

مثلما كان المؤرخون اللاتين فى العصور الوسطى الباكرة بالغرب يفعلون ، ولكنها كانت تتناول مولد المجتمع الإسلامى. فقد حفظت أسماء الأبطال الذين كانوا قد تولوا قيادة جيوش الفتح وكانوا هم الآباء المؤسسين للدولة الإسلامية فى منطقتهم ؛ وأسماء صحابة النبى، أى الرجال الذين كانوا قد سمعوا من محمد عليه الصلاة والسلام وارتبطوا مباشرة بشخصيته الفذة ومهابته ؛ وأسماء الخلفاء الذين كانوا قد وجهوا الجيوش الإسلامية صوب وجهاتها .

إن هذه الروايات توفر المعلومات عن ما جريات الأحداث ، كما أنها تكشف بشكل مثير عن كيفية ورودها إلى الذاكرة ، وماهية رؤيتها لبدايات المجتمع الذى عاشوا فى رحابه . وإذا ما نظرنا إليها على أنها شكل من أشكال الذاكرة الاجتماعية، فإننا يمكن أن نرى التشوش والأساطير التى تبدو للوهلة الأولى عقبة فى سبيل فهمنا باعتبارها انعكاساً للمواقف والقيم التى كانت سائدة فى هذا المجتمع المسلم الباكر.

كانت هذه الروايات بالشكل الذى وصلتنا به قد جرى تحريرها فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع للهجرة) ؛ أى فترة ما بين ١٥٠ سنة و ٢٥٠ سنة بعد الأحداث. والحكايات العربية عن الفتوح نادراً ما تكون حكايات بسيطة كتبها مؤلف واحد تحكى حكاية مباشرة عن الأحداث . فهى تآليف متعددة الطبقات مرت من خلال مراحل مختلفة من التحرير والزيادة لأغراض مختلفة فى أوقات مختلفة. وفى مخاطرة بالتبسيط المخل لعملية معقدة ، نرجح أن الحكايات قد مرت بثلاث مراحل من التطور. كانت أولاها النقل الشفاهى للقصص التراثية عن الأعمال البطولية فى المعارك . وغالباً ما كانت مثل هذه الموروثات محفوظة داخل القبائل وجماعات القرابة أو فيما بين المسلمين الذين استقروا فى مناطق بعينها ، وربما يكونوا قد حفظوا هذه الذكريات مثلما كانت لدى أسلافهم روايات أثيرة عن المعارك التى خاضوها قبل الإسلام . ولاشك فى أن التقليد القديم بتسجيل الانتصارات والمآسى فى حروب ما قبل الإسلام قد تركت تأثيرها على الطريقة التى تم بها تذكر معارك الفتوح الإسلامية الباكرة. وكانوا مثل أسلافهم وجدودهم فى الجاهلية قبل ظهور الإسلام ، ينظمون القصائد. والأغانى ويحفظونها احتفاءً بالأعمال البطولية . وتماماً مثل هذه الموضوعات القديمة

التقليدية ، كان بوسع المسلمين أن يتذكروا انتصاراتهم باعتبارها برهانًا قاطعًا على أن الله كان معهم ، إذْ كان موت أعدائهم والكميات الهائلة من الغنائم والأسلاب دليلاً على المؤازرة الإلهية : ولم يكن بوسع أحد أن يتساءل عن جوهر الصواب فيما قاموا به. كما أنهم احتفظوا بالروايات ، وزادوا فيها، بل واختلقوها لخدمة أغراض جديدة ، ولتبرير مزاعم الحق فى الحصول على الرواتب، أو حقوق التمتع بعمليات فرض الضرائب . فالرجال الذين استطاعوا البرهنة على أن أسلافهم قد شاركوا فى الفتوح الباكرة كانوا يشعرون بأن من حقهم الحصول على رواتب من بيت المال؛ أما سكان المدن فربما كانوا يأملون فى تخفيف الضرائب عنهم لأنهم قد استسلموا صلحًا للجيوش المسلمة. وباختصار ، فقد تم حفظ قصص الفتوح ، ليس بسبب الاهتمام بإنتاج سرد تاريخي واضح ، ولكن لأنه كان هناك شعور بأن ذلك أمر مفيد . ومن ثم ، فإن المادة التى لم تكن مفيدة ، مثل التاريخ التتابعى المضبوط للأحداث ، كانت تلقى فى زوايا النسيان.

كانت المرحلة التالية هى جمع هذه المادة الشفاهية وتدوينها. وليس من السهل أن نقول متى حدث هذا بالضبط لأن اللغة العربية ، مثل اللغة الإنجليزية، تستخدم تعبيرات مثل «يقول فى كتابه»، وهو ما يعنى أن أفعال القول يمكن أن تكون فى حقيقتها إشارة إلى الكتابة، ولكن من المؤكد أن العملية بدأت فى أثناء القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى. ويبدو أن هذه المجموعات كانت قد جمعت لأسباب قديمة، لكى تحفظ سجل السنوات الأولى من الحكم الإسلامى فى العراق أو مصر عندما كانت الذكريات آخذة فى الشحوب والتلاشى . وكان ثمة خطر بأن يضيع الكثير من هذه القصة المهمة فى غياهب النسيان. وقد باتت الاعتبارات العملية التى أدت إلى حفظ هذا التراث غير ذات موضوع آنذاك، ولكن هذه المجموعات التى جمعها هؤلاء المؤلفون طبعا قد عكست بالضرورة أغراض الإخباريين الأوائل .

وقد شهد القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلاديان / الثالث والرابع الهجريان انفجاراً فى الكتابة وإنتاج الكتب ذلك أن إنتاج الورق الذى حل محل الرق (جلد الحيوان المجفف) باعتباره مادة الكتابة الرئيسية[1] كان يعنى أن الكتابة صارت

أسرع وأرخص . وزادت الكتابة التاريخية ضمن هذا السياق، مما عكس طلبا متزايداً على المعلومات التاريخية ، سواء فى دوائر البلاط والخلفاء أو فى المجتمع المتعلم الأوسع فى بغداد وبقية العراق. وفى بغداد حيث وجدت صناعة كتب حقيقية ، صار من الممكن كسب العيش من الكتابة لجمهور أوسع ، وليس فقط من أجل راعى ثرى . وصارت المعرفة نوعًا من المهنة ، بمعنى أن الإنسان كان يمكنه أن يرتزق منها .

فإذا ما كنت تعرف تاريخك ، بحيث تصير حجة فيه، كان يمكن أن يؤدى ذلك بك إلى التعيين فى إحدى وظائف البلاط. ويبدو أن المؤرخ البلاذرى الذى يعد كتابه «فتوح البلدان» أحد المصادر الرئيسية التى نعتمد عليها ، كان واحداً من الندماء فى البلاط العباسى. وكان من المتوقع أن يكون كل نديم صاحب معرفة ، أو خبرة ، أو موهبة تجعله ينضم إلى البلاط: إذ كان بعضهم شعراء ، وبعضهم من العارفين بالطرائف أو المفردات العربية غير المعتادة أو خصائص المناطق الجغرافية المختلفة. ولاشك فى أن البلاذرى كان يدين بموقعه إلى حقيقة أنه كان يعرف الكثير جداً عن الفتوح وغيرها من موضوعات التاريخ الإسلامى الباكر، لأنه كان حجة أيضا فى أنساب القبائل العربية القديمة. وكان هذا كله من أسباب شهرته على الرغم من حقيقة أنه لم يكن سليل عائلة مهمة ولم يكن سليل أحد ممن أسهموا فى الفتوح . وكان أعظم هؤلاء المؤرخين الطبرى (ت ٩٢٣م) كان فارسيًا من عائلة من ملاك الأراضى فى المنطقة الواقعة على امتداد السواحل الجنوبية لبحر قزوين . وقد أمضى معظم سنى حياته الناضجة فى بغداد وأصبح حجة وعالماً كبيراً فى موضوعين من أهم موضوعات التعليم الإسلامى ، تفسير القرآن وتاريخ الإسلام. ويبدو أنه قد عاش حياة تبتل هادئة ، يعيش على موارد ممتلكات عائلته ، التى كان يجلبها له الحجاج القادمون من موطنه عند مرورهم ببغداد فى طريقهم إلى مكة والمدينة. وجعل همه أن يجمع أكبر قدر ممكن من كتابات السابقين ويحررها فى مؤرخة واحدة كبيرة. كما أنه حاول بقدر كبير من النجاح، أن ينظمها . وقد اتخذ إطاراً حولياً تم فيه تسجيل كل سنة حسب توالى السنين . ولم يكن أول كاتب عربى يستخدم هذا المنهج، الذى يمكن بدوره أن ننسبه إلى التراث اليونانى فى كتابة المؤرخات وفق الترتيب الزمنى، بيد أنه لايوجد أحد سواه كان قد استخدمه لكى يقدم

مثل هذا الكم الهائل من المعلومات . وبطرق عديدة ، فإن كتابه جعل المنشورات الفردية التى نشرها أسلافه عديمة الجدوى ، والحقيقة أن الروايات التاريخية اللاحقة عن العالم الإسلامى الباكر عامة، وتاريخ الفتوح الإسلامية على وجه خاص، كانت قائمة على أساس كتابه العظيم.

وتتخذ كثير من المادة التى نجدها فى هذه الروايات العربية الباكرة عن الفتوح ، شكل القصص الحية عن الأحداث . وهى ليست مروية فى نثر متواصل ، مثلما قد يقدمها المؤرخون المحدثون ، وإنما فى حكايات قصيرة تعرف فى اللغة العربية باسم «الأخبار» (ومفردها خبر) ولم يبذل الطبرى وغيره من مؤرخى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع للهجرة) أى جهد لتنظيم هذه الصيغة وإنتاج رواية طولية واحدة. وكل «خبر» من هذه الأخبار عبارة عن رواية متكاملة بحد ذاتها ومتمايزة عن غيرها ، وفى بعض الأحيان لايزيد طولها على بضعة أسطر، وفى بعض الأحيان تصل إلى ثلاث أو أربع صفحات ، ولكنها نادرًا ما تزيد على ذلك. وغالبًا ما يتم تجميع الحكايات المتنوعة معًا ، لتناقش الحادث نفسه ، أو أحداث مشابهة ومماثلة، ولكن التفاصيل متغيرة : وتحدث الأحداث فى سياقات مختلفة ؛ فثمة أناس مختلفون تُنسب إليهم الأعمال البطولية نفسها؛ وأسماء قادة الجيوش العربية فى المعارك الكبرى للفتوح ليست هى هى فى هذه الروايات. وعادة ما كان مؤرخو(*) القرنين التاسع والعاشر الميلاديين يتجنبون إصدار أحكام حول صحة أى من هذه الروايات. وهم يسببون الإحباط بسبب عدم حسمهم فى هذا التناول ، وغالبا ما يبدو أنهم يقدمون ببساطة كل الأدلة ويدعون ضمنا إلى أن يقرر القارئ ما يراه .

وفى حالات كثيرة يعلن المؤرخون عن مصادرهم ببعض التفصيل عن طريق الإسناد ، «حدثنى فلان نقلاً عن فلان عن فلان الذى كان شاهد عيان» . وكانت هذه

(*) استخدم المؤلف كلمة editors للحديث عن المؤرخين المسلمين فى القرنين الثالث والرابع للهجرة / التاسع والعاشر الميلاديين . وهو هنا يستند إلى حقيقة أنهم جمعوا التراث التاريخى (الشفوى والمكتوب) الذى كان متاحًا عن الفتوح الإسلامية الباكرة ووضعوه فى كتبهم. وقد استخدمت كلمة «المؤرخين» فى الترجمة حتى لايواجه القارئ العربى ما قد يؤدى إلى الارتباك بسبب اختلاف المصطلح. (المترجم)

الوسيلة حقًا المعادل للهوامش فى الكتابة الأكاديمية الحديثة ، فى النقل عن المصادر الشهيرة . وكان المقصود من هذا الإسناد البرهنة على أن المادة أصلية ، ولكى يتم عمل هذا كان من المهم أن تكون كل الأسماء فى القائمة من الرجال (وأحيانا من النساء) المشهود لهم بالعدل والذين لايبدو أنهم من نوعية الناس الذين يمكن أن ينزلقوا إلى تلفيق الأمور . وكان من المهم أيضًا إظهار أن الناس فى سلسلة الإسناد قد عاشوا فى الأزمنة الصحيحة، بحيث كان يمكن لهم أن ينقلوا هذه المعلومات إلى الجيل التالى . وبحلول القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى كان قد تطور نظام أكاديمى كامل، وأنتج عددًا كبيرًا من كتب التراجم والوفيات ، يمكن للمرء أن ينظر فيها بحثًا عن التفاصيل المتعلقة بجميع الأفراد فى سلسلة الإسناد لكى يتحقق من صدقهم.

وسوف يلاحظ المحدثون على الفور أن هناك بعض المشكلات الواضحة فى هذا الإجراء ؛ لأنه يقدم طرقًا قليلة للتأكد من صدق المادة التاريخية، وهى مشكلات كان الناس فى ذلك الزمان على وعى تام بها . وكان من الواضح أن هناك كمًا من المادة المصطنعة حول هذه الأحداث منتشرة ورائجة ، ولكن المؤرخين فى القرنين الثالث والرابع للهجرة / التاسع والعاشر للميلاد، كانوا يواجهون بالضبط نوعية المشكلات نفسها التى تواجهنا فى محاولة فرز الحقيقة من طيات الأمور التى كانت اختراعًا خالصًا .

لقد كان كُتّاب حكايات الفتوح الأصلية والمؤرخون يهتمون للغاية بأنواع معينة من المعلومات، ولايلقون بالاً لمعلومات أخرى على نحو يبعث على الضيق . ففى ثنايا رواياتهم الكثير من الخطب النصيَّة التى يفترض أن رجالاً عظماء قد ألقوها قبل نشوب المعارك، غالبًا . وهذه الخطب تذكرنا بالخطب التى وضعت على ألسنة القادة الإغريق والبيزنطيين بأقلام الكُتّاب الكلاسيكيين فى الموقف نفسه . وعلى أية حال، تتضمن الروايات العربية غالبًا عدة خطب ألقاها مشاركون متنوعون ضمن أعمال ما يُقدم لنا على أنه مجلس حرب: كما تعطى المصادر العربية صورة لعملية اتخاذ القرار العسكرى تبدو وقد حظيت بموافقة جماعية أو كانت محل جدل كبير . ومن الواضح ، فى غياب وسائل التسجيل الحديثة ، أن من المحتمل ألاّ تكون هذه الخطب تسجيلاً حقيقيًا لما قيل . ومن ناحية أخرى، فمن المؤكد أن هناك وثائق أصلية من القرن الثانى الهجرى /

الثامن الميلادى وأوائل الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى ، وربما كانت هناك وثائق ترجع للقرن الهجرى الأول / السابع الميلادى . ولابد أنها تعكس مواقف المسلمين فى الأوقات التى شهدت هذه الأحداث ؛ وليس بوسع المؤرخ أن يستبعدها ببساطة .

وثمة خاصية أخرى فى هذه الحكايات ، تتمثل فى الهوس بمعرفة المشاركين فى الفتوح الإسلامية بأسمائهم. وبطبيعة الحال، لاينطبق هذا سوى على المشاركين من العرب المسلمين؛ وتقدم لنا المصادر العربية الإسلامية صياغات عربية لأسماء أهم قادة جيوش أعدائهم، ولكنها تتعامل مع هذه الجيوش وكأنها جمهرة من الأسماء المجهولة ، ويتم إعدادقوائم الأسماء العربية بعناية ودقة دافعها الحب ، ومتعة علمية حقة فى تعريف الرجال ، والقبائل التى جاءوا منها والمجموعات التى حاربوا فيها . والمشكلة التى تواجه المؤرخ هى أن هذه القوائم كثيراً ما تتناقض كل منها مع الأخرى. وعلاوة على ذلك، فإن هناك بعض الأمثلة تبدو فيها صيغ أخرى للقصة قد وصلت إلى المزيد من الأسماء أكثر مما توصلت إليه الأمثلة الأسبق زمنيًا . وهذا أمر يثير شكوكًا عميقة بالنسبة للحساسيات التاريخية الحديثة. ويبدو أن الحكايات تزداد تفاصيلها وتنمو مع انتقالها من جيل لآخر يليه . ومن الواضح أن بعض هذا التفصيل يتم التوسع فيه استجابة للأسئلة مثل «من كانوا القادة الرئيسيون فى معركة نهاوند؟» . وليس هناك إخبارى كان سيعترف بجهله؛ ومن الأفضل أن يصطنع بعض الأسماء المقبولة بدلاً من أن يكشف مدى محدودية معرفته . وفى حالات أخرى ، يكون من الواضح أن الأسماء حفظها أحفاد الذين شاركوا فى الفتوح أو أبناء قبائلهم . وفى القرن الأول الهجرى/ السابع الميلادى كانت المسألة ذات أهمية عملية كبيرة . فاذا كان أبوك أو جدك قد شارك فى هذه المعارك المجيدة الباكرة ، مثل القادسية فى العراق أو اليرموك فى بلاد الشام، فإنك تستفيد من المال ومن المكانة على السواء . ومع حلول منتصف القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجرى) كانت علاقات القربى هذه قد فقدت الكثير من قيمتها العملية . إذ لم يستمر أحد، مع استثناء أبناء الأسرة الحاكمة ، وفى بعض الأحيان سلالة النبى وعلى بن أبى طالب، فى الإفادة من هذا النظام . ففى ذلك الوقت كانت الأموال تدفع للناس مقابل الأعمال العسكرية أو الإدارية التى يقومون بها وليس لقاء ما

كان قد فعله أسلافهم الأولون، ومع هذا، فإن صلة القربى التى كانت تجمع أحداً بهؤلاء الأبطال الأوائل كانت لا تزال تحمل بعض المردود الاجتماعى . ومن بين الأرستقراطية الإنجليزية لا يزال هناك، وفقًا لما يقوله البعض ، مهابة يمكن اكتسابها من الاعتقاد أن «أجدادى جاءوا مع الفتح النورمانى»(*)، وهم يعنون فى هذه الحالة الغزو النورمانى لانجلترا فى سنة ١٠٦٦م. إنه شىء ما من النفاق الاجتماعى نفسه إن شئت، ربما يكون قد وُجد بين بعض هؤلاء المسلمين المدركين لمكانتهم .

كان ثمة شىء آخر محل الاهتمام الشديد من جانب المؤرخين الأوائل وهو ما إذا كانت المدن والأقاليم قد فتحت صلحا أو عنوة . وفى السنوات الأولى بعد الفتوح كان هذا موضوعًا له مغزاه العملى الكبير. فإذا كانت المدن قد فتحت صُلحًا ، فإن السكان عادة ما كانوا يأمنون على حياتهم وممتلكاتهم ولايطلب منهم سوى دفع الجزية حسب المبلغ المقرر فى الاتفاقيات . فإذا ما كانت قد أخذت عنوة ، من ناحية أخرى ، كانت ممتلكاتهم تُصادر ويكون مستوى الضرائب التى يدفعونها أعلى كثيرًا . وربما كان الأهم والأكثر مشقة ، أن السكان غير المسلمين كان عليهم دفع الجزية. ونحن نعرف القليل جداً عن كيف كانت المدن وسكان المدن يدفعون الضرائب فى القرن الأول من الحكم الإسلامى (على الرغم من أن المادة التى بحوزتنا تتعلق بالضرائب فى المناطق الريفية والأرض الزراعية)، ولكن طبيعة الفتح ربما تكون قد أحدث فرقًا كبيرًا فى وضعية الضرائب ، وفى ضمان أمن ممتلكات السكان فى السنوات الباكرة. وكان تقدير الكيفية التى تم بها فتح مدينة ما ومقدار الجزية التى كانت قد دُفعت أمرًا ذا أهمية عملية حاسمة ، وهو موضوع استحوذ على اهتمام المؤرخين الأوائل . وعلى أية حال ، كانت حقيقة المسألة غير واضحة بالمرة فيما يتعلق بطبيعة هذه الأمور . وغالبًا ما لم يكن الفتح مسألة متسقة : فقد قاوم بعض الناس واستسلم البعض الآخر. ويكاد يكون

(*) قام وليام الفاتح ، النورمانى بغزو انجلترا سنة ١٠٦٦م بعد أن انتصر فى معركة هاستنجز على الأنجلو - سكسون. وقد كان الغزاة قادمين من إقليم نورماندى الفرنسى وأبدوا احتقاراً تامًا لكافة وجوه الثقافة الأنجلو - سكسونية . (المترجم)

لكل واحد مصلحة راسخة فى رواية أو أخرى لتسجيل هذه الأحداث . وقد تم إنتاج تنويعة من القصص المناسبة لشرح هذا الارتباك وتفسيره . وتبدو دمشق فى واحدة من هذه القصص من أكثر الأمثلة لفتًا للنظر ، إذ تحكى المصادر أن أجزاء مختلفة من المدينة سقطت بطرق مختلفة فى الوقت نفسه . وهكذا نجد فى دمشق سنة ٦٣٦م القائد العربى خالد بن الوليد يقتحم باب الشرق، على حين يقوم قائد آخر ، هو أبو عبيدة بن الجراح ، فى الوقت نفسه بإبرام الصلح مع سكان القطاع الغربى. وبهذه الطريقة يبقى الجدل مشتعلاً حول موضوع ما إذا كانت دمشق قد فُتحت صلحًا أم فُتحت عنوة. وكان هناك تفسير آخر مفيد مؤداه أن هذه الأماكن قد فُتحت مرتين؛ فى المرة الأولى عقد الأهالى الصلح ونالوا امتيازات الفتح صلحًا ، ولكنهم تمردوا فيما بعد وفُتحت المنطقة مرة أخرى بالقوة . وقد حدث هذا وتم تسجيله فى أنطاكية ببلاد الشام والإسكندرية فى مصر. وبطبيعة الحال، ربما يكون هذا ما حدث بالفعل ، حتى لو كان التمرد مجرد رفض أو تكون مثل هذه الروايات محاولات للتوفيق بين صياغات مختلفة هى بحد ذاتها انعكاس للمنازعات حول الضرائب والوضع المالى للمناطق المفتوحة.

ولم يعد لمسألة الفتح صلحًا أم عنوة ، مثل مسألة من شارك فى الفتوح، الرنين نفسه زمن تأليف المؤرخات التى نعتمد عليها فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين . وليس هناك دليل على أن الضرائب التى فرضت على المناطق المختلفة كانت تحددها طبيعة الفتح الذى كان قد تم قبل قرنين من الزمان على الأقل. ففى هذا الوقت لم تكن هذه المجادلات تثير الاهتمام سوى لدى من يهتمون بالقديم، أو أنها كانت جزءًا من الثقافة السياسية العامة التى كان يفترض أن يتحلى بها رجال الإدارة ورفاقهم. ولايجب، على أية حال، أن نغض الطرف عن حقيقة أن بقاء هذه المادة فى المصادر لوقت طويل بعد أن فقدت فائدتها العملية يوحى بقوة أن أصلها يرجع إلى السنوات الأولى التى أعقبت حركة الفتوح الإسلامية ؛ إذ لم يكن هناك أحد يمكن أن يكون له دافع لاصطناعها فى مثل هذا التاريخ المتأخر . ولابد أن التفاصيل قد حُفظت فى وقت ما فى السنوات تكوين الدولة الإسلامية عندما كانت لا تزال لها هدف عملى حقيقى.

ويبدو أيضًا أن كُتّاب هذه الموروثات الباكرة ومؤلفيها كانت تستحوذ عليهم مسألة توزيع الغنائم بعد فتح مدينة ما أو منطقة ما. ولم يكن هناك أبدا أى شك فى أن الغنائم كانت مقبولة وأن من حق المنتصرين تمامًا الحصول على غنائم الحرب. وكانت النقطة محل النقاش هى كيف ينبغى توزيع الغنائم بين الفاتحين . هل كان ينبغى أن يحصل كل واحد على الكمية نفسها؟ هل كان يجب أن يحصل الفرسان على قدر أكبر مما يحصل عليه الجنود المشاة؟ هل كان ينبغى أن يحصل الرجال الذين شاركوا فى الحملة ولكنهم لم يشاركوا فى المعركة الفعلية على نصيب كذلك ؟ وإذا كان ذلك كذلك ، فكم يكون نصيبهم؟ وكم يجب إرساله إلى الخليفة فى المدينة ؟ ومن المؤكد أن هذا الاهتمام يعكس السرور الذى كان يعترى الكثير من هؤلاء الجنود البدو الأفظاظ الجاهزين للحرب عندما يمسكون بأدوات الحياة المتحضرة ويستخدمونها ، ولكن القصص تدور حول العدل والإنصاف (ولكن فيما بين الغزاة فحسب بطبيعة الحال) . فهم يحبون أن يحكوا كيف كانت الغنائم توزع فى عدل وشفافية ، فى ميدان مفتوح بعد المعركة وأمام نظر الجميع . ومن الواضح أن مثل هذه الحكايات جزء من عقيدة «الأيام القديمة الخيرة» عندما كان المسلمون جميعًا شجعانا وأنقياء القلوب وكانت العدالة تتحقق تحت نظر الخليفة عمر بن الخطاب الصارم (٦٣٤-٦٤٤) ، هذه «الأيام القديمة الخيِّرة» كانت محل حفاوة وتطورت فى العالم اللاحق الذى كان يبدو أنه فقد هذه البراءة الباكرة ، عندما شعر أحفاد الفاتحين الأصليين أنهم مهمشون ومستبعدون عما كانوا يرون أنه مكافآتهم العادلة . هذه الذكريات القديمة عن أزمنة أفضل كانت غالية فى قيمتها المزدوجة بوصفها ، تأكيدات من الماضى ومؤشرات إلى مستقبل أفضل .

وإذْ أبدى المؤرخون اهتمامًا واضحًا ببعض جوانب الفتوح ، فإنهم كانوا أقل اهتمامًا بجوانب أخرى قد تبدو فى عيوننا أكثر أهمية. فالرواية التى تتناول معركة القادسية ، التى وضعت النهاية الحاسمة للقوة الفارسية فى العراق حسبما جاءت فى تاريخ الطبرى ، تستغرق حوالى مائتى صفحة فى الترجمة الإنجليزية ، ومع ذلك فإن مجرى المعركة يظل غامضًا بشكل يسبب الإحباط. ومن المسلم به أنه يصعب تمامًا

التأكد من تقدم العمل العسكرى فعلا حتى فى الصراعات الأحدث زمنًا ، بيد أن هذا الغموض يكاد يجعل من المستحيل تقديم إجابات مقنعة للأسئلة المهمة حول سبب أن الجيوش البيزنطية والساسانية التى حاولت منع الغزوات العربية لأراضيهم كان أداؤها على هذا القدر من السوء. وفى بعض الأحيان يقال لنا فى مصطلحات مجردة قوية إن القتال كان شديداً ولكن المسلمين انتصروا فى النهاية. وفى بعض الأحيان أيضا يُساق خصومهم إلى الأنهار أو المنحدرات بحيث يتم قتل أعداد كبيرة بهذه الطريقة . وهناك عدد من الروايات بأن كلاً من البيزنطيين والساسانيين كانوا يربطون قواتهم بالسلاسل لمنع الجنود من الفرار من ميدان المعركة ؛ وهذه ليست معلومات تاريخية حقيقية وإنما وسيلة لإظهار كيف كان المسلمون مدفوعين بالإيمان على حين كان خصومهم مكرهين بالطغيان(٢). وربما كان هذا صحيحًا ولكن القصص كما تقدم لنا لاتخبرنا بشىء عن الأسباب العسكرية الحقيقية وراء الهزيمة.

وربما يكون غموض الترتيب الزمنى للأحداث التاريخية أشد إثارة للسخط عند المؤرخين المحدثين . وهذه مشكلة تتعلق بالمرحلة الأولى من حركة الفتوح. إذ نجد أمامنا تواريخ تتراوح ما بين ثلاث أو أربع سنوات للانتصارات الكبرى فى اليرموك والقادسية . فقد كان مؤرخو القرنين الثالث والرابع للهجرة / التاسع والعاشر الميلاديين، راضين بأن تبقى التواريخ كما هى معترفين ببساطة أن هذه الآراء التى تختلف اختلافًا بينًا كانت موجودة . وفى ظل غياب الروايات الموثقة من خارج التراث العربى ؛ فإننا غالبًا ما نكون غير متأكدين تمامًا من التاريخ الحقيقى حتى بالنسبة لأهم أحداث التاريخ الإسلامى الباكر.

إذن ما الذى يمكن أن يفعله المؤرخ الحديث، الذى يحاول إعادة بناء مجرى الأحداث وتحليل الأسباب التى أدت إلى نجاح المسلمين وانتصار جيوشهم، إزاء هذا ؟ فمنذ بداية البحث العلمى فى هذا المجال عند مطلع القرن التاسع عشر ، ظل المؤرخون يعتصرون أيديهم حنقًا وغيظًا من فوضى المادة التاريخية ، والطبيعة الأسطورية الواضحة ، والتكرار اللامتناهى، والتناقضات المستمرة فى كثير منها . وقد أبدى ألفريد بتلر Alfred Butler، الذى كتب عن فتح مصر سنة ١٩٠٢م ، حزنه بسبب «الارتباك الشديد» فى المصادر كما استبعد بعض المادة باعتبارها «خرافات».

ومنذ زمن بعيد أدرك المؤرخون الطبيعة المرتبكة المتناقضة لكثير من المادة الواردة في المصادر العربية، ولكن ظهر في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين تحد أوسع نطاقًا لمصداقية هذه الموروثات . فقد لاحظ ألبرخت نوث في ألمانيا كيف أن الكثير من حكايات الفتوح كانت عبارة عن صياغات نمطية متكررة في الكثير من الروايات المختلفة، وكانت تُنقل من معركة ما إلى معركة أخرى. أما الروايات التي تتحدث عن كيفية سقوط المدن في أيدي العرب بسبب خيانة بعض السكان، فهي موجودة في الكثير جدا من الحالات المختلفة وتتم روايتها بلغة متشابهة جدا وبدرجة يصعب معها أن تكون حقيقية . وفي الوقت نفسه تقريبًا ، ناقش كل من ميخائيل كوك Michael Cook وباترتشيا كرون Partricia Crone في لندن أن المصادر عن سيرة النبي محمد وتاريخ الإسلام الباكر عامة ، كانت غاصة بالتناقضات وعدم الاتساق بحيث أننا لايمكن أن نكون متأكدين من أي شيء ؛ بل إن وجود النبي محمد نفسه كان محل تساؤل(٣).

كانت نتيجة هذا الهجوم العنيف أن الكثير من المؤرخين ، حتى أولئك الذين لم يكونوا مقتنعين بكل مناقشات المراجعة، باتوا مترددين في أن يأخذوا هذه الحكايات مأخذ الجد أو يعتمدوا على أي من التفاصيل التي تحتويها ، ولي رأي مختلف. وهناك عدد من الأسباب تجعل من الواجب علينا أن نرجع إلى هذه المادة ونحاول أن نستخدمها بدلاً من ننفض أيدينا منها . وأول هذه الأسباب أن الروايات العربية يمكن أحيانًا التحقق منها في مقابلة المصادر من خارج التراث الأدبي العربي، فالحولية السوريانية الخوزستانية ، مثلا ، أو التاريخ الأرمني الذي كتبه سيبيوس Sebeos كلاهما روايات كتبها مسيحيون في غضون قرن بعد الحوادث التي يتحدثون عنها. وهما أقصر كثيرًا وأقل تفصيلاً عن الروايات العربية ولكنهما تؤكدان الإطار العام للتاريخ العربي. بل إنهما في بعض الأحيان تؤكدان التفاصيل ، فمثلاً ، تقول المصادر العربية إن مدينة تُستر جيدة التحصين سقطت بأيدي المسلمين بسبب خيانة بعض السكان، الذين بينوا للمسلمين كيف يدخلون عبر قنوات الماء المغطاة . ومثل هذا العنصر غالبًا ما كان يتم استبعاده على أساس أنه عبارة عن صياغة بلاغية ولاقيمة له لأننا نجد روايات مماثلة عن فتوح مدن وحصون أخرى. أما في هذه الحالة، فإن مؤرخة خوزستان المحلية،

وهى مصدر سوريانى مسيحى لا علاقة له ألبتة بالتراث الإسلامى، تحكى لنا القصة نفسها بشكل مستقل، مما يوحى بشدة أن المدينة سقطت فعلاً بالطريقة التى ورد وصفها . ومغزى هذا أنه يمكن الاعتماد على المصادر التى تتحدث عن فتح تُستر بدرجة أكبر مما كنا نظن، وربما يصدق هذا على المناطق الأخرى أيضا .

ويمكن أن نمضى شوطًا أبعد مع إعادة الاعتبار للمصادر العربية. ويمكن الرجوع مع كثير منها إلى المؤرخين فى منتصف القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجرى) من أمثال سيف بن عمر. فقد عاش سيف فى الكوفة بالعراق ومات بعد سنة ٧٨٦م. وماعدا ذلك فنحن لانعرف شيئًا عن حياته ، بيد أنه أهم مصدر سردى عن الفتوح الباكرة. وقد ساور الشك مؤرخى العصور الوسطى والمؤرخين المحدثين فى أن يكون قد اصطنع بعض رواياته، ولكن إحدى الدراسات توحى بأنه أكثر جدارة وصدقًا مما كان المؤرخون السابقون يتخيلون . ولاشك فى أنه مسئول عن جمع وتحرير الكثير من أكثر الروايات حيوية عن الفتوح الباكرة[٤]. لقد كان سيف يكتب بعد أكثر من قرن على الفتوح الباكرة وربما كان بعض المشاركين فيها لا يزالون على قيد الحياة عندما كان سيف صبيًا. وفضلاً عن ذلك كانت الفتوح اللاحقة فى إسبانيا وآسيا الوسطى لا تزال تجرى أحداثها أثناء سنى حياته. لقد كان سيف أقرب زمنيا إلى الفتوح الإسلامية الكبرى مما كان جريجورى التورى بالنسبة للميروفنچيين[*]. أو مما كان بيديه[**] بالنسبة لاعتناق الأنجلو سكسون المسيحية ، وكلاهما من المصادر التى اعتمد عليها المؤرخون دائما فى إعادة بناء هذه الأحداث.

(*) الميروفنجيون الأسرة الحاكمة لقبائل الفرنجة الساليين الذين غزوا بلاد الغال القديمة (فرنسا حاليا) تحت زعامة كلوفيس، وحكموا المملكة فترة من الزمان حتى حل محلهم حكام الأسرة الكارولنجية ، وأشهرهم شارلمان، أو شارل الكبير. (المترجم)

(**) بيديه Bede أحد المؤرخين الإنجليز الذين عملوا فى مجال التعليم والتاريخ، وقد ألف عدة كتب أهمها «التاريخ الكنسى للأمة الإنجليزية» الذى يعد من المصادر الأولية للتاريخ الإنجليزى . وقد عاش بيديه فيما بين سنة ٦٧٣م وسنة ٧٣٥م . ويعرف عادة باسم بيديه المبجل The Veneravle.

وهنا يوجد بُعد آخر لهذه المصادر، وهو البعد الذى يتمثل فى الذاكرة الاجتماعية : فقد أوضح چيمس فينتريس James Fentress وكريس ويكهام كيف أن الروايات التقليدية، التى قد تكون دقيقة وقد لاتكون دقيقة، تحمل ذكريات عن المواقف والمفاهيم التى تخبرنا بالكثير عن الكيفية التى تتذكر بها المجتمعات ماضيها ، وبالتالى تدلنا على المواقف فى زمن تأليفها(٥). إذ تجب قراءة حكايات الفتوح باعتبارها مجرد ذاكرة اجتماعية . وبهذه الطريقة تكشف المصادر العربية الباكرة مواقف المسلمين فى القرنين اللذين أعقبا الفتوح بصورة واضحة. وإذا كنا نريد فحص عقلية المجتمع الإسلامى الباكر، فإن هذه المصادر تكون ذات قيمة بالغة . لقد كان الاتجاه بين بعض المؤرخين هو الحط من شأن الحكايات : فإذا ما حاولنا بدلاً من ذلك أن نساير الحكايات فى مسارها، وأن نقرأها بحثًا عما تحاول أن تخبرنا به فإنها يمكن أن تنورنا أكثر من ذلك كثيرا .

وأحد الموضوعات الرئيسية التى تتناولها المصادر يتمثل فى الفرق بين العرب المسلمين وأعدائهم وعاداتهم ومواقفهم، وقيمهم المختلفة. ولايحلل الكُتّاب العرب هذه الموضوعات بأى معنى رسمى ولكنهم بدلاً من ذلك يستكشفونها فى السرد والحكاية. ولنأخذ ، على سبيل المثال، حكاية من بين مئات الحكايات التى وصلت إلينا من القرنين الثامن والتاسع الميلاديين. وهى من كتاب فتوح مصر الذى جمعه فى شكله الحالى ابن عبد الحكم فى منتصف القرن التاسع الميلادى(٦).

وتبدأ القصة. بحكاية كيف أن والى مصر المسلم، عبد العزيز بن مروان (تولى من ٦٨٦ إلى ٧٠٤م) ، جاء إلى الاسكندرية فى زيارة . وتساءل عما إذا كان هناك أى رجال لا يزالون على قيد الحياة يتذكرون فتح المدينة على أيدى المسلمين سنة ٦٤١م، أى قبل نصف قرن على الأقل . وأخبروه أنه يوجد رجل رومى فقط، كان صبيًا يافعًا فى ذلك الوقت. وعندما سئل عما يتذكره من ذلك الزمان ، لم يحاول أن يقدم رواية عامة عن الأمور الحربية وسقوط المدينة ولكنه بدلاً من ذلك روى قصة حادثة معينة كان هو شخصيًا أحد أطرافها «... فقال: كنت غلامًا شابًا ، وكان لى صاحب ابن بطريق من

بطارقة الروم، فأتانى فقال: ألا تذهب بنا حتى ننظر إلى هؤلاء العرب الذين يقاتلوننا؟ فلبس ثياب ديباج ، وعصابة ذهب، وسيفًا محلى، وركب برذونا سمينًا كثير اللحم، وركبت أنا برذونا خفيفًا ، فخرجنا من الحصون كلها حتى برزنا على شرف ، فرأينا قومًا فى خيام، لهم عند كل خيمة فرس مربوط، ورمح مركوز ، ورأينا قوما ضعفاء ، فعجبنا من ضعفهم ، وقلنا كيف بلغ هؤلاء القوم ما بلغوا ؟

«فبينا نحن وقوف ننظر إليهم ونعجب إذ خرج رجل منهم من بعض تلك الخيام، فنظر، فلما رآنا حلَّ فرسه، فمعكه، ثم مسحه ، ووثب على ظهره وهو عُرى، وأخذ الرمح بيده، وأقبل نحونا، فقلت لصاحبى : هذا والله يريدنا .

فلما رأيناه مقبلاً إلينا لايريد غيرنا أدبرنا مولين نحو الحصن، وأخذ فى طلبنا ، فلحق صاحبى لأن برذونه كان ثقيلاً كثير اللحم، فطعنه برمحه ، فصرعه، ثم خضخض الرمح فى جوفه حتى قتله .

ثم أقبل فى طلبى، وبادرت ، وكان برذونى خفيف اللحم، فنجوت منه حتى دخلت الحصن فلما دخلت الحصن أمنت، فصعدت على سور الحصن أنظر إليه، فإذا هو لما أيس منى رجع، فلم يبال بصاحبى الذى رجع ، ولم يرغب فى سلبه ، ولم ينزعه عنه، وقد كان سلبه ثياب الديباج وعصابة من ذهب ولم يطلب دابته ، ولم يلتفت إلى شىء من ذلك ، فانصرف من طريق أخرى، وأنا أنظر إليه ، وأسمعه يتكلم بكلام ، ويرفع به صوته ، فظننت أنه إنما يقرأ قرآن العرب، فعرفت عند ذلك أنهم إنما قووا على ما قووا عليه، وظهروا على البلاد لأنهم لايطلبون الدنيا ولايرغبون فى شىء منها . حتى بلغ خيمته فنزل عن فرسه فربطه، وركز رمحه ، ودخل خيمته، ولم يُعلم بذلك أحدًا من أصحابه .

فقال عبد العزيز: صف لى ذلك الرجل وهيئته وحالته .

فقال : نعم ، هو قليل دميم، ليس بالتام من الرجال فى قامته ، ولا فى لحمه، رقيق أدم كوسج (أى لا شعر على عارضيه) .

فقال عبد العزيز عند ذلك : إنه ليصف صفة رجل يمانى»(*).

تبدو هذه القصة للوهلة الأولى غير جديرة بالقراءة الجادة، دعك من إعادة نقلها . فقد كان الفتح الإسلامى للإسكندرية حادثة ذات أهمية أساسية ، كانت هى نهاية الحكم البيزنطى فى مصر والقضاء على حكم ناطق باليونانية استمر تسعمائة سنة بالمدينة . وقد كرّس المؤرخ ابن عبد الحكم عدة صفحات للحديث عن فتح الإسكندرية . وهو لايخبرنا بشىء عن طبيعة الحصار، إذا كان ثمة حصار ، حيث كان قد تم نشر الجيوش أو أية تفصيلات عسكرية نحب أن نعرفها . وعلاوة على ذلك ، لايوجد دليل حقيقى على أن هذا حدث فعلاً . بمعنى وصف ما حدث بالفعل ، وحتى لو حدث، لما كان مهمًا للغاية؛ ذلك أن أبطال القصة مجهولو الهوية وموت رجل واحد ليس له تأثير كبير على أحداث أكثر عمومية. ومع المزيد من التأمل ، على أية حال، تكشف هذه القصة عن الكثير. أولا أن روايتها جاءت فى سياق تاريخى. وقد لاتكون سجلاً حقيقيًا لما حدث فى سنة ٦٤١م ولكنها تبدو بالفعل قطعة أصيلة من أواخر القرن السابع الميلادى. فقد أراد الوالى الأموى أن يكتشف المزيد عن الظروف التى جعلت الولاية التى كان يحكمها آنذاك تصبح جزءًا من العالم المسلم. وشأنه شأن المؤرخين والمؤلفين فى زمانه انشغل فى استعادة هذه الذكريات وتسجيلها قبل أن تختفى إلى الأبد. والقصة نفسها تؤكد على بعض الموضوعات المألوفة . فالبيزنطيون أغنياء مترفون ، غير معتادين على خشونة الأمور الحربية. وفضلاً عن ذلك، يُظهر النص التقسيمات الحادة للطبقة والثروة بين ابن البطريق وبين الراوى. أما العربى، على النقيض من هذا، فإنه يعيش حياة الحرمان والزهد فى خيمته . وهو بعكس البيزنطى سليل الطبقة العليا فارس ممتاز، تربطه بحصانه علاقة حميمة وعاطفية وهو قادر على أن يثب على ظهره ويقود دونما سرج على ظهر الحصان . وهو أيضا، بطبيعة الحال، مقاتل ماهر وصلب فى استخدام الرمح . وبعد موت ابن البطريق ، يبدى حماسته الدينية بقراءة القرآن

(*) رأيت أن من الأنسب إثبات نص رواية ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، (تحقيق عبد المنعم عامر، نشر الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة الذخائر رقم ٤٩) ، ص١١٠– ص١١١ . (المترجم)

ولامبالاته بالأغراض المادية فلايتوقف لكى يسلب ما على جثة ضحيته من أشياء. وسؤال الوالى الختامى عن مظهر الرجل يتيح للراوى أن يصف رجلاً ضئيل الحجم ، زرى الهيئة . وعلى نحو ما ، يدهشنا أن هذه صورة تخلو من الإطراء، ولكنها أيضا تقرر أمرًا ، فالرجل يوصف بأنه يمنى نمطى. ومعظم العرب الذين فتحوا مصر كانوا يمنيين أو من أصول عربية جنوبية . وعلى العكس من ذلك ، كان الوالى من قبيلة قريش، قبيلة النبى نفسه، وهو نسب أكثر أرستقراطية بكثير. وعلى أية حال ، فإن المؤلف الذى يقال إنه حفظ هذه القصة كان هو نفسه يمنيًا ، من قبيلة خولان القديمة. ولم تكن خولان قبيلة بدوية بالمعنى التقليدى ولكنها سكنت منطقة من القرى فى القلب الجبلى من بلاد اليمن. وكانت سلالتهم ولا تزال تحمل اسم خولان وتعيش فى المنطقة نفسها الآن. ولقد لعب أبناء قبيلة خولان دورًا مهمًا فى فتح مصر وكانوا بارزين ومرموقين بين العائلات العربية الراسخة فى الفسطاط على مدى القرنين اللذين أعقبا الفتح . ومن الواضح أن المصدر(*) قد طوَّر الحكاية على اعتبار أنها طريقة للتأكيد على أهمية الدور الذى لعبه بنو جلدته ، واليمنية عمومًا ، فى فتح البلاد التى كانوا يعيشون فى رحابها آنذاك.

وتؤكد الحكاية أيضًا وتبرز الطرق التى كان المسلمون يرون بها أنفسهم مختلفين وأكثر تمسكًا بالفضيلة من المسيحيين المحيطين بهم والذين كانوا يفوقونهم عددًا بالتأكيد. كما أنها تحقق هدفًا سياسيًا بالتأكيد على دور اليمنيين فى الفتوح والطريقة التى كانت توجب على الحاكم أن يبدى احترامه لهم بسبب إنجازاتهم فى هذا الوقت . لقد كان ابن عبد الحكم ، الذى كان آخر من صاغ القصة، وأوردها فى كتابه، يكتب فى منتصف القرن التاسع الميلادى / الثالث الهجرى عندما كانت هذه العائلات اليمنية تفقد نفوذها ومكانتها الخاصة لأن القوات التركية التى استخدمها العباسيون فى بغداد استولت على السلطة العسكرية فى مصر. ويؤكد من خلال إبراز بطولة هذا

(*) الراوى الأصلى لهذه القصة حسب الإسناد الذى أورده ابن عبد الحكم (ص١١٠) هو من يسمى «الخولانى» إذ يقول نص الرواية «فحدثنا هانئ بن المتوكل ، حدثنا ابن لهيعة عن بكر بن عمر والخولانى...». (المترجم)

الجيل الباكر على حقوق طبقته ومكانتها فى زمنه . ومن الواضح أن القصة قد تم تعديلها لتناسب الفترات الزمنية التى مرت عليها ولكنها تحتفظ بذكرى اجتماعية عن الصلابة والتقوى والهوية اليمنية للفاتحين . وقد تم حفظ هذه الذكرى لأنها كانت ذات قيمة بالنسبة لأولئك الذين احتفظوا بها حية، بيد أنها تعكس أيضا حقيقة بيئة الفتوح نفسها فضلاً عن تفاصيلها.

كذلك يختلف التدوين التاريخى العربى اختلافًا بينًا فى النوعية والتناول . وعلى العموم، فإن الروايات التى تتناول المراحل الأولى من الفتوح منذ ثلاثينيات القرن السابع الميلادى حتى الخمسينيات مفعمة بعناصر أسطورية ومجازية ؛ فضلاً عن الخطب والحوارات المتخيلة وقوائم أسماء المشاركين . ومن ثم فإنها قاصرة عن إعطاء التفاصيل عن الطبوغرافية والأرض والتجهيزات والأساليب المستخدمة . وتدين الروايات عن فتح مصر وشمال أفريقيا بشىء ما لتراث التدوين التاريخى المحلى، ولكن فى كل من الحالين يبدو هذا التراث متهافتًا بشكل مُخيِّب للآمال. إذ ترد أخبار الفتوح فى بدايات القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجرى) فى عدة روايات مختلفة لغاية . كما أن الروايات عن فتوح ما وراء النهر، والتى جمعها وحررها المدائنى ونُشرت فى تاريخ الطبرى، لا تزال حتى الآن أكثر الروايات التى لدينا حيوية وتفصيلاً عن أى من الحملات الكبرى فى تلك الفترة. فهى مليئة بالأحداث والأعمال والحرارة والغبار، كما أنها تسجل وتحكى عن إخفاقات الجيوش العربية بنفس التفاصيل التى تحكى بها عن انتصاراتهم . ولايمكن أن نقترب فى أى مكان آخر من الحقيقة التى تتعلق بحروب الحدود . إذ إن قصة فتح إسبانيا فى السنوات نفسها متناقضة بشكل مذهل . فالسرديات قليلة مفعمة بالعناصر الأسطورية والفولكلورية ، كما يرجع تاريخها ، فى صيغتها الحالية، إلى قرنين على الأقل بعد الأحداث : وقد فشلت أفضل جهود أجيال من المؤرخين الإسبان فى فك غموض هذه الفوضى.

فقد كان هناك، إلى جانب الثقافة العربية السائدة ، موروثات ثقافية أقدم زمانًا قد أنتجت أدبها الخاص بها . وبطبيعة الحال، استمر الناس أنفسهم يكتبون فى اللغة اليونانية التى كانت لغة الثقافة القديمة الراقية. وكان أشهر هؤلاء حنا الدمشقى،

أهم لاهوتى أرثوذكسى يونانى فى القرن الثامن الميلادى . وقد وُلد لعائلة من الإداريين ذوى الأصل العربى ممن كانوا يعملون فى خدمة الإدارة الأموية فى دمشق، وبنفس الطريقة التى عملوا بها فى خدمة البيزنطيين من قبل. ولكن حنا الدمشقى، الذى صار يعرف باسم القديس حنا، كان ينتمى إلى آخر جيل يستخدم اللغة اليونانية باعتبارها اللغة الأولى فى العمل، كما أنه لم يكن مؤرخًا . وليس لدينا كتابات تاريخية يونانية باقية عن الفتوح العربية . وبطبيعة الحال، استمر الناس يكتبون التاريخ باليونانية عبر الحدود البيزنطية حيث استمرت اليونانية لغة الحكومة . وعلى أية حال، فمن المثير أن الرواية اليونانية الرئيسية عن هذه الفترة، والتى كتبها الراهب ثيوفانيس Theophanes فى القسطنطينية ، ربما اعتمدت فى معلوماتها على روايات عربية أو سريانية تمت ترجمتها إلى اليونانية. وليس هناك تراث بيزنطى مستقل يمكن أن يوفر لنا ما نتحقق به من صحة الروايات العربية.

وبالنسبة للمؤرخ فى هذه الفترة يكتسى التراث السريانى أهمية أكبر من التراث اليونانى. فالسريانية لهجة مكتوبة من الآرامية ، وهى لغة سامية ، لاتختلف كثيرًا عن العربية والعبرية ولكنها تستخدم كتابة متمايزة خاصة . وعلى مدى قرون كانت لغة الحديث العامى المشتركة فى الهلال الخصيب (الشام والعراق) ، ويفهمها رعايا الإمبراطور البيزنطى فى بلاد الشام ورعايا الإمبراطور الشاهنشاه الفارسى فى العراق. ولابد أن المسيح وحوارييه كانوا يتحدثون بها فى حياتهم اليومية. وهى لا تزال مستخدمة فى الحديث فى أماكن قليلة ولاسيما فى بلدة «معلوله» السورية الصغيرة، وهى جماعة مسيحية صغيرة بقيت معزولة ، حتى وقت قريب ، فى ممر جبلى صخرى شمال دمشق . ومع قدوم المسيحية إلى بلاد الشام ، تمت ترجمة الكتاب المقدس إلى السريانية ، وفى مناطق ريفية كثيرة نائية وبعيدة عن مدن الساحل التى تتحدث اليونانية، كانت طقوس الكنيسة والكتابة الدينية تتم بالسريانية ، وهى اللغة التى كان السكان المحليون يفهمونها.

ويأتى التدوين التاريخى السريانى عن العالم الإسلامى الباكر فى معظمه من خلفية كنسية. وكما كان الحال فى أوربا العصور الوسطى الباكرة، كان معظم كاتبى

المؤرخات من الرهبان أو من القساوسة ، وكانت اهتماماتهم منصبة أولاً وقبل أى شىء على الدير والعالم المحيط به . فهم مهتمون بقدر كبير بالطقس القاسى غير المعتاد وصعوبات الحياة فى الريف، وكان كلاهما يؤثران بشكل مباشر على حياة الدير، كما اهتموا بالقدر نفسه بالحروب ومجئ الملوك ورحيلهم. وفوق هذا وذاك كانوا يهتمون بالشئون السياسية للكنيسة ، والأعمال العظيمة لمشاهير القديسين ، والمنافسات حول المناصب الكنسية، والشرور التى يرتكبها الفاسدون ، وأسوأهم جميعًا رجال الكنيسة الهرطقية. وفى هذا العالم الذى يجمع بين القرية والجبل ومراعى الاستبس ، يُنظر إلى وصول العرب بنفس النظرة التى يُنظر بها إلى قدوم الصقيع فى شهر مايو، أو قدوم أسراب الجراد: فهم عبء فرضه الرب على المؤمنين وربما يكون عقابًا جزاء خطاياهم ، ويجب تحمله على أية حال بكل ما يمكن من الرزانة. وربما يبدو غريبًا فى عيون المحدثين أنه لايوجد تحريض للسكان المحليين على تسليح أنفسهم ومهاجمة خصومهم . فبدلاً من ذلك كانت القاعدة الأخلاقية تقضى بأنه يجب على الناس أن يبقوا على ولائهم وإخلاصهم لكنيستهم وسوف يحفظهم الرب.

وهناك أدب مقاومة ولكنه أدب أخروى الطابع. وتتطلع هذه الكتابات إلى يوم يأتى ؛ وفيه سيقوم ملك عظيم أو إمبراطور كبير بالقضاء على السيادة العربية ويكون دليلا على قرب نهاية العالم . وسوف تنتهى المصاعب الآنيّة ويزول الطغيان ليس عن طريق أولئك الذين يتعرضون للاضطهاد ، ولكن عن طريق التدخل الإلهى الذى يتجاوز قدرات البشر . هذه الكتابة من عدة جوانب تبدو قدرية مضحكة وقد يعجب القارئ فى القرن الحادى والعشرين كيف كان يمكن لأحد أن يصدقها أو حتى يأخذها بجدية. بيد أنها تقدم بالفعل نظرة ثاقبة أساسية فى عالم الفكر الذى عاشته تلك الجماهير الضخمة فى منطقة الهلال الخصيب الذين غزاهم وأخضعهم هؤلاء الغزاة الأجانب الجدد(*).

(*) لا يمكن الموافقة على كلام المؤلف هنا ببساطة لأن سكان هذه المنطقة كانت غالبيتهم من القبائل العربية التى هاجرت من شبه الجزيرة فى فترات مختلفة إلى بلاد الشام وفلسطين أو إلى أرض السواد فى العراق، وربما قصد المؤلف أن يفرق بين الثقافة التى كانت سائدة بين القبائل البدوية فى شبه الجزيرة العربية، والقبائل العربية التى عاشت فى منطقة الهلال الخصيب على أساس الثقافة السائدة ؛ ولكن الأهم أن العرب الذين قامت حركة الفتوح على عاتقهم لم يكونوا غرباء تمامًا عن عرب الشام والعراق. (المترجم)

ويبدو أن قلة الحيلة والقدرية ، التى تعلموها عن أجيال من الحكم البعيد غير المستجيب ، قد منعت مثل هؤلاء من حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم : فقد كان من الأفضل الاعتماد على الصلاة فى الحاضر ومن أجل حضور الحاكم العادل الذى وُعدوا به زمنًا طويلاً فى المستقبل.

لقد كانت هناك موروثات أخرى غير إسلامية فى الكتابة التاريخية . ففى مناطق القوقاز الجبلية النائية ، استمر الأرمن يحافظون على تراث فى الكتابة التاريخية استمر منذ قدوم المسيحية فى القرن الرابع حتى العصور الوسطى. وعن زمن الفتوح الإسلامية تمدنا مؤرخة سيبيوس بصفحات قليلة معذبة تحمل معلومات تعزز إلى حد كبير الخطوط العريضة للتراث العربى[7]. أمّا بالنسبة لفتح مصر فهناك المؤرخة القبطية التى كتبها يوحنا النقيوسى، أسقف مدينة نقيوس الصغيرة فى الدلتا والذى كان شاهد عيان معاصراً[8]. ولاتوجد هذه المؤرخة سوى فى ترجمة حبشية ، وقد فقد جزء من الرواية على حين أن معظم ما تبقى منه مشوش ومختلط[*]. وعن إسبانيا توجد مؤرخة لاتينية كتبت فى الجنوب فى المنطقة الواقعة تحت حكم المسلمين ، وتُعرف باسم السنة التى حدث فيها الدخول النهائى للمسلمين «مؤرخة سنة ٧٥٤م». وأخيراً شهد القرن الثامن الميلادى ظهور حوليات مسيحية مكتوبة باللغة العربية خلقت تراثًا اعتمد على التراث العربى والتراث المسيحى على السواء. وفى بعض الأحيان تكون هذه المؤرخات معاصرة تقريبًا للأحداث التى تتحدث عنها والمعلومات التى تعطيها لنا لاتقدر بثمن ولكن طبيعتها المختصرة والشذرية تعنى أنها تترك أسئلة كثيرة بدون إجابات.

(*) هناك ترجمة فرنسية نشرها زوتنبرج كاملة سنة ١٨٨٣م. انظر:

Zotenberg, Chronique de Jean Evêque de Nikiou, Texte Ethiopien publié et traduit Imprimerie Nationale, Paris 1883, Paris.

وهناك ترجمة إنجليزية للنص الفرنسى قام بها تشارلز سنة ١٩١٦م، انظر : R.H. Charles, The Chronicle of John , Bishop of Nikiu, translated from Zotenberg's Ethiopian Text, Oxford, London 1916.

وتوجد ترجمة عربية عن النص الحبشى مباشرة: انظر : عمر صابر عبد الجليل ، تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى (دار عين للدراسات والبحوث ٢٠٠٠م) .

وعلى الرغم من أن المؤرخات المسيحية قصيرة وغامضة ومشوشة بشكل محبط غالبًا، فإنها تساعدنا بالفعل أن نتحقق ونعارض المادة الموجودة فى التراث العربى الأضخم والذى يبدو من الواضح أنه قد تم تهذيبه . فالمصادر العربية تكاد تحصر اهتمامها فى أفعال المسلمين. والكفار الوحيدون الذين يأخذون أدواراً ناطقة فى المؤرخات هم الأباطرة البيزنطيون والقادة الفرس الذين تشكل أفكارهم نذيراً بهزائمهم الحتمية. وأى شخص أجنبى يقرأ تاريخ الطبرى الضخم «تاريخ الرسل والملوك»، مثلا، لايمكن أن يدرك بوضوح أن الأغلبية الساحقة من سكان الأراضى التى كان يحكمها الخلفاء فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين لم يكونوا من المسلمين ، بل سيكون فهمه أقل لاهتماماتهم والتأثير الذى كان قدوم العرب قد تركه فيهم. وطالما كانوا يدفعون الأموال المتفق عليها، فإنهم لم يكونوا يُعتبرون معادين بشكل نشط تجاه نظام الحكم الجديد بأية طريقة ، فقد كانت أفعالهم محل تجاهل تماما فى سرديات النخبة الحاكمة.

كانت المصادر المكتوبة واسعة شاملة بيد أنها كانت غاصة بالمشكلات . فهل يمكن لنا أن نستعيض عنها بالآثار ؟ من المؤكد أن الشهادة غير العاطفية لبقايا المادة الخرساء يمكن أن تعطينا رواية أكثر توازنًا عن هذه القصص المرهقة . إلى حد ما هذا حقيقى، ولكن الآثار ، مثل السجلات المكتوبة ، لها جوانب قصورها ، كما أن لها أجندتها الخاصة على نحو ما.

من الواضح بداية أنه لاتوجد شهادة أثرية مباشرة على الفتوح نفسها. إذ لم توجد ساحة معركة وجدت بها عظام أو أسلحة قديمة ، ولاتوجد مدينة واحدة أو قرية يمكن أن نشير فيها إلى طبقة من الدمار أو الحريق ونقول إن هذا لابد أن يكون قد حدث فى زمن الفتح العربى. وكل ما يمكن للأدلة الأثرية أن تفعله هو أن تمدنا بدليل يرشدنا إلى الاتجاهات طويلة المدى، أى الضجة الخلفية الناجمة عن قدوم المسلمين .

وثمة مشكلة أخرى تتمثل فى الطبيعة الترقيعية للدليل الأثرى. فقد تم إجراء الكثير من الحفريات ومسح المواقع فى سوريا ، والأردن وفلسطين ، مصحوبة بنقاش نقدى حى عن الدليل وتفسيره. وعبر صحراء العراق، يختلف الوضع تماماً. وذلك أن المشكلات

السياسية على مدى السنوات الثلاثين الماضية كانت تعنى أن نوع البحث والتحقيق الذى كان مثمراً جدا فى شرق المتوسط لم يحدث أبداً على أى نطاق كبير. ويصدق الأمر نفسه إلى حد ما فى إيران . حيث تسببت الثورة الإسلامية سنة ١٩٧٩م توقفا حقيقياً للحفريات وعمليات المسح ، وعلى الرغم من أن جيلاً جديداً من الأثريين الإيرانيين قد بدأ فى القيام بالمهمة ، فإن الجدل والنقاش حول الانتقال من الحكم الساسانى إلى الحكم الإسلامى فى مدن إيران قد بدأ بالكاد .

منطقة واحدة ألقت الآثار فيها الضوء على قدوم المسلمين تتمثل فى حالة السكان والمجتمع فى الشرق الأوسط فى ذلك الوقت . ومرة أخرى تقدم بلاد الشام وفلسطين أحسن مثال . فقد كان هناك نقاش حى فى السنوات القريبة الماضية حول مصير بلاد الشام أواخر العصور القديمة. فهناك قدر قليل من الشك فى أن منطقة شرق المتوسط برمتها قد نعمت بفترة من النمو الاقتصادى والسكانى، الذى لم يسبق له مثيل فى العقود الأربعة الأولى من القرن السادس الميلادى. ويدور السؤال حول ما إذا كان هذا الازدهار قد استمر حتى قدوم العرب بعد مائة سنة تقريباً. فليست هناك سجلات أو إحصائيات تخبرنا عن هذا، كما أن المصادر السردية لايمكنها سوى تقديم بعض اللمحات . ويشى الدليل الأثرى الذى اكتشف فى المدن والقرى، بأن النصف الثانى من القرن السادس وبداية القرن السابع كانت فترة جمود، إن لم تكن فترة تدهور مطلق. فالمدن لا تبدو أنها قد نمت وتوسعت ويمكن بيان أن بعضها ، مثل العاصمة الكبرى فى الشرق أنطاكية ، قد انكمشت ، واندمجت فى داخل دائرة صغيرة من الأسوار . وغالباً ما يكون الدليل غامضاً : إذ نادراً جدا ما يحدث أن يوضح السجل الأثرى أن مكاناً بعينه أو مبنى خاصاً كان مهجوراً بشكل بيِّن . ويمكننا أن نرى أن الشوارع التى تحف بها الأعمدة من الجانبين، والحمامات والمسارح فى العصور القديمة قد تعرضت لغزو من المحتلين أو تحولت للاستخدام الصناعى كأفران للفخار . والأقل وضوحاً ما يعنيه هذا بالنسبة لرخاء المدينة: هل صارت ساحة معركة نصف مهجورة وخربة أم كان هناك سكان كثيرون نشطون يستخدمون المدينة بطرق مختلفة ولأغراض جديدة ؟ إن كثيراً من الأدلة يمكن قراءتها بكل من الطريقتين .

وعلاوة على هذا، فإن المصالح السياسية المعاصرة أفسدت الآثار ، وهناك رأى شائع بأن فلسطين على وجه الخصوص كانت منطقة مزدهرة وغنية حتى قدوم العرب الذى أخرب هذه الأنشودة وحوّل الكثير من المنطقة إلى صحراء جرداء . ومثل هذه الآراء روج لها الصهاينة وغيرهم ممن استغلوا مصير فلسطين ليوحوا بل ويجادلوا بأن العرب كانوا حكامًا مخربين ولم يكونوا، بالتالى، جديرين بحكم المنطقة اليوم. هذا الرأى وجد من يتحداه ، على الأقل من علماء الآثار الإسرائيليين الآخرين الذين أوضحوا أنه، على الأقل فى بعض الحالات، كانت التغيرات والتدهور الذى أشيع الربط بينه وبين قدوم العرب، قد حدثت بالفعل قبل قدومهم. وهناك دليل أيضا على تطور الأسواق (فى بيت شئن وبالميرا مثلا) واستصلاح أراض جديدة للزراعة على امتداد الحواف الصحراوية لبلاد الشام. والدليل الأثرى حافل بالمشكلات وغامض، ومحل نزاع، كما أن تفسيره غالبًا ما يدين بالمفاهيم المسبقة لدى الباحث أكثر من العلم الخالص.

ونكون على أرض أكثر صلابة عندما ننظر إلى الجوانب البناءة فى الحكم الإسلامى الباكر(٩). وعلى العموم فمن الأسهل كثيرًا أن نقرر متى تم تشييد المبانى عن أن نقرر متى سقطت فى براثن سوء الاستخدام. ونحن يمكن أن نرى بصمة الإسلام فى الكثير من المدن التى فتحها العرب عندما تم بناء المساجد والجوامع فى كثير من المراكز الحضرية. فالمساجد ، مثل الكنائس ، يمكن التعرف عليها بسهولة من خلال مخططاتها ، مثل السياج المستطيل ، وساحة الصلاة التى تحف بها الأعمدة فضلاً عن المحراب الذى يتجه بالمصلى فى اتجاه الكعبة بمكة. فالمصادر الأدبية تخبرنا بأن المساجد قد تم بناؤها بعد وقت قصير بعد الفتح فى كثير من المدن. وعلى أية حال، لايوجد دليل أثرى باق على هذا . ولم يحدث حتى نهاية القرن السابع الميلادى، أى ستين سنة على الأقل بعد الفتوح، أن ظهرت الشهادة الأولى على الهندسة البنائية الدينية لدى المسلمين مع بناء قبة الصخرة فى بيت المقدس بعد سنة ٦٨٥م . وفى غضون مائة سنة بعد الفتوح، كانت قد قامت مساجد فى كل من دمشق ، وبيت المقدس، وجرش ، وعمان وبعلبك فى بلاد الشام ، والفسطاط فى مصر، وإصطخر وربما سوسه فى إيران، والواقع أن المؤرخين والرحالة العرب يخبروننا عن هذه المساجد، ولكن لا يبدو أن شيئا بقى يمكن

أن يكون دليلاً أثريا على هذا. والمبانى الدينية فى بيت المقدس (مثل قبة الصخرة) ودمشق (الجامع الأموى) قد بقيت فيما يشبه المعجزة طوال ثلاثة عشر قرنًا من الزمان لأنها بنيت لكى توضح بأفصح لسان وأقوى تعبير يفوق أى نص مكتوب مدى الثروة والسلطة فى الدولة الإسلامية الباكرة ، وتكشف مساجد الفترة الأموية فى مدن مثل بعلبك وجرش كيف انتشر الإسلام فى مدن بلاد الشام الصغرى. وتبين المساجد كيف كان الإسلام فى صعود على مدى مائة سنة بعد الفتوح الأولى، بيد أنها لاتخبرنا بشىء عن مجرى هذه الفتوح أو عن أسباب الانتصار الإسلامى.

وإذا كانت المساجد آية واضحة على وصول نظام جديد، فالأصعب أن تدلنا على الكيفية التى ربما كانت الحياة اليومية للسكان قد تغيرت بها . ففى كثير من المناطق نجد الصورة صورة استمرارية . فالفتوح الإسلامية لم تجلب ، مثلاً ، أنواعًا جديدة من الفخار إلى بلاد الشام. ذلك أن الخزف المحلى ، أدوات الطهى – وأدوات المائدة، قد استمر إنتاجها فى ظل الحكم الإسلامى مثلما كان يتم إنتاجها تحت الحكم البيزنطى . ولاغرابة فى أن الفاتحين العرب الوافدين قد اشتروا ببساطة ما وجدوه واستخدموه . ولم يحدث حتى مضى جيلان أو ثلاثة أن ظهرت أول الطُرز الإسلامية، وحتى فى ذلك الحين كانت هناك بضائع فاخرة ، يستخدمها رجال البلاط والنخبة. وبقى الفخار المستخدم فى الحياة اليومية على حاله بدرجة كبيرة. وعلى أية حال ، فهناك تغير جرى على الخزف يمكننا أن نلاحظه ، وهو اختفاء الواردات كبيرة الحجم من الفخار إلى بلاد الشام عبر البحر المتوسط. ففى أواخر العصور القديمة كانت هناك واردات ضخمة من أدوات المائدة التى يعرفها علماء الآثار باسم «الفيض الأفريقى الأحمر» ، التى كان معظمها يُصنع فى تونس. وقد كانت توزع باعتبارها نوعًا من التجارة المحمولة على الكتفين فى جميع أرجاء الإمبراطورية الرومانية . ويشير اختفاء هذه البضاعة من أسواق الأراضى التى فتحها المسلمون إلى انقطاع فى الروابط التجارية ، تعكس الصورة التى لدينا فى المصادر المكتوبة والتى تصور الحوض الشرقى للبحر المتوسط باعتباره إقليم صراع وليس ممرًا للتجارة . ومرة أخرى، يمكن استخدام الآثار لبيان التأثيرات بعيدة المدى للفتوح، ولكن ليس لتوضيح مجرى الأحداث فى ذلك الوقت .

إن الفتوح العربية فى الشرق الأوسط تقف بين التغيرات الحاسمة فى تاريخ البشر. فالمصادر التى بين أيدينا لفهم هذه الأحداث المضطربة يشوبها الكثير من جوانب القصور ولسنا قادرين دائما ، وربما إلى الأبد، على أن نجد إجابات عن الأسئلة التى نتوق إلى طرحها ، بيد أننا بالتعامل مع البراهين والأدلة باحترام ، وبالعمل بها، يمكننا أن نصل إلى فهم أكمل لما حدث.

الهـــوامش

(١) عن هذا التغير وأهميته انظر :

J. Bloom, Paper before Print: The History and Impact of Paper in the Islamic World (New Haven, CT, 2001).

(٢) انظر مناقشة هذا وغيره من المواضيع العسكرية :

A. Noth with L. I. Conrad, The Early Arabic Historical Tradition: A source-critical study, trans. M. Bonner (Princeton, NJ, 1994), pp.109-72.

(٣) P. Crone and M. A, Cook, Hagarism: The Making of the Islamic World (Cambridge, 1977).

(٤) E. Landau-Tasseron, 'Sayf ibn Umar in medieval and modern scholarship', Der Islam 67 (1990); 1-26.

(٥) J. Fentress and C.J. Wickham, Social Memory (Oxford, 1992).

(٦) Ibn Abd al-Hakam, Futuh Misr, ed. C. C. Torre`y (New Haven, CT, 1921), pp. 74-6.

(٧) Sebeos, The Armenian History, trans. R. W. Thomson, with notes by. J. Howard-Johnston and T. Greenwood, 2 vols. (Liverpool, 1999).

(٨) John of Nikiu, The Chronicle of John (c. 690 AD) Coptic Bishop of Nikiu, trans. R- H, Charles (London, 1916).

(٩) انظر :

J.Johns, 'Archaeology and the history of early Islam; the first seventy years', Journal of the Economic and Social History of the Orient 46 (2003): 411-36.

(١)

أسس الفتوح

يرجع أصل الفتوح الإسلامية فى الشرق الأوسط إلى شبه الجزيرة العربية، كما أن معظم أولئك الذين حاربوا فى المراحل الأولى من الفتوح جاءوا من شبه الجزيرة العربية أو من صحراء الشام (بادية الشام) الواقعة شمالى شبه الجزيرة. ولم يحدث فى أى وقت سواء قبل الفتوح الإسلامية أو بعدها أن قام سكان هذه المنطقة بغزو الإمبراطوريات الضخمة فيما وراء الحدود الغامضة والمتغيرة لموطنهم. فللمرة الأولى والوحيدة عبّأ ظهور الإسلام الطاقات العسكرية وصلابة الناس فى شبه الجزيرة العربية لغزو العالم الذى كان يحيط بهم. فما نوع المكان الذى أنتج هؤلاء المحاربين ، وأى صنف من الرجال كانوا هم بحيث استطاعوا أن يخلقوا هذه الثورة الهائلة فى التاريخ الإنسانى ؟

شبه الجزيرة العربية شاسعة . ويمتد خط مستقيم من جنوب شرق بلاد العرب عند رأس الهد فى عُمان إلى حلب فى شمال غرب بادية الشام على طول أكثر من ألفين وخمسمائة كيلو متر . وبالاعتماد على ظهور الدواب فى السفر والتنقل ، كانت الرحلة على امتداد هذا الطريق تستغرق ما يزيد على مائة يوم من السفر المتواصل . ولم يكن تنظيم الرجال والجيوش فوق مساحة شاسعة كهذه أمرًا سهلاً ؛ وكانت الظروف الخاصة فحسب للفتوح الإسلامية الباكرة هى التى جعلت ذلك ممكنًا .

والكثير من مناطق شبه جزيرة العرب صحراء، بيد أن الصحراوات كلها ليست متماثلة . فإذا كان الإنويت Inuit لديهم ألف كلمة للدلالة على الأنواع المختلفة من الجليد،

فلابد أن بدو شبه الجزيرة العربية لديهم تقريبا مثل هذا العدد من الكلمات الدالة على أصناف مختلفة من الرمال، والأحجار، والحصباء . فبعض الصحراوات، مثل صحراء الربع الخالى الشهيرة فى وسط جنوب شبه الجزيرة مكونة من الكثبان الرملية، وهى فضاء لايمكن لأحد أن يعيش فيها، ولايعبرها غير أكثر الناس صلابة ، أو أكثرهم حماقة. بيد أن معظم الصحراء ليست كذلك بالضبط. إذ إن السطح فى أغلب الأحوال يتكون من الحصباء بدلاً من الرمال، وهى مقفرة ولكن من السهل عبورها. وبالنسبة للغريب يبدو معظم فضاء الصحراوات جرداء قاسية . وغالبًا ما تكون الأرض مسطحة أو تحددها التلال - منخفضة ومنحدرة ومجهولة - بها قليل من النباتات فى الوديان ، سواء كانت مسطحة أو صخرية ، فكل منها تقدم إمكانيات مختلفة. ومشهد الفضاء الصحراوى فى شبه الجزيرة العربية كان معروفًا تمامًا لسكانه، ويمكننا أن نقول إنهم كانوا يدللونها. وقد كان من دواعى سرور شعراء شبه الجزيرة العرية قديمًا أن يطلقوا الأسماء على التلال والوديان حيث كانت مخيمات قبائلهم ومضاربها ، أو حيث كانوا يحاربون ، أو يتبادلون الحب. فبالنسبة لهم، كانت الصحراء أرض الفرصة ، وأرض الخطر.

وجرى العرف على تسمية البدو الناطقين بالعربية Bedouin فى اللغة الإنجليزية ، وهذا هو المصطلح الذى سوف استخدمه . وقد سجلت أخبار العرب فى الصحراء منذ أيام الآشوريين فى بواكير الألف الأولى قبل الميلاد فصاعداً. وكانوا ملمحاً دائماً وثابتًا من ملامح الفضاء الصحراوى، ولكن بالنسبة للناس المستقرين فى منطقة الهلال الخصيب ، الذين نعتمد على كتاباتهم فى الحصول على المعلومات ، كانوا هم «الآخر» إلى حد كبير للغاية - بعيدين، وفى بعض الأحيان يغيرون على المناطق المستقرة للنهب والسرقة ، ولكنهم دائمًا ما كانوا يعودون، أو يجبرون على العودة إلى عزلة صحراواتهم . وللبدو قليل من التاريخ السياسى وفى العصور القديمة كان زعماؤهم يعيشون ويموتون دون أن يتركوا أثرا من الازدهار ، سوى فى ذكريات أتباعهم وأبناء قبائلهم. وفى القرن الثالث الميلادى نبدأ فى العثور على عرب يتركون انطباعًا أكثر وضوحًا على كتب التاريخ . ففى أثناء هذه الفترة قامت الملكة زنوبيا ، من قاعدتها فى مدينة بالميرا

التجارية الكبرى القائمة فى واحة كبيرة فى أعماق بادية الشام، بتأسيس مملكة ضمت معظم الشرق الأوسط. وتطلّب الأمر القيام بحملة ضخمة قام الامبراطور الرومانى أوريليان Aurelain بتجريدها سنة ٢٧٢م لكى يعيد إخضاع هذه المنطقة للحكم الرومانى . كانت إمبراطورية زنوبيا مؤقتة ، ولكن من حين لآخر ، كان الناطقون بالعربية يُظهرون قدرتهم على الغزو، وباختصار ، فرض سيطرتهم على مدن الهلال الخصيب.

وفى المناطق الصخرية جنوب شرق دمشق ، حيث تخلى صخور البازلت السوداء فى حوران الخصيبة مكانها للحصباء ورمال بادية الشام، توجد قلعة نيمارا الرومانية . وكانت نيمارا واحدة من أبعد المواقع فى العالم الرومانى ؛ فهى بعيدة عن أروقة دمشق ونافوراتها ولذلك كانت موقعًا منعزلاً ، يكاد يكون تائها فى الصحراء الخاوية الجرداء التى تمتد حتى العراق. وخارج أسوار القلعة توجد مقبرة بسيطة وعليها شاهد قبر منقوش. والنقش مكتوب بالخط النبطى المعروف فى البتراء، ولكن اللغة المكتوب بها لغة عربية واضحة. وهى تخليد لذكرى امرؤ القيس بن عمر ملك العرب جميعًا ويزعم إن غزواته طالت أراضى حِمْيَر فى اليمن. كما يخبرنا النقش أنه مات فى «نعيم» سنة ٣٢٨م. وشاهد القبر مثير للاهتمام إلى أبعد حد : فهو الوثيقة الوحيدة من تلك الفترة، وهو يبين تطور فكرة العرب بوصفهم جماعة لهم هويتهم الخاصة المنفصلة ؛ والمتمايزة عن الرومان والأنباط وغيرهم. ونحن لانعرف ما إذا كان امرؤ القيس قد مات مسنًا، فى خيمته ، أم فى أثناء غارة معادية ضد بلاد الشام ، أو رحلة تجارة سلمية فى العالم الرومانى، أو حسبما تقترح بعض المصادر العربية ، باعتباره واحداً ممن اعتنقوا المسيحية ، ويرمز مكان دفنه إلى الهوية المنفصلة للعرب القدامى وتفاعلهم الوثيق مع الرومان والفرس الذين حكموا المناطق المستقرة التى كان على حدودهم مواطنهم الصحراوية.

وفى القرن السادس الميلادى تطور هذا الوعى بالذات الناشئ عند العرب بشكل أكبر . ففى هذا الوقت كان الهلال الخصيب محكومًا بإمبراطوريتين كبيرتين، البيزنطيون فى بلاد الشام وفلسطين والفرس الساسانيون فى العراق. وكانت لدى كل

من هاتين القوتين العظميين مشكلات فى التعامل مع البدو على امتداد الحدود الصحراوية لممتلكاتهما . وكان الرومان ، بكفائتهم النمطية، قد أقاموا القلاع وبنوا الطرق بحيث يمكن لقواتهم أن تحرس الحدود ، وتحافظ على المدن الغنية والأراضى الزراعية فى الداخل آمنة من غارات البدو. وكان من الصعب الحفاظ على هذا النظام؛ فقد كان من العسير إبقاء الرجال فى قلعة نائية مثل نيمارا فضلاً عن أن هذا كان أمراً مكلفًا . ولو كنا قد عرفنا المزيد عن الفرس الساسانيين ، فربما وجدنا أنهم واجهوا مشكلات مماثلة هم أيضا.

وفى أثناء القرن السادس ، حاولت كلتا القوتين العظميين أن تجد سبلاً بديلة للتعامل مع الحدود الصحراوية ، وتحولتا إلى الممالك التابعة. وقد نجحتا فى استخدام العرب فى التعامل مع العرب. فعلى حدود بلاد الشام كان البيزنطيون قد أقاموا سلالة حاكمة قوية يعرفها التاريخ باسم الغساسنة . فقد منحوا زعماء الغساسنة لقب «فيلارخ» الإدارى اليونانى وكان يتم دفع إتاوات مالية لهم لكى يحتفظوا بالعلاقات الودية مع بدو شبه الجزيرة العربية. ومن خلال المزج بين دفع الأموال، والدبلوماسية وعلاقات القربى والتحالفات ، حافظ الغساسنة على الحدود الصحراوية، وعملوا باعتبارهم منطقة فاصلة بين الحكومة البيزنطية والبدو. كما أنهم تحولوا إلى المسيحية، على الرغم من أنهم كانوا على مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيتى) الذى كانت القسطنطينية تعتبره مذهبا خارجًا (هرطقة) . وقد عاش زعماء الغساسنة أسلوب حياة شبه بدوى جذابًا . ففى الربيع عندما تكون أطراف الصحراء قد اكتست اللون الأخضر الحى، مع نمو العشب الجديد ، كانوا يضربون خيامهم فى الجابية بمرتفعات الجولان وكان زعماء القبائل يفدون لزيارتهم، ولإسداء الاحترام ، ولتلقى عطاياهم المالية بالتأكيد. وفى أوقات أخرى قد يعقدون محكمة بالقرب من الضريح الكبير لسان سرجيوس المحارب، فى الرصافة شمالى بادية الشام[١]. ولم يكونوا يستقرون فى البلدة الرومانية ولكنهم بنوا قاعة حجرية على بعد حوالى ميل شمالاً . وكانوا يضربون خيامهم حول هذه القاعة وكان العرب يفدون لزيارة الضريح وزيارة الفيلارخ الغسّانى.

وعلى مسافة ألف ميل عبر بادية الشام شرقًا، كان اللخميون، الذين يتولون أمر الأطراف الصحراوية لحساب الملوك الساسانيين، يعقدون بلاطهم أيضًا. ويبدو أن اللخميين كانوا أكثر استقرارًا من الغساسنة كما كانت عاصمتهم فى الحيرة، حيث تتقابل الصحراء مع الأرض الزراعية الغنية على امتداد نهر الفرات الأدنى، بلدة عربية حقيقية. وكان اللخميون مسيحيين مثل الغساسنة. كما كانوا رعاة عظماء للأدب العربى الباكر. فقد كان الشعراء ورواة القصص يفدون إلى بلاطهم، وربما كان هذا هو المكان الذى شهد اكتمال الخط العربى، الذى لم يلبث أن جرى استخدامه لكتابة القرآن وتسجيل أعمال الفاتحين الأول. لقد كانت هناك هوية عربية آخذة فى الظهور، ولم يكن العرب مستعدين بعد لغزو الإمبراطوريتين العظيمين، ولكن كانت لديهم لغة مشتركة، وثقافة مشتركة تكونت مع مرور الزمن.

عاش كثير من العرب بدوًا فى قبائل، يحيون أسلوب حياة بدويًا فى حالة من الفوضى، بلاحكومة، وقد اعتمد هؤلاء البدو على قطعان حيواناتهم التى كانت أهمها الخراف والجمال. وأدت الأنواع المختلفة من الحيوانات إلى نماذج مختلفة من العيش. وكانت تربية الجمال تمثل أسلوب دعم البدو وإعاشتهم فى جوف الصحراء. إذ يمكن للجمال أن تبقى أسبوعين أو أكثر بدون ماء، وهو ما منح البدو قدرة على التحرك بعيدًا عن الأراضى المستقرة وجعلهم ينعمون بميزة مراعى الكلأ المتناثرة ومصادر الماء البعيدة فى مناطق لايمكن لأى جيش من جيوش القوى الإمبراطورية أن يأمل فى ملاحقتهم فيها. أما الماشية والماعز فإنها أقل قدرة على تحقيق الاكتفاء الذاتى. فهى تحتاج إلى أن تشرب يوميًا، ولايمكن أن تعيش على العشب الجاف القليل الذى يمكن أن يعول الجمال وتحتاج إلى أن تؤخذ إلى الأسواق عندما يحين الوقت لبيعها وذبحها. أما البدو الذين يربون الماشية فيعيشون على مسافة معقولة من المناطق المستقرة ولهم صلات أوثق مع أهل المناطق المستقرة من البدو الذين يربون الجمال فى جوف الصحراء. وكان بدو الجمال ينعمون بالاستقلال التام أكثر من غيرهم. وإذ كانوا محصنين تقريبا ضد الهجوم فى عزلة صحراواتهم، فقد كانوا يمثلون الأرستقراطية الحربية الحقيقية بين العرب.

كانت القبائل، بدلاً من الدول والإمبراطوريات، هى القوى السياسية السائدة فى الصحراء وفى بعض الأحيان، تسهِّل قراءة الروايات التاريخية التى ترجع إلى السنوات الباكرة من تاريخ الإسلام والفتوح الكبرى، وجود انطباع بأن الولاءات القبلية والمنافسات القبلية كانت مهمة فى تحريك العرب إلى القتال والغزو بقدر ما كان الدين الإسلامى أو الرغبة فى الحصول على المغانم . ولكن الحقيقة، أن الولاءات القبلية كانت أكثر تعقيداً وتنوعاً مما تبدو للوهلة الأولى. لقد صور العرب أنفسهم على أنهم يعيشون فى قبائل . فكل واحد من أبناء القبائل يؤمن أن جميع أفراد القبيلة ينحدرون من جد مشترك ينتسبون إلى اسمه ، وبذلك تسمى قبيلة تميم نفسها، ويسميها الآخرون ، «بنو تميم». والحقيقة أن هذه الصورة المتخيلة للذات كانت مضللة إلى حدٍ ما لأن القبائل الكبرى مثل تميم لم تتجمع معًا أبداً ، ولم يكن لها زعيم واحد كما لم تكن هناك عملية مشتركة فى اتخاذ القرار. وكانت الخيارات الحاسمة بشأن مكان مضارب خيام القبيلة أو أين تجد الكلأ والمرعى ، أو كيف تتجنب الأعداء، أموراً تبت فيها مجموعات صغيرة فى الخيام، بل كان يتم حسمها بواسطة عائلات منفردة . وعلاوة على ذلك ، لم تكن عضوية القبيلة تحسم على أساس الأصل البيولوچى وحده . وكان بمقدور الرجال الانتقال من القبيلة للالتحاق بجماعات قبلية جديدة ، وقد حدث هذا بالفعل . وربما كان الزعيم الناجح يجد أن قبيلته زادت زيادة كبيرة على حين يجد الزعيم الفاشل الرجال ينفضّون عنه . وعلى أية حال ، فإن الرجال الذين كانوا يفكرون فى الروابط البيولوچية ، لم يكونوا يقولون إنهم غيروا القبيلة وإنما يظلون دائمًا جزءاً منها على نحو ما .

والواقع ، أنه لم يكن ممكنا للرجل وعائلته أن يعيش فى الصحراء بدون رابطة القربى القبلية . لقد كانت هذه بيئة قاسية بشكل لايمكن تخيله . فقد كان من الممكن أن تموت الحيوانات ويذبل العشب، وتجف الآبار ويهجم الأعداء. ولم تكن هناك قوة شرطة ، حتى لو كانت فاسده وتعوزها الكفاءة، ولايوجد حاكم يمكن للضحية أن يلجأ إليه: كانت هناك فحسب روابط القربى، سواء أكانت حقيقية أم خيالية ، هى التى يمكن أن

تحمى الإنسان ، وتقدم المساعدة وقت الحاجة، كما توفر الحماية أو التهديد بالانتقام والثأر فى وقت الهجوم . لقد كان الرجل الذى لا عشيرة له ضائعًا . وفى أيام الإسلام الأولى عملت القيادة بعدة سبل على تدمير الولاء القبلى أو التخفيف منه على الأقل. فقد كان من المفروض أن تكون الأمة الإسلامية بديلاً عن القبيلة ، لاتقوم على أساس الأصل والنسب ولكن على أساس الالتزام بالدين الجديد، والتسليم بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وسوف توفر الأمة الحماية والأمن الذى كانت القبيلة توفره للناس فيما سبق . والحقيقة أنه لم يكن من السهل تقويض الولاءات القبلية التى خدمت الناس بهذا الشكل الجيد على طول الزمان حتى ذلك الحين. وفى السنوات الباكرة من الفتوح ، حارب الناس فى مجموعات قبلية وتجمعوا حول رايات قبائلهم فى ساحة المعركة . وفى خضم هذه الحروب لابد وأن أبناء قبيلة تميم، على سبيل المثال ، قد حاربوا إلى جانب أبناء قبيلتهم الذين لم يكونوا قد قابلوهم وربما لم يسمعوا عنهم أبداً من قبل. وعندما تم توطينهم فى المدن العسكرية الجديدة فى البصرة والكوفة فى العراق أو الفسطاط فى مصر، تم وضعهم فى مجموعات قبلية. وعندما تطلب الأمر الصراع من أجل الموارد، ومن أجل الرواتب والغنائم ، اكتسبت المنافسات القبلية كثافة وحشية قاسية نادراً ما حدثت فى مجتمع الصحراء الأكثر انفتاحاً وبعثرة . لقد كان التضامن القبلى، الذى كان أبعد ما يكون عن التقلص بسبب الدين الإسلامى الجديد، قد تعزز على نحو ما بسبب أحداث الفتوح. وعلى أية حال، سيكون من الخطأ أن نبالغ فى تقدير الدور الذى لعبته القبائل . ففى الحقيقة كانت الولاءات القبلية ذات أهمية حاسمة بالنسبة لبعض الناس فى بعض الأوقات ، وكانت مسألة تغيب فى مجاهل النسيان أحيانا .

كانت القبائل تحت قيادة الشيوخ (الزعماء)، وعادة ما كان الواحد منهم يسمى الشريف فى العصور الإسلامية الباكرة. وكانت الزعامة فى القبيلة إنتخابية ووراثية فى الوقت نفسه . فكل قبيلة، أو بطن من قبيلة، كان لها حاكم من ذوى القربى، أخوة وأبناء عمومة عادة ما كان يتم اختيار الزعيم من بينهم. وبينما لم يكن هناك انتخاب رسمى ،

إذْ كان أبناء القبيلة يعلنون ولاءهم لمن هو أكثر قدرة أو أوفر حظًا ، من أبناء العشيرة الحاكمة . ومن المؤكد أن الزعماء الذين كان يتم اختيار، بسبب قدرتهم ، كانوا قادة عسكريين ، بيد أن الشجاعة أو المهارة فى ميدان المعركة لم تكن الخصال الوحيدة المطلوبة. كان المطلوب فى الزعيم أن يكون ماهراً فى التفاوض ، وأن يحل المنازعات بين أتباعه قبل أن تخرج عن السيطرة ، وأن يتعامل مع أبناء القبائل الأخرى، بل ومع السلطات الإمبراطورية. وكان لابد للزعماء أن يتمتعوا بالذكاء - ذلك النوع من الذكاء الذى يعنى أنهم يعرفون متى أمطرت السماء فى الصحراء المتقلبة حديثًا ، وأين يمكن أن يجدوا مساحات العشب الصغيرة والنضرة التى تعنى أن بوسع أتباعهم وحيواناتهم أن تأكل وتشرب جيداً. ولعمل هذا، كان لابد للزعيم الناجح أن يبقى خيمته مفتوحة . وكان الكرم المشهور لدى البدو جزءاً مهمًا من استراتيجية البقاء المعقدة . فقد كان من المؤكد أن ينعم الضيوف بالطعام والتسلية ولكن فى مقابل أن يقدموا معلومات عن مناطق العشب والكلأ ، والشئون الحربية والمنازعات ، والأسعار وفرص التجارة . وبدون شبكة الاتصالات غير الرسمية هذه، لم تكن أخبار ظهور الإسلام لتنتشر أبدا فى أنحاء صحراء شبه الجزيرة العربية الخاوية تقريبًا، ولم يكن ممكنًا على الإطلاق تجميع الجيوش التى كان عليها غزو الإمبراطوريتين العظميين .

وباستثناءات قليلة جداً، يمكن وصف الذكور البالغين من بدو شبه جزيرة العرب بأنهم جنود. فقد كان يتم تعليمهم منذ نعومة أظفارهم ركوب الخيل، واستخدام السيف، والقوس ، والسفر الشاق ، والنوم الخشن، والعثور على طعامهم حيثما يمكنهم . وفى ظروف المنافسة القبلية لم يكن هناك مدنيون . وقد عاش بدو شبه الجزيرة فى خيام ليست بها ألوان أو رسوم ولم يبنوا أية مبانٍ: إنهم مختفون بالفعل من السجل الأثرى. وقد امتازوا ، على أية حال، فى شكل فنى رئيسى: الشعر . وشعر عرب الجاهلية شكل فنى فريد ومُركَّب. وغالبا ما شاع بين النقاد العرب المحدثين باعتباره نموذج الشكل الشعرى، الذى يستحوذ على الإعجاب أكثر من غيره وتتم محاولة تقليده . وقد تساءلت بعض الأبحاث الحديثة عن مدى أصالته ، بيد أن الاتفاق العام على أن بعض المادة على الأقل تقدم شاهداً على القيم والمثل العُليا وعقلية العرب قبل الإسلام.

وقد أكد النقاد العرب اللاحقون على الأهمية المركزية للشعراء فى هذا المجتمع . وثمة ناقد أدبى عربى كتب فى القرن التاسع الميلادى الثالث الهجرى ، لاحظ أنه فى الجاهلية كان الشعر بالنسبة للعرب ديوان معارفهم، ولكن ابن رشيق ، الذى كتب فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى، يصف أهمية الشعر بالنسبة لقومه بقوله :

«عندما كان يظهر شاعر فى عائلة من العرب، لابد أن تجتمع القبائل العربية المجاورة لتلك العائلة متمنين لهم الفرح بحظهم السعيد. وتقام الولائم ، وتضم نساء القبيلة أيديهن متشابكة، ويعزفن على المزاهر مثلما يفعلون فى حفلات الأعراس ويقوم الرجال والصبية يهنئ كل منهم الآخر: لأن الشاعر كان بمثابة دفاع عن شرفهم أجمعين، وسلاحاً يدرأ عنهم الإهانة ويصون اسمهم ووسيلة للحفاظ على بقاء أفعالهم المجيدة ويؤسس شهرتهم إلى الأبد»[٢].

والحقيقة أن الشاعر كان يقوم بعدة وظائف مهمة ، تشجيع التضامن القبلى وروح الجماعة، والدفاع عن سمعة قبيلته ويحفظ لهم ذكريات الازدهار.

والشعر راسخ فى بيئة بدو شبه الجزيرة العربية الصحراوية. والكثير منه ملتزم بالصياغة الصارمة للقصيدة التى يمكن أن تصل إلى مائة بيت ، على لسان المتكلم أى الشاعر الذى يصف فيها حبه ومغامراته ، وامتياز راحلته ، وأمجاد قبيلته أو من يتولى حمايته ورعايته. والفضائل التى يتباهى بها هى فضائل الأرستقراطية المحاربة. فهو شجاع لايغشاه الخوف ، وهو بالطبيعة يمكنه تحمل المشاق الجسام ، وهو يتمالك نفسه بشكل يثير الإعجاب، كما أنه عاشق لا يقاوم وصياد عظيم . وغالباً ما يكون الشعراء مخربين ، بل إن منهم شخصيات خارجة على القانون، يغوون زوجات الرجال الآخرين بحماسة مُتبجحة، وغالباً ما يرون أنفسهم متوحدين، رجل وحيد مع راحلته ضد العالم بأسره . وليس هناك ما يدل على وجود ديانة رسمية ، ولا ذكر للأرباب ، وإنما قوة القدر الأعمى فحسب، والجمال الذى يحمله فضاء الصحراء بأخطاره وتهديده.

ويمكن أن نتحول لنرى مثالاً على شعر المعارك فى تلك الفترة إلى قصيدة تُنسب إلى عامر بن طفيل[*]. وكان معاصراً للنبى محمد وكانت له ولقبيلته مراعى بالحجاز حول مدينة الطائف. ويبدو أن الكثير من سنى حياته قد قضاها فى المعارك ، وعلى الرغم من أنه مات ميتة سلمية، فإن أباه وعدداً من أعمامه وأخوته لقوا مصارعهم فى خضم الصراعات القبلية . وفى إحدى قصائده يُعربد فى هجوم شنه فجراً على أعداء قبيلته[*]:

صَبَحْناهم بكل أقبّ نهد ... ومُطرَّد له يَقِدُ الحديدُ
وأبيض يخطف القَصَرات عَضْب ... رقيق الحد زيَّنه غِمُود
وكل طِمرَّة خَفِقٌ حشاها ... مُلملمةٌ تلاقيها بعيد
لقينا جمعهم صُبحا فكانوا ... كمثل الضأن عاداهن سيد
فغودر منهم عمروٌ وعمروٌ ... وأسود والكُماة بها شهود
وعبد الله غُودر وابن بشر ... وعتَّاب ومُرَّة والوليد
لقيناهم ببيض مرهفات ... نقتلهم بها حتى أبيدوا
وأردفنا نساءهم وجئنا ... وقد دميت من الخمش الخدود[٣]

أو فى مناسبة أخرى :

لقد تعلم الحرب أنى ابنها ... وأنى الهُمام بها المُعلم
أنى أحُل على رهوة ... من المجد فى الشرف الأعظم
وأنى أُشمّص بالدار عين ... فى ثورة الرهج الأقتم
وأنى أكرُّ إذا أحجموا ... بأكرم من عطفة الضيغم

(*) النص العربى من ، ديوان عامر بن الطفيل ، تحقيق تشارلز لايل (قدم لها وترجم التعليقات إلى العربية الدكتور محمد عونى عبد الرؤوف) مركز تحقيق التراث - دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٢م.

وأضــــر بـالـســـــيف يوم الوغــــى أقــــــدُّ بـه حلـــــــق المبَّــــــرم
فـهــذا عـتــادى لو أن الفـتـــــــى يُعـمَّـــر فى غـيــر مــا مـهـرم
وقـــد علم الحىُّ من عـــامـــــر بـــأن لـنـــا ذروة الأجـــســم
وأنا المصـاليت يـــوم الوغــــى إذا مــــا العــوابر لم تُقـــدم(٤)

هذه ، إذن كانت القيم التى يتحلى بها الكثير من بدو شبه الجزيرة العربية الذين شاركوا فى الفتوح الإسلامية الباكرة . فالشعراء يمجدون السرعة والقوة فى المعركة وامتياز جيادهم. وهناك أيضا تأكيد قوى على الجسارة الفردية . والمحارب فى الشعر يدافع عن قبيلته ، ويُشتت القبائل المنافسة ؛ ولكن ربما كان ما يهمه أكثر من أى شىء آخر التغنى بشجاعته وسمعته الخاصة. ولابد أن جيوش الإسلام قد أخذت معها إلى ساحة المعركة الكثير من هذه الأفكار نفسها، لاسيما الاهتمام بالشهرة على مستوى الفرد وعلى مستوى القبيلة على السواء. وفى وعيهم أو لا وعيهم كانوا يدركون الدور الذى يلعبه الشعراء المحاربون فى الجاهلية باعتبارهم نماذج يقتدى بها.

لقد كان هذا الشعر دالاً أيضًا على الطريقة التى تذكروا بها الأحداث وبالتالى على الطريقة التى نحاول بها أن نفهمهم . فليس هنـاك اهتمام بالاستراتيجية الكليـة، أو رواية عامة عن تقدم المعركة ، وإنما اهتمام لانهائى بالأفراد ومواجهاتهم مع العدو.

وبينما الكثير من أراضى شبه الجزيرة العربية صحراء، فإن شبه الجزيرة تضم أيضًا بعض الأراضى والمساحات المختلفة على نحو مدهش . ففى مرتفعات اليمن فى الركن الجنوبى الغربى، وأجزاء من عُمان فى الجنوب الشرقى، تجتذب الجبال العالية ما يكفى من الأمطار لوجود الزراعة الدائمة . وهنا عاش الناس، كما لايزالون إلى اليوم، فى قرى مبنية بالحجر تشرف على الحواف الصخرية ، ويزرعون المحاصيل على مصاطب على جوانب التلال شديدة الإنحدار . وكان أهل القرى يتجمعون فى قبائل ، مثل عرب الصحراء ، بيد أنهم لم يكونوا من البدو. ومن المستحيل أن نعرف نسبة العرب الذين انضموا إلى جيوش الفتح والذين جاءوا من هذه المجتمعات المستقرة .

وفى العصر الحديث، يكاد يكون من المؤكد أن سكان اليمن بمساحته الصغيرة أكثر من سكان السعودية بمساحتها الشاسعة ، ويمكننا أن نكون واثقين أن كثيرا من الفاتحين ، لاسيما أولئك الذين جاءوا إلى مصر ، وشمال أفريقيا، وإسبانيا جاءوا من مجموعات لم تكن من بدو شبه الجزيرة العربية على الإطلاق ، وإنما كانت عائلاتهم تمارس الزراعة على مدى الأجيال فى حقولهم الصغيرة الخصيبة.

وكان للناس فى الجنوب المستقر تراث سياسى يختلف تمامًا عن تراث البدو فى بقية أنحاء شبه الجزيرة . فمنذ بداية الألف الأولى قبل الميلاد، كانت هناك ممالك راسخة مستمرة فى هذه المنطقة ، ومعابد مشيدة بالأحجار الصلبة ، وأعمدة كبيرة مربعة من الأحجار ، وقصور وقلاع، ونقوش باقية تطورت لكى تسجل أعمال المؤسسين المجددين[٥]. كان هذا مجتمعًا كانت تتم فيه جباية الضرائب وتعيين رجال الإدارة . وفى ذروة أيام ازدهار تجارة البخور العظمى فى القرون الأخيرة قبل الميلاد، وُجد خط بأكمله من المدن التجارية على امتداد حافة الصحراء اليمنية ، وهى مدن قوافل كانت تمر من خلالها العطور الثمينة، واللبان والمُر على ظهور قوافل من الجمال من الشاطئ الجنوبى الوعر، حيث توجد أشجار صغيرة ضامرة تنتج الصمغ الثمين، فى اتجاه موانئ البحر المتوسط مثل غزة ، حيث كانت توجد الأسواق . كان هذا أيضا مجتمعًا يستطيع أن ينظم مشروعات ضخمة فى الهندسة المدنية مثل سد مأرب العظيم. وهنا على الحواف الرملية للربع الخالى، كان يتم تجميع مياه الأمطار المتساقطة على مرتفعات اليمن، وتوزع من خلال واحة اصطناعية لكى توفر مياه الشرب ولرى المحاصيل.

وبنهاية القرن السادس الميلادى، عندما بدأ النبى محمد دعوته، كانت الأيام المجيدة لممالك جنوب شبه الجزيرة العربية قد ولت ، فمع القرن الميلادى الأول كانت تجارة البخور قد تحولت عندما كان تحسن الملاحة وفهم الرياح الموسمية قد جعل الطريق البحرى فى البحر الأحمر الممر التجارى الرئيسى. وكانت مملكة حمير ، آخر الممالك القديمة، قائمة لا على أساس طرق التجارة القديمة فى الداخل وإنما على المدن والقرى فى مرتفعات اليمن. ومع أواخر القرن السادس، كانت حمير نفسها تعانى

الاضمحلال وكان سد مأرب العظيم قد تصدع وانهار، ولم يتم إصلاحه أبداً، وتم هجران الواحة وتركها للبدو الرُحل . وآخر نقش مؤرخ بالخط العربى الجنوبى القديم قد كتب فى سنة ٥٥٩م . ومع نهاية مملكة حمير جاء الحكم الأجنبى، أولا على أيدى الأحباش منذ ثلاثينيات القرن السادس ثم على أيدى الفرس. وكان لا يزال هناك بعض الرجال الذين يعرفون قراءة الخطوط الأثرية القديمة ، كما بقيت ذكريات فولكلورية عن الممالك القديمة، وكان الانهيار النهائى لسد مأرب أواخر القرن السادس بمثابة المنعطف فى تاريخ المنطقة.

كانت هناك مدن متناثرة فى أجزاء أخرى من شبه الجزيرة العربية كما كانت هناك شبكات من الأسواق والتجار . ففى منطقة التلال فى الحجاز غرب شبه الجزيرة كانت هناك مدن تجارية وزراعية صغيرة من ضمنها مكة والمدينة ، وكان سكان هذا المدن الحجازية الصغيرة هم نخبة الإمبراطورية الإسلامية الباكرة . كانت هذه مجتمعات مستقرة، أيضا فى منطقة النخيل الكبرى فى اليمامة على ساحل الخليج . وكانت معظم هذه البلدات والأسواق تستخدم أساسًا لتبادل الصوف والجلود لدى الرعاة مع الغلال وزيت الزيتون والنبيذ التى كانت مواد الرفاهية الأساسية . ومنذ سنة ٥٠٠ ميلادية تقريبًا ، على أية حال، بدأت حركة اقتصادية جديدة فى الظهور وهى تعدين المعادن الثمينة فى الحجاز[٦]. أما السبب فى أنها بدأت فى ذلك الوقت وليس قبل ذلك فهو أمر غير واضح: وربما كانت اكتشافات الصدفة قد أطلقت موجة من التنقيب عن المعادن. وكل من الأدلة الأثرية والمكتوبة تبين أن هذا التعدين كان يزداد أهمية حوالى سنة ٦٠٠م، وأن بعض المناجم كانت مملوكة لبدو شبه الجزيرة العربية وتولوا إدارتها مثل قبائل بنى سليم، وقد زاد إنتاج المعادن الثمينة كثيرًا فى رفاهية المنطقة. فقد كان بأيدى البدو، أو بعضهم على الأقل ما يكفى من المال ليجعلهم مستهلكين مهمين لمنتجات المناطق المستقرة. وظهرت مجموعات من التجار لاستيراد البضائع من بلاد الشام، وأقاموا شبكات بين القبائل للسماح لقوافلهم بالمرور فى سلام.

ويبدو أن أهم هذه المراكز التجارية الجديدة كانت مكة . وتقع مكة فى وادٍ غير ذى زرع بين جبال قاحلة جرداء ، وهى بيئة غير مشجعة لإقامة مدينة، ولكن كانت لها

أهميتها الدينية التى جذبت الناس إليها . وقد بنيت الكعبة حول الحجر الأسود. وكان إبراهيم عليه السلام قد بنى الكعبة منذ زمن بعيد. وحول الكعبة تقع منطقة مقدسة «الحرم» ، ممنوع فيها العنف . وفى هذه المنطقة كان يمكن لأبناء القبائل المتعادية المختلفة أن يتقابلوا للتجارة وتبادل البضائع والمعلومات . وتطور الأمر بحيث ظهر سوق ومعرض تجارى وكان البدو يفدون من كل مكان لزيارته: وقد تم الربط بين الكعبة والتجارة برباط وثيق .

وعند نهاية القرن السادس الميلادى ، كانت قبيلة قريش مسئولة عن الكعبة والحرم. ولم تكن قريش من البدو ولكن أبناءها عاشوا فى مكة. وكانوا يتولون رعاية الكعبة، وبمرور الوقت أخذوا ينظمون قوافل التجارة من مكة إلى الشام شمالاً واليمن فى الجنوب (رحلتى الشتاء والصيف) . وأسسوا شبكة علاقات فى جميع أنحاء غرب شبه الجزيرة وأحيانا فيما وراءها : ويقال إن بعض العائلات البارزة كانت تمتلك ضياعًا زراعية وممتلكات فى بلاد الشام. هذه الاتصالات ، وهذه الخبرة فى التجارة ، والسفر وسياسات التفاوض، قيِّض لها أن تبرهن على أهميتها القصوى فى ظهور الدولة الإسلامية.

كانت هناك علاقات تكافلية حميمة تربط بين البدو والتجار والمزارعين فى المناطق المستقرة وكانت بعض القبائل تضم بطونا من المستقرين وبطونًا من البدو على السواء، وكانت بعض الجماعات يعملون بالرعى أو بالزراعة فى فترات مختلفة ، وكان كثيرون يقومون بهذه وتلك . وقد اعتمد بدو شبه الجزيرة على أهل المناطق المستقرة فى إمدادهم بحاجتهم من الغلال أو القمح أو النبيذ . كما اعتمدوا عليهم فى رعاية الكعبة والأسواق التى كانت يمكنهم التقابل فيها للقيام بالاتفاقات والترتيبات لمرور القوافل التى تعزز مواردهم الهزيلة . وكان البدو معتادين من عدة جوانب على قبول الزعامة السياسية ، أو الإرشاد السياسى على الأقل ، من النخب المستقرة . من ناحية أخرى ، كان الناس المستقرون يحتاجون ، أو يخافون ، البدو بسبب مهاراتهم العسكرية. وعندما كان يتم التعامل معهم مثلما تعامل الغساسنة واللخميون مع البدو فى بداية الشام،

كان يمكن أن يكونوا دعمًا عسكريًا مفيدًا؛ أما عندما كان يفشل التعامل معهم أو يتم تجاهلهم ، فكان يمكن أن يشكلوا تهديدًا ومصدرًا للقلق والضرر. كان هذا التكافل بين الزعامة المستقرة والقوة العسكرية للبدو هو الذى شكل الأساس الذى قامت عليه جيوش الفتوح الإسلامية الباكرة.

ليس هذا مجال تقديم عرض كامل لحياة النبى محمد وتعاليمه ، ولكن بعض المعرفة بسيرته وإنجازاته أمر جوهرى لفهم آليات الفتوح الأولى. فقد ولد فى فرع كريم وإن لم يكن ثريًا من قريش سنة ٥٧٠م تقريبًا . ويقال إنه فى شبابه قام برحلات تجارية إلى بلاد الشام وناقش أمور الدين مع الرهبان المسيحيين الشوام، ولكن معظم سنى حياته الباكرة تحجبه القصص الدينية . وربما يكون قد بدأ دعوته حوالى سنة ٦٠٠م للمرة الأولى حيث دعا إلى ديانة توحيدية صارمة(*). وكانت الرسالة التى جاء بها غاية فى البساطة . فالله واحد أحد، ومحمد (عليه الصلاة والسلام) رسوله الذى ينقل إلى العالمين رسالته التى نزلت عليه بواسطة جبريل. وجاء فى الرسالة أيضا أن أرواح البشر سوف تخضع للحساب، فيذهب الذين آمنوا وعملوا الصالحات إلى الجنة، بما فيها من نعيم، أما الأشرار فيذهبون إلى نار جهنم. وقد بدأ محمد يجتذب الأتباع ، ولكنه أيضا جلب على نفسه عداوة البعض. فلم يكن الناس يروقهم أن يُحرق أجدادهم المبجلون فى نار جهنم ، ومن الناحية العلمية رأوا أن هذه الدعوة الجديدة تمثل هجومًا على الكعبة فى مكة وما كانت تدره من رخاء . ووجد محمد نفسه هدفًا لعداوة متزايدة.

وبحلول سنة ٦٢٢م كانت الأمور قد وصلت إلى ذروتها ولكن محمدًا وجد الإنقاذ فى تدخل أهل المدينة المنورة (يثرب) التى تقع على مسافة حوالى ٣٢٠ كيلو مترًا

(*) من الطبيعى أن يتحدث المؤلف، وهو مؤرخ غير مسلم بهذه اللغة المحايدة وقد آثرت أن أترجم عباراته بدقة دون التدخل فى صياغتها حتى يمكن نقل أفكاره بأمانة للقارئ العربى. وأظن أن القارئ سوف يتفهم الموقف الفكرى للمؤلف مع الاحتفاظ بحقه فى الاختلاف معه . ومن ناحية أخرى ، لاينبغى أن نتوقع مع مؤلف الكتاب - وهو ابن ثقافة مختلفة وديانة مختلفة - أن يكتب عن هذه المسألة مثلما يكتب أحد المسلمين. وعلى أية حال، فالمؤلف باحث جاد ومحايد .كما أننى لم أضف عبارات الدعاء والتبجيل مثل «عليه الصلاة والسلام» بحيث يحتفظ النص العربى بروح الأصل الإنجليزى. (المترجم)

شمالاً. كانت المدينة المنورة تختلف اختلافًا بينًا عن مدينة مكة. فلم يكن بها مزار مقدس وكان أهلها يعيشون فى مستوطنات متناثرة فى واحة خصيبة، ويزرع القمح والتمور. وكانت يثرب تعانى أزمة : ذلك أن الامتثال القبلى والمنافسات القبلية جعلت الحياة عابسة متجهمة وخطيرة ولكن لم يكن يبدو أن أحداً يستطيع أن يضع نهاية لهذا كله . وعند هذه النقطة دعوا النبى محمد، الذى خرج على قبيلة قريش ذات المهابة والمكانة ، لأن يأتى ويتوسط بينهم. وهاجر محمد ومعه جماعة صغيرة من أتباعه من مكة إلى المدينة . وقد وُصفت رحلتهم بأنها «هجرة» ، وسمى من اشتركوا فيها باسم «المهاجرين» ، على حين عُرف الذين ساندوا النبى محمد فى المدينة باسم «الأنصار» . وتحدد سنة الهجرة ٦٢٢م بداية العصر الإسلامى. ومن بين المجموعة الصغيرة من المهاجرين كان أبوبكر ، وعمر وعثمان الذين صاروا فيما بعد الخلفاء الثلاثة الأوائل بعد وفاة النبى، وبعدهم ابن عمه وزوج ابنته على . والهجرة علامة على اللحظة التى انتقل فيها النبى محمد من كونه نبيًا وحيداً ، «صوت يصرخ فى البرية» إلى حاكم لدولة صغيرة، ولكنها نامية.

ومنذ بداية البداية، كان النبى محمد محاربًا مثلما كان نبيًا وقاضيًا ، وتوسع المجتمع الإسلامى من خلال الصراع مثلما توسع بفضل الدعوة . فقد كانت قريش فى مكة مصممة على سحقه ، كما أن محمداً كان يبذل ما فى وسعه بمهاجمة قوافل التجارة التى كانت بمثابة شريان الحياة لحكام مكة . وفى سنة ٦٢٤م ، وقرب بئر بدر ، أوقع المسلمون هزيمة أولى بالمكيين وأخذوا عدداً من الأسرى ولكنهم لم يستولوا على القافلة التجارية التى وصلت بسلام إلى مكة . وبعد ذلك بعامين هزم المكيون قوات محمد فى «أُحُد» ، وفى السنة التالية قاموا بمحاولة للاستيلاء على المدينة نفسها. واستطاع المسلمون هزيمتهم فى غزوة الخندق وأعقب ذلك نوع من الورطة. فقد عُقد صلح الحديبية مع المكيين سنة ٦٢٨م ، وفى عام ٦٣٠ تمكن محمد من فتح مكة وتقبلت غالبية الأرستقراطية المكية سلطته . وفى شتى أنحاء شبه الجزيرة العربية. ووصلت الوفود من القبائل من جميع أرجاء شبه الجزيرة ، يعلنون قبولهم سيادته ويوافقون على دفع الزكاة .

ويمكن أن نرى شيئًا عن كيفية أن المسلمين فى زمن الفتوح العظمى اعتبروا تراث النبى فى الخطب التى قيل إن القادة العرب ألقوها إلى يزدجرد الشاه الساسانى فى زمن فتح العراق. وبالنسبة لواحد من هؤلاء الرجال(٧).

«إنك وصفتنا صفة لم تكن بها عالمًا ، فأما ما ذكرت من سوء الحال، فما كان أسوأ حالاً منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات؛ فنرى ذلك طعامنا . وأما المنازل فإنما هى ظهر الأرض ، ولانلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا بعضًا ، ويغير بعضنا على بعض ، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهى حية كراهية أن تأكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك ؛ فبعث الله إلينا رجلاً معروفًا ، نعرف نسبه ، ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خير أرضنا وحسبه خير أحسابنا ، وبيته أعظم بيوتنا، وقبيلته خير قبائلنا ، وهو بنفسه كان خيرنا فى الحال التى كان فيها أصدقنا وأحلمنا ؛ فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد قبل ترب كان له وكان الخليفة من بعده ، فقال وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا ، فلم يقل شيئا إلا كان فقذف الله فى قلوبنا التصديق له واتباعه فصار فيما بيننا وبين رب العالمين؛ فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله ، فقال لنا : إن ربكم يقول لكم : إنى أنا وحدى لاشريك لى، كنت إذْ لم يكن شىء وكل شىء هالك إلا وجهى، وأنا خلقت كل شىء وإلى يصير كل شىء ، وإن رحمتى أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التى بها أنجيكم بعد الموت من عذابى، ولأحلكم دارى ؛ دار السلام، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق ، وقال : من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبى فقاتلوه، فأنا الحكم بينكم . فمن قُتل منكم أدخلته جنتى ، ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناوأه ، فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف ، أو تسلم فتنجى نفسك(*).

(*) الطبرى ، ١ ، ٢٢٤١ (ج٢، ص٤٩٩-٤٥٠) ، ط. دار المعارف وهو المغيرة بن زرارة بن النباش الأسيدى.

وهناك رجل آخر(٨) شدد على الجوانب العسكرية والسياسية لإنجازه : «إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلنا على الخير ويأمرنا به، ويُعرّفنا الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلاّ صاروا فرقتين ؛ فرقة تقاربه وفرقة تباعده ، ولايدخل معه فى دينه إلاّ الخواص. فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب، وبدأ بهم وفعل ، فدخلوا معه جميعًا على وجهين؛ مكره عليه فاغتبط ، وطائع أتاه فازداد، فعرفنا جميعا فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق..»(*).

ومن غير المحتمل تمامًا أن أيا من هذه الخُطب قد قيلت كما وردت بيد أنها لا تزال مهمة للغاية. فالرواية حسبما وصلت إلينا ربما تكون قد زيد فيها فى النصف الأول من القرن الثامن الميلادى، أى فى غضون جيلين أو ثلاثة أجيال بعد وفاة النبى، وبينما كانت الفتوح الإسلامية فى إسبانيا، ووسط آسيا والهند لا تزال مستمرة . فهى تظهر كيف كان المسلمون الأوائل يتذكرون النبى محمد وهو يقودهم خارج الفقر والانقسامات الداخلية. وهى تؤكد على أهمية كونه من قريش وأهمية الدين الجديد الذى جاء به ، الذى آمن به غالبيتهم دونما إكراه .

كانت غزوات النبى محمد، بمعنى ما، بداية لحركة الفتوح الإسلامية . فقد أوضح مثاله أن القوة العسكرية المسلحة فى سبيلها لأن تصبح عنصرًا مقبولاً أولاً فى الدفاع عن الدين الجديد ثم فى التوسع . وكان نموذج النبى يعنى أنه لم يكن هناك مثيل للاتجاه السلمى الذى تميزت به المسيحية الباكرة . كذلك فإن تاريخ غزواته كان محفوظًا تمامًا فى ذاكرة المسلمين الأوائل، وجادل البعض بأن(٩) سجلات غزواته ، سواء تلك التى شارك فيها بنفسه أو تلك التى جردها تحت قيادة أحد غيره، كانت المادة الأساسية التى اعتمد عليها كُتاب السيرة النبوية الأوائل . وفى الوقت نفسه، فلاشك فى أن الدبلوماسية كانت أكثر أهمية من الغزو العسكرى فى الإسلام فى شبه الجزيرة العربية. لقد كانت شبكة العلاقات التى استمدها من علاقاته القرشية ،

(*) الطبرى ، ج٣ ، ص٤٤٨-٤٤٩ النعمان بن مقرن.

وليس السيف ، هى التى قادت الناس من أماكن نائية مثل اليمن وعُمان إلى مبايعة النبى. كانت القوة العسكرية قد ضمنت بقاء الأمة، ولكنها لم تكن هى الأداة الرئيسية فى انتشار الإسلام أثناء حياة النبى .

كذلك قدمت تعاليم الإسلام فكرة «الجهاد»[١٠]. والجهاد مفهوم مهم فى الإسلام . وهو مفهوم أثار منذ البداية جدلاً مستمرًا بين المسلمين. فقد كانت الأسئلة الأساسية عما إذا كان الجهاد يتطلب العنف أم يمكن أن يكون نضالاً روحيًا فحسب، وعما إذا كان من الممكن أن يكون دفاعيًا أم أنه يمكن أن يستخدم شرعًا لتوسيع حدود الإسلام، وعما إذا كان فرضًا على المسلمين أو نشاطًا طوعيًا يمكن أن يكون ثوابه الجدارة الروحية ، كلها كانت أسئلة مطروحة للنقاش.

وفى القرآن عدة آيات ترشد المسلمين إلى كيفية التعامل مع الكفار ويبدو أن آيات مختلفة تحمل رسائل مختلفة. فهناك مجموعة من الآيات القرآنية توصى بمجادلة غير المسلمين بالتى هى أحسن ومناقشتهم سلميًا لإقناعهم بخطأ ما هم عليه. ففى سورة النحل : آية ١٢٥ ، مثلا: تحث المسلمين على: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ . وتوحى عدة آيات قرآنية بأن عدداً من المسلمين على الأقل كانوا مترددين فى الانضمام إلى الحملات العسكرية ، وأنهم نالوا التوبيخ بسبب قعودهم دون عمل على حين كان يجب عليهم القتال «فى سبيل الله» . ويوحى عدد هذه الآيات الحافزة وإلحاحها بأنه كانت مجموعة مهمة من بين المسلمين الأوائل كانوا مترددين فى شن حروب هجومية من أجل دينهم الجديد، أيا كانت أسباب ترددهم .

وفى بعض الآيات يظهر هؤلاء الذين لايقاتلون بأنهم يخسرون فوائد النصر وكذلك ثواب الحياة الآخرة . فسورة النساء (٧٢- ٧٤) توضح لهم:

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وهناك آيات أخرى تؤكد فقط على الثواب الروحى، فسورة التوبة (٣٨-٣٩) مثلاً، تقول: ﴿ أيا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. وهنا نجد الفكرة ، التى تم التعبير عنها فى الكثير من الحكايات الدينية عن الفتوح، بأن ثواب الحياة الآخرة كانت هى القوة الدافعة لدى المحارب المسلم.

وهناك أيضا آيات توحى بموقف أكثر تشدداً وعنفًا تجاه غير المسلمين ففى سورة التوبة (آية ٥): ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ هذه الآية يكاد يمكن اعتبارها النص المؤسس لحركة الفتوح الإسلامية، وقد ترددت أصداء مصطلحاتها فى العديد من الروايات الخاصة باستسلام المدن والبلاد للمسلمين . وقد تم تخفيفها على نحو ما فى آية أخرى من سورة التوبة (آية ٢٩): ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ . هذه الآية وغيرها مثلها توضح أن أهل الكتاب (أى اليهود والنصارى) ينبغى الحفاظ عليهم طالما أنهم يدفعون الجزية ويعترفون بأنهم فى مكانة أدنى(*).

وقد عمل المفسّرون المسلمون جاهدين للتوفيق بين هذه النظرات التى تبدو مختلفة . وقد توصل الرأى السائد إلى أن الآيات القرآنية التى تحبذ الحرب بلا قيود ضد الكفار قد نزل بها الوحى فى وقت لاحق على نزول الآيات التى تحث على الدعوة والجدل . ووفقًا للفقهاء ، كان هذا يعنى أن الآيات الأولى قد تم نسخها بالآيات التى نزلت فيما بعد .

(*) تقول عبارة المؤلف حرفيًا «واعترفوا بوضعهم باعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية» ، وهو تعبير سياسى حديث يسبب الكثير من الارتباك والخلط فى المفاهيم. (المترجم)

ومن ثم فإن الآيات المتشددة ، خاصة الآية الخامسة من سورة التوبة التى نقلناها فى السطور السابقة ، تمثل الرؤية الإسلامية النهائية للجهاد . وعلى أية حال، سيكون من الخطأ أن نتصور أن الجدل قد انتهى فى زمن الفتوح الإسلامية الباكرة ، وأنه لم يحدث حتى بعد مرور مائتى سنة تقريبًا على وفاة النبى أن تمت صياغة تعريف الجهاد على أيدى فقهاء مثل عبد الله بن مبارك (ت ٧٩٧م)[١١]. ومن المؤكد أن القرآن قدم سندًا نصيًّا لفكرة أن المسلمين يمكنهم ويجب عليهم محاربة الكفار، ولكنه لايقترح أبدًا أن يتقدموا بالاختيار بين اعتناق الإسلام أو الموت . فقد كانت الخيارات هى اعتناق الاسلام ، أو الخضوع ودفع الجزية ، أو استمرار القتال . وباختصار فإن الحث القرآنى يمكن أن يستخدم فى توسيع نطاق السلطة السياسية الإسلامية على الكفار أينما كانوا ، بيد أن هذه الآيات لايمكن استخدامها لتبرير فرض الإسلام بالقوة على غير المسلمين. كما أن المناقشات القرآنية للقتال أوضحت أن الثواب الدينى، أى نعيم الجنة، كانت أهم كثيرًا من النجاح المادى. وبهذه السبل ، يقدم القرآن التبرير الإيديولوچى للفتوح الإسلامية[*].

ويبدو أن الرسائل التى حملتها الآيات القرآنية والتى قد تثير حيرة (بعض من يقرأونها بسطحية) قد تم تبسيطها فى قاعدة تقريبة وفرت التبرير لحروب الفتح. وعندما خاطب بدو شبه الجزيرة الشاهنشاه الساسانى شرح أحدهم ما يفعلونه . فعندما ضمن النبى محمد ولاء كل العرب[١٢].

«... ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسَّن الحسن وقبَّح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمر من الشر هو

(*) على الرغم من أن المؤلف قد بذل جهدًا واضحًا فى فهم معنى الجهاد من خلال آيات القرآن الكريم فإنه قصر جهده على الآيات التى تحمل مفاهيم القتال وحدها من ناحية، كما أنه لم يفرق بين الآيات التى تتحدث عن «الكفار» ، وتلك التى تتحدث عن «أهل الكتاب» من اليهود والنصارى، ولم يحاول الاستفادة من أراء الفقهاء المسلمين الذين عالجوا موضوع الجهاد. لقد تحدث المؤلف عن «القتال» ، وظن أنه تحدث عن «الجهاد»، والفرق كبير وخطير. (المترجم)

أهون من آخر شرٌ منه الجزاء ، فإن أبيتم بالمناجزة ، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه، على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن اتقيمتونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم، ووإلا قاتلناكم(*)(١٢).

كانت هذه الكيفية التى تم بها تفسير الجهاد فى أوائل القرن الثامن الميلادى، وربما قبل ذلك. وإلى جانب أيديولوچيا الفتح، أنتجت الأمة الإسلامية فى السنوات الأخيرة من حياة النبى أيضًا ، نخبة قادرة على قيادتها وتوجيهها. فقد كانت الدائرة القريبة من النبى (الصحابة) مؤلفة من رجال كانوا قد أيدوا النبى فى مكة فى السنوات الأولى وصحبوه فى الهجرة إلى المدينة سنة ٦٢٢م . ومن بينهم كان الخلفاء الأوائل الراشدون) أبوبكر (٦٣٢-٦٣٤) وعمر(٦٣٤-٦٤٤) وعثمان (٦٤٤-٦٥٦م) وتحت توجيه هؤلاء الرجال جرت الفتوح الأولية . وهم يظهرون بشخصيات متمايزة فى المصادر العربية . فأبو بكر هو الرجل المسن الوقور دمث الخلق ، وعمر بن الخطاب هو الصارم التطهرى الذى لا يلين ، وعثمان هو الثرى الكريم الذى يعانى ضعفًا مميتًا لميله إلى تعيين أقاربه فى المناصب العليا. ولم يتولْ أحد من هؤلاء الرجال قيادة الجيوش الإسلامية بشخصه فعلاً، وبغض النظر عن زيارة عمر بن الخطاب إلى القدس، لايبدو أن أحداً منهم غادر المدينة، عاصمة الدولة الجديدة، إطلاقًا . ومن الصعب أن نجزم بمدى سيطرتهم الفعلية على جيوشهم البعيدة . وتثابر المصادر العربية على رسم صورة لعمر ، الذى حدثت فى عهده معظم الفتواحت الباكرة المهمة، تصوره قائدًا حقيقيًا . ولدينا روايات عديدة عن كيف أنه كان يكتب إلى القادة الميدانيين يوجههم إلى ما يفعلون ، وكان يتلقى الغنائم والأسرى فى المدينة ويتصرف تصرف القائد الأعلى الحاضر. وقد مال المؤرخون المحدثون إلى الشك فى هذا ورأوا فيه نوعًا من إضفاء المثالية على الدولة الإسلامية عامة وعلى عمر بن الخطاب خاصة. والحقيقة أنه لابد أن

(*) نص كلام النعمان بن مقرن فى الطبرى ، (ج١) .

يكون القادة الميدانيون قد مارسوا قدرًا من الاستقلال الذاتى أكبر كثيرًا مما توحى به النصوص(*).

ومن غير المحتمل أن الاتصالات عبر المسافات الشاسعة التى اخترقتها الجيوش العربية كانت سريعة ومستمرة على النحو الذى يوحى به التراث العربى، ولكن الواضح أنه كانت هناك درجة كبيرة من السيطرة للعاصمة. إذْ كان يتم تعيين القادة وعزلهم بأوامر من الخليفة ، وليس هناك مثال واحد فى المصادر العربية على قائد يتمرد ضد سلطة الخليفة أو يخالف أوامره. وهو ما يتناقض بوضوح مع الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الساسانية ، اللتين انتابهما العجز الفعلى فى أوقات مختلفة بسبب حالات التمرد التى قام بها القادة والولاة ضد الحكام . لقد كانت الفتوح الإسلامية أبعد ما تكون عن مجرد تدفق لجحافل البدو الجامحين ؛ فقد كانت الحملات تحت توجيه مجموعة صغيرة من الرجال ذوى القدرة والعزم.

كانت القيادة السياسية للدولة الإسلامية الباكرة مؤلفة من المهاجرين بشكل يكاد يكون كاملاً ؛ وكان الأنصار من أهل المدينة مستبعدين بدرجة كبيرة ، وإن لم يكن تمامًا ، من القيادة العسكرية . وعلى أية حال، فلا يبدو من المحتمل أن الفتوح كانت ستنجح على هذا النحو لو لم تكن هناك القيادة والخبرة العسكرية التى تمثلت فى بقية قريش بمكة . فمنذ حوالى سنة ٦٢٨م فصاعدًا ، أعلن المزيد من زعماء قريش إسلامهم .

(*) فى تقديرى أن مثل هذا الشك القائم على الافتراض دونما دليل علمى، والذى يتجاهل النصوص التاريخية تمامًا ، نوع من الانحياز الذى لايليق بالبحث العلمى. ولو طبقنا هذا الموقف تجاه كل النصوص التاريخية لأنكرنا تاريخ البشرية جمعاء لمجرد أننا نشك فى صدقها؛ وهو نوع من العبث الناتج عن الإنحيازات والمواقف المسبقة الذى يجعلنا نتجاهل النصوص التاريخية لمجرد أنها لاتروقنا . ومن ناحية أخرى، فإن إنكار الدافع الدينى الذى جعل القادة يرون فى طاعة الخلفاء طاعة لله، وقياس الأمور بالمعايير المادية المجردة، يُغفل أن الحماسة الدينية الناتجة عن الإيمان كانت تحرك الخلفاء والقادة – أو نسبة كبيرة منهم على الأقل– نحو بناء دولتهم والحفاظ عليها. ولو أننا تجاهلنا هذه العوامل المعنوية فإننا لن نستطيع أن نفهم ما حدث . وفضلاً عن هذا كله ، فإن المصادر العربية لم تتوخ رسم صورة مثالية للدولة الإسلامية بدليل ما تحفل به هذه المصادر من أخبار الفتن والصراعات التى أدت إلى مصرع عثمان بن عفان وما أعقبه من أحداث. (المترجم)

وفى المقابل ، نال كثير منهم مكافأتهم على شكل مناصب مهمة فى الدولة الجديدة. وعندما بدأت الفتوح تحت حكم أبى بكر ، اتجه إلى هذه المجموعة ليختار منهم الكثير من قادة جيوشه . وكان من بينهم خالد بن الوليد ، الذى أرسله أبوبكر لكى يحارب المرتدين فى اليمامة شرق شبه الجزيرة العربية ثم عينه لقيادة الجيوش الإسلامية فى العراق وبلاد الشام. وثمة رجل آخر من الخلفية نفسها كان عمرو بن العاص، وهو قرشى واسع النفوذ وافق على اتباع النبى محمد سنة ٦٢٨م على شرط التسامح إزاء مقاومته السابقة للنبى، وأن يعطيه دوراً فى الأمور(١٣). كان عمرو واحداً من نمط النخبة الجديدة الذين اعتبروا أنفسهم أعلى اجتماعيًا من كثير ممن كانوا من أوائل الذين اعتنقوا الإسلام . وكان قد ورث ضيعة اشتهرت بأعنابها وكرومها بالقرب من الطائف ، وفى لحظة غفلة أخبر رسولاً أرسله الخليفة عمر بن الخطاب أن أباه ، أى أبا عمرو، كان يرتدى الحرير بأزرار من الذهب على حين كان أبو الخليفة عمر يحمل الحطب الذى كان يتكسب منه عيشه(١٤). وقد لعب عمرو بن العاص دوراً مهمًا فى فتح بلاد الشام قبل أن يتولى قيادة الجيوش الإسلامية إلى مصر. وربما يكون أبرز مثال على تجنيد الأعداء القدامى فى النخبة الجديدة هو مثال عائلة أبوسفيان . فقد كان أبوسفيان مكيًا غنيًا من المدرسة القديمة ومن ألد أعداء النبى محمد والدين الذى دعا إليه. وكان أبناؤه قد أدركوا بسرعة إمكانيات النظام الجديد واعتنقوا الإسلام ، وكان أحدهم، وهو معاوية ، كاتبًا للنبى. وقد تم إرسال معاوية وأخيه يزيد مع الجيوش الإسلامية الأولى إلى بلاد الشام، التى كان أبوهما يمتلك فيها بالفعل ضياعًا زراعية . وصار يزيد واليًا على المناطق المفتوحة حديثًا قبل أن يموت فى الوباء، ولكن معاوية نجا ليصبح أول الولاة على بلاد الشام، ومنذ سنة ٦٦١م ، صار خليفة . كما كان هو مؤسس القوة البحرية الإسلامية فى شرق المتوسط .

ومن بين مدن الحجاز مدينة الطائف القديمة والتى تقع على مرتفع فى الجبال المجاورة لمكة . وكانت الطائف مدينة مسوَّرة محصنة تحيط بها الحدائق والبساتين ، ومكانًا للاستجمام والراحة بعيداً عن حرارة الصيف فى مكة . وكانت تحكمها قبيلة ثقيف ذات المكانة السامية ، التى كانت مسئولة عن رعاية مزار المدينة الذى كان

مكرسًا للربة اللات. وكان الثقفيون ، مثل الكثير من المكيين، قد دعوا إلى الإسلام وأعلنوا إسلامهم فى السنوات الأربع الأخيرة من حياة النبى. وقُيّض لهم أن يكونوا الشركاء الأدنى لقريش فى المشروع الإسلامى، وكانت لهم أهمية خاصة فى فتح العراق وإدارته الباكرة.

كان أبناء هذه النخبة الجديدة من غير البدو بالتأكيد . فقد جاءوا من خلفيات حضرية وتجارية. وكانوا يفاخرون بأنهم يمتلكون فضيلة الحلم . وكان هذا يتناقض بوضوح مع بدو شبه الجزيرة الذين اعتبروهم سريعى الغضب لايمكن الاعتماد عليهم ، مفيدين بسبب مهاراتهم العسكرية وصلابتهم ولكنهم بحاجة إلى من يسيطر عليهم ويقودهم(١٥). ولكن الشراكة ، والمجاملة ، كانت مفتاح النجاح للفتوح العربية الباكرة، وكانت نتاج النخبة الحضرية فى الحجاز التى استخدمت الطاقات العسكرية للبدو ووجهتها لتحقيق أهدافها .

عندما توفى النبى محمد سنة ٦٣٢م كان مستقبل المشروع الإسلامى برمته متأرجحًا . فعلى مدى أسابيع قليلة كان الخطر ماثلاً عمًا إذا كانت هذه الأمة الجديدة سوف تبقى وتتوسع أم أنها سوف تتفكك إلى مجموعات متحاربة . وقد حُسم التاريخ المستقبلى لكثير من سكان العالم بفضل الأفعال التى قام بها عدد صغير من الرجال الذين كانوا يتناقشون ويتجادلون فى المدينة. فلم يكن النبى محمد قد ترك وريثًا للحكم . إذ كان قد أوضح بجلاء أنه «خاتم الأنبياء» ؛ أى آخر الرسل الذين أرسلهم الله منذ آدم . ولم يكن واضحًا بالمرة ما إذا كان يمكن أن يُعيّن خليفة له . وبدأت المجموعات المختلفة داخل الأمة تؤكد على حاجاتها الخاصة . ويبدو أن الأنصار فى المدينة كانوا سعداء فى اتخاذهم الإسلام دينًا ، ولكنهم لم يكونوا راغبين فى قبول السلطة السياسية لقريش : فقد كان القرشيون قد جاءوهم لاجئين على أية حال، ولقوا الترحيب فى مدينتهم وكانوا آنذاك يتمتعون بالسيادة عليهم. وكان ما يثير الحنق خصوصًا أن الذين اعتنقوا الإسلام حديثًا من قريش ، وهم رجال كانوا قد عارضوا النبى بضراوة بينما كان الأنصار يحاربون فى سبيل الإسلام، هم الذين احتلوا المواقع ذات النفوذ . وقد اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة وتناقشوا ، وكان من الواضح أنهم يحبذون فكرة أن الأنصار ينبغى أن يكونوا مستقلين وأن يتولوا زمام الأمور فى مدينتهم.

وبينما احتدم النقاش وتصادمت الأفكار ، كان هناك أناس آخرون يتحركون بسرعة وكفاءة. فقبل أن يصل الأنصار إلى أية قرارات حاسمة ، كان عمر بن الخطاب قد أخذ بيد أبى بكر الصديق وطلب مبايعته خليفة رسول الله . وبعد هذه الوقفة الدرامية قبلت قريش والأنصار قيادة أبى بكر الصزيق . هذه على الأقل رواية ما حدث كما وردت فى المصادر العربية، وهى تحمل رنة الصدق والحقيقة . لقد كان الأمر فى جوهره انقلاباً . فعندما قام عمر بن الخطاب بهذا كان يحقق عدة نقاط . فقد كان يقول إنه يجب أن يكون هناك خليفة واحد للنبى يمكن أن يقود الأمة بأسرها ، بما فيها قريش (المهاجرون) والأنصار . وكان يقول أيضا إنه يجب اختياره من المهاجرين ، مسلمى مكة الأوائل. وستكون مكة البؤرة الدينية للدين الجديد ، ولكن السلطة السياسية كانت متمركزة بالمدينة ومن المدينة وجه الخليفتان الأولان الفتوح العظمى.

ومن جوانب كثيرة كان أبوبكر المسن اختياراً موفقًا ، فلم يكن بوسع أحد أن ينازع فى ولائه للنبى ، كما أنه شاطر على بن أبى طالب شرف السبق فى اعتناق الإسلام . وكان رفيق النبى عندما قام بالهجرة الخطرة من مكة إلى المدينة فى سنة ٦٢٢م . كما يبدو أيضا أنه كان دبلوماسيًا لبقًا، ولكن ربما كانت أهم خصاله معرفته بقبائل العرب فى شبه الجزيرة العربية ، وشيوخهم ، ومصالحهم وصراعاتهم . لقد كانت هذه الخصال ذات قيمة قصوى فى العامين الحاسمين اللذين استغرقهما حكمه القصير.

كان تصرف عمر بن الخطاب قد أكد أن أبا بكر وقريش فى طريقهم إلى السيطرة على الدولة الإسلامية الوليدة، بيد أنه كانت هناك مشكلات أشد كثيراً فى بقية أنحاء شبه الجزيرة العربية. لقد انتشر الإسلام فى شبه الجزيرة ، سلميًا بدرجة كبيرة: إذْ كانت القبائل وشيوخها يرغبون فى ربط أنفسهم بهذه القوة الجديدة ووافق بعضهم على دفع الزكاة إلى المدينة المنورة . وقد أدى موت النبى محمد إلى وضع هذا كله موضع التساؤل . فقد شعر الكثير من الزعماء الذين أعلنوا إسلامهم أن هذا كان عقداً شخصيًا وأنه انتهى بموت النبى. وشعر آخرون بأنه ينبغى أن يُسمح لهم بأن يبقوا مسلمين دون دفع أموال الزكاة أو الاعتراف بالسلطة السياسية للمدينة . إلا أن هناك آخرين رأوا فى هذا فرصة لتحدى سيادة المدينة. ومن بين هؤلاء الأخيرين كانت قبيلة

بنى حنيفة بعددها الكبير فى اليمامة شرق شبه الجزيرة العربية. وقد أكدوا حينذاك أن لهم نبيًا أيضا هو مسيلمة. وقد اقترحوا فى جسارة أنه يجب تقسيم شبه الجزيرة إلى منطقتى نفوذ ؛ تتولى قريش إحداهما وتكون لهم الأخرى. وثمة قبائل أخرى فى شمال شرق شبه الجزيرة اختارت أن تتبع متنبئة اسمها سجاح. فقد كان النبى محمد قد أوضح كيف يمكن للنبى أن يحوز مكانة قوية وكم من الفوائد يمكن لمن يدعى النبوة أن يجلبها لقبيلته. ولم يكن هناك ما يدعو إلى الدهشة فى أن هؤلاء الذين ادعوا النبوة قد ظنوا أنهم يمكن أن يسيروا على مثاله . وتشير المصادر الإسلامية إلى هذه الحركات كلها باسم «الرِّدة» . وهو مصطلح يعنى عادة الارتداد عن الإسلام ، ولكنه فى هذا السياق كان معناه يتضمن كافة أنماط الرفض للإسلام أو السلطة السياسية للمدينة.

وقررت القيادة الإسلامية الجديدة اتخاذ خط جسور متشدد فى هذه التطورات، فقد طالبوا أولئك الذين بايعوا النبى محمد مرة بأن يبقوا على ولائهم لخليفته فى المدينة . ولايمكن لأحد أن يكون مسلما ما لم يكن مستعدًا لدفع الزكاة لحكومة المدينة المنورة . وباتخاذهم هذا القرار، حركوا الأحداث التى نتجت عنها الفتوح العربية الكبرى: فلو أنهم كانوا قد قرروا ترك مناطق أخرى من شبه الجزيرة العربية تنفصل وتخلوا عن تدعيم الدين الجديد حول الكعبة فى مكة ، أو لو أنهم قرروا أن من الممكن ترك الناس يعتنقون الإسلام دون الاعتراف بالسلطة السياسية للمدينة المنورة ، أو كانوا قد قرروا عدم استخدام القوة المسلحة لتأكيد سلطتهم وإقرارها ؛ لما حدثت الفتوح أبدًا بالطريقة التى حدثت بها(*).

وإذ اتخذت القيادة هذا القرار انطلقت لفرضه بكفاءة قاسية. وأية مجموعة لم تقبل حكم المدينة المنورة كان لابد من إخضاعها ، بالقوة إذ لزم الأمر. وتم إرسال الأرستقراطى

(*) نحن لانوافق المؤلف على استخدام «لو» ؛ لأن التاريخ يبحث فى وقائع حدثت بالفعل ويحاول تفسير العلاقة السببية بينها. ويعنى هذا أن البحث التاريخى لايعرف كلمة «لو» التى تدل بدورها على احتمالات مختلفة، والبحث فى الاحتمالات بحث فى المستقبل ، والتاريخ بحث في الماضى . ومن ثم فإن هذه الفذلكة القائمة على استخدام «لو» لافائدة حقيقية منها فى البحث التاريخى. (المترجم)

المكى خالد بن الوليد لسحق بنى حنيفة فى اليمامة وغيرهم من القبائل فى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة العربية ، كما تم إرسال حملات أخرى تكاد جميع قيادتها أن تكون من قريش إلى عُمان فى جنوب بلاد العرب واليمن . وقد ساعدتهم حقيقة أن كثيرين من أبناء قبائل الحجاز وغرب شبه الجزيرة ظلوا على ولائهم للمدينة ووافقوا على الخدمة فى الجيوش.

كانت حروب الردة هذه بالفعل بمثابة المرحلة الأولى من الغزوات والفتوح الإسلامية الأوسع. فقد تحرك خالد بن الوليد مباشرة بعد سحق بنى حنيفة لمساندة بنى شيبان فى هجماتهم الأولى على الإمبراطورية الساسانية بالعراق. وتم إرسال عمرو بن العاص لإخضاع قبائل جنوب بلاد الشام وظل من ضمن القادة الذين فتحوا بلاد الشام بأسرها .

كانت حركة هذه الفتوح الأولى وآلياتها غاية فى الأهمية. ولم تكن الدولة الإسلامية لتبقى دولة عربية مستقرة محدودة فى إطار شبه الجزيرة العربية وبادية الشام. فقد كان بدو شبه الجزيرة العربية يعيشون تقليديًا على الإغارة على القبائل المجاورة وأخذ الأموال فى أشكال مختلفة من أهالى المناطق المستقرة . وكان ثمة مبدأ أساسى فى التاريخ الإسلامى الباكر، على أية حال، ألاَّ يهاجم المسلمون بعضهم بعضًا : فقد كانت الأمة بمثابة قبيلة كبيرة آخذة فى الامتداد والتوسع بمعنى أن الناس جميعًا كانوا أعضاء فى المجموعة الدفاعية نفسها . وإذا كان العرب جميعًا آنذاك جزءًا من عائلة كبيرة فالإغارة على بعضهم البعض قد باتت أمرًا لامحل له وغير ذى ضرورة[١٦]. فقد كان سكان المناطق المستقرة مسلمين هم أيضا. وكان حلول السلم فى شبه الجزيرة العربية يعنى نبذ كلا الأسلوبين البدويين فى العيش والبقاء . وكانت البدائل صارمة : إما أن تقوم النخبة المسلمة بقيادة بدو شبه الجزيرة ضد العالم خارج حدودها والهامش الصحراوى، أو أن تتفكك الدولة الإسلامية ببساطة فيما بين أجزائها المتحاربة وتعود المنافسات المعتادة والفوضى التى عرفتها حياة الصحراء لكى تفرض نفسها من جديد. وما إن تم إخماد «الردة» وتمت السيطرة مرة أخرى على قبائل شبه الجزيرة العربية ، لم يعد هناك خيارة أمام حكومة المدينة سوى توجيه الطاقات

العسكرية المتأججة للبدو ضد الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الساسانية . فقد كانت الطريقة الوحيدة لتجنب الانفجار الداخلى هى توجيه المسلمين ضد العالم غير المسلم.

وقد بدأت الفتوح قبل أن يتم إخماد حركات الردّة بشكل نهائى، فقد أعلنت القبائل إسلامها وقبلت سلطة المدينة لكى يُسمح لها بالمشاركة فى هذه الحملات. وسرعان ما كانت هناك عملية توافد مستمر للبدو إلى المدينة يريدون أن يجندوا فى الجيوش وعلى استعداد لإطاعة أوامر عمر بن الخطاب والقيادة الإسلامية.

وتم إرسالهم فى جيوش المحاربين . ولم يتم تحقيق الفتوح الأولى عن طريق هجرة رجال القبائل البدوية فى شبه الجزيرة العربية بعائلاتهم ، وخيامهم وقطعانهم على نحو ما فعل الأتراك السلاجقة عندما دخلوا الشرق الأوسط فى القرن الحادى عشر. وإنما تم تحقيق الفتوح بفضل الرجال المحاربين فى ظل نظام عسكرى يخضع للأوامر . وبعد الفتوح فقط تم السماح للعائلات على الانتقال من مضاربها الصحراوية لكى تستوطن المناطق المفتوحة حديثًا.

والأرقام التى تعطيها المصادر لنا تختلف اختلافًا بينًا ومن غير المحتمل أن تكون حقيقية فى هذه المرحلة الباكرة من التاريخ الإسلامى. إذ تخبرنا المصادر الإسلامية أن القوة المشتركة للجيوش التى فتحت بلاد الشام كانت حوالى ثلاثين ألف رجل[١٧]، ولكن هؤلاء نادرًا ما جاءوا معًا وكانوا يعملون معظم الوقت فى مجموعات أصغر عددًا، وتقول المصادر العربية إن عددها كان يتراوح ما بين ستة آلاف واثنى عشر ألف رجل[١٨]. وكانت الأعداد فى مصر أقل من هذا أيضا؛ فقد كانت قوات عمرو فى البداية ما بين ثلاثة آلاف وخمسمائة وأربعة آلاف رجل ، على الرغم من أنهم لم يلبثوا أن انضمت إليهم تعزيزات بلغت اثنى عشر ألف رجل . ومن الممكن أن تكون الأرقام غير موثوق بها . ولكنها تبدو واقعية ومتسقة تمامًا . ولم يكن هذا جيشًا تغلب على المقاومة بفضل التفوق العددى الهائل ؛ فالواقع أنه فى المعارك الحاسمة فى اليرموك ببلاد الشام والقادسية فى العراق، ربما كانوا أقل عددًا من خصومهم البيزنطيين والفرس.

كان عتاد الجيوش العربية بسيطا ولكنه كان فعّالاً . فلم تكن لهم ميزات تكنولوچية على أعدائهم ، ولا أسلحة جديدة ، أو تسليح متفوق، وعندما غزا المغول الكثير من أراضى آسيا وأوربا أوائل القرن الثالث عشر، كان واضحًا أن تمكنهم من فنون الرمى بالنشاب من فوق ظهور الخيل كان عاملاً رئيسيًا فى نجاحهم . فقد وفرّ لهم قوة النيران والحركة التى كانت تفوق كثيرا ما كان لدى أعدائهم. وعلى النقيض من ذلك كان العرب لايتمتعون بمثل هذه الميزات كما يبدو.

ولدينا فكرة واضحة عن تجهيز الجنود البيزنطيين من خلال التماثيل ولوحات النحت التى تصور المعارك، التى تساعدنا على إعادة بناء العتاد بقدر من الثقة . وبالمثل ، لدينا صورة واضحة عن المحاربين الراكبين فى العالم المسلم فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر من رسوم المخطوطات الفارسية ذات التفاصيل الباهرة والتى وصلتنا من تلك الفترة. وعلى أية حال ، فإننا لانكاد نملك أى دليل مرئى عن الجيوش العربية الأولى . وليس هناك أى دليل أثرى يُعوّل عليه ومؤرخ عن العتاد العسكرى العربى فى هذه الفترة ، ولم تبق منها أى سيوف أو دروع . وبدلاً من ذلك علينا أن نعتمد على ما يرد ذكره بطريقة عرضية فى الروايات والأشعار، التى نادرًا ما تمدنا بالأوصاف التفصيلية سوى فى الحالات الاستثنائية(١٩).

وكان من المتوقع عادة من جنود الجيوش الإسلامية الباكرة أن يجلبوا أسلحتهم ، أو يحوزونها غنائم من ساحات المعارك. فقد كان العتاد العسكرى من أهم البنود التى يتم البحث عنها بين الغنائم عندما تتم هزيمة جيش ما، أو الاستيلاء على مدينة من المدن . فسرعان ما كان يقوم سوق نشط للأسلحة والعتاد فى كثير من الأحيان. ولم يكن هناك أى شيء عن الزى الرسمى: إذ كان كل رجل يرتدى ما يمكنه العثور عليه ، وما يستطيع تدبيره . كذلك كان متوقعًا منهم فى معظم الأحيان أن يوفروا الطعام لأنفسهم . إذ لم تكن هناك قوافل للإمداد والتموين ، ولا عربات متثاقلة محملة بالمؤن تعوق تقدم الجيش : فبدلاً من ذلك كان المتوقع من كل رجل أن يحمل زاده الشخصى أو يحصل عليه فى الطريق. فقد كان الجنود فى الجيش المسلم الذى غزا الإمبراطورية البيزنطية سنة ٧١٦-٧١٧م قد تلقوا أوامر من قائدهم بأن يأخذ كل منهم ما يساوى

كيلو جرامين من الغلال على ظهر جواده. وفى الواقع لم يحتاجوا إليهما لأنهم حصلوا على ما يكفى عن طريق الإغارات التى شنوها . وقد بنوا أكواخًا لتحميهم من جو الشتاء وزرعوا الأرض بحيث أمكنهم فيما بعد وأثناء الحملة أن يعيشوا على غلتها[٢٠]. فالسفر الخفيف والعيش على ما تنتجه الأرض، ساعد القوات المسلمة على أن تقطع مسافات شاسعة ، لم يكن ممكنًا أبدًا أن يصلوا إليها لو أنهم كانت لديهم عربات تئن بصريرها تحت وطأة المؤن يجرونها معهم.

كان السلاح الرئيسى هو السيف[٢١]. وكان السيف العربى فى البداية غير السيف المنحنى الذى يتصوره الخيال، وإنما كان سيفًا عريضًا ، مستقيمًا ذا نصل مزدوج الحدين وله مقبض صغير . وكان له غمد من الجلد أو الخشب الذى عادة ما كان يحمل بسيور أو شرائط حول الكتفين، ولايوضع فى حزام . والأمثلة الباقية من الفترة الساسانية المتأخرة بينها أنصال سيوف يبلغ طولها مترًا . ولابد أن هذه الأسلحة كانت تتطلب قوة كبيرة وبراعة فى الاستخدام. ويبدو أن أفضل السيوف كانت تستورد من الهند، على الرغم من أن اليمن وخراسان أيضا كانت لهما شهرة ذائعة فى صناعة الأسلحة فائقة الجودة. ومن المؤكد أن السيوف كانت مكلفة وغالية الثمن، وكانوا يطلقون عليها الأسماء وتتوارثها العائلات ويحتفى بها فى الشعر . فالسيف ، المستخدم فى القتال المتلاحم ، كان يعتبر سلاح البطل الحقيقى. ويبدو أيضا أن السيوف كانت تستخدم على نطاق واسع ، ومن الممكن أن تكون الثروة المتزايدة فى أجزاء من شبه الجزيرة العربية فى القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلاديين قد أتاحت للمزيد من البدو الحصول على هذه الأسلحة المهيبة.

وإلى جانب السيوف كانت هناك الرماح أيضًا. وكان الرمح الطويل فى أساسه سلاحًا للمشاة له قصبة خشبية ورأس معدنية بحيث يتاح استخدامه سلاحًا للقطع وسلاحًا للطعن. أما الحربة الأقصر فكانت تستخدم فى الفترة الاسلامية الباكرة من فوق ظهور الخيل ، على الرغم من أنه لا يوجد دليل على استخدام الحراب الثقيلة فى القتال الراكب. كما أننا نسمع روايات عن استخدام القضبان الحديدية، والقضبان الشائكة والعصى، والحجارة وأعمدة الخيام وأى شىء آخر تصل إليه الأيدى.

وكانت هناك أيضا القسى والنشاب، وكان رماة السهام يحظون بتقدير كبير . وتتحدث المصادر عن القسى «العربية» «الفارسية» ومن المحتمل أن العربية منها كانت أخف وأكثر بساطة . وليس هناك ما يشير إلى أن الجيوش المسلمة كانت لديها أقواس مزدوجة فى هذه المرحلة على الرغم من أنه من المؤكد أنها كانت تمتلكها مع قدوم القرن التاسع .

وكان يتم لبس دروع الزرد التى تغطى الجسم(٢٢)، على الرغم من أن عدد الرجال الذين كان بمقدورهم توفير دروع الزرد كان بالضرورة عددًا صغيرًا جدا: ففى سنة ٧٠٤ قيل أنه فى ولاية خراسان بأسرها كان هناك فقط ٣٥٠ درعًا من الزرد تغطى الجسم لحوالى خمسين ألف محارب. وكانت معاطف الزرد يتوارثها جيل عن جيل ، على حين المعاطف الجديدة المصقولة اللامعة غالية الثمن جداً . وكانت خوذة الرأس على شكلين. كان هناك المغْفَر، الذى يُعرف فى تاريخ السلاح الغربى باسم aventail (أى الجزء الأمامى المتحرك من الخوذة). وكان هذا فى الأساس قلنسوة من سلاسل المعدن كانت تنزل على الظهر لحماية الرقبة . أما البديل فكان عبارة عن خوذة مستديرة كانت تعرف باسم البيضة . وكان يجب أن يكون المحارب كامل التجهيز محميًا تمامًا ، على الأقل مثل المحاربين النورمان الذين صورتهم نسجية بايبه Bayeux Tapestry(*)، ولكن لابد أن معظم الجنود العاديين كانوا أقل حظا، فقد كانوا يحاربون وهم يرتدون العباءة والعمامة التى كان تعرضهم حتمًا للخطر.

(*) تُنسب هذه اللوحة النسجية الشهيرة إلى مدينة بايبى فى نورماندى بفرنسا ، ولا تزال محفوظة بمتحف البلدية بهذه المدينة حتى الآن. وهذه اللوحة (٧٠× ٥٠سم) نسجتها الملكة ماتليدا زوجة وليم الفاتح (وليم ابن الزنا William of Bastard) ووصيفاتها على طراز الرومانسك Romanesque لتصوير معركة هاستنجز ١٠٦٦م ، فاتحة الغزو النورمانى لإنجلترا ؛ وهى تصور حملة وليم الفاتح من الاستعداد فى نورماندى، ثم الإبحار عبر القنال الإنجليزى، فالمعركة نفسها. وإلى جانب قيمتها الفنية تُعتبر هذه اللوحة مصدرًا تاريخيًا فائق القيمة لمؤرخى الحرب والتسليح ، فقد صورت السفن والأسلحة وأدوات القتال المستخدمة أنذاك. (المترجم)

ولدينا قدر قليل للغاية من الأوصاف التفصيلية لشكل المعركة فى هذه الفترة وليس لدينا أى كتب عسكرية ترجع إلى وقت الفتوح الإسلامية الباكرة ، بيد أن المصادر فى بعض الأحيان تقدم بعض النصائح تعطينا فكرة ما عن الأساليب العسكرية، ففى سنة ٦٥٨م كان هناك جيش من العراقيين غير المجربين يغزون بلاد الشام فى أحد الحروب الأهلية التى نشبت بين المسلمين فى تلك الفترة . وثمة زعيم بدوى مسن مراوغ هو زُمر بن الحارث الكلابى أخذ على عاتقه أن يقدم لهم بعض النصيحة[٢٣]. فقد حثّهم أولاً على أن يتأكدوا من توفر إمدادات المياه التى يمكنهم الوصول إليها . وكان خصومهم الشاميون يسيرون على أقدامهم ولكن العراقيين كانوا راكبين ، وكان يجب أن يستفيدوا من الحركة التى يوفرها لهم هذا الوضع لكى يتمركزوا فيما بين أعدائهم والماء . ثم استطرد «... فلا تقاتلوهم فى فضاء ترامونهم وطاعنوهم ، فإنه ليس لكم مثل عددهم، فإن استهدفتهم لهم لم يلبثوا أن يصرعوكم ، ولاتصفوا لهم حين تلقونهم، فإنى لا أرى معكم رجالة ولا أراكم كلكم إلا فرسانًا ، والقوم لاقوكم بالرجالة والفرسان ، فالفرسان تحمى رجالها والرجالة تحمى فرسانها ، وأنتم ليس لكم رجالة تحمى فرسانكم ، فالقوهم فى الكتائب والمقانب ثم بثوها ما بين ميمنتهم وميسرتهم ، واجعلوا مع كل كتيبة كتيبة إلى جانبها فإن حمل على إحدى الكتيبتين ترجلت الأخرى فنفسّت عنها الخيل والرجال ، ومتى ما شاءت كتيبة ارتفعت، ومتى ما شاءت كتيبة انحطت ، ولو كنتم فى صف واحد فزحفت إليكم الرجالة فدفعتم عن الصف انتقض وكانت الهزيمة...»(*). والتأكيد على القتال على الأقدام مثير : إذ إن امتلاك الخيول أو الجمال كان مفيدًا جدًا فى القدرة الحركية ، والاستطلاع ، وفى هذه الحالة يمكن السيطرة على ميزات ميدان المعركة ؛ مثل موارد المياه، بيد أن المعارك كانت تحسم عادة بفضل القتال المتلاحم الذى يخوضه جنود المشاة . فلابد أنهم كانوا ينحوّن حرابهم جانبًا ليقاتلوا بالسيوف ، وغالبًا ما كان الأمر ينتهى بطرح خصومهم أرضًا . وربما كان عدم وجود ركاب الخيل، أثناء الفتوح الأولى على الأقل، قد وفر ميزة نسبية للجندى الراجل.

(*) الطبرى، ج٥، ص٥٩٥ .

ويبدو أن الجيش الشامي، الذى انتصر فى هذه المعركة ، كان فى أواخر القرن السابع وبداية القرن الثامن الميلادى متخصصا فى قتال المشاة المتلاحم . فعندما كانت قواته تتعرض لهجوم الفرسان، كان المشاة يشكلون حائط صف، وقد ركعوا وغرسوا نهايات حرابهم على الأرض ووجهوا نصالها صوب أعدائهم . وكانوا ينتظرون حتى يقترب العدو بالخيول فينهضوا ويوخزوا الخيول فى وجوهها . وكان القيام بهذا يتطلب نظاماً وانضباطًا وقدرًا كبيرًا من ضبط النفس ، ولكن طالما بقى الصف متماسكا صامداً كان هذا الأسلوب فعالاً للغاية. هذه الأساليب العسكرية المنظمة كانت غريبة على تقاليد بدو شبه الجزيرة العربية فى الحروب واعتمادهم على القدرة الحركية والشجاعة الفردية، ولكن ربما تم استخدامها فى المراحل اللاحقة من الفتوح فى الجيوش الإسلامية التى فتحت بلاد المغرب ووسط آسيا .

وهناك تجديدان فى التكنولوجيا العسكرية انتشرا على نطاق واسع فى أثناء الفتوح . فقد كان الرِكاب[٢٤] المستخدم فى ركوب الخيل غير معروف بالنسبة للمحاربين الفرسان فى العالم القديم. وليس من الواضح متى وأين تم ابتكار الرِكاب بالضبط . وهناك رسوم جدارية من وسط آسيا ، ربما يرجع تاريخها إلى نهاية القرن السابع أو بداية القرن الثامن ، توضح أن الركاب كان مستخدماً . أما المصادر المكتوبة فتقول إنها استخدمت للمرة الأولى على أيدى الجيوش العربية المقاتلة فى جنوب إيران (ضد عرب آخرين فى معظم الأحيان) فى ثمانينيات القرن السابع الميلادى. وبحلول القرن الثامن كان قد انتشر على نطاق واسع . وكانت أهمية اختراع ركاب الخيل محل جدل شديد بين المؤرخين على نطاق واسع. وكان هناك رأى يقول إن الركاب فى الغرب اللاتينى قد أتاح تطور الفارس المدرع ثقيل التسليح مع كل النتائج الاجتماعية والثقافية التى نجمت عن هذا. ولا يبدو أن هذا الاختراع كانت له مثل هذه النتائج بعيدة المدى فى العالم المسلم ، على الرغم من أنه قد سهَّل بالتأكيد شن غارات طويلة المدى فى المراحل اللاحقة من الفتوح.

وكان الاختراع العسكرى الثانى فى هذه السنوات الأولى من الفتوح يتمثل فى تطوير المدفعية القاذفة . وكانت القطع الكبيرة منها تعرف باسم المنجنيق ، والقطع الأصغر

تسمى العرّادة[٢٥]. هذه الآلات كانت معروفة قبل الفتوح الإسلامية، وأول مثال تم التحقق منه استخدمه الآفار فى حصن تسالونيكا (فى اليونان) سنة ٥٩٧م. وكانت هذه الآلات القاذفة تعمل بواسطة رجال يسحبون الحبال إلى أسفل فى أحد طرفى الرافعة حتى يتأرجح الطرف الثانى مندفعًا إلى أعلى بسرعة كبيرة ويطلق قذيفة من مقلاع مثبت فى طرفه. والاستخدام الوحيد المسجل للمنجنيق فى المرحلة الأولى من الفتوح الإسلامية (٦٣٢-٦٥٠) يأتينا فى الرواية عن الهجوم العربى على العاصمة الفارسية المدائن / طيفسون ، حيث يقال إن العرب قد استخدموا عشرين من هذه الآلات بناها مهندس فارسى اعتنق الإسلام بناء على أوامر القائد العربى سعد بن أبى وقاص[٢٦]. ومن المدهش أن آلات الحصار لايرد لها ذكر على الإطلاق فى الروايات الواردة عن الفتح العربى للمدن الحصينة مثل دمشق، أو الحصن الرومانى العظيم فى بابليون بمصر ، ولكن من المستحيل أن نقرر ما إذا كان هذا بسبب عدم استخدامها أو لأن المصادر لاتذكرها . وفى القرن الثامن الميلادى نسمع عن أن المسلمين استخدموها لهدم أسوار سمرقند فى سنة ٧١٢م ، وتتأكد هذه المعلومات بوضوح إذا اما تم العثور على رسم يبين كيفية عملها. وفى الوقت نفسه لدينا أخبار عن آلة يقوم بتشغيلها خمسمائة رجل أنزلت العلم المرفوع أعلى المعبد البوذى فى الدُيبل بالسند. وعلى العموم، على أية حال، فإن الأمور الحربية المتعلقة بالحصار كانت فيما يبدو أمورًا أساسية؛ وفى الحملات الطويلة الشاقة فيما وراء النهر فقط أوائل القرن الثامن الميلادى يتولد لدينا الانطباع بأن حملات الحصار المنظمة وطويلة المدى كانت موجهة .

ولم يكن لدى المسلمين الأوائل أسلحة سرية ، ولم تكن لهم السيادة على التكنولوجيا العسكرية الجديدة التى يمكنهم بها التغلب على أعدائهم . وكانت المزايا تتمثل ببساطة فى القدرة الحركية، والقيادة الجيدة، وربما كان أهمها جميعا الدافع والروح المعنوية العالية.

ومن الصعب تقدير قيمة الدافع لدى المحاربين فى زمن هذه الفتوح الباكرة. فقد قال سير فرنسيس باكون Sir Francis Bacon إن الملكة إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا لم تكن تحب فتح نوافذ على قلوب الرجال والأفكار السرية. وإلى حد ما لا يستطيع المؤرخون

أن يفعلوا هذا . وكل ما نستطيع عمله أن نتأمل ونفكر فيما قالوه، أو كان هناك زعم بأنهم قالوه، عن أفكارهم حول ما كانوا يقومون به.

وقد جاءت أكمل المناقشات وأكثرها تفصيلاً عن دوافع المسلمين فى سلسلة من الخطب التى قيل إن المبعوثين المسلمين ألقوها على مسامع السلطات الفارسية ، وقد رأينا بعضها بالفعل . وقد أكد المسلمون مرارًا وتكرارًا على أنهم لايعبأون بأمور هذه الدنيا ؛ وإنما ثواب الجنة هو الذى يدفعهم ، وكذلك الاعتقاد بأن الفارسى الميت لن ينال الثواب نفسه قال المغيرة بن شعبة «... إن قتلتمونا دخلنا الجنة ، وإن قتلناكم دخلتم النار»(*) فقد كانوا يعملون على أوامر الله المباشرة فقالوا لكسرى إنهم جاءوا إليه بأمر من ربهم ، يحاربون فى سبيله وإنهم يعملون بأوامره سعيًا وراء تحقيق وعده.

وكثيرا ما يوصف موتى المسلمين (فى الحرب) بأنهم شهداء. ووفقًا للتراث الإسلامى تظهر فكرة أن الذين يموتون فى الجهاد شهداء للمرة الأولى فى الروايات التى تناقلها المؤرخون عن غزوة بدر (٦٢٤م) ويبدو أنه كان مقبولاً بشكل عام أن أولئك الذين قتلوا فى الجهاد يذهبون إلى الجنة مباشرة؛ وفى إحدى المناسبات وُصف موقع معركة قتل فيها كثير من المسلمين بأنه تفوح منه رائحة طيبة . وهناك قصص عن رجال يسعون عمدًا إلى نيل الشهادة، أو على الأقل يعرضون أنفسهم للخطر لنيل الشهادة : «وحمل رجل من تميم ممن كان يحمى العشيرة يقال له سواد، وجعل يتعرض للشهادة، فقتل بعدما حمل. وأبطأت عليه الشهادة حتى تعرض لرستم يريده ، فأصيب دونه»(**). فى هذه الحالة ، من المهم أن نلاحظ الربط بين الرغبة فى الشهادة والالتزام بالتضامن القبلى[٢٧]. وهناك عدد قليل من الأمثلة المتطرفة ، مثل الرجل الذى نزع درعه فى المعركة حتى يمكن أن يُقتل بسرعة أكبر[٢٩]، وبذلك ينال ثواب الشهادة؛ بيد أن هذه حالات استثنائية : وليس من غير المعقول أن معظم الناس كانوا يريدون الاستمتاع بثمار نصرهم فى هذه الدنيا قبل أن ينتقلوا إلى مباهج الحياة الآخرة.

(*) الطبرى ، ج٣، ص٤٩٦ – ص٤٩٧ .

(**) نفسه، ج٣ ، ص٥٤٥ .

وثمة دافع آخر وضعته المصادر فى أفواه المحاربين المسلمين الأوائل هو تحرير الرعايا الفرس من الطغيان حتى يمكنهم اعتناق الإسلام . «قال ربعى بن عامر ... الله ابتعثنا ، والله جاء بنا لنُخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا منه ذلك ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ، ومن أبى قاتلناه أبدًا ، حتى نفضى إلى موعود الله»[٣٠](*).

وعلى العموم لم تكن مسألة نشر الإسلام أو تقديم فرصة اعتناق الإسلام تطرح كثيرا باعتبارها سببا من أسباب القتال. فالأكثر شيوعًا الفخر بالعروبة والفخر بالقبيلة . فعندما أراد سعد بن أبى وقاص ، قائد القوات الإسلامية فى العراق ، أن يحث رجاله على الفعال العظيمة ، لجأ إلى استثارة فخرهم بعروبتهم « ... وأنتم وجوه العرب وأعيانهم ، وخيار كل قبيلة ، وعزُّ مَن وراءكم؛ فإن تزهدوا فى الدنيا وترغبوا فى الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة»[٣١](**) وكثيرا ما تقابل الخطب زهد العرب وأمانتهم برفاهية الفرس وكذبهم. والفخر بإنجازات القبيلة بقى دافعًا مهمًا مثلما كان فى الجاهلية ، ويتضح هذا فى أنصع صوره فى الشعر مثل هذه القصيدة التى أنشدها شاعر مجهول احتفالاً بما حققته قبيلة تميم فى معركة القادسية:

وجـدنا الأكـثـرين بنـى تميم ... غـداة الروع أصـبـرهم رجـالاً
هم سـاروا بأرعن مكفـهـر ... إلى لجب فـزرتـهم رعـالاً
بحـور للأكـاسـر من رجـال ... كـأسد الغـاب تحسـبـهم جـبالاً

(*) نفسه ، ج٣ ، ص٥٢٠ .
(**) النص الذى أورده المؤلف نقلاً عن الطبرى يقف عند عبارة «وعزُّ مَن وراءكم» وقد رأيت أن أثبت جزءا آخر من نص الطبرى (ج٣ ، ص٥٣١- ص٥٣٢) لبيان أن سعد بن أبى وقاص قد خاطب رجاله بالمفاهيم الإسلامية أيضا وليس بنعرة الفخر بالعروبة فقط حسبما يزعم المؤلف الذى ابتسر النص. (المترجم)

تركن لهم بقادس عز فخر وبالخيفين أياما طوالاً
مغطمة أكفهم وسوق بمردى حيث قابلت الرجالا[32](*)

أو هذه القصيدة التى تحتفى بدور قبيلة أسد :

جلبنا الخيل من أكتاف نيق إلى كسرى فوافقها رعالا
تركن لهم على الأقسام شجوا وبالحقوين أياما طوالا
وداعية بفارس قد تركنا تبكيّ كلما رأت الهلالا
قتلنا رستمًا وبنيه قسرا تثير الخيل فوقهم الهيالا
تركنا منهم حيث التقينا فئامًا ما يريدون ارتحالا

ويأتى الابتهاج بالمعركة والقتل مباشرة من روح عالم ما قبل الإسلام . فقد بقى المجد الفردى والشهرة الفردية على أهميتها أيضا. وفى إحدى النصائح نجد الرغبة فى الجنة تمتزج بالرغبة القديمة فى الشهرة الدائمة فى هذه الدنيا : «قال ربيع بن البلاد السعدى: يا معاشر العرب، قاتلوا للدين والدنيا» ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران ١٣٣) . وإن عظّم الشيطان عليكم الأمر ، فاذكروا الأخبار عنكم بالمواسم ما دام للأخبار أهل»[32](**).

كانت الرغبة فى الشهرة فى هذه الدنيا تتزاوج مع الرغبة فى الثروة . وأحد أكثر الملامح إتساقًا فى قصص الفتوح الباكرة هى الرغبة فى الحصول على الغنائم والابتهاج بوصف الثروات التى تم الحصول عليها. وعادة ما كانت الغنائم توصف بأنها أموال، وبضائع منقولة والعبيد؛ وكان الحصول على السبايا مهمًا فى بعض المناطق دائمًا،

(*) نفسه ، ج٣ ، ص٥٤٠ .
(**) الطبرى، ج٣، ص٥٣٤ .

ولاسيما بربر شمال أفريقيا، إذ كان هو الشكل الأكثر انتشاراً لمكافأة النصر. ومن المثير أنه نادراً ما يرد ذكر الحيوانات خاصة وأنهم كانوا شعبا رعوياً، وربما لأن المحاربين كانوا قد تخلوا عن أسلوب حياتهم الرعوية السابقة إلى حد كبير . وكان الاهتمام بالحصول على الغنائم يساويه الاهتمام بتوزيعها بالعدل . ولاشك فى أن الكثير من هذه الأوصاف يقصد بها الموعظة بدورها وأن الإنصاف والعدالة التى كان يتم بها توزيع الغنائم كانت تحمل مبالغات بالتأكيد ، بيد أن هذه النقطة تظل حقيقية.

كان لدى الدولة الإسلامية البازغة الرجال ، والمهارات العسكرية ، والقناعة الأيديولوجية والقيادة اللازمة لشن حملة توسع كبرى، وفوق هذا وذاك ، كان قادة الدولة الجديدة يدركون تماماً أن عليها أن تتوسع أو تنهار . وبالنسبة لهم لم يكن هناك سوى مسار واحد للعمل : الفتوح.

الهـــوامش

(١) عن الرصافة وتبجيل سان سرجيوس انظر :
E. K, Fowden, The Barbarian Plain: Saint Sergius between Rome and Iran (Berkeley, CA, 1999).

(٢) Quoted in A. Jones, Early Arabic Poetry, 2 vols . (Oxford, 1992), I, p.I.

(٣) C. Lyall, The Diwan of cAbid ibn al-Abras, of Asad and cAmir ibn at Tufayl, of'Amir ibn Sacsscah (London, 1913).

(٤) Lyall, Diwans, p. 106.

(٥) عن أحسن مقدمة لتاريخ ملوك جنوب شبه جزيرة العرب، انظر :
R. Huyland, Arabia and the Arabc : From the Bronze Age to the Coming of Islam (London, 2001), pp. 36-57.

(٦) G. W. Heck, 'Gold mining in Arabia and the rise of the Islamic state', Journal of the Economic and Social History of the Orient 42 (1999): 364-95.

(٧) (المغيرة بن شعبة الأسيدى)
Tabari, Ta'rikh, ed. M.J. de Goeje et al. (Leiden 1879-1901), I, pp. 2241-2.

(٨) النعمان بن المقرن
Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2239-40.

(٩) G. M. Hinds, "Maghazi", Encyclopaedia of Islam, 2nd edn.

(١٠) هذه المناقشة للجهاد قائمة على أساس :
R. Firestone, Jihad: The Origin of Holy War in Islam (Oxford, 1999).

(١١) انظر :
R- P. Mottahedeh and R. al-Sayyid, 'The idea of Jihad in Islam before the Crusades', in the Crusades from the Perspective of Byzantium and the Muslim World, ed. A. E. Laiou and R- P. Mottahedeh (Washington, DC, 2001), pp. 23-39.

(١٢) النعمان بن المقرى :

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2240.

(١٣) Quoted in F. M. Donner, The Early Islamic Conquests (Princeton, NJ, 1981), p. 67. See also M. Lecker, 'The estates of 'Amr b. al-'As in Palestine', Bulletin of the School of Orienta1 and African Studies 52 (1989): pp. 24-37.

(١٤) Quoted in Lecker, 'Estates', p. 25 from Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p.146.

(١٥) عن هذا انظر :

Donner, Early Islamic Conquests, p. 81

(١٦) Firestone, Jihad, pp. 124-5.

(١٧) Donner, Early Islamic Conquests, P-135.

(١٨) Ibid., pp. 205-9.

(١٩) عن الصور المرئية انظر :

D. Nicolle, Armies of the Muslim Conquests (London, 1993); Nicolle, 'War and society in the eastern Mediterranean', in War and Society in the Eastern Mediterranean 7 th to 15 th centuries, ed. Y. Lev (Leiden, 1997)- PP- 9-100'

(٢٠) Tabari, Tarikh, II, p. 1315.

(٢١) عن الأسلحة عموما انظر :

H. Kennedy, The Armies of the Caliphs (London, 2001),pp. 173-8; on swords, see R. Hoyland and B. Cilmour, Medieval Islamic Swords and Swordmaking: Kindi's treatise 'On swords and their kinds' (London, 2006).

(٢٢) See Kennedy, Armies, pp. 169-72.

(٢٣) Tabari, Ta'rikh, II, pp. 554-5.

(٢٤) See H- Kennedy, 'The military revolution and the early Islamic state', in Noble Ideals and Bloody realities: Warfare in the Middle Ages, ed. N. Christie and M, Yazigi (Leiden, 2006), pp. 197-208.

(٢٥) عن آلات الحصار الإسلامية ، انظر :

P, E. Chevedden, 'The hybrid trebuchet: the halfway step to the counterweight trebuchec', in On the Social Origins of Medieval Institutions. Essays in Honor of Joseph F. O'Callaghan, ed. D. Kagay and T. Vann (Leiden, 1998), pp. 179-22.

(٢٦) Tabari, Ta'rfkh, I, pp. 2427-8.

27.Tabari, Ta'rikh, I, p. 2237, ascribed to al-Mughira b. Stnr'ba.

Tabari, Tarikh, I, p. 2309. (٢٨)

Awfb. Harith, quoted in Firestone, jihad, p. 114. (٢٩)

Tabari, Ta'rikh , I,p. 2271, ascribed to Rib ci b. cAmir. (٣٠)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2289 (٣١)

Tahari, Ta'rifci I,p. 2365. (٣٢)

Taliari, Ta'rikh, 1. pp. 2302-3. (٣٣)

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2293-4. (٣٤)

(٢)

فتح الشام وفلسطين

كانت أراضى بلاد الشام وفلسطين من ولايات الإمبراطورية البيزنطية التى تحكمها القسطنطينية . وفى سنة ٦٣٢م ، التى شهدت وفاة النبى محمد، كان البيزنطيون يحكمون أيضا الكثير من أراضى البلقان ، وجنوب إيطاليا وصقلية ، وشمال أفريقيا . وكان الرومان ومن بعدهم البيزنطيون يحكمون الأراضى الواقعة شرق المتوسط على مدى ستمائة سنة دونما انقطاع. وعندما انهارت الإمبراطورية الرومانية فى الغرب وسقطت فى خضم الفوضى خلال القرن الخامس الميلادى، استمر ازدهار الولايات الغنية على الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط . واستمرت السلطات الإمبراطورية فى القسطنطينية فى جمع الضرائب ، والاحتفاظ بجيش نظامى وإرسال حكام ليحكموا الولايات . وبينما اضمحلت المدن فى الغرب وصارت قرى، كانت مدن بلاد الشام لا تزال تتجمل بشوارع مستقيمة واسعة ، والأسواق ، والحمامات والكنائس.

وفى كل من المدينة والريف ، كان المشهد فى بلاد الشام محكومًا بتراث ألف سنة من حكم النخب التى تتحدث اليونانية والتى تشربت التعليم والمشاعر الكلاسيكية . وقد سادت الأطلال الكبيرة للعالم القديم الوثنى مدنًا مثل بالميرا، وهليوبوليس (بعلبك) وجراسا (جرش) وبترا ، كما هو الحال اليوم. أما المدن الأصغر والقرى فقد ازدانت بصفوف الأعمدة والأروقة التى عكست على نطاق أصغر، ولكنه لم يكن بالضرورة أقل رونقًا ، أشكال العمارة اليونانية الرومانية.

وربما كانت المعابد الكبرى في بالميرا وبعلبك تحكم المدن التى كانت قائمة فيها، ولكنها كانت فى معظمها أطلالاً غير مسقوفة . ففى جرش كان فناء معبد آرتميس الكبير يستخدم لأفران الفخار، لدرجة أن الساحة المرصوفة الكبرى التى كانت تحيط بمذبح هذه الربة كانت قد تحولت إلى الاستخدام الصناعى وضجيجه، على حين كان المعبد نفسه قد أغلق وأحيط بالقضبان وبات مأوى للثعابين والعفاريت. وكانت بلاد الشام ومصر مسيحية كلها . ذلك أن المسيحية ، قد تأسست فى هذه الأنحاء ، وكان فى أنطاكية أن أطلق على أتباع الديانة الجديدة اسم المسيحيين للمرة الأولى . وعلى مدى القرون الثلاثة الأولى بعد مجئ المسيح، تنافس المسيحيون مع الديانات الأخرى فى سوق الديانات الكبرى شرق المتوسط. وكان هناك وثنيون يتحدثون اليونانية يعبدون زيوس وأبوللو ، وقروبون آراميون يعبدون الآلهة نفسها ولكنهم يسمونها بعل أو هدَّاد على أسماء الآلهة القديمة التى كانت عتيقة بالفعل عندما دخل الإسرائيليون أرض كنعان للمرة الأولى.

وبحلول القرن السادس الميلادى ، على أية حال، كانت المسيحية ديانة الأغلبية فى المدن والريف ، وفى الجبال والصحراء. وكانت هناك جماعات يهودية مهمة ، لاسيما فى فلسطين ، كما كانت لا تزال هناك أقاليم ودوائر اجتماعية بقيت بها الوثنية الكلاسيكية : وكان الرجال لا يزالون يضعون الفسيفساء لأرضيات منازلهم بها صور من الأساطير والخرافات القديمة، ويصعب الجزم إذا ما كانوا لا يزالون على إيمانهم بها أم لا .

كذلك كانت المسيحية ديانة الهيراركية الإمبراطورية الحاكمة، وكان هذا أمرًا مهمًا فيما يتعلق بشكل المجتمع . ولابد أنه كان من المستحيل فى القرن السادس لأى واحد غير مسيحى أن يتولى منصبًا حكوميًا مهمًا . بيد أن مسيحيى بلاد الشام لم يكونوا جماعة متجانسة إطلاقًا. ففى أثناء القرن السادس برزت اختلافات عميقة بين المجموعات المختلفة من النصارى. وكانت النقطة الأساسية فى الموضوع ألوهية المسيح وتجسده : هل كان المسيح بشرًا كاملاً وإلهًا تامًا فى آن معا، أم كانت له طبيعة إلهية واحدة فقط، وأن إنسانيته على الأرض تبدو فحسب مثل طبيعتنا البشرية؟ هذا النقاش اللاهوتى الذى يبدو غموضه واضحًا أثار عواطف وغضبًا هائلا لأنه عكس انقسامات

أوسع فى المجتمع . وفى مخاطرة التبسيط المخل لموقف معقد للغاية ، وعلى العموم كان الذين آمنوا أن المسيح كان إلهًا تمامًا وإنسانًا تامًا (أنصــار الطبيعتين Diophysits لأنه يؤمنون بطبيعتين للسيد المسيح ، كما يُطلق عليهم اسم الخلقدونيين نسبة إلى مجمع خلقدونية الذى عقد سنة ٤٥١م حيث تم تبنى هذا المذهب للمرة الأولى)، من النخب الحضرية الناطقة باليونانية ، على حين كان أولئك الذين آمنوا بأن المسيح له طبيعة واحدة إلهية (مونوفيزيت Monophysites) من القرى المتحدثة بالآرامية وأديرة الريف ومضارب خيام المسيحيين العرب. كذلك كانت هناك اختلافات إقليمية : فيبدو أن معظم المسيحيين فى فلسطين كانوا من أتباع مذهب الطبيعتين ، على حين يحتمل أنه كان هناك توازن بين الجماعتين فى شمال الشام.

كانت السلطات الإمبراطورية من أتباع مذهب الطبيعتين المتشددين واعتبرت أنصار مذهب الطبيعة الواحدة مخالفين وهراطقة ، واضطهدوهم بوحشية على فترات متقطعة . وكان معنى هذا أن نسبة كبيرة ومهمة من السكان المسيحيين فى بلاد الشام كانوا مستبعدين عن وظائف الحكومة الإمبراطورية ولم يكونوا بالضرورة يرون أن مصلحتهم مساندة الكنيسة الإمبراطورية ضد الغزاة الخارجيين.

كانت بلاد الشام حتى سنة ٥٤٠م تقريبًا تتمتع بفترة من الازدهار المستمر والنمو السكانى. ففى كل مكان كانت القرى تتوسع كما كان يتم استصلاح أراض جديدة على حواف الصحراء. ومنذ سنة ٥٤٠م تقريبًا ، أى قبل قرن من الفتح الإسلامى ، بدأت هذه الصورة السعيدة فى التغير. ففى تلك السنة ضربت سلالة جديدة وقوية من أوبئة الطاعون المنطقة بأسرها . وكانت الوفيات سريعة ومرعبة . ومن المحتمل أن المدن التى كان سكانها أكثر كثافة، قد تأثرت على نحو أسوأ ولكن القرى أيضا عانت عندما انتشر الوباء . وربما كان البدو هم الأقل تأثرًا فى صحرائهم. وقد انتشر الوباء بسبب البراغيث التى تعيش على الفئران، وفى المدن لابد أن الفئران كانت منتشرة كما هو الحال اليوم، أما فى مضارب البدو، فقد كان هناك القليل من الطعام الذى يكفى البشر، دعك من القوارض، وليس هناك مكان تختبئ فيه الهوام والحشرات.

وقد عاد الوباء بانتظام مرعب طوال ما بقى من القرن السادس الميلادى وفى القرن السابع وفى ظل غياب الإحصائيات يستحيل أن نتأكد من التأثير الذى تركه على السكان . ويُقدِّر المؤرخون أن الموت الأسود ، وباء الطاعون الذى اجتاح الشرق الأوسط والغرب الأوربى فى عامى ١٣٤٨-١٣٤٩م، ربما يكون قد قتل ثلث السكان . وليس هناك سبب يدعونا إلى الظن بأن وباء القرن السادس كان أقل قسوة . فكثير من المدن والبلدات والقرى التى كانت مزدهرة فى المنطقة لابد وأن تكون قد بدت خاوية متدهورة . وعندما دخل الفاتحون المسلمون مدن الشام وفلسطين فى ثلاثينيات القرن السابع وأربعينياته ربما يكونوا قد ساروا فى الشوارع التى كان العشب والشوك قد نما فيها عاليًا بين الأعمدة وحيث تجمع ما بقى من السكان فى جماعات قليلة العدد، احتلت البيوت الفخمة التى كان أسلافهم قد استمتعوا بها.

لم تكن الأمراض الوبائية المشكلة الوحيدة التى واجهت بلاد الشام فى أثناء النصف الثانى من القرن السادس الميلادى . فقد كانت العلاقات بين البيزنطيين والفرس الساسانيين سلمية إلى حد كبير فى أثناء القرن الخامس وبداية القرن السادس. وكانت كل امبراطورية تحترم حدود الأخرى ومناطق نفوذها في بادية الشام جنوبيًا وجبال أرمينيا فى الشمال. وعلى أية حال، اندلعت فى منتصف القرن السادس أعمال حربية مدمرة على نطاق واسع بين القوتين العظميين. فقد غزا الملوك الساسانيون الأراضى البيزنطية فى عدد من المناسبات . ففى سنة ٥٤٠م نهبوا أنطاكية العاصمة الكبرى فى الشرق وفى سنة ٥٧٣م فتحوا العاصمة الإقليمية المهمة أفاميا . وفى كل من المناسبتين عادوا بكمية كبيرة من الغنائم ونقلوا أعدادًا كبيرة من السكان إلى مدن جديدة داخل الإمبراطورية الفارسية.

وإذا كانت العلاقات قد تدهورت فى القرن السادس، فإنها باتت أسوأ فى القرن السابع. ففى سنة ٦٠٢م تم اغتيال الإمبراطور موريس وعائلته كلها على أيدى الجنود المتمردين . وقبل بضع سنوات كان الإمبراطور قد منح حق اللجوء للملك الشاب النشيط خسرو الثانى عندما أزيح عن عرشه بصفة مؤقتة . وقد استغل خسرو آنذاك وفاة الرجل الذى أحسن إليه لشن هجوم مدمر على الإمبراطورية البيزنطية .

وأحرزت قواته عدداً من الانتصارات المدوية. ففى سنة ٦١١م غزت الجيوش الفارسية بلاد الشام، وسقطت القدس فى أيديهم سنة ٦١٤م وفى سنة ٦١٥م وصل الفرس إلى سواحل البسفور قبالة القسطنطينية نفسها. وفى سنة ٦١٩م استولوا على الإسكندرية ووقعت مصر كلها فى أيديهم.

كان استرداد البيزنطيين عافيتهم الإنجاز الذى حققه الإمبراطور هرقل (٦١٠- ٦٤١م) فقد كان واليًا على شمال أفريقيا ولكنه أبحر فى سنة ٦١٠م إلى القسطنطينية ومعه جيشه لكى يستولى على العرش من فوكاس المغتصب . وقد ساد عهده الصراع مع الفرس. وبعد عدة سنوات ، عندما بدا وكأن الجيوش الفارسية لايمكن إيقافها ، كان هرقل قد قلب الموازين بشكل درامى عندما شن هجومًا خلف خطوط العدو فى سنة ٦٢٤م . وفى حركة تتسم بالجسارة العظيمة والرؤية الاستراتيجية الباهرة ، كان قد قاد جيشا من ساحل البحر الأسود فى تركيا ، عبر غرب إيران وشمال العراق، ونهب معبد النار الشهير فى شيزر وقصر خسرو فى دشتجرد . ومع موت منافسه الرئيسى خسرو الثانى (كسرى) فى سنة ٦٢٨م والانقسامات التى أعقبت ذلك فيما بين الفرس وهم يناضلون لإيجاد حاكم جديد ، استطاع هرقل أن يعقد صلحاً أعاد الحدود القديمة بين الإمبراطوريتين على امتداد نهر الخابور. وفى سنة ٦٢٩م تفاوض على انسحاب الجنود الفرس من بلاد الشام ومصر وانطلق فى إعادة الحكم البيزنطى فى الولايات التى تم استردادها حديثا. وفى ٢١ مارس سنة ٦٣٠م استمتع بأعظم لحظات نصره عندما أعاد صليب الصلبوت ، الذى كان الفرس قد أخذوه إلى بيت المقدس.

وعلى الرغم من أن الفرس كانوا قد منوا بهزيمة قاصمة ، فإن فتح بلاد الشام وفلسطين كان له أثر مدمِّر للغاية على السلطة البيزنطية فى منطقة شرق المتوسط . وبغض النظر عن إراقة الدماء التى سببتها الحرب ، فإنه يبدو أن كثيرين من أبناء النخبة الناطقة باليونانية قد هاجروا إلى المناطق الآمنة فى شمال أفريقيا أو روما[1]. فقد كان القتال مدمراً جداً لاسيما فى المدن، ولكن ربما كان الأهم من هذا ضياع تقاليد الحكم والإدارة الإمبراطورية . فعلى مدى معظم فترة الرسالة النبوية كانت بلاد

الشام وفلسطين تحت الحكم الفارسي، لا البيزنطي، ولم يحدث حتى سنة ٦٣٠م ، أى قبل عامين من وفاة النبى ، أن أُعيدت السيطرة البيزنطية. وعلى الرغم من هذا، فلابد أن هذه السيطرة كانت واهية للغاية ، وربما كانت هناك مناطق عديدة حيث لم يكنْ الحكم البيزنطى موجوداً تقريبًا . ولابد أن معظم الشوام من الأجيال الشابة لم تكن لديهم الخبرة أو الذاكرة عن الحكم الامبراطورى، كما لم يكن لديهم أى سبب يجعلهم موالين للقسطنطينية . وحتى بينما كانت عملية إعادة الحكم البيزنطى تجرى ببطء برزت الاختلافات الدينية التى كانت قد قسَّمت بلاد الشام فى القرن السادس على السطح مرة أخرى. وكان الإمبراطور هرقل قد عقد العزم على أن يفرض التوافق الدينى بالقوة على السكان المسيحيين الذن رفضوا موقفه المذهبى على نطاق واسع .

كانت السيطرة البيزنطية على بلاد الشام قد رسخت على مدى أكثر من خمسة قرون. وإذا كان الإسلام قد ظهر قبل خمسين سنة، ولو كان المسلمون الأوائل قد حاولوا غزو بلاد الشام وفلسطين فى ثمانينيات القرن السادس الميلادى، وليس فى ثلاثينيات القرن السابع الميلادى، فربما كان يمكن طردهم بسرعة شديدة ؛ إذ إن الولايتين كانتا تحت السيطرة الحازمة للحكومة كما كانت الدفاعات جيدة التنظيم . ومصادفة أن أول الجيوش الإسلامية ظهرت بسرعة بعد الحوادث المضطربة فى الحرب العظمى بين بيزنطة وفارس كانت بمثابة الشرط الأساسى لنجاح جيوش المسلمين(*).

وربما كانت بلاد الشام قد خربت من جراء الحرب والطاعون ولكن بالنسبة لبدو شبه الجزيرة العربية كانت لا تزال هى مورد النبيذ والزيت والغلال . فقد كانت النواحى القريبة من غزة وبُصرى، حيث تحفُّ الأرض الزراعية بالصحراء، محل الزيارات الكثيرة التى يقوم بها تجار مكة وغيرها من المراكز التجارية فى شبه الجزيرة العربية.

(*) يستخدم المؤلف «لو» مرة أخرى ، ولكنه يريد هنا ألا ينسب الفضل لقوة الجيوش الإسلامية ، أو تنظيمها ، أو حماستها الدينية – وهى أمور ذكرها فى الصفحات السابقة – وينسب الأمر إلى ضعف العدو فحسب . (المترجم)

وكانت البلاد أرضاً مألوفة بالنسبة لقادة الجماعة المسلمة الباكرة وكان من الطبيعى أن تكون أول أهداف الجيوش الإسلامية الجديدة . والمأثور عن أن النبى نفسه زار بلاد الشام قبل أن تنزل عليه الرسالة خبر تاريخى قديم تؤكده شواهد جيدة. ذلك أن المدينة الفلسطينية بيت المقدس كانت القبلة الأولى التى يتجه إليها المسلمون فى صلاتهم ، قبل أن يتحولوا باتجاه مكة . وكان أبو سفيان ، زعيم المعارضة المكية للنبى يمتلك ضياعاً فى الأردن، بما فيها قرية قبش فى ناحية البلقاء الخصيبة جنوب عمان التى اعتاد أن يستخدمها قاعدة لنشاطه التجارى(٢). كانت مدن بلاد الشام مستودعات التجارة على امتداد حافة الصحراء وكان كثير من أبناء النخبة المسلمة الجديدة قد زاروا البلاد وعرفوها جيداً. وعندما كان النبى محمد، فى أواخر حياته ، يبحث عن مناطق توفر موارد جديدة للمسلمين ، كان طبيعياً أن يتطلع صوب الشمال. ففى هذا الصدد كانت الشام تختلف تماماً عن العراق التى كان من زاروها قبل بداية الفتوح من أبناء النخبة المسلمة الجديدة عدداً قليلاً كما كانت بلاداً غير مألوفة بالنسبة لهم .

كانت هجمات المسلمين على بلاد الشام قد بدأت على نطاق صغير ولم تكن ناجحة كثيرا فى العامين الأخيرين من حياة النبى. ويشاهد زوار الأردن المسافرون جنوبا على «الطريق الملكى السريع»، وهو الطريق القديم الذى يمتد على طول المرتفعات الخصيبة شرق البحر الميت ، من الكرك إلى البتراء ، قبور الأبطال المسلمين الأوائل ، بقبابها المرتبة وأدغال الأشجار ، وهى حديثة جداً. ولكن موقعها يبدو من الآثار الحقيقية الباقية عن المواجهة بين المسلمين والبيزنطيين . وفى سنة ٦٢٩م كان النبى قد أرسل سرية فى اتجاه بلاد الشام ، وربما كانت تبحث فقط عن الغنائم فى أثناء الاضطراب الذى أعقب انسحاب الجيش الفارسى. وبينما كانت القوة الإسلامية الصغيرة تسير على «الطريق الملكى»، قابلتهم تجريدة من الجنود البيزنطيين، ومعظمهم من أبناء القبائل العربية المحلية، يسيرون جنوباً على الطريق لإعادة الحكم البيزنطى إلى المنطقة . وفى اشتباك قصير عند مؤتة، هُزم المسلمون، وأجبروا على الفرار، وقتل عدد من قادتهم ودفنوا فى المقابر التى ما نزال نراها اليوم. ومن بين المسلمين الذين فروا ليحاربوا يوماً آخر كان خالد بن الوليد «سيف الله المسلول» الذى قيض له فيما بعد أن يلعب دوراً مهماً فى فتح الشام.

كانت هزيمة مؤتة إهانة للدولة المسلمة الناشئة ولكن يبدو أن النبى كان لا يزال على تصميمه فى مواصلة مشروع غزو بلاد الشام . ففى سنة ٦٣٠م أرسل سرية تم التخطيط لها بحذر ضد تبوك فى شمال الحجاز ربما كانت تجربة للهجمات على بلاد الشام . ومن بين القادة الذين اكتسبوا خبرة عسكرية مفيدة فى هذه الحملة كان عمرو بن العاص، الرجل الذى سوف يرسل فيما بعد لفتح مصر بعد عقد من الزمان. ولايمكن أن يكون هناك شك فى أنه حينما شرعت القيادة العليا الإسلامية فى فتح بلاد الشام، فإنهم كانوا يواصلون السياسة التى كانت قد أرسيت بالفعل على يدى نبيهم.

وبعد وفاة النبى مباشرة، أرسل الخليفة أبوبكر الصديق حملة أخرى إلى بلاد الشام، وهى حملة كانت علامة على بداية الفتح الحقيقى للبلاد . عند هذه النقطة يصير ترتيب الحوادث تاريخياً غاية فى الارتباك. فلدينا كتلة هائلة من المأثورات عن المعارك الرئيسية والاشتباكات الصغرى وعن الاستيلاء على المدن. ولكن الحقيقة أنه لا توجد طريقة للتوفيق بين مختلف الهياكل التأريخية التتابعية التى زاد فيها مختلف المؤرخين المسلمين ، كما أن هناك القليل جداً من المصادر الخارجية التى يمكن أن تعطينا أى نوع من التوجيه . وكما اشتكى المؤرخ المسلم الكبير «ابن جرير الطبرى» عندما كان يجمع روايات الفتح قال ما نصه : «قال أبوجعفر : ونذكر الآن أمر فِحل إذْ كان فى الخبر الذى فيه من الاختلاف ما ذكرت من فتوح جند الشام. ومن الأمور التى تُستنكر وقوع مثل هذا الاختلاف الذى ذكرته فى وقته ؛ لقرب بعض ذلك من بعض[٣](*). وفى النهاية ، لا يسعنا سوى أن نكون متأكدين من أن إرسال الحملات بدأ منذ سنة ٦٣٢م ، وأنه بعد ثمانى سنوات، أى سنة ٦٤٠م، كانت بلاد الشام كلها تحت نوع ما من الحكم الإسلامى باستثناء مدينة قيسارية الساحلية. والرواية التالية قامت على أساس التتابع الزمنى الذى يحظى بأكبر اتفاق عام، ولكنه يجب أن يؤخذ بحذر كثير.

---

* الطبرى ، ج٣ / ص٤٤٢ .

كان هدف هذه الحملات الباكرة تأييد سيطرة المدينة المنورة على القبائل العربية على حواف المناطق المستقرة. فعلى الحدود الغربية للأرض الخصيبة فى العراق وعلى امتداد حافتى وادى النيل فى مصر، كانت الحدود بين الصحراء والزرع عبارة عن خط ثابت نسبيًا بين إقليم بيئى وآخر. أما فى بلاد الشام فإن التمايز يبدو بينهما أقل وضوحًا. إذ إن التحرك شرقًا من ساحل البحر المتوسط الذى تتوفر به المياه، يجعلنا ندخل فى فضاء أرض تصير جرداء بالتدريج. وعند خط ٢٠٠مم إيزوبايت (أى الخط الذى بعده تقل نسبة الأمطار السنوية عن ٢٠٠مم فى المتوسط) تكون الزراعة المستقرة مستحيلة بدون مياه الرى المتوفرة فى الواحات. ويقع غرب هذا الخط إقليم يمكن استخدامه للرعى من جانب البدو أو للزراعة الجافة . ذلك أن كثيرًا من البدو كانوا مزارعين لبعض الوقت أيضًا، يزرعون حقولاً صغيرة من الغلال كما يقومون برعى حيواناتهم . وقد أدت سياسة ضمان إخلاص بدو الشام للإسلام بالضرورة إلى الدخول فى الصراع ضد السلطات الإمبراطورية البيزنطية وحلفائهم العرب . وكانت سياسة واعية وعمدية للغاية من جانب الخليفة أبى بكر الصديق وبقية القيادة الإسلامية: إذ كان على جميع البدو العرب إعلان ولائهم للدولة المسلمة ، وأولئك الذين لم يفعلوا ذلك طواعية كان لابد من إجبارهم.

ويقال إن أبا بكر جرد أربعة جيوش صغيرة لكى تعمل بصورة مستقلة فى مناطق الحدود شرق البحر الميت ووادى الأردن ، وقد رفعوا الرايات على رماح القادة إعلانًا لسلطتهم. ولابد أن اختيار القادة كان أمرًا مهمًا للغاية فى تاريخ الدولة الإسلامية الباكرة. وكان أحدهم يزيد بن أبى سفيان، الذى أخذ معه أخاه معاوية. وكما رأينا، كانت للعائلة بالفعل ممتلكات فى بلاد الشام وكانت على معرفة جيدة بالمنطقة . وقُيِّض ليزيد أن يكون أحد القادة المسلمين البارزين فى الفتح ، وقد ساعده هذا هو وأخاه على تأسيس سلطة عائلتهما فى بلاد الشام. ومات يزيد بالطاعون قبل أن تكتمل الفتوح نهائيًا، ولكن أخاه معاوية ورث دوره . وتم بناء قاعدة السلطة فى بلاد الشام أثناء الفتوح وفى أعقابها مباشرة ؛ مما ساعده على فرض نفسه أول خليفة أموى سنة ٦٦١م وأن يحكم العالم المسلم كله من دمشق.

وثمة تعيين آخر كانت له نتائجه بعيدة المدى هو تعيين عمرو بن العاص ، الذى كان داهية أكثر منه محاربًا عظيمًا ، كان هو أودسيوس المراوغ فى الجيوش الإسلامية الباكرة. وكانت خلفيته بوصفه تاجرًا فى غزة بمثابة التوصية لدى النبى، الذى كان قد اختاره لجمع أموال الزكاة من القبائل على الطريق من المدينة إلى بلاد الشام. وقد اختار أن يقود رجاله، ويقال إن عددهم كان ثلاثة آلاف رجل ، ومنهم كثير من مكة والمدينة[٤]، إلى المنطقة التى كان على ألفة بها بالفعل. وسار على امتداد ساحل البحر الأحمر حتى رأس خليج العقبة ثم اتجه غربًا وعسكر مع رجاله ، فى المنخفض الرملى الكبير بين الأردن وفلسطين والمعروف باسم «وادى عربة» . ومن هناك صعدوا الجرف إلى هضبة النجف قبل أن يتوجهوا صوب البحر عند غزة . وهنا بدأ عمرو التفاوض مع القائد العسكرى المحلى ، وربما يكون قد طلب منه الأموال، وهناك حكاية مأثورة عن أن القائد البيزنطى حاول أسره أو قتله فى أثناء محادثاتهما . وأخيرًا ، فى ٤ فبراير ٦٣٤م[٥]، جرت معركة هزم فيها عمرو وجيشه الجيش البيزنطى الصغير عند قرية تسمى داثين بالقرب من غزة، وقتل قائدها . وترك الانتصار العربى تأثيرًا سريعًا . فقد انتشرت الأنباء بسرعة ، ولدينا خبر بأن جماعة يهودية قرب قيسارية أعلنت فرحها صراحة لموت الضابط البيزنطى وإهانة السلطة البيزنطية[٦].

وربما كان النصر الذى حققه المسلمون فى داثين صغيرًا ولكنه حوَّل السلطات البيزنطية تجاه التهديد الجديد القادم من الجنوب. كان الإمبراطور هرقل هو القائد الأعلى . وكان عمره حوالى ستين سنة فى ذلك الوقت ، ومن المؤكد أنه لم يكن نزيلاً مدللاً فى قصور القسطنطينية الشاسعة الفاخرة ؛ وإنما كان رجلاً يتمتع بقدر هائل من الخبرة العسكرية، معتادًا تمامًا على مشاق الحملات العسكرية ومصاعبها . وكان أيضا فى قمة قوته كما كان ، حتى عندما بدأت الغارات الإسلامية الباكرة على بلاد الشام، قد فرغ لتوه من الاحتفال بالانتصار العظيم وعودة صليب الصلبوت إلى القدس. ولم يقم هرقل أبدا بقيادة جيوشه ضد المسلمين (ولكن أيضا لم يقم أحد من الخلفاء بنفسه بقيادة جيوش الإسلام) ، ولكنه بقى خلف الخطوط فى الشام، فى حمص أو فى أنطاكية، يوجه العمليات ، ويعيِّن القادة ويصدر التعليمات . والصورة التى ترسمها

المصادر العربية لهرقل صورة مثيرة جداً[٧]؛ فهو مشهور بذكائه الحاد وحكمته وقدرته على التنبؤ بالمستقبل . وفى إحدى القصص ؛ يحكى أبوسفيان الأرستقراطى المكى كيف رأى هرقل عندما كان يزور بلاد الشام مع جماعة من التجار . «كنا قوماً تجاراً ، وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا ، فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله، لم نأمن ألا نجد أمنا ، فخرجت فى نفر من قريش تجار إلى الشام، وكان وجه متجرنا منها غزة، فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من فارس، وأخرجهم منها، وانتزع له منهم صليبه الأعظم، وكانوا قد استلبوه إياه ، فلما بلغ ذلك منهم، وبلغه أن صليبه قد استنقذ له – وكانت حمص منزله – خرج منها يمشى على قدميه متشكراً لله حين ردَّ عليه ما ردَّ ، ليصلى فى بيت المقدس، تُبسط له البُسط ، وتلقى عليها الرياحين ، فلما انتهى إلى إلياء وقضى فيها صلاته ، ومع بطارقته وأشراف الروم ...»[٨] فهو يظهر هنا منتصراً ولكنه متواضع ومتدين(*).

وفى عدد من الحكايات ، قيل إن هرقل اعترف بعظمة النبى محمد وكان يود لو أسلم لو لم يكن النبلاء البيزنطيون على هذه الدرجة من العداء للفكرة. وبالنسبة للعرب كان هو المفتاح والقائد الرمزى للمقاومة البيزنطية لجيوش الإسلام ، العدو القديم. وتظهره المصادر العربية فخوراً وحاكماً فردياً ولكنه أيضا يمر بلحظات عندما يكون بمفرده بعيداً عن مستشاريه وحاشيته يرى فيها مدى قوة المسلمين ويعترف بأن السيادة ستكون من نصيبهم . والصورة التى ترسمها المصادر العربية لهرقل ليست غير متعاطفة تماماً : فهو شخصية مأساوية لأن عدم اعتناقه الإسلام كان يعنى نهاية حياته بالمهانة والفشل.

وحتى هذه النقطة كانت الهجمات التى يشنها المسلمون على بلاد الشام قد تصاعدت إلى ما هو أكثر قليلاً من مناوشات الحدود. فقد بدأت المرحلة التالية من الفتوح مع وصول خالد بن الوليد ورجاله بعد مسيره من العراق عبر الصحراء ،

---

* النص كاملا من الطبرى، ج٢ ، ص٦٤٥– ص٦٤٦ .

حيث كان يشن الغارات على طول حدود الصحراء. ولقيت مسيرة خالد عبر بادية الشام، ومعه حوالى خمسمائة من قواته، حفاوة وتبجيلاً فى التاريخ والأسطورة على السواء[9] : فالمصادر العربية رأت فى تحمله أعجوبة ومعجزة؛ ورأى الباحثون المحدثون فيه واحداً من أساتذة الاستراتيجية[10]، وتروى القصة غالبًا كيف أنه عبر صحراء لا ماء فيها على مدى ستة أيام بأن جعل بعض الإبل تشرب من الماء كميات أكثر مما تحتاجها ، وربط فكيها حتى لاتجتر ، ثم ذبحها واحداً بعد الآخر حتى استطاع رجاله أن يشربوا الماء من بطونها . وفى مرحلة أخرى، عندما كان خالد ورجاله يواجهون العقبات وحدهم، ويعانون شدة العطش ، سأل أحد رجاله، رافع الذى كان فى المنطقة من قبل ، عما إذا كانت لديه فكرة عن الماء . وقال رافع إن الماء فى متناولهم «... نادى خالد رافعًا : ما عندك ؟ قال : خير، أدركتم الرِّى وأنتم على الماء. وشجعهم وهو متحير أرمد، وقال : أيها الناس، انظروا علمين كأنهما ثديان . فأتوا عليهما وقالوا : علمان ، فقام عليهما فقال : اضربوا يمنة ويسرة – لعوسجة كقعدة الرجل – فوجدوا جذمها ، فقالوا : جذم ولانرى شجرة ، فقال احتفروا حيث شئتم ، فاستثاروا أوشالاً وأحساء رواء، فقال رافع : أيها الأمير ، والله ما وردت هذا الماء منذ ثلاثين سنة ، وما وردته إلا مرة وأنا غلام مع أبى»[1](*)، وهكذا تمضى الرواية لتقول إنهم جهزوا أنفسهم وهاجموا العدو، الذى لم يستطع أن يُصدق أن أى جيش يمكنه عبور هذه الصحراء إليهم.

والمشكلة أن الروايات الواردة عن هذه الحملة مشوشة للغاية، على الرغم من حيويتها. ويمكن أن نكون متأكدين من أن خالد بن الوليد عبر الصحراء بالفعل من العراق إلى بلاد الشام فى وقت ما من الربيع أو مطلع صيف سنة ٦٣٤م ، وأن ذلك كان عملاً خالداً من أعمال الاحتمال والجلد العسكرى وأن وصوله إلى بلاد الشام كان عاملاً مهمًا فى انتصار الجيوش الإسلامية هناك. والمشكلة أن بعض المصادر توحى بأنه

---

* الطبرى، ج٣ ، ص٤٠٩– ص٤١٠ . (المترجم)

ذهب على الطريق الجنوبي الطويل بجوار دومة الجندل ، على حين أن هناك آخرين متأكدين بالدرجة نفسها من أنه قام برحلته عن طريق بالميرا فى الشمال. وهناك مناقشات جيدة على كلا الجانبين وببساطة لا نعرف ما هى الرواية الصحيحة.

والروايات العربية تعتز بخالد باعتباره أكفأ القادة ، حتى بعد أن كان عمر بن الخطاب قد عزله من مركز القائد الأعلى الذى كان يشغله وعين أبا عبيدة بن الجراح بدلاً منه . فقد كان خالد هو الذى وحدَّ الجيوش الإسلامية عندما وصل ، وكان خالد هو الذى بدأ فتح دمشق بفتح الباب الشرقى، وكان خالد هو الذى وضع التكتيكات التى أدت إلى النصر فى معركة اليرموك . ثم واصل عمله ليقوم بدور بارز فى فتح حمص وقنسرين . وقد بقيت شهرته بوصفه قائداً عظيمًا عبر الأجيال وهناك شوارع تحمل اسمه فى جميع أنحاء العالم العربى. وعلى الرغم من إنجازاته التى لا يرقى إليها الشك ، فإن سمعته فى المصادر مختلطة. فقد جاء من واحدة من أرقى العائلات الأرستقراطية فى مكة وكان مثل الكثير من أبناء طبقته يراوده الكثير من الشك فى النبى محمد وما جاء به من الدعوة إلى العدالة الاجتماعية والتوحيد . ولم يكن واحداً من أوائل الذين اعتنقوا الإسلام ؛ فالواقع أنه كان من بين أعداء النبى، وبالفعل حارب ضده فى غزوة أحُد ، ولكنه اعتنق الإسلام بعد ذلك بوقت قصير. وما إن أعلن إسلامه حتى صار مسلمًا مخلصًا وبدأ يكرس كل مواهبه العسكرية الهائلة لمساندة الدولة الإسلامية الجديدة. وبناء على أوامر النبى، دمَّر واحداً من أشهر الأصنام القديمة، تمثال الإلهة العُزَّى فى نخلة بالقرب من مكة . وكان محل ثقة الخليفة أبى بكر الصديق الذى عهد إليه بقيادة الجيوش ضد القبائل العربية المتمردة فى حروب الردة . وقد أحرز انتصارات عظيمة ولكنه اشتهر أيضا بالقسوة وأحيانا بردود فعله المتسرعة جدا: ففى إحدى المناسبات ذبح مجموعة كاملة من المسلمين عن طريق الخطأ ، وربط بين هذا الاعتداء والزواج حالاً من أرملة أحد الضحايا(١٢). ويبدو أن شهرته قد زرعت الضغينة فى قلوب بعض المسلمين الأوائل فيما بعد ، ولاسيما الخليفة عمر بن الخطاب ، الذى كان يؤمن بقوة أن السبق فى الإسلام أمر جوهرى بالنسبة لمن يريد أن يكون قائداً ، واعتناق الإسلام فى وقت متأخر لايكفى، وأن قليلاً من التواضع لن يضيع سدى . وثمة

قصة تحكى عن خالد بن الوليد تحاول أن تفسّر حياته وأن ترد له اعتباره . ففى حوار مع القائد الأرمنى جرجة جورياه قبل معركة اليرموك مباشرة، يبدو خالد وهو يبرر حياته ويشرح لماذا كان يسمى «سيف الله» : « ... قال: إن الله عزّ وجلّ بعث فينا نبيه صلى الله عليه وسلم ، فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعًا . ثم إن بعضنا صدقه وتابعه، وبعضنا باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله . ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا ، فهدانا به ، فتابعناه . فقال : أنت سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين ودعا لى بالنصر ؛ فُسميت سيف الله بذلك، فأنا من أشد المسلمين على المشركين»(*).

كان خالد قد تلقى تعليمات من أبى بكر بأن يسرع بقدر ما يستطيع للمساعدة فى فتح الشام، وكانت أحداث الفتح قد وصلت آنذاك إلى حالة حرجة . وفى عيد الفصح (٢٤ أبريل ٦٣٤م) ظهر فجأة مع قواته وانقضوا على الغساسنة النصارى حلفاء البيزنطيين أثناء احتفالهم بين العشب والنضير وأزهار الربيع فى مراج الراحة شمال دمشق[١٣]. ثم اتجه جنوبيًا لينضم إلى القادة المسلمين الآخرين الذين كانوا يقاتلون فعلا فى الشام، ويبدو أنهم كانوا قد توحدوا تحت رايته لمواجهة تحدى القوات الإمبراطورية البيزنطية. وبدءوا بالهجوم على مدينة بصرى[١٤].

تقع بصرى شمال الحدود السورية – الأردنية الحديثة مباشرة فى أرض مسطحة ولكنها خصيبة تتداخل مع كتل الصخور البازلتية السوداء لتشكل خصائص المنطقة. وشمال المدينة تبرز تلال حوران البركانية التى يمكن رؤيتها بوضوح من فوق أسوار المدينة. وعلى الرغم من أن الجبال جرداء، ومرتفعة بشكل لافت، فإنها تضم رقعًا من تربة غاية فى الخصوبة ، شأنها شأن كثير من المناطق البركانية. وكانت المنطقة الظهير الداخلى لبصرى كما كانت أقرب المناطق إلى شبه الجزيرة العربية، ومصدر إمدادات القمح والزيت والنبيذ الذى يريده البدو. وكانت المدينة قد صارت غنية لأنها كانت مستودعًا تجاريًا ، وشاع الاعتقاد على نطاق واسع بأن النبى نفسه كان قد زارها

* النص من الطبرى، ج٢ ، ص٣٩٨– ص٣٩٩ . (المترجم)

فى شبابه وأنه عرف أسرار الديانة المسيحية هناك على يد بحْيرا الراهب . وكانت بُصرى أيضا مركزًا سياسيًا . وعندما كان الإمبراطور الرومانى تراچان Tragian قد ضمَّ مملكة النبط فى سنة ١٠٦ م وحولها إلى الولاية العربية Arabia، نقل العاصمة من بترا البعيدة فى الجنوب إلى مدينة بُصرى التى يسهل الوصول إليها من روما . وإذ كانت المدينة مبنية من البازلت الأسود الصلب ، فإن أطلال مدينة بُصرى القديمة من أكثر الآثار جمالاً فى الشرق الأدنى. ولا يزال المسرح الرومانى الضخم هناك باقيًا كما هو تقريبًا ، ويشكل مركز قلعة بُنيت فى وقت لاحق فى العصور الوسطى. والأعمدة وأحجار الرصف تشير إلى الشوارع القديمة ، وهناك بقايا الحمامات وعدد من الكنائس المسيحية المهمة، ومن ضمنها كاتدرائية مستديرة فخمة .

وليس من الواضح ما إذا كان البيزنطيون قد أعادوا بناء السلطة الإمبراطورية بالمدينة عقب رحيل الساسانيين . ويبدو أن المدينة قد أبدت قدرًا بسيطًا من المقاومة ، وقرب نهاية شهر مايو سنة ٦٣٤م عقدت صلحًا مع المسلمين، ووافق مواطنوها على دفع ضريبة سنوية وكانت أول مدينة كبرى فى بلاد الشام يستولى عليها الغزاة.

بعد استسلام بصرى ، سارت القوة الإسلامية غربًا لكى تتقابل مع عمرو بن العاص . وكان عمرو، بعد انتصاره فى داثين يواجه قوة بيزنطية كبيرة كانت قد تجمعت جنوب غرب بيت المقدس على الطريق صوب غزة . وعبر خالد والآخرون وادى الأردن دونما مقاومة واضحة وقابل عمرو بن العاص ورجاله . ويقال إن الجيش الإسلامى المشترك كان حوالى عشرين ألفًا تحت قيادة عمرو، الذى كان القائد العربى الوحيد الذى ذكرته المصادر التى كانت تصوره على الدوام داهية ذكيًا . ويوصف بأنه يتجسس على معسكر العدو بشخصه أو يرسل الجواسيس للقيام بذلك، على حين يكتب القائد البيزنطى إليه باعتباره شخصًا يضاهيه فى الدهاء[١٥]. وتقابلت الجيوش فى مكان يسميه الكتاب المسلمون أجنادين ، وجرت هناك معركة كبرى. وليست لدينا معلومات تفصيلية عن طبيعة الصراع ولكن من الواضح أن الهزيمة كانت من نصيب البيزنطيين وأن شراذم جيشهم انسحبت إلى القدس وغيرها من المواقع الحصينة. وانتشرت أنباء الانتصار الإسلامى فى شتى الأنحاء، ويبدو أنها المعركة التى تشير إليها حولية فردجار Fredgar

الفرنجية التى تم تأليفها بعد حوالى عشرين سنة فى فرنسا. وهى تتضمن التفاصيل المثيرة ، وربما الحقيقية ، عن أن المسلمين عرضوا أن يبيعوا لهرقل المغانم والأسلاب التى كانوا قد استولوا عليها لتوهم من رجاله المهزومين ، ولكن الإمبراطور رفض أن يدفع فى مقابل أى شىء من هذه الغنائم(١٦).

ويخبرنا المؤرخ الأرمنى المعاصر سيبيوس كيف أن القوات البيزنطية تلقت أوامر من الإمبراطور بأن يبقوا فى حالة دفاع(١٧). وبدلاً من ذلك ، تركوا معسكرهم بجوار النهر ليحتموا فى مدينة بيللا، على الضفة الشرقية للنهر . وكانت بيللا مدينة مزدهرة فى الأراضى الخصيبة بوادى الأردن وقلعة محصنة يسهل الدفاع عنها ترتفع فوق الشوارع الكلاسيكية ذات الأروقة على أرضية الوادى. وهناك تعرضوا للهجوم مرة أخرى. وكما هى العادة ، فإن مجرى المعركة ليس واضحًا تمامًا ولكن يبدو أن هناك بعض الملامح علقت فى الذاكرة . فقد عبرت القوات البيزنطية وادى الأردن من سكيثو بوليس Scythopolis على الضفة الغربية، ولكى يعطلوا المسلمين الذين يطاردونهم ، قطعوا بعض مصارف مياه الرى، بحيث جعلوا المياه تنساب على الأرض المسطحة فى قاع الوادى بحيث صارت محيطًا من الطين(١٨). وشن المسلمون هجومهم وهم لايعرفون ما فعله البيزنطيون، وعلقت الكثير من خيولهم فى المستنقع ولكن الله أنقذهم . وفى النهاية كان البيزنطيون هم الذين وقعوا فى مصيدة الوحل وتم ذبح كثير منهم.

وانسحبت شراذم القوات البيزنطية آنذاك إلى دمشق . وطاردهم المسلمون. وصار حصار دمشق واحدة من المعارك المتلاحمة فى فتح الشام. ويمكن لنا إلى حد كبير أن نقتفى أثر تقدم الحصار بسبب الأوصاف التفصيلية التى أمدتنا بها المصادر وبسبب الحفاظ على نسيج المدينة. ذلك أن أسوار دمشق، سواء كانت رومانية فى أصلها أو أقدم من ذلك، وكان يتم تجديدها باستمرار ولا تزال متماسكة إلى درجة كبيرة . وفى الطرف الغربى فحسب من المدينة التى توسعت فى العصر العثمانى نجد الدائرة القديمة قد تصدعت . وجميع البوابات القديمة باقية باستثناء واحدة وهى اليوم تحمل الأسماء نفسها التى كانت تحملها فى المصادر العربية الباكرة.

إنها مثال مدهش على استمرارية الجغرافيا الحضرية والهندسة الحضرية طوال القرون الأربعة عشرة. وتخبرنا المصادر أن خالد بن الوليد قد تمركز عند الباب الشرقي، وعمرو بن العاص عند باب توما، وأبو عبيدة عند باب الجابية الذى أزيل الآن على الناحية الغربية ويزيد بن أبى سفيان عند الباب الصغير وباب كيْسان على الجانب الجنوبى مَن المدينة.

واتخذ المسلمون حيطتهم أيضا بأن وضعوا قوة على الطريق شمال دمشق. وقد برهن هذا على حكمة هذه الحركة ، لأن هرقل الذى قيل إنه كان فى حمص آنذاك ، أرسل قوة من الخيالة لكى تحاول التخفيف من وطأة الحصار ولكن تم اعتراضها ولم تصل أبدًا[١٩]. وليس من الواضح طول المدة التى استمر فيها الحصار. ومن الأمور المربكة أن المصادر العربية تقدم تقديرات تختلف اختلافا بيِّنا ، ما بين أربعة أشهر إلى أربعة عشر شهراً . ولايبدو أنه كان لدى العرب أى آلات حصار، أو أية تجهيزات أكثر تعقيداً من الحبال والسلالم ، وحتى السلالم كان لابد من استعارتها من الدير المجاور[٢٠]. ويبدو أن كل ما استطاع المهاجمون أن يفعلوه ضد الأسوار القوية للمدينة هو أن يضيقوا عليها الخناق على أمل أن المجاعة، أو الضجر ، أو المنازعات الداخلية سوف تتسبب فى استسلام المدافعين. وعندما صار من الواضح أنه لا توجد قوة إنقاذ فى الأفق ، بدأ اليأس يدب فى نفوس المدافعين عن دمشق . وحسبما تقول إحدى الروايات، جاءت النهاية عندما وُلد طفل للقائد البيزنطى المسئول عن المدينة وسمح لرجاله بالاسترخاء والأكل والشرب احتفالاً بهذه المناسبة . وقرر خالد بن الوليد، الذى كان يتصيد الفرص دائمًا والذى كان يعرف بالضبط ما كان يجرى فى المدينة، أن ينتهز الفرصة. وكان معه الحبال والسلالم . واقترب بعض رجاله من الباب مستخدمين جلود الحيوانات المنفوخة لعبور الخندق . وسحبوا حبالهم حول الشُرفات المفتوحة فى الأسوار وتسلقوا إلى أعلى ، وأخذوا الحبال معهم حتى لايراهم أحد. ثم ، وعند إشارة متفق عليها ، اقتحموا الباب وهم يُكبِّرون بصيحات «الله أكبر» ، وقتلوا حراس باب المدينة وكل من قاومهم .

وفى الوقت نفسه ، عند الطرف الآخر من المدينة، كان أهل دمشق قد فتحوا باب التفاوض من أجل الاستسلام صلحًا وبدأت القوات المسلمة تدخل المدينة من الغرب. وتقابلت المجموعتان ، خالد ورجاله من الشرق والآخرون من الغرب، فى وسط المدينة فى الأسواق القديمة، وبدأت المفاوضات. وتم وضع الشروط تاركين السكان آمنين فى مقابل الجزية. أما الممتلكات الخاصة للخزانة الإمبراطورية فقد تمت مصادرتها لصالح جميع المسلمين، وقد صارت جزءًا من الفيئ(٢١). وكما جرت العادة تم تقسيم الغنائم وحرص القادة على الاحتفاظ بنصيب أولئك الذين كانوا متمركزين على الطريق شمال المدينة، فعلى الرغم من أنهم لم يلعبوا دورًا مباشرًا فى الحصار، فإن وجودهم أسهم فى النصر وحصلوا على نصيبهم من الغنائم . وربما تكون القصص المركبة التى تولدت على الاستيلاء على دمشق ، من ناحيتين مختلفتين وبطريقتين مختلفتين ، محاولة لحل الموضوع الشائك عما إذا كانت المدينة قد فُتحت صلُحًا أم عنوة . وفى هذه الحال يبدو أن السلطات قد حاولت الوصول إلى حل وسط لا يجعل فتح دمشق صلحًا أو عنوة.

كما تعكس روايات سقوط دمشق الولاءات المنقسمة بين سكانها. فقد كانت المدينة مركزًا من مراكز السلطة الإمبراطورية ولها حاكم عسكرى عينه الإمبراطور نفسه ، ولكن كثيرين من السكان إن لم يكن معظمهم كانوا من العرب المسيحيين . ومن الواضح أن الكثير منهم كانوا قد خلعوا ولاءهم للإمبراطورية البيزنطية وأنهم شعروا بأنهم أقرب إلى العرب خارج أسوار المدينة منهم إلى الروم والأرمن الذين كانوا يشكلون جزءًا كبيرًا من الحامية(*). وأيًا ما كان التفسير ، فمن الواضح أن دمشق

(*) هناك سبب مهم يتجاهله المؤلف، ولا أظن أنه يجهله، وهو أن الصراع المذهبى بين المسيحيين الأرثوذكس، ومنهم مسيحيو دمشق بطبيعة الحال، والسلطات البيزنطية وكنيسة القسطنطينية من ناحية أخرى؛ قد تسبب فى أضرار شديدة وقعت على المسيحيين العرب فى دمشق وغيرها . وقد تمثلت هذه الأضرار فى الاضطهادات العنيفة ومصادرة الكنائس والأديرة المملوكة لأنصار مذهب الطبيعة الواحدة وممتلكاتهم لصالح أنصار مذهب الروم الأرثوذكس وكنيستهم . فقد حاولت كنيسة القسطنطينية فرض مذهبها بالقوة . وكانت نتيجة ذلك كراهية رعايا الإمبراطورية البيزنطية لحكومتها، ورأوا فيها وحشا لايستحق الإنقاذ. (المترجم)

نجت من أهوال القتال والنهب . وفى القرن الذى أعقب الفتح، صارت المدينة عاصمة العالم المسلم كله ودخلت عصرها الذهبى.

وفى وقت سقوط دمشق تقريباً ، وكالعادة نجد ترتيب الحوادث هنا محل شك كبير ، توفى أبوبكر الصديق ، خليفة رسول الله وأول من تولى منصب الخلافة فى تاريخ المسلمين. ونعرف أن وفاته كانت فى يوليو سنة ٦٣٤ميلادية (جمادى الآخرة سنة ١٣ هجرية) . وما هو أقل وضوحًا هو أية مرحلة كانت تلك فى الفتوح ، ولكن هناك عدداً من الروايات عن أن أخبار الوفاة وصلت الجيوش الإسلامية فى بلاد الشام أثناء حصار دمشق. كان الخليفة الجديد هو عمر بن الخطاب الزاهد الصارم ، الذى تصوره الكثير من الروايات فى صورة العقل المدبر وراء حركة الفتوح . ولم تكن هناك معارضة لخلافته بين القوات فى بلاد الشام ولكن الخليفة الجديد كانت لديه أفكار واضحة عن القيادة . وكما رأينا ، لم يكن عمر يحب خالد بن الوليد وكان ساخطًا عليه. وحقيقة أن خالد بن الوليد كان قد حارب بهذا الشكل المبهر فى سبيل الإسلام ضد المرتدين فى شرق شبه الجزيرة العربية ثم فى العراق وبلاد الشام لم يكن لها تأثير فى تحسين وضع خالد أمام الخليفة الجديد. ففى ذلك الحين أمر بطريقة فظة بعزل خالد وعودته إلى المدينة. وفى إحدى الروايات أن أبا عبيدة بن الجراح الذى تولى مكان خالد قائداً أعلى، تلقى أمراً بأن يطلب من خالد أن يعترف بأنه كان كاذبًا . فإذا رفض، كما كان متوقعًا ، فيجب نزع عمامته ومصادرة نصف أمواله. وإذْ واجه القائد العظيم هذا الإنذار طلب مهلة للاستشارة ، ليس مع أحد الأصدقاء أو مع مؤيديه كما قد يتبادر إلى الذهن ، وإنما مع أخته . وكانت واضحة تقرير فى أن عمر بن الخطاب يكره أخاها وأنه إذا ما اعترف بأنه كاذب سيتم عزله على كل حال . ولم يكن هناك ما يبرر أن يحاول استرضاء الخليفة بالاعتراف بجرائم لايعتقد أنه كان قد ارتكبها.

وفى انعكاس مثير لقوة الخليفة ووحدة المسلمين، أحس خالد أنه لابد من الذهاب إلى المدينة. ولو أن قائدا بيزنطيا كان فى الموقف نفسه لتصاعد الأمر إلى درجة التمرد والعصيان ولجأ إلى قواته لمساندته فى محاولة الوثوب إلى العرش. وعلى النقيض من هذا ، قبل القائد العظيم للجيش المسلم عزله وإهانته فى حلم وصبر . وعندما وصل

المدينة واصل عمر بن الخطاب تصرفاته الثأرية [ويقول الطبرى] «... كان عمر كلما مرَّ بخالد قال: يا خالد ، أخرج مال الله من تحت إستك ، فيقول : والله ما عندى من مال ؛ فلما أكثر عليه عمر قال له خالد : يا أمير المؤمنين ما قيمة ما أصبت فى سلطانكم ؟ أربعين ألف درهم ؟ فقال عمر : قد أخذت ذلك منك بأربعين ألف درهم ، قال : هو لك، قال : قد أخذته . ولم يكن لخالد مال إلاَّ عُدة ورقيق، فحسب ذلك ، فبلغت قيمته ثمانين ألف درهم فناصفه عمر ذلك ، فأعطاه أربعين ألف درهم ، وأخذ المال . فقيل له : يا أمير المؤمنين ، لو رددت على خالد ماله . فقال : إنما أنا تاجر للمسلمين، والله لا أرده عليه أبداً . فكان عمر يرى أنه اشتفى من خالد حين صنع به ذلك»(*). وسرعان ما عاد خالد بن الوليد إلى بلاد الشام ، ليلعب دوراً رئيسياً فى معركة اليرموك وما أعقبها من فتوح حمص وقنسرين ، حيث استقر هناك نهائيًا . وقيل إن عمر فى النهاية اعترف بأنه آذى «سيف الله»، وأن أبابكر الصديق، الذى آزر خالد وسانده كان أفضل من عمر بن الخطاب فى الحكم على الرجال[٢٢]. ومات القائد العظيم فى سلام سنة ٦٤٢م (سنة ٢١ هجرية) ، وكان قائدا عسكريا لامعًا ، قاسيًا ، ولكنه كان قائدا لم يكن المسلمون الأكثر تدينًا يستطيعون أن يشعروا بالراحة معه .

وفى الوقت نفسه ، كان الإمبراطور هرقل يجهز للقيام بجهد كبير آخر لطرد المسلمين من بلاد الشام. إذ كان قد تقهقر بعد سقوط دمشق إلى أنطاكية شمال بلاد الشام، وكانت العاصمة التقليدية للمنطقة بأسرها . وهناك انطلق فى توجيه آخر حملاته العسكرية . وجمع البيزنطيون كل ما استطاعوا جمعه من قوات . وتعطينا المصادر العربية أرقامًا كبيرة للغاية، فوق مائة ألف[٢٣]، بيد أن المقارنات مع الجيوش البيزنطية الأخرى فى تلك الفترة تجعل من الواضح أن هناك مبالغة كبيرة ، فالأعداد التى تتراوح ما بين خمسة عشر وعشرين ألفا تبدو ممكنه أكثر. وضمت الجيوش مجموعات متنافرة للغاية من الرجال. كان هناك الروم البيزنطيون تحت قيادة تيودور تريثوريوس Theodore Trithurios ، وفيلق كبير من الأرمن تحت قيادة جرجه والعرب المسيحيون

(*) النص من الطبرى، ج٣ ، ص٤٢٧ . (المترجم)

المحليون يقودهم ملك الغساسنة، الحليف التقليدى للبيزنطيين، جبلة بن الأيهم. وكان القائد الأعلى أرمنيا يُدعى ڤاهان Vahan . وكانت الفرق المختلفة تتكلم بالضرورة لغات مختلفة – اليونانية ، والأرمنية والعربية – وربما كانت هناك صعوبة فى الاتصالات فيما بينهم . وكانت هناك أيضا اختلافات دينية وثقافية عميقة. فلا بد أن الأرمن والروم قد جاءوا من خلفيات مستقرة، ربما كانت القرى الريفية ، وكانوا معتادين على الحياة والقتال فى الأراضى المرتفعة والجبلية .، أما العرب، من ناحية أخرى ، فكانوا من البدو الذين اعتادوا تقاليد الترحال والحركة فى حروب الصحراء. وقد جاءت جميع القوات من خلفيات مسيحية، ولكن كلاً من الأرمن والعرب المسيحيين كانوا يُعتبرون هراقطة فى نظر البيزنطيين الأرثوذكس. وليس من الواضح إلى أى مدى أثرت هذه الانقسامات حقًّا على أداء الجيش البيزنطى، ولكن المصادر غاصة بأخبار شتى عن الاستياء والسخط ، وعن اعتناق جرجه Jurjah الإسلام على يدى خالد بن الوليد عشية المعركة وانضمام المسيحيين العرب إلى الجانب المسلم أثناء سير المعركة. وتتحدث المصادر العربية أيضا عن الجنود البيزنطيين الذين كانوا مربوطين بالسلاسل معًا حتى لايمكنهم الفرار، ولكن هذه قصة نجدها فى روايات كثيرة عن الفتوح، استخدمت للمقابلة بين المسلمين الأحرار فى دوافعهم والجنود الأعداء الذين يحبون أنفسهم : وليس هناك دليل حقيقى على مثل هذه الفكرة غير العملية وعن تطبيقها ، على الرغم من أنها يمكن أن تكون انعكاسًا بعيداً لممارسة استخدام دروع المشاة وإقفالها سوياً لإقامة حائط حماية(٢٤).

ومن المحتمل أن تكون القوات البيزنطية قد اجتمعت فى حمص وسارت جنوبًا عبر وادى البقاع، ومرت ببعلبك بمعابدها الوثنية الكبيرة – التى كادت أن تكون فى ذلك الحين خاوية من المتعبدين ولكنها كانت لا تزال عظيمة رغم تدهورها – ومن هناك إلى دمشق . ويبدو أن توقعوا احتلالها دون مقاومة. وليست لدينا معلومات عن الكيفية التى وجدوا بها المدينة ولكن هناك روايات عن التوتر بين القادة البيزنطيين الذين كانوا يطلبون المؤن والإمدادات لرجالهم، حسبما كانت ممارسات البيزنطيين المعتادة، والمسئول المالى المحلى، منصور العربى، الذى أصر على أن المدينة لا تملك ما يكفى من

الموارد لإطعامهم . ومن المؤكد أن الجيش لم يستخدم دمشق قاعدة له وإنما واصل مسيره صوب الجنوب.

وتجمع الجيش البيزنطى عند الجابية فى مرتفعات الجولان. وكان هذا وقت الرعى الصيفى التقليدى للغساسنة. ووفقا لأقرب الروايات إلى الاحتمال ، كان ذلك الوقت شهر أغسطس ٦٣٦م، وكانت الجولان توفر الكثير من الطعام المطلوب، والماء والمرعى للجيش. وفى الوقت نفسه استعدت القوات المسلمة لمواجهة البيزنطيين والاحتفاظ بمكاسبها التى جنتها منذ وقت قريب. وتجمع جيشهم أيضا فى منطقة الجولان ، إلى الشمال الشرقى من البيزنطيين. وكانت مختلف الجيوش الإسلامية قد تجمعت فى ذلك الحين تحت قيادة أبى عبيدة بن الجراح ، وربما تحت قيادة خالد بن الوليد . وكان كل من يزيد بن أبى سفيان وعمرو بن العاص يقود فرقة من الجيش . ووفقا للمصادر الإسلامية كان عدد الجيش الإسلامى أربعة عشر ألف مقاتل . وفى ضوء ما تم من مراجعة هبطت بالأرقام على الجانب البيزنطى، فمن الممكن ألا تكون أعداد الجيشين متفاوتة بدرجة كبيرة.

وتعرف المعركة التى نشبت بين المسيحيين والمسلمين عادة باسم معركة اليرموك وكان تاريخها المتفق عليه صيف سنة ٦٣٦ م[٢٥] (١٣هـ). ومعركة اليرموك ، ومعركة القادسية فى العراق، واحدة من المعارك الرئيسية التى صارت ترمز إلى الانتصارات الإسلامية فى منطقة الهلال الخصيب. وكما هو الحال فى القادسية فإن الروايات العربية كثيرة ومشوشة ومن الصعب أن تكون واضحة بشأن ما حدث بالضبط . فليست هناك رواية معاصرة أو يمكن الاعتماد عليها من وجهة النظر البيزنطية. وتقول المصادر الإسلامية إن كلاً من الجانبين كانت تلهمه الحماسة الدينية. وبينما بقى البيزنطيون فى معسكرهم الحصين، يستعدون للمعركة ، «... فلزموا خندقهم عامة شهر يحضضهم القسيسون والشمامسة والرهبان وينعون لهم النصرانية»[٢٦](*) وعلى الجانب

(*) النص من الطبرى، ج٣ ، ص٣٩٥ . (المترجم)

الآخر خاطب بن الوليد رجاله قائلا : «... إن هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى. أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده ؛ ولاتقاتلوا قومًا على نظام وتعبية ، على تساند وانتشار، فإن هذا لا يحلُّ ولا ينبغى»[٢٧](*).

ونهر اليرموك ، وهو مجرى مائى دائم، يفيض من هضبة حوران إلى وادى الأردن، إلى الجنوب مباشرة من بحر الجليل. وفى مجراه إلى داخل الوادى الصخرى ، حفر ممرًا منحدرًا ، تحفّ به من الجانبين منحدرات صخرية شاهقة . وعلى الجانب الشمالى يلحق به عدد من الوديان الصغيرة، هى وادى الرّقاد . وكانت هذه المنحدرات هى التى حددت مجرى المعركة وربما كانت كارثية على المهزومين عندما حاولوا الهرب من ساحة المعركة . والموقع الفعلى للمعركة ، بين ممر اليرموك فى الجنوب ومرتفعات الجولان فى الشمال ، أرض ذات تلال صخرية منحدرة تتخللها وتُرصّعها القرى والمزارع . والحقيقة أنها كانت بلادًا جيدة مفتوحة تصلح لمناورات الفرسان، ولكنها أيضا كانت غطاء من الصخور أو الأشجار يختبئ فيها الرجال أو يعدوا الأكمنة . ومنذ سنة ١٩٤٨م صار هذا الموضع مثار حساسية بالغة من الناحية السياسية؛ لأنه يقع فيما بين حدود سوريا (فى الشمال من النهر) والأردن (جنوب النهر) والجولان المحتلة. وهذا ما جعل الوصول إلى ميدان المعركة أمرًا بالغ الصعوبة بالنسبة للمؤرخين . وعلى أية حال، فإن الأمر لم يكن على هذا النحو دائمًا . فقبل الحرب العالمية الأولى، عندما كانت المنطقة كلها جزءًا من الإمبراطورية العثمانية ، زار المنطقة المؤرخ والمستشرق الإيطالى الكبير ليونى كايتانى **Leone Caetani** أمير سرمونيتا **Sermoneta** . وقد استغل ملاحظاته التى عاينها بنفسه ومعرفته بالمصادر العربية فى إنتاج سياق جغرافى للمعركة ، وهو الذى شكل أساس أكثر الروايات الحديثة قبولاً[٢٨].

كانت معركة اليرموك سلسلة من الصراعات التى ربما تكون قد استمرت على مدى أكثر من شهر ثم تصاعدت إلى معركة كبرى قرب نهاية أغسطس[٢٩]. وقد حدثت المواجهات الأولى فى إقليم الجابية، وبعدها تقهقر المسلمون تجاه درعه . وأعقبت ذلك

(*) الطبرى ، ج٣، ص٣٩٥ .

فترة انتظار ومناوشات عندما جهز البيزنطيون جيشهم وحاولوا بذر الشقاق فى صفوف المسلمين. ويبدو أن القتال الفعلى بدأ عندما تظاهر المسلمون بأنهم ينسحبون من مواقعهم وأغروا عناصر من الجيش البيزنطى لتتبعهم إلى أرض وعرة ، حيث كان هناك كمين فى انتظارهم . وفى أثناء الهجوم المضاد الذى شنه المسلمون ، صار الفرسان البيزنطيون منفصلين عن المشاة، مما ساعد الفرسان المسلمين على أن يوقعوا خسائر فادحة فى صفوف المشاة على حين كان الفرسان البيزنطيون يشقون طريقهم عبر الصفوف الإسلامية[٣٠] ويقال إن خالد نظم فرسان المسلمين فى نظام قتال لم يستخدمه العرب من قبل ؛ فقد قسّم الفرسان إلى «كراديس» ، عدد كل منها يتراوح ما بين ٣٦ و ٤٠ فارسًا ، بحيث يبدو كأنهم أكثر عددًا فى عيون العدو[٣٣]. وربما لم يكن البيزنطيون أيضا غير مستقرين بسبب عاصفة ترابية هبت عليهم. وعندئذ كانت القوة البيزنطية الأساسية قد سيقت نحو الغرب وترددت فيما بين الأودية القاحلة فى وادى الرُقاد ووادى العلاّن ، مع الحواف الصخرية الشاهقة لمر اليرموك خلفهم. وتم القضاء على أية محاولة للتقهقر غربًا عندما عبر خالد بن الوليد القنطرة الرومانية القديمة فوق وادى الرقاد، ومضت قوات المسلمين لكى تعصف بمعسكر البيزنطيين عند الياقوصة على الطريق إلى بحر الجليل. وبينما كان العدو يضغط على البيزنطيين زاد تدهور معنويات القوات البيزنطية من جراء الشائعات بأن المسيحيين قد استسلموا للمسلمين . وانهارت معنويات القوات البيزنطية وتفككت صفوفها تمامًا . وهناك روايات عن الجنود المرهقين المكتئبين ، وقد التفوا فى عباءاتهم، يتحسرون على حقيقة أنهم لم يكونوا قادرين على الدفاع عن المسيحيين وأنهم ينتظرون الموت[٣٢]. وسيق الآخرون أسفل المنحدرات الصخرية إلى الوديان. ولم يأخذ المسلمون سوى عدد قليل جدًا من الأسرى.

كانت هزيمة اليرموك كارثة على البيزنطيين وانتشرت أخبارها فى شتى الأرجاء. ففى فرنسا البعيدة، سجل كاتب مؤرخة فردجار الحادثة بعد عشرين سنة من الهزيمة المرعبة كما وصفها . وكتب أن الجيش الإسلامى كان عدده مائتى ألف مقاتل. وحسب روايته ، أنه فى الليلة السابقة على المعركة «ابتلى جيش هرقل بجيش الرب: فقد مات اثنان وخمسون ألفًا من رجاله أثناء نومهم». ولا غرابة فى أن الناجين قد خارت قواهم

بشكل خطير. «وعندما شاهد رجاله ، في اليوم التالى، عندما بدأت المعركة ، أن قسماً كبيراً جداً من قواتهم سقطت بحكم الرب، لم يجرؤوا بعدها على التقدم صوب المسلمين ولكنهم تراجعوا حيثما رأووهم قادمين»[٣٣]. وقرب نهاية القرن السابع، تذكر الزاهد سان أنستاسيوس السيناوى ، St. Anastasius of Sinai ، فى ديره النائى المنعزل الهزيمة باعتبارها «أول هزيمة للجيش الرومانى مخيفة ولاسبيل إلى إصلاح آثارها»[٣٤].

وفى أعقاب النصر، استمر المسلمون فى إخضاع مدن بلاد الشام. فقد قامت قوة من الجيش المسلم بقيادة أبى عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد، بالتوجه شمالاً من دمشق إلى حمص التى كانت مدينة مهمة فى العصور الرومانية المتأخرة[٣٥]. وحاصروا المدينة طوال الشتاء (ربما سنة ٦٣٦-٦٣٧م) على الرغم من البرد القارص وخروج الحامية البيزنطية لشن الهجمات . فقد كان المدافعون على قناعة بأن البرد سوف يُجبر العرب، الذين لايلبسون سوى النعال، على رفع الحصار، على الرغم من أنه عندما جاء الربيع وكانوا لا يزالون فى مكانهم ارتفعت الأصوات فى المدينة تحث على الصلح والمفاوضات . ووفقًا لرواية أخرى، جاءت المساعدة للمسلمين عندما تعرضت أسوار المدينة لضرر بالغ من جراء أحد الزلازل ، وهى علامة أكيدة على أن الله كان بجانبهم . وفى نهاية الأمر عقد الجانبان الصلح . وكما هى العادة ، اضطر السكان إلى دفع الجزية إلى المسلمين، وكان بعضها بقدر ثابت ، على حين كانت الضرائب الأخرى بنسب تتغير وفقًا لدرجة رخائهم فى ذلك الحين. وكان ضمان حياتهم ، وممتلكاتهم ، وأسوار المدينة وكنائسهم وطواحينهم وسواقيهم على المسلمين فيما عدا كنيسة يوحنا، التى كان يجب أن تتحول إلى مسجد[٣٦]. وفى الوقت نفسه تخبرنا رواية بأنهم قد تصالحوا على أن تكون نصف دورهم للفاتحين . ويقال إن قائد الغزو الإسلامى للمدينة قد قسَّمها بين السكان والمسلمين بحيث يحتلوها . كما أسكنهم أيضا فى كل مكان أخلاه شاغلوه وفى كل حديقة مهجورة[٣٧]. كانت حمص مدينة مهمة على أطراف بادية الشام وربما كانت هناك فكرة بأن مكانها هو المكان المناسب لاستقرار البدو. ومن المحتمل أن المدينة كانت أول مدينة فى بلاد الشام بها عدد كبير من السكان .

والفقرة الخاصة بتسليم ربع كنيسة يوحنا لكى تستخدم مسجداً قد تبدو غريبة وربما غير ممكنة: فعلى كل حال كيف كان لهاتين الديانتين ، اللتين كان أتباعهما لتوهّم مشتبكين فى حرب عنيفة، أن ينتهى بهما الأمر إلى مقاسمة المبنى الدينى الرئيسى فى المدينة؟ وعلى أية حال ، لدينا رواية أن هذا حدث أيضا فى دمشق، حيث استخدم المسلمون نصف مساحة مبنى الكاتدرائية لتكون أول مساجدهم . ولم يحدث سوى مع بداية القرن الثامن ، أى بعد مرور ستين سنة على الفتح، أن تم إخراج المسيحيين وبناء مسجد فى المدينة. وحتى فى ذلك الحين دفعت التعويضات وبنى المسيحيون كاتدرائية جديدة فى كنيسة مريم، على مسافة حوالى نصف كيلو متر شرق المسجد، وبقيت هذه كاتدرائية الملكانيين (الروم الأرثوذكس) فى دمشق حتى اليوم. ومن المثير، أننا نجد تأكيداً أثرياً عن هذه الممارسة فى مدينة صغيرة بالنجف، Sabeita. فهنا توجد كنيستان بيزنطيتان كبيرتان. وفى الرواق بإحدى الكنيستين نجد أساس مسجد صغير. ويمكننا أن نقول إنه مسجد بسبب المحراب الواضح للعيان . وكل هذا الدليل يوحى بأنه، بعد الهزيمة السياسية للقوات المسيحية، تعايشت الجماعات الدينية (المسلمون والنصارى) معًا ، على أساس من التسامح المتبادل، إن لم يكن فى حال من الانسجام والتوافق .

وكانت المدينة التالية على الطريق مدينة قنسرين(٣٨). وبينما لا تزال حمص واحدة من أهم المدن فى سوريا ، فإن قنسرين قد اختفت فعلاً من الخرائط . ولم يحدث سوى فى وقت قريب أن كشفت عمليات المسح والتنقيب فى قرية صغيرة إلى الشرق مباشرة من طريق دمشق – حلب عن الموقع القديم. وتقع قنسرين (خالكيس Chalkis عند الروم) فى وسط سهل خصيب تزرع فيه الغلال؛ وعلى الرغم من أنها كانت مركزاً إدارياً مهمًا، فإنها لم تكن أبداً مدينة كبيرة. ويمكن تمييز قلعة المدينة القديمة ، كما يمكن التعرف على المدينة الإسلامية الباكرة، التى تقع خارج حدود المدينة الكلاسيكية : فقد استقر العرب خارج الأسوار فيما صار بالفعل ضاحية جديدة، داخل المدينة نفسها . وبعد سقوط المدينة قرر خالد بن الوليد أن يتخذها سكنًا وموطنا ولحقت به هناك زوجته .

وربما عرف المسلمون فى ذلك الوقت تقريبا جانبًا غير مرغوب بالمرة من جوانب الحياة ببلاد الشام فى ذلك الزمان، أى الوباء. ومن بين الضحايا كان القائد الأعلى للقوات المسلمة ، أبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبى سفيان ، الذى ورث مركزه أخوه معاوية، الذى صار فيما بعد أول خليفة أموى(٣٩).

ويبدو أن هرقل قد تحرك من أنطاكية بعد معركة اليرموك واستقر فى الرها ، حيث حاول تنظيم الدفاع عن شمال بلاد ما بين النهرين، وجنوب شرق الأناضول. ثم انتقل على طول أعالى الفرات قبل أن يتجه غربيًا ، قاصداً القسطنطينية ، عاصمته التى لم يكن قد زارها طوال السنوات العشر الأخيرة . وليس هناك دليل، كما اقترح البعض، على أنه كان عاجزاً بفعل الشيخوخة، أو الإحباط، وإنما لا بد أنه كان متعباً ومدركًا بشكل مؤلم لمدى الهزيمة التى لحقت ببيزنطة. ويضع الكُتاب العرب عدداً من الكلمات الحزينة وكلمات الوداع على لسانه وقد شاعت قصة وداع هرقل لسوريا . وفى إحدى هذه الروايات نُسب إليه أنه قال «عليك السلام يا سورية، سلامًا لا اجتماع بعده، ولايعود إليك رومى أبداً إلا خائفًا، حتى يولد المولود المشئوم ، ويا ليته لا يولد. ما أحلى فعله ، وأمرّ عاقبته على الروم»(٤٠)(*). وهناك رواية أخرى تقول إنه وهو يعبر من خلال الممرات فى جبال طوروس ، ونظر خلفه قائلا «عليك السلام يا سورية» وتحسر على ضياع سوريا الغنية بيد أعدائه(٤١). وعندما انسحب أخذ معه جميع الحاميات فى النواحى على امتداد الحدود الجديدة ، ليخلق نوعًا من الأرض المحايدة بين المناطق البيزنطية والمناطق الإسلامية فى الركن الشمالى الشرقى من البحر المتوسط(٤٢). وثمة مصدر سوريانى لاحق، معاد تمامًا لكل ما هو بيزنطى، يقول إن هرقل «أصدر الأوامر لقواته بنهب اقرى والمدن وتخريبها ، كما لو كانت الأرض مملوكة للعدو بالفعل. وسرق البيزنطيون ونهبوا كل ما وجدوه ، ودمروا البلاد أكثر من العرب»(٤٣).

ومع رحيل الإمبراطور، تركت المدن البيزنطية الباقية لتواجه مصيرها . فلم تبذل أنطاكية، عاصمة سوريا القديمة ، سوى القليل من المقاومة ويبدو أن السكان الباقين لم

(*) الطبرى، ج٣ ، ص٦٠٢ .

يبذلوا أى جهد لاستغلال الأسوار الضخمة التى كان الإمبراطور جستنيان Justinian قد بناها حول مدينتهم منذ أقل من مائة سنة قبل ذلك لإبقاء المهاجمين خارج المدينة: ومن المحتمل أنه لم يكن يوجد سوى عدد قليل جداً منهم للدفاع عن هذه الدائرة الضخمة. ويقال إنهم تمردوا ضد الحكم الإسلامى فيما بعد، ولكن هذا قد يعنى فحسب أنهم رفضوا دفع الضرائب أو عجزوا عن دفعها وتم إرغامهم على دفعها. وفى مدن صغيرة أخرى، كان الاستسلام للجيوش الإسلامية يتخذ شكل الكرنفال تقريبًا . ففى مدينة شيزر الصغيرة على ضفاف نهر العاصى وسط بلاد الشام خرج السكان لمقابلة المسلمين ومعهم الطبول والصنوج كما جرت العادة عند استقبال الزوار المهمين[٤٤]. وحدث الشيء نفسه فى معرة النعمان وأفاميا Apamea التى كانت ذات مرة العاصمة الفخورة لولاية سوريا الثانية فى الإمبراطورية الرومانية، ولكنها كانت آنذاك تعانى اضمحلالاً شديداً بعد أن نهبها الجيش الفارسى بوحشية قبل ستين سنة، أى فى سنة ٥٧٣م . ولم يكن الأمر دائمًا بمثل هذه السهولة : فعندما خرج أهل درعا[٤٥] فى جنوب بلاد الشام لتحية الخليفة عمر بن الخطاب بالطبول والغناء وهم يحملون السيوف وحزم نبات الآس العطرى، أمر الخليفة الزاهد بأن يوقفوا عن فعل هذا . وشرح قائده أبوعبيدة بن الجراح الذى كان قد اعتاد آنذاك عادات المدن الصغيرة فى بلاد الشام ، أن هذه عاداتهم وأنه لو منعهم من القيام بها، لظنوا أنه ينقض الصلح الذى عقده المسلمون معهم. وبشيء من التردد سمح لهم الخليفة الصارم بالاستمرار .

كانت أقوى مقاومة واجهها المسلمون فى مدن الساحل الشامى والفلسطينى. وكانت هذه على الدوام المناطق التى كانت فيها الحضارة اليونانية أكثر رسوخًا وجذورها أكثر تغلغلاً . وكان السبب أيضا وراء ذلك أن البيزنطيين كانوا قادرين على إعادة تموين وإعادة تعزيز هذه المدن عن طريق البحر . وكانت قوات كثيرة من القوات البيزنطية فى فلسطين قد انسحبت إلى مصر، ولكن قيصرية وغزة كانتا لا تزالان صامدتين . وكانت غزة مسرح المواجهة الأولى بين عمرو بن العاص والبيزنطيين عند البداية الأولى للفتح ، ويبدو أنه عاد للمدينة آنذاك ونجح فى أخذها وكان طبيعيا من ذلك الموقع أن تتجه أفكار عمرو بن العاص إلى مصر التى كانت تربطها بغزة روابط وثيقة.

وإلى أعلى الساحل باتجاه الشمال كانت أقوى مقاومة فى مدينة قيصرية. وبينما كانت غزة مأهولة بالسكان وعامرة باستمرار بحيث لم يبق سوى القدر الضئيل من آثار ماضيها الكلاسيكى، كانت قيصرية مهجورة إلى حد كبير، كما أن حدود المدينة القديمة التى أسسها هيرود الكبير Herod The Great (٧٣- ٤ ق.م) لتكون نافذة على عالم البحر المتوسط، واضحة للعيان . وبقيت المدينة مزدهرة فى القرن السادس الميلادى، مع أحياء سكنية جديدة بنيت فيما بين الآثار العظيمة التى خلفتها الفترة الكلاسيكية، وأسفل الميناء توجد كنيسة مثمنة الاضلاع تطل على أحواض السفن والأرصفة. ويبدو أن المدينة صمدت بعض السنين ، ربما حتى سنة ٦٤١م أى بعد خمس سنوات من هزيمة القوات البيزنطية فى معركة اليرموك ، وعرفنا أنها لم تسقط إلا بعد أن دلّ سكانها اليهود المسلمين على كيفية دخولها من خلال قناة مغطاة. ويقال إن الرجل الذى قاد جيش الفتح كان هو معاوية بن أبى سفيان. وإذا كان الأمر كذلك ، فإن هذا كان أول نصر عسكرى للرجل الذى قُيِّض له أن يحكم العالم الإسلامى بأسره من قاعدته فى دمشق . ولأن السكان كانوا قد قاوموا على مدى فترة طويلة وأخذت المدينة عنوة تم استرقاق عدد كبير منهم وأخذوا إلى الحجاز، حيث عملوا «فى الكتابة والأعمال للمسلمين»[٤٦]. وربما نرى هنا بدايات أخذ المسلمين من الثقافة اليونانية، وهو أمر من أوضح خصائص الفترة الإسلامية الباكرة.

وفى اللاذقية ، أكبر موانئ سوريا الحديثة ، أغلق السكان البوابة الكبرى لأسوار مدينتهم فى وجه الغزاة ويقال إن العرب بذلوا جهداً عظيما وحفروا الخنادق عميقة بحيث تغطى رجلاً راكبًا فرسه . ثم تظاهروا بالتراجع صوب حمص . وعندما هبط الليل عادوا إلى أماكن اختبائهم وفى الصباح فتح السكان البوابة لإخراج قطعان ماشيتهم للرعى؛ ومن الواضح أن هذه كانت مدينة زراعية تماماً . وبرز العرب فجأة من أماكن اختبائهم واقتحموا البوابة، ووضعوا أياديهم على المدينة . وهنا تم السماح للسكان بالاحتفاظ بكنيستهم وبنى المسلمون مسجداً جديداً لأنفسهم[٤٧]. أما مدن لبنان ، بيروت ، وصور وصيدا فلم تبد أية مقاومة . وفى طرابلس فقط صمد البيزنطيون فترة

طويلة ، ولأن المدينة كانت تتلقى إمدادات عن طريق البحر ، فقد استمر الدفاع عنها حتى بداية عهد الخليفة عثمان بن عفان فى سنة ٦٤٤م. وبنى المسلمون حصنًا صغيرًا خارج الأسوار لكى يراقبوا السكان وأخيرًا استيقظوا ذات يوم ليجدوا المدافعين جميعًا قد تم إخلاؤهم تحت جنح الليل بواسطة السفن البيزنطية[٤٨]. وكان سقوطها يعنى النهاية الأخيرة للسيطرة البيزنطية على أى جزء من الساحل الشرقى للبحر المتوسط.

وكانت هناك مدينة واحدة كان فتحها رمزيًا أكثر منه ذا أهمية عسكرية، وهى مدينة بيت المقدس. وللمدينة أهمية عظمى بالنسبة للمسلمين، باعتبارها أولى القبلتين وارتبطت بقصة الإسراء التى تفتحت فيها أسرار السماء أمام النبى محمد . وكانت بيت المقدس عند نهاية القرن السادس الميلادى مركزًا للحج المسيحى والإدارة الكنسية. وكانت الأسوار تضم مساحة تضاهى مساحة القدس العتيقة اليوم تقريبًا . ولدينا نظرة فاحصة غير عادية على مظهر مساحة المدينة بسبب وثيقة تعرف باسم خارطة مدبه Madaba[٤٩]. وهى خريطة من الفسيفساء للأرض المقدسة تم صبُّها على أرضية كنيسة فى بلدة أردنية صغيرة هى مدبه ، ربما فى نهاية القرن السادس . وتبدو مدينة القدس شاخصة بوضوح فى هذه الخريطة. ويمكن أن نرى الشوارع الكلاسيكية التى تحف بها الأعمدة ، والتى هى نفسها شوارع المدينة الرئيسية اليوم كما يمكننا أن نرى الأسوار والأبراج وكنيسة الضريح المقدس الكبرى، مع بيان المكان الذى صُلب فيه المسيح ، ودُفن ، ثم قام مرة أخرى. ويمكن أن نرى أيضًا الكنيسة الجديدة الكبيرة Nea ، التى بناها الإمبراطور جستنيان فى سياق حملته لتجميل المدينة. وقد كشفت الحفائر منذ سنة ١٩٦٧م عن أسس الكنيسة والشارع الجديد الذى كان يؤدى إليها ، مما يؤكد دقة الخارطة . وهناك منطقة واحدة فى المدينة لم تخبرنا الخارطة عنها، منطقة جبل المعبد. وهذه ساحة واسعة حيث كان يقوم معبد هيرود وربما كانت خالية منذ دمر الرومان المعبد سنة ٧٠م. وبعد الفتح الإسلامى بستين سنة قام الخليفة الأموى عبد الملك

ببناء قبة الصخرة فى الموضع(*)، وتعتبر قبة الصخرة ثالث الأماكن المقدسة بعد مكة والمدينة بالنسبة للمسلمين السنة . وسيكون من المذهل أن نعرف ماذا وجد عمر بن الخطاب فى الموقع، إذا كان قد وجد شيئا على الإطلاق، ولكن من الأمور المضنية المعذبة، أن الفسيفساء قد تحطمت فى الموضع الذى كان يجب أن يوجد فيه المعبد ولو أن صدفة البقاء كانت قد حفظت لنا عدة سنتيميترات أخرى من الفسيفساء ، لربما وجدنا الإجابة عن هذا السؤال(**).

كان الرجل المسئول عن بيت المقدس قد تولى منصب البطريرك منذ وقت قصير، وهو البطريرك صفرونيوس. وكان رجل كنيسة يونانيًا ، متعلمًا وذكيًا ، ويحتقر البدو الأجلاف . وبالنسبة لصفرونيوس ، كان ظهور العرب علامة على غضب الرب بسبب خطايا النصارى. وفى موعظة نارية وبخهم بقوله «من أين حدثت الحروب ضدكم ؟ من أين تعددت غزوات البرابرة؟ من أين صعد المسلمون فى مواجهتكم ؟ ممن يتزايد بهذا القدر الكبير من الدمار والنهب؟ من أين تأتى إراقة الدماء الإنسانية التى لاتتوقف ؟ ما سبب أن طيور السماوات تلتهم الأجساد البشرية ؟ ما سبب أن الصليب محل سخرية ؟ وما سبب أن المسيح نفسه ، مانح كل خير ومصدر النور لنا ، تجدف بحقه الأفواه البربرية ؟ » واستمر يقول : « لقد ظهر المسلمون بشكل غير متوقع ضدنا بسبب خطايانا ونهبوا كل شىء بالقوة وبوحشية وبجسارة لاتعرف الدين ولاتعرف الرب»(٥٠). هذا هو الصوت الحقيقى للثقافة الإغريقية ، وقد أثار الفتح الإسلامى لبلاد الشام رعبه وفزعه .

(*) ليس هناك أى دليل أثرى ، أو غير أثرى، على أن المعبد كان قائمًا فى مكان قبة الصخرة وليس مفهومًا الربط بين الهيكل الذى بناه هيرود والذى هدمه الرومان، وبين مكان قبة الصخرة ؛ إذ إن كل السوابق الإسلامية (التى ذكرها المؤلف فى الصفحات السابقة) تؤكد احترام أماكن عبادة الآخرين بالإبقاء عليها أو تعويض السكان عنها، فلماذا يشذ المسلمون عن هذا السلوك مع معبد اليهود؟ والراجح أنه لم يكن موجودًا ؛ سواء كان كاملاً أو فى صورة خرائب وأطلال. (المترجم)

(**) هناك تهافت أوضح من هذه العبارات التى تؤكد أن المؤلف يروج لأفكار غير صحيحة - على الرغم من جديته الواضحة - فى سياق غير سياقها. (المترجم)

وعلى الرغم من احتقاره ونفوره من العرب، فقد كانت الظروف العسكرية تعنى أن صفرونيوس ليس أمامه بديل سوى التفاوض معهم . وعلى أية حال، فإنه أصرَّ على أنه سوف يسلم المدينة فحسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب نفسه . وصار تسليم بيت المقدس موضوعًا للتاريخ والأسطورة ، ومصدرًا للأمثلة لكل من يريدون مناقشة بعض النقاط حول العلاقات الإسلامية – المسيحية.

فقد لاحت الفرصة عندما زار عمر بلاد الشام . وكما هى عادة المصادر العربية هناك قدر كبير من الارتباك حول وقت قيامه بهذه الزيارة، وحول ما إذا كانت زيارة واحدة أم عدة زيارات[٥١]. والسيناريو الأرجح من غيره هو أن الخليفة جاء إلى الجابية فى سنة ٦٣٧م أو سنة ٦٣٨م وفى أثناء إقامته هناك ، يعالج عددًا كبيرًا من المسائل الإدارية، جاء وفد من المدينة لوضع الشروط للصلح . وجاءوا على ظهور الخيل ، وقد شرعوا سيوفهم ، وافترض بعض الذين فى معسكر المسلمين أنهم مغيرون من الأعداء، ولكن الخليفة الذى اتسم بالحكمة كعادته دائمًا استطاع أن يؤكد لهم أنهم ما جاءوا سوى للتفاوض . وفحوى نص المعاهدة التى تم التوصل إليها كما وصلنا :

«بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيِّزها ، ولا من صليبهم، ولا شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منهم الروم واللهوت (اللصوص) ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ؛ ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلّى بيعهم وصُلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى صلبهم ، حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان ، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لايؤخذ منهم شيء

حتى يُحصد حصادهم ؛ وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبى سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة»(٥٢)(*).

وسواء كان هذا هو نص الصلح الذى وافق عليه عمر بن الخطاب، أو اصطناعًا قديمًا ، فهو أمر لا يمكننا أن نتأكد منه، بيد أنه يعطى انطباعًا عن الكيفية التى كان المسلمون يستجيبون بها لرعاياهم المسيحيين فى البلاد المفتوحة حديثا . ولاشك فى أن حقيقة أنه يحمل اسم عمر بن الخطاب تضيف إليه وزنًا وحُجيَّة . والتأكيد على ضمان حرية الديانة أمر لايثير الدهشة ، إذا ما وضعنا فى اعتبارنا المكانة الخاصة لبيت المقدس. ولكن الذى لم يكن متوقعًا هو اشتراط عدم السماح لليهود بالاستقرار فى المدينة. فقد كان هذا المنع من ملامح القانون الرومانى وحقيقة أن مصدرًا إسلاميًا يسجلها يوحى بأن المفاوضين المسيحيين كانوا متشددين . وبعض العبارات تلقى ضوءًا مثيرًا على ظروف المدينة . إذ يشير الشرط الخاص برحيل الموظفين البيزنطيين (الروم) إلى هجرة الطبقة العليا وطبقة الموظفين، والفقرات التى تتناول أهل البلاد الذين جاءوا إلى المدينة انعكاس واضح للظروف المعاصرة.

ثم قام عمر بن الخطاب بزيارة المدينة. وأكمل رواية عن زيارته للمدينة وردت فى مؤرخة المؤرخ المسيحى العربى سعيد بن البطريق الذى يعرف أيضا باسم أوتيخا Eutychius(٥٣) وقد كتب فى القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى، وحفظ لنا مأثورات قُصد بها أن توضح كيف أن عمر بن الخطاب قد ضمن وضع المسيحيين فى المدينة المقدسة. ووفقا لروايته ، فإنه صفرونيوس رحب بالخليفة عمر فى المدينة وأعطى الناس الأمان على أنفسهم وممتلكاتهم مع ضمان حرية العقيدة . وعندما حان وقت الصلاة اقترح البطريرك عليه أن يصلى فى كنيسة الضريح المقدس، ولكن عمر بن الخطاب رفض لأنه قال إنه لو فعل هذا ، فإن المسلمين سيتخذونها مسجدا وسوف يخسرها

(*) النص من الطبرى ، ج٣ ، ص٦٠٩ . (المترجم)

المسيحيون . ثم أصدر مرسوماً يمنع فيه المسلمين من الصلاة في أجزاء الكنيسة ، ونتيجة لهذا بقيت الكنيسة بأيدى النصارى منذ ذلك الحين. ثم طلب عمر موضعاً لبناء مسجد وأخذه البطريرك بيده إلى الصخرة التى كان يقوم عليها معبد هيرود . ومع الواضح أن الرواية قد صيغت لبيان أن مكانة المسيحيين فى القدس كانت قائمة على أساس من سلطة عمر بن الخطاب نفسه والتى لايمكن لأحد أن يشكك فيها .

وفى الموروث العربى أن عمر بن الخطاب كان يرشده «كعب الأحبار» ، وهو يهودى اعتنق الدين الإسلامى ويقال إنه قدم الكثير من القصص والمأثورات عن اليهود فى الديانة الجديدة(*). وفى إجابة عن سؤال الخليفة، اقترح كعب أن الصخرة ، التى تقوم فى وسط الساحة ، يجب أن تكون قبلة صلاتهم فى ذلك اليوم، ولكن عمر بن الخطاب قد رفض هذا وأوضح أن الله قد احتفظ بدور القبلة للكعبة فى مكة. فقد كان الخليفة واعياً تماماً أن الموقع علامة على مكان المعبد اليهودى الذى كان الرومان قد دمروه بعد التمرد اليهودى سنة ٧٠ ميلادية وترك ليكون مكاناً للقمامة فى العصور البيزنطية . وبدأ ينظف المكان بنفسه ثم تبعه الناس فى ذلك. وربما يكون قد أمر بإقامة مكان بسيط للصلاة. ومن المؤكد أنه حينما زار الحاج المسيحى الأوربى أركولف Arculf مبنى قبة الصخرة فى سنة ٦٨٥م، وجد مكاناً أساسياً للعبادة هناك. وكان لهذا السبب أنه يشار إلى قبة الصخرة أحيانا على سبيل الخطأ بأنها مسجد عمر(**).

وبحلول سنة ٦٤٠م كانت بلاد الشام بأسرها، باستثناء مدينة أو مدينتين على الساحل قد دخلت تحت الحكم الإسلامى كان الحد الشمالى للحكم الإسلامى قد أرسى فى أنطاكية، ومدينة Cyrrhus القديمة ومنبج . وتم وضع الحاميات وانضم إليهم

(*) هذه صياغة غير صحيحة من جانب المؤلف ؛ فالحقيقة أن المأثورات التى نقلت عن كعب الأخبار والتى تعرف بالإسرائيليات قد تسربت إلى بعض كتب التفسير والحديث ولكنها لم تدخل فى صلب الديانة الإسلامية التى حددها القرآن الكريم، وربما كانت ثقافة المؤلف هى التى جعلته يخلط الأمور على هذا النحو . (المترجم) .

(**) هذا الإصرار على مسألة المعبد اليهودى تحت قبة الصخرة يثير العجب . (المترجم)

الأهالى المحليين لكى يخبروا المسلمين عن أى قوات بيزنطية تقترب . وعلى أية حال ، كان البيزنطيون الذين أنهكتهم الهزيمة ، فضلاً عن موت هرقل فى فبراير ٦٤١م، والصراعات على العرش التى أعقبته ، غير قادرين على شن أى هجوم مضاد.

وقد فتح اتمام غزو بلاد الشام الطريق أمام جيوش المسلمين لكى تعبر نهر الفرات وتبدأ فتح الجزيرة . وقد استخدم مصطلح «الجزيرة» منذ القرن السابع الميلادى ليصف الأرض بين دجلة والفرات فى سوريا والعراق حاليًا. وكانت حدود الجزيرة من الشمال جبال طوروس جنوب شرق الأناضول ، وكانت تلك الحدود بشكل ما على امتداد الحدود التركية الحديثة. والأرض فى معظمها سهول مسطحة مفتوحة وصحراء. وقد لاحظ مؤرخ حديث أن : « الجزيرة تشبه البحر المتوسط إلى حد ما ، عبارة عن محيط من الاستبس ترصعها مجموعات من وديان الأنهار والتلال وقد استقرت بشكل متفاوت على شواطئها»[٥٤]. وهناك وحدة طبيعية فى هذه المنطقة كما أن الاتصالات سريعة وسهلة ، ولكن فى وقت الفتح الإسلامى كانت مقسمة بين البيزنطيين فى الغرب والساسانيين فى الشرق، مع الحدود قرب مدينة نصيبين القديمة ، بما يحاذى الحدود العراقية - السورية الحديثة بقدر أو بآخر. هذا التقسيم حدد الطريق الذى تم فتحها من خلاله، إذ استولت قوات المسلمين القادمة من بلاد الشام على الأراضى الواقعة على الجانب البيزنطى من الحدود ، على حين استولت القوات القادمة من العراق على الأراضى التى كانت تحت حكم الساسانيين فيما قبل والواقعة على الجانب الشرقى.

وكانت هناك فى وديان الأنهار عدة مدن قديمة كانت أشهرها مدينة الرها. وكانت الرها أحد مراكز المسيحية الباكرة . ففى القرن الميلادى الأول يقال إن ملكها آنذاك الملك أبجار Abgar كان أول ملك فى العالم يعتنق المسيحية . وكانت كاتدرائيتها الكبيرة، التى لم يبق منها شىء الآن، أحد المبانى الأكثر فخامة فى العالم المسيحى الشرقى . كما كانت مركزًا سياسيًا مهمًا ، وكان هرقل قد اتخذها قاعدة له فى المراحل الأخيرة من حملته فى بلاد الشام.

كان فتح الجزيرة مرحلة مهمة فى تقوية الحكم الإسلامى فى منطقة الهلال الخصيب ، فلو أنها بقيت بأيدى البيزنطيين لشكلت تهديداً رئيسيًا للشام والعراق. وعلى الرغم من أهميتها الاستراتيجية وعراقة مدنها ، فإن فتح الجزيرة قد سجل بأسلوب موجز تماماً فى المصادر العربية ، وتُبدى مثل هذه الروايات اهتمامًا أكثر بشروط الاستسلام من اهتمامها بمجرى المعارك والحملات العسكرية[٥٥]. ومعظمها تتفق على أن الفتح كان تحت قيادة عياض بن غنم الذى أمره الخليفة عمر بن الخطاب بقيادة قوة من عرب الشام عبر نهر الفرات . ووفقًا لإحدى الروايات لم يكن معه سوى خمسة آلاف رجل[٥٦]، ولكن على الرغم من هذه الأعداد الصغيرة لم يواجه سوى القليل من المقاومة الجدية. ويبدو أن انسحاب البيزنطيين ترك الأهالى المحليين أمام خيار الاستسلام بشروط سهلة نسبية قدمها لهم العرب. وحتى فى آمد وديار بكر التى كانت أسوار مدينتها القوية تمثل أحد أمجاد العمارة العسكرية فى العصور القديمة والعصور الوسطى، يبدو أنه لم تكن هناك مقاومة على الإطلاق، ويصدق الأمر نفسه على القلعة الكبيرة التى كان البيزنطيون قد بنوها فى القرن السادس الميلادى فى دارا لدفع الفُرس وهجماتهم[٥٧]. ويبدو أن الرها قد استسلمت بسرعة بشرط أن يحتفظ المسيحيون بكاتدرائيتهم ولكنهم اتفقوا على ألا يبنوا أية كنائس جديدة وألا يساعدوا أعداء المسلمين. كذلك سقطت مدينة الرقة على نهر الفرات بعد مقاومة قصيرة . ولايمكن التأكد من الطريق الذى سار فيه جيش عياض وهو يجوب هذه الأنحاء ويقبل استسلام المدن الصغيرة ، ولكن يبدو أنه ربما أنهى رحلته بالإغارة على امتداد الطريق القديم الذى كان يؤدى إلى أرمينيا قبل أن يتوقف عند تبليس . ثم عاد إلى بلاد الشام، حيث وافته المنية.

كانت الجيوش التى فتحت بلاد الشام قد تم تجنيدها من الحجاز. وعلى أية حال، فلم ينتج عن هذا تدفق مهاجرين جدد من شبه الجزيرة العربية. وكانت قريش وحلفاؤها من النخبة المسلمة يعرفون بلاد الشام جيداً وأرادوا السيطرة على مواردها . ولم يكونوا يريدون تقاسمها مع جماهير البدو الفقراء . وقد تشجع هؤلاء على الانتقال إلى العراق بدلاً من ذلك. ويمكن أن يقال فى لغة الجيش البريطانى إن بلاد الشام كانت للضباط، وأن العراق كانت للرتب الأخرى. ولم يؤسسوا مدنًا جديدة على نحو ما حدث

فيما بعد فى العراق ومصر . ذلك أن كل المدن التى كانت مهمة تحت الحكم الإسلامى كانت مهمة فى العصور الرومانية (على الرغم من أن بعض المدن، مثل سكيثوبوليس، التى كانت مهمة فى العصر الرومانى، تدهورت واختلفت بالفعل فى الفترة الإسلامية) . وفى إحدى المراحل يبدو أنه كان هناك مشروع لتأسيس مدينة جديدة فى الجابية بمرتفعات الجولان، التى كانت أرض مخيمات الصيف للغساسنة . وكان فى هذا المكان أن جاء الخليفة عمر بن الخطاب لمقابلة قادة الجيش المنتصر أثناء زيارته لبلاد الشام. ولكن الجابية بقيت كما هى ، أرض مخيمات صيفية : ولم يتم بناء أى مسجد هناك ، ولا أى قصر للحكم ، كما لم يتم منح أى خطط للقبائل . وبدلاً من ذلك، يبدو أن المسلمين قد فضلوا الاستقرار فى المدن الموجودة. وقد رأينا كيف أن مساكن حمص قد أبيحت لسكناهم . وفى قنسرين وحلب كانت الضواحى البدوية الحقيقية قد بُنيت خارج أسوار المدينتين القديمتين .

ومن ناحية أخرى كان هذا ممكنًا بسبب أن قسمًا من النخبة البيزنطية كانوا قد هربوا إلى القسطنطينية ، أو مناطق أبعد منها غربيًا، مما ترك فراغًا فى المدن . فبعد سقوط دمشق غادر الكثير من الناس المدينة للانضمام إلى هرقل[٥٨]، وتمكن المسلمون البارزون من الإقامة بالمدينة: فقد كان عمرو بن العاص يمتلك عدة منازل وضياع فى دمشق وفلسطين . وقد افترض الصلح الذى عقده عمر بن الخطاب مع مواطنى بيت المقدس أن هناك عناصر من البيزنطيين سيرحلون ، سواء طواعية أم غصبًا . ويبدو أيضا كما لو أن مناطق كثيرة فى الشام قد عانت نقص السكان بسبب الوباء والحرب كما أن الفاتحين المسلمين طردوا الكثير من السكان الروم خارج المدن الساحلية[٥٩]. وكانت هناك صعوبة فى العثور على الرجال اللازمين للحاميات فى المدن الموانئ على ساحل البحر المتوسط. وقد اضطر معاوية لتسكين اليهود فى طرابلس، لأنه لم يكن هناك مسلم يمكن إقناعه بالإقامة فيها . كما استقر المسلمون فى القرى حول طبرية وفى بعض الأحيان كانوا يمنحون الأراضى المهجورة بشرط استزراعها . وليس هناك دليل على حدوث هجرات من نوع الهجرات التى شهدها العراق .

ويمكن أن نعرف شيئًا عن العلاقة اليومية بين القبائل العربية وسكان القرى والمدن من خلال مجموعة من البرديات ثنائية اللغة، اليونانية والعربية ، عُثر عليها في بلدة نصَّانًا القديمة بالنجف(٦٠). وبعض هذه الوثائق تحمل أوامر للسكان المسيحيين في البلدة بأن يقدموا لبدو المنطقة المؤن من القمح وزيت الزيتون ، والأموال أحيانًا . ويبدو أن الدفع كان لشيوخ القبائل مباشرة ؛ إذ لم تكن هناك إدارة معقدة . ويبدو أن مسألة جمع المؤن وتقسيم الأعباء قد تركت لتقدير السكان المحليين. وتكشف الوثائق التي يرجع تاريخها إلى عامي ٦٧٤- ٦٧٥م، أي بعد جيل من الفتح ، عن أن الاحتلال العربي كان بسيطا وغير رسمي بشكل ما.

كانت ثمة نتيجة أخرى لنموذج الاستقرار العربي في بلاد الشام . ففي العراق ومصر كان المسلمون الذين توطنوا في المدن يعتمدون على الدولة مباشرة في معاشهم ، وغالبًا ما كانت تلك وسيلتهم الوحيدة لكسب عيشهم . أما في الشام، على النقيض ، فكان كثير من أبناء النخبة الجديدة لهم من الممتلكات ما يمكنهم من العيش على عوائدها . وفي غضون جيل كان أبناء النخبة المسلمة في بلاد الشام يتجهون إلى حياة الرفاهية، ويبنون منازل فاخرة في الريف، يبدو أنها لم تكن معروفة حقًا في العراق أو مصر.

إذن، فلو لم يكن ثمة تدفق ضخم لهجرات العرب لبلاد الشام بحيث يزيحون الحضارة اليونانية الرومانية جانبًا ، فما الذي كان سيتغير بالفعل نتيجة الفتوح الإسلامية؟ كانت قمة جهاز الحكم تحت سيطرة المسلمين المتحدثين بالعربية، وهو المستوى الأكثر وضوحًا ، بيد أن النظرية المتأنية تكشف عن أن هذا التغيير لم يكن دراميًا على ما قد يبدو للوهلة الأولى. فعلى مدى نصف القرن الأول، استمرت الإدارة تستخدم اللغة اليونانية ، وكان عدد كبير من الموظفين من المسيحيين المحليين. وكانت هناك ديانة نخبة جديدة بيد أنه يبدو أن تأثيرها على البيئة القائمة كان قليلاً . ففي العراق في المدن الجديدة الكوفة والبصرة ، كان المسجد يقوم في قلب المدينة الإسلامية ؛ وفي دمشق في الوقت نفسه كان على المسلمين أن يقنعوا بنصيبهم الذي كان نصف الكنيسة الكاتدرائية بمركز المدينة باعتباره بديلاً مؤقتًا .

وهناك قليل من الأدلة ، أيضا، على تغلغل البدو في الريف. ويبدو أن الانطباع السائد بأنه نجم عن الفتح العربي قدوم جحافل من البدو الذين دخلوا البلاد ونهبوا المناطق المستقرة انطباع خاطئ في عمومه، على الرغم من أنه ربما كانت هناك حوادث عنف وتدمير في سياق الغزوات . وفي هذه المناطق الهامشية الهشّة مثل مناطق الاستبس الشامية شرق حمص ، وشرق الأردن والنقب جنوب فلسطين ، وهي مناطق حيث كانت تتغير الحدود بين الأراضي المزروعة ومراعي البدو ، وتتبدل بحسب التغيرات السياسية والثقافية ، يوحي الدليل بأن القرن الأول من الحكم الإسلامي شهد توسعًا في الزراعة المستقرة . ولم يحدث حتى سنة ٧٥٠م، عندما تمت الإطاحة بالأمويين الذين ارتكز حكمهم على بلاد الشام على أيدي العباسيين الذين كانت قاعدتهم في العراق، أن تراجعت حدود مناطق الاستقرار وتوسعت مناطق البدو .

وعلى أية حال ، فإن الفتح الإسلامي لبلاد الشام كانت له آثار عميقة على تاريخ المنطقة في المدى الطويل. فقد أنهى ما كاد يقرب من ألف سنة من حكم الناطقين باليونانية والروابط القائمة مع عالم البحر المتوسط. ومنذ هذه النقطة فصاعداً ، لم تعد العلاقات الأهم مع روما أو القسطنطينية وإنما مع مكة والمدينة، وفيما بعد مع بغداد أو القاهرة . ولم يكن ممكنا ظهور الإسلام باعتباره الدين السائد واللغة العربية لغة عالمية تقريبًا بدون الفتح . هذه التغيرات العميقة في اللغة والثقافة ربما تكون قد استغرقت بعض الوقت بيد أنها لم تكن لتحدث بدون الفتوح العسكرية التي جرت في ثلاثينيات القرن السابع الميلادي .

الهــوامش

(١) A. Cameron, 'Cyprus at the time of the Arab conquests', Cyprus Historical Review 1 (1992): 27-49, reprinted in eadem. Changing Cultures in Early Byzantium (Aldershot, 1996), VI.

(٢) Baladhuri, Futuh al- Buldan, ed. M.j, de Goeje (Leiden, 1866, repr. Leiden. 1968), p. 129.

(٣) Tabari, 'Ta'rikh I, p. 2156.

(٤) Donner, Early Islamic Conquests, p. 119.

(٥) عن هذا الترتيب الزمنى على مؤرخة ٧٢٤م انظر :

Donner, Early Islamic Cmquests, p. 126; Baladhuri, Futuh, p. 109.

(٦) 'Dcictrina.lacobi Nuper Baptizati' , ed. with French trans. V. Deroche in Travaux: et Memoires College de France, Centre de recherche d'histoire et civilisation de Bvzance) 11 (1991); 47-273, cap. V, 16 (pp. 208-9).

(٧) انظر :

N. M, El Cheikh, Byzantium Viewed by the Arabs (Cambridge, MA, 2004), pp. 39-54.

(٨) Tabari, Tar'ikh, I pp. 1561-2.

(٩) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2108-25, Baladhuri, Futuh, pp. 110-12, Ibn Athcam al-Kufi, Kitab al-Futuh, ed. S. A. Bukhari, 7 vols. (Hyderabad, 1974), vol. I, pp. 132-4 al-Ya 'qubi, Ta'rikh, ed. M. Hloutsma, 2 vols. (Leiden, 1883), vol. U, pp. 133-4.

(١٠) See Donner, Early Islamic Conquests pp, 119-27 for the best discus-sion.

(١١) Tabari, Ta'rikh, b, pp. 2113-14.

(١٢) P. Crone, 'Khalid b. al-Walid', Encyclopaedia of Islam, 2nd edn.

(١٣) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2097, 2114-5 ; Baladhuri, Futflh, p. 112.

(١٤) هذه الرواية قائمة على أساس الترتيب الزمنى الذى كتبه ابن إسحق والواقدى ، وهما اثنان من أهم مصادر القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى وقد وصفهما دونر :

Doner, Early Islamic Conquests, pp. 128-34.

وعن ترتيبات زمنية أخرى انظر :

Ibid., pp. 134-9 (Sayf b. Umar) and pp. 139-420.

(١٥) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2398-401.

(١٦) Fredegar, Thr Fourth Book of the Chronicle : of Fredegar with its Continuations, trans. J. M. Wallace-Hadrill (London, 1960), p. 55.

(١٧) Sebeos, The Armenian History, trans. R. W. Thomson, with notes by J. Howard-Johnston and T. Greenwood, 2 vols. (Liverpool, 1999), I, p. 97.

(١٨) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2145-6, 2157.

(١٩) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2152.

(٢٠) Baladhuri, Futuh, p. 121.

(٢١) Tabari, Ta'rikh, 1, p. 2154.

(٢٢) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2393.

(٢٣) انظر مثلا :

Tabari, Ta'rikh, I,p.2099.

(٢٤) W. E. Kaegi, Byzantium and the Early Islamic Conquests (Cambridge, 1992), p. 127.

(٢٥) Donner, Early Islamic Conquests, p. 133. Kaegi, Byzantium, p. 121,

يقول إن ذروة المعركة كانت فى يوم ٢٠ أغسطس دون الإشارة لأى مصادر .

(٢٦) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2091.

(٢٧) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2091-2.

(٢٨) انظر :

Caetani, Annali dell'Islam (Milan, 1905-26), III, pp. 491-613, and the discussion in Kaegi, Byzantium, pp. 122-3, esp. n. 23.

(٢٩) الرواية التالية على أساس :

Kaegi, Byzantium, pp. 119-22 . and the map on p. 113.

(٣٠) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2099.

(٣١) Tahari, Ta'rikh, I, p. 2092.

(٣٢) Tahari, Ta'rikh, I, p. 2100.

(٢٣) Fredegar, Chronicle, p. 55.

(٢٤) Quoted in Kaegi, Byzantium, p. 141.

(٢٥) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2390-93; Baladhuri, Futuh, pp. 130-31.

عن سقوط حمص .

(٢٦) Baladhuri, Futuh, p. 131.

(٢٧) Baiadhuri, Futuh, p. 131 and Yaqut, Mucjam al-Buldan, ed. F. Wtistenfeld (Leipzig, 1886), 'Horns'.

(٢٨) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2393-5.

(٢٩) Baladhuri, Futuh, pp. 139-40.

(٤٠) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2396.

(٤١) Baladuuri, Futuh, p. 137.

(٤٢) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2396.

(٤٣) Michael the Syrian, Chronicle, ed. with French trans. J.-B. Chabot, vols. (Paris, 1890-1924), II, p. 424.

(٤٤) Baladhuri, Futuh. p. 131:

المقلس (مفردها مقلس) الذى يضرب الدُف ويقابل أو يمشى أمام الملوك أو غيرهم من الرجال العظماء مع غيره من الأدوات الموسيقية فى مناسبات النصر .

(٤٥) أذرعات القديمة :

Baladhuri, Futuh, p. 139.

(٤٦) Baladhuri, Futuh, p. 142.

(٤٧) Baladhuri, Futuh, pp. 132-3.

(٤٨) Baladhuri, Futuh, p. 127.

(٤٩) عن الخريطة انظر :

H, Donner, The Mosaic Map of Madaba: An introductory guide (Kampcn, 1992).

(٥٠) Translated in R. Iloyland, seeing Islam as Others Saw It: A Survey and Evaluation of Christian, Jewish and Zuroastrian Writings on Early Islam (Princeton, NJ, 1997), pp-72-3 .

(٥١) Donner, Early Islamic Conquests, pp.151-2.

(٥٢) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2405-6.

(٥٣) Sacid ibn Batriq, Das Annaleniwerk des Eutychios von Alexandrien, ed. M. Breydyin Corpus Scriptorum Christianoum Orientalium, vol. 471 Scriptores Arabici, t. 44 (Leuven, 1985); sec also R. L. Wilken, The Land Called Holy: Palestine in Christian History and Thought (New Haven, CT, 1992), PP.233-9.

(٥٤) C. F. Robinson, Empire and Elites after the Muslim Conquest: The Transformation of Nothern Mesopotamia (Cambridge, 2000), p. 34.

(٥٥) On the sources for the conquest and the problems they raise, see Robinson, Empire and Elites, pp. 1-32.

(٥٦) Baladhuri, Futuh, pp. 172-3.

(٥٧) Bsiladhuri, Futuh, p. 176.

(٥٨) Baladhuri, Futuh, p. 123.

(٥٩) Baladhuri, Futuh, p. 126.

(٦٠) عن الوثائق انظر :

C. J. Kraemer, J r, Excavations at Nessana, vol. 3: Non-Literary Papyri (Princeton, NJ, 1958), pp. 175-97.

(٣)

فتـــح العـــراق

أخيراً ، يلوح فى الأفق خط رفيع ، صلب .. ويستغرق الأمر عشرين يومًا من الركوب عبر الصحراء من مقر القيادة الإسلامية فى المدينة، وهى أيام من حرارة القيظ والريح القاسية وليالى البرد القارص المؤلمة يمضيها المرء تحت عباءة أو يسير متثاقلاً تحت النجوم . وهذه الصحراء ليست هى كثبان الرمل والواحات التى تحف بها أشجار النخيل والتى تسكن الخيال الشعبى، وإنما هى فضاءٍ قاسٍ مرير من الصخور والأحجار والحصباء ، والتلال المنخفضة المتماوجة وتجد بها أحيانا أشجاراً معقدة وشوكية . ثم يأتى خط الأفق الذى يهيج الشوق إليه والذى يبين أن نهاية الرحلة قد لاحت فى الأفق . وعلى مدى اليوم التالى أو اليومين التاليين ، يتسع عرض الخط، ويمكن للمسافر المرهق أن يبدأ فى تمييز أشكال الأشجار وربما البيوت فى الأراضى المستقرة ، لأن هذه هى أرض السواد أى السهول الطميية فى وسط العراق . وهى مسطحة على امتداد البصر ، وهى أرض النخيل وحقول الغلال التى تخصّبها مياه نهرى دجلة والفرات . وعلى مدى القرون كانت هذه المنطقة واحدة من أغنى المناطق وأكثرها إنتاجًا فى العالم.

وعلى مدى أربعمائة سنة قبل الفتح الإسلامى كان العراق جزءًا لايتجزأ من الإمبراطورية الساسانية[١]. وكان اسم «الساسانيين» يطلق على السلالة الحاكمة التى كانت قد أحيت إمبراطورية إيران وحكمتها فى القرن الثالث الميلادى . وإلى جانب الامبراطورية البيزنطية كانت الإمبراطورية الساسانية إحدى القوتين العظميين

فى العالم القديم ، ولكن كلا من الدولتين كان لها نظام إمبراطورى يختلف تماماً عن نظام الأخرى. ويمكن ، مع المخاطرة بالوقوع فى التبسيط المخل، أن نجادل بأنه بينما كانت الإمبراطورية البيزنطية محكومة بجهاز إدارى وجيش مستعد، كانت المملكة الساسانية محكومة بأرستقراطية محاربة. وعندما قام الإمبراطور چستنيان بإصدار الأوامر برسم صورته هو وزوجته تيودورا بالفسيفساء على حوائط كنيسة راڤنا، جاءت صورتهما واقفين هادئين، أنيقين، ويرتديان ملابس مدنية خالصة. وعندما أمر الملك الساسانى كسرى الثانى (خسرو) برسم صورته بالحفر على الحجر فى الكهف الطبيعى فى تقى بستان كانت صورة رجل فعل ، صياد عظيم قوى ، يمتطى حصاناً وهو بكامل سلاحه أو يستعرض مهاراته فى الرمى بالقوس.

كان الملك الساسانى يحكم باعتباره ملك الملوك «شاهنشاه» ، مما يعكس حقيقة أن الإمبراطورية كانت تتباهى بعدد من العائلات الأرستقراطية العريقة والشهيرة مثل الساسانيين أنفسهم ، وكانت إمبراطوريتهم تضم إيران الحديثة كلها، والعراق غرباً ومعظم أفغانستان وتركمانستان شرقا. وكانت للملوك عاصمة هى طيسفون (المدائن) فى سهول العراق ، إلى الجنوب الشرقى من بغداد الحديثة مباشرة ، ولكن يبدو أنهم كانوا يمضون الكثير من وقتهم فى الترحال بين الضياع الريفية ، جيئة وذهاباً على امتداد الطرق التى تشق جبال زاجروس من سهول ما بين النهرين حتى مرتفعات إيران.

وبينما كانت الطبقات العليا فى بيزنطة تميل إلى الحياة فى المدن، فإن أبناء هذه الطبقات فى الإمبراطورية الفارسية كانوا متمركزين أكثر فى ضياعهم وقصورهم الريفية . ويبدو أن المدن، أيضاً كانت تبدو مختلفة عن مدن العالم البيزنطى. فأولاً كانت فى معظمها مبنية من الآجر أو من الأحجار المصقولة ، ونادراً ما كانت شوارعها مستقيمة ولم يكن بها إطلاقاً مجالس مدن لإنفاق الأموال على تجميلها . وكان نموذج الاستيطان الحضرى فى العراق وإيران تحت الحكم الساسانى هى البلدة الريفية ، وربما كانت لها قلعة ومركز للمدينة تحيط به الأسوار، يعرف باسم شهرستان يقوم بوظيفة السوق ومركز الصناعة ولكنه يخلو من أية مظاهر للعظمة الحضرية أو الحكم الذاتى.

كانت النسبة الغالبة من سكان الإمبراطورية البيزنطية يدينون بالمسيحية ، على حين كانت ديانة الامبراطورية الساسانية هى الزرداشتية[٢]. ويؤمن الزرادشتيون بوجود قوتين عظميين تناضلان من أجل السيادة على العالم، إله خيِّر يسمى أهرمزد وإله شرير اسمه أهريمن . وكانت العبادة متمركزة فى معابد النار، لأن الاعتقاد كان سائدا بأن النار عنصر مقدس يجب أن تبقى نقية وغير ملوثة. وكان يتولى رعاية معابد النار فريق من الكهنة عرفوا باسم السحرة : وربما كان الرجال الحكماء الثلاثة الذين جاءوا لزيارة المسيح فى طفولته كانوا من الكهنة الزرادشتيين (المجوس) . وكان الكهنة السحرة (المجوس) يلقون المساندة من الملوك الساسانيين وكانت معابد النار تُمنح ضياعًا واسعة لكى تنفق منها على مستلزماتها . وعلى حين كانت الكنائس الرئيسية فى المسيحية البيزنطية فى المراكز السكانية وكانت يقصد بها أن تضم عددًا كبيرًا من المتعبدين الذين كانوا يتجمعون معًا للاشتراك فى العبادة، كانت أهم معابد النار فيما يبدو قد بنيت فى أماكن ريفية نائية ، كما أن الغرف الصغيرة ذات القباب التى كانت فيها النار المقدسة لم تكن بالتأكيد مصممة لتسع أعدادًا كبيرة من المتعبدين . والانطباع الذى تتركه ، أنها ديانة نخبة راسخة ، آمنة بثروتها وبنيتها الهيراركية ولكنها لا تتمتع سوى بقدر قليل من الجاذبية الشعبية . ولم يكن هناك رهبان زرداشتيون يمكن مقارنتهم بالنُسَّاك البطوليين فى العالم المسيحى ، وفى حدود علمنا ، لم يكن هناك مبشرون زرادشتيون عظام كان يمكن لكلماتهم أن تحرك الناس نحو التدين العاطفى العميق . وكان هذا يصدق على العراق بوجه خاص، حيث كان هناك عدد كبير من السكان النصارى واليهود . ولم يكن بالعراق أى معبد نار رئيسى ويبدو أن الديانة الزرادشتية كانت مقصورة على الإداريين والجنود الفرس.

كانت المسيحية قد انتشرت انتشارًا واسعًا فى الإمبراطورية الساسانية . فالعراق، أغنى أجزاء الامبراطورية وأكثرها سكانًا ، ربما كان أكثر سكانه مسيحيين ، على الرغم من أنه كان هناك عدد لابأس به من اليهود أيضًا[٣]. وكان معظم المسيحيين من النساطرة ، أى الكنيسة السريانية الشرقية ، الذين كانت السلطات البيزنطية تعتبرهم من الهراطقة . وكان فى هذا بعض الفائدة للكنائس تحت الحكم الساسانى

لأنه كان يعنى أنها لم تكن موصومة بالعلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية . وتبقى الحقيقة ، مع هذا ، أن قسماً كبيراً من سكان الإمبراطورية الفارسية لم يدخلوا فى ديانة الأرستقراطية الفارسية الحاكمة وأنه لم يكن ممكنا أن تكون هناك رابطة مشتركة فى مواجهة ما جاء به الإسلام.

كان معظم الدخل الذى قامت عليه فخامة الملكية الفارسية يأتى من الأراضى الزراعية الغنية فى العراق[٤]. فقد كان هناك أعضاء من الأسرة الملكية والعائلات الأرستقراطية الكبرى يمتلكون ضياعًا شاسعة منتجة يزرعها عدد كبير من الفلاحين الذين كانوا فى ظل ظروف تشبه حياة الأقنان[٥]. وكانت هناك هوة شاسعة اجتماعية واقتصادية بين الأرستقراطية والناس الذين كانوا يفلحون أراضيهم . ومن الناحية النظرية على الأقل ، كان التزاوج بين الطبقات ممنوعًا بشكل صارم . وكانت الطبقات العليا معفاة من ضريبة الرأس الكريهة ، التى كان التجار والفلاحون مجبرين على دفعها للشاه الساسانى . وكان أبناء الأرستقراطية يلبسون التيجان ، والأحزمة الذهبية وأربطة الأيدى والقبعات المخروطية الطويلة التى تعرف باسم «القُلنسوة». وكان رستم ، القائد الفارسى الذى قاد الجيش ضد الغزاة العرب، ينحدر من هذه الخلفية، ويقال إن قُلنسوته كانت تساوى مائة ألف درهم فضى. وتلى الطبقة الأرستقراطية الكبرى مجموعة كبيرة من الدهاقين . وكان هؤلاء من صغار ملاك الأراضى الذين قامت عليهم الإدارة الساسانية والنظام الضريبى.

كانت الأرستقراطية تتحدث اللغة الفارسية ولكن معظم السكان كانوا يتحدثون الآرامية . فقد كان الآراميون[٦] هم الفلاحين والمزارعين الذين جعلوا الأرض على هذا القدر من الانتاجية. وربما كان بعض الآراميين يطمحون إلى الوصول إلى مكانة الدهاقين، بيد أن الدخول فى الأرستقراطية كان مستحيلاً . وعادة ما لم يكونوا يخدمون فى الجيش ، الذى كان فى معظمه مجنداً من الفرس ومن أناس مثل الأرمن الذين كان لهم تراث حربى قوى. أما الفلاحون الآراميون المحتقرون فلم يكن من المحتمل أن يخاطروا بحياتهم للدفاع عن سادتهم.

وهناك وصف مثير للجيش الفارسى فى بداية القرن السابع الميلادى فى كتاب الاستراتيجية Strategikon الذى يُنسب إلى الإمبراطور البيزنطى موريس Maurice (٥٨٢-٦٠٢) وهو يبدأ بالتأكيد على أن الفرس أذلاء يطيعون حكامهم بدافع الخوف . وهى فكرة نجدها أيضا فى المصادر العربية. كما أنهم وطنيون يتحملون المشاق العظيمة فى سبيل أرض آبائهم . وفى الحرب يفضلون الأسلوب المنظم على الشجاعة المندفعة. ويفضلون أن يعسكروا داخل التحصينات و «عندما يقترب وقت المعركة يحيطون أنفسهم بخندق وسياج من مواد حادة». وفى مواجهة الرماح يحبون اختيار أرض منكسرة ويستخدمون النشاب لكسر هجوم العدو. ويحبون تأجيل المعركة ، لاسيما إذا عرفوا أن خصومهم جاهزون للقتال. ويزعجهم هجوم تشكيلات المشاة جيدة التنظيم وهم أنفسهم لا يستخدمون الرماح والدروع . ويكون الهجوم فعَّالاً ضدهم لأنهم «مدربون على القتال السريع ولايعرفون كيف يستديرون فجأة لمطاردة من يهاجمونهم مثلما يفعل الإسكيثيون البدو». وهم مكشوفون أيضا أمام الهجوم على أجنحة جيشهم وعلى المؤخرة والهجمات الليلية الفجائية عليهم مؤثرة «لأنهم يقيمون خيامهم بلا تمييز ودونما نظام داخل تحصيناتهم »(٧). والوصف مثير لأنه يتناسب تمامًا مع روايات المعارك فى المصادر العربية ، ولاسيما التأكيد على التحصينات والحرب الدفاعية وتوخى الأمان بشكل عام . هذه الأساليب المتحفظة جعلت الفرس فى وضع أدنى أمام العرب الأكثر حركة ومغامرة .

كذلك كانت الحرب العظمى بين البيزنطيين والفرس التى دمرت الإمبراطورية البيزنطية بهذا الشكل فى العقود الثلاثة الأولى من القرن السابع الميلادى كارثة أيضا على الساسانيين(٨). ففى البداية كادت الجيوش الفارسية أن تحقق النصر الكامل. وفى سنة ٦١٥م كان الجيش الفارسى قد وصل إلى البسفور قبالة القسطنطينية ، وفى سنة ٦١٩م دخلت القوات الفارسية وأكملت فتح مصر. ثم بدأ المد ينحسر فى مارس سنة ٦٢٤م عندما أبحر الإمبراطور هرقل إلى البحر الأسود وبدأ غزو أرمينيا وأذربيجان . وعندئذ تم الالتفاف حول الفرس وأجبروا على الانسحاب بجيشهم من الأناضول لمواجهة الإمبراطور، الذى كان يهاجم آنذاك من الشمال. وفى سنة ٦٢٧م زحف عبر شمال

غرب إيران، قبل أن ينزل إلى سهول شمال العراق ويهزم الجيش الفارسى فى نينوى (١٢ ديسمبر ٦٢٧م) . وكانت أعظم كارثة عسكرية عانت منها الإمبراطورية الساسانية على الإطلاق. وكان كسرى قد تراجع إلى العاصمة (المدائن) طيسفون تاركا قصره فى دستجرد لكى ينهبها الرومان . وهناك بدأ يبحث عن كبش فداء يلومه على الانقلاب الهائل فى حظوظه . ويبدو أنه كان قد قرر إعدام أهم قادته العسكريين «شهر براز»، ولكن قبل أن يتمكن من التصرف حدث انقلاب . وتم اغتيال كسرى فى بواكير سنة ٦٢٨م، واعتلى العرش ابنه ، الذى كان وافق على اغتيال أبيه، العرش تحت لقب قباذ الثانى .

وفى الحال بدأ قباذ التفاوض على الصلح مع هرقل على أن يتم إطلاق سراح كل الأسرى وتعود الحدود إلى ما كانت عليه قبل الحرب. وربما كان يمكن أن تسير الأمور على ما يرام لو لم يمت الملك الجديد فى أثناء السنة نفسها ، بسبب الوباء على ما يرجح. وقد خلفه ابنه القاصر أردشير الثالث، ولكن القائد شهربراز ، رفض قبول هذا واستولى على العرش فى يونيو سنة ٦٢٩م وكانت هذه المرة الأولى فى مدى أربعة قرون التى يحاول فيها رجل لم يكن من أبناء الأسرة الساسانية الجلوس على العرش ، وكانت هناك مقاومة كبيرة. وبعد شهرين بالضبط ، تم اغتياله هو أيضًا ، ولأن كسرى لم يكن قد خلف أى أبناء فإن العرش كان من نصيب ابنته ، بوران، التى كان من الواضح أنها حاكم كفء ولكنها ماتت لأسباب طبيعية ، بعد سنة واحدة . ثم تلى ذلك تتابع مُحيِّر على العرش لحكام من ذوى العمر القصير ، حتى اعتلى العرش فى نهاية الأمر يزدجرد الثالث ، حفيد كسرى العظيم، فى سنة ٦٣٢م.

وتفاصيل هذه المكائد ليست مهمة بحد ذاتها. ولكن تأثيرها العام كان حاسمًا على أية حال. فقد تم تخريب الإمبراطورية الساسانية على يد جيش غازى كما تم تدمير أية فكرة عن أنها لا تُقهر. ويوحى الدليل الأثرى بأن أماكن الاستقرار فى الجزء الأغنى من العراق بات مهجورة من جراء الحرب[٨]. وفضلاً عن ذلك فإن بيت ساسان ، الذى كان الدعامة الأساسية وسبب الوجود Raison d'être للدولة ، قد تمزق بسبب التنازع والاغتيال. ومن الراجح أن يزدجرد، لو كانت أمامه فسحة من الوقت ، لكان قد

أعاد السيطرة والهيبة الملكية(*). ولكن سنة ارتقائه العرش كانت سنة وفاة النبى محمد: وكانت القبائل تنتهز فرصة الفوضى لكى تخترق الأراضى المستقرة فى العراق، وكان خالد بن الوليد، القائد المسلم، فى طريقه إلى هناك. وفى هذه الظروف ، ليس هناك ما يدعو للدهشة فى أن الفرس هزموا أمام العرب ؛ ولكن المدهش أنهم قاتلوا بمثل هذه العزيمة.

وفى كثير من الأحيان تكون الحدود بين الأراضى الزراعية والصحراء ودقيقة : فأنت تستطيع بالفعل أن تقف بإحدى قدميك على أحد جانبى الحدود وبالقدم الأخرى على الجانب الآخر من الحدود البيئية . بيد أن الحدود لم تكن حاجزًا يحول دون الحركة والتواصل الإنسانى. وكانت للقبائل العربية التى تجوب الصحراء على امتداد الضفة الغربية لنهر الفرات تراث طويل من التفاعل مع سكان أرض السواد المستقرين الذين كان معظمهم من الناطقين بالآرامية(١٠). هذه العلاقات ربما كانت سلمية – أى تبادل اللحم والجلود التى كان البدو ينتجونها مقابل الغلال والنبيذ والمنسوجات الفاخرة من الأراضى المستقرة . كما كان يمكن أن تكون علاقات عنيفة، عندما يقوم البدو بطلب الإتاوات وفرضها ، ويستغلون حركيتهم ومهاراتهم العسكرية لإرهاب القرويين. كذلك كان بعض البدو يقومون بالخدمة العسكرية للحكومة الساسانية ، أو ببساطة أكثر ، يتقبلون المنح من السلطات حتى لا يستخدموا قوتهم العسكرية ضد الناس المستقرين .

وكان بنو شيبان واحدة من هذه القبائل ، ويبدو أنهم كان متمركزين فى الأراضى الصحراوية شرق بلدة الحيرة العربية القديمة . وكان بعض شيوخ القبيلة يمتلكون القصور فى المدينة. ومثل الكثير من القبائل كان بنو شيبان بعيدين عن الاتحاد

(*) التاريخ ، باعتباره علمًا ، لايتعامل مع «لو» . فالاحتمالات تدخل فيما يمكن حدوثه فى المستقبل ولايمكن أن نعول عليها فيما حدث بالفعل . ومهمة المؤرخ أن يتعامل مع ما حدث بالفعل من منطلق تفسير «لماذا» حدث ما حدث . فإذا كان هدف الكتاب ، حسب عنوانه، محاولة فهم تأثير الفتوح الإسلامية على حياتنا الآن، فإن هذا لايتأتى من خلال الافتراض بأثر رجعى. (المترجم)

وتنافست الأنساب المختلفة من أجل زعامتهم . وعندما توفى النبى، واجه الزعماء القدامى التحدى من جانب زعيم ناشئ هو المثنى بن حارثة ، الذى كان من أحد البطون الصغيرة فى القبيلة. وكان المثنى يحاول أن يبنى سمعته بقيادة من يتبعه للإغارة على الأراضى المستقرة ؛ ومن خلال تأسيس نفسه جامعًا ناجحًا للأسلاب والغنائم ، تمكن من اجتذاب المؤيدين الذين قبلوه زعيمًا قبليًا كبيرًا . وعلى مدى بعض السنوات قبل وصول الجيش المسلم الأول فى سنة ٦٣٣م كان يشن غاراته على أراضى الحدود، ولم يستقر أو يقوم بالفتح ولكنه كان يؤكد حق البدو فى الحصول على الإتاوة .

وربما لم يكن المثنى رجلاً ذا قناعة دينية عميقة، وربما لم تكن لديه مثل هذه القناعة على الإطلاق ، ولكن الظروف جعلت منه واحدًا من أوائل القادة المسلمين فى العراق. وكان البطن السائد من بطون بنى شيبان قد اتبعوا المتنبئة سجاح وقاوموا الجيش الإسلامى فى حروب الردة. وتمكن المثنى من اغتنام فرصته . فعندما اقتربت الجيوش الإسلامية تحت قيادة خالد بن الوليد من العراق، انضم إليهم مع أتباعه ، على حين عارضهم شيوخ بنى شيبان القدامى وتم تهميشهم واستبعادهم. وكان هناك أعضاء من القبيلة نفسها من أوائل مؤيدى المسلمين فى فتح العراق ومن أكثر أعدائهم ضراوة فى الوقت نفسه. وقد تفاعلت السياسات القبلية مع الدافع الدينى بعدة طرق مركبة ومتنوعة وغالبًا ما انتهز القادة المسلمون المنافسات المحلية لاجتذاب مؤيدين جدد لقضيتهم.

وقد تم دفع خالد بن الوليد ، الذى كان أرستقراطيًا مكيًا وقائدًا عسكريًا لا يبارى، إلى أراضى الحدود فى العراق استمرارًا طبيعيًا لعمله فى إخماد حركات الردة بشمال شرق شبه الجزيرة العربية. ومنذ وقت وفاة النبى ، كان لابد أن يخضع جميع البدو العرب للحكم الإسلامى ولم تكن قبائل منطقة الفرات استثناء فى ذلك.

ومن المحتمل أن يكون خالد قد وصل إلى حدود العراق فى ربيع سنة ٦٣٣م أو أوائل الصيف[١١]. وكانت القوة الإسلامية التى جاء بها صغيرة تمامًا ، وربما حوالى ألف رجل[١٢]، ولكنهم كانوا مجموعة جيدة التنظيم تحت قيادة حسنة . ويبدو أنه

قد تجول على امتداد الحدود، ولاشك فى أنه قمع أية مقاومة واجهها بين البدو وهزم الحاميات الفارسية فى حصون الحدود[١٣]. ثم وصل مدينة الحيرة القديمة . وكانت الحيرة مدينة صغيرة وقدَّر أحد المصادر العربية اللاحقة عدد الذكور من سكانها بستة آلاف[١٤]، أى حوالى ثلاثين ألفا إجمالاً . ولم تكن مدينة مدمجة وليست هناك أية إشارة إلى أنها كانت مدينة مسورة ؛ وإنما كانت مستوطنة ممتدة ، حيث كان الشيوخ العرب يعيشون فى قصور محصنة متناثرة بين أشجار النخيل.

وكشفت الحفريات عن واحد من هذه القصور سنة ١٩٣١م على يد بعثة من أوكسفورد[١٥]. وكان المبنى محاطًا بسور من الآجر المحروق وكان من طابقين ، والطابق الأدنى به أقبية بلا نوافذ . وفى الداخل، الذى كان مشيدا من الطين، كان هناك فناء تحيط به الحجرات. وكشف الأثريون عن عدد من اللوحات الزخرفية عليها نماذج، إما تجريدية أو نباتية ، توحى بأن السكان عاشوا عيشة طيبة على نحو ما . وكان معظم سكان المدينة من العرب، والكثيرون منهم يرتبطون بروابط عائلية مع البدو فى الصحراء المجاورة . وكان كثير من هؤلاء العرب أيضا من المسيحيين وكانت هناك أديرة وكنائس شهيرة فيما بين البيوت. وكانت المدينة كرسى الأسقفية النسطورية. وقد اكتشف الأثريون بقايا كنيستين مبنيتين على طراز البازيليكا من الآجر، لأنه، كما هو الحال فى معظم أنحاء بلاد النهرين، لم تكن هناك حجارة جيدة للبناء. وكانت الأجزاء الداخلية مزينة وبها ملصقات دينية من الجص ، لم يبق منها سوى شذرات صغيرة.

وكان لابد من قدر قليل من القتال لإقناع السكان بالاستسلام ؛ وكان أعيان العرب يحصنون أنفسهم فى قصورهم وكانوا يحدقون من فوق شرفاتهم على حين كانت قوات المسلمين تجوب المساحات الخالية بينها[١٦]. ثم بدأت المفاوضات . وكان أعيان العرب مستعدين لعقد الصلح فى مقابل الجزية ووعد بعدم التعرض للبيع (الكنائس) والقصور[١٧]. وكانت الجزية التى دُفعت هى أول جزية تُرسل من العراق إلى المدينة ؛ وكانت تلك مجرد البداية لشلال من الثروة التى انسابت من أرض السواد إلى عواصم الخلافة ، المدينة، ودمشق ثم بغداد فيما بعد.

ولم يسترح خالد بفتح الحيرة ولكنه واصل مسيره شمالاً إلى الأنبار، وهى مدينة عربية أخرى على حواف الصحراء ، ثم غربًا إلى الواحة المدينة عين تمر . وفى كل من هذه المدن واجه مقاومة من القوات الفارسية ومن جانب العرب المحليين أيضًا، الذين كان كثير منهم، مثل أهل الحيرة، مسيحيين .

ويقال إن كثيراً من الأسرى تم أسرهم فى هذه الغارات الأولى . وكالعادة تم الاحتفاظ بهم عبيداً لبعض الوقت ، وغالبًا ما كان يتم إرغامهم على القيام بالأعمال اليدوية الشاقة ؛ ولدينا معلومات عن رجل تم إجباره على العمل حفاراً للقبور . وتم تحرير الكثير منهم فيما بعد وصاروا موالى للقبائل العربية ودخلوا فى زمرة المسلمين. ومن بين أولئك الذين يقال إنهم أسروا فى ذلك الوقت كان نصير ، والذى قُيِّض لابنه موسى بن نصير أن يقود الفتح الإسلامى لإسبانيا فى سنة ٧١٢[١٨]. وكانت هذه هى الطريقة التى كسب بها المسلمون الكثير من الناس الذين فتحوا بلادهم وضموهم إلى قواتهم العسكرية للقيام بالمزيد من الفتوح.

وحتى ذلك الوقت كانت هجمات خالد بن الوليد على العراق أكثر قليلاً من حروب الردة. وكان هدفه أن يضمن ولاء القبائل العربية للحكومة المسلمة فى المدينة . وقد أكدت هزائم قوات الحدود الفارسية والجزية التى تم الحصول عليها جدارته قائداً عسكريًا . ومع هذا ، فإنه لم يكن قد توغل بعيداً فى الأراضى المستقلة ، كما لم يكن قد واجه القوة الكاملة للجيش الفارسى. ولم يكن ليفعل هذا أبداً لأن الأوامر التى وصلته من الخليفة أبوبكر الصديق فى المدينة كانت تأمره أن يقود قوة عبر الصحراء للمساعدة فى الفتح الإسلامى لبلاد الشام، حيث كانت المقاومة قوية على غير ما هو متوقع : وفى هذه المرحلة، كانت الأولوية ما تزال لبلاد الشام على العراق لدى القيادة الإسلامية . ويبدو أنه أطاع الأوامر فى الحال.

وقد أدى رحيل خالد بن الوليد إلى ترك القوات الإسلامية الباقية على امتداد الحدود العراقية بلا قائد . ولوهلة يبدو المثنى وقد تولى القيادة ، ولكن عندما صار عمر بن الخطاب خليفة قرر أن يرسل جيشًا آخر إلى مناطق الحدود العراقية لتأكيد

استمرار ولاء القبائل العربية هناك . ولم تكن تلك قوة كبيرة ، إذ كان عددها على الأكثر خمسة آلاف وربما أقل من ذلك كثيراً . ويبدو أن التجنيد كان صعباً، ولدينا معلومات عن أن التجنيد كان صعبًا ولدينا معلومات بأن الرجال لم يحبوا الذهاب إلى هناك بسبب سلطة الفرس، وقوتهم وعظمتهم ومجدهم وانتصاراتهم على الأمم الأخرى[١٩].

وكان كثير منهم مجندين من الأنصار فى المدينة، ولم يشتهروا بمهاراتهم العسكرية، وكان يقودهم رجل اسمه عبيد، من قبيلة ثقيف بالطائف ، المدينة الصغيرة على التلال القريبة من مكة . وربما يكون قد حدث أواخر سنة ٦٣٤م ، أن واجه أبو عبيد، الذى كان قد تقابل مع المثنى ورجاله ، قوة فارسية واشتبك معها فى معركة صارت تعرف باسم موقعة الجسر[٢٠]. وكان يتولى قيادة القوات الفارسية رستم، الذى كان قد تم تعيينه حديثًا قائداً عامًا . وقيل إنهم كانوا مسلحين بشكل جيد ، وخيولهم مكسوة بالزرد (التجافيف) ، والفرسان يحملون الرايات الدالة عليهم (الشُّعر) ، ومعهم عدد من الفيلة[٢١]. وجلبوا معهم راية عظيمة من جلد النمر كانت لملوك الفرس طولها أربعين متراً وعرضها ستة أمتار[٢٢]. وكانت بين الجيشين قناة للرى عليها جسر قديم اعتاد أهل الحيرة القريبة أن يعبروه للوصول إلى حقولهم . وعلى الرغم من النصيحة ، صمم أبوعبيد الذى تصوره المصادر عنيداً يتملكه الخوف من الاتهام بالجبن، على العبور للقاء العدو. ويبدو أن الفيلة أخافت خيول المسلمين ورماة السهام الفرس ألحقوا ضرراً بليغًا بصفوف المسلمين. وكما هو معتاد فى حروب الفتوح، نزل المسلمون عن خيولهم وبدأوا القتال المتلاحم بالسيوف ، ويقال إن أبا عبيد نفسه حاول أن يهاجم أحد الأفيال، إما بطعنه بالرمح فى بطنه أو قطع خرطومه ، ولكن الفيل ردَّ بأن داسه بأقدامه وسحقه حتى مات. وكان موت قائد المسلمين قد أدى إلى إشاعة الاضطراب بينهم . وحدث فى هذه اللحظة أن قرر واحد منهم أن يقطع الجسر حتى يوقف المسلمين عن الفرار ويجعلهم يصمدون فى أماكنهم، أو هكذا قال[٢٣]. ونتيجة لهذا هلك كثير من المسلمين غرقا وهم يحاولون السباحة عبر القناة طلبا للسلامة . ولم يبق سوى عدد قليل من الناجين أعاد المثنى تجميعهم وتقهقروا إلى الصحراء.

كانت وقعة الجسر أسوأ هزيمة تكبدها المسلمون فى حروب الفتح الأولى. وكان يمكن أن تكون علامة على نهاية حملتهم على العراق، الذى كان سيبقى إلى حد كبير أرضا مسيحية يسكنها الناطقون بالآرامية تحت الحكم الفارسى. وكون هذا لم يحدث يرجع إلى سببين - الفوضى بين صفوف الفرس، وتصميم الخليفة الجديد، عمر بن الخطاب، على الثأر لهذه الهزيمة.

ففى أعقاب الهزيمة مباشرة، كان الناجون من الجنود المسلمين، تحت قيادة المثنى، الذى جُرح جُرحًا بليغا فى معركة الجسر ومات بعد وقت قصير، قد قنعوا بما كان العرب يفعلونه غالبًا من قبل، أى الإغارة على امتداد حافة الصحراء عندما تكون السلطة الفارسية ضعيفة بحيث تعجز عن منعهم. وكان رد عمر بن الخطاب المباشر أن استدعى التعزيزات. وعلى أية حال، كانت القوة البشرية قد بدأت تصير مشكلة. إذ كانت قبائل الحجاز التى شكلت قلب القوة الإسلامية الباكرة قد توزعت حينذاك على نطاق واسع، معظمها فى الشام، كما أن الهزيمة كانت قد استنزفت المزيد من صفوفهم. ولكن عمر بن الخطاب لم يكن يريد الاعتماد على رجال من تلك القبائل التى كانت منذ سنة أو إثنتين فقط، قد تحدت الزعامة الإسلامية فى حروب الرِدّة. ولهذا اتجه بدلا من ذلك إلى رجال القبائل الذين كانوا محايدين بدرجة أو أخرى فى تلك الحروب التى كانت قد انتهت لتوها. فإلى الجنوب من الحجاز، تجاه حدود اليمن، تقع منطقة جبلية تسمى السراة. وجاءت غالبية القوات الجديدة من قرى ومضارب الخيام فى هذه المنطقة يقودها زعيم قبلى اسمه جرير بن عبدالله البجلى. وكانت لجرير ميزات إسلامية طيبة، إذ كان قد اعتنق الإسلام قبل سنوات قليلة من وفاة النبى ومنذ ذلك الحين فصاعداً صار واحداً من الصحابة. ومن ناحية أخرى، كان زعيماً قبلياً، فخوراً بنسبه القديم ومكانته الاجتماعية العالية. ولم يكن يرى سبباً يجعل قدوم الإسلام يقوض السلطة والهيبة لرجل فى وضعه.

ومنذ البداية كانت العلاقة بينه وبين المثنى صعبة، أى منافسة انعكست فى المصادر التاريخية حيث حاول مؤيدو كل منهما المبالغة فى إنجازاتهم بطلهم[٢٤]. وكانت هناك أخطار جديدة تلوح فى الأفق، فعلى مدى فترة من الزمان كانت القوات

مسلمة مقيدة فى حدود الإغارات المتقطعة ، إذ إن الملك الفارسى الشاب يزدجرد الثالث، كان قد صار قوياً بما يكفى لتأكيد سلطته وتعبئة قواته للتخلص من أولئك البدو المزعجين إلى الأبد[٢٥]. ويقول الأرمنى سيبيوس، أقرب الكُتاب إلى الأحداث (فقد كان سيبيوس يكتب فى خمسينيات القرن السابع الميلادى، أى أكثر قليلاً من عشر سنوات بعدها) إن عدد الجيش الفارسى وصل إلى حوالى ثمانين ألف رجل ، وربما كانت لديه معلومات جيدة من الداخل لأن عدداً من الأمراء الأرمن جاءوا بفرقهم العسكرية التى تراوحت أعدادها ما بين ألف وثلاثة آلاف رجل للانضمام إلى الجيش الامبراطورى.

ورداً على ذلك بدأ عمر بن الخطاب يعد جيشًا آخر. ولكى يحل مشكلة القيادة، اختار رجلاً كان من النخبة الإسلامية الباكرة وهو سعد بن أبى وقاص . وكان من قريش بمكة ولكنه كان أيضًا من أوائل الذين دخلوا الإسلام ، وكان واحداً من الصحابة المبجلين الذين قاتلوا إلى جانب النبى فى انتصاره الأول فى غزوة بدر سنة ٦٢٤م . وقد اشتهر فى الموروث الإسلامى بأنه شخص حاد الطبع إلى حد ما . فعندما كان أعداء النبى فى مكة يسيئون إليه قبل الهجرة، ضرب سعد بن أبى وقاص واحداً منهم بعظمة فك جمل وأسال دمه . وفيما بعد حظى بسمعة طيبة باعتباره أول من أطلق سهماً فى سبيل الإسلام[٢٦]. ولم يكن بوسع المثنى أو جرير الذى وصل منذ فترة قصيرة سوى الامتثال لقيادته . وعلى أية حال ، فإن الجيش الذى جاء به لم يكن كبيراً . فقد جند قسمًا كبيراً منه من الحجاز واليمن ومناطق أخرى من شبه الجزيرة العربية ، وربما كان قوامه أربعة آلاف رجل عندما غادر المدينة فى خريف سنة ٦٣٧م جاءوا من عشر جماعات قبلية مختلفة[٢٧]. وأمر عمر بن الخطاب أيضًا بانضمام فرق من بلاد الشام إلى هذه الفرق المقاتلة فى العراق ، بما فيها، على ما يبدو، بعض أولئك الذين كانوا قد غادروا العراق من قبل متوجهين إلى الشام مع خالد بن الوليد. وفى وقت المجابهة بين المسلمين والجيش الفارسى الرئيسى ، ربما كانت قوات سعد بن أبى وقاص تتراوح بين ستة آلاف واثنى عشر ألف رجل[٢٨]. وهو أصغر كثيرا من عدد الفرس : وحسبما يلاحظ أهم متخصص حديث فى الفتوح ، «ومع أهمية معركة القادسية فإنها تبدو كأنها كانت صداما بين جيشين صغيرين إلى حد ما»[٢٩].

وتقع بلدة القادسية الصغيرة بين بساتين النخيل على حافة الأراضى المستقرة فى العراق. وفى السنوات اللاحقة كان الحجاج يتجمعون فى هذا المكان قبل الانطلاق على الطريق الصحراوى الطويل إلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة، وكانت نقطة طبيعية لوصول جيش سعد بن أبى وقاص وتجمعه . وفى هذه البقعة تحدد مصير العراق.

وقد شكلت قصة معركة القادسية الأساس الذى قامت عليه أساطير عظيمة[٣٠]. ذلك أن ذكرى انتصار جيش عربى صغير فقير سيىء التجهيز على قوة الجيش الإمبراطورى الفارسى كانت إلهامًا للعرب على امتداد العصور. وفى بغداد، أثناء حكم صدام حسين ، كان الحى الواقع على امتداد نهر دجلة والذى تسكنه معظم الوزارات الحكومية يسمى حى القادسية . وعندما أصدر صدام حسين صكوكًا سنة ١٩٦٨م لتمويل الحرب ضد إيران ، أسماها صكوك القادسية . وعلى نحو أقل تناسبًا ، كانت وسائل الإعلام الرسمية غالبا ما تطلق على حرب الخليج الثانية سنة ٢٠٠٣م «قادسية صدام» ، وفى جميع الأحوال كان ثمة جهد واع يُبذل للنقر داخل الذاكرة الشعبية عن زمن كانت فيه الجيوش العربية منتصرة على الخصوم بأعدادهم الهائلة .

وعلى الرغم من الأهمية الهائلة للمعركة ومكانتها المبجلة فإن ما نعرفه عن المجرى الفعلى للصراع قليل بشكل لافت للنظر، ومن الواضح أن كثيراً من التفاصيل تمت صياغتها. بل إن العام الذى وقعت فيه المعركة غير مؤكد بالمرة . والمصادر العربية تتناقض بشكل نمطى حول هذه التواريخ ، فهى تقترح تواريخ ما بين سنة ٦٣٥ وسنة ٦٣٨م[٣١]، ومعظم المؤرخين يتفقون على سنة ٦٣٦م . ومن ناحية أخرى، فإن البحث الحديث فى المصادر الأرمنية يقترح أن ربما تكون هذه المعركة الحاسمة قد جرت فى عيد الميلاد الأرثوذكس (٦يناير) سنة ٦٣٨م[٣٢]. ويغطى وصف المعركة حوالى مائة وستين صفحة فى تاريخ الطبرى، وعلى الرغم من أنه حافل بالأحداث والتفاصيل ، فإنه لا يقدم صورة كلية واضحة. وتوضح المصادر الأرمنية أن الفرس عانوا من هزيمة كارثية، ولكن الأمراء الأرمن، بطبيعة الحال، حاربوا بشجاعة عظيمة، ولقى اثنان من أهمهم حتفهما ، مع الكثير من أعيان الفرس.

وتبدأ الروايات العربية بتجنيد الجيش وإرساله من المدينة، مع الاهتمام بالأسماء والأنساب القبلية لأولئك الذين شاركوا. وبعد وصول الجيش إلى الحدود العراقية هناك روايات عن سفارات متبادلة بين العرب وكسرى الفرس يزدجرد الثالث. وتخبرنا المصادر عن مجادلات ومشاورات فى مجالس حرب فيما بين المسلمين ، وتم التوضيح مراراً وتكراراً أنهم لا يجب أن يتوغلوا فى أعماق الأراضى الزراعية وقنوات أرض السواد وإنما ينبغى أن يحاربوا على أطراف الصحراء ، حتى إذا ما ساءت الأمور أمكنهم الهرب فى البرية، وبذلك أكدوا على حرج موقف المسلمين .

ونسمع أيضا عن المجادلات فيما بين الفرس. وعندما وصلت القوات الفارسية على حافة الصحراء وبدأت فى الإغارة على المناطق المستقرة، أرسل ملاك الأراضى المحليون رسائل إلى الملك الجديد الشاب يزدجرد الثالث فى عاصمته طيسفون (المدائن) يطلبون النجدة والحماية. وأصدر الملك أوامره إلى رستم بقيادة حملة ضدهم . وكان رستم واحداً من أهم مؤيدى يزدجرد فى الصراع على العرش. وكان قائداً محنكاً وكان الحاكم الفعلى على العراق(٣٣). وفى بعض الأحيان تصفه المصادر العربية بأنه أرمنى ، ولا شك فى أن الجيش الذى كان تحت قيادته قد ضم بعض الفرق الأرمنية تحت قيادة أمرائها. وثمة مصادر أخرى تقول إنه جاء من همذان أو الرى، ويبدو كما لو أن سلطته كانت قاعدتها ميديا وسط غرب إيران، على حين كان يزدجرد الثالث يلقى المساندة أولاً من جانب أعيان فارس، التى تقع إلى الجنوب. وربما كانت المنافسات الإقليمية قد قوضت المجهود الحربى الفارسى . وترسم المصادر العربية صورة لرستم باعتباره رجلاً حكيماً ، ذا خبرة وذا ميول تشاؤمية بشكل عام(٣٤). وفى الملحمة الفارسية العظمى، الشاهنامة للفردوسى، التى أتم نظمها حوالى سنة ١٠٠٠م يرد وصفه بأنه «رجل داهية، ذكى، ومحارب قدير . وكان عالم فلك واسع المعرفة اهتم بنصائح الكهنة»، كما أن الفردوسى يقدم لنا نص خطاب طويل صيغ شعراً يقال إن رستم كتبه إلى أخيه قبل المعركة، يتنبأ بالهزيمة ونهاية السلالة الساسانية(٣٥).

هذا البيت سوف يخسر كل دلائل السيادة

والمجد الملكى والنصر

فالشمس تنظر إلى أسفل من عليائها

وترى يوم هزيمتنا يقترب

فأمامنا الحرب وصراع بلانهاية

بحيث أن قلبى الموجوع يائس من الحياة

إننى أرى ما سيكون ، واختار الطريق

طريق الصمت طالما لم يعد هناك ما أقول

ولكنى سأبكى من أجل الفرس، ومن أجل

بيت ساسان الذى ستدمره هذه الحرب

وآسفاه على تاجهم العظيم وعرشهم،

لأن العظمة الملكية والفخامة كتب عليها السقوط الآن.

وينهى قصيدته الطويلة برثاء نفسه على موته الوشيك وتحذير ونصيحة بالولاء للملكية الفارسية المحكومة عليها بالموت.

إن قبرى فى ميدان معركة القادسية

وسيكون تاجى دمى، وسيكون كفنى درعى

هذه إرادة السماء؛ ولعل موتى لا يسبب

لقلبك الحزن والأسى أكثر مما فى أحكام السماء

راقب الملك دائما ، ولتكن على استعداد

أن تضحى بحياتك من أجل أن يحيا

ووفقا للمصادر العربية ، فـإنه حثَّ الملك الشاب يزدجـرد ألاَّ يحارب العـرب إلا إذا دعت الضرورة القصوى. وكان وحده من بين الفرس الذى اعترف بالقدرات العسكرية والالتزام الدينى لدى البدو الذين يزدريهم الفـرس وأدرك أن النصـر سيكون حليفهم .

والروايات عن السفارات التى أرسلت إلى الفُرس والمجادلات التى نشبت من بين أكثر الأجزاء إثارة فى سرديات الفتح، ليس لأنها تمثل تسجيلاً دقيقًا لما حدث فعلاً ولكن بسبب النظرة الثاقبة التى تقدمها لنا عن مواقف المسلمين الأوائل من الفتح . وإحدى أكثر الروايات اكتمالاً[٣٦] تبدأ بسعد بن أبى وقاص وهو يخبر مجموعة من مستشاريه أنه سوف يرسلهم فى سفارة إلى الفرس. ورد أحدهم أن هذا يظهر قدرًا كبيرًا جدا من الاحترام وأنه يجب إرسال رجل واحد، وهكذا تم إرسال المتحدث ، ربعى بن عامر التميمى وحده . ووضعته السلطات الفارسية تحت الحراسة وأخذوه لمقابلة رستم. وقبل إحضاره لمقابلة القائد، اتفق الفرس على أنهم يجب أن يرهبوا هذا البدو ويخيفوه . وانطلقوا فى بيان ثروة البلاط الفارسى ورقيّه . فقد تم عرض الأشياء الثمينة (الزبرج) ، وأخرجت الأرائك والسجاد . وكان رستم نفسه جالسًا على عرش ذهبى ، وكان مزينا بالأنماط والوسائط مطرزة بخيوط الذهب . وتبرز المصادر التناقض بين هذا وحالة ربعى الذى جاء على فرس مشعث مُغبر[٣٧]. وكان سيفه لامعًا ولكنه كان فى غمد من القماش المشعث . وكان رمحه مربوطا بأوتار الجمل. وكانت معه درع حمراء مصنوعة من جلد البقر «على وجهها أديم أحمر مثل الرغيف»(*).

وبدلاً من ترويعه ، كان البدوى جريئًا غير هياب . وكان مظهره مستفزًا عن عمد . فقد كان كما تقول المصادر «العرب شَعرة» ولم يكن يفعل شيئًا لتحسين صورته . وكانت عباءته غطاء راحلته وصنع فيه ثقبًا، وكان يربطه إلى وسطه بحبال من القصب . وكان غطاء رأسه عبارة عن حبل من حزام سرج راحلته لفه مثل عُصابة الرأس.

(*) الطبرى ، ج٣ ، ص٥٢٠ . (المترجم)

وفوق رأسه كانت توجد أربع خصلات من الشعر ، كانت تبرز مثل قرون الماعز. أما سلوكه فكان فى مثل خشونة مظهره ، وبدلاً من أن يترجل من فوق فرسه حسبما أمر، قاد فرسه حتى وطئ السجاد ، وعندما نزل مزق وسادتين لاستخدامهما فى ربط حصانه . وعندما طلب منه أن يضع أسلحته ، رفض فى عناد، قائلا إن الفرس قد دعوه وعليهم أن يقبلوه كما هو أو يذهب عائدا . وعندما أحضروه فى النهاية فى حضرة رستم كان سلوكه مدمرًا فى كبريائه : فقد استخدم رمحه فى إحداث حفر وخدوش فى السجاد والوسائد بحيث لم يبق فيها ما لم يتضرر . وعندما سألوه عن السبب فيما فعل، أجاب «إنا لانستحب القعود على زينتكم هذه»(*).

ثم سأله رستم ما الذى جاء به إلى هناك وأجاب ربعى :

«... الله ابتعثنا ، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبدًا ، حتى نفضى إلى موعود الله»(**).

وعندما سأله رستم عن موعود الله، أجاب «الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقى»(***)، فسأله رستم ما إذا كان رئيس المسلمين وأجاب ربعى بأن «المسلمين كالجسد بعضهم من بعض ، يجير أدناهم على أعلاهم»(****).

ثم طلب رستم وقتا للتشاور مع رفاقه وبعد تردد أجابهم ربعى بمهلة أيام ثلاثة، لأن هذا كان الوقت الذى سمح به النبى . وعندما ذهب هذا الزائر الفظ، وبقى رستم وحده مع النبلاء الفرس، أعرب عن إعجابه بما قاله ربعى. وخاف الفرس من أن يكون

(*) الطبرى، ج٣ ، ص٥٢٠ . (المترجم)
(**) الطبرى، ج٣ ، ص٥٢٠ . (المترجم)
(***) الطبرى، ج٣ ، ص٥٢٢ . (المترجم)
(****) نفسه، ج٣، ص٥٢٣ . (المترجم)

رستم يفكر فى التخلى عن ديانته بناء على نصيحة هذا الجلف. فأجاب بأنهم لا يجب أن ينظروا إلى ثيابه وإنما أنظر إلى الرأى والكلام والسيرة»(*).

فتوجه الأعيان وتفحصوا أسلحة ربعى وانتقدوا نوعيتها ، ولكنه أظهر لهم أنهم كانوا يقصدون العمل عندما أخرجوا سيفه من غمده «كأنه شعلة من نار»(*). وعندما جاء أمر الرمى بالنشاب «... ثم رمى تُرسًا ورموا حجفته (أى ترسه)، فخرق ترسهم وسلمت حجفته » وعاد ربعى إلى معسكر المسلمين ليمنح الفرس وقتًا يتدبرون أمرهم .

واستمر الفرس يتجادلون فيما بينهم حول الرد المناسب ، وطلب رستم عودة ربعى فى اليوم التالى. وبدلاً منه أرسل المسلمون رجلاً آخر، لإظهار فكرة أنهم متساوون جميعًا ومتحدون ، وركب هو أيضا على السجاد الثمين كما قدم لهم بجسارة الاختيارات الثلاثة «الإسلام وننصرف عنكم ، أو الجزاء ونمنعكم إذا احتجتم ، أو المنابذة»(*) كانت هذه الخيارات الثلاثة قد صارت العرض المعتاد فى المفاوضات بين المسلمين وخصومهم . واقترح رستم هدنة . ووافق العربى على هدنة أيام ثلاثة فقط «تبدأ من أمس»(*).

وعلى الجانب الفارسى استمرت المجادلات وطلب رستم إرسال رجل ثالث . وكان هذا الرجل هو المغيرة بن شعبة ، وكان شخصًا أكثر أهمية من الاثنين السابقين ورجلاً قُدِّر له أن يلعب دورًا رئيسيًا فى فتح العراق والاستقرار به . ومرة أخرى أراد الفرس ترويع زائرهم؛ وكانوا فى ثيابهم المطرزة بالذهب ويلبسون التيجان . وأمامهم كانت سجادة طولها قدر رمية قوس، ولم يكن ممكنًا لأحد أن يقترب منهم دون أن يمشى فوقها . ومثلما يحتمل أن يكون الفرس قد خمنوا، فإن المغير لم يتأثر وأبدى احتقاره بالقفز على كرسى العرش إلى جوار رستم. وأزاحه الفرس بعنف ، ورد على ذلك بخطبة قصيرة عن المساواة ، وكان حديثه بواسطة مترجم ، عربى من الحيرة . وكانت حجته أن المسلمين يعاملون أحدهم الآخر باعتباره أنهم متساوون وقد راعه أنهم لا يفعلون

(*) الطبرى، ج٣ ، ص٥٢٠ . (المترجم)

ذلك، ليصل إلى نتيجة مؤداها «... علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون ، وأن ملكًا لا يقوم على هذه السيرة ، ولا على هذه العقول»(*) وقد أدى هذا أيضا إلى جدل بين الفرس: إذ قال «السفلة» إن المغيرة على صواب ولكن ملاك الأراضى (الدهاقين) قالوا إنه كان يقول ما كان عبيدهم يقولونه دائما ولعنوا أسلافهم لأنهم لم يأخذوا العرب مأخذ الجد.

وألقى رستم مزحة محاولاً أن يلطف الخلافات أمام المغيرة . ثم جرى نزاع أكثر رسمية. فقد ألقى كل من رستم والمغيرة خطبة قصيرة عن طريق المترجم[٣٨] الذى كان يقف بينهما. وبدأ رستم بالتأكيد على مجد الفرس وهيبتهم. ولو أنهم هزموا مؤقتًا، فإن الله سيعيد إليهم مجدهم. واستمر فى حديثه قائلا إن العرب عاشوا دائمًا عيشة العوز والحاجة وعندما دهمتهم المجاعة والقحط كانوا يسعون للحصول على المساعدة على الحدود. وأنه كان يعرف أن ذلك ما كانوا يفعلونه آنذاك ، ولذلك فإنه سيعطى كلاً منهم حملاً من التمر وثوبين حتى يمكنهم الرحيل؛ وليست لديه الرغبة فى قتل أى منهم أو اتخاذهم أسرى.

ورفض المغيرة بصراحة هذا العرض المتفضل المتعالى . وقال إن كل ما فيه الفرس من نعيم يرجع إلى الله وأنهم لم يحمدوه بما يكفى. وموقف العرب آنذاك لم يكن بسبب الجوع أو العوز وإنما لأن الله قد أرسل إليهم نبيًا . ومضى ليؤكد الوضع الدينى مثلما فعل الاثنان اللذان سبقاه. وعندما وصل إلى عبارة «... وإن احتجت أن نمنعك فكن لنا عبدًا تؤدى الجزية عن يد صاغر ، وإلاّ فالسيف إن أبيت...»(**) فقد رستم أعصابه وأقسم بالشمس ألاّ يبزغ فجر اليوم التالى قبل أن يكون قد قتلهم جميعًا . وهكذا، توقفت المفاوضات . وبعد أن رحل المغيرة ، أخبر رستم قومه من الفرس أن أحدًا لا يمكن أن يصمد أمام قوم بمثل هذه الأمانة والذكاء والإخلاص للهدف.

(*) الطبرى، ج٣ ، ص٥٢٢ . (المترجم)

(**) الطبرى، ج٣ ، ص٥٢٣ . (المترجم)

وقد مال المؤرخون المحدثون إلى عدم الاعتداد بمثل هذه القطع الموضوعة فى النصوص العربية ؛ وعلى أية حال ؛ فقد تم تدوينها بعد زمن طويل، كما أنها حافلة بالموضوعات المجازية والتقليدية ، ولايمكن أن تكون بقصد رواية الحوادث والخطب الحقيقية . هذه الرواية وصلت عن طريق اثنين على الأقل من الإخباريين الأوائل قبل أن يجمعها سيف بن عمر[٣٩]، (ت بعد ٧٨٦) وثمة احتمالات أن يكون قد تم تأليفها فى شكلها الحالى فى غضون مائة سنة بعد الأحداث التى تروى أخبارها . وربما تكون قد زيدت عندما كانت قوات المسلمين ما تزال تمد حدود العالم الإسلامى فى إسبانيا ووسط آسيا. وبالمعنى الحقيقى تكون هذه الرواية وثيقة أصلية عن عقلية الفتح، فإذا كان نريد فهم الوضع العقلى للفاتحين العرب الأوائل ، فيجب أن نلتفت إلى مثل هذه الوثائق.

والنقطة الأساسية التى يسعى النص لتوصيلها ، أن المسلمين كانت تلهمهم معرفة أن الله وتعاليم رسوله يؤازرهم . وإلى هنا فالأمر يمكن أن نتوقعه . أما ما هو أكثر إثارة للدهشة فهو الوعى والانتباه إلى التقسيمات الثقافية بينهم وبين الفرس. فالفرس يلبسون ثياباً غالية ويعيشون بين السجاد والرياش الفاخرة ، والعرب فقراء فى أسمال بالية. والجزء الوحيد فى عدة العرب الذى ليس قديماً ووضيعاً أنصال سيوفهم اللامعة . ويحتقر العرب ثروة خصومهم . وهناك أيضاً الإحساس القوى بأن العرب اعتقدوا أنهم كانوا يعيشون فى مجتمع أكثر مساواة على النقيض من المجتمع الفارسى الطبقى التراتبى ، وأن هذا كان مصدراً مهماً للقوة بالنسبة لهم . وأخيراً، هناك موضوع اعتراف الفرس بالقوة والتفوق الأخلاقى لدى العرب . ففى هذه الحال يتشاجر رستم مع رجال بلاطه بينما يعترف بهذا ويبقون على جهلهم وازدرائهم للعرب .

وبينما كان العرب ينتظرون المواجهة، يقال إنهم شنوا الغارات فى أرض السواد ، وعادوا ومعهم الحيوانات التى استخدموها لطعامهم. وفى إحدى الحالات كان هناك عُرس لبعض أبناء الطبقة العليا من الفرس، وكمنوا له، فقتلوا الرجال وسبوا النساء. وتم إظهار العرب أيضا فى صورة الخبراء المهرة فى التجسس ، يتسللون فى معسكر خصومهم، يقطعون حبال خيامهم ويسرقون مطاياهم لنشر الذعر بين أفراد العدو.

وهناك روايات عديدة عن المعركة النهائية فى القادسية ولكن التفاصيل مشوشة للغاية ومن المستحيل أن نحصل على صورة كلية. فهناك العديد من الحكايات العربية القصيرة غير المترابطة تحدثنا عن شجاعة أحد الرجال ، أو موت رجل آخر، ومن حين لآخر عن جبن رجل ثالث. وثمة موضوعات بعينها تتسم بالاتساق : حقيقة أن القتال استمر عدة أيام وليالى، وحقيقة أن الفرس استخدموا الفيلة فى المراحل الأولى من الصراع ولكنها لم تكن فعالة إلى درجة كبيرة . ويبدو كما لو أن أشد القتال ضراوة جرى على الأقدام ونزل الفرسان عن خيولهم للاشتراك فيه. وثمة رواية عربية قصيرة تركز على أهمية رماة السهام فى تحقيق نصرهم[٤٠]. وقد استدعى أحد الجنود فى الجيش الفارسى إلى ذاكرته ما حدث بقوله : «شاركت فى معركة القادسية عندما كنت لا أزال من الصابئة (وقد اعتنق الإسلام فيما بعد) . عندما أطلق العرب سهامهم تجاهنا بدأنا نصيح «دوك، دوك» التى تعنى المغزل . وقد استمرت هذه «المغازل» تمطرنا بالسهام حتى غلبنا . وكان الرامى منا يرمى سهمًا من قوسه ولكنه لم يكن يفعل شيئًا سوى الاشتباك بثوب واحد من العرب على حين كان السهم من جانبهم يمزق عباءة من الزرد والدرع المزدوج الذى نضعه» وربما كانت القوة المتفوقة للرماة العرب عاملاً مهمًا فى نجاح قوات المسلمين هناك .

ويتضح من المصادر الإسلامية وغير الإسلامية على السواء أن الفرس عانوا من هزيمة كارثية وأن الكثير من القادة الفرس، بما فيهم رستم نفسه، قتلوا ، وتجعله الشاهنامة يموت ميتة بطولية فى اشتباك منفرد مع سعد بن أبى وقاص[٤١]، ولكن المصادر العربية لا تعرف شيئا عن هذا ، وتلاحظ فى إيجاز أن « ... فوجد بدنه مملوءًا ضربًا وطعنا فلم يُعلم من قاتله...»(*). وبعد القادسية ، صار وسط العراق مفتوحًا أمام الفاتحين المسلمين .

(*) البلاذرى ، فتوح البلدان ، (مكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٣م)، ص٢٥٥ . (المترجم)

وفى أعقاب المعركة طاردت القوات الإسلامية الفرس الهاربين عبر القنوات وحدائق النخيل فى أرض السواد. وكان يمكن أن يؤدى عبور الممرات المائية إلى حدوث مشكلات ، ولكن بعض النصر فى القادسية ، قام ملاك الأرض الفرس المحليون بتصرف حكيم عندما قدموا المساعدة للمسلمين، مثل بيستام ، دهقان بورص ، الذى بنى جسراً عائما عبر القنوات وأرسل معلومات عن تحركات القوات الفارسية . وقد أدى تفكك القيادة الفارسية إلى ترك الكثير من السكان المحليين بلا بديل سوى وضع شروط الصلح مع العرب بقدر ما يمكنهم.

وقد اشتبكت قوات الطليعة فى جيش المسلمين مع بقايا القوات الفارسية فى بابل، وهناك، بالقرب من استحكامات عاصمة حمورابى ونبوخذ نصر التى طال هجرها «فهزموهم فى أسرع من لفت الرداء»[٤٣]. وقد تبعثر القادة الناجون من الفرس آنذاك لمحاولة تنسيق المقاومة فى الأقاليم. فذهب فيزوران إلى مدينة نهاوند الصغيرة فى جبال زاجروس «وبها كنوز كسرى» ، وبدأ يجمع جيشاً . أما الهرمزان فقد فرَّ جنوبياً إلى ولاية خوزستان الغنية حيث أخذ يجمع الضرائب لتمويل المقاومة . وفر آخرون على طول الطريق الرئيسى المؤدى إلى العاصمة طيسفون (المدائن)[٤٤].

وعلى امتداد الطريق كانت هناك مناوشات واشتباكات فردية. ويصف سيف بن عمر أحد هذه الاشتباكات بين شهريار ، قائد قوات المؤخرة فى الجيش الفارسى ، وبدوى يسمى نائل وقد اقترب كل منهما على صهوة جواده:

« ... ومع كل واحد منهم الرمح، وكلاهما وثيق الخلق، إلا أن الشهريار مثل الجمل، فلما رأى نائلاً ألقى الرمح ليعتنقه ، وانتضيا سيفيهما فاجتلدا، ثم اعتنقا فخرا عن دابتيهما ، فوقع على نائل كأنه بيت، فضغطه بفخذه ، وأخذ الخنجر وأراغ حلّ أزرار درعه ، فوقعت إبهامه فى فم نائل ، فحطم عظمهما، ورأى منه فتوراً، فثاوره فجلد به الأرض ، ثم قعد على صدره ، وأخذ خنجره ، فكشف درعه عن بطنه ، فطعنه فى بطنه وجنبه حتى مات، فأخذ فرسه وسواريْه وسلبه»(*).

(*) الطبرى، ج٣ ، ص٦٢٠ – ص٦٢٢ . (المترجم)

بعد هذا الانتصار كافأ سعد بن أبى وقاص نائل بن جشعم الأعرجى بأن أعطاه معدات الفارسى المقتول «... عزمت عليك يا نائل بن جشعم لما لبست سُوارَيْه وقباءه ودرعه، ولتركبن برذونه ...»(*). وكان السواران جزءًا مهمًا من تجهيزات النبلاء الفرس[٤٦] وحذر سعد بن أبى وقاص ألا يرتديهما سوى وهو ذاهب إلى المعركة. وهذه القصة تقدم تفاصيل غنية ومشهدًا قتاليًا جيدًا، وهى تكرر الموضوعين اللذين رأيناهما فى الشاهنامة: تفوق التجهيزات العسكرية لدى الفرس ورفض العرب لأساليبهم المرفهة الناعمة.

لم يكن الفرس الذين يشبهون الجمال فى بنيتهم الجسدية يمثلون الأخطار الوحيدة عبر أرض السواد. وفى نقطة ما واجه المسلمون كتيبة من الجنود كانت الملكة بوران قد جندتهم وكانت قد أقسمت أن مُلك فارس ل ينتهى طالما بقيت على قيد الحياة. وكان معهم أسد أليف، اسمه المُقرَّط، كان من ممتلكات كسرى فارس. ويبدو أن الأسد خاض المعركة من أجلهم ولكن أحد الجنود العرب ذبحه بعد أن قفز من فوق حصانه وقتله. وبعد هذه الخسارة انهارت مقاومة الفرس[٤٧]. وقد مرَّ المسلمون أيضا بأعداد كبيرة من الفلاحين الفرس الذين يعيشون فى القرى القائمة على امتداد نهر دجلة. وكان كثير منهم قد استخدموا لحفر خنادق حماية للجيش الفارسى، ولكن يبدو أنهم كانوا غير مسلحين ولاتسمح حالتهم بالمقاومة. أما شيرزاد، الذى كان أحد الدهاقين الفرس الذين انحازوا إلى جانب المسلمين، فقد أقنع سعد بن أبى وقاص بألاّ يؤذيهم لأنهم ليسوا سوى «علوج أهل فارس» ولن يكونوا مصدر أى خطر على الإطلاق؛ ويُقال إن مائة ألف منهم سجلوا أسماءهم، حتى يمكن جمع الضرائب منهم، وأطلق سراحهم. وطالما كانوا يدفعون ضرائبهم ولا يقومون بأى عمل عدائى، فلا يتعرض لهم المسلمون بسوء ومن المؤكد أنهم لم يبذلوا أى جهد لتحويلهم إلى الإسلام: فقد كانت الأرستقراطية الفارسية والجيش الفارسى هم العدو.

(*) الطبرى، ج٣، ص٦٢٠ – ص٦٢٢. (المترجم)

كان الهدف الاستراتيجي التالي العاصمة الساسانية طيسفون (المدائن) ، على مسافة مائة وستين كيلو مترًا، أى مسيرة ثلاثة أو أربعة أيام، عبر أرض السواد نحو الشمال الشرقى ، ومن هناك كان الملك يزدجرد الثالث قد حاول أن يوجِّه المعركة.

كانت العاصمة الفارسية ، التى تعرف عمومًا لدى المؤرخين الغربيين باسمهما المتأغرق Ctesiphon، طيسفون مجموعة ممتدة من المدن، وهى حقيقة تنعكس فى الاسم العربى «المدائن» . ويمتد الموقع فى غير نظام على نهر دجلة الذى يوفر المياه مانحة الحياة كما يجلب الفيضانات المميتة للمدائن ؛ وكان النهر فى بعض الأوقات يغير مجراه بشكل درامى وهو يشق طريقه عبر الأراضى المسطحة فى السواد، بحيث يحفر مركز المدينة ويعزل كل ضاحية عن الأخرى . وليست لدينا أية أوصاف تفصيلية عن المدينة فى ذلك الوقت كما أن الحفائر الأثرية كانت متفرقة . وأول استيطان كبير على ما يبدو كانت مدينة سلوقيا على الضفة الغربية لدجلة . ومنذ سنة ١٧٠ ق.م صارت طيسفون العاصمة الشتوية للملوك البارثيين فى إيران. وبعد أن استولى الساسانيون على المدينة فى سنة ٢٢٤م ، ظلوا يستخدمونها عاصمة لهم ، على الرغم من أنه فى الواقع كان الملوك يقيمون غالبًا فى ضياع ريفية على التلال. وفى سنة ٢٣٠ ميلادية تقريبًا ، وضع أردشير الأول، المؤسس الفعلى للسلالة الساسانية ، أساس مدينة دائرية محصنة على الضفة الغربية للنهر، ولكن فى منتصف القرن الخامس الميلادى غير النهر مجراه، بحيث قطع المدينة المدوَّرة إلى اثنتين. وفى وقت وصول المسلمين، كان الجزء الرئيسى من المدينة قائمًا على الضفة الشرقية، على الرغم من أنه كان لا يزال هناك منطقة سكنية كبيرة على الضفة الغربية. وعلى الضفة الشرقية كانت توجد قصور وحدائق ومناطق سكنية حيث بيوت الطبقة العليا التى كشفت عنها الحفريات ، ولكن لايبدو أنه كانت هناك أية استحكامات . أما المنازل المبنية من الطوب اللبن فقد تحللت مرة أخرى فى سهل بلاد النهرين والمبنى الكبير الوحيد الذى نجا من عوادى الزمن جزء من القصر الكبير المعروف باسم إيوان كسرى. وهذا هو ما تبقى من قاعة ضخمة، ربما يكون خسرو الثانى (٥٩١-٦٢٨م) قد بناها بمقياس فاق أى قصر آخر بناه الساسانيون أو خلفاؤهم المسلمون. وقد بقى مصدرًا للإبهار للأجيال

التالية بل إنه فى حالته المشوهة المحزنة لا يزال يكشف عن شىء من القوة والعظمة التى كان عليها الملوك الكبار.

وعلى الرغم من حقيقة أن طيسفون كانت العاصمة الفعلية للعاصمة الفارسية ، فإنها كانت من عدة وجوه مدينة غير فارسية تمامًا . ويرجح أن الغالبية الساحقة من سكان المنطقة من الناطقين باللغة الآرامية ، وكانت بها كنائس مسيحية ومعابد يهودية، ويبدو أنها لم تكن تضم أى معابد نار .

وبسرعة وصل المسلمون إلى أقسام المدينة الواقعة على الضفة الغربية لنهر دجلة وكان هذا الجزء من المدينة محميًا بالمتاريس الترابية والحراس وغيرها من أنواع التجهيزات العسكرية . وبدأ المسلمون يقصفون المدينة بالمجانيق والعرادات التى قيل إن شيرزاد بناها بأوامر من سعد بن أبى وقاص . وربما تكون الإشارة إلى آلات الحصار تحمل مفارقة – فليس هناك تأكيد لهذه الحقيقة فى نصوص أخرى . ومع ذلك تبقى هذه الإشارة أحد الأمثلة الباكرة عن استخدام المسلمين لآلات القصف ضد التحصينات . وهى تشهد أيضا مرة أخرى بالقوة الاستراتيجية للمسلمين ، وقدرتهم على تجنيد القوات المحلية والإفادة من مواهبهم على نحو جيد.

واستمر الفرس يدافعون عن أنفسهم وراء أسوارهم وقاموا بهجوم مفاجئ واحد غير ناجح على الأقل فى محاولة لكسر الحصار . وهناك أيضا روايات عن أن يزدجرد الثالث، الذى كان لا يزال فى القسم الرئيسى من المدينة على الضفة الشرقية للنهر، أرسل رسالة يعرض الصلح على أساس أن يكون نهر دجلة خط الحدود بين العرب والامبراطورية الفارسية ، ويتملك الفرس كافة الأراضى الواقعة شرق النهر. ويقال إن المفاوض العربى أجاب بأنه لن يكون هناك صلح أبدا حتى يستطيع العرب أن «حتى نأكل عسل أفريذين بأترج كوثى»[*] – وهو ما يعنى حتى يتموا فتح أراضى العراق وإيران جميعًا[٤٨] (إفريذين بين الرى ونيسابور شمال شرق إيران ، وكوثه بالعراق).

(*) الطبرى، ج٤ ، ص٧ . (المترجم)

وفى اليوم التالى عندما اقترب العرب من الأسوار مرة أخرى وبدأوا القصف بالمجانيق ، كان هناك صمت رهيب ، ولم يظهر أحد على شرفات الأسوار . وبقى رجل واحد فسَّر لهم ما حدث بأن ثقة العرب فى أنفسهم ورفضهم الصلح جعلت الفرس يهجرون المدينة ويخلونها إلى الضفة الشرقية للنهر . وحينذاك تحرك سعد بن أبى وقاص برجاله إلى داخل الدائرة المحصنة لكى يستخدمها قاعدة لهم.

وفى ذلك الحين كان نهر دجلة، سريع الجريان المراوغ ، يفصل بينهم وبين الجزء الرئيسى من المدينة . ولم يكن هناك جسر وكان الناس عادة ما يعبرون النهر بالقوارب، ولكن الفرس كانوا قد حركوا جميع القوارب إلى الضفة الشرقية من النهر. وهكذا صار عبور النهر ومهاجمة الموقع الحصين اقتراحًا يصعب تنفيذه تمامًا ، ولكن سعد حث رجاله على المحاولة ، مشيرًا إلى أن الأرض كلها وراءهم آمنة باتجاه الغرب ، بحيث يمكنهم أن ينجوا بأنفسهم إذا ساءت الأمور . وأرشد بعض الأهالى المحليين العرب إلى مكان فيه قاع النهر راسخ ويمكن عبوره على ظهور الخيل . ويقال إن مقدمة الجيش كانت مؤلفة من ستين رجلاً ، تطوعوا للعبور أولاً لتأمين الأرصفة حتى يمكن للجيش كله أن يعبر فى أمان . وقسموا خيولهم إلى سرية من الخيول الذكور وأخرى من الإناث ، لكى يجعلوها أسهل قيادًا، حسبما قيل ، ونزلوا يخوضون فى النهر: واستعد ستمائة رجل آخر للحاق بهم.

وفى الوقت نفسه رأى الفرس ما يجرى فساقوا خيولهم أيضا للخوض فى الماء. ونشبت معركة وسط مجرى النهر. وصاح القائد العربى فى رجاله «الرماح الرماح، أشرعوها وتوخوا العيون»(*). ثم قاتلوا يدًا بيد حتى تراجع الفرس إلى الضفة البعيدة. والتحم المسلمون معهم على الشاطئ ، وقتلوا كثيرا منهم، وملكوا الأرصفة على النهر. وتبعتهم بقية القوات عن قرب بحيث لا يكون لدى العدو الوقت لإعادة تجميعهم: وركبوا بين الأمواج ، وكانت مياه دجلة الداكنة تقذف الزبد الأبيض . واستمر الرجال يتحدثون

(*) الطبرى، ج٤ ، ص٩ . (المترجم)

مع بعضهم البعض وهم يسبحون لعبور النهر، فى مجموعات متماسكة ، يثرثرون كما لو كانوا يسيرون فوق أرض جافة . وفاجئوا الفرس على نحو لم يظنوا أنه ممكن[٤٩]. ونرى المصادر العربية تؤكد على صلابة العرب واستعدادهم للمخاطرة بشكل تتجنبه الجيوش التقليدية .

وفيما بعد تداول الجنود قصص العبور فيما بينهم. ووفقا لإحدى القصص عبر المسلمون جميعًا فى أمان ، عدا رجلاً واحداً «... زال عن ظهر فرس له شقراء، كأنى أنظر إليها تنفض أعرافها عرياً والغريق طاف، فثنى القعقاع بن عمرو عنان فرسه إليه، فأخذ بيده فجرّه حتى عبر ، فقال البارقى – وكان من أشد الناس: أُعجِزَ الأخوات أن يلدن مثلك يا قعقاع وكان للقعقاع فيهم خؤولة»[٥٠].

كذلك كانوا يتذكرون الحوادث التافهة . فقد قيل إن أحداً لم يفقد شيئًا سوى رجل واحد ، كان له قدح مربوطة بخيط متهرئ فانقطع ، وطفا بعيداً فوق سطح الماء. ولاحظ الرجل الذى كان يسبح بجانبه إن هذا أمر الله ، ولكن صاحب القدح قال : «والله إنى لعلى جديلة ما كان الله ليسلبنى قدحى من بين أهل العسكر. فلما عبروا إذا رجل ممن كان يحمى الفِراض ، قد سفل حتى طلع عليه أوائل الناس ، وقد ضربته الرياح والأمواج حتى وقع إلى الشاطئ، فتناوله برمحه ، فجاء به إلى العسكر فعرفه، فأخذه صاحبه ، وقال للذى كان يعاومه: ألم أقُل لك؟»(*) كانت مثل هذه الحكايات ، بغض النظر عن أنها قصص جيدة، مناسبة أمام المسلمين ليتذكروا كيف كان الله يرعى أسلافهم.

وفى الوقت نفسه بالمدينة نفسها استعد الفرس للتخلى عن عاصمتهم . وحتى قبل أن يعبر العرب النهر، كان يزدجرد قد أرسل أهل بيته بعيداً . ثم رحل هو نفسه، على الطريق المؤدى إلى إيران، ليلحق ببقية أهل بيته فى حلوان . وقد سافر فى أرض ضربها الوباء والمجاعة ، وهو الوباء نفسه الذى تسبب فى مثل هذا الخراب فى بلاد الشام(*).

(*) الطبرى ، ج٤، ص١٢ . (المترجم)

ويبدو أن الرجال الذين تركهم قد فقدوا إرادة المقاومة . فسرعان ما كانوا يحملون ما غلا ثمنه وخف حمله من أشيائهم وبقدر ما أمكنهم حمله من الكنوز على ظهور خيولهم وبغالهم . وتم إخلاء السكان والأطفال الفرس أيضا . وعلى أية حال ، فإنهم تركوا وراءهم كميات هائلة من الثياب وكل أصناف الأشياء الثمينة ، وكذلك جميع قطعان الماشية والأغنام والطعام والشراب الذى كانوا قد جمعوه لمقاومة الحصار الذى لم يحدث أبداً .

ويبدو أن الجيوش العربية قد واجهت قليلاً من المقاومة عندما دخلت المدينة شبه المهجورة . وكانت هناك بعض المقاومة الضعيفة حول القصر الأبيض ، ولكن سرعان ما تم التغلب عليها . ثم جعلها سعد بن أبى وقاص مقر قيادته ، وأمر بأن يتحول إيوان كسرى العظيم إلى مسجد للمسلمين . وكانت المساجد الأولى تحتاج إلى القليل جداً من الأثاث ، ربما محراب وجهته مكة، ومنبر لخطبة الجمعة[٥٢]. ولابد أن الإيوان الضخم كان مكانًا فخمًا للصلاة ، على خلاف المساجد البسيطة التى بناها المسلمون فى المدن الجديدة مثل الكوفة والبصرة فى السنوات التالية. وربما كان هذا التحويل الباكر لقطعة مهمة من العمارة إلى مسجد هو الذى ضمن بقاءها . إذ لم يتم الحفاظ على الإيوان الكبير فقط دون أن يمسسه سوء وإنما تركت التماثيل فى مكانها ، على الرغم من أن المسلمين كانوا يصلون فى الساحة التى تطل عليها[٥٣].

ثم بدأ تقسيم الغنائم . وتصف المصادر العربية بقدر كبير من الاستمتاع كيف تم تقسيم كنوز أكاسرة الفرس بين الفاتحين[٥٤]. وتؤكد القصص على موضوعين : التناقض بين البساطة الخشنة والأبهة والثراء الذى اتسم به البلاط الفارسى والاهتمام المدقق والأمانة التى تم بها توزيع الغنائم.

وهناك قصص عن استرداد شارات الملك الفارسية . ووفقًا لإحدى الروايات ، كانت قوات المقدمة فى جيش المسلمين تطارد الفرس المتقهقرين على امتداد الطريق إلى الجبال. وعندما وصلوا إلى الجسر الذى يعبر قناة النهروان ، تجمع الهاربون وتزاحموا للعبور وتم دفع أحد البغال فى الماء. وبذل الفرس جهداً كبيرا وهم يناضلون

لإخراجه من الماء ولاحظ القائد العربى ذلك « ... فقال زهرة : إنى أقسم بالله إن لهذا البغل لشأنًا ؛ ما كلب القوم عليه ولا صبروا للسيوف بهذا الموقف الضنك إلا لشيء بعد ما أرادوا تركه »(*)، وترجل العرب للاشتباك مع العدو ، وعندما تم القضاء عليهم أمر القائد رجاله بإخراج البغل من الماء بكامل حمولته . ولم يحدث حتى عادت الجماعة إلى نقطة التجمع المركزية فى المدائن أن فتحوا ما كان على البغل من متاع « ... وإذا الذى عليه كسرى؛ ثيابه وخرزاته ووشاحه ودرعه التى كان فيها الجوهر ، وكان يجلس فيها للمباهاة[٥٥](*). وفى رواية أخرى، تم الإمساك ببغلين يحملان سلتين ، إحداهما بها تاج الملك، وكان لايحمله إلا إسطوانتان و« ... وإذا على الآخر سفطان فيهما ثياب كسرى التى كان يلبس من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر وغير الديباج منسوجًا منظومًا »[٥٦]. وفى رواية ثالثة ، وجد العرب أيضا سيوف كسرى « ... ومغفره وساقاه، وساعداه ، ودرع هرقل ، ودرع خاقان ودرع داهر ودرع بهرام... » ودروع الأعداء الآخرين لملوك فارس والتى كان يحتفظ بها على سبيل التذكار[٥٧](**).

وهناك مجموعة أخرى من القصص تتناول السجادة الكبيرة التى كانت تزين القصر الملكى وكانت هذه السجادة تسمى «القِطف» أو «بهار كسرى» (أى ربيع الملك) بالفارسية . وكان بساطًا ضخمًا حوالى ثلاثين مترًا مربعًا . وكان البلاط الفارسى يحتفظ به للاستخدام فى الشتاء، عندما يجتمعون للشراب ، وكان يمكنهم الجلوس عليه ويتخيلون أنهم فى حديقة تتفتح فيها كل الزهور. وكانت أرضيته ملونة بالذهب، وكان « ... وشيه بفصوص ، وثمره بجوهر، وورقه بحرير وماء الذهب ، وكانت العرب تسميه القطف ... »[٥٨](***) وثار السؤال حينذاك عما يجب فعله بهذا الشيء الفاخر . ولو كان الموقف مختلفًا ، فربما كان قد استخدم لتزيين قصر الحاكم الجديد مثلما كان يزين قصر الحاكم القديم، والواقع أن بعض الناس اقترحوا أن يعطوه للخليفة عمر بن الخطاب ،

(*) الطبرى ، ج٤ ، ص١٧ . (المترجم)

(**) الطبرى، ج٤ ، ص١٧- ص١٨ . (المترجم)

(***) نفسه ، ج٤، ص٢٢ . (المترجم)

ولكن المسلمين الأوائل كانوا صارمين بشأن عدالة توزيع الغنائم . ولم يكن هناك بديل . وتم إرساله إلى الخليفة جزءًا من الخمس . وهناك تم تقطيعه فى عدد كبير من القطع المختلفة. وأخذ على بن أبى طالب ابن عم النبى الذى لم يشارك بنفسه فى الفتوح، قطعة باعها بعشرين ألف درهم ، ولاشك فى أن عددًا آخر من النخبة أخذوا أنصبتهم(٥٩)(*).

وبعد فتح المدينة جربت القوات البدوية الخشنة بنفسها عظمة الملكية الفارسية . ولم يكن رجال القبائل يعرفون بالكاد ماذا يفعلون بمظاهر الرفاهية التى جاءت إليهم. فقد ظن العرب أن الكافور الثمين الذى كان يُعطر البلاط هو الملح ، لأنهم لم يكونوا قد رأوه قط، فاستخدموه فى طهى طعامهم(٦٠).

وفى الوقت نفسه كان الحكم الفارسى يواجه تحديًا فى الريف كذلك . وتحكى إحدى القصص عن أحد رجال الفرسان الفرس من المدائن كان فى قرية مملوكة له عندما بلغته الأنباء بأن العرب غزوا البلاد وهروب الفرس . وفى البداية لم يُعرْ تلك الأنباء اهتمامًا ، لأنه كان رجلا واثقًا من نفسه تمامًا ، وواصل أعماله حتى وصل إلى منزل حيث وجد «بعض أعلاج له» يحزمون متاعهم ويستعدون للرحيل. وعندما سألهم أخبروه أن «الزنابير» طردتهم من بيوتهم. وتمثلت استجابته المباشرة فى محاولة حل المشكلة ؛ وطلب قوسًا وقطعًا من الطين ، وبدأ يقذفها صوب الحشرات مما جعلها تلوث الحوائط . ولابد أنه قدّر فى الحال أن هناك ما هو أكثر مما تراه العين، وأدرك أن عبيده يهربون من سيطرته، ففقد أعصابه . وأمر واحدًا منهم أن يسرج له مطية . ولم

(*) ما أخذه على والصحابة كان حسب قانون الفئ سورة الأنفال ، آية ٤١ ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الذى يقسم الغنائم إلى خمسة أنصبة، ولم يكن الأمر مجرد توزيع على أفراد النخبة كما قد يوحي النص الذى كتبه المؤلف ، وعلى أية حال، فإن المؤلف يعرف ما يكتبه جيدًا وهو على ألفة واضحة بالمصادر التاريخية العربية، وعلى بينة من التاريخ الإسلامى الباكر. (المترجم)

يمض بعيداً عندما قابله جندى عربى غرس رمحه فيه حتى مات[٦١]. ومن الواضح أن هزيمة الجيوش الفارسية كانت تعنى أن الطبقة الحاكمة الفارسية لم تعد تحظى بالاحترام وأن الفلاحين لم يعودوا يطيعون سادتهم. فقد كان النظام القديم يعانى سكرات الموت.

وبينما تراجعت القوات الفارسية صوب الجبال ، تحرك جيش المسلمين الذى كان قوامه حوالى اثنى عشر ألفًا صاعدا الطريق وراء هذه القوات . وعندما وصل الفرس إلى جلولاء ، قرروا التوقف . وكانت جلولاء مفترق طرق : فوراءها يوجد فرس أذربيجان ، والشمال الغربى يمضى فى طريق ، على حين تمضى ميديا وفارس فى طريق آخر. وإذا كان لهم أن يتوقفوا فقد كان ذلك هو المكان المناسب . وواصل الملك تحركه عبر جبال زاجروس، تاركًا الرجال والمال مع قائده مهراز ، على حين تجنب هو نفسه مواجهة العدو شخصيا . واتخذ الفرس موقفًا دفاعيًا فى جلولاء . وكما يحدث غالبًا ، يبدو أنهم فضلوا اتخاذ أسلوب دفاعى جامد فى الحرب، وحصنوا أنفسهم مع القيام بهجمات من حين لآخر ، على النقيض من أسلوب العرب الذى اتسم بقدر أكبر من الحركية . وفى جلولاء بنوا مكانًا من المتاريس والتحصينات الترابية على قمتها «حسك من الخشب» ذى القمم المدببة، ثم استبدلوه فيما بعد بقضبان من الحديد المدبب[٦٢]. ولم يبن المسلمون أية تحصينات ولكنهم شنوا هجمات متكررة على خصومهم. ووفقًا لإحدى الروايات تصدعت التحصينات عندما خرج الفرس للهجوم وفتحوا ثغرات فى الدفاعات لكى تسمح بعودة خيَّالتهم إلى الداخل مرة أخرى[٦٣]. وبسرعة كانت جماعة من العرب قد وطدوا أنفسهم داخل الحجاز وفتحوا الطريق لغيرهم حتى يلحقوا بهم. وكان النصر كاملاً والمذبحة مرعبة.

وكانت هناك غنائم أخذوها وقسَّموها . وبين أكثر الغنائم إثارة للانتباه كان تمثال «... ناقة من ذهب أو فضة موشحة بالدر والياقوت مثل الجفرة إذا وضعت على الأرض ، وإذا عليها رجل من ذهب موشح كذلك»[٦٤](*). وكانت هناك أيضا غنائم من النوع

(*) الطبرى، ج٤ ، ص٢٩ . (المترجم)

الآدمى. وتذكر أحد الجنود العرب كيف أنه دخل خيمة فارسية كان بها مرافق (وسائد) وثياب «... وإذا فُرش على إنسان فأنبشه، فإذا امرأة كالغزال فى حُسن الشمس ، فأخذتها وثيابها، فأديت الثياب، وطلبت فى الجارية حتى صارت إلىَّ فاتخذتها أم ولد»[٦٥](*). هكذا كانت متعة النصر ، ولم يكن ثمة ما يحرم الاستمتاع بها .

وقد أمَّن النصر فى جلولاء السيطرة العربية على أرض السواد . وتوغلت القوات الإسلامية شمالاً بعد قرقيسيا على نهر الفرات وتكريت على نهر دجلة . وكان السؤال الكبير هو ما إذا كان ينبغى أن يمضوا إلى أبعد من ذلك ، عبر ممرات جبال زاجروس إلى الهضبة الإيرانية وما وراءها.

وفى الوقت نفسه بينما كان يجرى غزو السواد، كانت القوات العربية تتوغل للمرة الأولى فى جنوب العراق. وجرت الأنشطة العسكرية هناك وفق النموذج الذى كان فى الشمال تقريبا ، فقد بدأت بغارات من جانب القبائل المحلية التى حاولت انتهاز فرصة ضعف الدفاعات الساسانية . وفى الحال أرسل عمر بن الخطاب ، قائدًا هو عُتبة بن غزوان ، من المدينة بالتعزيزات ، وربما كانوا عدة مئات قليلة من الرجال[٦٦]، لكى يضمن أن أية مكاسب تم تحقيقها تكون تحت سيطرة القيادة الإسلامية. ونعرف أيضا أن الحملة كانت جزءًا من استراتيجية إسلامية أوسع فى مداها ، لشغل انتباه الفرس فى جنوب العراق وفارس عن مساعدة مواطنيهم فى الشمال[٦٧]. وكان أول فتح كبير يحرزوه مدينة أُبُله . وكانت فى ذلك الوقت ميناء على رأس الخليج . ولا نعرف سوى القليل من المعلومات وتفاصيل الفتح باستثناء أن العرب وجدوا نوعًا جديدًا من الخبز يصنع من الدقيق الأبيض هناك.

ومن هذه القاعدة خرجت الحملات العسكرية لفتح البلدات والقرى القريبة. وكالعادة لدينا تفاصيل كثيرة ولكن ليست لدينا صورة شاملة. وكانت المقاومة الفارسية مقصورة على الحاميات المحلية والدهاقين ولم تكن هناك أية محاولة لشن حملة كبيرة

(*) نفسه، ج٤، ص٢٧ . (المترجم)

ضد الغزاة. وبينما كانت النواحى المختلفة تدخل تحت سيطرة المسلمين، كان يتم جمع الضرائب وتوزيعها فيما بين الجيوش الغازية. وكان عدد قليل جداً من البدو يستطيعون القراءة والكتابة وعهدت مهمة حفظ الحسابات إلى شخص يُدعى زياد على الرغم من أنه كان صبيًا . وكان يُمنح راتبًا أساسيًا قدره درهمان فى اليوم مقابل ذلك : وكانت تلك بداية حياة إدارية لامعة وكبر الصبى زياد ليكون واحداً من مؤسسى الجهاز الحكومى الإسلامى.

وبعد وفاة عُتبة وهو عائد من الحج ، خلفه المغيرة بن شُعبة . وقد رأينا بالفعل المغيرة الرجل الذى جرؤ على الجلوس مع رستم على عرشه . وقد اختاره عمر بن الخطاب ليقود المسلمين فى جنوب العراق ؛ لأنه لم يكن بدويا ولكنه كان من مناطق الحضر فى الحجاز. وعلى الرغم من أنه كان قد اعتنق الإسلام قبل عامين فقط من وفاة النبى، فإنه كان يعد من الصحابة . وكان المغيرة قائداً صلبا داهية ولكن حياته العملية لم تلبث أن تعرضت لفضيحة كادت تودى بحياته .

فقد بدأ علاقة مع امرأة اسمها أم جميل ، كانت متزوجة من رجل من قبيلة ثقيف وعرف رجال آخرون من أبناء القبيلة بالعلاقة وعقدوا العزم على الحفاظ على شرف قريبهم. وانتظروا حتى ذهب لزيارتها وزحفوا ليروا ماذا حدث . وشاهدوا المغيرة وأم جميل وكلاهما عار من ثيابه وهو راقد فوقها . وتسللوا وذهبوا يخبرون الخليفة عمر بن الخطاب. وقام بدوره ليعين أبو موسى الأشعرى الذى عرف بصلاحه لكى يذهب ويتولى القيادة فى البصرة ويرسل المغيرة بن شعبة إليه فى المدينة لكى يتم التحقيق معه . وعندما وصل واجهه عمر بالشهود الأربعة . وكان الأول متأكداً مما رآه « ... فشهد عليه أنه رآه بين رجلى أم جميل وهو يدخله ويخرجه كالميل فى المكحلة»(*). وشهد الاثنان الآخران الشهادة نفسها . وعندئذ تحول عمر إلى الشاهد الرابع ، الشاب زياد، الذى كان قائمًا بالفعل على حسابات الجيش . وكان الخليفة يأمل ألا تؤدى هذه الشهادة إلى

(*) الطبرى، ج١ ، ص٧١ .

رجم أحد الصحابة حتى الموت . وقد أظهر زياد موهبة دبلوماسية وسرعة بديهة خدمته تمامًا بقية حياته ، إذ قال : «رأيته جالسًا بين رجلى إمرأة ، فرأيت قدمين مخضوبتين تخفقان ، واستين مكشوفتين ، وسمعت حفزانًا شديدًا . قال هل رأيت كالميل فى المكحلة ؟ قال : لا ، قال : فهل تعرف المرأة ؟ قال : لا ، ولكن أشبّهها ، قال : فتنح، وأمر بالثلاثة فجلدوا الحدّ ، وقرأ : ﴿ لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾(*) فقال المغيرة اشفنى من الأعبد، فقال اسكت، أسكت الله نأمتك أما والله لو تمت الشهادة لرجمتك بأحجارك»(**)(٦٩).
وغالبًا ما كرر الفقهاء المسلمون القصة ، لأن الخليفة العظيم عمر، أهم المشرعين بالنسبة للسنة بعد النبى نفسه، هو الذى جعل الإدانة بالزنا فى هذه الحال أمرًا إشكاليًا للغاية فى الواقع.

وعندها تقرر أن يتولى أبو موسى الأشعرى، التقى الكفء ، قيادة التقدم الإسلامى فى الجنوب، وكان هو قائد الجيوش الإسلامية التى فتحت خوزستان. وبعد أن عبرت هذه الجيوش الأرض المروية حول نهر الفرات الأدنى، حيث تأسست مدينة البصرة بعد فترة وجيزة، كان من الطبيعى أن تتقدم صوب خوزستان وتدخلها . وتقع خوزستان ، التى اشتق اسمها من شعب الخوز القديم الذى اختفى منذ زمن طويل ، بين الركن الشمالى الشرقى من الخليج وجبال زاجروس الجنوبية . وكانت تلك أرض العلاميين القدامى ، والهيكل الآشورى الهائل على تل الزنبيل (شوجا زنبيل) ، والذى كان عمره قد بلغ ألفى سنة بالفعل وقت الفتح الإسلامى، والذى لا يزال باقيًا ليشهد على قوتهم وثرائهم . وكانت الأرض فى كثير من أجزاء المنطقة من عدة وجوه استمرارا لسهل ما بين النهرين، ولكن عندما ترتفع الأرض ببطء تجاه سفوح التلال، يتغير الانبساط اللانهائى لأرض العراق ليتحول إلى تلال منحدرة وتبدو للعيان نتوءات الصخور .

(*) سورة النور : آية ١٣ .
(**) الطبرى ، ج٤ ، ص٧٢ .

وفى أيامنا هذه ، فإن خوزستان ، بعاصمتها غير المحبوبة ، الأهواز ، مركز صناعة البترول فى إيران، ولكن عندما وصل العرب كانت الزراعة وصناعة النسيج قد جعلا المنطقة واحدة من أكثر المناطق ازدهارًا فى الشرق الأوسط.

وتروى خوزستان ، ليس فحسب من نهرى دجلة والفرات ، اللذين يفيضان ويتوقفان عبر السهول الواقعة إلى الغرب، وإنما هناك أيضا عدد من الأنهار الصغيرة ، أهمها قارون، الذى يسير فى مجرى متعرج ملتو عبر التخوم فى جبال زاجروس الجنوبية حتى يصل إلى السهل . وتوفر الثلوج الذائبة على الجبال ما يكفى من الماء لرى الزراعات . وفى السفح أسفل الجبال المنحدرة تشق الأنهار مجاريها بعمق فى التلال المنحدرة ، وكان لا بد من بناء سدود كبيرة لرفع مستوى المياه لملء قنوات الرى. وبعض هذه السدود، مثل السد والقنطرة اللذين بناهما الساسانيون فى تُستَر ، تركت من آثارها ما يكفى لبيان المعدل الضخم لنشاط الرى هناك .

ويبدو أن رخاء خوزستان قد تزايد إلى درجة كبيرة فى العصور الساسانية. إذ إن المدن مثل تُسْتُر وجنديسابور، والأهواز قد أنشئت أو تم توسيعها . وكان الأرز والسكر ينموان بشكل جيد هناك ولكن المنطقة استمرت شهرتها من زراعة الكتان والقطن فى المحل الأول . كما كانت هناك جماعة مسيحية كبيرة وتم تأسيس عدد من الأسقفيات . وكان أن تقدمت القوات العربية فى هذه المنطقة المزدهرة المأهولة بالسكان فى المرحلة التالية.

ومثل تاريخ فتح العراق، لا يتسم مسار فتح خوزستان بالوضوح التام ، كما أن القصص الكثيرة حول مختلف المواجهات والمعارك تزيد من الفوضى بدلاً من أن تحدَّ منها. وعلى أية حال ، هناك اختلافان . أولهما أننا يمكن أن نحصل على فكرة واضحة كثيرا عن البيئة المادية للفتوح . ذلك أن مدن وبلدات العراق فى القرن السابع لاتعنى شيئا بالنسبة لنا أكثر من الأسماء التى تحملها إلا قليلاً . حقًا ، لدينا فكرة ما عن طبوغرافية طيسفون (المدائن) وبعض الحفائر المتناثرة فى الحيرة ، ولكن بلدات مثل أوبلا والقادسية قد اختفت تمامًا ، وابتلعت فى طمى وسط العراق أو اكتسحتها المياه

فى المجارى المائية دائمة التغير . وفى خوزستان ، حيث تحفر الأنهار فى الصخر بدرجة أعمق ، هناك قدر أكبر كثيراً من الاستمرارية ويمكن أن نستخدم الطبوغرافية الحديثة لتساعدنا فى تفسير المصادر القديمة . ولدينا أيضا مصدر محلّى كتب بعد أحداث الفتح بوقت قصير ، وهو بمثابة نوع من الضبط للروايات العربية الكثيرة المرتكبة . وقد كتبت المؤرخة المسماة «تاريخ خوزستان» باللغة السوريانية، لغة الكنيسة الشرقية ، ألفها كاتب مسيحى مجهول(٧٠). ومعظم المؤرخة موجز للغاية ولكن المؤلف، أو أحد المؤلفين، يفرد مكانًا لوصف فتح بلاده على أيدى هؤلاء الغزاة الجدد . ويوفر المصدر صوتًا آخر ، يؤكد الكثير من الأحداث الواردة فى المصادر العربية، وهكذا يمكننا أن نتأكد بشكل معقول من الخطوط الرئيسية لتاريخ فتح هذه المنطقة.

وكان قد تم إسناد مهمة الدفاع عن خوزستان إلى القائد الهرمزان ، الذى كان قد ذهب إلى المقاطعة بعد سقوط المدائن . وقد قاد مقاومة حازمة بروح عالية ، وكان يعقد المعاهدات حين يكون ذلك مناسبًا له، ولكنه كان أيضا يتحدى العرب عندما كان يشعر أنه قوى بما يكفى لمواجهتهم.

ويبدأ كاتب المؤرخة ليبين كيفية استيلاء الغزاة على معظم المدن الحصينة بسرعة شديدة، بما فى ذلك مدينة جنديسابور الرئيسية. وكانت جنديسابور مدينة بها أسقفية وعدد كبير من السكان المسيحيين ، واشتهرت بكونها موطن عائلة بختشيوع من الأطباء، الذين خدموا أجيالاً من الخلفاء. ومن المحزن ، أن فكرة قيام مدرسة طبية مزدهرة فى فى هذه المدينة ، التى كانت تسلية للمؤرخين منذ القرن التاسع عشر ، قد تم التخلى عنها بفعل النظرة الفاحصة للبحث الحديث : ومن المؤكد أن الجماعة المسيحية فى هذا المكان قد أخرجت عائلات من الأطباء، بيد أنه لم تكن هناك أكاديمية منظمة. وموقعها مهجور الآن، ولكن التصوير الجوى يُظهر آثارًا لمدينة مستديرة ومدينة مربعة على السواء، ذلك أن الأساسات الساسانية تطغى على كل منهما الأخرى. ولم تكن هناك أية دفاعات طبيعية ويبدو أن المسلمين واجهوا صعوبة قليلة فى الاستيلاء على المدينة.

ويقدم فتح المدينة فى سياق واحدة من تلك الحكايات الأخلاقية التى تسعى إلى بيان فضائل المسلمين الأوائل . ووفقًا لهذه القصة[٧١] التى تقول إن المدينة قاومت بضراوة «... فلم يفجأ المسلمين إلا وأبوابها تفتح، ثم خرج السرّح، وخرجت الأسواق ، وانبث أهلها، فأرسل المسلمون: أن ما لكم ؟ قالوا : رميتم إلينا بالأمان فقبلناه ، وأقررنا لكم بالجزاء على أن تمنعونا . فقالوا : ما فعلنا ، فقالوا : ما كذبنا ، فسأل المسلمون فيما بينهم ؛ فإذا عبد يدعى مُكنفًا كان أصله منها، هو الذى كتب لهم . فقالوا : إنما هو عبد، فقالوا إنّا لانعرف حركم من عبدكم ، قد جاء أمان فنحن عليه قد قبلناه ، ولم نبدل ، فإن شئتم فاغدروا : فأمسكوا عنهم، وكتبوا إلى عمر، فكتب إليهم إن الله عظّم الوفاء، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا ، ما دمتم فى شك أجيزوهم، وفوا لهم. فوفوا لهم، وانصرفوا عنهم»(*). والمبدأ الأخلاقى واضح : حتى الوعد الذى يبذله عبد ينبغى احترامه.

ويستمر المؤلف المسيحى ليقول إنه سرعان ما لم يصمد سوى السوس (سوسا) وتُسْتَر. وكان سوسا أحد مواطن الحكام الأخمينيين العظام فى إيران القديمة؛ وكانت قصورها تنافس قصور برسبوليس فى الحجم والعظمة . وقد نهبها الإسكندر الأكبر ، ونهب ثرواتها الرائعة ، وفيها رتب حفل الزفاف الشهير، حيث تزوج عشرة آلاف من الإغريق والفرس على نحو أسطورى. وفيما بعد، فى العصور الساسانية صارت مركزًا مسيحيًا مهمًا، ونتيجة لهذا دمرها الملك الساسانى سابور الثانى (٣٠٩-٣٩٧م) الذى انتهج سياسة نشطة ضد المسيحيين . وبمرور الزمن تعافت بالقدر الكافى لأن تبدى قدرًا من المقاومة تجاه الفتح الإسلامى، وفيما بعد بنى بها المسلمون واحدًا من أوائل المساجد المعمرة فى إيران. واليوم، تتحكم فى الموقع قلعة ، لم يشيدها أحد حكام العصور الوسطى، وإنما أقامتها بعثة أثرية فى نهاية القرن التاسع عشر لحماية أفرادها من هجمات البدو. وعلى أية حال، فإنه بالنسبة للمسلمين الأوائل كانت أهم ملامح المدينة جدارة بالملاحظة لا التراث الأخمينى بها أنها كانت محل قبر النبى دانيال .

(*) الطبرى، ج٤ ، ص٩٣- ص٩٤ . (المترجم)

وقد استولى المسلمون على المدينة بعد أيام قليلة وقتلوا جميع النبلاء الفرس بها. وفى المصادر العربية يوصف سقوط المدينة باعتباره نوعاً من المعجزة(٧٢). ومن الواضح أن الرهبان النصارى والقساوسة كانوا قد ظهروا على شرفات الأسوار يسخرون من المسلمين قائلين إن أحداً لايمكنه أن يستولى على سوسا ما لم يكن المسيح الدجال بينهم. واستمروا فى القول إنه إن لم يكن المسيح الدجال بينهم ، فعلي المهاجمين ألا يتعبوا أنفسهم وعليهم أن ينصرفوا فى الحال . وفى نوبة غضب وإحباط ، قام أحد القادة المسلمين متسلقا إحدى البوابات وفتحها. وفى الحال انقطعت السلاسل ، وانكسرت الأقفال ، وانفتحت البوابة على مصراعيها. ولم يكن بوسع السكان أن يستجدوا الصلح.

كما أنهم استولوا على «بيت مار دانيال» وأخذوا الكنز الذى كان محفوظاً هناك بأمر من الملوك الفرس منذ أيام داريوس وقيرس ، وهو مثال آخر على فتح كنوز الأحجار الثمينة التى غالباً ما كان يصاحب الفتوح الإسلامية . كما أنهم فتحوا الكفن الفضى وحملوا معهم الجسد المحنط فى داخله : «وقيل ... هذا جسد دانيال فى هذه المدينة، قال : وما لنا بذلك ...» وكان دانيال يحظى بتبجيل كثير ويقال إن الإمبراطور هرقل كان قد حاول أن يأخذ جسده ليضمه إلى مجموعته الكبيرة من الذخائر المقدسة فى القسطنطينية. ولايظهر دانيال فى صفحات القرآن الكريم، بخلاف شخصيات العهد القديم الأخرى ويبدو أن ردة الفعل الأولى من جانب المسلمين كانت تتجه إلى تدمير هذه العبادة، فقد أمر الخليفة عمر بن الخطاب بدفن الجثمان أسفل مجرى النهر . وكان المسلمون قد نزعوا الخاتم المنقوش، الذى كان يحمل صورة رجل بين أسدين عن الجسد، وأمر عمر بن الخطاب بإعادته(٧٣). ولكن سرعان ما صار دانيال شخصية مبجلة لدى المسلمين أيضا. وبدأ المسلمون يزورون الموضع ومقبرة دانيال لا تزال موجودة فى قلب المدينة، وهى قبة بيضاء عالية تطل على النهر. وهذا مثال باكر جداً على الكيفية التى هدَّل بها الإسلام عبادة كانت موجودة قبله وصبغها بالصبغة الإسلامية.

ومع سقوط السوس (سوسا) ، لم يتبق سوى تُسْتر. وكانت المدينة تقع على نتوء صخرى إلى جوار النهر وكانت تحميها قلعة ، لا تزال بقاياها قائمة . وكان على النهر سدٌ وجسر، وكلاهما من المشروعات الهندسية الضخمة يقال إن الأسرى الرومان الذين كان قد تم أسرهم بعد أن هزم الملك سابور الأول ڤاليريانوس سنة ٢٦٠م هم الذين بنوهما . وهما معروفان حتى يومنا هذا باسم بندى قيصر، أى سد قيصر ، واعتبرهما الكتاب العرب بمثابة إحدى عجائب الدنيا ؛ ولا يزال الكثير منهما باقيًا . وخلف السد تم حفر نفقين فى الصخر الذى قامت المدينة عليه لتوصيل المياه لرى المزيد من الحقول فى الجنوب . وتصف مؤرخة خوزستان هذا السد وصفا تفصيليا : «شوشترا (تُستر) هذه واسعة وقوية جدًا ، بسبب الأنهار العظيمة والقنوات التى تحيط بها من كل جانب مثل الخنادق المائية . وكانت إحدى هذه القنوات تسمى أردشيرجان باسم الملك الساسانى أردشير الذى حفرها . وقناة أخرى، كانت تعبرها سميت «سميرام» باسم الملكة وثالثة اسمها داريجان على إسم داريوس . وأكبر هذه القنوات كانت عبارة عن سيل جارف تفيض نازلة من الجبال الشمالية».

وقرر الهُرمزان أن تكون وقفته الأخيرة هنا، وحسبما تروى المؤرخة الخوزستانية ، صمدت تُسْتر على مدى سنتين . وفى النهاية كانت الخيانة لا القوة العسكرية هى التى أدت إلى سقوط المدينة؛ ذلك أن رجلين لهما منزلان على أسوار المدينة تآمرا مع العرب: فى مقابل ثلث الغنائم وأتاحا لهم الدخول إلى المدينة[٧٤]. ووفقًا لهذا الاتفاق تم حفر الأنفاق تحت أسوار المدينة وتمكن العرب من الدخول إلى الأسوار من خلالها . وتقهقر الهُرمزان إلى القلعة وتم أسره حيًا ، ولكن واحدًا من الأساقفة المحليين قتل «قتل ومعه عدد من الطلاب والقساوسة والشمامسة» .

وقصة فتح خوزستان بها مقطع ختامى غريب يتمثل فى الروايات عن مصير الهُرمزان[٧٥]. ومثلما كان الحال مع رستم الحكيم المتشائم ، القائد المهزوم فى القادسية ، تم تفصيل شخصية الهرمزان لتوضيح نقاط بعينها عن الفروق بين العربى والفارسى، بين المسلم وغير المسلم وما يربط بين الاثنين . فبعد استسلامه فى تُسْتر تم إحضاره إلى المدينة لكى يمثل أمام الخليفة. وقبل أن يدخل المدينة برفقة القوة التى

تحرسه ؛ ألبسوه ثيابه الفاخرة الموشاة بالقصب والذهب وتاجًا مرصعًا بالياقوت . ثم اقتادوه فى الشوارع بحيث يتمكن الجميع من رؤيته . وعلى أية حال ، فإنهم عندما وصلوا إلى بيت عمر بن الخطاب، وجدوا أنه لم يكن هناك، ولذلك ذهبوا يبحثون عنه فى المسجد ولكنهم لم يجدوه هناك أيضًا . وأخيرًا مروا بمجموعة من الصبية يلعبون فى الطريق، أخبروهم أن الخليفة نائم فى ركن من المسجد وعباءته مطوية تحت رأسه بمثابة وسادة.

وعندما عادوا إلى المسجد وجدوه على الحال التى ذكرها الصبية . وكان قد انتهى لتوه من استقبال وفد من الكوفة، وعندما غادروا ، تمدد ببساطة لكى يغفو قليلاً . ولم يكن بالمسجد أحد سواه . وجلسوا على مسافة قصيرة منه. وسأل الهرمزان أين حرسه ومن يقومون على خدمته ولكنهم أخبروه أنه ليس لديه حرس أو خدام « ... قال: فينبغى له أن يكون نبيًا ، فقالوا : بل يعمل عمل الأنبياء، وكثُر الناس؛ فاستيقظ عمر بالجلبة ، فاستوى جالسًا ، ثم نظر إلى الهرمزان ، فقال : الهُرمزان ؟ قالوا : نعم فتأمله، وتأمل ما عليه ، وقال : أعوذ بالله من النار، وأستعين الله ... فقال الوفد : هذا ملك الأهواز فكلِّمْه ، فقال : لا، حتى لايبقى عليه من حليته شىء، فرمى عنه بكل شىء عليه إلاَّ شيئا يستره، وألبسوه ثوبًا صفيقًا ...»(*).

وسأل عمر بن الخطاب الهرمزان عن رأيه فى تحول الأحداث على هذا النحو، وأجابه الفارسى بقوله: « ... يا عمر إنا وإياكم فى الجاهلية كان الله قد خلَّى بيننا وبينكم ، فغلبناكم إذْ لم يكن معنا ولا معكم ، فلما كان معكم غلبتمونا . فقال عمر: إنما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا »(*). وكان عمر بن الخطاب ميالاً إلى إعدامه انتقامًا للمسلمين الذين قتلهم. وطلب الهُرمزان بعض الماء ولما أعطى الماء قال إنه يخشى أن يُقتل وهو يشرب . وأجاب الخليفة بأنه لن يقتل قبل أن يشرب الماء ، وعندها « ... فقال : لاحاجة لى فى الماء، إنما أردت أن أستأمن به ، فقال له عمر : إنى قاتلك ، قال : قد أمنتنى، فقال : كذبت . فقال أنس(*): صدق يا أمير المؤمنين قد آمنته ، قال:

(*) الطبرى، ج٤ ، ص٨٧- ص٨٨ . (المترجم)

ويحك يا أنس ، أنا أؤمن قاتل مجزأة والبراء» وفى النهاية، اعتنق الإسلام ، وسُمح له بالحياة فى المدينة ومُنح معاشًا طيبًا . وربما تكون حيلة الهُرمزان موضوعًا فولكلوريًا تم تطعيمه بالأحداث التاريخية ، ولكنها تفى بالغرض منها لبيان التناقض بين التفاخر والرفاهية الفارسية والبساطة الإسلامية، وأمانة المسلمين ودمج عناصر النخبة الفارسية فى التراتبية الإسلامية.

وكان هناك ملمح لافت للنظر فى فتح العراق، وهو ملمح قد ساعد المسلمين بالتأكيد، تمثل فى انتقال أعداد كبيرة من القوات الفارسية إلى الجانب العربى وقد رحب العرب بضم هؤلاء فى جيوشهم ودفعوا لهم الرواتب . ومن بين هؤلاء كان الحمراء(٧٦)، وكان بعضهم قد انضموا إلى المسلمين قبل معركة القادسية وشاركوا فى تقسيم الغنائم التى كان قد تم أخذها من رفاق السلاح القدامى(٧٧). وانضم آخرون إليهم فيما بعد وحاربوا فى صفوف الجيش فى جلولاء. ومن بينهم كان أربعة آلاف رجل من جبال الديلم ، فى الركن الجنوبى الشرقى من بحر قزوين، ويبدو أنهم كانوا وحدة نخبة من الجند فى جيش الشاهنشاه . واستقر كثير منهم فيما بعد بمدينة الكوفة الإسلامية الجديدة ، حيث كان لهم حى خاص بهم(٧٨).

وثمة طائفة أخرى من الذين انضموا إلى المسلمين كانوا هم الأساورة(٧٩)، وهم جماعة مؤلفة من ثلاثمائة من الخيالة ثقيلى التسليح ، وكثير منهم من أصول أرستقراطية . وكان يزدجرد الثالث قد أرسلهم أمامه باعتبارهم طليعة حرسه عندما غادر العراق فى طريقه إلى إيران ولكن، ربما بسبب عدم ثقتهم فى قيادته، انتقلوا إلى الجانب المسلم واستقروا فى البصرة(٨٠). وشأنهم شأن الحمراء فى الكوفة حصلوا على مكانة متميزة فى القوات المسلمة .

كان المسلمون آنذاك قد فتحوا بلادًا شاسعة غنية . كان عددهم صغيرًا ، ربما لم يكن يزيد على خمسين ألف رجل ، وسط سكان عددهم أكثر بكثير . وكانت المسألة التى واجهتهم كيف سيحتفظون بها ويستغلون مواردهم . ففى أعقاب النصر الذى تحقق فى العراق ، استقر المسلمون فى مدينتين بنيتا بهذا القصد ، وهما الكوفة والبصرة . وتخبرنا المصادر أن عمر بن الخطاب أمر المسلمين ألا يتفرقوا فى المدن الصغيرة

وريف العراق ، ولا يعودوا إلى حياة البداوة فى الصحراء القريبة. وبدلاً من ذلك كان عليهم أن يتجمعوا سنويًا فى المدن المشيدة حديثًا ، التى كانت موطنًا وقواعد عسكرية بالنسبة لهم .

ونحن نعرف عن تأسيس الكوفة معلومات أكثر بكثير مما نعرفه عن تأسيس البصرة وقد روى سيف بن عمر رواية كاملة عمّا فعلوه ولماذا فعلوه . فبعد سقوط العاصمة الفارسية المدائن مباشرة، كان جيش المسلمين قد استقر، أو بالأحرى عسكر، هناك ، على حين خرجت الحملات شرقًا إلى حلوان عند سفوح جبال زاجروس وشمالاً من القادسية على نهر الفرات. وقيل إن المناخ فى العاصمة الفارسية القديمة لم يكن صحيًا. وتخبرنا المصادر أن عمر بن الخطاب لاحظ أن العرب العائدين من هناك يبدون منهكين. وعلاوة على ذلك، كانت أوزانهم تزيد وعضلاتهم ترتخى. وسأل أحد العرب حين وصل إلى الموقع: «هل تصلح بها الإبل؟ قالوا: لا، إن بها البعوض، قال: قال عمر: إن العرب لا تصلح بأرض لا تصلح بها الإبل ... قال : فخرج عمّار بالناس نزل الكوفة(*).

وأرسلوا رجلين للبحث عن موضع على حواف الصحراء. وأخذ كل منهما يبحث منفصلاً على امتداد الفرات من الأنبار جنوبا حتى تلاقيا فى مكان يسمى الكوفة(**)، قرب الحيرة شمالاً. وهناك وجدا ثلاثة أديرة مسيحية صغيرة ، وأكواخ من القصب فيما بينها ، « ... فأعجبتهما البقعة ، فنزلا فصليا ، وقال كل واحد منهما: اللهم رب السماء وما أظلت ، ورب الأرض وما أقلت ، والريح وما ذرت ، والنجوم وما هوت، والبحار وما جرت ، والشياطين وما أضلت ، والخصاص وما أجنت ، بارك لنا فى هذه الكوفة ، واجعله منزل ثبات»(***).

(*) الطبرى، ج٤ ، ص٤١ . (المترجم)

(**) الكوفة هى الأرض التى يختلط بها الحصباء والرمل. الطبرى، ج٤ ، ص٤١ . (المترجم)

(***) النص من الطبرى، ج٤ ، ص٤١ . وقد تغاضيت عن النص الذى أورده المؤلف لأنه يختلف كثيرا عن النص الأصلى؛ إذ إن الترجمة الحرفية لكلام المؤلف هى: «... وتلى أحدهما قصيدة تلفت النظر بسبب ما يبدو أنه أيقونتها الوثنية». وكما يبدو من نص الطبرى ، ليست هناك قصيدة ، كما أنه ليس هناك ما يمت إلى الوثنية بصلة . (المترجم)

وجاء سعد من المدائن ، ومن الواضح أنه قرر أن هذا سيكون مكان بناء المدينة، وقد شرح مزاياها لعمر بن الخطاب على هذا النحو : «إنى قد نزلت بكوفة منزلاً بين الحيرة والفرات بريًا بحريا ، ينبت الحلى والنِّصى (نوع من العشب الصالح للرعى) ، وخيِّرت المسلمين بالمدائن، فمن أعجبه المقام فيها تركته كالمسلمة، فبقى أقوام من الأفناء ، وأكثرهم بنو عَبس»(*).

هذه، على الأقل، قصة كيفية اختيار المكان حسبما ورد ذكره فى تاريخ الطبرى. وربما لا يكون الكلام قد نُطق على الصورة التى ورد بها أبدًا ولكن الدوافع مقنعة . وربما كانت المدائن غير صحية بالنسبة للبدو وحيواناتهم وقد وفرت الكوفة لهم مراعى أفضل كثيرًا. ومن المحتمل أنه كانت هناك اعتبارات أخرى كذلك. وكان أحد هذه الاعتبارات الحاجة إلى الحفاظ على الاتصالات الجيدة مع المدينة المنورة ، ولكن ربما كان أهم الاعتبارات الإبقاء على المسلمين معًا ، بحيث يمكن التعامل معهم والحفاظ على فعاليتهم العسكرية، بدلاً من رؤيتهم يتبعثرون ويفقدون تماسكهم .

وقد اختار معظم المسلمين فى المدائن الانتقال إلى الموضع الجديد، وافترض أحد الباحثين أن السكان الذكور البالغين فى المرحلة الأولى من نمو المدينة كانوا حوالى عشرين ألفا، وهو ما يبدو معقولاً[٨٢]، على الرغم من أن هذا الرقم سرعان ما تم ابتلاعه فى خضم موجات المهاجرين الجدد من شبه الجزيرة العربية ، الذين كان يحدوهم الأمل فى الحصول على نصيب من العمل. ويقال إنهم جلبوا معهم أبواب دورهم لتركيبها فى مساكنهم الجديدة، مع ما جلبوه من بقية ممتلكاتهم . وتم بناء البيوت الأولى من الأقصاب المحلية ولكن بعد أن دمرت إحدى الحرائق الكثير من هذه المنازل ، طلبوا الإذن من عمر بن الخطاب لكى يبنوا بالطوب اللبن . وأذن لهم بذلك شريطة أن لايبنى أحدهم بيتا يضم أكثر من ثلاث حجرات وألا تكون المبانى شديدة الارتفاع : ومرة أخرى نرى التأكيد على التواضع والمساواة بين المسلمين .

(*) الطبرى، ج٤ ، ص٤٢ . (المترجم)

وتم تخطيط المدينة الجديدة بقدر من العناية على يد رجل يدعى أبو الهيَّاج ؛ الذى يبدو أنه كان أول مخططى المدن المسلمين . فقد خرجت الطرق من النقطة المركزية ، وتوطن الرجال فى جماعاتهم القبلية على امتداد هذه الطرق بحيث تم توطين الرجال من مختلف القبائل فى المنطقة نفسها، فى البداية على الأقل. ولا بد أن هذه الطريقة قد عززت التضامن القبلى وزادت من المنافسات القبلية . ويقال إن عمر بن الخطاب هو الذى قرر عرض الشوارع: عشرون مترًا للطرق الرئيسية ، وعرض الشوارع الجانبية خمسة عشر مترًا أو عشرة أمتار ؛ أما الحارات الأصغر فكان عرضها ثلاثة أمتار ونصف ولايجب أن يكون عرض أى ممر أقل من ذلك[٨٣]. كانت هذه مدينة تم تخطيطها بوضوح ولم تكن كتلة متشابكة من الحارات حيث يستقر الناس ويبنون حسب هواهم .

وفى المنتصف كان هناك ما يمكن وصفه بأنه مركز المدينة. وكان أول مبنى تم تشييده المسجد الذى يقع فى وسط ميدان مفتوح . وتم استدعاء أحد رماة السهام الأقوياء فى المركز ليطلق السهام فى كل اتجاه : وسُمح للناس بأن يبنوا بيوتهم بعد الأماكن التى سقطت فيها السهام. وتركت المنطقة الداخلية من الميدان لتكون ساحة يتقابل فيها الناس .

ويبدو أن المسجد نفسه كان مربع الشكل، وكان طول كل ضلع من أضلاعه مائة متر فى كل اتجاه[٨٤]. ويقال إن المسجد فى مرحلته الأولى لم تكن له حوائط على الجوانب وكانت هناك تغطية جزئية فى أحد الجوانب . وربما كان قد بُنى على هيئة بسيطة للغاية من القصب أو الطوب اللبن . وإذا ما جلست بداخله أمكنك أن ترى دير هند المسيحى المجاور ، وعلى مسافة أبعد كانت البوابة التى تؤدى إلى الجسر المصنوع من القوارب عبر النهر[٨٥]. وبعد بناء قصر الوالى بوقت قصير سرقت الخزانة فقرر سعد أن يمد المسجد حتى القصر بحيث يكون الحائط بينهما مشتركا . وحقيقة أن المسجد كان يرتاده الناس ليلاً ونهارًا كانت بمثابة أفضل حماية ضد السرقة . هذا المسجد الجديد ربما كان أكثر متانة. ففى أحد أطرافه كانت توجد مساحة مسقوفة طولها حوالى مائة متر «سماؤها كأسمية الكنائس الرومية» ، ويفترض أن المقصود

بهذا الدعامات الأفقية المفتوحة تسندها أعمدة من الرخام[٨٦] ويقال إن الأعمدة جاءت من كنائس مسيحية[٨٧]. ولم يحدث حتى ولاية زياد ، فى زمن معاوية بن أبى سفيان أول الخلفاء الأمويين، أن تم بناء أسوار حول المسجد . وقد عملت أعمدة جديدة ارتفاعها خمسة عشر مترًا من الأحجار المجلوبة من الأهواز بمراكز من الرصاص ومثبتات من الحديد .

وإذا كان المسجد يمثل البساطة بحد ذاته ، فإن القصر كان مبنى أشد تعقيداً وصار موضوعًا لنزاع شديد . ويحكى سيف بن عمر القصة التى نقلها عنه الطبرى[٨٨]. ووفقا لروايته بنى القلعة لسعد فارسى من همذان اسمه «روزبه بن جمهر» ، وقد بنيت من الآجر المأخوذ من قصر قديم لملوك الحيرة قبل الإسلام . ولأن القصر يقع فى مركز المدينة، التى كانت تعج بالضجة الشديدة والهياج ، فإن سعد أمر بصنع باب خشبى يغلق عليه. وعندما سمع الخليفة عمر بن الخطاب بذلك، أرسل رجلاً ليحرق الباب، موبخًا سعد لأنه وضع حاجزًا بينه وبين المسلمين العاديين، مما يحول بينهم والدخول وقتما يشاؤون . والقصة جزء من أدب الجدل الهجومى ضد الحكام الذين حاولوا فصل أنفسهم عن عامة المؤمنين أو فوقهم. وربما تكون قصة أن قصر سعد كان مبنيًا من الطوب المستعمل حقيقية على أية حال[٨٩].

كان مسجد الكوفة البدائى يقع فى الموقع نفسه الذى يقوم فيه مسجد المدينة الحديث. كان هذا هو المكان الذى تم فيه اغتيال الخليفة على بن أبى طالب سنة ٦٦١م، ومنذ زمن طويل كان محل تبجيل الشيعة، ولذلك لم يكن ممكنًا القيام بأية حفائر أثرية . وعلى أية حال ، كانت هناك حفريات للكشف عن القصر فى خمسينيات وستينيات القرن العشرين. وتم التحقق من ثلاث مراحل فى البناء ، كلها فوق بعضها مرحلة باكرة ، مرحلة أموية ، ومرحلة عباسية . وبحلول القرن التاسع الميلادى / الثالث الهجرى ، هُجر المبنى أساسًا وشغله من وضعوا أيديهم عليه. وقد تمت إزالة المرحلة الأولى حتى الأرض عندما بنى المبنى الأموى الثانى. وكل تلك البقايا خارج أسوار القصر لها شرفات محصنة مربعة صغيرة تبرز على مسافات منتظمة . هل كانت هذه

أساسات قصر سعد، حسبما ظن الأثرى الذى كشف عنه أو المبنى الذى بناه زياد بعد جيل فى بداية الفترة الأموية، حسبما اعتقد المؤرخ الرئيسى للمدينة ؟ من المستحيل الإجابة على هذا السؤال .

وعلى أية حال، يمكننا أن نكون متأكدين من أنه فى غضون جيل من تأسيس المدينة، كانت تضم اثنين من المبانى العامة، الجامع والقصر، اشتركا فى حائط بينهما. وهكذا تأسس التخطيط العمرانى المركزى التقليدى للمدينة الإسلامية ، ولانظير له فى العمارة قبل الإسلام وكان له أن يستمر على مدى عدة قرون. وثمة عنصر ثالث أضيف إلى هذا المجمع الرسمى هو الأسواق[٩٠]. ومن الواضح أنه كانت بالكوفة أسواق منذ البداية الأولى: وعلى كل حال، كان على أفراد القوات العربية الظافرة إنفاق نصيبهم من الدراهم التى أخذوها من الغنائم فى مكان ما. وفى مرحلة باكرة كانوا يتقاضون الرواتب أيضا كما كانوا ينفقون رواتبهم هذه على الضروريات وعلى مواد الرفاهية كذلك . ويقال إن ضجيج السوق دفع سعد إلى تقوية أسوار قصره وبواباته . ولسنا نعرف شيئا عن شكل الأسواق القديمة أو هيئتها سوى أنها كانت تشغل الفضاءات المفتوحة حول المسجد والقصر . ولا يبدو أنه كانت هناك أعمال بناء حتى أواخر الفترة الأموية، أى بعد قرن من تأسيس المدينة . وقبل هذا، ربما كانت نوعًا من الأكواخ المتهالكة التى بنيت من الخشب والقصب ، ومسقوفة بالحصير . ومع هذا فإن وجود الأسواق ، فى قلب المدينة ، تحيط بالمسجد والقصر، أرسى النموذج الأساسى للمُدن الإسلامية التالية.

كذلك أسس المسلمون العاملون فى جنوب العراق مدينة على أطراف الصحراء بالبصرة والروايات المتعلقة بالاستيطان الباكر فى البصرة مشوشة للغاية، على الرغم من أن حولية خوزستان تنسبها بوضوح إلى أبى موسى الأشعرى ، قائد القوات التى فتحت وطنه . كما أنها كانت أصغر كثيرا من الكوفة ، وربما كانت فقط ألف رجل، لأن الجيش الذى فتح الجنوب كان أصغر كثيرا[٩١]، ويُعرف الموضع الذى قامت عليه مدينة البصرة الأولى حاليًا باسم الزبير ويقع على مسافة حوالى عشرين كيلو مترًا من المدينة الحديثة. وكانت على بعد مسافة من ضفة النهر وتطلب الأمر حفر قنوات لجلب المياه

إلى المدينة . وعلى الرغم من أن موقع المدينة معروف جيداً والكثير من أجزائها شبه صحراوى ، فلم تُنشر عنها أية حفريات أثرية ولم يتم أى مسح جاد لها. ولو كانت الظروف أكثر سلمية مما هى عليه وأنا أكتب ، لكانت فرصة مدهشة لدارسى المدن الإسلامية الباكرة لكى يستكشفوا عمارة هذه المستوطنات العسكرية الأولى .

وفى هذه المدن الجديدة تطورت الإدارة المالية الإسلامية بشكل ناضج جدا على نحو سريع(٩٢). فكان السكان يعيشون على أموال العطاء التى كانت تمنح لهم نقداً . وفى البداية كان هذا قد تمثل فى الرواتب العينية، الغلال، والزيت وغيرها (أى الرِزَق) ، ولكن هذه انتهت تدريجياً وحلت النقود محلها . وتم إدخال أسماء أولئك الذين يستحقون الرواتب فى سجلات عرفت باسم الدواوين . وكانت إدارة هذا النظام معقدة للغاية . ففى البصرة، على سبيل المثال، يقال إنه كان هناك ثمانون ألف رجل عند نهاية خلافة معاوية بن أبى سفيان، كان مخصصاً لكل منهم مائتى درهم فى السنة على الأقل. وكان هذا يتطلب جباية ستة عشر مليون درهم وتوزيعها ، وهى مهمة ضخمة تتطلب عاملين مهرة. وكان المسلمون مضطرين إلى استخدام محاسبين وموظفين كانوا يعملون فى خدمة الساسانيين المهزومين ، وجلبوا معهم التقاليد الفارسية القديمة للإدارة المالية والممارسة البيروقراطية.

وقد لعبت كلا المدينتين الجديدتين، الكوفة والبصرة ، دوراً مهماً للغاية فى تاريخ العالم المسلم الباكر، أولاً باعتبارهما قاعدتين عسكريتين كان يتم إرسال الجيوش منهما لفتح إيران والشرق وبعد ذلك باعتبارهما مركزين ثقافيين . وكانت الكوفة مهمة من الناحية السياسية أيضاً ، ومركزاً رئيسياً لمقاومة الخلفاء الأمويين فى دمشق ومركز حركة مساندة عائلة النبى وهى الحركة التى قيض لها أن تتحول إلى المذهب الشيعى . وقد أدى تأسيس بغداد، على مسافة كيلو مترات قليلة فقط إلى الشمال، إلى إنزال ضربة قاصمة برخاء المدينة . وبحلول القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى كانت تعانى من الاضمحلال الكامل، ولم يبقَ المدينة حية سوى مكانة المسجد القديم بوصفه مزاراً . أما البصرة ، فكانت على النقيض من الكوفة بعيدة بما يكفى لأن تنجو من

جاذبية بغداد وتبقى ميناء مهمًا على رأس الخليج . وعلى الرغم من أن مركز المدينة قد تحول ، فإن الأساسات التى وضعها أبوموسى الأشعرى قد نجت من عوادى الزمن عبر العصور وهى الآن ثانى أكبر مدينة بالعراق .

وفى الوقت نفسه تقريبًا ، كانت هناك قوة من الكوفة تسير صاعدة نهر دجلة تجاه الجزيرة ، وتقبل استسلام المدن والقرى على امتداد ضفتى النهر وفى السهول المجاورة. وعندما وصلوا إلى الموقع الذى تقوم فيه مدينة الموصل الآن وجدوا قلعة ، وبعض الكنائس المسيحية وعددًا قليلاً من البيوت ومستوطنة من اليهود . وبعد غزو هذا المجتمع الصغير مباشرة ، شرع العرب فى بناء مدينة جديدة فى الموقع، كانت هى أساس مدينة الموصل الحديثة. وتم توزيع خرائط الأرض على العرب لبناء المنازل ونمت المدينة بسرعة لتصير واحدة من المراكز الحضرية الرئيسية فى العراق(٩٣).

ومن الصعب تمامًا أن نتأكد من التتابع الزمنى للأحداث ، بيد أننا يمكن أن نكون واثقين بشكل معقول من أنه بنهاية سنة ٦٤٠م كانت قوات المسلمين قد سيطرت على الأراضى الزراعية فى العراق من تكريت فى الشمال حتى الخليج فى الجنوب وشرقا حتى سفوح التلال فى جبال زاجروس . وظل الاستقرار الإسلامى مبعثرًا إلى حد بعيد كما كان مركزا بدرجة كبيرة فى مدن الحاميات التى كانت قد تأسست منذ وقت قريب فى الكوفة والبصرة وعلى نطاق أصغر فى الموصل. وكانت هناك حامية تحفظ العاصمة الفارسية القديمة المدائن (طيسفون) وربما هناك حاميات أخرى لانعرف عنها شيئا . كانت أعداد الفاتحين قليلة للغاية لاتكفى أن يخضعوا هذه البلاد الكبيرة المأهولة ويحافظوا عليها . وكان العشرون ألفا من الذكور البالغين الذين استقروا بالكوفة فى البداية محاطين بعدد من السكان فى الريف المحيط يعتقد أنهم وصلوا إلى نصف مليون نسمة(٩٤). وعلى الرغم من أن عدد العرب قد ذاب فى أعداد المهاجرين الجدد، فإنهم كانوا دائمًا أقلية صغيرة جدًا ، ولم يكن ممكنًا ، فى الجيل الأول، أن يشكلوا أكثر من عشرة بالمائة من المجموع الكلى . ولا بد أن مشكلاتهم كانت مركبة بطبيعة الأرض التى كانت تتخللها قنوات الرى. ومن المؤكد أنه لم يكن ممكنًا فتح الأرض

والحفاظ عليها لو واجه المسلمون مقاومة شعبية حاسمة . وعلى أية حال ، فإن المقاومة الجادة الوحيدة جاءت من قبل الجيش الملكى الفارسى . ولأسباب ليست واضحة كلية ، فشل هذا الجيش مراراً أن يصمد فى مواجهة القوات العربية. ففى ميادين المعارك فى القادسية وجلولاء ، وفى مدن مثل المدائن وتُسْتَر ، لقيت القوات الساسانية هزائم قاصمة. ومع انهيار الجيش الفارسى، كان العرب جاهزين لوضع شروط سهلة مع بقية السكان - إذ إنهم لم يرتكبوا مذابح ضد سكان المدن والقرويين ، ولم يستولوا على منازلهم أو أراضيهم، ولم يتدخلوا فى دياناتهم أو عاداتهم، بل إنهم لم يستقروا بينهم. وطلبوا فقط دفع الضرائب ، وألا يساعد السكان أعداءهم . ولايمكن التحقق مما إذا كانت الضرائب أكثر أو أقل مما كانت عليه تحت الإدارة السابقة، ولكننا يمكن أن نكون واثقين من أن غالبية الناس فى العراق كانوا يعتقدون إنها صفقة جيدة.

الهـــوامش

(١) عن التاريخ العام للإمبراطورية الساسانية انظر :

A. Christensen. L'Iran sous les Sassanides (rev. 2nd edn, Copenhagen, 1944); Cambridge History of Iran, vol. III; The Seleucid, Parthian and Sasanian Periods, ed. E. Yarshater (Cambridge, 1983); M.Morony, 'Sasanids', in Encylopaedia of Islam, 2nd edn, with full bibliography; Z. Rubin,The Sasanian Monarchy', in Cambridge Ancient History, vol. XIV: Late Antiquity: Empire and successors. A.D. 425-600, ed. A. Cameron, B. Ward-Perkins and M. Whitby (Cambridge, 2000), pp. 638-61; for Iraq under Sasanian rule, see M. Morony, Iracf after the Muslim Conquest (Princeton, NJ, 1984),

(٢) عن الزرادشتية فى إيران انظر : Morony, Iraq, pp. 281-300.

(٣) عن المسيحيين واليهود انظر : Ibid., pp.306-42.

(٤) عن تاريخ الزراعة والاستقرار فى وسط آسيا انظر :

R. McC. Adams, The Land behind Baghdad: A history of settlement an the Diyala Plain (Chicago, IL, 1965).

(٥) Morony, Iraq, pp. 185-90.

(٦) On the Aramaens, see ibid., pp. 160-90.

(٧) Maurice's Strategikon; handbook of Byzantine military Strategy, trans. G. T. Dennis (Philadelphia, PA, 1984), pp. 113-15.

(٨) الرواية التالية قائمة على أساس :

R. N. Frye, 'The political history of Iran under the Sasanians', in Cambridge History of Eran, vol. III: The Srlrucid, Parthian and Sasanian Periods, ed. E. Yarshater (Cambridge, 1983), pp.168-71.

(٩) Adams, Land behind Baghdad, pp. 81-2.

(١٠) Donner, Early Islamic Conquests, pp.170-73.

(١١) Ibid.,p, 178.

عن حملات خالد فى العراق، انظر : Baladhuri, Futuh, pp. 241-50.

Donner, Early Islamic Conquests, p. 179. (١٢)

Baladhuri, Futuh, pp. 242-3. (١٣)

Baladhuri, Futuh, p. 243. (١٤)

(١٥) نُشرت الحفائر التي قادها د. تالبوت رايس بعنوان :

The Oxford excavations at Hira, I93I", Antiquity 6.23 (1932): 276-91

ومن المحزن أنه لم تكن هناك بعثات أخرى في الموقع .

Baladhuri, Futuh, p. 244. (١٦)

Baladhuri, Futuh, p. 243. (١٧)

Baladhuri, Futuh, pp. 247-8. (١٨)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2159. (١٩)

Baladhuri, Futuh, pp. 251-2. (٢٠)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2178. (٢١)

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2174-5. (٢٢)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2179. (٢٣)

Baladhuri, Futuh, p. 254. (٢٤)

Baladliuri, Futuh, p. 2 55. (٢٥)

Firestone, Jihad: The Origin of Holy War, p. 106. (٢٦)

Donner, Early Islamic Conquests, p.206. (٢٧)

Ibid., p. 221. (٢٨)

Ibid., p. 205. (٢٩)

Baladhuri, Futuh, pp. 255-62. (٣٠)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2377. (٣١)

Sebeos, The Armenian History, pp.98-9 , 244-5 ; Movses of Dasxuranci, The (٣٢) History of the Caucasian Albanians, trans. C.J. F. Dowsett (Oxford, 1961), pp. 110-11.

Christensen, L'Iran, pp. 499-500. (٣٣)

Eapecially Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2247-9. (٣٤)

Firdawsi, Shahnamah, trans. D. Davis (Washington, DC, 1998-2004), Vol. III, (٣٥) pp. 492-6.

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2269-77. (٣٦)

Tabari, Ta'rikh I, p. 2270. (٣٧)

(٣٨) الكلمة المستخدمة هى «ترجمـــان» ، وتنطق جيـــم مصرية وصارت dragoman المصطلح المستخدم من جانب الرحـــالة فى القـرنين الثامن عشر والتاسع عشر فى شرق المتوسط لتسمية المرشدين والوكلاء المحليين.

(٣٩) أسماء السارى والشعيب. Tabari, Tarikh, T, p. 2269.

(٤٠) Baladhuri, Futuh, pp. 259--6o.

(٤١) Firdawsi, Shahnumah, III, p. 499.

(٤٢) Baladhuri, Futuh (A, p. 258).

(٤٣) Tabari, Ta'rikh, 1, p. 2421.

(٤٤) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2411.

(٤٥) نائل بن جُشعم وعرفجه التميمى :

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2422-4, trans. Juynboll.

(٤٦) Morony, Iraq, p. 186.

(٤٧) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2425.

(٤٨) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2429-30.

ويقترح جوينبول تعريف أفريدون ولكنه ليس مؤكداً . والمعنى العام للملاحظات واضح تماماً على أى حال.

(٤٩) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2433-4.

(٥٠) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2438.

(٥١) Baladhuri, Futuh, p. 263. p. 52. Tabari, Ta'rikh, [, p. 2451.

(٥٢) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2441,2451.

(٥٣) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2450-56.

(٥٥) Tabari, Ta'itkh, I, p. 2445.

(٥٦) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2446.

(٥٧) Tabari, Ta'rikh, I; pp. 2446-7.

(٥٨) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2453.

التقاليد الفارسية فى نسج السجاد قديمة جداً جداً ولكن ليس هناك أثر من السجاد باق من هذه الفترة ويرجع تاريخ أقدم سجاد فارس إلى القرن الخامس عشر وأكثر القطع اكتمالاً مثل سجادة أردبيل ترجع إلى القرن السادس عشر ومثل هذه الأوصاف توضح أن مثل هذه الأعمال الفنية كان موروثة عن تراث استمر ألف سنة.

(٥٩) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2453-4.

(٦٠) Baladhuri, Futuh, p. ;64; Tabari, Ta'rikh, I, p. 2445.

(٦١) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2442-3.

(٦٢) Tabari, Ta'rikh. I, p. 2457.

(٦٣) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2459.

(٦٤) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2463.

(٦٥) Tahari, Ta'rikh, I, pp. 2462.

(٦٦) Donner, Early Islamic Conquests, p. 213, estimates the numbers.

(٦٧) Baladhuri, Futuh, p, 341. 6y. Koran, 4:15-16.

(٦٨) Baladhuri. Futuh, p. 345.

(٧٠) عن هذا النص انظر :

C. V. Robinson, 'The conquest of Khuzistan; a historiographical reassessment', Bulletin of the School of Oriental and African Studies 67 (2004) : 14-39 .

(٧١) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2567-8.

(٧٢) Tabari, Ta'rikh, I, pp, 2464-6.

(٧٣) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2567.

(٧٤) Khuzistan Chronicle and Tabari, Ta'rikh,I, pp, 2554-5.

(٧٥) Tabari Ta'rikh, I, pp. 2557-9; Tabari, Ta'rikh, I, p. 2560.

يقدم تنويعًا مع قليل من الاختلاف .

(٧٦) عن الحمراء انظر :

Morony, Iraq, pp. 197-8; M. Zakeri, Sasanid Soldiers in Early Muslim Society. Tile origins of 'Ayyarin and Futuwwa (Wiesbaden, 1995), pp. 116-20 .

(٧٧) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2261.

(٧٨) Tabari , Futuh. p. 280; Morony, Iraq, p. 197.

(٧٩) See Morony, Iraq, p. 198 ; Zakeri, Sasanid Soldiers, pp. 114-15.80.

(٨٠) Baladhuri, Futuh, p. 280.

(٨١) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2484.

(٨٢) Donner, Early Islamic Conquests, p. 229.

(٨٣) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2488.

(٨٤) عن المسجد انظر :

see Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2488-94; H. Djait, Al-Kufa: naissance de la ville isiamique (Paris, 1986), pp. 96-100.

(٨٥) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2494.

(٨٦) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2490-91.

(٨٧) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2492.

(٨٨) Tabari, Ta'rikh, T, pp. 2491-5.

(٨٩) Djait, Naissance, pp. 102-3.

يرفض رواية سيف دون إعطاء أسباب مقنعة والحقيقة أننا لانعرف .

(٩٠) Djait, Naissance, p. 108-111.

(٩١) On this, see Donner, Early Islamic Conquests, p. 230.

(٩٢) See H. Kennedy, The Armies of the Caliphs (London, 2001), pp. 60-74.

(٩٣) عن أصل الموصل وتطورها الباكر انظر Baladhuri, Futuh, p. 332.

Robinson, Empire and Elites, pp. 63-71.

(٩٤) Morony, Iraq, p. 175.

(٤)

فتـــح مصـــر

كانت فتوح الشام والعراق قد أعقبت فتح شبه الجزيرة العربية بشكل طبيعى. ففى بلاد الشام، وفى العراق بدرجة أقل، كتان هناك عرب بالفعل، من المستقرين والبدو على السواء، إما تم دمجهم فى جيوش المسلمين أو تم إخضاعهم. وكان منطقيا ، بل حتميًا أن تتحرك الجيوش الإسلامية من هناك لغزو الشعوب غير العربية بالمنطقة .

أما مصر فكانت مختلفة تمامًا[١]. ففى العالم الحديث نفكر فى مصر باعتبارها بلدًا عربيًا، وهى من عدة وجوه مركز سياسى وثقافى فى العالم العربى . وفى بداية القرن السابع الميلادى لم تكن هذه هى الحال على الإطلاق . فلم يكن هناك على ما يبدو استقرار عربى كبير، ولم تكن هناك قبائل عربية تجوب الصحراء وكان هناك عدد قليل من التجار العرب يمارسون العمل فى المدن. ومن المؤكد أن المسلمين الأوائل كانوا يعرفونها ولكن يبدو أن اتصالاتهم معها كانت قليلة .

وقصة الفتح موسعة فى المصادر العربية بكم هائل من التفاصيل المربكة[٢]. وقد أنتجت مصر فى القرنين الثانى والثالث الهجريين/الثامن والتاسع الميلاديين مدرستها الخاصة فى الكتابة التاريخية وكانت منفصلة تماما عن التقاليد العراقية التى نعتمد عليها فى تاريخ فتوح الهلال الخصيب وإيران. فالمؤرخ الكبير الطبرى الذى استقر فى بغداد، والذى كرس مئات الصفحات لجمع قصص الفتوح فى بلاد الشام ، والعراق وإيران ، يخصص لفتح مصر أقل من عشرين صفحة[٣]. وقد تطورت فى مصر تقاليد محلية قوية فى كتابة التاريخ، على أية حال. وقد تم جمع قصص الفتح الإسلامى

للبلاد وتدوينها على يدى المؤرخ عبد الرحمن بن عبد الحكم (٨٠٥م تقريبا - ٨٧١م) فى منتصف القرن التاسع الميلادى/الثالث الهجرى[٤]. وهو ابن لعائلة عربية كان أجدادها قد جاءوا مع الفتح ، وسعى إلى تسجيل وحفظ ذكرى الأعمال العظيمة فى ذلك الزمان . فقد كتب فى وقت كانت فيه الأرستقراطية العربية القديمة فى مصر قد استبدلت بنخبة عسكرية من الأتراك الذين تم إحضارهم من الشرق ، وتحمل تقاريره أريج الحنين إلى الأيام التى كانت فيها عائلتُه ، والعائلات التى تشبهها ، تحكم البلاد. وقد استقى معلوماته من مؤلفات متنوعة ، مفقودة الآن، كان تم تأليفها فى القرن الثامن وبداية القرن التاسع الميلاديين (الثانى والثالث بعد الهجرة) بمصر[٥]، وربما كانت هذه المصادر نفسها قد قامت على أساس من التراث الشفوى المحلى وتعكس ذاكرة اجتماعية إسلامية باكرة حقيقية عن الفتوح . ومن المفيد أن نعتبر هذه النصوص مجموعة منفصلة من الأدب المكتوب وسوف أشير إلى هذه المادة باعتبارها الكتابة المصرية - العربية.

وفى الوقت نفسه ، فإن الفتح الإسلامى مسجل فى مؤرخة مسيحية معاصرة كتبها يوحنا أسقف نقيوس ، وهى مدينة صغيرة على الحواف الغربية للدلتا[٦](*). وكان يوحنا معاصراً قريبا من الأحداث التى يصفها ، ولذلك فإن روايته انعكاس للمواقف فى ذلك الوقت. كما أنه يمدنا ببعض التواريخ الواضحة التى تساعدنا فى الحد من الفوضى المربكة للسرديات العربية ووضعها فى إطار زمنى تتابعى . وعلى أية حال، فإن المؤرخة لاتخلو من المشكلات الخاصة بها . فالأصل القبطى مفقود منذ زمن طويل ولا يوجد سوى فى مخطوط وحيد مترجم إلى اللغة الجعيزية (وهى اللغة الطقوسية القديمة للكنيسة الحبشية) كتب فى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) . ومن الواضح أن الترجمة مشوشة فى بعض الأماكن ومن الصعب معرفة مدى دقتها فى نقل الأصل. وهناك ثغرات أيضًا فى نقاط حاسمة ، مثل استسلام حصن بابليون. وعلى أية حال ، فإن يوحنا يقدم بالفعل سرداً متماسكًا كما يوفر لنا تحقيقًا مفيدا للتراث المصرى العربى.

(*) كانت نقيوس (التى اندثرت فى العصر الفاطمى) تقع فى نطاق مركز كفر الزيات بمحافظة الغربية حاليا . انظر : عمر صابر عبد الجليل ، تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى - رؤية قبطية للفتح الإسلامى (دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ٢٠٠٠م). (المترجم)

وفى العصر الحديث تمت تغطية تاريخ فتح مصر فى كتاب ألفريد بتلر A. Butler A The Arab Cpnquest of Egypt and the last Thirty Year of Roman Donina tion"(٧)(*).

وبأسلوبه الجزل الرنان الذى ينتمى إلى العصر الفيكتورى المتأخر، يقدم بتلر صورة باهرة عن الأحداث المثيرة المرتبكة . كان بتلر شديد الحماسة للأقباط وأحس بأنه قادر على إصدار أحكام أخلاقية كاسحة ضد أعدائهم ، وأولئك الذين يطعنون عليهم بطريقة يتردد المؤرخون المحدثون كثيراً فى اتباعها . كما كان باحثًا عظيمًا، على أية حال، ومع أنه كتب قبل أن يصير النص الأصلى لابن عبد الحكم متاحًا ، فإن الكثير من أفكاره واستنتاجاته صمدت لاختبار الزمن.

كانت مصر أرض الفراعنة ، الذين تُسيطر آثارهم ومعابدهم على كثير من المشهد فى مصر، وأدهشت أهرامهم العجيبة الغامضة المسلمين آنذاك مثلما تدهشنا الآن. ولم يكن أى رحالة أو غاز لم ينبهر بآثار العظمة القديمة . وقد عرف المسلمون مصر من خلال قصة يوسف ، التى أعاد القرآن الكريم حكايتها ، أو بالأحرى علق عليها(**)، وكانت الأهرام بالنسبة لهم مخازن الغلال التى بناها يوسف(***).

(*) ترجمه إلى العربية محمد فريد أبو حديد بعنوان فتح العرب لمصر (المترجم)

(**) هذا كلام يفتقر إلى الدقة لأن صلات عرب شبه الجزيرة بمصر قديمة ووثيقة على نحو ما تخبرنا المصادر التاريخية ، والبحوث الأثرية ، لاسيما فى إقليم الحجاز، كما أن من الثابت أن عدداً من العرب زاروا مصر قبل الإسلام لأغراض التجارة والعمل ، كما ذكر المؤلف نفسه. (المترجم)

(***) الناظر فى المصادر التاريخية العربية لن يجد بسهولة ما يؤيد ما ذهب إليه المؤلف ببساطة ؛ فقد تحدثت هذه المصادر عن الأهرام بوصفها قبوراً لملوك مصر القديمة، كما تحدثت عن وصفها من الداخل بعد أن نجح البعض فى ثقبها عند زيارة الخليفة المأمون بن هارون الرشيد لمصر : انظر المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، (طبعة سلسلة الذخائر - قصور الثقافة - ، رقم ٥١) ، ج١ ، ص١١١-ص١٢٢ ، حيث لا يرد ذكر لمسألة مخازن الغلال التى بناها يوسف عليه السلام . ولكن هناك روايات أخرى عن أنها كانت مخازن الغلال التى بناها يوسف ؛ إلا أن المؤرخين المسلمين لم يعتدوا بها كثيرا . (المترجم)

ولكن فى الوقت الذى عبرت فيه جيوش المسلمين الحدود المصرية للمرة الأولى، كانت قد مضت تقريباً ألف سنة منذ خلع الإسكندر الأكبر آخر الفراعنة (الفترة الزمنية نفسها التى تفصلنا عن معركة هاستنجز والفتح النورمانى لانجلترا)(٨). وفى الفترة الواقعة بينهما كانت البلاد تحت حكم خلفاء الإسكندر، البطالمة ، وكانت قد صارت ولاية غنية وقيمة من ولايات الإمبراطورية الرومانية، تمد العاصمة بالكثير من الغلال . ومصر فى أيامنا هذه مستورد رئيسى للطعام، حيث إن موارد نهر النيل لايمكنها إطعام سبعين مليوناً من السكان . وفى العصور الرومانية ، على أية حال، ربما لم يكن هناك أكثر من خمسة ملايين نسمة يعيشون فى المنطقة : وفى أواخر الفترة الرومانية ، ونتيجة لأحد الأوبئة ، ربما لم يكن العدد يزيد على ثلاثة ملايين(٩). وإذْ كانت الأراضى الخصبة على امتداد النهر تحت إدارة سليمة، يرويها الفيضان السنوى ويجدد خصوبتها، فإنها كانت تنتج فائضاً منتظماً .

وعلى الرغم من أن هذه المنفعة كانت لصالح الأجانب ، فإن الكثير من الأشياء فى مصر بقيت دونما تغيير . فقد كان الأباطرة المؤلهون قد تواءموا بسهولة داخل مجمع الآلهة المصرى والواقع أن مصر صدّرت الآلهة مثل أوزيرس مع الغلال إلى روما. وكان قدوم المسيحية بمثابة بداية الانفصال الحقيقى عن الماضى القديم.

كان القرنان الرابع والخامس الميلاديان نوعاً من العصر الذهبى للمسيحية المصرية(١٠). فقد صار بطاركة الإسكندرية آنذاك بمثابة كبار موظفى الإمبراطورية الشرقية، يجنون الثروات الطائلة ويمارسون نفوذاً هائلاً. وكان الأنبا باخوم (ت ٣٤٦م) هو الذى قاد حركة تأسيس الأديرة الجماعية الكبيرة ، التى كانت هى الأولى فى العالم المسيحى، وكان فى مصر أكثر من أية منطقة أخرى فى العالم المسيحى الباكر أن تطورت الديرية لأول مرة . وقد عاش النُسّاك من أمثال الأنبا أنطونيو (ت ٣٥٦م) فى الصحراء الموحشة التى تحف بوادى النيل وضرب مثالاً للزهد المسيحى فى كل مكان .

وإذا كان ذلك وقتًا للبداية والأمل بالنسبة للمسيحيين ، فإنه كان نهاية عصر الوثنية المصرية القديمة والثقافة التى واكبتها أيضًا . وفى الإسكندرية المتأغرقة تم نهب

السرابيوم الشهير بأمر من البطريرك ثيوفيلوس Theophilus (٣٨٥-٤١٢م) وتحول إلى كنيسة مكرّسة ليوحنا المعمدان على حين صار المعبد والسرابيوم فى كانوبوس كنيسة مكرسة للقديسين سيريل ويوحنا . وهرب آخر المثقفين الوثنيين خوفًا على حياتهم ، على حين لجأ الرهبان إلى وضع أيديهم على أطلال العظمة القديمة. والأسطورة التى تزعم أن العرب أحرقوا مكتبة الإسكندرية، وأحرقوا معها الموروث العظيم ، للتعليم الكلاسيكى، لها تاريخ طويل ولا تزال لعبة بأيدى أولئك الراغبين فى الحط من قيمة الإسلام الباكر. والحقيقة الحزينة هى أن مكتبة البطالمة العظيمة يحتمل أن تكون قد دُمرت فى سنة ٤٨ ق.م عندما أحرق يوليوس قيصر الأسطول فى ميناء الإسكندرية وانتشر اللهب . ويرجح أن مكتبات المعبد التى جاءت بعدها قد نالها الدمار أو تفرقت شذرًا على أيدى المسيحيين فى القرن الرابع الميلادى[١١].

وفى الوقت نفسه خضع الإرث الكلاسيكى لهجوم قوى فى الإسكندرية، وكانت تقاليد مصر الفرعونية فى سبيلها إلى النهاية أخيرًا . وكان آخر نقش هيروغليفى مؤرخ، يسجل مهرجان الاحتفال بمولد إيزيس قد نقش يوم ٢٤ أغسطس سنة ٣٩٤م على جدران معبد فيله بأسوان[١٢]. وقبل فتح العرب للبلاد بزمن طويل، كانت معرفة الخط القديم، الذى كان قد سجّل أعمال الفراعنة ، وقساوستهم ووزرائهم ، قد توارى فى غياهب النسيان وبقى كذلك، حتى بالنسبة للمصريين ، طوال العصور الوسطى.

ولم يكن فقدان الموروثات الوثنية يعنى أن الكتابة والتسجيل قد اختفيا من مصر. إذ كانت الإدارة الإمبراطورية تعمل باللغة اليونانية ، كما كان حالها فى شتى أنحاء الإمبراطورية الشرقية . وإلى جانبها لجأت الكنيسة إلى اتخاذ تنويعة من الأبجدية اليونانية لكتابة اللغة المصرية الوطنية الشفوية . وصارت «اللغة القبطية» الوسيلة التى تم بها حفظ الأدب الكنسى النامى وتراث مصر، كما أعطت اسمها للكنيسة المحلية .

لم يكن رسوخ المسيحية ديانة رسمية وحيدة فى مصر ، واعتناق غالبية السكان لها ، يعنى نهاية الصراع الأيديولوچى، لأن الانشقاق المونوفيزيتى (مذهب الطبيعة الواحدة) الذى كان قد قسّم الكنيسة فى بلاد الشام على هذا النحو، اندلع على نحو

أشد حدة وضراوة في مصر. إذ رفضت الغالبية العظمى من الأساقفة والرهبان المصريين قرارات مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م ، التي أرست المذهب الديوفيزيتي (مذهب الطبيعتين) باعتباره دين الدولة في الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) . ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، كان هناك صدع صريح وعنيف غالبًا بين بطاركة الإسكندرية الذين تعينهم الإمبراطورية وبقية الكنيسة المصرية. وأخذت المعارضة ، التي يمكن تسميتها الكنيسة القبطية في ذلك الحين، تنتخب بطاركتها وأساقفتها. وفي المدن الصغيرة والقرى على امتداد وادي النيل ، وفي الأديرة الكثيرة المتناثرة على طول الحواف الصحراوية ، كانت الكنيسة الإمبراطورية بالإسكندرية تُعتبر كنيسة أجنبية غربية ، ظالمة بل هرطقية . ومن المحتمل أنه لم يكن هناك سوى قلة قليلة من الناس يمكن أن يحتشدوا لمساندتها إذا ما هاجمتها قوة خارجية .

وكما كان الحال في مناطق أخرى من الشرق الأوسط ، كان الحكم البيزنطي قد اهتز من جراء سلسلة من الكوارث منذ منتصف القرن السادس الميلادي فصاعداً . ففي سنة ٥٤١م كانت مصر أول بلد في حوض البحر المتوسط يحل بها الوباء الذي تسبب في مثل هذا الخراب في جميع أرجاء المنطقة. وكان أول انتشار له متبوعًا بموجات أخرى، وقد افترض البعض أن السكان قد انخفض عددهم إلى حوالي ثلاثة ملايين نتيجة لهذا[١١]. وصارت مصر أرضا شبه خالية. كذلك كانت للحروب الفارسية الكبرى ، التي بدأت سنة ٦٠٢م ، أثرها على مصر . ففي البداية كانت الحملات محدودة بشمال بلاد الشام والأناضول ، ولكن بعد سقوط بيت المقدس بأيدي الفرس في مايو سنة ٦١٤م ، كانت مصر في خط الجبهة . وغمرت البلاد موجات من اللاجئين الهاربين من الغزاة . وفي سنة ٦١٧م دخل جيش فارسي مصر عن طريق الساحل من فلسطين. واستولوا على پلوزيوم (قرب بورسعيد حاليا) ، ونهبوا الأديرة ثم توجهوا جنوبيًا إلى رأس الدلتا . وليست هناك تقارير عن مقاومة من جانب الحصن الروماني في بابليون ، الذي كان يحرس هذه النقطة الاستراتيجية المهمة ، ثم توجهت الجيوش الفارسية صوب الشمال الغربي على طول الحافة الغربية للدلتا إلى الإسكندرية . وهناك واجهوا المقاومة العسكرية الجادة الوحيدة طوال حملتهم . ومن الواضح أن أسوار

المدينة كانت بحالة جيدة . ويخبرنا مصدر سورى معاصر أن المدينة «كانت قد بناها الإسكندر حسب نصيحة أستاذه أرسطو ، مدينة تحيط بها الأسوار، وتطوقها مياه النيل ، ولها بوابات كبيرة»[١٤]. وتم الدفاع عن هذه الأسوار بهمة ومكث الجيش الفارسى لحصار المدينة. كما أنهم انتهزوا الفرصة لنهب الأديرة وسلبها بالضواحى المحيطة بالمدينة. وربما كان السكان قد تدهورت معنوياتهم بسبب قطع إمدادات الغذاء التى كان ترد إليهم من بقية أنحاء مصر وعدم وجود أمل فى المساعدة من القسطنطينية ، بيد أن لدينا أيضا قصة عن الخيانة من جانب أحد السكان. ففى النهاية يبدو أن الفرس دخلوا المدينة عن طريق الميناء والبوابات المائية التى كان الدفاع عنها أقل منه على البوابات الأرضية ، وفى سنة ٦١٩م كانوا قد أعلنوا أنفسهم سادة على الإسكندرية . ثم سارت الجيوش الفارسية إلى الجنوب ونهبت الكثير من الأديرة حتى إخضاع وادى النيل كله إلى أسوان.

ويبدو أن الغزو الفارسى الأول لمصر ، وفلسطين كان مدمراً للغاية ، للأرواح والممتلكات على السواء ، وخاصة بالنسبة للكنائس ومحتوياتها ، ولكنهم ما إن أرسوا سيطرتهم ، يبدو أن حكمهم كان أخف وطأة : ومن المؤكد أنه ليس هناك مؤشرات على أنهم بذلوا أى جهد لإجبار الناس على اعتناق الزرادشتية ، أو حتى لتشجيع الناس على اعتناقها . ولابد أن الفرس قد بقوا أقلية منفصلة وأجنبية دون أن تكون لهم جذور ثابتة فى البلاد.

وقليل ما نعرفه عن الإحدى عشرة سنة من الحكم الفارسى غير أنه انتهى نهاية سلمية تماماً. ففى يوليو سنة ٦٢٩م، تقابل الإمبراطور هرقل الذى كان فى ذلك الوقت قد غزا فارس ونهب طيسفون (المدائن) مع القائد الفارسى شاهبراز فى أرابيسوس Arabissos جنوب شرق تركيا الحالية ووافق على الانسحاب السلمى لما تبقى من القوات الفارسية فى مصر .

ولم يكن استئناف الحكم البيزنطى بداية فترة من السلم والانسجام . فكما كان يحدث غالباً فى هذه الفترة ، كان السبب الحقيقى فى الصراع كامناً فى العداوة بين

المذاهب والطوائف المسيحية ، وفى هذه الحال بين الأغلبية القبطية المونوفيزيتية والأقلية الخلقدونية (الملكانية) التى كانت تتمتع بدعم حكومة القسطنطينية . وفى حالة مصر تفاقمت الأمور بسبب المنافسة الشخصية القوية. فقد كان البطريرك القبطى بنيامين سليل عائلة من ملاك الأراضى الأثرياء[١٦] وفى عيد الميلاد سنة ٦٢١م، فى أثناء الاحتلال الفارسى، كان قد دخل أحد الأديرة قرب الاسكندرية وسرعان ما تميز بتدينه وعلمه . ووفقا لما كتبه كاتب سيرته المعجب به، كان «وسيمًا فصيحًا، هادئًا مبجلاً فى كلامه»[١٧]. وانتقل بسرعة إلى المدينة مساعداً رئيسيًا للبطريرك أندرونيكوس، وقبل أن يموت سنة ٦٢٣ عيّن بنيامين ، الذى يحتمل أن عمره آنذاك كان خمسة وثلاثين عامًا ، خليفة له. وفى البيئة اللطيفة نسبيًا تحت الحكم الفارسى، انطلق البطريرك الجديد فى العمل على إصلاح الكنيسة ، وقام بجولة تفتيشية فى بابليون وحلوان، وكان يلقى الترحيب فى كل مكان بالهتاف من الناس.

وقد أنهى إعادة فرض الحكم البيزنطى هذه الفترة من التسامح . فمثلما كان الحال ببلاد الشام كان هرقل قد عقد العزم على إعادة توحيد الكنيسة فى مصر تحت السلطة الإمبراطورية. ولتحقيق هذا عين رجلاً يسمى كيروس Cyrus ، الذى عرفته المصادر العربية باسم المقوقس لأسباب غير واضحة بالمرة(*). وكان مثل الكثيرين من مؤيدى هرقل قد جاء من منطقة القوقاز حيث كان فيما سبق أسقف فاسيس Phasis . وعلى خلاف بنيامين لم تكن له جذور فى مصر ولا أية خبرة بالبلاد . وكان قد تم تعيينه آنذاك بطريرك كنيسة الاسكندرية وأيضا واليا مدنيًا على مصر، نائبًا فعليًا للإمبراطور. وعند وصول كيروس فى خريف سنة ٦٣١م هرب بنيامين من المدينة ، ويقال إن ملاكًا زاره فى المنام لتحذيره . وقبل هروبه جمع الإكليروس والعلمانيين من رعايا الكنيسة، وحثهم على التمسك بكنيستهم ، وكتب إلى جميع الأساقفة ، ينصحهم بالهرب إلى

(*) ربما كان اسم «المقوقس» مشتقًا من إسم منطقة القوقاز بنطقها اليونانى "Caucasus" كاوكاسوس ، وإذا قلبت الكاف قافًا ، على عادة العرب وتم وضع الميم فى البداية لتسهيل النطق يبدو الشبه قريبا للغاية. ومن ناحية أخرى جرت عادة العرب على نسبة الناس إلى قبائلهم أو بلادهم. (المترجم)

الجبال والصحارى للاختباء من الغضب الآتى. ثم غادر المدينة ليلاً ، واتجه فى البداية غربًا إلى مدينة سانت ميناس (مارمينا) ثم على امتداد الجانب الغربى من الدلتا ، ليشق طريقه أخيرًا إلى دير صغير بالقرب من قوص فى صعيد مصر ، اشتهر على مر القرون باعتباره المكان الذى لجأ إليه[١٨].

ووصل كيروس مسلحًا بالثقل الكامل للسلطة الإمبراطورية وعُهد إليه بمهمة توحيد الخلقدونيين الديوفيزيتيين والأقباط المونوفيزيتيين فى الصيغة اللاهوتية المونوثيليتية المخزية التى وضعها الإمبراطور فى محاولة لإيجاد أرضية وسطى بين الإثنين . وبقدر ما يمكننا أن نحكى كان كيروس رجلاً حازمًا ولكنه بلا جاذبية ، كانت القيادة لا الإقناع من خصاله الطبيعية . وعقد مجلسًا فى الإسكندرية ولكن الاجتماع فشل . وشعر الخلقدونيون أنه قد تم التسليم بأكثر مما ينبغى وأن دعمهم كان تذمرًا فحسب ؛ أما الأقباط، فقد رفضوا هذه الصيغة تماما . فبالنسبة لهم لم تكن الصيغة توفيقًا على الإطلاق ، وإنما هى مجرد محاولة لفرض المذاهب الكريهة لمجمع خلقدونية. كان الصدع بين الطبقة الحاكمة والعسكرية الناطقة باليونانية فى الإسكندرية وأغلبية السكان الأقباط ، عميقًا بحيث لايمكن إصلاحه كما كان دائمًا .

كانت الحاميات البيزنطية متمركزة فى جميع أنحاء البلاد وسعى كيرس إلى فرض السلطة الإمبراطورية بالقوة . وترسم المصادر القبطية - سير البطاركة والقديسين - صورة حية للاضطهادات الوحشية والمنظمة ، التى قام فيها كيروس بدور أولئك البطاركة الذين كانوا يوجهون الاضطهاد فى القرن الثالث الميلادى. وكان حلول الحكم المسيحى محل الفرس لايمثل ميزة للكنيسة القبطية . وحسب تعبير بتلر «لقد أعقب الضرب بالسياط التأديب بالعقارب»[١٩]. وقد زادت القصص عن قسوة كيروس والسلطات الإمبراطورية، والمقاومة البطولية التى أبداها الأقباط . واستشهد مينا أخو بنيامين ، وكان العذاب الذى قاساه من أجل عقيدته يتم تذكره بحب . فقد عُذِّب بالنار أولاً حتى سقط شحمه من جانبيه على الأرض». ثم خُلعت أسنانه . وبعدها تم وضعه فى غرارة مليئة بالرمال . وكان يُعرض عليه فى كل مرحلة إنقاذ حياته إذا ما قبل قرارات مجمع خلقدونية؛ وكان يرفض فى كل مرحلة . وأخيراً أخذوه مسافة سبع

رميات بالقوس إلى البحر وأغرقوه. ولم يكن ثمة شك لدى كاتب سيرة بنيامين فيمن يكون المنتصرون . «لم يكونوا هم المنتصرين على مينا، بطل العقيدة ، ولكن مينا تغلب عليهم بالصبر المسيحى»(٢٠).

وقيل إن الاضطهادات قد استمرت على مدى عشر سنوات. وسواء كان الاضطهاد قاسيًا صارمًا حسبما تزعم سير الشهداء المسيحيين أم لا ، فإننا لانعرف الحقيقة ، ولكن الروايات تكشف عن مناخ من الخوف والعداوة العميقة المتمكنة تجاه السلطات الإمبراطورية. وكان كثير من القبط يظنون أن أى شىء سيكون أفضل من ذلك .

على هذه الخلفية، التى تمثلت فى إدارة تمت إقامتها منذ وقت قريب للغاية من جديد للدولة البيزنطية وفى الانقسام الحاد بين الروم والقبط، بدأ الفتح الإسلامى لمصر. وبينما حاول كيروس ، بقدر قليل من النجاح، أن يفرض إرادته على مصر ، كانت الفتوح الإسلامية تحث الخطى فى بلاد الشام . ولا بد أن يكون القلق قد انتاب السلطات فى الإسكندرية بشكل خطير وبحلول سنة ٦٣٦م ، عندما كانت غزة ومعظم الساحل الفلسطينى فى أيديهم، كانت ردود الفعل مختلطة تجاه هذا الخطر الجديد . فقد كان كيروس مستعداً لتقديم الجزية إلى المسلمين فى مقابل معاهدة عدم اعتداء ، بل إنه اقترح تحالف زواج بين ابنة الإمبراطور إيودوكيا Eudokia وعمرو بن العاص، قائد قوات المسلمين فى جنوب فلسطين، وبعدها لابد من تعميد عمرو مثل برابرة كثيرين آخرين فى التاريخ البيزنطى «لأن عمرو وجيشه كانت لديهم ثقة كبيرة فى كيروس ويعاملونه بتقدير»(٢١) أو ربما تكون الجزية قد دفعت بالفعل فى الفترة ما بين فقدان بلاد الشام والغزو الإسلامى لمصر. وفى سنة ٦٣٩م أوربا فى سنة ٦٤٠م تغيرت سياسة هرقل. فقد شجب المعاهدة التى عقدها كيروس واستبدل البطريرك / الوالى برجل عسكرى صدرت إليه التعليمات بتنظيم دفاع أكثر قوة. وتم إرسال كيروس منفيًا إلى جزيرة قبرص والقسطنطينية ، واحتج فى جلسة استماع عامة بأنه إذا كانت خطته قد مضت قدما وجمع الضرائب للعرب بفرض ضريبة على التجارة، لبقوا فى سلام . ويبدو أن عدم دفع الجزية كان بمثابة الزناد المباشر الذى أطلق الغزو الإسلامى(٢٢).

وتبدأ الروايات المصرية - العربية عن الفتح بأسطورة حول عمرو بن العاص وهو يكتشف ثروة مصر بنفسه . فقبل أن يبدأ الفتح الإسلامى، كان قد جاء إلى مصر مع مجموعة من قريش للتجارة فى بيت المقدس. وتناوبوا فى رعى إبلهم على التلال المحيطة بالمدينة. وذات يوم عندما جاء دور عمرو فى الرعى، مرَّ بأحد القساوسة ، وهو يتجول فى التلال. وكان الجو قائظا وكان القسيس على شفا حفرة من الموت عطشًا ، واسقاه عمرو من قربته ثم رقد القسيس واستغرق فى النوم. وبينما كان راقدًا هناك، برزت حية ضخمة من حجر قريب حيث كان راقدًا . ورأى عمرو الحية فضربها بسهم قتلها ، وعندما استيقظ الشماس ، سأل عما حدث ، وعندما شرح له عمرو ما حدث ، وقد انبهر لأن هذا الرجل أنقذ حياته مرتين، من الموت عطشًا ومن الحية . وسأل عمرو عما يفعل وشرح له عمرو أنه يتاجر ، على أمل أن يحصل على ما يكفى من المال لشراء جمل ثالث يضمه إلى الجملين الموجودين معه . وسأل الشماس عمرو كم دية الرجل التى يقدمونها فى قومه لإنقاذ حياة رجل آخر ، فأخبره أنها مائة بعير، وأجاب بأنهم لا يملكون الجمال فى بلاده، ولكن كم قيمتها بالدنانير ؟ وكانت الإجابة ألف دينار.

وشرح الشماس الوضع بأنه غريب عن البلاد، وأنه جاء ليصلى فى كنيسة الضريح المقدس ولكى يقضى شهرًا فى البرية وفاء لقسم كان قد قطعه على نفسه. وكان فى سبيله إلى العودة إلى وطنه ، ودعا عمرو أن يأتى معه، على وعد بأنه يعطيه ضعف الدية حينما يصل إلى دياره .

وهكذا ترك عمرو رفاقه وذهب إلى مصر، وأدهشه حجم مدينة الإسكندرية ورخاءها وعمائرها، حيث جاء به الشماس إليها . وكافأه الشماس حسبما وعده ، ثم عين له مرشدًا لكى يعيده إلى رفاقه فى بيت المقدس، وقد بات مدركًا للثروة التى يمكن لمصر والاسكندرية أن تقدمها .

وسنكون على حق إذا ما تشككنا فى تفاصيل هذه القصة ، ولكنها توضح أن عمرو بن العاص، ربما كان الوحيد بين القادة المسلمين الأوائل، الذى يعرف شيئا عن مصر وعن الفرص التى توفرها . ويبدو أنه كان قد استشار الخليفة عمر بن الخطاب شخصيًا، وربما كان ذلك عندما جاء إلى الجابية فى زيارته لبلاد الشام، حول خطة

لغزو مصر . ووافق عمر بن الخطاب على المشروع ، على الرغم من وجود مؤشرات تدل على أنه كانت تساوره الشكوك فى المشروع . وانطلق عمرو بن العاص بقوة تتراوح ما بين ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل وأربعة آلاف رجل ، اختارهم من القبائل ، ولا سيما من قبيلة عك ، التى كان أبناؤها يعيشون فى اليمن، بقرى سهل تهامة على امتداد شواطئ البحر الأحمر . ولم يكن هؤلاء من سكان الخيام مثل البدو فى مناطق الاستبس فى بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية ، ولكنهم كانوا قومًا من الناس يعيشون فى أكواخ من القصب أو الأشجار على الشاطئ ، أو فى البيوت الحجرية بالقرى الجبلية ، والذين كانوا يزرعون الحقول . وكانوا عادة من الناحية الجسدية أصغر قامة وأكثر نحافة من بدو الاستبس ، ولكنهم يضاهونهم فى الخشونة والصلابة . كما أنهم كانوا معتادين على الحياة المستقرة ، إن لم يكن فى المدن ففى القرى على الأقل، ولم يكونوا يجلبون معهم الأغنام والماشية التى تحتاج إلى المرعى؛ ومن عدة نواحٍ ربما يكونوا قد وجدوا المدن والقرى فى الدلتا ووادى النيل بيئة مألوفة ، على الرغم من أنه لم يكن هناك شىء فى موطنهم يمكن مقارنته بفخامة الإسكندرية.

لقد كانت تلك مهمة جسورة إلى أبعد الحدود. وكان على هذا الجيش الضئيل أن يعبر سيناء ثم، أرض الدلتا غير المألوفة ، وأن يهزم الجيش البيزنطى المحلى ويستولى على عدد من المدن جيدة التحصين . وكانوا بعيدين عن النجدة إذا ما ساءت الأمور. ووفقا لقصة معروفة جيدًا ، غير الخليفة رأيه وكتب إلى عمرو بن العاص ، قائلا إنه إذا كان قد دخل مصر بالفعل فليواصل سيره ولكن إذا لم يكن قد عبر الحدود فعلاً فيجب عليه أن يتخلى عن المشروع . وخمن عمرو محتويات الخطاب ورفض أن يفتحه حتى وصل العريش التى هى بداية الأراضى المصرية[٢٣]، فى يوم ١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩م[٢٤]. وكان بوسعه حينذاك أن يزعم أنه حصل على موافقة الخليفة على ما يفعل .

وقد سار الجيش الصغير على الطريق القديم بحذاء ساحل مصر. ولكن بتلر يلاحظ «أنه كان الطريق السريع العتيق إلى مصر ، الطريق الذى كان قد شهد فيما قبل التاريخ مرور أوائل البشر الذين استقروا بمصر، ومرَّ به ابراهيم ويعقوب ويوسف، كما مرَّ به قمبيز، والإسكندر وكليوباترا، والعائلة المقدسة، وأخيرًا الغزاة الفرس»[٢٥].

وكانت أول مدينة هى الفرما ، بيلوزيوم القديمة ، التى تقع بالقرب من الساحل شرق بور سعيد الحالية مباشرة . وموقعها مهجور الآن ، ولكنها كانت مدينة مهمة فى العصور الفرعونية والرومانية . وتوضح الرسوم الباقية على خريطة Madaba مدينة ذات شوارع على جانبيها الأعمدة ، يحيط بها سور فيه أبراج . ولابد أن البيزنطيين فى مصر كانوا قد عرفوا بفتح العرب فلسطين فى وقت سابق ، حتى لو كانت معرفتهم قد جاءت عن طريق اللاجئين الذين وصلوا من هناك، ولكن يبدو أنه لم تكن بالفرما حامية قوية. فقد حاصرها العرب لمدة شهر قبل الاستيلاء عليها، بيد أنه ليست فى حوزتنا أية تفاصيل عن الصراع .

ويبدو أن بعض القبط على الأقل رأوا فى وصول العرب فرصة للإطاحة بالبيزنطيين المكروهين . وكان بتلر يستبعد بقوة فكرة أن الأقباط ساعدوا المسلمين على الإطلاق ويقول إن الفكرة لا توجد سوى فى مصادر متأخرة جدا[٢٦]، ولكن عاطفته تجاه الأقباط وعدم وجود أية طبعة لكتاب ابن عبد الحكم تسببت فى تضليل أحكامه . (إذ إن ابن عبد الحكم، الذى عكس بالتأكيد مفاهيم القرن الثامن الميلادى / الثانى الهجرى السائدة بين العرب ، يميز تمييزًا حادًا بين الأقباط والروم . فبينما كان الروم هم أعداء المسلمين الرئيسيين، ولم يكن ممكنًا الاتفاق معهم على حل وسط ، لعب الأقباط دورًا أكثر غموضًا) . ويقول بتلر إنه حينما وصل العرب كتب بنيامين إلى أتباعه يقول إن الحكم البيزنطى قد انتهى وأمرهم بالذهاب لمقابلة عمرو بن العاص . ونتيجة لهذا كان قبط الفرما أعوانًا نشطاء لعمرو فى أثناء الحصار[٢٧].

ثم سار المسلمون على الجانب الشرقى من الدلتا ، ومن المحتمل أنهم بقوا فى الصحراء بدلاً من أن تعطلهم القنوات والقرى فى المناطق المستقرة . وعند بلبيس أبدى البيزنطيون بعض المقاومة واستغرق إخضاع المدينة شهرًا . ثم واصلوا زحفهم إلى أم دُنين ، ويحتمل أنها كانت تقع على ضفاف النيل شمال القاهرة الحالية. ووفقًا للتراث المصرى ، كان البيزنطيون قد حصنوا أنفسهم فى خنادق ببوابات وبعثروا حسك الحديد فى المساحات المفتوحة . كان القتال صعبًا وكان النصر بطيئًا[٢٨].

وبعد النصر وزّع عمرو بن العاص بعض المكافآت المتواضعة على أتباعه : ديناراً وجبّة وبُرنسًا وعمامة وزوجين من الأحذية . كانت الجبّة والبُرنس ملابس مصرية نمطية : لقد كان اليمنيون قد بدءوا يتخذون عادات البلاد(٢٩).

وما حدث بعد الانتصار الذى تم إحرازه بصعوبة فى أم دنين ليس واضحًا . ولابد أن الهدف الرئيسى للمسلمين كان حصن بابليون الكبير، الذى كانت الحامية البيزنطية تحافظ عليه بقوة . ولكن ربما كان عمرو بن العاص قد أحس أن هذا يفوق قوته حتى يرد إليه المدد من شبه الجزيرة العربية. وعند هذه النقطة يتولى مصدر مسيحى ، هو يوحنا النقيوسى، رواية القصة (لأن الصفحة التى قد تكون وصفت التوغل العربى الأولى ربما فُقدت) . وحسب روايته، قرر عمرو أن يتجاوز الحصن حتى تصله الإمدادات من شبه الجزيرة العربية وأن يتحرك جنوبياً صوب واحة الفيوم الخصيبة. ومن أم دنين عبر نهر النيل وسار مروراً بالأهرام وأطلال منف (ممفيس) العاصمة المصرية القديمة، من خلال حدائق النخيل وحقول وادى النيل حتى مدخل الفيوم . والفيوم واحة كبيرة على مسافة حوالى سبعين كيلو متراً جنوب شرق القاهرة(*). وكانت مشهورة فى العصر الرومانى بإنتاجها من الغلال ، ولابد أنها كانت هدفًا مغرياً لعمرو بن العاص ورجاله حينما كانوا فى انتظار الإمدادات .

وحملة عمرو بن العاص على الفيوم ليست مسجلة فى أى مصدر عربى، ولكن يوحنا النقيوسى وصفها وتحدث عنها(**). ودافعت الحامية المحلية عن الفيوم ويبدو أن

(*) تقع الفيوم جنوب غرب القاهرة ، وربما يكون هذا خطأ مطبعيًا، أو سهواً من المؤلف. (المترجم)

(**) يرى بعض الباحثين أن رواية يوحنا النقيوسى عن امتلاك المسلمين الفيوم بعد معركة أم دنين غير صحيحة، كما أنها تناقض ما ورد فى المصادر العربية (ابن عبد الحكم، ص٢٢٧-٢٢٨ ؛ البلاذرى ، فتوح البلدان، ص٢٢٤ ؛ الخطط المقريزية، ج١ ، ص٢٤٨) من أن المسلمين ظلوا حوالى سنة يجهلون وجود الفيوم أصلا، وعندما عرفوا مكانها أرسل عمرو بن العاص حملة استولت عليها صلحًا . وتبدو هذه الرواية معقولة أكثر من رواية يوحنا ، لاسيما وأن جيش عمرو كان صغيراً وبقى ينتظر الإمدادات ، ولم يكن ليغامر بالابتعاد عن بابليون فى مغامرة عسكرية غير مألوفة . انظر عمر صابر عبد الجليل ، تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى – رؤية قبطية للفتح الإسلامى ، (دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة سنة ٢٠٠٠م)، ص١٩٤ ، هامش رقم ٣ . (المترجم)

العرب كانوا عاجزين عن التوغل بعيداً، وقنعوا بالاستيلاء على بعض الأغنام والماعز من الأرض المرتفعة على حافة المنطقة المزروعة . واستولوا بالفعل على مدينة البهنسا الصغيرة ، على أية حال ، ونهبوها ، وذبحوا كل سكانها من الرجال والنساء والأطفال (حسب رواية يوحنا النقيوسى) . وتعرضت تحركات عمرو للتكدير بسبب قائد الميلشيا البيزنطية المحلية المسمى يوحنا، ومعه خمسون رجلاً، ولكن عمرو بن العاص اكتشف وجودهم. وحاولت القوات البيزنطية الهرب إلى حصنهم فى أبويط، فكانوا يسيرون ليلا ويختبئون فى الحدائق وبساتين النخيل نهاراً . وخانهم رجلٌ من الأهالى وشى بهم فتم تطويقهم وقتلوا جميعًا . وأغرق يوحنا فى النهر . ويبدو أن عمرو بن العاص سمع حينئذ بوصول الإمدادات المرتقبة وشق طريقه شمالاً عائدًا إلى حصن بابليون ليفرض عليه الحصار.

ويبدو أن الغارة على الفيوم ومصرع يوحنا قد تسببت فى بث الذعر فى أوساط الروم: فقد كانت الغارات على امتداد الحواف الصحراوية للدلتا شيئا ، ولكن التوغل فى وادى النيل كان شيئًا أخطر كثيراً . وتم انتشال جسد يوحنا من النهر بشبكة وتم تحنيطه وإرساله إلى القسطنطينية فى الحال . ويقال إن الإمبراطور هرقل قد انتابه غضب شديد من الذى حدث وهرع قائد القوات البيزنطية فى مصر ، تيودور ، إلى الفيوم ليرى ما الذى يمكنه أن يفعله . وثمة قائد آخر اسمه ليونتيوس Leontios تم إرساله إلى الفيوم لإرساء الدفاعات . ووفقًا لرواية يوحنا النقيوسى «كان شخصًا بدينًا وغير عارف بأمور الحرب»، وبعد أن ترك نصف قواته فى الفيوم عاد إلى بابليون. وتم إنقاذ الفيوم ، ولكن بشكل مؤقت .

وفى الوقت نفسه ، كانت تعزيزات جيش المسلمين تقترب على امتداد الجانب الشرقى للدلتا ، مثلما كان عمرو قد فعل بالضبط . وعندما عاد من الفيوم تعين عليه أن يعبر النهر ثانية لكى يقابلهم. وكانت لحظة خطيرة ، ولكن القادة البيزنطيين أخفقوا فى الإفادة من هذه الفرصة ونجح عمرو بن العاص فى الانضمام إلى القادمين الجدد. وقيل إن الجيش الجديد كان عدده حوالى اثنى عشر ألف رجل[٢١]، تحت قيادة

الزبير بن العوام . وكان الزبير واحدًا من أوائل الصحابة وكانت له هيبة عظيمة باعتباره من أوائل من اعتنقوا الإسلام ، بيد أن هذه كانت حملة عمرو بن العاص ولم يكن هناك شك فى أنه سيبقى فى موقع المسئولية . ويوصف بأنه متوسط القامة ، حسن الطلعة ، له بشرة شاحبة ، ورأسه دقيقة ويغطى جسده شعر كثيف. وكان شجاعًا(*)، بل كان مندفعًا ، فى المعركة ، ولكن عمرو بن العاص كان بمثابة العقل المدبر للعملية برمتها ، وظل القائد الأعلى[٣٢].

عسكرت جيوش المسلمين التى توحدت عند مدينة أون القديمة (عين شمس حاليًا)، وهى الآن إحدى ضواحى القاهرة الكبرى، ولكنها كانت حينذاك على حواف الصحراء . وكانت للمدينة أهمية كبيرة فى الزمن القديم ولكنها كانت فى ذلك الحين مهجورة إلى حد كبير: «عندما جاء العرب ، كان القليل من العظمة القديمة باقيا وراء بعض الأسوار المتهدمة ، وتماثيل أبى الهول نصف المدفونة، والمسلة الوحيدة التى تقف حتى اليوم بمثابة تذكرة بالعالم الذى اختفى»[٣٣]. كان الموقع على أرض مرتفعة وتتوفر به المياه . واتخذه عمرو بن العاص قاعدة له . ولأنه كان يعرف أنه يفتقر إلى المعدات أو الخبرة التقنية اللازمة للحصار ، فقد حاول أن يستدرج الروم خارج حصنهم ويشتبك معهم فى معركة بالريف المفتوح . وتقدمت القوة البيزنطية الرئيسية تحت قيادة تيودور تجاه عين شمس عبر الأراضى المنبسطة فيما بين نهر النيل وتلال المقطم، حيث تقوم القاهرة الحديثة الآن. وربما كان الجيشان قد تقابلا فى شهر يوليو سنة ٦٤٠م. وقد اشتبكت قوات عمرو الرئيسية مع البيزنطيين، ولكنه أرسل تجريدة صغيرة من الفرسان من حوالى خمسمائة رجل عبر التلال فى ظلام الليل حيث يمكنهم أن يكمنوا للعدو من المؤخرة. وقد نجحت الخطة، فبينما كانت القوات الرئيسية مشتبكة شنت قوات الكمين هجومها وتخبط الجيش البيزنطى فى الفوضى . ونجح البعض فى الوصول بأمان إلى

(*) قال ابن عبد الحكم (فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، سلسلة الذخائر ، رقم ٤٩ الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ص٩٥) إن الزبير بن العوام كان «... أبيض ، حسن القامة، ليس بالطويل، قليل شعر اللحية، أهلب، كثير شعر الجسد...». (المترجم)

أسوار بابليون ، ولكن كثيرين هلكوا أثناء محاولتهم الهرب عن طريق البر وعن طريق النهر[٣٤].

كان الهدف الثانى للغزاة حصن بابليون نفسه. هذا الحصن كان نتاجًا ضخمًا من نتاج الهندسة العسكرية الرومانية[٣٥]، وربما كان قد بُنى حوالى سنة ١٠٠م على يدى الإمبراطور تراچان ردًا على التمرد اليهودى فى الإسكندرية . ويقع فى منطقة حاسمة على رأس الدلتا حيث تتسبب جزيرة الروضة فى ضيق مجرى النيل بحيث يمكن عبوره على جسر من القوارب. أمَّا اسم بابيلون ، الذى يبدو أنها كانت معروفة به فى الأزمنة القديمة ، فقد تسبب فى ظهور عدد من الأساطير حول تأسيسه على يدى نبوخذ نصر أو اللاجئين الذين جاءوا فيما بعد أو المستعمرين من بابل (بابيلون) الأصلية فى العراق . وقد عرفه العرب باسم قصر الشمع ، بيد أن اسمه القديم استمر موجودًا فى أوربا العصور الوسطى ، حيث كان سلطان مصر يُعرف غالبًا باسم سلطان بابيلون Soldan of Babylon على سبيل الخلط . كان الحصن مثلث الشكل تقريبًا ، وكانت الأسوار الكبيرة من الآجر والحجارة بارتفاع اثنى عشر مترًا وسمكها حوالى ثلاثة أمتار ، تمتد بحذاء ضفة النهر تجاه الغرب وعبر الحدائق والمجمعات الديرية إلى الشرق والشمال . وإلى الجنوب كانت هناك بوابة على جانبيها برجان على شكل حرف D ، تعرف باسم البوابة الحجرية ، تفضى إلى الميناء الرومانى . وكان هناك برجان ضخمان آخران يُطلان على ضفة النهر قطرهما ثلاثون مترًا . وكانت مساحته خمسة هكتارات، ويضم حوالى عشر كنائس أو أديرة داخل أسواره وعددًا كبيرًا من السكان المدنيين، إلى جانب الحامية العسكرية . وربما كان عمره يزيد على ستة قرون زمن الفتوح الإسلامية ، بيد أنه لم يكن قد فقد شيئًا من قوته . وقبل القرن العشرين ظلت التحصينات متماسكة بالفعل ، وتضم داخل أسوارها الكنائس القبطية ومعبدًا يهوديًا . ومنذ ذلك الحين ، على أية حال تهدم الكثير من نسيج المكان ولم تبق سوى آثار من عظمته القديمة .

وكان عند بداية سبتمبر سنة ٦٤٠م تقريبًا أن بدأ عمرو بن العاص هجومه على الحصن. وقد افترض البعض أنه كانت هناك حامية مؤلفة من خمسة آلاف أو ستة

آلاف رجل فى الحصن تتوفر لديهم المؤن الكافية بحيث يمكنهم الصمود أمام الحصار. ولم يكن باستطاعة العرب أمام الأسوار القوية سوى أن يحشدوا بعض آلات الحصار البدائية وحاولوا أن يصعدوا إلى الشرفات مستخدمين السلالم . ولو كان هناك أمل بوصول نجدة أو مساندة واسعة من الناس فى الريف المحيط بالحصن ، فربما كان قد صمد . ولكن لم يحضر أى جيش بيزنطى للنجدة وأكدت سياسة القهر التى اتبعها كيروس ضد القبط أنهم كانوا يتطلعون إلى مصيره دونما مبالاة أو حتى عداوة.

وفى الوقت نفسه ، كان المدافعون لا يزالون صامدين داخل حصن بابليون . وليست هناك رواية متماسكة عن الحصار ولانعرف سوى حكايات قليلة مُنمقة ، قصد بها بيان تطهرية المسلمين العسكرية . وفى إحدى هذه الحكايات فوجئ الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت بالعدو أثناء صلاتهما ، ولكنهما وثبا على فرسيهما وساقا المهاجمين الذين تقهقروا إلى الحصن. وفى أثناء تقهقر البيزنطيين ألقوا أحزمتهم الثمينة وزينتهم الفاخرة على أمل أن يتوقف العربيان لكى يلتقطاها . وعلى أية حال، أبدى المسلمان احتقارهما المعتاد للثروة ، وطاردا أعدائهما حتى أسوار المدينة، حيث جُرح أحدهما بحجر ألقى من شرفات الحصن . ثم عاد البطلان إلى صلاتهما ، تاركين الغنائم الثمينة بلا مساس.

وفى مارس سنة ٦٤١م وردت الأنباء بموت الإمبراطور هرقل ونشوب أزمة حكم فى الإمبراطورية . ولابد أن هذا الحدث أحبط المدافعين ورفع معنويات العرب، الذين كانوا لا يزالون فيما يبدو ينظرون إلى الإمبراطور المسن نظرة خشية معينة. ولأنه لم تكن هناك نجدة فى المستقبل المنظور، فإن النهاية لم تكن لتتأخر. وفى يوم عيد الفصح، الأثنين ٩ أبريل سنة ٦٤١م، استسلم البيزنطيون فى النهاية وسلموا الحصن الكبير إلى المسلمين ورحلوا، وأخذوا معهم بعض ذهبهم ولكنهم تركوا معداتهم العسكرية الثمينة(٣٦).

ووفقًا لإحدى الروايات ، كان الزبير بن العوام هو الذى استولى على المدينة فى نهاية المطاف . فقد أحضر السلالم لكى يتسلق الأسوار وصاح «الله أكبر» ،

وعند سماع التكبيرة كانت هناك هجمة جماعية وتخلى الأمل عن المهاجمين فاستسلموا[٣٧].
وفى ظاهرها تبدو حكاية تقليدية ، تشبه على نحو يثير الشك الرواية التى تتحدث عن كيفية هجوم خالد بن الوليد على أسوار دمشق ، ومن المؤكد من ناحية أخرى أن المسلمين فى مصر أخذوها على محمل الجد . وتم الاحتفاظ بالسلم الذى تسلقه الزبير بن العوام أثرًا مباركًا. ويسجل البلاذرى الذى كتب فى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى/ الثالث الهجرى أن الزبير بنى بيتًا ، ورثه ابنه فيما بعد ، ثم أحفاده كان السلم لا يزال محفوظًا فيه فى أيام البلاذرى[٣٨]. وهناك مصدر لاحق يقول إنه بقى حتى دمرته حريق بالدار سنة ١٠٠٠م ، أى بعد أكثر من ثلاثة قرون ونصف[٣٩].

وحقائق القصة مهمة أيضًا لأن استسلام بابليون كان ضربة كارثية للسلطة البيزنطية فى مصر «ومصدر حزن بالغ بالنسبة للروم» حسب تعبير المؤرخ القبطى المعاصر يوحنا النقيوسى. ولم يكن يساوره شك فى الأسباب : «... لأنهم لم يكرموا آلام الخلاص لسيدنا ومخلصنا يسوع المسيح الذى وهب الحياة لمن يؤمن به». وكانوا قد صبوا اضطهادهم على الأرثوذكس بوجه خاص (وكان يعنى بهم رفاقه القبط بطبيعة الحال) . ويبدو أن قادة القبط كانوا محبوسين فى الحصن طوال مدة الحصار. وفى يوم أحد عيد الفصح أُطلق سراح السجناء ولكن «... لم يتركهم أعداء المسيح هؤلاء دون أذى ، بل أساءوا إليهم وقطعوا أيديهم»[٤٠].

ويحتمل أن الوثيقة المعروفة باسم معاهدة مصر بين المسلمين والسلطات البيزنطية قد تم وضعها فى هذا الوقت، على الرغم من أن السياق المضبوط لهذه الوثيقة يبقى غير واضح[٤١]. وهى من عدة وجوه شبيهة بالعهد الذى وضعه عمر بن الخطاب لبيت المقدس ومن المفترض أنها صيغت على منوالها . وهى تبدأ بعبارة عامة تؤمن للناس ملتهم ، وأملاكهم، وصلبانهم وأراضيهم ومجارى مائهم . وسيكون عليهم دفع الجزية كل سنة حين تنتهى زيادة النهر، أى بعد الفيضان[٤٢]. وإذا قصَّر النيل عن حد الوفاء ، يتم تخفيض الجزية بقدر نقصانه. وإذا لم يوافق أحد ما على هذا العهد، لا يكون مُلزمًا بدفع الجزية ولكنه لن يكون تحت الحماية. ويمكن للنوبيين والروم الذين يريدون التمتع بالشروط نفسها أن يفعلوا هذا ومن لم يشأ منهم عليه أن يرحل . وهناك المزيد من

العبارات التى تتعلق بالنوبيين بصفة خاصة : إذ لم يكن لهم أن يستقروا فى مساكن الرعية ، ولكن أولئك الذين كانوا قد قبلوا المعاهدة سيكون عليهم تقديم عدد كبير من العبيد ومن الخيول . وشهد على المعاهدة الزبير بن العوام وابنه عبدالله وابنه محمد وكتبها وردان(*).

هذه رواية واحدة عن الصلح من بين عدة روايات بينها اختلافات طفيفة عن شروط الصلح مع أهل مصر(٤٣). وفى كثير من هذه الروايات قُدرت قيمة الجزية بدينارين للرجل البالغ مع استثناء الفقراء. وذكر البعض إنه كان على المصريين أيضا تقديم المؤن للمسلمين(٤٤). فقد كان على كان «ذى أرض» تقديم ثلاثة أرادب من القمح (تساوى مائتين وعشرة كيلو جرامات من القمح)، وقسطين من الزيت ، وقسطين من العسل ، وقسطين من الخل (كان القسط المصرى يساوى ٢,١٠٦ لتر) . كما كان لهم أن يحصلوا على الملابس: فقد كان مقرراً لكل مسلم أن يحصل سنوياً على جُبة من الصوف وبُرنس أو عمامة، وزوج من السراويل وزوج من الأحذية . وربما كان السبب فى ذلك أن الكثير من عرب الجنوب هؤلاء قد وصلوا غير مستعدين لبرد الشتاء فى مصر(**).

(*) أورد الطبرى (ج٤ ، ص١٠٩) نص الصلح كما يلى :

«بسم الله الرحمن الرحيم» . هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملّتهم وأموالهم وكنائسهم وصلُبهم، وبرهم وبحرهم، لايدخل عليهم شىء من ذلك ولاينتقص ولايساكنهم النوب. وعلى أهل مصر أن يُعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف ، وعليهم ما جنى لصوتهم (أى لصوصهم) ، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة ، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رُفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل فى صلحهم من الروم والنُوب فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا. عليهم ما عليهم أثلاثًا فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم. على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين ، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسًا، وكذا وكذا فرسًا ، على ألاّ يُغزوا ولايُمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة . شهد الزبير وعبدالله ومحمد ابناه . وكتب وردان وحضر». (المترجم)

(**) النص الكامل فى البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٢١٢ .

وإذ صار حصن بابليون فى أيدى المسلمين ، سارع عمرو بن العاص للإعداد للهجوم المحتوم على الإسكندرية. كان ذلك قبل أربعة أشهر فقط من الفيضان الذى كان سيجعل الحركة غاية فى الصعوبة . ورُممت أسوار الحصن وأعيدت إلى حالتها. ثم أمر بإعادة إقامة جسر القوارب عبر النيل . وحسب قصة حفظها التراث العربى بحب بنت يمامة عشَّها فى خيمة عمرو قبل فكها للتوجه فى الحملة على الإسكندرية . فأمر بأن يتركوها فى سلام مكانها، وقال: «لقد تحرَّم منا بمتحرَّم»(*). وزيد فى القصة لتجميلها بتعيين حراسة على الخيمة (الفسطاط) حتى لاتنزعج اليمامة(٤٥).

ووفقا للتراث المصرى لقيت الحملة مساعدة كبيرة فى هذه المرحلة من جانب الأقباط الذين ذهبوا مع الجيش « ... وقد أصلحوا لهم الطرق، وأقاموا لهم الجسور والأسواق ، وصار لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم ...»(**)(٤٦).

وكما هى العادة فإن المجرى الفعلى للحملة مرتبك . ويبدو أن الهدف الرئيسى كان نقيوس، موطن الأسقف - المؤرخ يوحنا النقيوسى. وكانت قلعة قوية على الضفة الغربية للنيل بالقرب من منوف الحالية . وكان القائد الرومانى تيودور قد غادر تاركًا أحد مساعديه ، وهو دومنتيانوس Domentianus ، قائدًا للحامية والأسطول النهرى ، ولكنه أصيب بالذُعْر عند اقتراب الجيش العربى، وهرب بالسفن إلى الإسكندرية . وعندما وجد أفراد الحامية أن قائدهم قد هرب، رموا أسلحتهم وحاولو الهروب بالقوارب، ولكن أرباب المراكب كانوا قد فرُّوا إلى قراهم . وقبض العرب على الجنود الذين كانوا يقفون إلى جوار الماء وأعمل السيف فيهم جميعًا باستثناء رجل واحد اسمه زكريا، قيل إنه تم الإبقاء على حياته بسبب شجاعته . ودخل المسلمون المدينة بلا مقاومة يوم ١٣ مايو سنة ٦٤١م ، ويروى يوحنا النقيوسى أن المسلمين « ... ذبحوا كل من وجدوه فى الطرقات والكنائس من الرجال والنساء والأطفال ولم تأخذهم شفقة بأحد»(٤٧).

(*) النص الكامل فى ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص١٣٣ ؛ المقريزى، الخطط، ج٢، ص٢٩٦ . (المترجم)

(**) النص من ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب (تحقيق شارلز تورى) ، ص٧٣ . (المترجم)

وحينذاك طارد المسلمون الجيش الرومانى تحت قيادة ثيودور أثناء تقهقره شمالاً تجاه الإسكندرية . ولم يكن الأمر سهلا على الدوام بالنسبة للعرب. ففى إحدى النقاط، أحاطت القوات الرومانية بقائد قوات المقدمة فى جيش المسلمين ، شريك بن سُمى(*)، وتعرض لخطر شديد . وأمر واحداً من رجاله ، كان له فرس أشقر «... وكان لا يُجارى سرعة...» ، أن يسرع إلى عمرو ، على مسافة ٢٦ كيلو متراً بمؤخرة الجيش فى منطقة «ترنوط» ، لكى يخبره بالخطر . وانطلق الرومان لمطاردة الرسول ولكنهم لم يتمكنوا من اللحاق به . وعندما سمع عمرو بن العاص الرسالة التى جاء بها رسول شريك ، تقدم بما أمكنه من سرعة وتقهقر العدو، لأنه لم يكن على استعداد للقائه فى المعركة . وبعد ذلك، عرف المكان دائما باسم «كوم شريك» .

واستمرت القوات العربية فى تقدمها . وكانت هناك مواجهة وحشية أخرى عند الكريون فى الدلتا . ويبدو أنه فى ذلك المكان حارب الروم والقبط معًا وجاءتهم التعزيزات من جميع المدن والقرى المحيطة(**)(٤٨). وقد استئصلت قوات تيودور بعد معركة قاسية لدرجة أن «... عمرو بن العاص صلى يومئذ صلاة الخوف ...»(٤٩) وفى هذه المعركة جُرح ابن عمرو جُرحًا بليغا وهو يحارب فى طليعة الجيش. وفى النهاية أجبر تيودور ومن بقى من قواته على التقهقر إلى الإسكندرية.

وحينئذ اقتربت القوات العربية من المدينة . ويقدم لنا بتلر وصفًا معبراً عن عواطفه الخاصة يتخيل فيه ما كان يجب أن يشاهدوه(٥٠) :

«لا بد أن كثيرا من الجنود فى ذلك الجيش العربى كانوا قد شاهدوا مدنًا جميلة فى فلسطين، مثل الرها، ودمشق ، والقدس(٣٠)، بل يمكن أن يكون بعضهم قد حملقوا

(*) كتبه المؤلف Sharik b. Shuway . وقد أثبت الصيغة من ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص٧٣ . (المترجم)

(**) يقول نص البلاذرى (فتوح البلدان ، ص٢١٨) : «... وكان من دون الإسكندرية من الروم والقبط قد تجمعوا له ، وقالوا : فغزوه بالفسطاط قبل أن يبلغنا ويروم الإسكندرية فلقيهم بالكريون فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وكان فيهم من أهل سخا، وبلهيت، والخيس ، وسلطيس وغيرهم قوم رفدوهم وأعانوهم». (المترجم)

فى روائع أنطاكية ذائعة الصيت أو عجائب بالميرا ؛ بيد أن شيئا لم يكن يجعلهم مستعدين للفخامة الخارقة للمدينة التى كانت تتراءى أمامهم آنذاك، وهم يمرون بين البساتين والأعناب والأديرة التى تكثر فى ضواحيها . كانت الإسكندرية، حتى فى القرن السابع ، أرقى مدينة فى الدنيا: ويمكن أن نستثنى قرطاج وروما القديمتين ، إذ لم ينتج فن البناء مثيلاً لها من قبل أو من بعد. وعلى مرِّ القرون اللاحقة لتثير حماسة الرَّحالة . وكانت القباب والواجهات المثلثة تومض من وراء الأسوار ومن فوقها ، ومعها الأعمدة والمسلات والتماثيل ، والمعابد والقصور . وإلى اليسار [حيث كان العرب يقتربون من الجنوب الشرقى] كان المشهد محدوداً بالسرابيوم المتعالى بأسقفه المطلية اللامعة ، والقلعة التى يقف عليها عمودا دقلديانوس شامخًا : وإلى اليمين كانت كاتدرائية مرقص تبدو للعيان، وبعيداً فى الغرب كانت تلك المسلات العظيمة المعروفة باسم مسلات كليوباترا(٥٢)، التى كان عمرها آنذاك يزيد على ألفى سنة، أو ضعف عمر بناء المدينة. وكان الفضاء فيما بينها يمتلئ بالخطوط العامة للعمارة الباهرة : وفى الخلفية ، يقف الأثر المذهل المعروف باسم فاروس ، الذى يعتبر بحق إحدى عجائب الدنيا السبع . وحتى أولئك المحاربون أنصاف البرابرة القادمون من الصحراء(*) قد تحركوا بشكل غريب من جراء الفخامة والعظمة».

وعلى أية حال ، يوحى الدليل الأثرى بأن بعضًا من مجد الاسكندرية كان قد ولىّ منذ زمن طويل(٥٣). كان المنار (فاروس) لا يزال متماسكًا، يضىء مدخل الميناء، والشارع الرئيسى فى المدينة ما زال يجرى على امتداد الطريق الكانوبى Via Canopica القديم، ولكن معظم الجزء الشرقى من المدينة القديمة كان مهجوراً خاوياً. وعلاوة على ذلك ، كان الميناء الجنوبى المهم على بحيرة مريوط قد بات خراباً من جراء القتال بين مؤيدى الإمبراطور فوكاس ومنافسه هرقل فيما بين سنة ٦٠٨م وسنة ٦١٠م ، وهو القتال الذى دمَّر أنظمة القنوات . وفى أعقاب هذا الدمار، تم التخلى عن الكثير من

(*) هذا الوصف العنصرى ليس المؤلف مسئولاً عنه لأنه ينقل نصًا عن بتلر فى كتابه الشهير والملىء بالانحيازات. (المترجم)

الجزء الجنوبى من المدينة أيضا. وعندما أمر الخليفة المتوكل العباسى (٨٤٧-٨٦١م) ببناء مجموعة جديدة من أسوار المدينة فى القرن التاسع ، كانت تضم فقط حوالى ثلث المدينة القديمة . لقد أدت الزلازل ، والدمار الذى حاق بالمدينة من جراء إغارة الفرنج الصليبيين على المدينة سنة ١٣٦٥م(*)، وإعادة بناء المدينة بأوامر من محمد على فى مطلع القرن التاسع عشر، إلى طمس معظم معالم الإسكندرية القديمة والوسيطة ، وعلى أية حال، فإن الأدلة الأثرية المتناثرة توحى بالفعل أن المدينة التى فتحها العرب كانت قد انكمشت داخل أسوارها القديمة وأن مناطق كثيرة فيها كانت مهجورة . وربما كانت التحصينات ، التى يرجع تاريخها إلى أيام عز المدينة زمن البطالمة ، أطول مما يلزم بالنسبة لعدد السكان بحيث لايمكن أن تدافع عن المدينة بكفاءة.

وعلى الرغم من هذه المشكلات ، ربما كانت مدينة الاسكندرية قد صمدت على مدى عدة أشهر أو حتى عدة سنوات ، خاصة إذا وصلتها الإمدادات عن طريق البحر، بيد أن هذا لم يكن ليحدث. فقد كانت الإمبراطورية بأسرها والإسكندرية خاصة ممزقة أشلاء بسبب التنافس والغيرة والضغائن . وعن تفاصيل هذه المنافسات والضغائن نعتمد تماماً على رواية يوحنا النقيوسى، لأن الكُتَّاب العرب لايخبروننا بشىء عن هذه الصراعات.

كان الإمبراطور هرقل قد مات يوم ١١ فبراير سنة ٦٤١م ، أى قبل شهرين من استسلام بابليون . وكان قد رتَّب أن يتم اقتسام السلطة الإمبراطورية بين ولديه ، قنسطنطين وهرقل . ولم يقدر لهذا المشروع أن يرى النور أبداً ، وقام قنسطنطين بهجوم فعّال . فقد استدعى كيروس ثانية من المنفى ودعاه هو وقائد القوات العسكرية فى مصر إلى اجتماع ، ووافق فى الاجتماع على إرسال المزيد من القوات إلى مصر.

(*) هذه إشارة إلى الغارة التى قام بها بطرس لوزنيان ملك قبرص الصليبى من سلالة لوزنيان على الإسكندرية حيث مارست قواته الصليبية التى جاءت من قبرص وبعض الأوربيين، أعمالاً وحشية وغادرت بعد أيام قليلة هرباً من قوات الجيش المملوكى التى اقتربت من الإسكندرية، ورمت بعض حمولتها فى مياه البحر المتوسط تخففاً لضمان سرعة أكبر فى الهروب. (المترجم)

وكانت الاستعدادات للحملة تجرى على قدم وساق عندما مات قنسطنطين فجأة يوم ٢٤ مايو . وحينئذ انتقلت السلطة إلى أخيه الأصغر غير الشقيق هرقل وأمه الطموح مارتينا Martina . ويبدو أن الحكومة الجديدة كانت قد عقدت العزم على الصلح مع المسلمين وتم إرسال كيروس إلى الإسكندرية مرة أخرى ، ليس لتقوية المقاومة وإنما للبحث فى ماهية الشروط التى يمكن التفاوض بشأنها . وربما يكون الحكام الجدد بالقسطنطينية قد شعروا بأنهم فى حاجة إلى كافة مواردهم العسكرية للحفاظ على مكانهم فى العاصمة. وربما كان كيروس يأمل فى أن يستطيع إعادة بناء ترتيبات الجزية التى كان قد وضعها قبل سنة ٦٣٩م. وعلى أية حال، فإن البيزنطيين غالبًا ما كانوا يدفعون الإتاوات للبرابرة لكى يبقوا خارج ممتلكاتهم ، وربما ظنوا أن تكون هذه المجموعة الصغيرة من المغيرين على استعداد لقبول الشروط.

فى الوقت نفسه كانت ثمة منازعات مريرة فى الإسكندرية بين اثنين من المتنافسين على موقع القائد العسكرى: دومنتيانوس Domentianus ، الرجل الذى كان قد سلَّم الفيوم أولاً ثم نقيوس، وميناس Menas الذى قيل إنه كان أكثر شعبية . وكان يساند كلاً من الرجلين أحد حزبى السيرك(*)، فقد كان الزرق يؤيدون دومنتيانوس على حين كان الخضر يؤيدون ميناس وكانت فرق السيرك المتنافسة ، التى تسمى بأسماء الألوان تؤيد فى الأصل سائقى عربات السباق التى تجرها الخيول . وكانت بؤرة مهمة للولاء والصراع فى أواخر العصور القديمة بيد أنه لم تبق أى من هذه الفرق بعد الفتح

(*) كانت أحزاب الملعب أو السيرك من ضمن ما ورثته الإمبراطورية البيزنطية عن الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وكانت فى البداية أربعة حسب ألوان العناصر الأساسية فى الحياة، ثم بقى منها حزبان فقط: الخضر والزرق. وكانت أحزاب الملعب (السيرك Circus) تتمتع بقوة سياسية ضخمة مما جعل الدولة تعين عددًا كبيرًا من الموظفين على رأس كل حزب منهما، ويتولى انتخاب هؤلاء الموظفين عدد من الأثرياء الذين ينفقون على مؤسسات التدريب والسباق فضلاً عن ألعاب الدببة والكلاب والألعاب البهلوانية التى كانت تجرى أثناء الاستراحة فى سباق العربات . وكان الحزبان يشكلان خليطا غريبًا من الانتماءات السياسية والاجتماعية والدينية ، فضلاً عن الرياضة . وكثيرا ما أثار النزاع بينهما اضطرابات عنيفة فى العاصمة أشهرها ما عرف باسم ثورة «نيكا» التى كادت تطيح بالإمبراطور جستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥م). (المترجم)

الإسلامى. وكان باستطاعة القائدين استدعاء مؤيديهما ، وفعلاً ذلك، للخروج إلى الشوارع. وليس واضحًا ما إذا كانت هذه العداوة أكثر من عداوة شخصية : إذ يتحدث يوحنا النقيوسى عن توترات دينية ولكنه لايقدم المزيد من التفسير . وربما كانت أيضا اختلافا فى السياسة : فقد وافق دومنتيانوس مع مارتينا وكيروس حول الوصول إلى اتفاق مع العرب.

ولا يذكر يوحنا أى قتال خطير ولكن التراث المصرى - العربى يصف حصاراً يدب فيه الحيوية من حين لآخر بخروج أفراد الحامية للهجوم أو بالاشتباكات الفردية. ومن الواضح أنه كانت هناك بعض المناوشات خارج أسوار المدينة، ولكن ، لم يكن هناك هجوم عام فيما يبدو . وعندما حانت النهاية، كانت من خلال المفاوضات بدلاً من العمل العسكرى.

عاد كيروس إلى الإسكندرية صباح يوم الصليب المقدس ١٤ سبتمبر ٦٤١م . وتوقف أولا عند دير تابنسى Tabensi بالقرب من الميناء حيث كانت شظية من صليب الصلبوت، أرسلت بناء على أوامر الإمبراطور هرقل، محفوظة فيه. ثم أخذها كيروس فى موكب خلال الشوارع إلى كنيسة قيساريون الشهيرة . ويخبرنا يوحنا النقيوسى كيف غطى الناس الطريق بالسجاد وأنشدوا الترانيم تشريفًا له، وكانت الحشود كبيرة جدًا لدرجة أن الناس داسوا بعضهم بعضًا(٥٤). ومن المثير أن المؤرخ القبطى يسجل الترحيب الشعبى الذى لقيه العدو الأكبر لكنيسته . وقد ألقى موعظة فى موضوع صليب الصلبوت ولكن فى نهاية صلاته قام أحد الشمامسة بترتيل خاطئ ، آملاً أن يفرح البطريرك بإشارة مباشرة لعودته . وهزَّ الناس رؤوسهم بسبب الخروج غير المناسب عن المألوف وتنبأوا بحكمتهم بأن كيروس لن يرى عيد الفصح ثانية بالمدينة ؛ أو هكذا قيل لنا .

وفى أكتوبر غادر كيروس المدينة فى هدوء وذهب للتفاوض مع عمرو بن العاص فى الفسطاط . وكان ذلك وقت فيضان نهر النيل، وكان عمرو قد عاد من حملته فى مصر الوسطى إلى قاعدته. ووفقا لرواية يوحنا النقيوسى رحب عمرو بالبطريرك قائلا:

«أحسنت عملاً بقدومك إلينا» ، وأجابه كيروس بأن «الرب سلم هذه الأرض إليكم : فلا تكن عداوة بينكم وبين روما» . ووفقًا لرواية مؤرخة سوريانية ، شرح كيروس أنه لم يكن هو المسئول عن نقض المعاهدة وعدم دفع الجزية و«توسل إلى المسلمين بلسان فصيح لكى يقبلوا الذهب الذى قدمه لهم، ولكن عمرو بن العاص أجابه «الآن وقد ملكنا البلاد ، لن نتخلى عنها»(٥٥). وشعر كيروس أنه لا يملك بديلاً سوى القبول بالأمر الواقع وتم فى النهاية الاتفاق على الصلح يوم ٢٨ نوفمبر ٦٤١م . وتعين على أهل الإسكندرية أن يدفعوا الجزية . وكان على الجيش البيزنطى أن يغادر المدينة بممتلكاته وخزائنه ويعود إلى القسطنطينية عن طريق البحر. وتقررت هدنة لمدة أحد عشر شهرًا لتنفيذ هذه الترتيبات . وفى الوقت نفسه ، كان للمسلمين أن يحتفظوا بمائة وخمسين جنديًا ، وخمسين مدنيًا ، رهائن ، لكى يضمنوا تطبيق شروط الإتفاقية.

وعاد كيروس بعد ذلك إلى الإسكندرية لتسويق اتفاقيته لدى القائد العسكرى تيودور ولكى يُبلغ الإمبراطور . وجاء أهل المدينة جميعا لدفع الجزية إليه ولكنه لم يجرؤ على أن يشرح لهم ما كان قد فعله . ولم يحدث حتى ظهور القوات العربية لجمع الدفعة الأولى من الجزية أن أدرك أهل الإسكندرية أن الصلح قد تم . وعندما رأى السكندريون القوات الإسلامية جمعوا أسلحتهم استعداداً للمعركة ، ولكن القادة العسكريين أعلنوا أن المدينة قد استسلمت . وكان رد الفعل الشعبى المباشر عدائيًا للغاية وهددوا البطريرك بالرجم بالحجارة. وعند هذه النقطة ظهر كيروس واضحًا : فقد تساقطت دموع الحزن من مقلتيه وهو يحث الناس على قبول الشروط ، قائلاً إنه عقد المعاهدة لكى ينقذهم وأطفالهم وأخيرًا كسبهم إلى جانبه؛ وتم جمع الأموال ودفعها يوم ١٠ ديسمبر سنة ٦٤١م ، الذى صادف يوم رأس السنة الهجرية سنة ٢١هـ .

وبعد سقوط الإسكندرية ، كانت هناك مقاومة قليلة . ويبدو أن عمرو بن العاص كان قد قاد بالفعل جيشًا فى مصر الوسطى . وكانت هناك بعض المقاومة من الحاكم المحلى فى أنتينوبوليس ولكن الجيوش الإسلامية لم تواجه أية معارضة فى أى مكان آخر. وفى أثناء فترة الهدنة التى أعقبت استسلام الإسكندرية ، زارت الجيوش الإسلامية المدن الصغيرة شمال الدلتا. ومرة أخرى ، كانت هناك مقاومة هزيلة ولكن لم توجد أية معارضة قوية.

وفى الوقت نفسه ، كانت الإسكندرية تتواءم مع الموقف الجديد. فقد أبحر كثير من الروم، بما فيهم القسم الأساسى من الجيش على ما يفترض ، متوجهين إلى القسطنطينية من المناطق التى ما زالت بأيدى البيزنطيين . ومات كيروس نفسه ميتة هادئة لأسباب طبيعية . كان هذا مقياساً لكون الأمور طبيعية فقد تم انتخاب خليفة البطريرك الخلقدونى فى موعده . وفى الوقت نفسه عاد البطريرك القبطى بنيامين إلى الظهور من مخبئه وتمكن من العودة إلى المدينة. وأبحرت آخر القوات البيزنطية تحت قيادة تيودور إلى قبرص يوم ١٧ سبتمبر، وتم المشهد الأخير عندما دخل عمرو المدينة رسمياً دونما مقاومة فى يوم ٢٩ سبتمبر ، بعد نهاية هدنة الأحد عشر شهراً . لقد انتهت فترة طولها ألف سنة من الحكم اليونانى - الرومانى(*).

ومن عدة وجوه كان الحكم الإسلامى استمراراً لما جرى من قبل . ونحن نعرف من أوراق البردى الإدارية التى تخبرنا بالكثير عن الحياة اليومية فى مصر أن جباة الضرائب أنفسهم كانوا يجمعون الضرائب نفسها تحت الحكم البيزنطى وتحت الحكم الإسلامى على السواء وأنهم استمروا فى استخدام اللغة اليونانية لغة للحكم . وقد استمر هذا الوضع نصف قرن آخر قبل أن تصير اللغة العربية لغة الإدارة.

وعلى أية حال ، لم يكن الفتح الإسلامى يعنى تغييرات رئيسية من عدة جوانب . ومن أوضح الأمور أن الأوامر آنذاك كانت تأتى من المدينة المنورة لا من القسطنطينية، وأن الولاة كانوا من المسلمين الناطقين بالعربية، وليسوا من المسيحيين المتحدثين باليونانية . وكان المؤشر على هذا التغيير هو تحول وجهة صادرات الغلال . إذ كانت الغلال من مصر تحول روما فى البداية، ثم القسطنطينية . وبعد الفتح كانت تحول المدينة ومكة . وكان أحد المشروعات الأولى التى نفذتها الحكومة الجديدة إعادة فتح

(*) هذه صياغة فضفاضة جداً ، بل غير حقيقية من الناحية التاريخية . إذ لم تكن مصر تحت حكم أسرة البطالمة أرضاً محتلة وإنما كانت دولة إقليمية مستقلة وقوية، ولم تسقط تحت الاحتلال سوى بعد مصرع كليوباترا السابعة إثر هزيمتها هى وأنطونيوس فى معركة أكتيوم البحرية سنة ٣٤ ق.م ، فصارت «ولاية رومانية» ، واستأثر بها أوغسطس أول حكام الإمبراطورية الرومانية . (المترجم)

القناة القديمة التى كانت تجرى من نهر النيل عند موقع القاهرة حاليًا إلى البحر الأحمر. وعندها بات من الممكن شحن الغلال بالسفن مباشرة إلى عاصمة الخلافة الجديدة من حقول مصر الخصيبة.

وتقول القصة إن عمرو بن العاص كان ينوى أن يجعل الإسكندرية عاصمته، وهو تحرك كان سيبدو طبيعيًا ، ولكن الخليفة عمر بن الخطاب منعه من فعل هذا ، لأنه خشى من النفوذ المسيحى الهللينى(*) فى المدينة . وبدلاً من ذلك استقر الوالى وجيش الفتح إلى الشمال مباشرة من حصن بابليون فى المكان الذى صار نواة القاهرة القديمة . وتزعم الموروثات المصرية - العربية أن الخليفة عمر بن الخطاب اتخذ القرار، لأنه لم يكن يريد أن تكون جيوش المسلمين معزولة عن شبه الجزيرة العربية بالماء، مثلما فعل فى الكوفة والبصرة . كما كانت الفسطاط أيضا فى موقع استراتيجى حاكم على رأس الدلتا ، لا تبعد سوى عدة كيلومترات قليلة عن منف عاصمة الفراعنة . وهنا (فى الفسطاط) تم بناء أول مسجد. وعلى الرغم من أن معظم نسيجه المعمارى بنى فيما بعد، فإن المسجد لا يزال معروفًا باسم مسجد عمرو بن العاص ويشغل الموضع الذى بناه فوقه . وحول المسجد بنى العرب خططهم حيث أقاموا خيامهم وبنوا مساكنهم. وأسماء القبائل المختلفة التى استقرت هناك محفوظة بشكل محبب فى المصادر التاريخية المصرية - العربية، وعلى مدى قرنين من الزمان على الأقل ظلت تحتفظ بأسماء الأجداد الذين كانوا قد وفدوا مع الفتح وهو ما كان يعنى ليس فحسب الهيبة الاجتماعية وإنما الحق فى نصيب من عوائد الضرائب أيضًا . ويظهر من القائمة أن الغالبية الساحقة من الذين استقروا كانوا من عرب الجنوب، من مناطق الاستقرار فى

(*) ربما يكون من الأصح القول بأنه هيلينستى لأنه من المعروف أنه فترة ما بعد الاسكندر الأكبر تعرف عادة باسم العصر الهيلينستى لاختلاط العناصر الهيللينية (أى اليونانية) بالعناصر الأسيوية . وعلى أية حال، فإننا لانوافق على هذا التقسيم الذى يجعل الحضارة الأوربية الحضارة المرجعية فى العالم على مدى العصور، فضلاً عن أنه تقسيم فضفاض يتجاهل الاختلافات الثقافية الواضحة بين الجماعات البشرية المختلفة. (المترجم)

اليمن وحضرموت وجنوب شبه الجزيرة العربية . وصار المكان الذى استقروا به يعرف باسم الفسطاط ، إما مشتقًا من واحد من الأسماء العربية العديدة للخيمة أو تحريف للكلمة اليونانية فسَّاتُن Fossaton التى تعنى الخندق . كانت الفسطاط ، مقارنة بالمدينة الإسلامية الجديدة فى العراق، أى الكوفة ، التى يبدو أنها كانت قد بنيت بشوارع واسعة ومركز حضرى مفتوح، أكثر عشوائية وتداخلاً . فقد استقرت مختلف القبائل والعائلات حيثما شاءوا وتطورت الشوارع عن الممرات الملتوية التى كانوا يسلكونها للذهاب إلى النيل طلبًا للماء أو فى طريقهم إلى المسجد أو السوق . وكانت المدينة منتشرة على مساحة واسعة تمتد حوالى خمسة كيلو مترات من الشمال إلى الجنوب على امتداد ضفاف نهر النيل وعرضها كيلو متر واحد على الأقل من الغرب إلى الشرق . وتوطن الناس فى جماعات عرقية ، كل منها ما بين ثلاثمائة وثلاثمائة وخمسين رجلاً خُصصت لهم «خطة» يبنون فيها منازلهم . وكانت الفسطاط الأولى ، حسب كلام مؤرخها الأعظم : «خليط متلاحم من ثلاثين أو أربعين مستوطنة قبلية (أو من عدة قبائل) تضم عدة مئات من الخيام والأكواخ المصنوعة من الأقصاب أو الطين ، وقد بنيت متقاربة إلى بعضها البعض وتفصل بين كل مستوطنة وأخرى مساحات فسيحة من الأرض غير المأهولة»[٥٦]. وقد أكد البحث الأثرى الحديث أن معظم الموقع كان مفتوحا وغير مبنى زمن الفتح الإسلامى وأن بناء المساكن الدائمة من الطوب الآجر كان قد بدأ فى وقت باكر للغاية[٥٧].

وكان مقدرًا لهذا الاستيطان العشوائى فى الفسطاط أن يحظى بمستقبل مجيد. فمنذ زمن تأسيسها على يدى عمرو بن العاص سنة ٦٤١م حتى يومنا هذا ، ظلت هذه المدينة على رأس الدلتا عاصمة لمصر . حقا إن مركز القوة قد انتقل تدريجيًا نحو الشمال، من خلال الحى الرسمى الذى بنى فى القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) على الحدود الشمالية للفسطاط (أى العسكر والقطائع) حتى مدينة القاهرة ذات الأسوار التى أسسها الفاطميون سنة ٩٦٩م ، ولكن على الرغم من هذه الهجرة البطيئة إلى الشمال، بقيت الفسطاط مركزًا للسكان والتجارة حتى عام ١١٧١م ، عندما أحرقت

أجزاء كبيرة منها زمن الحروب الصليبية خوفًا من الغزو(*). ومنذ ذلك الحين بقى معظم موقع الفسطاط خرابًا ، حيث تغطى أكوام الحطام المنخفضة بقايا المنازل والمساجد والحمامات . بيد أن حصن بابليون القديم ظل مركزًا لديانة الأقباط وثقافتهم، ولا يزال المسلمون يصلون فى المسجد الذى يحمل اسم عمرو بن العاص ، ويبجلونه باعتباره أقدم مساجد مصر.

وقد أنهى تأسيس الفسطاط دور الإسكندرية بوصفها العاصمة. فعلى مدى ألف سنة تقريبًا كانت مصر تحكم من هذه المدينة البحر متوسطية بواسطة نخبة من الناطقين باليونانية . وكان الإتصال بروما والقسطنطينية عن طريق البحر المتوسط سهلاً ويحدث كثيراً . وفى أثناء الهدنة فيما بين مفاوضات استسلام المدينة ووصول الحامية العربية ، رحل عدد كبير من أفراد هذه النخبة . وصارت الإسكندرية ثغرًا أو مدينة حدودية . ففى أواخر سنة ٦٤٥م ، نزلت قوة بيزنطية تحت قيادة من يدعى مانويل الإسكندرية واستولت عليها بسهولة . ومن هناك انطلقوا يعيثون فى الدلتا فساداً، ولكنهم فشلوا فى اغتنام الفرصة ومهاجمة الفسطاط . فقد أعيد تعيين عمرو بن العاص ، الذى كان قد خلع من منصب الوالى آنذاك ، على وجه السرعة ليقود الجنود الذين تولى قيادتهم من قبل بهذا القدر من النجاح فى الفتح الأول. وأرغم البيزنطيون على التقهقر إلى الإسكندرية مجدداً. وفى صيف ٦٤٦م فرض الحصار على المدينة. ويقول البعض إن المهاجمين المسلمين هدموا أسوار المدينة بآلات الحصار، ويقول آخرون إن السبب فى سقوطها يرجع إلى خيانة أحد حرأس البوابات. ويستحيل إثبات صحة أى من هاتين الروايتين. وعلى أية حال، فالواضح أن المدينة قد أخذت عنوة : وهرب بعض الجنود البيزنطيين بحرًا على متن السفن ، على حين لقى كثير غيرهم، ومن

(*) أحرقها شاور أحد الوزيرين المشتبكين فى صراع على السلطة بعد أن استنجد بقوات نور الدين محمود فى مواجهة غريمه ضرغام والفرنج ، ثم غدر بالمسلمين واستنجد بالفرنج ثم خاف منهم وأحرق الفسطاط التى ظلت النار مشتعلة بها خمسين يومًا . وقد قتله صلاح الدين الأيوبى فى أحد شوارع القاهرة. (المترجم)

بينهم مانويل نفسه، مصرعهم فى القتال. وهذه المرة كان مجئ العرب مقرونًا بإحراق أجزاء كثيرة من المدينة وذبح أعداد كبيرة من أهلها حتى أوقف عمرو بن العاص القتل فى مكان عرف منذ ذلك الحين باسم مسجد الرحمة.

وقد أكد الفتح الثانى وضعية الفسطاط بوصفها العاصمة كما حسم مصير الإسكندرية التى صارت حينئذ مدينة إقليمية. ومن بعض الجوانب كانت تلك عودة إلى نموذج أكثر قدما: فقد خلفت الفسطاط منف العاصمة الفرعونية.

لقد ظل الاستيطان العربى محدودًا للغاية. ومن غير المحتمل أن يكون العدد قد زاد عن أربعين ألف رجل[٥٨] مع عائلاتهم ، ولنقل إنها كانت هجرة قوامها مائة ألف نسمة[٥٩]. وبعد تأمين البلاد عرف العرب كيف يديرون مواردها لصالحهم ، ولم تكن لديهم نية أو رغبة فى تشجيع المزيد من الهجرات: إذ كان هذا سيعنى توزيع الموارد بأنصبة أقل. كما أنهم لم يرغبوا فى تشجيع الأقباط على اعتناق الإسلام ، لأنهم كانوا سيطلبون نصيبهم أيضًا[*]. وعلى مدى معظم القرن الذئ أعقب الفتح، كان الاستقرار العربى محصورًا فى الفسطاط، وحامية الإسكندرية وحامية أخرى فى أسوان للدفاع عن مصر العليا ضد الهجمات من النوبة. وبقيت الأغلبية الغالبة من السكان قبطية مسيحية كما أن الوظائف الدنيا فى الإدارة كان يشغلها إلى حد كبير العائلات والمجموعات نفسها التى كانت تخدم الإدارية الإمبراطورية البيزنطية والفارسية من قبل . وكانت الوظائف العسكرية والوظائف العليا فى الإدارة من العرب فحسب .

وقد لقى الأبطال الرئيسيون فى دراما فتح مصر مصائر مختلفة . وكان كيروس أول من ذهب ، ومات لأسباب طبيعية فى فترة الهدنة ما بين معاهدة الاستسلام

(*) هنا نجد المؤلف ، على الرغم من اتساع أفقه العلمى ومنهجه المدهش فى الدراسة، يركن إلى التفسير الأحادى للظاهرة التاريخية. فهو يتحدث عن أمرين مختلفين ؛ ومع ذلك ينسبهما إلى سبب واحد هو المكاسب المادية. وقد نسى عقد الذمة الذى كتبه عمرو لأقباط مصر ، وحفظ لهم حرية العقيدة ، وكان ذلك السبب الجوهرى فى بقاء الأقباط غالبية السكان حتى منتصف القرن الهجرى الثالث / التاسع الميلادى. وعلى أية حال ، فإننى لا أستطيع الموافقة على ما ذهب إليه. (المترجم)

والاحتلال العربى النهائى . وإذْ كتب بتلر بصورة تخيلية اعتماداً على يوحنا النقيوسى، أعاد بناء تاريخ الشهور الأخيرة فى حياة كيروس :

«كان كيروس آنذاك رجلاً منكسراً فى ذهنه وبدنه. فقد تلاشت جميع أحلامه الطموح : وذهبت آماله الشخصية فى السلامة [بسبب غضب الإمبراطور مما فعله] . وعندما شعر بالظلال تتجمع حول حياته ، صحا ضميره وأحس بجرائمه وإخفاقاته على السواء . وإذْ تمزق بفعل الندم الذى لاينفع ، فقد انتابه أسى بسبب خيانته لمصر وذرف دموعاً بلا توقف . وكان غارقاً فى الكآبة والقنوط لدرجة أنه سقط فريسة سهلة للدوسنتاريا التى أمسكت به يوم أحد السعف وفى يوم الثلاثاء الذى يليه، ٢١ مارس سنة ٦٤٢م، مات»[٦٠].

وفى الحقيقة ، ربما كان كيروس محقاً فى الموافقة على دفع الجزية واللعب على الوقت بدلاً من المخاطرة بهزيمة عسكرية على أيدى العرب. ولو أنهم اتبعوا سياسته ، فربما كان تاريخ مصر مختلفا لغاية.

ولم تكن السنوات الأخيرة فى حياة البطريرك القبطى بنيامين لتختلف كثيراً[٦١]. ولدينا بعض التفاصيل فى السيرة القريبة من المعاصرة والموالية جداً للبطريرك . فعندما احتل عمرو بن العاص الإسكندرية أقنعه نبيل قبطى إسمه سانوتيوس Sanutius أن يرسل إعلان أمان لبنيامين ويدعوه للعودة إلى الإسكندرية . وعندما وصل ، بعد ثلاثة عشر عاما من الاختفاء ، عامله عمرو بحب واحترام وقال : «فى جميع البلاد التى فتحتها لم أرْ رجلاً للرب مثل هذا». ثم أصدر له تعليمات بأن يستأنف السيطرة على الكنيسة القبطية ويشرع فى مصالحة أولئك الأقباط الذين كانوا قد هجروا العقيدة فى أثناء حكم كيروس، وفيهم عدد من الأساقفة. ورتب لإعادة بناء أديرة وادى النطرون التى كانت قد دُمرت على أيدى الخلقدونيين بما فى ذلك البيت الكبير للأنبا مكاريوس ، الذى لا يزال موجوداً حتى اليوم «لقد نمت الأعمال الطيبة للأرثوذكس (الأقباط) وتزايدت وفرح الشعب بها مثل صغار العجول عندما تفك قيودها وتنطلق لكى تتغذى على لبن أمها»[٦٢]. وعندما عاد بنيامين إلى الإسكندرية مرة أخرى، وجلس بين رعيته ،

وطد نفسه فى دير سان متراس ، لأن جميع الرهبان هناك كانوا مصريين ولم يسمحوا بأن يلوثه الخلقدونيون المكروهون .

وأرسى بنيامين أيضا علاقات طيبة مع عمرو بن العاص . فبعد سقوط الإسكندرية بفترة قصيرة ، استعد عمرو للإنطلاق بحملته إلى ليبيا. وطلب من بنيامين طلباً : «إذا صليت من أجلى حتى ذهب إلى الغرب والمدن الخمس وأتملكها مثلما تملكت مصر وأرجع بالسلامة وبسرعة فإننى سأفعل كل ما تطلبه منى». ويقدم لنا ساويرس بن المقفع كاتب سيرة بنيامين صورة مذهلة للبطريرك الذى يصلى من أجل نجاح القائد المسلم ضد سكان برقة النصارى(*)(٦٣).

وقد عاش بنيامين ما يقرب من عشرين سنة بعد سقوط مصر بأيدى المسلمين، ومات عن عمر مديد معززاً مكرماً سنة ٦٦١م . وتم دفنه فى دير الأنبا مكاريوس، حيث لا يزال يحظى بالتبجيل باعتباره من القديسين . ولا يمكن أن يكون هناك شك فى أنه لعب دوراً رئيسياً فى بقاء الكنيسة القبطية فى أثناء فترة الانتقال إلى الحكم العربى.

وعاش عمرو بن العاص بعد بنيامين ثلاث سنوات أخرى، ولكنه لم يستمر حاكماً على مصر. ففى سنة ٦٤٥م خلعه الخليفة الجديد عثمان بن عفان ، الذى كان يحاول أن يمركز حكومة الخلافة ، وعين محله عبدالله بن سعد بن أبى السرح ، الذى لم تربطه مثل هذه العلاقات الوثقى مع الجيش الفاتح ، وكان يمكن الاعتماد عليه فى إرسال المزيد من الدخل إلى المدينة المنورة . ولكن عمرو بن العاص لم يكن قد انتهى أمره بعد.

(*) تدخل كتابات ساويرس بن المقفع فى كتاب «سير البطاركة» ضمن ذلك النوع من الأدب التاريخى المعروف باسم «سير القديسين Hagiography»، وهى كتابات لا تسجل التاريخ كما حدث ، وإنما تقولبه فى قوالب مسيحية نموذجية تصور القديس فى الصورة التى ينبغى أن يكون عليها، لا فى صورته التاريخية الحقيقية؛ ومن هنا يكتنف الشك هذه الكتابات كثيراً . ومن ناحية أخرى، فإن المصادر التاريخية الأخرى لا تتحدث عن طلب عمرو بن العاص ، وهو واحد من الصحابة ، من البطريرك المسيحى أن يصلى من أجله وهو يحارب تحت راية الجهاد فى سبيل الله . والمدهش أن المؤلف يأخذ رواية ساويرس على علاتها مع أنه يشكك فى الروايات الواردة لدى المؤرخين المسلمين باستمرار. (المترجم)

إذْ لَعب دوراً مهمًا باعتباره مستشار قريبه معاوية بن أبى سفيان ، أول الخلفاء الأمويين، فى الصراع الذى أعقب مقتل عثمان بن عفان سنة ٦٥٦م. وفى ٦٥٨م عينه معاوية قائداً لجيش ينتزع مصر من منافسه على بن أبى طالب. وعلى الرغم من أنه كان لا يزال قادراً على جذب التأييد من الفاتحين الأحياء وأولادهم. وفى معركة قاسية بالقرب من الفسطاط فى صيف سنة ٦٥٨م هزم مؤيدى على بن أبى طالب ، ودخل العاصمة التى كان قد أسسها ظافراً . وبقى واليًا حتى بلغ حوالى السبعين من عمره وتوفى لأسباب طبيعية فى بواكير سنة ٦٦٤م ، ودفن عند سفح جبل المقطم ، الذى يرتفع إلى الشرق من الفسطاط ، ولكن المسلمين الأوائل لم يكونوا يهتمون بتحديد أماكن دفن موتاهم ولم يتم التعرف على قبره أبداً .

وتعطى المصادر التاريخية عمرو بن العاص سمعة طيبة. وعن كفاءته قائداً عسكريا وسياسيًا لايمكن أن يكون هناك شك – ذلك أن النتائج تتحدث عن نفسها– ولكنه كان أيضا يشتهر بالسلوك المستقيم والعدالة. وفى التراث المصرى– العربى، يُشار إليه ليس باعتباره فاتحًا فحسب وإنما بوصفه رجلاً لم يرع مصالح الجنود وعائلاتهم فى الجيش الفاتح على حساب الحكومة المركزية فى المدينة أو فى دمشق. وقد تم تصويره على فراش الموت رجلاً حكيمًا ورعًا تقيًا ، رجلاً من الذين أوصى عليهم النبى نفسه (من المبَشرين بالجنة)[٦٤]. كما أن صورته جيدة أيضا فى المصادر القبطية المسيحية. وقد رأينا بالفعل كيف أن كاتب سيرة بنيامين يصف العلاقات الطيبة التى كانت تجمع عمرو بن العاص ببطله. بل إن ما يذهل أكثر هى شهادة يوحنا النقيوسى . ولم يكن يوحنا معجبًا بالحكم الإسلامى وكان قاسيًا فى إدانة ما رأى أنه اضطهاد أو إساءة معاملة، ولكنه يقول عن عمرو بن العاص: «لقد استخرج الضرائب التى كانت قد تقررت ، ولكنه لم يأخذ أيًا من أملاك الكنائس ، ولم يرتكب أى فعل من أفعال السلب والنهب، وحافظ عليها طوال أيامه»[٦٥].

ومن بين جميع الفتوح الإسلامية الباكرة، كان فتح مصر هو الأسرع والأكمل. ففى غضون عامين كانت البلاد قد خضعت تمامًا للحكم العربى. بل إن ما يلفت الانتباه أكثر ، أنها بقيت تحت الحكم الإسلامى منذ ذلك الحين. ونادراً ما يحدث فى التاريخ أن

يحدث مثل هذا التغير السياسى الضخم بمثل هذه السرعة وأن يستمر على هذا المدى الطويل.

وبينما خضعت البلاد للحكم العربى - الإسلامى ، لم تصبح فى هذه المرحلة أرضا عربية أو مسلمة. فعلى مدى عدة قرون، كان الناطقون بالعربية والمسلمون أقلية، فى البداية أقلية صغيرة للغاية أخذت تنمو ببطء . وإذا ما اقترحنا أن العدد الكلى للسكان العرب كان مائة ألف نسمة من بين إجمالى السكان البالغ عددهم ثلاثة ملايين نسمة يمكن أن تكون لدينا فكرة عن كيف كانت هذه الأقلية، بنسبة واحد إلى ثلاثين صغيرة(٦٦). وعلى أية حال، فإنه من الأمور المتناقضة أن حقيقة كون الفاتحين قلة قليلة ربما تكون بالفعل قد جعلت الحكم أكثر سهولة . إذ إنهم فى البداية لم يمارسوا ضغطًا لايمكن احتماله على الموارد، كما أنهم لم يحرموا الأهالى من أرضهم أو منازلهم ؛ وعاشوا على عوائد الضرائب وبنوا مدينة جديدة يعيشون فيها. كذلك فإنهم لم يتدخلوا فى الممارسات الدينية أو مبانى المسيحيين . وقد استمرت الإدارة إلى حد كبير دونما تغيير. ومن المؤكد أنه بعد مائة سنة، كانت الضرائب تبدو مرهقة للغاية ونسمع عن ثورات قبطية عنيفة ، ولكن فى ذلك الوقت كان الحكم الإسلامى قد رسخ تمامًا بحيث لايمكن الإطاحة به.

وقد جاء المسلمون لحكم مصر بسبب نجاحهم العسكرى. فقد هزموا الجيش البيزنطى فى عدة معارك واستولوا على قواعده فى بابليون والإسكندرية . وليس من الواضح تمامًا السبب فى أن أداء القوات البيزنطية كان سيئًا إلى هذا الحد. ومن المؤكد أن السبب لم يكن التفوق العددى أو الأساليب التكنولوچية التى أتاحت للمسلمين أن ينتصروا . وربما كان جزء من المشكلة يتمثل فى التناقض الذى تحب المصادر التاريخية العربية أن تبرزه بين الجنود المسلمين بصلابتهم وزهدهم والبيزنطيين المترفين المدللين ، ومن المثير أن نلاحظ أن يوحنا النقيوسى يعلق على الوزن الزائد ليوحنا الذى جعله غير لائق للقتال وفشل فى الدفاع عن الفيوم.

كان هناك أيضًا فشل فى القيادة على الجانب البيزنطى. وأحد الأسرار الثابتة المتعلقة بالفتح الإسلامى يتمثل فى السياسات التى اتبعها كيروس تجاه العرب.

فقد أمضى السنوات العشر التي سبقت قدوم المسلمين في محاولة مستمرة وقاسية لفرض السلطة الإمبراطورية على الأرض والكنيسة في مصر. ومع هذا توضح شهادة كل من المصادر الإسلامية والمسيحية أنه يئس بسرعة من الدفاع عن الأرض ضد المسلمين وأخذ يستعد لشروط الاستسلام . ووصف يوحنا النقيوسي لتسليمه الإسكندرية سراً مثال ناطق على هذا. ومن الصعب تفسير هذا الموقف . وبالنسبة لبتلر، الذي كان يكتب بإحساس عميق بالشجاعة الأخلاقية ، كان كيروس متآمراً خائنًا ، يعمل على خيانة الإمبراطورية لكي يبني سلطة البطريركية(٦٧). «فقد لعب دوراً خبيثًا خائنًا» في الأحداث «وينبغي أن يبقى ذنب الخيانة المتعمدة للإمبراطورية الرومانية وصمة لاتُمحى على ذكراه»(٦٨). وربما كان قد فقد أعصابه ببساطة ، بيد أنه من الممكن أيضًا أن يكون قد تصور نفسه سيكون نائبًا للخلفاء مثلما كان نائبًا عن الأباطرة في حكم البلاد. وسواء كانت سياسات كيروس نتاجًا لعدم الكفاءة أو السياسة الواقعية المشوشة المرتبكة ، فمن الواضح أنها كانت عاملاً مهمًا إن لم تكن عامل الحسم في مجرى الأحداث.

ويكمن جزء من تفسير سرعة الفتح في البناء السياسي لمصر. فمنذ العصور الفرعونية كانت إدارة البلاد مركزية بدرجة كبيرة. وفي أواخر العصور القديمة ، كانت أمور الدفاع في أيدي الحاكم وجيشه . ولم يكن لدى معظم السكان سلاح ولم يكونوا مدربين عسكريًا . ولم يكن هناك سادة شبه مستقلين لهم أتباعهم من العسكريين الذين يمكنهم أن يواصلوا المقاومة على أساس محلي . وهنا تناقض واضح مع إيران ، حيث كان السادة والأمراء المحليون يحافظون على ثقافاتهم المحلية وعلى درجة من الاستقلال بعد هزيمة الحكومة الساسانية المركزية بوقت طويل.

ويبقى موقف الأقباط ، الذين كانوا الغالبية العظمى من السكان ، موضع جدل ونقاش . هل ساعدوا المسلمين ، أم أنهم لم يساعدوهم؟ وبالنسبة لبتلر كانت المسألة واضحة : إنهم لم يساعدوهم وهو يدين مراراً وتكراراً بشكل عنيد أي كاتب يقترح أنهم ربما كانوا قد ساعدوهم. كان بلتر حجة في الثقافة القبطية ومن الواضح أنه كان قد

عقد العزم على تبرئتهم من أية تهمة بخيانة المسيحية(*). وإذا عدنا القهقرى إلى المناقشات التى جرت فى أواخر القرن التاسع عشر تبدو الصورة أقل وضوحًا . فالتراث المصرى العربى يشير مرارًا إلى أن الأقباط ساعدوا المسلمين ، ولكن دائما فى الإمداد والتموين ، ولم يحدث أبدا أن كانوا جنودًا محاربين. ويقال إن البطريرك القبطى بنيامين قد حثّ أتباعه على إقامة علاقات ودية مع عمرو بن العاص بمجرد أن بدأ الغزو . وهذا دليل مثير . ويبدو أنه لم يكن هناك سبب جيد يفسر لنا سبب ذكر المصادر التاريخية المصرية العربية هذا الأمر ، لاسيما وأنه من المرجح أن يكون تدوينها قد تم للمرة الأولى فى القرن الثامن الميلادى/الثانى الهجرى ، فى وقت كانت العلاقات فيه متدهورة بين المسلمين والقبط(*). ومن الصعب أن نرى لماذا تنسب المصادر التاريخية العربية فضلاً للقبط فى بعض الإنجازات العسكرية التى أحرزها العرب ما لم تكن جزءًا قديمًا وأصيلا من القصة. هذه الإشارات كلها هى الأكثر دلالة لأنه لا يبدو أن هناك نظيرًا لها فى أى مكان آخر: إذْ إن قصص الفتح فى بلاد الشام ، مثلا ، لا تقدم أية أمثلة محددة على أن المسيحيين المونوفيزيتيين، الذين كانت علاقتهم بالسلطات البيزنطية لا تختلف كثيرًا عن علاقة القبط بها، قد ساعدوا المسلمين.

وشهادة يوحنا النقيوسى أكثر وضوحًا . ولم يكن يوحنا مبررًا للحكم الإسلامى. فبالنسبة له كان الإسلام «عقيدة الوحش»(٦٩). ومع هذا فإنه يسجل أن أنتينوى فى مصر الوسطى كان سكانها ، الذى كانت غالبيتهم حتمًا من القبط ، خضعوا للمسلمين ودفعوا لهم الجزية. وأعملوا السيف فى جميع البيزنطيين الذين واجهوهم(٧٠). والحقيقة أن القبط، يقال إنهم ساعدوا المسلمين فى عدد من المناسبات ، ولكن هذا لم يكن

(*) الحقيقة أن هذه صياغة غريبة تمامًا للموضوع ؛ فالمعروف جيدًا أن الدولة البيزنطية «المسيحية» أذاقت الأقباط «المسيحيين» الأمرين، ومارست عليهم كل أنواع القهر والاضطهاد ، وكان كيروس أداة قاسية فظة فى فرض سياسة الإمبراطورية مما تسبب فى هرب بنيامين . وقد أشار المؤلف إلى هذا كثيرًا فى كتابه . وهنا لايمكن أن تكون مساعدة الأقباط للمسلمين «خيانة للمسيحية»، وإنما هى عمل له جوانبه السياسية المتمثلة فى الرغبة فى التخلص من الحاكم البيزنطى الظالم. (المترجم)

نموذجًا عامًا ، وقد عانوا مثل البيزنطيين من السلب والنهب الذى مارسه المسلمون ومن أثار الضرائب الباهظة والاعتباطية(*). ويبدو أن الحقيقة هى أن استجابات القبط اختلفت وربما كانت مرتبكة : ذلك أن بعضهم فى بعض الأوقات رحبوا بشكل واضح بالفاتحين وتعاونوا معهم. وفى أوقات أخرى، كانوا يحاربون إلى جانب الروم. ولابد أن كثيرًا من المصريين فى القرى والمدن الصغيرة بوادى النيل والدلتا شعروا ببساطة أنهم غيروا جماعة من الحكام الأجانب المستغلين بجماعة أخرى .

(*) ربما يكون الأصح القول بأن العلاقة المتدهورة كانت بين الحكومة من ناحية، وبين سكان مصر من المسلمين والقبط بسبب السياسة الضريبية الجائزة من ناحية أخرى . فقد ثار القبط كما ثار المسلمون الذين استقروا بمصر ضد هذه السياسة. (المترجم)

الهــــوامش

(١) عن مصر أوائل القرن السابع انظر :

W. E . Kaegi, 'Egypt on the eve of the Muslim conquest', in Cambridge History of Egypt, vol. I: Islamic Egypt, 640-1517, ed. C, retry (Cambridge, 1998), pp. 34-61.

(٢) فى هذا الفصل تتبعت الترتيب الزمنى لدى : Kaegi, 'Egypt on the eve', pp. 60-61.

(٣) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2579-95.

(٤) Ibn Abd al-Hakam, Abu'l-Qasim 'Abd al-Rahman b. 'Ahd Allah, Futuh Misr, ed. C. C. Torrey (New Haven, CT, 1921). For critiques of this work, see R. Bninschvig, 'Ibn cAbdal-hakam et la conquete de 1'Afrique du Nord par les Arabes: etude critique', Annales de l'Institut des Etudes Orientales 6 (1942-7): 108-55, and W. Kubiak, Al Fustat, Its Foundation and Erly Urbun Development (Cairo, 1987), pp. 18-22.

وكلاهما يرى ابن عبد الحكم قاضيا يبحث عن السوابق الشرعية أكثر منه مؤرخًا وأظن أن المحتوى التاريخى أكثر أهمية ومن المؤكد أن كوبياك يبالغ عندما يقول (pp. 18-19) إن هدفه الأولى لم يكن نقل المعرفة بالحقائق الماضية والحوادث أو تمجيد المحاربين من الجيل الأول من الفاتحين المسلمين ولكن يقدم تفسيرا تاريخيا مقنعًا لعدد من الموروثات الدينية الفقهية الخاصة بفتح مصر وشمال أفريقيا .

(٥) Kubiak, Al-Fustat, p. 19.

يبدو أن أول من جمع المأثورات عن الفتح كان يزيد بن أبى حبيب (ت ٧٤٥م) .

(٦) John of Nikiu, The Chronicle of John (c.690 AD) Coptic Bishop of Nikiu. trans. R. H. Charles (London,1916).

(٧) See the second edition by P. M-Fraser (Oxford, 1978).

(٨) For Ancient Egypr, see R. E. Ritner, 'Egypt under Roman rule : the legacy of ancient Egypt', in Cambridge History of Egypt , vol i : Islamic Egypt, 640-1517, ed. C. Petry (Cambridge, 1998), pp. 1-33.

(٩) Kaegi, 'Egypt on the eve', p. 33.

(١٠) عن مصر فى هذه الفترة انظر :

R. Bagnall, Egypt in Line Antiquity (Princeton, NJ, 1993).

(١١) انظر المناقشة بشأنها فى : Butler, Arab Conquest, pp. 401-25.

(١٢) Kitner, 'Egypt' , p. 30.

(١٣) Kaegi, 'Egypt on the eve', p. 34.

(١٤) Quoted in Butler, Arab Conqwst, p. 72.

(١٥) See Kaegi, 'Egypt on the eve', pp. 42-4.

(١٦) On Benjamin, see his biography, in Sawirus b. al-Muqaffa, 'Life of Benjamin I the thirty-eighth patriarch A.D. 622-61', in History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria, trans B, Evetts (Patrolgia Orientalis I.4, 1905), pp. 487-518.

(١٧) Sawirus, 'Life of Benjamin', p. 496.

(١٨) Butler, Arab Conquest, pp. 176-9.

(١٩) Ibid., p. 183.

(٢٠) Sawirus, 'Life of Benjamin', pp. 491-2.

(٢١) Nikephorus, Patriarch of Constantinople, Short History, trans. C. Mango (Washington, DC, 1990), pp. 72-5.

(٢٢) هذا السرد على أساس :

on R. Hoyland, Seeing Islam as Others Saw It , pp. 574-90, which uses non-Arab sources, notably the Byzantine Chronicle of Nicephorus, to produce a plausible reconstruction; cf. the blunt dismissal of this possibility that Cyrus paid tribute by Butler", Arab Conquest, pp. 207-8.

(٢٣) Baladhuri, Futuh,p. 213 ; Ibn Abd al-Hakam, Futuh, pp. 56-7.

(٢٤) Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 58.

(٢٥) Butler Arab Conquest, pp. 209-10.

(٢٦) Ibid, p. 211.

(٢٧) Ibn Abd al-Hakam, Futuh, pp. 58-9.

(٢٨) Ibn Abd al-Hakam, Futuh, pp.59-60.

(٢٩) Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 60.

(٣٠) القصة مرتبكة إلى حد ما فى :

John of Nikiu, Chronicle, pp. 179-80.

استخدمها بتلر فى روايته (arab Conquest , pp. 222-5) التى أقمت على أساسها هذا السرد .

(٢١) apud Ibn Ahd al-Hakam, Futuh, p. 61.

ولكن انظر أيضا الأرقام فى بتلر حيث يلاحظ أنه لا يوجد أى نوع من الارتباك بين المصادر العربية . أما يوحنا النقيوسى فيتحدث عن أربعة آلاف رجل جديد .

(٢٢) Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 64.

(٢٣) Butler, Arab Conquest, p. 228.

(٢٤) John of Nikiu, Chronicle, p. 181; Ibn Abd al-I Hakam, Futuh, p. 59; Butler, Arab Conquest, pp. 228-33.

(٢٥) See Butler, Arab Conquest, pp. 238-48, with a plan at p. 240; Kubiak, Al-Fustat, pp. 50-55.

(٢٦) John of Nikiu, Chronicle, pp. 186-7.

(٢٧) Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 63; see Butler, Arab Conquest, p. 259 n. I,

وفيها يناقش تنويعات لاحقة أخرى للقصة والفوضى غير المقنعة، فى المصادر العربية . انظر أيضا :

Butler, Treaty of Misr' (published with separate pagination (1-64) and index at the end of Butler, Arab Conquest), pp. 16-19.

(٢٨) Baladhuri, Futuh, p. 213.

(٢٩) Yaqut, 'Fustat, Butler, Arab Conquest, p. 270, n. 3.

(٤٠) John of Nikiu, Chronicle, pp. 186-7.

(٤١) ورد النص فى الطبرى ، Ta'rikh, I, pp. 2588-9:

وتمت مناقشته فى مقالة بتلر. Treaty of Misr'.

(٤٢) Butler 'Treaty of Misr', pp. 46-7.

(٤٣) 0. R- Hill, The Termination of Hostilities in the Early Arab Conquests AD 634-656 (London, 1971), pp. 34-44.

(٤٤) Baladhuri Futuh, pp. 214-15.

(٤٥) Yaqut, 'Fustat'.

(٤٦) Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 73.

(٤٧) John of Nikiu, Chronicle, p. 188; Ibn Abd al-Hakam, Futuh; Butler, Arab Conquest, pp. z86--7.

(٤٨) Baladhuri, Futuh, p. 220.

(٤٩) Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 74.

(٥٠) Butler. Arab Conquest, pp. 291-2,

ووصف المدينة قائم فى أساسه على المصادر العربية ، ibid., pp. 368-400.

(٥١) الاستخدام الحر لكلمة «فلسطين» لوصف سوريا الكبرى فى أدبيات البحث العلمى أواخر القرن التاسع عشر .

G. Le Strange, Palestine under the Moslems: A description of Syria and the Holy Land from A.D. 650 to 1500 (London,1890).

(٥٢) كما يلاحظ بتلر أن هذه المسلات كانت فى انتظار التخريب البريطاني والإنجليزي لإزالتها من مصر واحدة الآن على نهر التيمس ، وواحدة فى نيويورك ... ارتفاعها حوالى ٦٨ قدمًا ، سوف تساعد على رؤية قيمتها من مسافة قصيرة بدون الأسوار .

(٥٣) M. Rodziewicz, 'Transformation of Ancient Alexandria into a Medieval City', in Colloque international d'archeologie islamique, ed. R-P. Gayraud (Cairo, 1998), pp. 368-86.

(٥٤) John of Nikiu, Chronicle,pp. 192-3.

(٥٥) See Hoyland's reconstruction of the 'common core' of the Syrian chronicle tradition in Seeing Islam, pp. 577-8.

(٥٦) Kubiak , Al fustat , p. 71.

(٥٧) R.-P Gayraud, 'Fostat: evolution d'une capitale arabe du VII au XII siécle d'apres les fouilles d'Istabl cAntar', in Collque international d'archéologie islamique, ed. R.-P. Gayraud (Cairo, 1998), pp. 436-60.

(٥٨) Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 102.

(٥٩) وضعت تقديرى على أساس افتراض أن كثيرًا من الناس كانوا عزابًا وتزوجوا نساء من الأهالى ولكن طبعا كل هذه الأرقام قابلة للتأمل .

(٦٠) Butler, Arab Conquest, p. 361.

(٦١) يناقش إعادة بنيامين لنصبه . Ibid., pp. 439-446,

(٦٢) Sawirus, 'Life of Benjamin,' p. 500.

(٦٣) Ibid., pp. 496-7.

(٦٤) Ibn Abd al-Hakam, Futuh, pp. 180-82.

(٦٥) John of Nikiu, Chronicle. p. 200.

(٦٦) رقم ثلاثة ملايين هو الرقم المتحفظ من جانب كايجى ورقم ١٠٠,٠٠٠ تكبير مبالغ فيه لرقم ٤٠,٠٠٠ رجل الذى قدمه ابن عبدالحكم ، فتوح ، ص١٢٠ باعتباره أقصى رقم فى الديوان فى العصر الأموى الباكر (انظر ما سبق) .

(٦٧) Butler, Arab Conquest, pp. 305-7.

(٦٨) Ibid., p. 534.

(٦٩) John of Nikiu, Chronicle, p. 182.

(٧٠) Ibid., p. 184.

(٥)

فتـــح إيـــران

ترتفع جبال زاجروس شاهقة فى سلسلة من الثنيات من السهول المسطحة فى بلاد ما بين النهرين[1]. وسفوح التلال خضراء ودودة فى الربيع، وقد استخدمها الحكام المتتابعون للأراضى السهلية فى العراق ليجدوا بعض البرودة وليهربوا من حرارة الجو فى السهول. وكان الملوك الساسانيون يحبون بناء قصورهم فيها، وفيما بعد كان خلفاء العباسيين فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين/الثانى والثالث الهجريين يحبون المجئ إليها للصيد . والجبال الأعلى جرداء تماماً ويوجد بها الجليد فى الشتاء، بحيث يغلق معظم المسالك بين العراق وإيران. وهناك سهول خصيبة صغيرة فى ثنايا الجبال ولكن الكثير من الأرض لايصلح سوى لاستخدام قبائل الرعاة الرحل، وكان معظمهم من الناطقين باللغة الكردية زمن الفتح. وهم أسلاف أولئك الأكراد الذين لا يزالون يسكنون الجبال شمال غرب إيران وجنوب شرق تركيا .

وتجرى حواف جبال زاجروس موازية لحافة السهل، لتشكل عقبات كبيرة، الواحدة تلو الأخرى . وبعيداً عن ممرات الرعاة ، لايوجد سوى طريقين كبيرين عبر الجبال. وكان أهمهما «طريق خراسان الكبير»، وهو عبارة عن سلسلة الوديان والممرات التى تخرج من حلوان فى السهول العراقية ، عبر القصور والحدائق الساسانية فى «قصرى شيرين» و«الدسكرة»، والقوس المنحوت فى الصخر عند «طاقى بستان»، ببركته التى تملؤها مياه الربيع والتماثيل المجسّمة للملك الساسانى وهو يمارس الصيد. ومن هناك يلتوى الطريق صاعدا من خلال الشعب الضيقة فى السهل إلى بيسيطون. وهنا،

وقبل ألف سنة من مرور الجيوش العربية من هذا الطريق ، كان داريوس قد نصب نقشًا ثلاثي اللغة ، في موضع شاهق يطل على الطريق الواقع في السهل البعيد أسفل الجبال. ولم يكن من المحتمل أنه يوسع أي شخص في ذلك الوقت أن يفهم اللغات القديمة، والفارسية القديمة، والعيلامية، المنحوتة بالخط المسماري القديم، ولكن ربما كان بوسعهم أن يروا صورة الملك الذي كان جالسًا بتاجه على حين كان خصومه المقهورون يمرون أمامه ليستعرضهم . وكان ذلك طريق عبره الملوك العظماء على مدى القرون، تاركين بصمتهم على الشريان الرئيسي للإمبراطورية الساسانية. وخلف سهل بيسيطون، يلتف الطريق صاعدًا المر الصعب فوق أسد أباد قبل أن يصل الهضبة . وهنا تنبسط الأرض وتتقلص الجبال ويصل المسافر مدينة همدان القديمة.

ويقع الطريق الآخر الذي يصل بين السهل والهضبة بعيدًا في الجنوب. وكان يمرُّ من خلال الأرض المنبسطة الخصيبة في خوزستان حول رأس الخليج، عابرًا نهر الطاب على الجسر الساساني الطويل عند أراجان ، قبل أن ينحرف عبر الجبال إلى بيشابور عاصمة الملك شابور الأول، وإصطخر ، العاصمة القديمة لفارس . وكان هذا الطريق أطول من الطريق الشمالي، شديد الحرارة في الصيف ، ولكنه كان يجري في أرض تتوفر بها المياه ونادرًا ما كانت تسدُّه الثلوج . وبطبيعة الحال كان المسافر أو الغازي القادم من شبه الجزيرة يستطيع أن يعبر الخليج أيضا بالقوارب ليصل إلى ميناء صغير مثل چنابه على الساحق بحرارته الحارقة، ثم يشق طريقه صاعدًا خلال الجبال. وكان من خلال هذه الطرق جميعًا أن توغل الغزاة العرب في داخل إيران.

وليس بالهضبة الإيرانية نفسها سوى القليل من العقبات التي تعوق تحركات الجيوش. فالوسط تشغله سلسلة من الصحراوات الملحية التي يستحيل عبورها بالفعل، ولكن هناك سهولاً منبسطة في الشمال وفي الجنوب على السواء بين سلاسل الجبال. وتوجد المياه والعشب اللازم للحيوانات ، خصوصًا في فصل الربيع ، وكانت الجيوش العربية قادرة على الحركة خلال هذه الأرض وتقطع مسافات طويلة بسرعة مدهشة . وقد ساعدهم هذا على تحقيق السيادة على مناطق شاسعة من الهضبة الإيرانية في فترة وجيزة من الزمن، هي فترة السنوات الثماني ما بين ٦٤٢م حتى سنة ٦٥٠م.

وكان معنى هذا أن معظم الفتح بقى سطحيًا . فقد فرضوا سيطرتهم على معظم الطرق الرئيسية والمدن الأساسية وربما كان بها جباة ضرائب عرب تحميهم قوة عسكرية صغيرة . وعلى أية حال، كان الاستقرار العربى الكبير الوحيد فى القرن السابع فى مرو على الحدود الشمالية الشرقية. وكثير من المناطق الجبلية لم تمسها الفتوح فعليًا ، لأن سادتها رتبوا ببساطة أن يدفعوا الجزية للمسئولين المسلمين.

وربما كانت الهزيمة النهائية التى لقيتها القوات الفارسية فى سهول العراق نهاية القتال. ولابد أنه كان هناك منطق معين لدى القوات الإسلامية جعلها تتوقف وتتقوى لفترة من الزمن، وثمة إيحاءات فى المصادر بأن هذا الخيار كانت قد تمت مناقشته فى القيادة المسلمة. فقد كان العراق جزءًا لايتجزأ من الإمبراطورية الساسانية ، على أية حال، ولم يكن أى ملك يحترم نفسه ليستطيع ببساطة أن يتخلى عنه للعدو . وقد صمم الإمبراطور يزدجرد الثالث، الذى صار آنذاك عازمًا على بناء السلطة بعد الفوضى السياسية التى كانت قد أعقبت موت كسرى الثانى سنة ٦٢٨م، على استعادة السيطرة على الأراضى الغنية فى سهول بلاد ما بين النهرين. وكان قد هرب بعيدًا إلى الشرق فرارًا من الغزاة ، ولكنه كان آنذاك قد بدأ يحاول حشد الدعم لمنعهم من الوصول إلى الهضبة الإيرانية. وتم إرسال الخطابات إلى جميع الأقاليم فى غرب إيران وشمالها وصدرت الأوامر إلى القوات بالتجمع فى مدينة نهاوند ، على الطريق الجانبى الخارج من الطريق السريع فى جبال زاجروس. وكانت نهاوند بلدة قروية صغيرة ولكنها قديمة اشتهرت بإنتاج الزعفران وإنتاج العطور. وربما يكون قد تم اختيار الموقع بسبب السهول المفتوحة والمراعى الجيدة التى جعلت منها مكانًا مناسبًا لتجميع عدد كبير من القوات .

وتبدأ قصص حملة نهاوند[٢] سنة ٦٤٢م بسلسلة من الخطابات وجهها الخليفة عمر بن الخطاب إلى الكوفة والبصرة ، يأمر بضرورة تجميع الجيوش. كان أكثر المجندين حماسة من أولئك الذين كانوا قد وصلوا حديثًا من شبه الجزيرة العربية ولم تواتهم الفرصة لكى يميزوا أنفسهم فى القتال الذى جرى قبل وصولهم أو يحصلوا على الغنائم؛ وكانت هذه الحملة الجديدة ستمنحهم الفرصة لتعويض الوقت الضائع[٣].

وتجمعت الجيوش الإسلامية على طريق خراسان القديم ورعت خيولهم فى مرج القلعة حيث احتفظ الخلفاء العباسيون فيما بعد بمزرعة خيولهم. ثم واصلوا السير تجاه الجيش الفارسى فى نهاوند ، على مسيرة حوالى مائة كيلو متر ، دون أن يواجهوا أية مقاومة(٤). وفى الوقت نفسه صدرت الأوامر لقوة أخرى بأن تتمركز على الحدود بين أقاليم فارس وإصفهان لمنع الساسانيين من إرسال التعزيزات من الجنوب(٥).

ووفقًا للمصادر العربية الرئيسية ، وجد الغزاة الجيش الفارسى متجمعًا على الجانب القريب من وادٍ ضيق شديد الانحدار ، ثبت فيما أنه كان قاتلاً بالنسبة لكثير منهم. ويقال إن الجيش العربى كان عدده ثلاثين ألف رجل ، وهو ما يبدو معقولاً ، وأن الجيش الفارسى كان عدده ثلاثة أو أربعة أمثال هذا العدد ، وهى مبالغة نمطية اتسمت بها المؤرخات العربية(٦). ومثل القوات العربية، تضخمت قوات الجيش الفارسى بسبب المتطوعين من جميع المناطق المجاورة ممن فاتتهم معركة القادسية والقتال فى العراق والذين كانت تحدوهم الرغبة آنذاك فى إثبات جدارتهم. وكان قد تم تجميع الجيش بالطريقة التقليدية، وقائده الفيرزبان فى المنتصف وجناحان على كل جانب . وحسبما ورد فى روايات أخرى عن المعارك، نعرف أن القوات الفارسية كانت مربوطة أو مقيدة بالسلاسل معًا حتى لايهربوا(٧)، وأنهم نثروا نباتات شائكة على الأرض خلفهم، لكى يمنعوا الخيالة من الهرب أيضا . وكان المؤرخون العرب يحبون بيان التناقض بين القوات الإسلامية ، التى تلهمها الحماسة الدينية ، وخصومهم المستعبدين، المجبرين على القتال . وليست هناك مصادر إيرانية تقدم وجهة نظرها .

توقف الجيش العربى ونصبت الخيمة التى استخدمت مركزًا للقيادة . وكان الفرس قد حصنوا أنفسهم وراء الخنادق . وحاولت الجيوش الإسلامية أن تعصف بهم ولكنها لم تحرز نجاحًا كبيرًا، ولم يكن الفرس المنظمون يخرجون من موقعهم الحصينة سوى عندما يكون ذلك مناسبا لهم. وبعد عدة أيام، اجتمع القادة المسلمون فى مجلس حرب . ومرة أخرى يتم تصوير المسلمين نمطيًا على أنهم يتصرفون بالاتفاق بعد مشاورات هادئة ، ربما فى تناقض ضمنى مع بناء القيادة الاستبدادى لدى خصومهم.

وفى النهاية تقرر أن يتقدم الفرسان العرب ويهينوا خصومهم ويتظاهروا بأنهم يهاجمون الخنادق . ثم انسحبوا وأغروهم تدريجيًا بالخروج من مواقعهم المجهزة بحثًا عن الغنائم. وفى الوقت نفسه كان الجيش الإسلامى الرئيسى تحت السيطرة . وعلى الرغم من الاحتجاجات التى صدرت عن أفراد الجيش القلقين، أبقاهم القائد النعمان بن مقرن فى الخلف حتى انقضى النهار وأوشك الظلام على بسط ردائه ، زاعمًا أن هذا كان الوقت المفضل لدى النبى فى غزواته . وقام بجولة للتفتيش على القوات راكبا حصانه البنى الممتلئ، ليتوقف عند كل راية لكى يحث رجاله . وأخبرهم أنهم لايحاربون من أجل الأرض والغنائم التى رأوها حولهم وإنما يحاربون فى سبيل دينهم وشرفهم . كما أنه ذكّرهم برفاقهم هناك فى الكوفة ، الذين سيعانون معاناة قاسية إذا ما نالتهم الهزيمة. واختتم قائلا: « ... فإنكم بين خيرين منتظرين ؛ إحدى الحسنيين ؛ من بين شهيد حى مرزوق ، أو فتح قريب وظفر يسير...»[8](*).

وعندما هاجموا العدو فى النهاية، جاءهم النصر سريعًا . وكما هى العادة، حارب معظم الجيش راجلاً وسيوفهم مسلولة. وسرعان ما امتصت الأرض الدماء الفارسية ، وبدأت الخيول تنزلق، ووقع النعمان القائد المسلم من فوق فرسه وقُتل. وعلى الرغم من هذا واصل المسلمون تقدمهم . وأخذ الفرس يهربون ، وفى الظلام الدامس ضلَّ كثير منهم طريقهم وسقطوا فى الأخدود ليلقوا حتفهم . وعندما أخذ الكاتب الموسوعى العربى العظيم ابن حوقل يجمع القاموس الجغرافى الذى ألفه فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى/السابع الهجرى، أى بعد ستمائة سنة من الواقعة، كان المجرى المائى لا يزال يحمل ذكرى المكان الذى تم فيه تدمير الجيش الفارسى لتنفتح الهضبة الإيرانية أمام الفتح الإسلامى .

وحاول الناجون من الفرس ، وفيهم الفيرُزان ، الهرب فوق الجبال إلى همدان ولكن تقدمهم على امتداد الممرات الجبلية تأخر لأن الطريق كان مليئًا بقوافل من

(*) النص من الطبرى، ج٤، ص١٣١ .

البغال والحمير التى تحمل العسل. وحاول الفرزبان نفسه أن يتجنب مطارديه بأن ترك المسار وتسلق الجبل على قدميه، ولكن المسلمين سرعان ما تعقبوه ومات وهو يدافع عن نفسه[٩].

وجاء استسلام المدينة بسرعة عقب النصر العسكرى. فبعد المعركة مباشرة أحاط الغزاة بمدينة نهاوند الصغيرة نفسها . ومكثوا هناك فترة قصيرة من الوقت فقط عندما قدم الهربذ، الكاهن الزرادشتى الرئيسى فى المدينة (صاحب بيت النار) ، إلى معسكر المسلمين لكى يبدأ المفاوضات . وكانت معه هدية يقدمها، كمية كبيرة من المجوهرات كان الملك قد تركها هناك تحسبًا للطوارئ. وعرض تقديمها فى مقابل الأمان للسكان . وتم قبول هذا وانتقلت المدينة إلى الحكم الإسلامى دونما مزيد من الصراع[١٠].

ووفقًا لإحدى الروايات[١١]، كان الكنز يحتوى على سفطين من الجواهر النادرة. وعندما تلقى الخليفة عمر بن الخطاب خبر هذا، أمر حسب سياسته المعتادة أن تباع الجواهر نقدًا ويُقسَّم عائدها بين المسلمين . وبناء على ذلك بيعت محتويات السفطين إلى واحد من التجار ، وهو شاب من قريش اسمه عمرو بن حريث «... فاشتراهما بأعطية الذرية والمقاتلة..»[*] أى بالأموال التى كانت عطاء له ولعائلته . ولما أخذ السفطين ، ذهب عمرو إلى الكوفة وباع أحد السفطين بثمن يعادل ما دفعه فى الاثنين أصلا، واحتفظ بالسفط الثانى لنفسه «... فكان ذلك أول لهوة مال اتخذه...»[*] ويمكننا أن نرى هنا عملية تسييل الأموال، أى تحويل الكنز إلى نقود لدفع عطاء الجنود، وكيف كان أبناء النخبة المسلمين، حتى الذين لا ضمير لهم، يمكنهم بذكاء أن يستغلوا العملية لتكوين ثروة.

كان الناجون من الجيش الفارسى قد فرّوا خلال الجبال إلى همدان يطاردهم جيش عربى قوامه حوالى اثنى عشر ألفا . وكانت همدان مكافأة أكبر كثيرا من نهاوند[١٢]. وكانت مدينة بالغة القدم، وكان الجغرافيون الكلاسيكيون مثل إكياتنا Ecbatana.

(*) البلاذرى، فتوح البلدان، ص٢٩٨ . (المترجم)

يعرفونها كما كانت عاصمة ميديا. وهى مدينة مكشوفة ، على أرض عالية ، تقع عند النهاية الشرقية للطريق الرئيسى الذى يمرُّ من خلال ممرات جبال زاجروس وكانت مركزًا سياسيًا مهمًا منذ تأسيسها فى القرن الثامن قبل الميلاد فيما يزعمون . وفى وسط المدينة يقع حصن قديم على قمة أحد التلال . وعندما تم تأسيس المدينة قيل إنه كانت لها سبعة خطوط من الأسوار لكل منها لون مختلف، وأن السورين الداخليين كانا مصفحين بالفضة والذهب(١٢). وليست هناك إشارة إلى أن هذه الثروة المتباهية ظلت موجودة حتى الفتح الإسلامى، حين كانت أسوار القلعة مبنية على ما يبدو من الطين العادي. كما كانت همذان مشهورة بأنها مقر إقامة إستر الزوجة اليهودية لملك الفرس (٤٨٦-٤٦٥ ق.م) التى يحمل اسمها أحد أسفار العهد القديم المزيفة (الأبوكريفا) : ولا يزال الزوار يشاهدون قبرها . وربما كانت المدينة متدهورة فى ذلك الوقت : إذ إن الجغرافى العربى ابن حوقل ، الذى كتب بعد ثلاثمائة سنة من الأحداث، يقول إنها قد أعيد بناؤها منذ الفتح الإسلامى .

وحدث أن برهنت التحصينات على أنها قليلة الجدوى . وكان قائد الحامية خُسروشنوم الذى كان قد أخفق بالفعل فى الحفاظ على حلوان فى مواجهة الغزاة . أما الآن فقد اتفق على تسليم المدينة واستسلمت همذان صلحًا.

وتلى ذلك جمع الغنائم وتقسيمها . وكالعادة تناقش المصادر العربية هذا الأمر بتفصيل كبير - فقد أخذ الفارس المقاتل ستة آلاف درهم، على حين أخذ كل جندى من المشاة ألفى درهم. كذلك دُفعت الأنصبة لأولئك الرجال الذين بقوا فى المؤخرة بمرج القلعة وغيرها من النقاط على امتداد الطريق. وتم الاحتفاظ بالخُمس للحكومة وأرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب فى المدينة. وكما هو الحال دائما ، يجب أخذ المبالغ المالية بقدر كبير من التحفظ وربما كان التأكيد على عدالة توزيع الأنصبة على الجميع انعكاسًا لحماسة المؤرخين اللاحقين لإيجاد أمثلة على الممارسة الكاملة فى العصر الإسلامى الباكر أكثر من حماستهم لأية حقيقة تاريخية.

كان الهدف التالى للجيوش العربية إصبهان[١٤]، لأنها كما قال أحد الفرس الذين أسلموا للخليفة عمر بن الخطاب وهو يستشيره «... أن عمر بن الخطاب شاور الهرُمزان، فقال: ما ترى؟ أبدأ بفارس أم بأذربيجان ، أم بإصبهان ؟ فقال: إن فارس وأذربيجان الجناحان ، وإصبهان الرأس ، فإن قطعت أحد الجناحين قام الجناح الآخر ، فإن قطعت الرأس وقع الجناحان، فابدأ بالرأس..»[١٥] ومنذ القرن السادس عشر كانت إصبهان تشتهر بمساجدها المشيدة بالقرميد، وقصورها وحدائقها ، ولكن إصفهان التى فتحها المسلمون كانت مكانا مختلفًا للغاية. فقد كانت فى الأساس سهلاً كثير المياه بين الجوانب الشرقية من جبال زاجروس والصحراء الكبرى فى وسط إيران. وكانت هناك فى السهل عدة قرى وبيت نار على نتوء صخرى منعزل. وكانت إحدى القرى تسمى اليهودية وهى مستوطنة غير حصينة يسكنها اليهود ، قيض لها أن تكون فيما بعد نواة المدينة فى العصور الوسطى والحديثة . وعلى أية حال، كانت المستوطنة الوحيدة المحصنة هى مدينة چى المستديرة، التى تقع على ضفاف نهر زياندا رود على بعد حوالى أربعة كيلو مترات من المدينة الحالية. وقالت أسطورة محلية إن چى بناها الإسكندر الأكبر ولكن الأسوار أعيد بناؤها فى العصور الساسانية ، وكان لها أربع بوابات ومائة وأربعة برج مستدير . ووفقًا لمصدر محلى ، لم تكن چى مدينة مسكونة حقا وإنما كانت حصنًا ومكانً لإيواء السكان من قرى المنطقة[١٦]. ولا بد أن التحصينات كانت مبهرة ، على الرغم من أنه لم يبق شىء فى الموقع باستثناء دعامات الجسر الذى بناه الساسانيون عبر النهر.

ومرة أخرى ، لم يتم اختبار التحصينات أبدًا . فقد قاد القائد المحلى قواته خارجًا لمقابلة العرب المتقدمين . وقيل إنه جرت مبارزة فردية بينه وبين قائد القوات العربية قبل أن يعقد الفرس اتفاقًا ، سُمح للسكان بمقتضاه أن يبقوا فى منازلهم ويحتفظوا بممتلكاتهم فى مقابل دفع الجزية . وقد ورد نص المعاهدة فى المصادر. وأخذ شكل الاتفاق الشخصى بين القائد العربى والحاكم الفارسى . وكانت الشروط المهمة الأخرى الوحيدة هى أن المسلمين العابرين يجب أن ينالوا ضيافة يوم ومطية للمرحلة التالية من الرحلة.

وغادر ثلاثون من أنصار النظام الساسانى المدينة ليذهبوا باتجاه الشرق إلى كرمان وينضموا إلى المقاومة ، ولكن الأغلبية الكبرى قبلوا الحكم الجديد(١٧). ويبدو أن الاحتلال كان وقعه خفيفا . فلم يكن هناك عنف أو نهب. وكان إزعاج المجتمع المحلى محدوداً ؛ فلم يكن هناك استيطان إسلامى واسع النطاق ولم يتم بناء مسجد كبير على مدى القرن ونصف القرن التالى.

وفى بعض الأحيان كان العرب يلقون الترحيب من السكان المحليين. وفى مدينة قُم الصغيرة ، التى اشتهرت فيما بعد بوصفها واحدة من المزارات العظمى فى إيران، رحب الحاكم المحلى يزدانفر ، بالمستوطنين العرب، وأعطاهم قرية لسكانهم وزودهم بالأراضى والحيوانات ، والبذور لكى يبدأوا الزراعة . وكان سبب هذا الكرم أن أهل قم كانوا يعانون من إغارات الديلم القادمين من الجبال فى الشمال وكان يزدانفر يأمل فى أن يقوم العرب بالدفاع عن الجماعة التى سكنوا بينها ضد أعمال السلب والنهب التى يقوم بها أولئك المغيرون. ويبدو أنه فى الجيل الأول نفع هذ الاجراء وكانت العلاقات منسجمة بين الجانبين. وفيما بعد ، عندما زادت أعداد المهاجرين العرب، كان هناك توتر حول ملكية الأرض وحقوق المياه مما أدى إلى اندلاع العنف، ولكن «الفتح» الأولى للمنطقة كان سلمياً إلى حد كبير(١٨).

وإندفعت الجيوش الإسلامية على امتداد الطريق الذى كان يؤدى إلى خراسان والشرق. وبعد هزيمة جيش من الديلم وغيرهم من أهل الجبال كانوا يحاولون عرقلة تقدمه فى واج الروذ اتجه إلى الرى. وتقع الرى إلى الجنوب مباشرة من طهران الحديثة، التى لم تكن أكثر من قرية مغمورة حتى تم اتخاذها عاصمة لإيران على يد أسرة قجر أواخر القرن الثامن عشر الميلادى. وقد عرف الإغريق القدامى الرى باسم Rhages . وكانت قائمة بالفعل عندما مرَّ بها الإسكندر الأكبر فى مطاردته لدارا الثالث ، وأعيد بناؤها لتكون مدينة مقدُونّية على يد سيليوكوس نيكاتور حوالى سنة ٣٠٠ ق.م . وقد أسماها يوروبوس Europos على اسم مسقط رأسه فى مقدونيا، ولكن كما يحدث غالباً، كان الاسم القديم هو الذى لصق بها. وفى سنة ٢٠٠ق.م تقريباً استولى عليها البارثيون

وصارت مقر الإقامة الصيفى للملوك . ويصفها إسيدور الخركسى Isidore of Charax بأنها أعظم مدينة فى ميديا، وكان موقعها الاستراتيجى يعنى أنها استمرت فى الازدهار تحت حكم الملوك الساسانيين.

كانت الرى ذات أهمية استراتيجية هائلة . فإلى الجنوب تقع الصحراء الكبرى فى وسط إيران. وإلى الشمال سلسلة جبال البُرز ترتفع بصورة مفاجئة من السهول. وكانت المياه النازلة من تلك الجبال هى التى خلقت نهرين صغيرين وكانت تروى المدينة قبل أن تتبدد فى الهامش الصحراوى إلى الجنوب. وكان على أى جيش يريد أن يمرَّ من غرب إيران إلى خراسان والشرق أن يستخدم هذا الحزام الضيق من الأرض الخصيبة وفيرة المياه ويمر بمدينة الرى. وجاء سياڤوش ، حاكم هذا المكان المهم، من واحدة من أكبر العائلات الأرستقراطية فى إيران، المهرانيين ، الذين توارثوا موقع سادة الرى[١٩]. فقد كان حفيد بهرام شوبين العظيم، الذى كان واحداً من أكثر القادة احتراماً فى الجيش الساسانى وحاول اغتصاب العرش من الشاب كسرى الثانى فى سنة ٥٩٠م . وفشل التمرد واستعاد كسرى عرشه بمساعدة عسكرية بيزنطية. وقُتل بهرام ولكن من الواضح أن عائلته استمرت فى سيطرتها على الرى.

ولا بد أن الجيوش العربية وجدت مدينة مسورة ، بها بيوت من الآجر أو الطين تتحكم فيها قلعة على نتوء صخرى تطل على الموقع. وربما كانوا يتوقعون أن من الضرورى شن هجوم كبير أو فرض حصار عليها . وقد حدث أن أتاحت لهم المنافسات فيما بين الفرس فرصة. فقد كانت سيادة عائلة مهران على الرى مرفوضة من عائلة الزينابى المنافسة وجاء زعيم عائلة زينابى لمقابلة الجيوش العربية عند قرية على الطريق الرئيسى من قزوين إلى غرب المدينة. وقدم عرضاً بأن يقود بعض الخيالة إلى داخل الأسوار عن طريق خلفى. وشن المسلمون هجوماً ليلياً . وفى البداية ثبت الفرس ولكن الخيالة داخل المدينة هاجموهم من الخلف حينئذ ، وهم يصيحون «الله أكبر» . وانهارت المقاومة وتملك الغزاة المدينة بسرعة . ومن الواضح أنه كانت هناك كمية كبيرة من الغنائم ، وقيل إن كم الغنائم التى أخذت من الرى كان كبيراً ويُعادل ما أخذ من العاصمة الإمبراطورية المدائن . ولم ينتج عن الغزو العربى احتلال عربى بقدر ما نتج

عنه إعادة توزيع المواقع بين النخبة الفارسية. فقد خسرت عائلة مهران سلطتها وتعرَّض الحى الذى تسكنه فى المدينة، والذى عرف فيما بعد باسم «المدينة العتيقة» للخراب . وفى الوقت نفسه تم تعيين الزينابى واليًا ، بل منح رتبة المرزبان الفارسية . وأعطى الأوامر ببناء مركز جديد للمدينة ، وسيطرت عائلته ، بما فيها ولداه شهرام ، وفرُّوخان، على المدينة فعلاً[٢٠].

واستمرت الجيوش العربية فى تقدمها على طول طريق خراسان إلى مدينة بسطام الجبلية الصغيرة ، التى اشتهرت بخصوبة تربتها وامتياز فاكهتها، واستسلمت صلحًا فى قومس.

وبينما كان الجيش العربى معسكرًا فى بسطام ، بدأ قائده سويد بن مقرن يطرح عروضا دبلوماسية على حكام المناطق الجبلية فى الشمال. ومن جيلان فى الغرب، عبر طبرستان ودوبند فى الوسط إلى جوجان فى الشرق، تتحكم سلاسل الجبال فى الشواطئ الجنوبية لبحر قزوين ، وتصل الجبال أقصى ارتفاع لها عند قمة دموند . وتختلف الجبال تماما عن معظم أراضى إيران . فعلى النقيض من المنحدرات المفتوحة المكشوفة وقمم جبال زاجروس الجرداء ، فإن الغابات غالبًا ما تغطى قمم سلاسل جبال البُرز . والمنحدرات الشمالية رطبة وهى اليوم مناسبة لنمو الأرز والشاى . والطرق عبر الجبال قليلة وضيقة . ولم تكن منطقة تُغرى أى قائد عربى بالهجوم عليها : فقد تجنبوا دائمًا الممرات الجبلية الضيقة والوديان المنحدرة.

ويدأ سويد الاتصال بحاكم جُرجان . وتقع أراضى جُرجان إلى الجنوب الشرقى من بحر قزوين. وفى هذا المكان تتقابل الجبال مع سهول وسط أسيا الممتدة بلا حدود . وكانت دائما منطقة حدود ومكان التقاء الشعوب الإيرانية المستقرة فى الجنوب والغرب والشعوب الناطقة بالتركية من البدو فى الشمال الشرقى: وعلى مدى معظم القرن العشرين كانت هى الحدود بين إيران وأراضى الاتحاد السوفييتى. واليوم تمتد حدود إيران وتركستان عبر هذه المنطقة. وقد بنى الملك الساسانى العظيم كسرى الأول (٥٣١-٥٧٩م) سورًا طويلاً ، دعمه بحصون على مسافات منتظمة يمتد من ساحل بحر قزوين مسافة مائة كيلو متر بامتداد الحدود الصحراوية.

كانت جُرجان البعيدة على الدوام جزءًا شبه منزوع من الإمبراطورية الساسانية ، ويحكمها أمراء وراثيون يحملون لقب صول. وكان الصول فى ذلك الوقت هو رُزبان ، الذى دخل فى مفاوضات مع سويد. وتقابل الاثنان على حدود الولاية وتناقشا فى تقدير قيمة الجزية التى ينبغى دفعها . وسُمح لجماعة من الترك بالإعفاء من الضرائب لقاء الدفاع عن الحدود ، وربما كانت تلك هى المرة الأولى فى تاريخ طويل لاحق شهد استخدام المسلمين للأتراك جنودًا . ويعكس نص المعاهدة[٢١] الوضع غير العادى للولاية. وكانت الجزية واجبة على كافة البالغين ما لم يطلب المسلمون مساعدة عسكرية والتى ستكون ، فى هذه الحال ، بديلاً عن الدفع . وتم السماح للأهالى بالاحتفاظ بممتلكاتهم ودياناتهم الزرادشتية وقوانينهم طالما أنهم لا يسببون أذى لأى من المسلمين الذين اختاروا الإقامة هناك. كان هذا غزوًا بالاسم فحسب. إذ ظل الحاكم التقليدى مسئولاً ، وكان يدفع الجزية آنذاك إلى المسلمين بدلاً من الملك الساسانى، بيد أنه لا يوجد مؤشر على استيطان المسلمين أو الاحتلال العسكرى الإسلامى.

وفى الوقت نفسه ، بدأ حاكم طبرستان ، فى الغرب، المفاوضات لترتيب موقفه . كانت طبرستان أشد مناعة من جُرجان وكانت الجبال تغطيها بأسرها، باستثناء شريط ضيق من الأرض بامتداد شاطئ بحر قزوين . وقد اشترطت المعاهدة التى عقدها سويد مع الحاكم المحلى أن عليه أن يكبح جماح اللصوص والعصابات من مهاجمة المناطق المجاورة وأنه يجب أن يدفع خمسمائة ألف درهم من الدراهم المسكوكة محليًا فى السنة. وكان عليه ألا يؤوى الهاربين أو يقوم بأى خيانة. ولن يقوم المسلمون بزيارة البلاد سوى بإذن من الحاكم.

ولم يزر طبرستان أى جيش مسلم، وفقًا للمعاهدة على الأقل، وكانت الجزية تدفع جملة عن المنطقة كلها، بدلاً من أن تكون ضريبة رأس . ويبدو كما لو أن كافة جوانب الحكم ، بما فيها جباية الضرائب وسك العملة، ظلت بيدى الحاكم المحلى. ومنح حاكم جيلان المجاورة فى الغرب شروطًا مماثلة . وكان «الفتح العربى» فى هذه المناطق سريعًا للغاية لأنه كان يساوى القليل جدًا فى الشروط الحقيقية : فربما كان الحكام يدفعون ضريبة أقل حتى مما كانوا يدفعونها فى العصور الساسانية . وكانت الحقيقة

أن هذه المناطق بقيت خارج السيطرة الإسلامية حتى القرن الثامن الميلادى/الثانى الهجرى. وظل الطريق الشرقى من الرى غير آمن واضطرت القوات الإسلامية الذاهبة إلى خراسان إلى استخدام الطريق المؤدية إلى جنوب الصحراء الكبرى ثم يتجه شمالاً عبر سستان .

وفى الوقت نفسه كان المزيد من الجيوش الإسلامية تتحرك داخل أذربيجان وكانت أذربيجان الولاية الشاسعة إلي الشمال الشرقى من الهضبة الإيرانية . كانت هذه أرضًا تتناقض فيها البيئات بقوة. ففى بعض المناطق السفلى بحذاء ساحل قزوين كانت الأرض دافئة وتتوفر بها المياه بصورة نسبية . وبعيداً فى الجنوب والغرب كانت الأرض شاسعة ومفتوحة بها جبال عالية. وكانت هذه أرضًا يطيب فيها المرعى صيفًا ، ومن المرجح أن معظمها كانت سكنًا للقبائل الكردية ، الذين كانوا يقضون شتاءهم فى سهول إيران الشمالية أو مناطق مُغن الإستبسية بجوار بحر قزوين ويمضون صيفهم فى مراعى الأراضى المرتفعة . وكانت هناك مدن قليلة مهمة متناثرة فى الفضاء الشاسع . ولابد أن الغنائم كانت ضيئلة للغاية أيضًا ، وليس فيها شيئًا من إغراءات المدن الغنية فى العراق أو فارس .

وقد انطلقت القوات الأولى من حلوان تحت قيادة بكير بن عبدالله الليثى(٢٢). ويبدو محتملاً أنهم وجدوا الذهاب عسيراً ، وبعد فتح همذان كان النعمان قد تلقى الأوامر بإرسال قوات من جيشه لدعمهم. وقد اختار النعمان أن يتأخر بعد أن أمّن الرى. ومرة أخرى، لقى العرب المساعدة بفضل تعاون شخص مهم من النخبة الإيرانية، كان أسفندياذ أخو رستم الذى كان قد تولى قيادة الجيوش الفارسية فى هزيمتها الكارثية بالقادسية هو ذلك الشخص . وربما كانت العائلة قد جاءت من هذه المنطقة، وقاد اسفندياذ جيوش أذربيجان فى محاولة بلا طائل لوقف تقدم النعمان فى نهاوند . وقد أسره بكير فى بداية حملة أذربيجان ووافق على أن يكون وسيطًا بين القائد العربى والسكان المحليين . وحذر بكير بأنه إن لم يعقد الصلح مع الأهالى، فإنهم سيتفرقون فى القوقاز وشرق الأناضول، حيث سيكون من المستحيل تقريبًا اقتلاعهم. ومرة أخرى كانت الدبلوماسية هى التى ضمنت نجاح جيوش المسلمين. والتفاصيل نادرة جداً

ولكن يبدو كما لو كان هناك قليل من القتال وأن معظم الناس اتفقوا على دفع الجزية مقابل السماح لهم بالاحتفاظ بممتلكاتهم وعاداتهم وديانتهم . وليس هناك ذكر لأى حصار ، كما لا يبدو أنه تمت إقامة حاميات عسكرية عربية.

وتحركت الجيوش العربية بحذاء الشاطئ الغربى لبحر قزوين إلى المدينة التى يسميها العرب «باب الأبواب» ، التى تسمى الآن الدربند . وهناك تنحدر السلسلة الرئيسية لجبال القوقاز تجاه ساحل البحر. وعند هذه النقطة كان الساسانيون قد أسسوا موقعًا حصينًا. ولا تزال الأسوار الطويلة الحجرية القوية تمتد من البحر إلى الجبال. ومثل جُرجان ، كانت هذه أرضًا حدودية. وفيما وراء الأسوار كانت هناك أرض يسكنها البدو، وهى السهول الشاسعة فيما يعرف الآن بجنوب الروسيا.

كان قائد الحامية الساسانية رجلاً يدعى شهربراز . وكان واعيًا تمامًا لأصوله الأرستقراطية ومن الواضح أنه لم يكن يتعاطف مع أهل القوقاز والأرمن الذين كانوا يحيطون به . ولأنه كان يعرف أن الحكم الساسانى قد انهار فى الأماكن الأخرى فقد سعى إلى الارتباط مع القادة العرب، ودخل فى سلسلة من المفاوضات تم الاتفاق فيها على إعفائه هو ورجاله من دفع الجزية فى مقابل الخدمة العسكرية فى جيش الحدود. وبهذه الطريقة لم تتم هزيمة العناصر الباقية من الجيش الساسانى وإنما أدخلوا فى صفوف جيوش الإسلام. ولاشك فى أن بعضهم سرعان ما اعتنقوا الإسلام. ومن المثير، أن روايات أخرى تكشف عن أنه بينما كان القادة العرب حريصين على مهاجمة البدو فيما وراء أسوار الباب، حذرهم القادة الفرس المحربون من هذا قائلين إنهم ينبغوا أن يتركوا الكلاب النائمة فى رقودها(٢٣). ولم يشن العرب غارات شمال الأسوار ، ولكنهم لم يحرزوا أى مكاسب دائمة. وعلى المدى الطويل، بقيت الحدود التى أرسيت عند السور سنة ٦٤١- ٦٤٢م هى حدود العالم الإسلامى فى شرق القوقاز حتى اليوم.

وقيل إنه تم اتخاذ ترتيبات مماثلة مع السكان المسيحيين فى مرتفعات أرمينية، وتوغلت الجيوش العربية حتى تبليسى فى جورجيا ، ولكن التفاصيل شحيحة وليس من الواضح ماذا كان الأثر الذى نتج عن ذلك النشاط.

وفى الوقت نفسه، كانت هناك حملة منفصلة تمامًا يجرى الإعداد لها فى إيران الجنوبية. فقد بدأ فتح فارس(٢٤) بغزو بحرى . إذ كانت هناك على الدوام علاقات وثيقة بين الشعوب على كلا شاطئى الخليج ، وكانت لعُمان بصفة خاصة تقاليد بحرية قديمة ولم يكن عبور المياه الهادئة بين الشاطئ الإيرانى والعربى يمثل مشكلة بالنسبة لكثير من البحارة عادة . وفى زمن الفتوح الباكرة كان الخليج بحيرة ساسانية فعلاً ، إذ كان للفرس عدد من المواقع الصغيرة على الشاطئ العربى. وفى عدم وجود الغابات الخشبية الكبيرة والحديد، كانت الملاحة ممكنة فى القوارب المصنوعة من جذوع النخيل، التى تربط معًا بالحبال ، وهى أسلاف القوارب التى يمكن رؤيتها فى المياه المحلية اليوم. وكان من الطبيعى عندما رأى عرب عمان والبحرين نجاح أبناء عمومتهم الشماليين ضد العراق الساسانى، أن تحدوهم الرغبة أيضا فى الانضمام إليهم.

وفى مناطق أخرى ، أعقبت الفتوح الأولى حروب الردة مباشرة . إذ إن حاكم البحرين الذى عينته المدينة المنورة، علاء بن الحضرمى الذى كان واضحًا أنه يتصرف بمبادرة منه، استولى على المواقع الفارسية على الساحل العربى. ففى سنة ٦٣٤م أرسل حملة بحرية تحت قيادة عرفجة(*) استولت على جزيرة مجهولة الاسم قبالة الشاطئ الفارسى واتخذها قاعدة لغاراته. ويبدو أن الخليفة عمر بن الخطاب، الذى يتم تصويره دائما مُرتابًا فى الحملات البحرية ، لم يوافق على هذا العمل الجرئ ويبدو أن القوة قد انسحبت دونما مكاسب دائمة.

وقام بالمحاولة الثانية عثمان بن أبى العاص ، الذى تم تعيينه سنة ٦٣٦م وكان مسئولاً عن معظم فتوح فارس. ولم يكن من أهالى ساحل الخليج. وهو مثل كثير من القادة المسلمين الأوائل جاء من مدينة الطائف الواقعة أعلى التل بالقرب من مكة ولاشك فى أنه قد تم تعيينه لضمان سيطرة المدينة المنورة على المنطقة. وفى سنة ٦٣٩م تقريبًا أرسل حملة بحرية عبر الخليج بقيادة أخيه الحكم . ولابد أن بعض مقاصده كانت أن يشغل طاقات رجال القبائل المحليين ويوفر لهم فرص الحصول على الغنائم ، ولكن من

(*) هرثمة بن عرفجة البارقى من الأزد (البلاذرى، فتوح البلدان، ص٣٧٤). (المترجم)

المحتمل أيضا أن عمر بن الخطاب كان يمكن أن يرى فى الهجوم من هذه الناحية تشتيتًا للقوات الفارسية التى كانت لا تزال متماسكة وقوية عن الصراع الدائر فى العراق، وكان هذا الهجوم بصفة خاصة سيحول طاقات الفرس فى فارس بحيث لايمكنهم الانضمام إلى الجيوش الرئيسية فى الشمال. كذلك أمر عمر بن الخطاب أنه على عائلة الجلندا ، حكام عمان الوراثيون، تقديم الدعم إلى الحملة . وكانت قوة الحملة صغيرة نسبيًا ، ما بين ألفين وستمائة وثلاثة آلاف رجل، وهو الرقم الذى ورد فى المصادر، وجاء معظمهم من قبيلة الأزد العمانية الكبيرة . وانطلقوا من ميناء الجلفر على موقع إمارة رأس الخيمة الحديثة ووطدوا أنفسهم على جزيرة ابركاوان (وهى تعرف اليوم باسم قشم) قبالة الشاطئ الإيرانى مباشرة. وكانت رحلة بحرية طولها حوالى مائة وثلاثين كيلو متراً ولم تكن لتستغرق أكثر من يومين إذا ما كانت الريح مواتية . ومثل سابقيهم سنة ٦٣٤م كان قصدهم استخدام الجزيرة لتأمين قاعدة للهجوم على البلاد.

وعقد القائد المحلى صلحًا معهم دون أن يبدى مقاومة ، ولكن يزدجرد الثالث كان لا يزال يحاول حشد مقاومة شديدة ضد الغزاة . فأمر حاكم كرمان بشن حملة من هرمز لاستعادة الجزيرة، ولكن هذه الحملة هُزمت . ثم تحرك المسلمون عابرين إلى الأرض الرئيسية وبدءوا يشنون الغارات على المناطق المحيطة. ولا غرابة فى أن مرزبان فارس الساسانى ، شهرك ، انطلق لمعارضتهم ولكن جيشه لقى الهزيمة فى راشهر سنة ٦٤٠م وقتل هو نفسه . وبعد هذا، فى سنة ٦٤٢م، عندما كان النصر فى نهاوند والفتح العربى للأهواز قد قلل من الخطر الذى يمثله الجيش الفارسى ، أسس المسلمون قاعدة دائمة فى بلدة توج الصغيرة ، التى صارت مصراً لهم، أى قاعدتهم العسكرية . والمدينة لا تقع على الساحل نفسه، ولكنها على بعد عدة كيلومترات قليلة داخل الأرض، حيث كان نهر شابور يمدها بالماء . وكانت جو المدينة حاراً للغاية مثل جميع المستوطنات على الجانب الفارسى من الخليج ، ولكنها محاطة بالنخيل . وهناك بنوا مسجداً ، يفترض أن بناءه كان بسيطًا جدا من الطوب اللبن وجذوع النخيل . وربما كانت توج قد تطورت مثل البصرة أو الكوفة ولكن على مستوى أصغر ولكن الأحداث تحولت

في اتجاه آخر . فقد استمرت البلدة في الازدهار بوصفها مركزًا تجاريًا واشتهرت بكتانها المنسوج بخيوط الذهب ، ولكن دورها باعتبارها قاعدة عسكرية انتهى عندما تحركت الجيوش الإسلامية أكثر في الأراضي الداخلية.

وإذْ انطلق عثمان بن أبي العاص من توج بدأ في غزو منطقة المرتفعات في فارس. وكانت فارس واحدة من أهم الولايات في الامبراطورية الساسانية ويمكن أن نجد فيها الآثار العظيمة لأول أسرة حاكمة فارسية ، الأخمينيين، وكانت القاعات العظيمة ذات الأعمدة في مدينة برسوبوليس شهودًا على تلك الفخامة القديمة. وترجع أصول السلالة الحاكمة الساسانية نفسها إلى مدينة اصطخر في فارس حيث كانوا هم المسئولين عن بيت النار في أنهتيا . وكان أول ملكين في الأسرة قد بنيا عاصمتين جديدتين في جور وبيشابور ، وعلى الرغم من أن الملوك اللاحقين نادرًا ما أقاموا هناك ، فإنها كانت لا تزال تذكر باعتبارها مسقط رأس الأسرة. وكان يزدجرد الثالث، في أثناء هربه ، قد عاد إلى إصطخر ، إلى مهد عائلته ، لكي يحاول حشد التأييد والدعم . وكانت الجغرافيا أيضا إلى جانبه. فقد كانت هذه أرضًا تغطيها الجبال الجرداء التي تفصلها الممرات الضيقة عن السهول التي تنمو فيها الغلال وبحيرات الملح.

ولدينا تفاصيل قليلة عن الحملة التي أخضعت هذه المنطقة المهمة للحكم الإسلامي، بيد أنه يبدو أن الحملة واجهت مقاومة كبيرة. فقد كانت فارس أرض القلاع الرابضة على قمم الجبال(٢٥)، والممرات التي يسهل الدفاع عنها. وقد فشلت المحاولة الأولى للهجوم على العاصمة اصطخر في سنة ٦٤٤م. وفي سنة ٦٤٧م استولت القوات الإسلامية على مدينة بيشابور بعد أن وصلتها التعزيزات من البصرة. ويمكن مشاهدة خرائب المدينة المهجورة اليوم. وتقع في وادٍ خصيب عند سفح جبال شاهقة حيث يجري نهر ماؤه عذب رقراق عبر صخور الحجر الجيري شديدة الانحدار إلى السهول . وعلى امتداد جانبي الممر، كان شابور الأول باني المدينة قد أمر بحفر نقوش تسجل انتصاراته. وفي قلبها يقع بيت نار عظيم مشيد بالحجارة، قيل إنه تم بناؤه بأيدي الأسرى الرومان في الحرب، الذين تم أسرهم عندما هزم شابور الأول الإمبراطور الروماني ڤالريان في سنة ٢٦٠م . وإلى جانب ذلك يقع المعبد الذي بني تحت الأرض

لأناهتيا ربة المياه . وحوله تنتشر المدينة نفسها، وقد بنيت على خطة شبكية مثل مدينة إغريقية أو رومانية Polis . وعاشت هذه المدينة بعد الفتح الإسلامى ولكن بحلول القرن الثامن الميلادى كان سكانها قد نزحوا بالفعل إلى مدينة كازيرون النامية بالقرب من العاصمة الإسلامية الجديدة شيراز . وبحلول القرن الثانى عشر كانت قد تحولت إلى أطلال خاوية.

وفى سنة ٦٤٨م عقد المسلمون معاهدة صلح مع آرجان على الطريق الرئيسى بين العراق ومناطق المرتفعات فى فارس ودرابجرد فى مرتفعات الشرق . وكانت درابجرد مدينة مستديرة أخرى، وتقوم فى منتصفها قلعة. وحسبما يقول البلاذرى كانت منبع العلم والديانة الزرادشتية(*) على الرغم من أنه لم يوضح ماذا كانت تعنى هذه الإشارة المربكة . ومع هذا ، كان زعيم دينى «الهربذ» هو الذى سلمها للمسلمين بشرط أن يكون للناس الشروط والضمانات نفسها التى حصلت عليها المدن الأخرى فى المنطقة[٢٦].

وبحلول سنة ٦٥٠م كانت العاصمة اصطخر ومدينة جور المستديرة صامدتين أمام المسلمين. ففى تلك السنة تمت مراجعة البناء القيادى تمامًا. فقد عُهد بالسلطة فى فارس إلى حاكم البصرة الجديد عبدالله بن عامر. وكان عبدالله أرستقراطيًا من قريش قبيلة النبى، واشتهر بثروته وكرمه . وحفر قنوات جديدة للرى فى البصرة وحسن إمدادات المياه للحجاج فى مكة . وكان أيضا قائدًا عسكريًا جسورا، على استعداد لقيادة جيشه بعيدًا عن ديارهم فى العراق إلى أبعد المواقع فى الإمبراطورية الساسانية. وكان تعيينه يعنى أيضًا أن كل موارد القاعدة المسلمة فى البصرة يمكن أن تكرس لفتح جنوب إيران وشرقها . وكما هى العادة فإن الروايات الخاصة بهذه الحملة النهائية قليلة ومرتبكة على السواء، ولكن يبدو واضحًا أنه كانت هناك مقاومة كبيرة فى كل من جور واصطخر . وتقول الروايات إن جور كانت قد تعرضت للإغارة فترة من الوقت ولكنها لم تسقط بأيدى قوات ابن عامر سوى بعد أن دلهم كلب، خرج من المدينة يبحث عما يأكله فى معسكر المسلمين، على طريق سرى خلفى إلى داخل المدينة[٢٧].

(*) يقول البلاذرى (فتوح البلدان، ص٣٧٦) : «وكانت شادروان علمهم ودينهم».

وبعد هذا ، جاء دور عاصمة فارس. ولا تزال البقايا الضئيلة لمدينة أصطخر شاخصة إلى اليوم . وهى تقع فى الأرض المسطحة على الطريق الرئيسى على بعد كيلومترات قليلة إلى الشمال من أطلال برسبوليس القيمة. وهو موضع ليس حصينًا بالطبيعة ولكن من الواضح أنه كان مسورًا فى ذلك الوقت. ويبدوو أن المدافعين قد أبدوا مقاومة أطول منها فى أى مكان آخر . وكما حدث فى عدة أماكن أخرى، قيل إن المدينة قد استسلمت بشروط ثم تمردت أو خرقت الاتفاق . وحدث أثناء إعادة الفتح أن نشب القتال، ووفقا لإحدى الروايات[٢٨] أخذ رجال عبدالله بن عامر المدينة بعد قتال شديد، استخدم فيه الرمى بآلات الحصار. وأعقبت الفتح مذبحة هلك فيها أربعون ألفًا من الفرس، ومن بينهم عدد كبير من عائلات النبلاء والفرسان الذين كانوا قد لجأوا إليها .

ويبدو أن معدل الموت والدمار فى اصطخر لم يكن يماثله شىء فى فتح غرب إيران وشمالها، وكانت تلك المعركة الوحيدة التى قيل إن آلات الحصار استخدمت فيها لكى تخضع مدينة مسورة وكانت المناسبة الوحيدة التى حدثت فيها مذبحة على هذا النطاق. ويبدو أيضا أنه كانت هناك محاولة منتظمة لتدمير الرموز الأساسية للديانة الفارسية القديمة، بيوت النار، ومصادرة الأملاك . وقيل إن شخصًا يدعى عبيدالله بن أبى بكرة قد كسب أربعين ألف درهم من إطفاء النار، وتدمير بيوت النار وجمع العطايا التى كان الحجاج الزرادشت قد وضعوها بها[٢٩]. وعلى الرغم من ضآلة المعلومات، وعلى الرغم من أننا لا نملك روايات فارسية نضعها بإزاء السرديات العربية الخالصة، فإنه يبدو أن المقاومة كانت ضد العرب الغزاة فى فارس ولا سيما فى أصطخر أقوى مما كانت فى أى مكان آخر فى إيران. وربما يكون دور هذه الولاية بوصفها مهد الأسرة الحاكمة الساسانية ومسقط رأسهم قد دفع الأهالى المحليين لمحاربة الغزاة بمثل هذه الشدة.

واستمر عبدالله بن عامر فى الاندفاع شرقًا من فارس، متعقبًا يزدجرد الثالث بهمة، حيث كان قد هرب قبل سقوط أصطخر . وتحرك بسرعة إلى ولاية كرمان. وهناك سقطت المدن الرئيسية ، بما فيها بيمنذ والشيرجان التى كانت العاصمة آنذاك، بسرعة. وعرفنا أن الكثير من السكان هجروا بيوتهم وأراضيهم بدلاً من العيش تحت السيادة الإسلامية . وجاء العرب واستقروا فى أملاكهم.

وتقع ولاية سيستان ، أوسجستان ، إلى شمال شرق كرمان. وفى أيامنا هذه فإن هذه المنطقة نادرة السكان وغالبًا ما لا يسود فيها القانون وتمتد بلا نظام بين الحدود الايرانية – الأفغانية . وهى تعانى من مناخ قارى قاسٍ ، وتصل الحرارة بالنهار إلى درجة خمسين درجة مئوية بشكل منتظم فى الصيف، على حين تكتسح العواصف الثلجية الأرض المقفرة فى الشتاء ومعظمها صحراء كما تتناثر فيها خرائب المبانى القديمة المبنية بالطوب اللبن الذى لا شكل له. ولم تكن دائمًا على هذا النحو الطارد، وربما يرجع القفر الذى تتسم به المنطقة الآن إلى غزوات المغول وتيمورلنك فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين . وكانت المنطقة تدين بازدهارها لمياه نهر هلمند ، الذى يجلب المياه الناتجة عن نوبان الثلوج فوق جبال الهندوكوش فى أفغانستان إلى السهول . ومثل نهر المرغب فى مرو ونهر زرفشان فى سمرقند وبخارى ، كان يمكن استخدام النهر فى رى الأراضى الخصبة قبل أن تتبدد فى الصحراء . وقد امتدح الرحالة المسلمون الأوائل الحقول والمحاصيل فى مناطق صارت الآن أرضا جرداء بلا أشجار . وأخذت سيستان اسمها عن الساكا ، وهم شعب هندى إيرانى لعب دورًا مهمًا فى تاريخ الفترة البارثية : فقد كان الخيالة الساكا بمعاطف الزرد عنصرًا مهمًا فى الجيش البارثى الذى اشتهر بإنزال الهزيمة بالقائد الرومانى كراسوس Crassus فى كارهاى سنة ٥٣ ق.م وكانت كل الذكريات عن الساكا قد ضاعت فى زمن الفتح الإسلامى ، ولكن السستانيين اشتهروا بالصلابة والقوة العسكرية ، على الرغم من أن شهرتهم غالبًا ما انحصرت فى كونهم من الجنود المشاة.

كانت سستان مهمة أيضا باعتبارها مسرح معظم الأحداث المهمة فى الشاهنامة، الملحمة الشعرية الوطنية الفارسية . وكانت هذه الولاية موطن البطل العظيم رستم، المحارب الممتاز فى التراث الإيرانى القديم. وكان رستم هذا هو الذى ذبح ابنه سهراب فى واحدة من أشهر قصص الدراما فى المجموعة كلها. والقصص كما وصلت إلينا ألفها الشاعر الفردوسى فى أوائل القرن الحادى عشر/الخامس الهجرى . والحقيقة أن الأساطير عن رستم كانت معروفة جيدًا عندما جاء المسلمون، لا فى إيران وحدها ولكن فى شبه الجزيرة العربية أيضا. ونعرف أنها كانت تُحكى فى مكة أثناء حياة النبى وقيل

إنها كانت تصرف العقول الماجنة عن دعوته. وليس واضحًا ما الحقيقة التاريخية التى تكمن خلف الأساطير، إذا ما كانت هناك حقائق تاريخية على الإطلاق فيها، ولكن ما يسمى فرس الرخش ، حصان رستم الشهير، كان لا يزال يُعرض للرحالة فى بداية الفترة الإسلامية. وفى زمن الفتوح كانت بالولاية بيوت نار زرادشتية شهيرة فى كركويا. وقد بقيت بعد الفتح الإسلامى وكانت لا تزال مستخدمة فى القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى عندما قيل إن بيت النار هذا كانت به قبتان يرجع تاريخهما إلى «زمن رستم القوى» . ولم تكن النار تُترك لتنوى أبدًا تحت القبتين. وكان يقوم على خدمتها جماعة من الكهنة. ويجلس الكاهن الذى فى الخدمة بعيدًا عن ألسنة اللهب وعلى فمه قناع حتى لا يلوث النار بأنفاسه. وكان وقود النار من خشب شجر الطرفاء التى يتم التقاطها بملاقط من الفضة . وليست لدينا فكرة عن متى تم تدمير المعبد (بيت النار) ولكنه ربما راح ضحية الفوضى التى غطت المنطقة بأسرها زمن غزوات تيمورلنك فى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى/الثامن الهجرى.

وكانت سستان أيضًا موطن جماعة مسيحية صغيرة . وخارج هذه المنطقة شرق الامبراطورية الساسانية ، كان المسيحيون جميعًا من النساطرة ، أى أنهم كانوا ينتمون إلى الكنيسة السوريانية الشرقية، التى تعتبرها كنيسة الروم الأرثوذكس فى القسطنطينية، كنيسة هرطقية (منشقة) . ومن الأمور النمطية أن كافة معلوماتنا عن هذه الجماعة تأتينا نتيجة نزاع نشب حول انتخاب الأساقفة المتنافسين فى سنة ٥٤٤م، عندما اضطر البطريرك فى المدائن إلى أن يُبرم اتفاقًا على حل وسط بتعيين أسقف فى العاصمة زرنج وواحد آخر فى بُست بالشرق، فى شرق أفغانستان حاليا . ويسجل نص مسيحى مؤلف سنة ٨٥٠م تقريبا أيضًا أن دير سان ستيفان فى سيستان كان موجودًا ، ولكن تاريخ هذا الدير وكل ما يتعلق به مجهول تمامًا .

كان الغزو العربى لسستان[٣٠] هو الاستمرار المنطقى لمسير عبدالله بن عامر صوب الشرق فى مطاردة يزدجرد الثالث أثناء هربه من الغزاة . وكان الطريق من كرمان إلى سستان صعبًا على الدوام، حيث كان يقع عبر ركن من صحراء الملح الكبرى ، الدشتى لوت. والطريق طويل وشاق ، وتم مسح الغارة الأولى للمسلمين،

لا بفعل الحرارة وإنما بسبب العواصف الجليدية القاسية . وفى سنة ٦٥١- ٦٥٢م أرسل عبدالله حملة إلى داخل الولاية . وكما هى العادة استسلمت مدن كثيرة ، ورضيت بعقد صلح بشروط تجنبهم الحرب والدمار . وعلى أية حال، فإن العاصمة المحلية زرنج كانت مدينة جيدة التحصين، وبها قلعة حصينة قال البعض إنها كانت قد شُيدت على يد الإسكندر الأكبر. وهناك وقع بعض قتال عنيف قبل أن يوافق المرزبان على عقد الصلح . وعقد مجلساً من الأعيان المحليين ، ومنهم الموباذ ، وهو زعيم دينى زرداشتى، واتفقوا على الاستسلام تجنبًا للمزيد من إراقة الدماء. وكانت الشروط دفع مليون درهم فضة جزية سنوية ومعها ألف وصيف (عبد صبى) ، وفى يد كل منهم قدح ذهبى. وبعد الاستيلاء على زرنج ، تشاور الغزاة فى القيام بهجوم على بُست ، المدينة الرئيسية فى جنوب أفغانستان ولكنهم واجهوا مقاومة عنيفة.

كان يزدجرد الثالث ، آخر الملوك الساسانيين، لا يزال سادراً فى هرويه ، يبحث عن مكان يلجأ إليه حيث يمكنه حشد شراذم الفارين من جيشه[٣١]. ووجد الملك ملجأ فى إمارة طبرستان الجبلية. وربما كان هذا سينقذ حياته، ولكنه كان من الصعب أن يعبئ الموارد الكافية فى طبرستان لاستعادة مملكته . وهناك أيضا حكاية عن أنه التمس العون من حكام الصين . وبدلاً من ذلك توجه صوب سستان، وربما بقصد الوصول إلى خراسان فى نهاية المطاف . ووفقًا لقصة لاحقة ، أصر على التحرك بحاشية ضخمة فاخرة ، على الرغم من ظروفه الضائقة . وقيل إنه كان معه أربعون ألف رجل : من العبيد ، والطهاة ، والخدم الخصوصيين (الشماشرجية) والسُيَّاس، والسكرتارية ، والزوجات ، وغيرهن من النساء ، وعجائز وأطفال من العائلة - ولكن لم يكن معه محارب واحد . ومما زاد الموقف سوءاً بالنسبة لجيشه المتردد أنه أيضا لم يكن يمتلك المال لإطعامهم: فقد كان عليهم أن يكونوا كرماء وشجعان كذلك[٣٢]. وقد نزلت توسلاته من أجل المساعدة فى سيستان على أذن صماء، فقد كان ملكًا لفترة قصيرة جداً فقط ولم يكن له رصيد من الولاء يستند إليه. ويبدو أن السادة المحليين كان يفضلون فكرة أن يعقدوا صلحًا خاصًا بهم مع الغزاة بدلاً من إسداء ولائهم لملك سجله حافل بالفشل.

ومن سستان تحرك إلى خراسان . وهناك فى الركن الشمالى الشرقى من إمبراطوريته، فى أرض ربما لايكون قد زارها من قبل أبداً ، جرت مباراة النهاية فى الامبراطورية الساسانية . وكانت نهاية بائسة لقصة عظيمة . ويبدو أن الملك الهارب قد اعتبر ضيفًا غير مرغوب فيه وليس بطلاً، كما أن الانقسامات التى قوضت المقاومة الساسانية للغزو العربى استمرت حتى نهاية النهاية. وفى طوس أعطاه السيد المحلى الهدايا، ولكنه أيضا أوضح له أن القلعة ليست كبيرة بما يكفى لاستيعاب حاشيته؛ وكان عليه أن يواصل الحركة.

وهكذا حدث أن يزدجرد جاء إلى مدينة مرو الحدودية الكبيرة. وعلى مدى زمن طويل كانت المعقل الشرقى لمواجهة أتراك مناطق الإستبس . وكانت مدينة ضخمة وعتيقة للغاية وفى قلبها كانت القلعة ، ضخمة ومستديرة إلى حد ما مشيدة من الطوب اللبن، مع الأسوار الشاهقة المنحدرة التى هى من خصائص آسيا الوسطى. ويرجع تاريخها إلى العصور الأخمينية إن لم يكن قبل ذلك . وكان السلوقيون قد أضافوا إلى هذا سياجًا مستطيلاً يضم الآن الأحياء السكنية فى المدينة . وكان يتم الدفاع عنها أيضًا بواسطة استحكامات ضخمة تتوجها على مسافات أبراج مشيدة بالآجر . وقد تمت تقوية قمم الدفاعات فى وقت قريب بإضافة حوائط ذات أعمدة بها فتحات لإطلاق السهام . وكان بإمكانها الصمود ضد الغزاة العرب إلى مالانهاية . وفى داخل الأسوار كانت المدينة متاهة من الشوارع الضيقة وبيوت ذات طابق واحد مبنية من الطوب اللبن . وقد تم اكتشاف آثار المعابد البوذية، ولا بد أنه كانت هناك بيوت نار للزرادشتية كذلك. ونحن نعرف أنه كانت هناك جماعة مسيحية لعبت دورها فى المأساة التى كانت تتكشف فصولها.

كان رد فعل مرزبان مرو إزاء وصول مليكه الهارب هو محاولة التخلص منه بأسرع ما يمكن. وتحالف مع الرؤساء الأتراك من جيرانه ، وهم أعداؤه القدامى ، ضد يزدجرد . وحدث أن سمع الملك أن القوات كان يتم إرسالها للقبض عليه وغادر المدينة سرًا تحت جنح الليل. وسرعان ما لجأ الملك المرهق إلى طاحونة مائية على نهر المرُغاب، الذى يروى واحة مرو ، وهناك تم إعدام آخر الساسانيين . وما جرى بالضبط فى تلك

الليلة لا يمكن معـرفته أبدا[٣٣]، ولكن الملحمة الإيرانية العظيمة الشاهنامة ، تقترح ما جرى ، ويستخدمها الشاعر الفردوسى لختام ملحمته الكبيرة عن الملكية الفارسية[٣٤].

ووفقًا للشاهنامة ، فبعد هزيمة رستم وموته فى القادسية ، استشار يزدجرد الفرس. واقترح مستشاره فرُوخزا عليه يجب أن يهرب إلى نروان فى الطرف الجنوبى من بحر قزوين ، ويستعد لحرب عصابات ، ولكن الملك لم يقتنع . وفى اليوم التالى جلس على عرشه ووضع تاجه على رأسه وطلب النصيحة من النبلاء والكهنة. ولم يحبذوا الخطة ووافق الملك قائلا: «هل أنقذ رأسى وأتخلى عن نبالة فارس ، وجيوشها القوية ، والأرض نفسها ، وعرشها وتاجها ؟ ... وبالطريقة نفسها التى يدين بها رعايا الملك له بالولاء فى السراء والضراء كذلك لا ينبغى لملك العالم أن يتخلى عنهم ويتركهم لمعاناتهم على حين يفرُّ هو بحثًا عن السلامة والرفاهية».

ثم اقترح الملك أن يذهبوا إلى خراسان «لدينا هناك أبطال كُثر مستعدون للقتال من أجلنا . هناك نبلاء وأتراك فى خدمة الإمبراطور الصينى، وسوف يقفون إلى جوارنا». وعلاوة على هذا، كان ماهويه، سيد مناطق التخوم هناك، راعيًا متواضعًا حتى رفعه يزدجرد إلى الثروة والسلطة . ولم يكن فرروخزاد ، المستشار الحكيم ، مقتنعًا ، مجادلاً بأنه لا يجب أن يثق برجال «طبيعتهم دنيئة» ، وهو مثال نموذجى على السياق العقلى الأرستقراطى للنبلاء الساسانيين. وانطلق الملك قاصداً خراسان ، تصحبه أصوات العويل من الفرس والصينيين على السواء . وقد ذهبوا مرحلة بعد مرحلة إلى الرى ، حيث «استراحوا فترة من الزمن ، وهم يواسون أنفسهم بالخمر والموسيقى»، قبل أن يسرعوا الخطى «مثل الريح».

وعندما اقتربوا من مرو، كتب الملك إلى الحاكم ، ماهويه، الذى خرج للقائه مظهراً الولاء بشكل كبير . وعند هذه النقطة سلم فروخزاد المسئولية عن مليكه إلى ماهويه وغادر قاصداً الرى، وقد ملأه إحساس كئيب يتوقع شراً وهو ينعى رستم «أحسن فارس فى الدنيا»، قتله أحد أولئك الغرباء بعمائمهم السوداء ». وتحولت أفكار ماهويه

صوب الخيانة. وكتب إلى طرخان، حاكم سمرقند، واقترح خطة مشتركة ضد يزدجرد. ووافق طرخان وأرسل قواته من الأتراك ضد مرو. وعندما تلقى يزدجرد تحذيراً باقترابهم، لبس سلاحه مستعداً لمواجهتهم . وعلى أية حال، فإنه لم يلبث أن أدرك أن رجاله قد تخلوا عنه وأن ماهوى كان قد انسحب من القتال تاركًا الملك وحده . وحارب بضراوة ولكنه اضطر إلى الفرار فى نهاية الأمر، تاركًا جواده بسرجه الذهبى، وقضيبه وسيفه فى الجراب الذهبى . واحتمى بطاحونة مائية على أحد أنهار مرو.

عند هذه النقطة فى تدهور حظوظ الملك، يفكر الشاعر متأملاً بذلك التشاؤم الذى أضجرته الحياة والذى ميز أعمال الشعراء الفرس اللاحقين من أمثال عمر الخيام، فى قسوة القدر.

«هذه طريقة الدنيا الخادعة ، ترفع قدر الرجل عاليًا ثم تطيح به أسفل سافلين . فعندما كان الحظ حليفه، كان عرشه فى السماء، والآن بات نصيبه من الدنيا طاحونة ؛ وفى الدنيا مباهج كثيرة ، ولكن سمومها أكثر. فلماذا يجب عليك أن تربط قلبك بهذه الدنيا، على حين تدق الطبول مشيرة إلى رحيلك باستمرار، تصحبها صيحة قائد القافلة «استعدوا للرحيل» ؟ إن الراحة الوحيدة هى التى ستجدها فى القبر . وهكذا جلس الملك ، دونما طعام، وقد اغرورقت عيناه بالدموع ، حتى بزغت الشمس .

«وفتح الطحان باب الطاحونة ، وهو يحمل حملاً من القش على ظهره . كان رجلاً وضيعًا اسمه خسرو ، لم يكن له تاج ولا عرش ولا ثروة ، ولا أية سلطة . كانت الطاحونة مصدر رزقه الوحيد. وشاهد محاربًا مثل شجرة سرو باسقة جالسًا على الأرض الصخرية مثل رجل حطه اليأس ؛ وعلى رأسه تاج ملكى وثيابه مصنوعة من القصب الصينى اللامع. وحملق خسرو فيه مندهشا ودمدم باسم الرب. وقال: «يا صاحب الجلالة، إن وجهك يلمع مثل الشمس : أخبرنى، ما الذى جاء بك إلى هذه الطاحونة ؟ كيف لطاحونة مليئة بالقمح والغبار والقش أن تكون مكانًا تجلس فيه ؟ أى نوع من الرجال أنت بجسدك هذا ووجهك هذا، وأنت تُشع مثل هذا المجد ، لأن السماء لم ترك أبداً على هذا الشكل ؟».

وأجاب الملك : «إنني واحد من الفرس الذين هربوا من جيش الطورانيين». وقال الطحان فى غمرة ارتباكه : «إننى لم أعرف أبداً سوى الفقر ، ولكن إن استطعت أن تأكل بعض خبز الشعير وبعض الأعشاب الشائعة التى تنمو على ضفة النهر، فإننى سوف أحضرها لك، وأى شيء آخر يمكن أن أجده. إن الرجل الفقير يدرك دائما أن ما يملكه قليل » وفى الأيام الثلاثة التى مضت منذ المعركة لم يكن الملك قد تناول طعاماً . فقال «احضر لى ما لديك واحضر لى حزمة مقدسة(*) وبسرعة أحضر الرجل سلة من خبز الشعير والأعشاب ثم أسرع ليحضر الحزمة المقدسة من مكتب تحصيل الضرائب عند النهر. وهناك قابل رئيس الزرق وسأله أن يعطيه حزمة مقدسة. وكان ماهويه أرسل الناس فى كل مكان بحثًا عن الملك ، وقال الرئيس «قل لى أيها الرجل، من هو الذى يريد حزمة مقدسة؟ » وأجابه خسرو : «هناك محارب على القش فى طاحونتى ، إنه طويل مثل شجرة السرو، ووجهه مجيد مثل وجه الشمس، وحاجباه مثل قوس ، وعيناه الحزينتان مثل زهور النرجس : وفمه ملىء بالتنهدات ، وجبهته مقطبة عابسة. إنه هو الذى يريد الحزمة المقدسة لكى يصلى». وفى الحال أرسل الرئيس الطحان إلى ماهويه، الذى أمره بالرجوع إلى الطاحونة وقتل الملك، مهدداً إياه بإعدامه إذا لم يفعل ، وأضاف أن التاج، والأقراط، والخاتم والملابس الملكية لا يجب تلويثها . وعاد الطحان المرتبك إلى الطاحونة وفعل ما أُمر به ، وطعن الملك بخنجر . وسرعان ما ظهر رجال ماهويه الموالين، وجردوا الجثة من شارات الملك ثم ألقوا بها فى النهر.

وفى قفلة ختامية مثيرة للقصة، يصف الشاعر كيف أن الرهبان المسيحيين فى دير قريب شاهدوا الجثة ، وتجردوا من مسوحهم وسحبوا الجثة خارج المياه. وأقاموا له شاهد قبر فى حديقة . وجففوا جرح الخنجر وعالجوا الجثة بالمراهم والقطران والكافور والمسك ؛ ثم ألبسوها ثوبًا من القصب أصفر اللون ، ووضعوها على قماش الموسلين ووضعوا فوقها طيلسان أزرق . وأخيرا قام أحد القساوسة بمسح قبر الإمبراطور بالنبيذ والمسك والكافور وماء الورد.

(*) هى حزمة من أغصان شجرة معينة مربوطة معًا يمسكها من يتلو صلوات النعمة الزرادشتية قبل الأجل. ومغزى القصة أن أحد النبلاء فقط هو الذى يطلب هذه.

وكان ماهويه بطبيعة الحال قد استشاط غضبًا ، قائلا إن المسيحيين لم يكونوا أبدًا أصدقاء لإيران وأن كل من له علاقة بمراسم الموت ينبغى أن يُقتل . وداهمته هو نفسه نهاية سيئة . فهو مثل ماكبث ، ندم على قتل الملك : «لا يسميني رجل حكيم ملكًا وسلطة خاتمى لا يحترمها الجيش... فلما أهدرت دماء ملك العالم ؟ أمضيت الليالى معذبًا بالقلق، والربُّ يعلم بالحال التى أعيشها» . وسرعان ما جاء مالكوم الخاص به على هيئة قائد قوات طرخون سمرقند. وأخذ ماهويه الخائن وبنيه، وبعد أن قطعوا أياديهم وأرجلهم ، ثم دفنهم أحياء.

ويختتم الشاعر باقتضاب «وبعد ذلك جاء زمن عمر، وعندما جاء بالدين الجديد، حلّ المنبر محل العرش».

وأعقب موت يزدجرد الثالث احتلال العرب لمرو ، ويبدو أنه كان سلميًا، ولكن التفاصيل غائبة تمامًا .

كان سقوط مرو وموت آخر الساسانيين علامة نهاية المرحلة الأولى من الفتوح الإسلامية فى إيران. وبالفعل كانت كل ما هى الآن أراضى إيران الحديثة ، ومعها بعض مناطق القوقاز وتركمانستان ، قد اعترفت بالسيادة الإسلامية بشكل أو بآخر . فقد كان سقوط الإمبراطورية الساسانية العظمى سريعًا وحاسمًا . وعلى الرغم من الشهرة الكبيرة للملكية القديمة ، فقد كانت محاولات إحيائها قليلة بلا فاعلية . لقد ولّى النظام السياسى القديم إلى غير رجعة ، ولكن الكثير من الثقافة الإيرانية بقى إلى ما بعد الفتوح الإسلامية، لقد هزم العرب الجيوش الساسانية. وضمنوا الجزية من معظم المدن الرئيسية والسيطرة على معظم الطرق الكبرى ولكنهم لم يسيطروا عليها كلها بأى حال من الأحوال . وكانت الحامية العسكرية الكبيرة الوحيدة موجودة فى مرو، على الحدود الشمالية الشرقية فيما يبدو ، وحتى هناك كانت يتم إرسال القوات بالتناوب من العراق على مدى بعض السنين ، بدلاً من استقرارها بشكل دائم . وعلى امتداد نصف القرن الأول من الحكم الإسلامى ، لم يكن هناك وجود كبير للمسلمين لو لم يتم تأسيس مدن إسلامية جديدة ، ولم يتم بناء مساجد كبيرة. وغالبًا ما كان «الفتح» نوعًا

من التعاون مع النخب المحلية الإيرانية، مثلما كان الحال فى قُم وفى الرى. وكانت مناطق كثيرة، مثل إمارات الجبل فى شمال إيران خارج السيطرة الإسلامية تمامًا ، كما أن الطريق المباشر من الرى إلى مرو بقى غير مستخدم بسبب التهديد الذى مثلته هذه الإمارات .

وربما كان سقوط مرو علامة على نهاية الحملة ضد الساسانيين وبناء الهيمنة الإسلامية فى مناطق إيران الحالية ، ولكن كان هناك المزيد من القتال قبل أن يصير الحكم العربى حقيقة فى الكثير من نواحى البلاد. فطوال أواخر القرن السابع الميلادى والعقود الأولى من القرن الثامن الميلادى (الأول والثانى للهجرة) ، كانت الجيوش العربية مندفعة فى أرض مجهولة وصولاً إلى حواف العالم الإيرانى.

وثمة مثال مثير على هذه الفتوح الثانوية يمكن أن نراه فى حالة جُرجان وطبرستان. والقصة مركبة ولكنها توضح فعلاً كيف أن العديد من العوامل المختلفة يمكن أن تكون داخلة فى فتح منطقة ما ، كما توضح التفاعل ما بين القوى السياسية القائمة والوافدين العرب كانت طبرستان الإقليم الجبلى على الساحل الجنوبى لبحر قزوين ، وكانت جُرجان هى المنطقة السفلى إلى الشرق حيث تخلى مرتفعات الهضبة الإيرانية مكانها لأراضى الإستبس والصحراء فى وسط آسيا . وفى زمن الفتوح الأولية ، كان حكام هاتين المنطقتين ، صول جرجان وإصبهاذ طبرستان ، قد دخلا فى ترتيبات صُلح مع القادة العرب أتاحت لهما بالفعل الاحتفاظ بالسيطرة على ممتلكاتهما . ومع بداية القرن الثامن الميلادى/الثانى الهجرى ، عندما قوى حكم المسلمين فى باقى أنحاء إيران ، بدا هذا الوضع شاذًا بصورة متزايدة . إذ كانوا يمثلون تهديدًا واضحًا للمواصلات بين القاعدة العربية فى مرو والغرب ، ولم يستطع العرب سوى بعد ٧٠٥م أن يستخدموا الطريق المباشر من الرى إلى مرو ، بدلاً من الطريق الجنوبى الأطول عبر كرمان وسستان[٣٥]. وكانت المقاومة المحلية أيضا قد ضعفت بسبب التوتر بين أتراك دهيستان على أطراف الصحراء ، والذين يقودهم الصول من ناحية ، وسكان جرجان المستقرين من ناحية أخرى.

وفى سنة ٧١٧م ، قرر يزيد بن المهلب ، الوالى الجديد على خراسان، أن يقوم بحملة عسكرية كبرى فى هذه المناطق . وكان سلف يزيد فى حكم الولاية، قتيبة بن مسلم، قد حاز شهرة عريضة بسبب فتوحه فيما وراء النهر، وليس هناك شك فى أن يزيد أراد أن يحاكى قتيبة ويظهر أن بوسعه قيادة الجيوش ضد غير المؤمنين ويكافئ جنوده بالغنائم الوفيرة ويقال إنه جمع مائة ألف رجل من خراسان، ومن المدينتين العسكريتين العراقيتين الكوفة والبصرة[٣٦]. ويبدو أن الهدف الأول كان مدينة دهستان، وكانت موقعًا معزولاً فى صحراء تركمانستان. وحاصر المدينة وأغلقها مانعًا وصول الإمدادات الغذائية ، وبدأ الترك الذين كانوا جمهور المدافعين ، يغشاهم الخوف . وكتب الدهقان المسئول يطلب الصلح من يزيد. ولم يطلب سوى السلامة له ولعائلته وحيواناته. ووافق يزيد، ودخل المدينة ، وأخذ الغنائم والسبايا؛ وراح أربعة عشر ألفًا من الأتراك الذين لاحول لهم ولاقوة ، ولم يدخلوا ضمن الأمان، ضحايا الإعدام بالسيف[٣٧].

وفى رواية أخرى للقصة ، تراجع صول دهيستان إلى حصنه الحصين فوق جزيرة فى الركن الجنوبى الشرقى من بحر قزوين . وبعد حصار دام ستة أشهر ، انتابت الأمراض المدافعين من جراء مياه الشرب السيئة وفتح الصول المفاوضات ووافق على الشروط . وكما هى العادة ، هناك أوصاف يشوبها الإعجاب بالمغانم بما فيها أكياس الطعام والملابس. وحاز يزيد نفسه تاجًا ولكنه مرره بسرعة إلى واحد من مرؤسيه. فقد كانت التيجان تُلبس كثيرًا على رؤوس أبناء الأرستقراطية الإيرانية ، ولكن المسلمين الأكثر تقوى وزهدًا كانوا ينظرون إليها فى ارتياب عميق، وكانوا يرون فيها نموذجًا للخيلاء ، والتيه لدى الفرس. وربما بسبب هذا، احتج المرؤوس بأنه لا يريد التاج وأعطاه لواحد من الشحاذين. وسمع يزيد بهذا واشترى التاج ثانية من الشحاذ.

وبعد هزيمة الصول ، كان يزيد قادرًا على احتلال معظم الأراضى المستقرة فى جُرجان دون مقاومة كبيرة ، خاصة وأن بعض السكان المحليين الايرانيين على الأقل كانوا سعداء بقبول المساندة العربية لحمايتهم من الأتراك . ثم حول يزيد انتباه إلى طبرستان الجبلية . وكان الحاكم المحلى اصبهاذ قد جمع الحلفاء من المقاطعات الجبلية فى جيلان والديلم ناحية الغرب.

وكان أهل طبرستان قد أحبطوا المحاولات الإسلامية الباكرة لاختراق الممرات الضيقة فى جبالهم[٣٨] وعقدوا العزم على أن يفعلوا هذا مرة ثانية. وعندما تقابل الجيشان فى السهول، كانت الميزة للمسلمين، ولكن بمجرد أن تراجعوا، تمكن الأهالى من استخدام التراب للدفاع عن أنفسهم «... حتى انتهى المسلمون إلى فم الشعب ؛ فذهبوا إليه ليصعدوا فيه ، فأشرف عليهم العدو يرشقونهم بالنشاب ، ويرمونهم بالحجارة ، فانهزم الناس من فم الشعب من غير كبير قتال ولا قوة من عدوهم على إتباعهم وطلبهم ، وأقبلوا يركب بعضهم بعضاً ، حتى أخذوا يتساقطون فى اللهوب..»[٣٩]. وقد أدى هذا النجاح إلى جسارة الأهالى ، وكانت هناك انتفاضة ضد العدد الصغير من العرب الذى كانوا يشكلون الحامية فى جورجان[٤٠]، ولفترة من الزمن كان جيش يزايد يواجه خطراً جدّيًا بأن يقع فى مصيدة ويتم تدميره . ولم ينقذهم سوى قدر من الدبلوماسية الماهرة التى أتاحت لهم عقد صلح ، وهو ما تم تصويره باعتباره نجاحاً . فبالاضافة إلى مبالغ كبيرة من المال وافق إصبنهاذ طبرستان على تقديم أربعمائة بغل محملة بالزعفران وأربعة آلاف عبد . ويجب أن يكون كل عبد مرتديًا «... بُرنس ، على البُرنس طيلسان ولجام من فضة ، وسرقة (أى قطعة) من الحرير...»*.

ولم يكن للحرير والفضة أن تخفى حقيقة أن الحملة الضخمة قد انتهت بفشل جزئى. فقد تم إخضاع الأراضى الواطئة فى جُرجان للحكم الإسلامى، ولكن أهل طبرستان الذين تحميهم جبالهم ، قد حاربوا ضد المسلمين. ووفقا لكتاب محلى عن تاريخ المنطقة، كتب بعد عدة قرون من الحوادث ولكنه كان لا يزال يحتفظ بالمأثورات القديمة ، انطلق يزيد فى عملية تحويل جرجان إلى منطقة حضرية لأنها حتى ذلك الحين لم تكن مدينة حقيقية على الإطلاق. ويقال إنه قد بنى أربعة وعشرين مدينة صغيرة، لكل قبيلة عربية مسجداً ، وكان لا يزال يمكن التعرف على معظمها فى أيام الكاتب نفسه[٤١]. وهذه علامة على البداية الحقيقية للحكم الإسلامى فى جُرجان ، بعد سبعين سنة من

(*) النص من الطبرى، ج٦ ، ص٥٢٥ . والجدير بالذكر أن المؤلف يحيل النص فى هوامشه إلى الجزء الأول من النص الأصلى (راجع الأصل الإنجليزى pp. 386-7) على حين أن النص موجود فى الجزء الثانى من أصل كتاب الطبرى. (المترجم)

الفتح العربى الأول. وحتى فى ذلك الحين يبدو أن المجتمع الإسلامى كان مقيداً بحدود العاصمة التى تأسست حديثًا ؛ وكان للأمر أن يأخذ وقتًا أطول بالنسبة للدين الجديد حتى يتوغل فى القرى ومضارب البدو(٤٢).

وجاءت أقوى صور المقاومة التى واجهها العرب فى أراضى الإمبراطورية الساسانية من منطقة شرق سستان ، وهى مقاطعة هلمند وقندهار فى أفغانستان الحديثة . كما أن الحملات فى هذه المنطقة كانت مثيرة أيضًا بسبب ضراوة القتال استفزت العصيان الكامل الوحيد الذى تم تسجيله فيما بين القوات العربية فى ذلك الحين . وتمثل المناطق الصحراوية جنوب أفغانستان بيئة صعبة لأى جيش من الغزاة . ذلك أن الحرارة اللاهبة توهن الجنود كثيرا وتوفر التلال الغليظة نقاطا لاحصر لها لاختباء المدافعين الذين يعرفون المنطقة جيداً . ولم تكن هذه أرضا زرداشتية أو بوذية وإنما كانت أرضًا للإله زون ، الذى كانت صورته الذهبية وعيناه من الياقوت محل تبجيل فى كافة أرجاء المنطقة . وكان ملوك هذه الأرض يعرفون بالزُنبيل، وهو لقب كان يعلن ولاءهم لهذا الإله، وكانوا يتنقلون ما بين قصورهم الشتوية فى السهول بجوار نهر هلمند ومقار - إقامتهم الصيفية فى زابُلستان ، منطقة الجبال الباردة فى الشمال.

وكانت قوة من المسلمين قد شنت غارة على المنطقة سنة ٦٥٣- ٦٥٤م ، عندما قام أحد القادة العرب بصب احتقاره على تمثال الإله فيما زعموا ، وكسر أحد ذراعيه وانتزع عينيه الياقوتيتين . وقد أعادهما إلى الحاكم المحلى قائلاً إنه أراد أن يوضح فقط أن الصنم لاحول له ولاقوة . وعلى أية حال ، فإن الإله بقى بعد هذه الإهانة وكان لا يزال محل تبجيل فى القرن الحادى عشر ، مما يرمز إلى المقاومة الضارية لأهالى هذه التلال ضد التدخل الخارجى. وكان المسلمون مدركين تمامًا بأن هذه المنطقة كانت طريقًا محتملا إلى الهند ، بكل ثرواتها ، ولكن الزنابلة وأقاربهم حكام كابُل (كابُلشاه) وشعوبهم ، خاضوا مقاومة جسورة لفترة طويلة ضد العرب، مما جعل من المستحيل على الجيوش الإسلامية أن تصل إلى شمال الهند.

فى هذه البيئة المعادية بشدة قاد عبيد الله بن أبى بكرة «جيش التدمير» سنة ٦٩٨م[٤٣]. كان عبيدالله نفسه مثالاً نموذجيًا لرجل من أصول متواضعة أفاد تمامًا من الفتح الإسلامى. فقد كان أبوه عبدًا حبشيًا بمدينة الطائف قرب مكة . وعندما كان المسلمون يحاصرون المدينة سنة ٦٣٠م، أى قبل سنتين من وفاة النبى، أعلن أن أى عبد ينضم إلى جانبه، سيكون حرًا . واستخدم أبوبكرة بكرة يتدلى بها من أسوار المدينة ومن هنا جاءت كنيته، أبوبكرة . وقد تزوج إمرأة عربية حرة ، وورث ابنهما، عبيدالله ، لونه الداكن . وقد استغل هجاؤوه لونه الأسود وأصوله العبودية . وقد انتقلت الأسرة إلى البصرة عندما تم تأسيس المدينة وكسب مبالغ كبيرة من الأموال من التطور الحضرى ببناء الحمامات العامة . وقد تمكن عبيدالله من أن يبنى لنفسه بيتا بثمن كبير وأن يحتفظ بقطيع من ثمانمائة جاموسة فى أرض المستنقعات ضد العراق . وقد أتاح له فتح فارس المزيد من الفرص لجمع الأموال، ورأينا أنه كسب مبالغ طائلة من مصادرة بيوت النار هناك . وباختصار كان رجلاً وضيع الأصل قليل الخبرة العسكرية وجنى ثروة من الفتوح.

ثم عينه الحجاج بن يوسف الثقفى، حاكم العراق والمشرق بأسره ، قائدًا على جيش من المسلمين « ... ثم إنه غزا رُتبيل وقد كان مصالحًا ، وقد كانت العرب قبل ذلك تأخذ منه خراجًا ، وربما امتنع فلم يفعل ، فبعث الحجاج إلى عبيدالله بن أبى بكرة أن ناجزه بمن معك من المسلمين فلا ترجع حتى تستبيح أرضه ، وتهدم قلاعه ، وتقتل مقاتلته، وتسبى ذريته ...» وتجمع الجيش فى قاعدة بُسد الإسلامية المتقدمة ، ثم اتجهوا شمالاً فشرقًا لمطاردة رُتبيل « ... فأصاب من البقر والغنم والأموال ما شاء ، وهدم قلاعًا وحصونًا، وغلب على أرض من أرضهم كثيرة ، وأصحاب رُتبيل من الترك يخلون لهم عن أرض بعد أرض، حتى أمعنوا فى بلادهم، ودنوا من مدينتهم ...» ثم إنهم استدرجوا قوات عبيدالله إلى أن باتوا فى وضع حرج « ... فسقط فى أيدى المسلمين، وظنوا أن قد هلكوا ...» وبدأت المفاوضات . وأجبر من كان يفترض أن يفتح المنطقة على عرض مهين « ... إنى مصالح القوم على أن أعطيهم مالاً ويخلوا بينى وبين

الخروج ، فأرسل إليهم مصالحهم على سبعمائة ألف درهم...»(*) وأن يقدم رهائن من بينهم ثلاثة من أبنائه ، وأن يقسم ألاّ يغزو أرض رُتبيل . وتسلى عبيد الله مع الحاكم بصحبة الخمر والنساء[44]. ولم يكن جميع المسلمين راضين بهذه الإهانة وصمم بعضهم على القتال ونيل الشهادة ، وجادلوا بأنه لا ينبغى أبدا منع المسلمين من مهاجمة الكفار، كما أنه من الناحية العملية سوف يستقطع مبلغ الفدية من عطائهم، بحيث يمنع العطاء مكافأتهم مقابل ما تجشموه من الصعاب فى هذه الحملة .

واختار قلة من الشجعان أن يقاتلوا واستشهدوا حسبما أرادوا . أما الغالبية فقد اتبعوا قائدهم فى تقهقر بائس إلى بسد . ولم ينج سوى عدد قليل وهلك الباقون جوعًا وعطشًا . وكان الشعراء بلا رحمة تجاه عدم كفاءته ، وطمعه، وقبل هذا وذاك تجاه الطريقة التى استغل بها قواته لجمع الأموال .

عينوك أميراً عليهم

إلا أنك قضيت عليهم والحرب لا تزال دائرة[45]

وبقيت معهم، أبالهم ، وهكذا قالوا (النص من أنساب الأشراف)

... وتبيعهم الحصرم

ربما كانت تلك أهم نكسة لحقت بالجيوش الإسلامية منذ بدأت الفتوح العربية. وصمم الحجاج فى العراق على الثأر ويبدو أنه كان خائفًا من أن يقوم رُتبيل بالهجوم على المناطق التى كانت تحت حكم المسلمين بالفعل : فإذا انضم إليه انتفاضة من جانب الأهالى المحليين فربما ضاعت إيران كلها . وكتب إلى الخليفة عبد الملك بن مروان فى دمشق : « ... فإن جند أمير المؤمنين الذين بسجستان أصيبوا فلم ينج منهم إلا القليل، وقد اجترأ العدو بالذى أصابه على أهل الإسلام فدخلوا بلادهم ، وغلبوا على حصونهم وقصورهم ، وقد أردت أن أوجه إليهم جندًا كثيفًا من أهل المصرين، فأحببت أن استطلع

(*) اعتمدت على رواية الطبرى، (ج ٦، ص٣٢٢- ص٣٢٣) لتفسير نص المؤلف الذى اختصر القصة بشكل مُربك ، وقد التزمت بنص المؤلف ووضعت كلمات الطبرى لتوضيحه. (المترجم)

رأى أمير المؤمنـين فى ذلك...» وجاءت الإجـابة تحمل تصريحًا مفتـوحًا له بأن يفعل ما يراه مناسبًا .

وأخذ الحجاج فى تنظيم الجيش ، عشرين ألف رجل من الكوفة وعشرين ألفًا من البصرة ودفع لهم عطاياهم كاملة بحيث يمكنهم تجهيز أنفسهم بالخيول والسلاح. وتفقد الجيش بنفسه، وأعطى المزيد من الأموال لأولئك الذين اشتهروا بشجاعتهم . وأقيمت الأسواق حول المعسكر بحيث يمكن للرجال أن يشتروا المؤن وألقيت خطبة تحث الجميع على القيام بنصيبهم فى الجهاد[٤٧]. وصارت القوة تعرف باسم «جيش الطاووس» بسبب أناقة مظهرها .

وعلى الرغم من هذه الاستعدادات ، فإن الحملة بدأت سلسلة الحوادث التى أدت إلى حالة التمرد الوحيدة فى تاريخ الفتوح الباكرة ، وكانت المرة الوحيدة التى يرفض فيها جيش عربى الاستمرار فى القتال وينقلب على سادته السياسيين المسلمين. ولم يكن الأمر كله مباشرًا حسبما كان يبدو. إذ كان الحجاج يناضل على مدى عدة سنوات لإجبار القوات المحلية فى المدن العراقية على طاعته هو والخليفة الأموى فى دمشق . وكان لابد أن تكون هناك ميزة كبرى من وراء إرسالهم فى حملة بعيدة صعبة : فإذا انتصروا سوف يصيرون أثرياء وربما تسببوا فى استقرار المنطقة . وإن أخفقوا ، فإن قوتهم سوف تنكسر حينئذ. واختار ابن الأشعث ليكون قائدًا . وعلى خلاف عبيدالله التعس، كان الأشعث ابنًا للشرائح العليا فى الطبقة الاستقراطية فى جنوب شبه الجزيرة؛ إذ كان ينحدر مباشرة من نسل ملوك كندة قبل الإسلام. وكان أيضا رجلاً فخورًا لايحب أن يصدر إليه أحد أمرًا، وكان قد صار واحدًا من قادة المعارضة العراقية ضد الحجاج بن يوسف الثقفى. وكان تعيينه فى القيادة بمثابة تقديم كأس مسموم إليه.

وفى البداية سار كل شىء سيرًا حسنًا . وكتب الرتبيل ، الذى يبدو أنه كان على علم تام بالاستعدادات الإسلامية ، إلى ابن الأشعث يعرض الصلح . ولم يتلق ردًا وبدأت القوات المسلمة احتلال أراضيه بشكل منظم ، بحيث استولوا عليها ناحية بعد أخرى، وعينوا جباة الضرائب، ووضعوا حراسات على الممرات كما وضعوا خدمة بريد عسكرية.

ثم قرر ابن الأشعث أن يتوقف بقطرته ويعزز قواته، قبل أن يتقدم فى السنة التالية . وكتب إلى الحجاج عن هذا المسار المعقول تماماً لتصرفه وتلقى هجوماً عاصفاً رداً على هذا . فقد أتهم الحجاج القائد بالضعف وسوء التقدير وبعدم الاستعداد للثأر لأولئك المسلمين الذين قتلوا فى الحملة. وأمره بأن يستمر فى التقدم فوراً . وحينئذ طلب ابن الأشعث النصيحة . واتفق الجميع على أن مطالب الحجاج غير معقولة وأن القصد منها تحقير الجيش وقائده . وقال أحدهم : «... إن الحجاج والله ما يبالى أن يخاطركم بلاداً كثيرة اللهوب واللصوب (أى أن جبالها صعبة ومضايقها وشعبها كثيرة) ، فإن ظفرتم فغنمتم أكل البلاد وحاز المال، وكان ذلك زيادة فى سلطانه ، وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذى لا يبالى عنتهم، ولا يبقى عليهم...»[٤٨](*) وقال المتحدث التالى إن الحجاج يحاول أن يخرجهم من العراق ويجبرهم على الاستقرار فى هذا الاقليم المنعزل. واتفق الجميع على أن الجيش يجب أن يخلع طاعته للحجاج. ثم قرر ابن الأشعث أن يقودهم غرباً لتحدى السيطرة الأموية على العراق وأن يتصدى للخلافة ، تاركا للرتبيل السيطرة على أرضه وترك الموتى المسلمين بلا ثأر .

ولم ينجح العصيان العسكرى. فقد لحقت الهزيمة بابن الأشعث وأتباعه العراقيين على أيدى الجيش الأموى الشامى وتم سحقهم . بيد أن القصة مهمة فى حوليات الفتوح: إذ إن جيشاً مسلماً كان قد قرر أن تأكيد حقوقه ضد الحكومة المسلمة أهم من توسيع دار الإسلام وأن حفظ رواتبهم كان أكثر قيمة من الحصول على غنائم جديدة. ويمكننا أن نرى أن حركة الفتوح قد أخذت تفقد قوتها الدافعة .

كان إخفاق الجيوش الإسلامية فى جنوب أفغانستان علامة على نهاية الفتوح فى إيران. ولم تستمر حروب الفتح سوى فى الشمال الشرقى وراء نهر أموديريا (جيحون) وسيردريا (سيحون)(**) أى منطقة ما وراء النهر. وقد خلفت الفتوح الإسلامية بطبيعتها وتناثرها فى إيران ميراثاً ثقافياً مهماً. ففى بلاد الشام، والعراق، ومصر أدت الفتوح

(*) النص من الطبرى، ج٦ ، ص٣٣٥ – ص٣٦٥ . (المترجم)

(**) هى المنطقة الواقعة بين هذين النهرين وقد أسماها العرب « ما وراء النهر». (المترجم)

الإسلامية أيضا إلى انتصار اللغة العربية سواء باعتبارها وسيطا للثقافة الراقية أو لغة الحياة اليومية الدارجة. ولم يحدث هذا فى إيران. فعلى مدى قرنين من الزمان بعد الفتح ، وعلى مدى أطول من ذلك فى بعض المناطق ، كانت العربية لغة الإدارة لحكومة الخلافة . كما كانت لغة الخطاب الدينى والفلسفى . ولكنها لم تكن لغة الحياة اليومية . وعندما أكدت السلالات الحاكمة الإيرانية استقلالها عن حكم الخلافة فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين/الثالث والرابع الهجريين، كانت الفارسية هى اللغة المستخدمة فى بلاطهم . وكانت «الفارسية الجديدة» تكتب بحروف عربية واحتوت على الكثير من الكلمات التى استعارتها من العربية ، ولكن القواعد النحوية والمفردات الأساسية كانت فارسية بشكل واضح ، وهى لغة هندو - أوربية تتناقض مع اللغة العربية السامية. ويجدر بنا أن نتأمل كيف أن هذا الموقف مختلف عن الوضع فى مصر. فلم يكن أحد فى مصر سنة ٦٠٠م أحد يتحدث اللغة العربية ؛ وبحلول القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى على أقصى تقدير كان الجميع يتحدثون العربية . وفى العصور الحديثة تعتبر مصر المركز الرئيسى للثقافة العربية . وفى إيران سنة ٦٠٠م لم يكن هناك من يتحدث العربية؛ وفى القرن الثانى عشر (٦هـ) كانوا لا يزالون لا يتحدثون العربية . لقد رسخت العربية بوصفها لغة لأنماط بعينها من الخطاب الفكرى، بحيث تشابهت كثيرا مع اللاتينية فى أوربا العصور الوسطى وفى العصور الحديثة لا تعد إيران بلدا عربيًا بالتأكيد.

كان بقاء اللغة الفارسية مقرونًا ببقاء جوانب من الثقافة السياسية الفارسية . ففى بلاطات الأمراء فى شمال إيران وشمالها الشرقى حيث لم تصل الموجة الكبيرة من هجرات العرب، كان الحكام لا يزالون ينظرون إلى النماذج الايرانية القديمة ويزعمون أنهم ينحدرون من نسل الملوك الساسانيين والعائلات النبيلة . وكانت هذه البلاطات تعمل كأنها احتياطات للثقافة الإيرانية، وكان أن برزت فيهم المقاومة الفارسية، والإحياء الثقافى العظيم فى القرن العاشر الميلادى/ الرابع الهجرى، الذى تجلى فى أعمال مثل شاهنامة الفردوسى.

كان بقاء ثقافة إيران غير العربية يرجع جزئيًا إلى طبيعة الفتوح العربية الأولى، والمعدل البطئ جدا للاستقرار العربى والطريقة التى أبقى الفاتحون على بنى القوة القائمة سليمة متماسكة . لقد صارت البلاد إسلامية راسخة . ولم يعد هناك أحد غير مسلم بين الأمراء والنبلاء بأعدادهم الكبيرة، ولكن فى الوقت نفسه، بقيت اللغة الفارسية والهوية الفارسية حية حتى القرن الحادى والعشرين.

الهـــوامش

(١) عن قصة سقوط الإمبراطورية الساسانية والغزو الإسلامى لإيران، انظر :
A. Chrisrensen, L'Iran sous les Sassanides (rev. ; 2nd edn, Copenhagen.1944), pp. 497-509.

(٢) Tabari, Ta'rikh, 1, pp. 2596-633; Baladhuri, Futuh, pp. 302-7; Ibn Actham al-Kufi, Kitab al-Futuh, ed. S. A Bukhari, 7 vols. (Hyderabad, 1974), II, pp. 31-59. On the sources, see A, Noth, 'Isfahan-Nihawand- Eine quellenkritische .Studie zur fruhislamischen Historiographie'. Zeitschrift der Dentschen Morgenlandischen Gesellschaft 118 (1968): 274-96.

(٣) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2616.

(٤) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2618.

(٥) Tarari, 'Ta'rikh, I, p. 2617.

(٦) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2632.

(٧) Baladhuri, Futuh, p. 303.

(٨) Tabari. Ta'rikh, 1, pp. 2623-4.

(٩) Tabari, Ta'rikh, I, p, 2626.

(١٠) Tabari, Ta'rikh, pp. 2617, 2649-50.

(١١) Baladhuri, Futuh, p. 305.

(١٢) عن فتح همدان انظر: sec Baladhuri, Futuh, p. 309.

(١٣) S- Matheson, Persia : An Archaeological Guide (2nd rev. edn, I.ondon, 1976), p. 109.

(١٤) عن فتح همدان انظر: see Baladhuri, Futuh, pp. 312-14.

(١٥) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2642.

(١٦) Abu Nucaym al-Isfahari, Geschicte Ishahans, pp. 15-10.

(١٧) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2639-41.

(١٨) P. Pourshariati, 'Local histories of Khurasan and the pattern of Arab settlement:', Studio Iranica 27 (1998): 62-3.

(١٩) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2650-711. See Bahram VI Cobin' in Encyclopaedia Iranica, ed. E. Yarshater (London, 1985), III, pp.519-22.

(٢٠) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2653-5.

(٢١) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2659.

(٢٢) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2635.

(٢٣) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2667.

(٢٤) هذه الرواية قائمة على أساس : G. M. Hinds, 'The first Arab conquests in Fars, Iran 22 (1984): 39-53, reprinted in idem. Studies in Early Islamic History, ed.J. L. Bacharach, L. I. Conrad and P. Crone (Princeton, NJ. 1996).

(٢٥) Al-Istakhri, Kitab Masalik wa'l Mamalik, ed. M.J. de Goeje (Leiden, 1927).

(٢٦) Baladhuri, Futuh, p. 388,

(٢٧) Baladhuri, Futuh, p. 389.

(٢٨) Baladhuri, Futuh, p. 389.

(٢٩) Baladhuri, Ansab al'Ashraf, I, ed. M. Hamidullah (Cairo, 1959), p. 494.

(٣٠) عن الفتح الأولى لسيستان انظر: Baladhuri, Futuh, pp. 293-4.

(٣١) For discussion, see Christensen, Iran, pp, 506-9.

(٣٢) Bafami, quoted by Christensen, Iran, p.507-

(٣٣) For Arabic accounts, see Baladhuri, Futuh, pp. 315-16.

(٣٤) روايتى قائمة على أساس شاهنامة الفردوسى . Firdawsi, Shahnamah, trans. D. Davis, vol.III: Sunset of Empire (Washington, DC, 1998-2004), pp.501-13.

(٣٥) Tabari, 'Tarikh, I, p. 132;.

(٣٦) Tabari, Ta'rikh, I,p. 1318.

(٣٧) Tabari , Tarikh , T, p. 1320; Baladhuri, Futuh, pp. 33,-6.

(٣٨) Baladhuri, Futuh, p. 335.

(٣٩) Tabari, Ta'rikh,I,pp. 1320-22, 1328.

(٤٠) Tabari, Ta'rikh, I, p. 1328.

(٤١) Ta'rikh Zurjan, pp. 56-7; see also P. Poursnariati, 'Local histories of Khurasan and the pattern of Arab settlement', Studia Iranica 27 (1998): 41-81.

(٤٢) عن أسلحة جورجان :

R. Bulliet, Islam: The View from the Edge (New York, 1904).

(٤٣) عن هذه الحملة انظر:

C.E. Bosworth, 'Ubaidallah b. Abi Bakra and the "Army of Destruction" in Zabulistan (79/698)', Der Islam i (1973); 268-83.

(٤٤) Baldhuri, Ansab al-Ashraf, ed. Ahlwardt, p. 314.

(٤٥) Baldhuri, Ansab, p, 315-16. The translation is based on that of Bosworth, slightly simplified.

(٤٦) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 1038-9.

(٤٧) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 1043-7.

(٤٨) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 1054-5.

(٦)

فـى المغــــرب

إذا مـا سـافـرت على امـتـداد الطريق السـاحلى على طول المسافة من الإسكندرية إلى قرطاجة، عاصمة ولاية أفريقية الرومانية ، تكون قد قطعت مسافة تزيد على ألفى كيلو متر، ثم تقطع مسافة أخرى طولها حوالى ألف وخمسمائة كيلو متر من هناك حتى مضيق جبل طارق[١]. وإذا ما طاب السفر بحيث يقطع مسافة طولها عشرين كيلو متراً فى اليوم، فـربما اسـتـغـرقـت الرحلة سنة تقريبًا . ولا بد أن تتم الرحلة دون أن تتوقف يومًا ، أو تكون هناك خيول مريضة ، أو موظفون ، أو أعداء خطرون (يعيقون التقدم) . وكان لابد للرحلة أن تأخذك عبر بلاد كثيرة مختلفة وبيئات عدة متنوعة . وفى الشطر الشرقى من الرحلة كان لا بد من مـلازمـة الشـاطئ على امـتـداد الأرض المنبـسطة على السـاحل المصرى. وفى قورينه (بليبيا الحالية) تكاد جبال منطقة «الجبل الأخضر» تصل فى انحـدارها إلى البـحـر المتـوسط، وتسـقط عليـهـا كـمـيـة من الأمطار تكفى لوجـود الاسـتـقـرار الدائم، لا على السـاحل فـحسب ، وإنما فى الوديان الجنوبية التى تتـخلل سلسلة الجبـال أيضًا . وهناك ازدهـرت زراعـات منطقـة البـحـر المتـوسـط من القـمـح والكروم والزيتون.

فإذا ما استمر المسافر ماضيًا صوب الغرب دار حول خليج سرت . وهو تغيير فى الاتجاه مسافة طويلة . وتأتى الصحراء نازلة إلى البحر وربما لايمرُّ المسافر على مدى شهر بشىء من الحدائق والحقول والقرى والمدن. وحتى طرابلس تربوليتانيا Tripolitania لا يصل إلى الأراضى المستقرة مرة ثانية حيث الأرض المزروعة والمراعى ومدينة طرابلس

«وهى مدينة بحرية كبيرة، يحيط بها سور من الحجارة والحجر الجيرى، وغنية بالفواكه، والكمثرى والتفاح ومنتجات الألبان والعسل»[٢]. وإلى الغرب من طرابلس كان الطريق يؤدى إلى أراضى الاستقرار فى تونس الحالية. وكانت الولاية الجنوبية تسمى Africa Byzacena أفريقيا بيزاكينا، والمقاطعة الشمالية المعروفة باسم Africa Zeugitania أفريقيا زويجتانيا ، وقد عرفت كلتاهما فى العربية بعد ذلك باسم «أفريقية» ، أو «إفريقية» ، حسبما كانوا يفضلون كتابتها . وكانت ولايتا «بيزاكينا» و«زويجتانيا» فى العصر الرومانى المتأخر قلب الحكم الرومانى. وهناك كان القمح والنبيذ والزيتون والفخار تُنتج ليشكل الصادرات الرئيسية ، وهناك كانت المدن والبلدات الريفية عديدة جداً . وكانت قرطاج ، عند الركن الشمالى الشرقى فى ولاية أفريقيا البروقنصلية ، هى العاصمة الحقيقية ، لا لتونس فحسب وإنما لشمال أفريقيا الرومانية كلها . إذ كانت عاصمة هانيبال والقرطاجيين القدماء قد صارت عاصمة رومانية وبقيت المركز السياسى الرئيسى فى أواخر العصور القديمة .

ويستمر الطريق الرئيسى غرب قرطاج ليتوغل فى أرض الداخل على امتداد الهضبة العليا، الواقعة بين البحر والجبال الساحلية فى الشمال وبدايات الصحراء فى الجنوب، بحيث تصنع نوعاً من المر الطبيعى بين الشرق والغرب. وعلى الساحل كانت هناك موانئ صغيرة بُنيت حول مصبات الوديان ومراسى محمية. وفى الأراضى الداخلية، كانت الهضبة موطناً للبدو. وفى نهاية المطاف كان لا بد أن يصل المسافر إلى المدينتين التوأم سبته وطنجة اللتين تطلان عبر مضيق جبل طارق إلى إسبانيا، الغنية المغرية . وفيما وراء ذلك ، إلى الجنوب من طنجة ، تقع السهول المنبسطة وفيرة المياه على ساحل المحيط الأطلسى فى المغرب الحالية وأخيرا جبال أطلس المرتفعة، التى تقع على حدود الصحراء من ناحية الشمال.

كانت شمال أفريقيا واحدة من أغنى المناطق فى العالم الرومانى. ويمكن أن نرى بعضاً من الثروة فى الأطلال الكبيرة لمدن مثل دليلة Volubilis فى المغرب، تمجاد Timgad فى الجزائر ، ومدينة ليبتيس ماجنا Leptis Magna فى ليبيا ، التى تعد من بين أهم المواقع الكلاسيكية وأكثرها تأثيرا داخل حدود الإمبراطورية الرومانية . كانت المدن

الكبيرة الأنيقة تعتمد على قاعدة من الموارد الزراعية القوية جيدة الإدارة. إذ كانت الأراضى الخصيبة بطبيعتها تزرع ، وكانت الأراضى القفر الجرداء ، التى لا تساعد على العيش ، مثل وديان قورينة على مداخل الصحراء ، تستزرع عن طريق الرى الواعى والتخصيب المستمر. وكانت الغلال تنمو ، ولكن كانت زراعة الزيتون هى التى تميز زراعة المنطقة قبل غيرها. كما كان تصدير زيت الزيتون ، إلى روما وجميع أنحاء حوض المتوسط، مصدراً رئيسياً للثروة . وكان زيت الزيتون ينقل من شمال أفريقيا فى قوارير أسطوانية طويلة، صممت بحيث يمكن رصها فى عنابر السفن . كذلك كان الفخارون فى شمال أفريقيا ينتجون كميات ضخمة من أدوات المائدة الفاخرة ، الأدوات الأفريقية الحمراء، التى كانت ترص بعناية ، مثل الأمفورا ، فى عنابر البضائع بالسفن. وقد باتت الأوانى والأطباق الحمراء اللامعة البرّاقة أكثر أنواع الفخار الفاخر شيوعاً وأكثرها توزيعاً فى عالم البحر المتوسط أواخر العصور القديمة .

وحتى بدايات القرن الخامس الميلادى ، كانت شمال أفريقيا قد باتت منطقة مزدهرة فى الإمبراطورية الرومانية، كما كانت مندمجة تماماً فى النظام الإمبراطورى، وكانت الحكومة الرومانية تأخذ الكثير من فائض الإنتاج الزراعى على سبيل الضرائب. وقد اعتمد رخاء البلاد على روابطها عبر البحر المتوسط ، حيث كانت الأسواق لصادراتها موجودة . وكانت مدنها رومانية بشكل متمايز مثل أية مدينة فى إيطاليا ، أو بلاد الغال (فرنسا الحالية) أو إسبانيا، وفيها ساحاتها العامة أو أسواقها ، ومعابدها ، وحماماتها، ومسارحها . وكانت هناك ثقافة لاتينية راقية متطورة كما انتشرت بها المسيحية مبكراً . ومع بداية القرن الخامس كانت شمال أفريقيا قد صارت راسخة فى مسيحيتها شأن أى منطقة أخرى فى الإمبراطورية. كانت المدن والريف مزدانة بالكنائس الجميلة كما أن سان أوغسطين (ت ٤٣٠م) أهم شخصية فكرية فى ذلك العصر ، كان أسقف مدينة هيبو Hippo الصغيرة فى شمال أفريقيا.

وفى القرن الخامس ، كانت شمال أفريقيا، مثل معظم مناطق الإمبراطورية الرومانية الغربية ، قد ضاعت من السيطرة الإمبراطورية. فالقبائل الجرمانية، التى عُرفت باسم الفاندال Vandals ، عبروا مضيق جبل طارق من إسبانيا، وفيما بين

سنة ٤٢٩م وسنة ٤٤٠م كانوا قد غزوا جميع الولايات الرومانية . وقد أعطى الڤاندال اللغة الإنجليزية أكثر الكلمات شيوعًا فى الدلالة على العنف والدمار. وفى الحقيقة ، لايبدو أن الڤاندال قد ألحقوا ضرراً أكبر مما ألحقه الغزاة الچرمان الآخرون بالعالم الروماني، وقد سعوا إلى الاستيلاء على البنى الرومانية والأساليب الرومانية فى العمل واستخدموها فى خدمة أغراضهم من عدة جوانب. وقد بقيت مملكة الڤاندال حتى سنة ٥٣٣م عندما أرسل الإمبراطور چستنيان حملة عسكرية نجحت فى وضع نهاية لسلطتهم وعادت بالمنطقة ثانية إلى الحكم الإمبراطورى . وكانت شمال أفريقيا فى النصف الثانى من القرن السادس وأوائل القرن السابع، على أية حال، مختلفة من جوانب كثيرة عنها فى القرنين الثانى والثالث بعد الميلاد ، عندما كانت المدن الكبرى قد شُيِّدت والمناطق الزراعية قد وصلت إلى أعظم مدى. وكان أحد الاختلافات المهمة هو أن لغة الإدارة الرومانية التى أُعيد إحياؤها كانت هى اللغة اليونانية، وهى لغة غريبة تمامًا لم تستخدم على نطاق واسع فى المنطقة أبدًا: ولابد أنها جعلت السلطات الإمبراطورية تبدو فى صورة الغزاة الأجانب أكثر منها فى صورة الذين يعيدون بناء الأمجاد القديمة(*). كذلك كانت هناك توترات دينية مستمرة بين المسيحيين فى شمال أفريقيا والسلطات الإمبراطورية فى القسطنطينية ، ولجأ كل من چستنيان فى القرن السادس وهرقل فى القرن السابع إلى الاضطهاد لفرض الانصياع لآرائهما اللاهوتية[٣]. وكما كان الحال فى الهلال الخصيب، لا بد أن كثيراً من نصارى شمال أفريقيا كانوا يرفضون السلطات البيزنطية ولا يثقون بها.

وكان الكثير من أراضى المغرب وغرب الجزائر حاليًا، باستثناء مدينة سبته الحصينة، حيث أعاد چستنيان بناء الأسوار وشيد كنيسة جديدة ، كانت قد صارت جزءًا خارجًا عن الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث الميلادى. وفى المناطق التى

(*) يبدو أن المؤلف نسى أن سكان شمال أفريقيا لم يكونوا من الرومان ، وأن حاجز اللغة كان موجوداً أيضا عندما كانت الإدارة الرومانية تستخدم اللغة اللاتينية، وعندما كان الڤاندال يستخدمون لغتهم الچرمانية (٤٤٠-٥٣٣م) فى الإدارة. أما الأمجاد القديمة التى يتحدث عنها فلم تكن تخص سكان المنطقة، وإنما كانت تخص روما والرومان . (المترجم)

بقيت بالفعل تحت السيطرة الإمبراطورية ، كان الحضر والريف مختلفين للغاية . فقد كانت مراكز الكثير من المدن الكبرى خاوية على عروشها. فقد نال الدمار من تمجاد، التى كانت مدينة صاخبة داخل الأراضى الجزائرية وبها المبانى الكلاسيكية الباهرة ، على أيدى أبناء القبائل المحلية «حتى لايكون للرومان عذر لكى يقتربوا منا ثانية»(٤). كانت الآثار الرئيسية فى فضاء أى مدينة القلعة البيزنطية، التى كانت تبنى فى العادة من أنقاض الساحة العامة ، وواحدة أو أكثر من كنائس القرن الخامس أو القرن السادس الميلادى ، وغالبًا ما يكون بناؤها فى مناطق الضواحى الحضرية بعيداً عن وسط المدينة القديمة. وكانت المدن قد صارت قرى ، وبها كنائس أبرشية ، وحامية صغيرة ، وجابى الضرائب غير المستديم أو جامع الإيجار دون أن تكون هناك هيراركية محلية، أو شبكة من الخدمات أو هيكل إدارى . وحتى فى العاصمة قرطاج ، حيث قامت بعض المبانى الجديدة بعد الاسترداد البيزنطى، كانت الأحياء الجديدة مليئة بالغوغاء والأكواخ فى بواكير القرن السابع الميلادى. ومنذ منتصف القرن السابع عانت المدينة ما وصف بأنه «ذوبان ضخم» - فقد تجمعت الأكواخ فى ساحة الألعاب (السيرك) وصار الميناء المستدير مهجوراً(٥).

كانت ولاية أفريقيا ، أكثر من أية ولاية أخرى فى الإمبراطورية، تعتمد على تجارة البحر المتوسط والنظام الضريبى. ذلك أن الغلال وزيت الزيتون المنتج فى هذه الولاية كان يمون مدينة روما. ومعظم هذا الزيت كان يؤخذ ضريبة ، ولكن من الواضح أن السفن التى كانت تأخذ الضريبة العينية هذه كانت تنقل أيضا المنتجات التى تنتجها ولاية أفريقيا للبيع . وقد انكسر النظام الضريبى بسبب الغزو الفاندالى لقرطاج سنة ٤٣٩م ، وبدأ حجم الصادرات الأفريقية يضمحل على نحو قاس وبدأت المنتجات الأفريقية تختفى من أسواق البحر المتوسط. ولم يؤد الاسترداد البيزنطى للولاية سنة ٥٣٣م إلى قلب هذا الاتجاه الهابط إلى الاتجاه المعاكس . إذ كانت أسواق غرب المتوسط آنذاك فقيرة بالقدر الذى يحول بينها وبين استيراد الكثير، على حين كان شرق المتوسط قادراً على البقاء دون منتجات ولاية أفريقيا . وبحلول سنة ٧٠٠م لم يعد الفخار الأفريقى الأحمر يُصنع . فقد باتت ولاية أفريقيا هامشية بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية(٦).

وهذا ما يفسر ، أكثر من أى شىء آخر، فشــل القوات البيزنطية فى شمال أفريقيا فى صد القوات العربية: ففى النهاية لم تكن السلطات الإمبراطورية لتهتم بالقدر الكافى(*).

وربما كان شمال أفريقيا تحت الحكم البيزنطى أيضا قد ضعف بسبب الأحداث السياسية. ففى سنة ٦١٠م كان الحاكم هرقل قد استخدم الجيش فى الولاية للإطاحة بالإمبراطور فوقاس وانتزع لنفسه اللقب الإمبراطورى . ثم صار متورطا فى الصراع من أجل البقاء فى مواجهة الغزو الفارسى. وليست هناك أية علامة على أن القوات التى كان قد سحبها من الولاية ، والتى ربما كانت أفضل القوات فى المنطقة ، قد حلت محلها قوات أخرى.

وقد عانت مناطق الريف بقدر ما عانت المدن . إذ إن الحفائر الأثرية توحى بأنه قد تم نزوح عام من المواقع المستقرة . فعلى سبيل المثال، فى المنطقة المحيطة بمدينة Segermes القديمة (قرب الحمامات الحديثة) كان هناك ثلاثة وثمانون موضعًا مستقرًا فى منتصف القرن السادس. وفى غضون المائة وخمسين سنة التالية كان سكان نصف هذه الأماكن قد نزحوا . وفى سنة ٦٠٠م كانت مدينة سجرميس نفسها قد باتت مهجورة إلى حد كبير ومع حلول الشطر الأول من القرن السابع الميلادى، قبل الفتح العربى مباشرة ، لم يكن باقيًا سوى ثلاثة مواضع، كلها فى مواقع يمكن الدفاع عنها بقوة . ولم يحدث هذا الانكماش فى الاستقرار فى منطقة حدودية نائية وإنما فى قلب ولاية أفريقيا البروقنصلية الزراعية ، على مسافة خمسين كيلو مترًا فقط من العاصمة ومركز الحكم فى قرطاج[٧].

(*) من الأمور اللافتة للنظر أن المؤلف يبحث فى كل حالة عن الأسباب التى أدت إلى فشل القوات المحلية فى التصدى للمسلمين ؛ وهو يسوق أسبابًا صحيحة لتفسير هذا، ولكنه يتجاهل تمامًا الأسباب المتعلقة بالمسلمين الفاتحين وكأنه يحاول أن يجردهم من أى فضل.. ومن ناحية أخرى، فإن السبب فى حالة شمال أفريقيا ؛ أى عدم الاهتمام الكافى من جانب السلطات البيزنطية، يبدو واهيًا متهافتًا . فقد هُزم البيزنطيون فى بلاد الشام ومصر من قبل على الرغم من شدة اهتمامهم. (المترجم)

ويبدو أن الاستقرار في ولاية أفريقيا البروقنصلية قد وصل ذروته في منتصف القرن السادس الميلادي ؛ ولكن التدهور كان قد بدأ قبل ذلك في أماكن أخرى. ففي إقليم طرابلس Tripolitania كان تفاقم انعدام الأمن قد أدى إلى النزوح من عدة مواقع منذ نهاية القرن الخامس ، وهناك دليل على تربية الحيوانات بطريقة شبه بدوية على حساب الزراعة المستقرة في أفريقيا بيزاكينا في الفترة نفسها . أما في تلك المواقع التي بقيت فعلاً ، كانت هناك حركة من القرى المفتوحة إلى الجماعات التي تعتمد على الجسور (ومفردها جَسر، وهي لهجة عن العربية الفصحى قصر/ قصور) وهي مباني مزرعة محصّنة ، عبارة عن شكل معماري استمر ببعض التنويعات من القرن الثالث الميلادي حتى ما بعد الفتح الإسلامي(٨).

وليست لدينا، بطبيعة الحال، أية إحصائيات عن السكان ، ولامعلومات اقتصادية راسخة، ولكن نتائج المسوح الأثرية وبعض الحفريات تشي بأن الغزاة المسلمين الأوائل وجدوا أرضًا كانت نادرة السكان المستقرين منهم على الأقل، وكانت مدنهم قد نالها الخراب بحيث باتت أشبه بالقرى الحصينة في حجمها ومظهرها ، بعد أن كانت مدنا واسعة بهية.

وكانت تسكن هذه الأرض ثلاث مجموعات مختلفة من الناس . ولاشك في أنه كان يوجد جنود وإداريون يتحدثون اليونانية في قرطاج وغيرها من مدن الحاميات ، ولكن ليس هناك سبب يدعونا إلى افتراض أن أعدادهم كانت كبيرة جدًا . وكان يعيش معهم، في تونس الحالية، الأفارقة الذين ربما كانوا من سلالة القرطاچيين، ورربما كانوا لا يزالون يتحدثون پونية إلى جانب اللاتينية. وفي زمن الفتح الإسلامي كانوا سكانًا مسيحيين مستقرين ليس لهم أي تراث في النشاط العسكري . ويصفهم ابن عبد الحكم بأنهم «... خدم للروم على صلح يؤدونه إلى من غلب على بلادهم...»(*)(٩).

---

* النص من ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص٢٣٩ .

وعلى أية حال ، كانت الغالبية العظمى من السكان من البربر . والإسم «بربر» مشتق طبعًا من مصطلح برابرة Barbari (أى الأجانب) الذى استخدمه الرومان لوصف هؤلاء الناس، ولكن الكلمة مرت إلى اللغة العربية «بربر» . ويمتد نطاق سكن البربر من حدود وادى النيل فى الشرق حتى مراكش فى الغرب. ولم يكونوا متوحدين سياسيًا بأى معنى وكانوا ينتمون إلى عدد محير من القبائل المختلفة ، ولكنهم كانوا متحدين فى لغة مشتركة أو عائلة لغوية واحدة ، متمايزة تمامًا عن كل من اللغة اللاتينية واللغة العربية. ونادرًا ما كانت الحكايات أو النصوص الإدارية تكتب بهذه اللغة قبل القرن العشرين وكان على البربر الراغبين فى المشاركة فى الحكومة أو التعليم أن يتعلموا اللاتينية أو اليونانية فى أثناء الفترة الرومانية ، أو اللغة العربية بعد الفتح الإسلامى .

ويمكن وصف المجتمع البربرى بأنه مجتمع قبلى، بيد أنه كانت هناك أساليب حياة بربرية مختلفة كثيرة . فبعض البربر ، وأكثرهم فى المناطق الجبلية، يعيشون فى قرى قبلية، ويمارسون الزراعة . وكان آخرون من الرّحل ، ينقلون قطعانهم إلى أعلى الجبال فى شهور الصيف، وينزلونها فى الشتاء . وكان هناك آخرون من «البدو الخلص» يجوبون الصحراء الشاسعة فى إقليم الصحراء الجنوبية . وتقدم المصادر الكلاسيكية أسماء الكثير من القبائل البربرية فى شمال أفريقيا، وبعد ذلك بقرون قليلة، أمدتنا المصادر العربية بهذه الأسماء . وحتى مع التسليم بالاختلافات فى اللغة والخط فإنه يصعب تحقيق الكثير من الاستمرارية الحقيقية، ويبدو أن الفترة من القرن السادس الميلادى إلى القرن الثامن الميلادى قد شهدت حركة واسعة النطاق بين البربر كما شهدت اختفاء بعض الجماعات القبلية وظهور غيرها . وبصفة عامة، يبدو أن البربر كانوا يتحركون من الشرق إلى الغرب فى القرن السابق على الفتوح العربية . وربما تكون هذه الحقيقة منعكسة فى الطريقة التى حكت بها المصادر العربية اللاحقة عن أن الجماعات البربرية الرئيسية جاءت من شبه الجزيرة العربية أو من فلسطين(١٠). وليس هناك دليل حقيقى على هذا ؛ والواقع أن حقيقة أن اللغة البربرية ليست لغة سامية توحى بأن هذا أمر غير ممكن ، ولكنها يمكن أن تكون انعكاسًا لهذه الهجرات الغربية .

فقد تحركت قبيلة لواتة من منطقة برقة إلى منطقة طرابلس فى أثناء القرن السادس الميلادى[١١]، وطردت الحاكم البيزنطى خارج ليبتس ماجنا سنة ٥٤٣م[١٢]. وتبعتها قبيلة هوارة ، وهى مجموعة بربرية أخرى تحركت من قورينه تجاه المغرب . وعملية «التغريبة» ، أى الرحيل غرباً ، والمستخدمة للدلالة على حركة القبائل العربية فى القرن الحادى عشر الميلادى/الخامس الهجرى، يبدو أنها كانت لها سوابق بين البربر فى القرن السادس وبواكير القرن السابع الميلاديين.

ويبدو أن فتح شمال أفريقيا قد بدأ باعتباره استمراراً طبيعياً لفتح مصر. وتأتى معلوماتنا عن الغارات الأولى كلها من المؤرخ المصرى عبد الرحمن بن عبد الحكم، الذى استخدمت رواياته جميع المصادر اللاحقة . وربما يكون قد حدث فى صيف سنة ٦٤٢م، بعد الاستسلام النهائى للإسكندرية بوقت قصير للغاية، أن قاد عمرو بن العاص قواته صوب الغرب[١٣]. ولا يبدو أن الرحلة كانت رحلة صعبة ويبدو أن الجيش كان يتحرك بسرعة دون مواجهة أية مقاومة حقيقية حتى وصل إلى برقة . وانسحبت الحامية البيزنطية ، يصحبها بعض ملاك الأراضى المحليين، أمامهم وتراجعت إلى ميناء توكرا الساحلى (Tauchir القديمة) ومن هناك رحلوا فيما بعد عن طريق البحر. ويبدو أن معظم سكان المدينة كانوا من قبيلة لواته[١٤]، وعقد عمرو بن العاص معهم ، وليس مع السلطات البيزنطية ، الصلح فى مقابل الجزية ومقدارها ثلاثة عشر ألف دينار. وقيل إن المعاهدة تضمنت الشرط المربك إلى حد ما والغريب الذى يقضى بأن الناس يمكنهم بيع بناتهم وأولادهم لدفع أموال الجزية(*). وربما يشير هذا إلى الاستغلال الهائل البربر واستخدامهم عبيداً وهو ما كان من خصائص القرن الأول لوجود المسلمين فى شمال أفريقيا . وتم الاتفاق أيضا على ألا يدخل أحد من جباة الضرائب المسلمين إلى المنطقة وأن أهل برقة سوف يقومون بأنفسهم بأخذ الجزية إلى مصر حين يتم جمعها(*).

(*) نص ما ذكره ابن عبد الحكم، (ص٢٢٩): «... كتب عمرو بن العاص على لُواته من البربر فى شرطه عليهم، إن عليكم أن تبيعوا أبناءكم وبناتكم فيما عليكم من الجزية». (المترجم)

ثم قاد عمرو بن العاص رجاله حول خليج سرت، ماراً، بجوار تكرا، إلى طرابلس. وهناك واجهوا مقاومة أكثر جدية . وصمدت الحامية البيزنطية على مدى شهر . ويحكى ابن عبد الحكم كيف جاءت النهاية فى واحدة من تلك الحكايات التى تضفى الحيوية على السرديات العربية دون أن تشجع أى اعتقاد فى صدقها . وتحكى القصة أنه فى أحد الأيام ذهب واحد من العرب الذين يحاصرون المدينة للصيد ومعه سبعة من رفاقه. وداروا حول غرب المدينة، وصاروا منعزلين عن بقية الجيش وإذ غلب عليهم الحر قرروا الرجوع على امتداد ساحل البحر. وكان البحر قد وصل إلى أسوار المدينة وكانت سفن الروم مشدودة فى مرساها إلى بيوتهم . ولاحظ العربى ورفاقه أن البحر قد انحسر قليلاً عن الأسوار وأن هناك مسافة بين الماء والأسوار. ودخلوا عن طريقها حتى وصلوا إلى الكنيسة الرئيسية ، ثم هللوا مكبّرين . وانتاب الذعر الرومان وهربوا إلى سفنهم بما استطاعوا حمله ، وفردوا الأشرعة ثم هربوا . وإذ رأى عمرو بن العاص هذه الفوضى ، قاد جيشه إلى داخل المدينة ، التى تم نهبها حينذاك[١٥]. وليس هناك دليل على احتلال العرب للمدينة، فى هذه المرحلة وربما عادت المدينة إلى السيطرة البيزنطية عندما رحلت قوات المسلمين .

وسرعان ما رحل عمرو بن العاص ثانية ليقود رجاله إلى سبرته (صابرا Sabra) وهنا كان السكان المحليون الذين تصوروا أن عمرو صار بعيداً ومشغولاً بحصار طرابلس قد أسقطوا دفاعاتهم وتم الاستيلاء على المدينة ونهبت . وبعد هذا مباشرة سقطت لابلا ليبتس ماجنا فى أيدى العرب . ثم عاد عمرو بن العاص إلى مصر ، ولاشك فى أنه كان سعيدا بالغنائم التى جمعها هو وأصحابه . كانت غارة كبرى ولكنها لم تكن فتحًا . ولم يترك عمرو بن العاص أى وجود سوى فى برقة عندما فرض الضرائب وعين واليًا ، هو عقبة بن نافع الفهرى، الذى قيض له أن يصبح بطل الفتوح الإسلامية فى شمال أفريقيا، والذى قدر لاسمه، مثل خالد بن الوليد فى العراق والشام، أن يجرى فى التاريخ والأسطورة باعتباره مثالاً للقيادة العسكرية والجرأة البطولية.

وكان عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر سنة ٦٤٥م (أنظر ما سبق) يعنى أنه كانت هناك فترة توقف فى العمليات العربية . ولم يستمر هذا التوقف طويلاً. ففى سنة ٦٤٧م أرسل الخليفة عثمان بن عفان جيشًا جديدًا إلى مصر للمساعدة فى الحملة على أفريقيا . وثمة قائمة بتكوين الجيش توحى بأن عدده قد تراوح بين خمسة آلاف وعشرة آلاف، كان معظمهم مجندين ، مثل غالبية العرب الذين كانوا قد فتحوا مصر فى الأصل ، من قبائل جنوب شبه الجزيرة العربية[١٦]. وكانوا تحت قيادة والى مصر الجديد عبدالله بن سعد بن أبى السرح. وتحركت الحملة بسرعة على طول ساحل شمال أفريقيا فى جنوب تونس الحالية. ولايبدو أنهم قد ضيعوا وقتًا فى إعادة الاستيلاء على طرابلس. وكانت القوات البيزنطية فى المنطقة تحت قيادة جريجورى حاكم أفريقية. ويبدو أنه كان قد قرر أن يتحرك من العاصمة التقليدية قرطاج (قرطاجنة) وتمركز فى سبيطه جنوب تونس ، بحيث يمكن أن يتقابل مع الحلفاء البربر ويواجه الغزاة بقدر أكبر من الفعالية. وتقابل الجيشان خارج المدينة. ولحقت بالبيزنطيين هزيمة ثقيلة ، وووفقًا للمصادر العربية ، قتل جريجورى فى المعركة ، على الرغم من أنه وفقا لثيوفانس وغيره من المصادر المسيحية ، تقول الرواية إنه هرب وكافأه الإمبراطور فيما بعد.

كانت هذه هى المواجهة الرئيسية الوحيدة بين القوات الإسلامية والقوات البيزنطية فى شمال أفريقيا . ومن المهم أن نلاحظ أن جريجورى لم يبذل أى محاولة لاستخدام الحصون البيزنطية المشيدة فى المنطقة، ولكنه اختار مواجهة العدو فى ميدان قتال مفتوح . وبعد هذه الهزيمة يبدو أن ما بقى من الجيش الإمبراطورى تقهقر إلى قرطاج وترك العرب والبربر يتقاتلون من أجل السيطرة على الريف.

كان حجم الغنائم مهولاً، وكما كان يحدث غالبًا، خصصت المصادر العربية مساحة كبيرة لتخبرنا عن حجم المغانم وكيفية تقسيمها تساوى ما خصصته للحديث عن بقية الحملة عموما. (فعلى سبيل المثال ، تلقى الفرسان ثلاثة آلاف دينار ذهبًا، ألف وخمسمائة للحصان، وألف وخمسمائة للرجل. أما الجنود المشاة فأخذ كل منهم ألف وخمسمائة دينار ذهبى) .

وعلى مدى ما يقرب من عشرين سنة لم تقم هذه القوات العربية بأية محاولة ممتدة للقيام بالمزيد من الفتوح الدائمة فى شمال أفريقيا. ومن المحتمل أن برقة وقورينه بقيتا تحت الحكم الإسلامى فى هذه الفترة، ولكن يبدو أن هذا كان حد التوسع . وكان يتم شن بعض الغارات من حين لآخر يقوم بها القادة العرب - المصريون مستخدمين القوات المصرية داخل منطقة طرابلس وفزان ولكن الجيوش كانت تعود دائمًا إلى قواعدها بعد الحصول على على أكبر قدر من الغنائم .

وفى أثناء تلك الفترة الطويلة ، يبدو أن عقبة بن نافع فقط هو الذى كانت لديه رؤية لعمل شيء أكبر من مجرد شن الغارات قصيرة المدى. وفى وسط الجزائر ، حيث جبال الشمال تنبسط تدريجيًا حتى تقابل أطراف الصحراء، تقع مدينة سيدى عقبة ، التى بنيت حول مقام قديم، ولا يزال الزوار يقصدونها، أملين فى الحصول على البركة التى يمكن أن تنالهم من جراء قربهم للضريح وصاحبه . وعقبة هو «عقبة بن نافع الفهرى» ، الرجل الذى يرجع إليه الفضل فى السجل التاريخى وفى الخيال الشعبى فى جلب الإسلام والحكم الإسلامى إلى بلاد المغرب. وهو الوحيد بين القادة المسلمين الكبار الأوائل الذى لا يزال ضريحه مبجلاً بهذه الطريقة. وكان من صحابة النبى أيضًا ، حتى ولو كان قد قابله وهو لا يزال طفلاً صغيرًا. وقد أعطاه هذا هيبة كبيرة فى عيون الأجيال التالية. وقد وُلد عقبة فى مكة قرب نهاية حياة النبى، وكان من قبيلة قريش التى ينتمى إليها محمد (عليه الصلاة والسلام) ، من بطن آخر هم فهر . وكانت خلفيته بانتمائه إلى الأرستقراطية الحضرية فى مكة نموذجًا لانتماء الرجال الذين شكلوا النخبة فى الدولة الإسلامية الباكرة وقادوا جيوشها . وكان الوحيد بين الصحابة الذى لعب دورًا مهمًا فى فتح الجزائر والمغرب ، ويمكن أن يُقال إنه جلب بركة النبى نفسه إلى هذا الجزء من شمال أفريقيا. وبالإضافة إلى ذلك ، كان هو العضو المهم الوحيد من قريش الذى حارب هناك، وهو ما أسهم أيضًا فى مكانته وسمعته . ولكى يتوج هذا كله، صار عقبة شهيدًا عندما واجه وعصبته الصغيرة من المحاربين جيشًا أكبر كثيرا من البربر فى سنة ٦٨٣م واستشهد هو نفسه.

وكان عقبة يدين بأول صعود له إلى مراكز السلطة إلى حقيقة أن خاله لأمه كان هو عمرو بن العاص ، فاتح مصر. وكان طبيعيًا أن يثق عمرو فى ابن أخته القادر الطموح ويعهد إليه بالأدوار المهمة. وسرعان ما أظهر عقبة شهيته للمغامرة . وقد انضم إلى أول حملة يقودها عمرو بن العاص إلى برقة سنة ٦٤٢م وميّز نفسه بقيادة جماعة من الغزاة إلى واحة زويلة ، إلى الجنوب من طرابلس . ونسمع عنه مغيرًا فى غدامس فى عمق الصحراء الليبية ، وربما ، وهو أمر أكثر أهمية، تمكن من إقامة علاقات مع بربر لواته فى منطقة طرابلس(١٧). ويقول الجغرافى العربى ياقوت إن عقبة كان قد بقى فى منطقة برقة وزويلة منذ أيام عمرو بن العاص وجمع حوله البربر الذين اعتنقوا الإسلام(١٨).

فى سنة ٦٧٠م عين الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان عقبة واليًا على البلاد الواقعة تحت الحكم الإسلامى فى شمال أفريقيا تابعًا لوالى مصر(١٩). وقرر القيام بحملة لفتح «إفريقية» (وهى تونس الحديثة تقريبًا) ويثبت الحكم الإسلامى بها. وبخبرته الطويلة فى المنطقة، كان لابد لعقبة أن يعرف أنها لحظة مواتية ليضرب ضربته . إذ كانت الإدارة البيزنطية تعانى الضعف آنذاك، وكان العرب يهاجمون القسطنطينية نفسها وكان مطلوبا توفير كافة موارد الإمبراطورية للدفاع عنها . وبقدر خطورة هذا الأمر ، اندلع نزاع داخلى كان قد قوض الإمبراطورية إلى هذا الحد من قبل. فقد كان الإمبراطور قنسطنطين قد واجه مدعيا يطالب بعرشه فى صقلية واضطر إلى سحب قواته لقتاله . وعلى أية حال، لم يكن الروم يشكلون تحديًا حقيقيًا : إذ كان الغزو أو التصرف مع البربر هو الأمر الحاسم .

ووصل عقبة إلى جنوب تونس ومعه جيش غالبيته من عرب مصر . وقيل إنه كان معه عشرة آلاف من الفرسان العرب وتضخمت هذه الأعداد بانضمام البربر إليهم ، وربما كان معظمهم من قبيلة لواته التى كانت قد اعتنقت الإسلام بالفعل . وكان هدفه الأول أن يؤسس قاعدة عسكرية فى قلب إفريقية (تونس) . وقد روى لنا قصة تأسيس مدينة القيروان، الجغرافى ياقوت الذى عاش فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى.

«تقع فى الإقليم الثالث . وهى مدينة عظيمة بأفريقية ، غربت دهرا وليس بالغرب مدينة أجل منها إلى أن قدمت العرب إلى أفريقية ، وأخربت البلاد فانتقل أهلها عنها ، فليس بها اليوم إلا صعلوك لايطمع فيه، وهى مدينة مصّرَت فى الإسلام فى أيام معاوية رضى الله عنه ، وكان من حديث تمصيرها ما ذكره جماعة كثيرة من أهل السير ، قالوا : عزل معاوية بن أبى سفيان بن حُديج الكندى عن أفريقية واقتصر به على ولاية مصر وولى أفريقية عقبة بن نافع الفهرى ، وكان مقيما بنواحى برقة وزويلة منذ ولاية عمرو بن العاص له ، فجمع إليه من أسلم من البربر وضمهم إلى الجيش الوارد من قبل معاوية، وكان جيش معاوية عشرة آلاف، وسار إلى أفريقية ، ونازل مُدنها فافتتحها عنوة ووضع السيف فى أهلها وأسلم على يده خلق من البربر ، وفشا فيهم دين الله حتى اتصل ببلاد السودان ، فجمع عقبة حينئذ أصحابه وقال: إن أهل هذه البلاد قوم لا خلاق لهم إذا عضهم السيف أسلموا وإذا رجع المسلمون عنهم عادوا ودينهم ، ولست أرى نزول المسلمين بين أظهرهم رأيا ، وقد رأيت أن ابنى ههنا مدينة يسكنها المسلمون ، فاستصوبوا رأيه فجاؤوا إلى موضع القيروان ، وهى فى طرف البر وهى أجمة عظيمة وغيضة لا يشقها الحيات من تشابك أشجارها ، وقال : إنما اخترت هذا الموضع لبعده من البحر لئلا تطرقها مراكب الروم فتهلكها وهى فى وسط البلاد ، ثم أمر أصحابه بالبناء فقالوا : هذه غياض كثيرة السباع والهوام فنخاف على أنفسنا هنا، وكان عقبة مستجاب الدعوة فجمع من كان فى عسكره من الصحابة وكانوا ثمانية عشر ونادى: أيتها الحشرات والسباع نحن أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، فارحلوا عنا فإنا نازلون فمن وجدناه بعد قتلناه ، فنظر الناس يومئذ إلى أمر هائل ، كان السبع يحمل أشباله والذئب أجراءه والحية تحمل أولادها وهم خارجون أسرابًا أسرابا فحمل ذلك كثيرا من البربر على الإسلام ، ثم اختط دارا للإمارة واختط الناس حوله وأقاموا بعد ذلك أربعين عاما لا يرون فيها حية ولا عقربا ، واختط جامعها فتحير فى قبلته فبقى مهموما فبات ليلة فسمع قائلا يقول : فى غُد أدخل الجامع فإنك تسمع تكبيرا فاتبعه فأى موضع انقطع الصوت فهناك القبلة التى رضيها الله للمسلمين

بهذه الأرض ، فلما أصبح سمع الصوت ووضع القبلة واقتدى بها بقية المساجد وعمر الناس المدينة فاستقامت فى سنة ٥٥هـ . وقد قتل عقبة فى سنة ٦٣هـ ...»(*).

ومع كل ما تحمله أسطورة التأسيس هذه من زخارف إعجازية، فإنها تكشف مع ذلك عن الكثير من دوافع تأسيس المدينة. فقد كان الهدف أن تصير حامية دائمة للمسلمين فى المنطقة. وقد تم اختيار الموقع لأنه لم تكن هناك مبانى أقدم . كما أن الروايات المختلفة تؤكد أهمية الرعى فى المنطقة[٢١]. وكانت بعيدة تمامًا عن الساحل . وكان الروم لا يزالون يشكلون تهديداً من البحر، فضلاً عن البر . وكان تأسيس المدينة غاية فى البساطة . ولم تتطلب سوى وضع مخطط المسجد ، وبيت الإمارة وقطع الأرض التى يبنى الناس بيوتهم فوقها . وليس هناك دليل على أن السلطات العربية قد شيدت الأسواق ، والحمامات ، والفنادق أو أى مبانى عامة أخرى، وعلى الرغم من بداية القيروان المتواضعة ، فإنها ازدهرت . وكانت وحدها من بين جميع المدن العسكرية التى شيدها العرب فى أعقاب الفتوح التى بقيت مأهولة بالسكان على الموقع نفسه حتى اليوم: ففى العراق صارت البصرة العتيقة أطلالاً لا تكاد تُرى على حافة الصحراء، واختفت الكوفة القديمة، والفسطاط فى مصر موقع أثرى مهجور ومقلب للقمامة ومرو فى خراسان ساحة شاسعة من الأطلال المهجورة . أما القيروان فهى على النقيض ، مدينة قديمة ساحرة ، يفوح منها أريج العصور الإسلامية القديمة.

كان تأسيس القيروان خطوة حاسمة فى بناء الوجود الإسلامى فى إفريقية بيد أن هذا لم يكن يعنى نهاية الفتح. إذ كانت قرطاچة لا تزال بأيدى الروم ولم يكن أى جيش إسلامى قد توغل بعد غرب الحدود التونسية – الجزائرية الحديثة.

وكان عقبة بن نافع ، مثل عمرو بن العاص قبله فى مصر وموسى بن نصير بعده فى إسبانيا، قد عُزل عن حكم البلاد التى كان قد فتحها لتوه . وفى سنة ٦٧٥م قبض

(*) ياقوت الحموى، معجم البلدان ، (دار صادر – بيروت ١٩٩٥)، ج٤ ، ص٤٢٠– ص٤٢١ ؛ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص٢٦٤– ص٢٦٥ .

عليه خليفته وأهانه وأبقاه مقيدا بالسلاسل قبل أن يرسله إلى الخليفة معاوية بن أبى سفيان فى دمشق . وعلى أية حال ، كان مقدرًا له أن يعود عودة فخمة مهيبة.

لم يكن الوالى الجديد «أبو المهاجر» عربيًا على الإطلاق ولكنه كان مولى لوالى مصر رئيس عقبة. وربما كان قبطيًا أو روميًا أو حتى من أصل بربرى. وجاء ومعه قوات جديدة من مصر ربما كانت من غير العرب(*)، وعندما وصل إفريقية أقام خارج القيروان ، وربما لأنه عرف أن كثيرا من السكان ظلوا موالين لعقبة بن نافع[٢٢]. كانت أهم أولويات الوالى الجديد أن يكسب الزعيم القوى فى المغرب إلى جانبه . وكان كسيلة «ملك بربر أورْبة» قد امتدت أملاكه من الأوراس فى غرب الجزائر حتى ڤولوبلس فى المغرب. وربما كان كسيلة وكثير من أتباعه مسيحيين كما كانت تربطهم بالروم علاقات طيبة. وواجه أبو المهاجر كسيلة فى قاعدته تلمسان ونجح فى تحويله إلى الإسلام وكسبه إلى جانب المسلمين. وجاء كسيلة ليعيش مع الوالى فى قاعدته خارج القيروان . كان هذا التحالف الاستراتيجى الذكى يطلق حرية أبى المهاجر فى مهاجمة قرطاجنة ، وفرض عليها حصارًا سنة ٦٧٨م وعلى الرغم من أن المدينة لم تسقط فى هذا الوقت، فإن الحكم البيزنطى وقتها انحصر فى حدود قرطاچنة والمناطق المجاورة لها مباشرة.

وكما هو الحال غالبًا فى تاريخ الفتوح العربية ، تشكلت الأحداث بفعل التغيرات التى جرت فى حكومة الخلافة بقدر ما تشكلت بفعل أحداث الحملة العسكرية . ففى سنة ٦٨٠م مات الخليفة معاوية بن أبى سفيان وقرر ابنه وخليفته يزيد أن يعيد تعيين عقبة بن نافع فى قيادته القديمة . وحينئذ جاء دور أبى المهاجر دينار ليرسف فى القيود عندما عاد عقبة ظافرًا . وكانت عودة ظهوره علامة على تغير مهم فى السياسة . فقد اتخذ سياسة معاكسة تمامًا لسياسة سلفه فى استرضاء البربر. وانضم كسيلة إلى راعيه وحليفه فى الأصفاد واستعد عقبة بن نافع لمغامرته الأخيرة الكبيرة.

(*) ليس فى نص رواية ابن عبد الحكم (ص٢٦٦) ما يشير إلى هذه الافتراضات التى يضعها المؤلف فقد كان مولى مسلمة بن مخلد الأنصارى ، «أول من جمعت له مصر والمغرب». وليس هناك ما يشير إلى أن جيش أبى المهاجر دينار كان من غير العرب؛ وهو أمر مستبعد فى هذه الفترة. (المترجم)

ووفقا لما ترويه مدونة تاريخية عربية، توقف عقب برهة لالتقاط الأنفاس فى القيروان[٢٣]. وترك ابنه مسئولاً عن القوات هناك قائلا «لقد بعت نفسى لله سبحانه وتعالى» وعبر عن شكوكه من ألاّ يراهم ثانية ، ثم انطلق باتجاه الغرب، إلى أرض لم تطأها أى قوات مسلمة قط. وتحرك هو وجيشه الصغير بسرعة عبر الهضبة الواقعة إلى الجنوب من الجبال الساحلية. وكانت مواجهته الأولى فى بغاية عند سفح جبال الأوراس، حيث هزم كتيبة من الروم واستولى على عدد كبير من الخيول . ثم ذهب غربًا إلى مونستير. وخرج المدافعون لمواجهته وكان القتال عنفا ولكن «الله منحهم النصر». ولايبدو أن القوات الإسلامية قد استولت على المدينة ولكنها جمعت كمية من الغنائم قبل أن تتحرك إلى تاهرت ، حيث كان البربر والبيزنطيون فى انتظاره . ومرة أخرى كان القتال عنيفًا ومرة أخرى انتصر المسلمون .

واستمرت قوات الحملة فى مسيرها . ولدى المرء انطباع عن عصبة من الرجال، ربما عدة آلاف قليلة ، يتحركون بسرعة عبر الأرض الفضاء . وليس هناك تسجيل لأية مقاومة حتى وصلوا طنجة . وكانت طنجة واحدة من الأماكن الحضرية القليلة فى المغرب الحالية . ووفقًا لابن عذارى المؤرخ الذى عاش فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى كانت واحدة من أقدم المدن فى المغرب، ولكنه يواصل القول بأن المدينة العتيقة، التى ورد ذكرها فى الروايات التى تناولت غزوة عقبة بن نافع ، دفنت فى الرمال، وتقع المدينة اليوم أعلاها على الساحل، وقال إنه لو حفر أحد فى خرائبها فسوف يجد كافة أنواع الجواهر[٢٤]. وكانت طنجة تحت حكم جوليان الغامض ، الذى يلعب فيما بعد دورًا مهمًا فى تاريخ الغزو الإسلامى الأول لإسبانيا . ويبدو أن اهتمامه الرئيسى كان التخلص من عقبة بن نافع بأسرع ما يمكن ، ولذلك أثناه عن محاولة العبور من مضيق جبل طارق إلى إسبانيا وشجعه بدلاً من ذلك على الذهاب إلى سواحل المغرب المطلة على الأطلنطى .

كانت محطته التالية مدينة وليله . وعلى النقيض من طنجة ، فإننا نعرف الكثير عن وليله فى ذلك الوقت . وتحت إسم Volubilis كانت واحدة من أهم المدن فى موريتانيا فى العصور الرومانية . وعلى الرغم من أن الحكومة الإمبراطورية كانت قد انسحبت

بالفعل فى القرن الثالث الميلادى ، أى قبل أربعمائة سنة قبل غارة عقبة ، وكان لها سمة حضرية وكان جزء من المدينة العتيقة على الأقل لا يزال عامراً بالسكان. وعلى الرغم من أنه يحتمل أن معظم السكان كانوا من البربر ، فإن شواهد القبور التى يرجع تاريخها إلى القرن السادس الميلادى توضح أنها كانت تحمل أسماء وألقاباً من الطراز الرومانى[٢٥]. ومرة أخرى ، يقال إن عقبة هزم البربر المحليين ولكنه واصل تحركه بسرعة . وكان آنذاك يحث الخطى باتجاه الجنوب عبر السهول المنبسطة فى المغرب صوب جبال أطلس . ويبدو أنه عبر الجبال إلى وادى دَرعة لمطاردة بعض البربر الهاربين ثم عاد ليحاصر مدينة أغمات ، بالقرب الذى تقوم فيه مراكش اليوم. وكان سكان المدينة من البربر المسيحية ، ويبدو أنها كانت واحدة من الأماكن القليلة التى استولى عليها عقبة بالقوة .

وتوغل حينئذ فى جبال أطلس مرة أخرى، مُتبعًا الممرات التى كانت تؤدى إلى الأراضى الخصيبة فى وادى السوس (سوسة) ، الذى يجرى فيما بين أطلس العليا وجبال أطلس المواجهة الأكثر جدبًا ليصل إلى البحر قرب أغادير . كانت هذه هى الأرض التى يسميها العرب السوس الأقصى . ولم يكن الرومان قد غزوها قط وهى التى ستصبح هى الحدود النهائية للحكم الإسلامى على مدى القرون التالية . وعلى النقيض من مناطق كثيرة التى كان عقبة بن نافع قد مرَّ بها، ويبدو أن السوس كانت كثيفة السكان من القبائل البربرية الذين يعيشون فى القرى الجبلية، مثلما هو الحال اليوم. وقد أبدوا مقاومة عنيدة ضد هذه العصبة من المغيرين . وحقق عقبة بعض الانتصارات. وعندما فتح مدينة نفيس الصغيرة يقال إنه أسس مسجداً هناك، وربما كان وفاء لنذر وتقدمة شكر على انتصاراته أكثر منه مكانًا يصلى فيه جموع المسلمين . وفى أماكن أخرى كان أقل نجاحًا، وثمة مكان يسمى «موضع الشهداء» وآخر يسمى «مقبرة الشهداء» سجلا للأجيال التالية الأماكن التى سقط فيها رفاقه فى المعركة.

وعند نهاية غارته فى السوس وصل عقبة بن نافع إلى ساحل الأطلنطى . وهى اللحظة التى تحول فيها إلى أسطورة. ويقال إنه[٢٦] « ... فلما انتهى عقبة إلى البحر

أقحم فرسه فيه حتى بلغ نحره، ثم قال : اللهم إنى أشهدك ألا مجاز، ولو وجدت مجازًا لجزت...»(*) وصورة المحارب العربى الذى توقف تقدمه فى الغزو باسم الله فحسب بسبب المحيط تظل واحدة من أكثر الصور جاذبية وبقاء فى الذاكرة فى تاريخ الفتوح بأسره .

ومن الحافة الغربية للقارة ، شق طريقه عائدًا إلى جبال الأوراس . وهناك قسَّم جيشه ، وسمح للكثير من قواته بالعودة لوطنهم . وأبقى معه قوة صغيرة بقصد فتح طُبنة فى الزاب. وهناك تقابل مع جيش كبير يقوده كسيله ، الذى كان قد هرب من إقامته الجبرية فى القيروان. وكان فى ذلك الحين قد تبرأ من تحالفه السابق مع المسلمين وأعاد نفسه مرة ثانية قائدًا للمقاومة البربرية . ويبدو أنه كان صراعًا قصيراً غير متكافئ ووجد عقبة الشهادة التى قيل إنه كان ينشدها .

وتبقى حملة عقبة بن نافع إلى المغرب واحدة من أهم أساطير التأسيس عن المغرب الإسلامى. وعلى أية حال ، فإنه على المستوى العملى كانت النتائج ضئيلة للغاية . ويقال إنه كان مترددًا فى حصار المعاقل الحصينة ، مفضلاً الإغارة على الأراضى البعيدة فى الصحراء باتجاه الغرب(٢٧). وعندما عاد لم يترك أية حاميات فى الأماكن التى كان قد «فتحها» ولم يضع أى ترتيبات لجباية الجزية أو الضرائب . وبغض النظر عن مسجد القيروان نفسه، لاينسب إليه سوى مسجدين فى السوس ووادى درعة(٢٨)، وليس هناك دليل على أن أيا منهما قد عمِّر طويلا . وعلى أية حال، كان هناك جانب أكثر شرًا فى غاراته . إذ يقال إنه حصل على سبايا من بنات البربر «لم ير أحد فى العالم لهن مثيلاً»(٢٩). وكانت الواحدة منهن تساوى ألف دينار ذهبًا فى أسواق الشرق

(*) النص من ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب، ص٢٦٩ . أما النص الذى أورده المؤلف نقلاً عن ابن عذارى ، البيان المغرب، فيختلف قليلا ، وفيه زيادات ونصه : «.. ثم سارعقبة من إيجلى ، حتى وصل ماسة، فأدخل فرسه فى البحر ، حتى وصل الماء تلابيبه، وقال : «السلام عليكم يا أولياء الله» فقال له أصحابه : «على من تسلم؟» قال: «على قوم يونس » ثم قال: «اللهم إنك تعلم أنى لم أطلب إلا ما طلب عبدك ووليك ذو القرنين ألاَّ يُعبد فى الأرض غيرك...» النص من ابن عذارى، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، ج١ ، ص٢٧ . (المترجم)

الأوسط وكان أبناء النخبة : وكانت أم الخليفة المنصور العباسى (٧٥٤-٧٧٥م) واحدة من أمثال هذه البنات البربر ، فقد تم سبيها فى وقت مقارب. وكان لتجارة الرقيق هذه أن تستمر طوال نصف القرن الأول من الحكم الإسلامى فى شمال أفريقيا وأثارت استياء مريراً بين البربر الذين أسلموا حديثًا .

وربما كان معنى موت عقبة وهزيمته نهاية الوجود العربى فى المغرب . فقد كانت حملته العدوانية قد وحدت القبائل البربرية الرئيسية لمقاومة الغزاة العرب. وتوحدوا معًا تحت زعامة كسيلة الذى قرر الزحف على القيروان. وفى المدينة كانت الفوضى واليأس. وتجمع الرجال فى المسجد لكى يقرروا ماذا هم فاعلون . وكان هناك أولئك الذين عقدوا العزم على الصمود وتحدثوا بلغة الاستشهاد مثل زهير بن قيس : «إن الله أنعم بالشهادة على أصحابكم ودخلوا جنات النعيم، فسيروا على مثالهم». وكان هناك آخرون لم يقتنعوا قائلين إنهم يجب أن يتقهقروا إلى الشرق بحثًا عن الأمان . وعلى الرغم من هذه الكلمات المثيرة ، قررت الأغلبية الانسحاب ، وإذْ وجد زهير أنه لم يبق معه سوى عائلته ، تبع الباقين ، ولم يتوقف إلا عندما وصل إلى قصره فى برقة[٢٠].

وعندها احتل كسيلة المنتصر المدينة التى كان عقبة قد أسسها. وهناك أقام نفسه «أمير إفريقية والمغرب»، وقدم ضمانات بالأمان لأولئك المسلمين الذين رغبوا فى البقاء وربما جمع الضرائب منهم، وهو انقلاب تام فى الأدوار . وعلى مدى حوالى أربع سنوات (٦٨٤-٦٨٨م) حكم كسيلة القيروان ، محتفظًا بالسيطرة على الداخل ، بينما كان البيزنطيون لا يزالون صامدين فى قرطاجنة على حين كان أسطولهم يقوم بخفارة الساحل ، سعيا إلى دعم معاقلهم الباقية ولمنع المسلمين من مهاجمة صقلية.

ويمكن تفسير ضعف العرب جزئيًا فى ضوء الفوضى التى سادت الخلافة بعد موت يزيد بن معاوية فى سنة ٦٨٣م. وحتى بعد جلوس عبد الملك بن مروان خليفة أمويًا سنة ٦٨٥م، مرت عدة سنوات قبل أن يكون المسلمون فى وضع يسمح لهم بمحاولة استعادة مكانتهم فى تونس . وفى سنة ٦٨٨م أمر عبد الملك فى بلاد الشام بتعيين زهير ، المجاهد المثالى ، لقيادة حملة من طرابلس لاستعادة القيروان .

ويقول أحد المصادر إن قواته كانت تتألف من أربعة آلاف من العرب وألفين من البربر[٣١]. ويبدو أنهم وصلوا القيروان دون أن تواجههم مقاومة . وعندما اقتربوا من المدينة ، تلقى كسيلة وعدا وقرر أن ينسحب . وكانت المدينة فى هذه المرحلة بلا أسوار ولهذا لم يكن بها سوى القليل من الحماية . وكان لا يزال قلقًا من أن المسلمين المقيمين هناك ربما يشكلون طابوراً خامسًا كما أراد أن يكون قريبًا من الجبال إذا ما ساءت الأمور. وعسكر فى مكان يسمى مَمْس على حافة جبال الأوراس . وهناك هزمه جيش زهير وقتله. وكما يحدث غالبًا، من الصعب أن نرى أسبابًا لنجاح قوات المسلمين وانتصارها على جيش أكبر وله دراية جيدة بالأرض. ويمكن لنا فقط أن نلاحظ مرة أخرى ، أنه عندما كان الأمر يتعلق بالمعارك الحاسمة ، كانت القوات المسلمة تثبت تفوقها .

وبينما لا يبدو أن البيزنطيين قدموا لكسيلة أية مساندة عسكرية فى صراعه الأخير، كان أسطولهم لا يزال قوة يُعمل لها حساب على امتداد ساحل البحر المتوسط. وفى ذلك الحين شنوا هجومًا، يبدو أن القصد منه كان تحويل انتباه المسلمين صوب قورينة، وقام زهير، الذى أبدى نفورا وزهدا فى السلطة السياسية والحكم ، مضطراً ، بقيادة رجاله شرقًا لكى يواجه التهديد. ووجد أن البيزنطيين كانوا قد احتلوا برقة آنذاك ، التى كانت بأيدى المسلمين منذ أول احتلال لها على يد عمرو بن العاص قبل نصف قرن . وعندما حاول طردهم مات شهيداً ولحقت الهزيمة بجيشه الصغير .

كان موت زهير بن قيس فى برقة النقطة الدنيا فى محاولات المسلمين احتلال شمال أفريقيا، ولكن هذا كله كان على وشك التغيير. فبحلول سنة ٦٩٤م كان الخليفة الأموى عبد الملك القوى النشيط قد هزم جميع أعدائه الكثيرين داخل الأراضى الإسلامية. وتوفرت له آنذاك القوات التى يمكن أن يوفرها . وكانت هناك أسباب أخرى قوية وراء إعادة إرسال الحملات العسكرية إلى شمال أفريقيا. فإذا كانت برقة فى أيدٍ معادية ، فإن مصر نفسها ستكون عرضة للهجوم. وإلى جانب هذا فإن المسلمين لم يكونوا قد تنازلوا قط حتى ذلك الوقت عن السيطرة على الأراضى التى كانوا قد فتحوها مرة ؛ إذ لم يكن لأحد ممن حمل لقب أمير المؤمنين أن يسمح بحدوث هذا دون أن يثير ضده مقاومة قوية.

وعين الخليفة حسان بن النعمان الغسّانى قائداً. وكان حسّان سليل عائلة غسّانية، كانت تتولى قيادة العرب فى بادية الشام فى القرن السابق على الفتح الإسلامى. وكان بعض أبناء العائلة قد هاجروا عبر الحدود إلى مصر تحت الحكم البيزنطى ولكن آخرين بقوا فى الشام ودخلوا فى النخبة الأموية مع غيرهم من أبناء القبائل العربية فى بلاد الشام ممن كانوا بمثابة العمود الفقرى للنظام الأموى. وقد منح لقب «الشيخ الأمين» . وقدّر له أن يثبت أنه قائد كفء وإدارى يعتد به وكان ، من جوانب كثيرة ، المؤسس الحقيقى لشمال أفريقيا الإسلامية . وقد أمده الخليفة أيضا. بجيش قوامه أربعين ألف رجل ، ليكون أكبر قوة إسلامية شوهدت بالمنطقة على الإطلاق. وكان لهذه الحملة أن تصير حملة كبرى.

وعندما وصل إفريقية بعد مسيرة طويلة على امتداد ساحل شمال أفريقيا، قرر حسان أن تكون أولويته مهاجمة قرطاچنة ، مركز ما تبقى من الإدارة البيزنطية بالمنطقة. ومن بعض الجوانب يبدو غريباً أن القوات المسلمة لم تهاجم المدينة قبل ذلك . والتفسير الأكثر احتمالاً لهذا هو أنهم أدركوا أن البربر كانوا عدواً أقوى كثيرا وأن من المهم هزيمتهم أو الاتفاق معهم على نحو ما أولاً . وسُمح للبيزنطيين أن يحتموا وراء أسوار المدينة. إذ كان الهجوم البحرى الحديث على برقة قد أوضح أنهم كانوا لا يزالون يمثلون تهديداً ، وقرر حسان أن يضع نهاية لهذا التهديد إلى الأبد.

كان سقوط قرطاچنة حادثة رئيسية لأنه كان يعنى النهاية الباترة للسلطة البيزنطية فى أفريقيا. وبالمعنى العسكرى، يبدو أنه كان احتلالاً سلمياً أكثر منه حصاراً رئيسيا . فقد كانت المدينة الواقعة على موقع مدهش بجوار البحر تطل على خليج تونس، تلعب دور محور السلطة الرومانية على ساحل شمال أفريقيا على مدى ما يقرب من ثمانمائة سنة. وفى إحدى المراحل كانت قد نعمت بالعديد من المبانى الفخمة ، وفى أواخر العصور القديمة حل محلّ هذه المبانى الكنائس الفاخرة الكبيرة . وفى القرن الثانى بعد الميلاد وصل سكانها إلى نصف مليون نسمة على ما يظن الباحثون، وكانت الحمامات الأنطونية Antonine Baths ، التى لا تزال أطلالها باقية، أكبر الحمامات فى العالم الرومانى. ويقول المؤرخ العربى ابن عذارى (حوالى ١٢٠٠م) يقول إن المدينة كانت فى

أيامه لا تزال تتميز بآثارها المبهرة ، المبانى الضخمة، والأعمدة الضخمة القائمة ، التى أظهرت أهميتها للناس فى الماضى . ويضيف إن سكان تونس القريبة ، تماما مثل السياح فى العصر الحديث، يزورون الموقع لكى يتأملوا العجائب والآثار التى نجت من عوادى الزمان[٣٢](*) . أما قرطاجنه سنة ٦٩٨م فكانت مجرد ظل للمدينة العظيمة التى كانت موجودة منذ زمن طويل قبل الغزو الرومانى . ويقول ابن عبد الحكم لم يكن بها سوى عدد قليل من السكان الضعفاء[٣٣]. ويبدو أن المدينة كانت مهجورة إلى حد كبير، ولم تكن بها أية مبانٍ مهمة على مدى نصف قرن من الزمان على الأقل . ومع انهيار تجارة البحر المتوسط، كانت المدينة قد فقدت مبررات وجودها ، ولم يكن بها آنذاك سوى عدد قليل من السكان وحامية صغيرة يعيشون بين الأطلال .

وليس مما يثير الدهشة أن المدينة فيما يبدو لم تقاوم إلاّ قليلاً. فحسبما ذكرت بعض المصادر كان السكان قد حزموا أمتعتهم بالفعل فى السفن وأبحروا بعيداً تحت ستر الليل بحيث كانت المدينة مهجورة فعلاً عندما دخلتها الجيوش العربية[٣٤]. وليست لدينا أى تقارير عن أى حصار رسمى ولا روايات عن غنائم تم الاستيلاء عليها بعد الفتح ، وهو مؤشر آخر على أن المدينة ربما كانت مهجورة بالفعل قبل الفتح العربى. وبعد أن رسخت سيطرة المسلمين على المدينة لم يبذلوا جهدا لوضع حامية فى المدينة أو بناء مسجد. وفى الحقيقة ، أن مركز السكان انتقل من جوار البحر فى قرطاچنة إلى القيروان فى الداخل، تماماً مثلما تحول فى مصر من جوار البحر فى الإسكندرية إلى الفسطاط فى الداخل.

ربما كان سقوط قرطاجنة علامة على نهاية الوجود البيزنطى فى شمال أفريقيا ولكن الكثير من قبائل البربر بقيت متحدة وجسورة . ففى ذلك الوقت كانت قيادة المقاومة البربرية فى يدى «الكاهنة» الغامضة . وشهرة هذه الكاهنة البربرية، بشعرها

(*) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج١ ، ص٢٥ «... وفى هذه المدينة آثار عظيمة، وأبنية ضخمة ، وأعمدة ثابتة غليظة ، تدل على عظم قدر الأمم الدائرة ، وأهل تونس إلى الآن، لايزالون يطلعون فى خرابها على أعاجيب ومصانع لاتنقطع بطول الزمان لمتأمل». (المترجم)

الأشعث الطويل ونبوءاتها الزهدية، بقيت عبر القرون فى التاريخ والأسطورة رمزاً للمقاومة ضد الغزو العربى والنظام الأخلاقى للحياة الإسلامية التقليدية. إذ إن الثقافات الحديثة تحتفى بها بطرق متنوعة باعتبارها بطلة لتحرير المرأة وسلطتها، وباعتبارها بطلة للمقاومة البربرية والاستقلال ، وأميرة يهودية «لم تتخل أبدًا عن دينها»، وباعتبرها ملكة أفريقية عظيمة . ومن المؤكد أنها كانت بربرية من أحد بطون قبيلة زناتة الكبيرة ، ولكن قيل إنها تزوجت واحداً من البيزنطيين وأنها ربما كانت إما يهودية(*) أو مسيحية .

وقد لخص إدوارد جيبون الرأى التقليدى فى الكاهنة فى قطعة نثرية بالإنجليزية ترجع إلى القرن الثامن عشر ، فهو يصف كيف تم توحيد البربر «الفوضويين» :

«تحت راية ملكتهم الكاهنة حازت القبائل المستقلة قدرًا من الاتحاد والنظام ؛ ولأن المغاربة كانوا يحترمون فى نسائهم شخصية المتنبئة ، فإنهم هاجموا الغزاة بحماسة تماثل حماستهم . وكانت جماعات الجنود تحت قيادة حسان لاتكفى للدفاع عن إفريقية ؛ وضاعت فتوحات عصر فى يوم واحد؛ وإذ غُلب القائد العربى أمام سيلهم الجارف، تقهقر إلى حدود مصر لينتظر على مدى خمس سنوات النجدة التى وعده بها الخليفة.

ثم يستمر مبينا كيف أن الكاهنة كانت عقدت العزم على إثناء العرب عن العودة: «جمعت الكاهنة المنتصرة الرؤساء والمغاربة ، وأوصت باتباع سياسة غريبة وحشية وقالت «إن مدننا وما تحويه من الذهب والفضة تجتذب الجيوش العربية باستمرار.

(*) من المستبعد تمامًا أن «الكاهنة» كانت يهودية ، لأنها قادت بعض البربر ؛ وقد ذكر ابن عبد الحكم (ص٢٧٠) ما نصه «... وغزا (حسان بن النعمان) الكاهنة ، وهى إذ ذاك ملكة البربر، وقد غلبت على جل إفريقية ...» ولايمكن أن تكون ملكة يهودية تحكم على رعايا من المسيحيين أو الوثنيين. ومن ناحية أخرى ، فإن المصادر التاريخية لم تذكر شيئا عن قيام مملكة يهودية فى تلك الأنحاء . وفضلاً عن ذلك هناك نص صريح فى كتاب ابن عبد الحكم أيضا (ص٢٧١) يقول : «... وضع الخراج على عجم إفريقية ، وعلى من أقام معهم على النصرانية من البربر، وعامتهم من البرانس إلا قليلاً من البُتر...» وليس فى هذا النص أى ذكر لليهود ولكنها مماحكة غير مفهومة. (المترجم)

هذه المعادن التافهة ليست محط طموحنا ؛ فإننا نقنع بإنتاج الأرض البسيط . فلندمر هذه المدن؛ ولندفن فى خرائبها هذه الكنوز المؤذية الخبيثة ، وعندما يتجرد جشع أعدائنا من الإغراء ، فربما يكفون عن إزعاج هدوء شعب محارب».

«وتم قبول الاقتراح بموافقة عامة. ومن طنجة إلى طرابلس تمت إزالة المبانى ، أو التحصينات على الأقل، وتم قطع أشجار الفاكهة ، وتحولت البلاد من جنة خصيبة عامرة بالسكان إلى صحراء وكان بوسع المؤرخين الأكثر شباباً أن يتبينوا الآثار الكثيرة للرخاء والخراب الذى حل بأسلافهم . وهكذا هى حكاية العرب فى العصر الحديث»(٣٩)(*).

ومن الصعب تقدير مدى الحقيقة وراء أسطورة الكاهنة . كانت سلطة الكاهنة مرتكزة على منطقة جبال الأوراس . وجبال الأوراس شاهقة فى غرب الجزائر ترتفع إلى ألفين وثلاثمائة متر فى أعلى نقاطها . ولا يبعد قلب الجبال أكثر من مائة كيلو متر من الغرب إلى الشرق وخمسين كيلو متراً من الشمال إلى الجنوب . وإلى الشمال تقع الهضبة الخصيبة ؛ وإلى الجنوب تنحدر الأرض بميل شديد نحو أطراف الصحراء . والجبال جرداء وصخرية تحمى الوديان العميقة القرى المنعزلة وغابات النخيل . فقد كانوا فى موقع استراتيجى مهم. وعلى الرغم من أن هذه الجبال كانت وعرة لا يمكن الوصول إليها ، فقد كانت على مسيرة أيام قليلة فقط من سهول تونس ومراكز القوة العربية . وكانت سلسلة الجبال تتحكم أيضا فى الطريق من تونس إلى بقية الجزائر والمغرب ؛ وحتى تم إخضاع الأوراس، أو صار صديقا على الأقل، لم يكن ممكنا لأى جيش عربى أن يعمل بسلام فى هذه المناطق. لقد كانت معقلاً نموذجياً بالنسبة لأولئك الذين كانوا يريدون مقاومة الغزاة من الخارج ، وكانت دائمًا مركز المقاومة البربرية ؛ إذ انطلقت أولى رصاصات الثورة الجزائرية ضد الحكم الفرنسى فى الأوراس سنة ١٩٥٤م.

(*) تفيض كتابات إدوارد جيبون بالعداوة الصريحة ضد العرب والمسلمين ولا تحتاج إلى تعليق منا. (المترجم)

وتأتى أكثر الروايات اكتمالاً عن الكاهنة من كتاب ابن عذارى. فعندما دخل حسان القيروان سأل عمن كان أهم ملك لا يزال باقيا فى إفريقية، وأخبروه إنها الكاهنة فى جبال الأوراس وأن جميع البيزنطين ذهبوا خوفًا منها وأن كل البربر يدينون لها بالطاعة . وأضافوا أنه إذا قتلها فإن المغرب كله سوف يسقط بين يديه. وانطلق لمواجهتها . ووصل إلى مدينة باغايه قبله، وطردت البيزنطيين ودمرت المدينة خوفًا من أن يكون حسان يريد الذهاب إلى هناك ويتخذها قاعدة حصينة له . وقد اقترب من الجبال وأقام معسكره فى وادى مسكيانة ، وهناك جاءت الكاهنة لمقابلته . وكان معسكره على قمة الوادى على حين كانت قواتها أسفل الوادى . وقد اتصل الفرسان من كلا الجانبين ببعضهما ذات مساء ولكن حسان رفض الدخول فى المعركة ذلك اليوم، وقضى الجيشان ليلتهما على سروج الخيل متأهبين . وفى اليوم التالى نشب قتال صعب طويل ولكن فى النهاية أجبرت قوات حسان على الفرار. وطاردته الكاهنة ، وقتلت الكثير، وأخذت الأسرى، ودفعته إلى ما وراء قابس. ويبدو أنه لجأ إلى برقة، ومن هناك كتب إلى الخليفة، يطلب منه التعزيزات ويشرح له أن أمم المغرب ليس لها برامج أو أهداف سياسية ، ولكنهم مثل قطعان الماشية التى ترعى بحرية . وأجاب الخليفة ، يأمره بأن يبقى حيث هو . وكانت القلاع التى أقامها هو ورجاله بالقرب من برقة لا تزال تعرف أيام ابن عذارى، أى بعد ستة قرون، باسم «قصور حسان» .

ثم يواصل مؤلفنا روايته ليحكى عن خطبة زعم أن الكاهنة قد ألقتها، وكانت هى أساس رواية چيبون. وبحسب هذه الرواية خاطبت البربر بالكلمات التالية:

«إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعى، فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها، حتى ييأس منها العرب، فلايكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر». فوجهت قومها إلى كل ناحية يقطعون الشجر ويهدمون الحصون ؛ فذكروا أن أفريقية كانت ظلاً واحداً من طرابلس إلى طنجة وقرى متصلة ومدائن منتظمة حتى لم يكن فى الدنيا أكثر خيرات، ولا أوصل بركات، ولا أكثر مدائن وحصونا من إقليم إفريقية والمغرب .. فخربت الكاهنة ذلك كله...»(*).

(*) ابن عذارى ، المغرب ، ص٣٦ .

والرواية مثيرة. فهى تكشف عن اعتراف واضح فى مصدر عربى يرجع إلى العصور الوسطى بالتدهور البيئى والاضمحلال الحضرى فى المنطقة التى أذهلت الأثريين وغيرهم من الباحثين فى العصر الحديث . وهى رواية غير عادية ، كما لاحظ جيبون، وهى تختزل التغييرات التى جرت فى قرنين أو ثلاثة قرون فى عدة سنين . وتشير الرواية ، إلى بعض الحقائق الأساسية . ولا شك فى أن القرنين السادس والسابع قد شهدا تدهورا فى الحياة الحضرية والزراعة المستقرة بالمنطقة، ارتبطت بالنمو فى مجال الرعى. كما أن الرواية تلقى على الفتوح العربية ضوءا غير عادى. وهنا يبدو العرب بمظهر المحافظين على الحياة الحضرية والحضارة، وليس فى مظهر المدمرين على نحو ما يحدث كثيرا فى الكتابات الحديثة.

وبدا كأن انتصار الكاهنة كان كاملاً ، وكأن حسَّان تخلى عن إفريقية بالفعل. ولم يلبث أن تلقى المزيد من القوات من الخليفة. كما أنه اجتذب أعداداً كبيرة من البربر الذين كانوا غير مستعدين لقبول سلطة الكاهنة. وقيل إن اثنى عشر ألفًا منهم انضموا إلى الجهاد . وبهؤلاء الجنود سار إلى إقليم قابس حيث هزم قواتها. ثم طاردها إلى معقلها فى الأوراس . وجرت المعركة النهائية شمال مدينة طبنه الحديثة ، ربما فى سنة ٦٩٨م . ولدينا تفاصيل قليلة للغاية عن المعركة التى هزم حسَّان فيها الكاهنة وقتلها، باستثناء ما يقال عن أنها كانت قد تنبأت بالكارثة التى كانت ستقع عليها. وبشعرها المنقوش ، نطقت بنبوءات وحشية عن الكارثة وكانت فى الوقت نفسه ، ترسل بولديها لتحصل لهما على الأمان فى المعسكر العربى[٣٦].

وإذْ انتهى التمرد، وطد حسان نفسه مرة أخرى فى القيروان . وهناك بدأ يرسى دعائم منظومة الإدارة الأموية، فأسس ديوانًا للجند وفرض على النصارى دفع الخراج. ووفقًا لبعض المصادر ، أسس مدينة تونس الجديدة ، بالقرب من قرطاجنة. وكان مقدراً لتونس أن تكون قاعدة بحرية لمنع أية غارات أخرى يشنها البيزنطيون ، وتم نقل ألف صانع قبطى من مصر للعمل هناك[٣٧]. وهذه علامة على بداية الإدارة الإسلامية الدائمة فى إفريقية وبداية مرحلة أخرى فى تحول البربر إلى الاسلام وتجنيدهم فى الجيش الإسلامى بإفريقية، وهى عملية لعبت دوراً أساسياً فى الفتح الإسلامى لإسبانيا .

وفى سنة ٧٠٤م خُلع حسان من منصبه . وكانت خسارته لمنصبه نتيجة للعلاقات المتدهورة بين الخليفة عبد الملك بن مروان فى دمشق وأخيه عبد العزيز والى مصر . فقد أراد عبد العزيز أن يؤكد سلطته ، وسلطة مصر، على شمال أفريقيا. كما أنه أراد لتابعه الذى يحميه أن يُعيَّن فى منصب الوالى. وكان الرجل الذى فى ذهنه هو موسى بن نصير . وكانت أصوله متواضعة ومن المؤكد أنه لم يكن ينتمى لواحدة من عائلات النخبة الكبيرة فى الخلافة الأموية. وكان رجلاً ذكيا قويًا شق طريقه صاعدا بفضل قدراته الخاصة وثقة راعيه. وقد بدأ حياته العملية فى بلاد الشام، فى خدمة الحكومة الأموية ، وجاء إلى مصر للمرة الأولى سنة ٦٨٤م . ويرجح أنه بينما كان هناك استلفت نظر عبد العزيز بن مروان الذى انطلق لترقيته وتقدمه فى وظائفه . وبحلول سنة ٧٠٤م كان عبد العــزيز وموسى قد عملا معًا على مــدى عشرين سنة ؛ وأراد عبد العــزيز أن يكافئــه وعرف أنه الرجل المثــالى الذى يمكنه إخضــاع ولاية إفريقيــة العنيــدة الغنية لسيطرته .

ووصل ليجد الولاية فى حال من الفوضى. فقد كان حسان قد أنقذ إفريقية العربية من البربر وطرد البيزنطيين . وتوقفت السلطة العربية عندما يعرف حاليا بالحدود التونسية – الجزائرية. ولم تكن الغارة الخاطفة التى شنها عقبة بن نافع على المغرب الأقصى قبل أكثر من عشرين سنة قد أسفرت عن أى استقرار دائم . فقد كان البربر فى جبال الأوراس والمناطق الواقعة فى غربه لا يزالون فى وضع يسمح لهم بمقاومة السلطة العربية.

وكان موسى عازمًا على أن يغير هذا . وغادر حسان الولاية عائدًا إلى دمشق. وعندما وصل إلى مصر، جرده عبد العزيز بن مروان من كل ممتلكاته ، حتى الهدايا التى كان يحملها إلى الخليفة الجديد الوليد بن عبد الملك . وفى الوقت نفسه ، كان موسى ابن نصير ، فى إفريقية ، يخطط لهجمة كبيرة فى الغرب داخل المغرب . وبدأ بهجوم على القلعة البربرية فى زغوان، على بعد كيلومترات قليلة من القيروان . وسرعان ما تم الاستيلاء عليها وتم إحضار أوائل الأسرى إلى العاصمة. وكان الأسرى هم الهدف الرئيسى من وراء حملته. وفى الروايات عن الفتوح الإسلامية فى المدن وفى

الأراضى بالشرق الأوسط ، نجد إشارات مستمرة إلى كمية الغنائم – من البضائع والمنقولات قبل هذا وذاك . ولدينا أخبار عن مدى الحرص فى تقسيم الغنائم بين الفاتحين . وفى الرواية عن حملات موسى بن نصير فى المغرب، نجد أن أعداد الأسرى الذين تم الحصول عليهم وأرسلوا إلى الشرق تسيطر على الروايات. وهناك مبالغة فى الأرقام بحماسة غير محدودة ، ويبدو الجهاد الإسلامى فى صورة غير مريحة وكأنه قد تحول إلى غارة رقيق عملاقة. وما أن وصل موسى بن نصير إلى القيروان حتى أرسل اثنين من أبنائه فى غارتين منفصلتين فى المغرب وعاد كل منهما بمائة ألف أسير. وعندما كتب موسى إلى راعيه عبد العزيز بن مروان أنه أرسل إليه ثلاثين ألف من السبايا نصيب الحكومة من الغنائم ، افترض عبد العزيز إن هناك خطأ فى الرسالة لأن الرقم كان كبيراً بالقدر الذى بدا مستحيلاً . والحقيقة أن الكاتب قد أخطأ ، ولكن فى الاتجاه المعاكس : إذ كان الرقم الحقيقى ستين ألفاً[٣٨](*).

وسرعان ما انطلق موسى نفسه صوب الغرب . وفى سجومة سمح لأبناء عقبة بن نافع بأن ينتقموا لموت أبيهم «... فقتلوا من أهل سَجُومة ستمائة رجل من كبارهم...» . ثم واصل مسيره لإخضاع القبائل البربرية الكبرى ، هوارة، وزناتة، وكتامه فأخذ منهم السبايا وعين لهم رؤساء جدد ليكونوا موالين للفاتحين المسلمين . وكانت المقاومة قليلة جداً من جانب الناس المستقرين لأن الكثير من مدن إفريقية كانت خالية بسبب عداوة البربر تجاههم حسبما لاحظ المؤرخ ابن عذارى[٣٩]. وإذ سار موسى بن نصير على خطوات عقبة بن نافع ، فإنه واصل اندفاعه صوب الغرب مطارداً القبائل البربرية التى

(*) تقول رواية ابن عبد الحكم (فتوح مصر والمغرب ، ص٢٧٥) «... فلما أتى كتابه.بذلك قال الناس: ابن نصير والله أحمق، من أين له عشرون ألفا يبعث بها إلى أمير المؤمنين فى الخمس ؟ فبلغ ذلك موسى بن نصير، فقال: ليبعثوا من يقبض لهم عشرين ألفا ...» وفى هذه الرواية لا نجد رقم ثلاثين ألفا أو ستين ألفا أما رواية ابن عذارى (المغرب، ص٤٠) فتقول : «... فكتب موسى إلى عبد العزيز يعلمه بالفتح ، ويعلمه أن الخُمس بلغ ثلاثين ألفًا . وكان ذلك وهمًا من الكاتب ؛ كتب ثلاثين ألفا بدلاً من ستين ألفًا . فلما قرأ عبد العزيز بن مروان الكتاب وأن السبى من الخمس ثلاثون ألفا، استكثر ذلك ... فكتب إلى موسى ... فاستكثرت ذلك وظننته وهما من الكاتب . فاكتب بالحقيقة. فكتب إليه موسى: قد كان ذلك وهمًا من الكاتب على ما ظنه الأمير ، والخمس أيها الأمير ستون ألف رأس ثابتا بلا وهم ». (المترجم)

كانت تفر أمامه . وبخلاف عقبة ، لم يتحول عن طنجة . وقيل إنه استولى على المدينة وعين مولاه الذى كان من عتقاء البربر، طارق بن زياد، واليًا، وهى المرة الأولى على ما نعرف التى يتولى واحد من البربر المسلمين منصب قيادة فى الجيش المسلم. وترك معه حامية ، تكونت فى معظمها من البربر الذين اعتنقوا الإسلام حديثًا ومعهم عدد قليل من العرب وأمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يرشدوهم فى أمور الدين .

وأعطيت الأرض لحامية طنجه واختط للمسلمين الخطط. وكان تأسيس هذا الموقع الأمامى الإسلامى ، عبر مضيق جبل طارق الذى يفصلها عن أراضى جنوب إسبانيا الغنية المغرية، مقدمة للغزو وكان للحامية أن تصير نواة القوة المسلمة الأولى التى ستقوم بغزو شبه الجزيرة الأيبيرية. واستمر موسى بن نصير فى حملاته على الجنوب والغرب حتى وصل فى النهاية إلى السوس ووادى درعة، وأخذ رهائن من قبيلة مصمودة فى جبال أطلس . وعندئذ رجع إلى القيروان فى الشرق.

وربما كان الفتح والاستقرار الإسلامى فى طنجه قد اكتمل سنة ٧٠٨م . وقد استغرق الأمر أقل من سبعين سنة منذ عبرت القوات المسلمة الأولى من مصر إلى برقة. وفى أثناء ذلك الوقت كانت الحرب فى جزر ومد بشكل درامى. وطوال هذه الحرب كان المفتاح يتمثل فى سيطرة المسلمين على تونس وعاصمتهم الجديدة فى القيروان. وبحلول سنة ٧٠٨م كانت هناك إدارة عربية راسخة تمامًا فى تونس. وإلى الشرق كانت كل من برقة وطرابلس تحت الحكم الإسلامى. أما مناطق الجزائر الحديثة والمغرب الحديثة فقد بقيت «الغرب المتوحش» حقًا. ويبدو أن الوجود الإسلامى الرئيسى الوحيد فى هذه المنطقة قد تمثل فى حامية طنجة. وفى مناطق أخرى، كانت سيطرة المسلمين تعتمد على الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع زعماء القبائل البربرية ، الذين يحتمل أنهم كانوا قد اعتنقوا الإسلام، اسميًا على الأقل. وكان للحكم الإسلامى أن يواجه التحدى مرة أخرى، لاسيما التمرد البربرى الكبير سنة ٧٤٠- ٧٤١م، ولكن لم تتم الإطاحة به أبدًا.

الهـــوامش

(١) المكتوب في المصادر الثانوية عن فتح شمال أفريقيا ليس كثيرا . وعن رواية سردية قائمة على قراءة واعية للمصادر العربية القليلة، انظر :

A. D. Taha, The Muslim Conquest and Settlement of North Africa and Spain (London, 1989). V. Chrisrides, Byzantine Libya and the March of the Arabs towards the West of North Africa, British Archaeological Reports, International Series 851 (Oxford, 2000).

وهو أيضا موضوع على أساس النصوص العربية ولكنه يقدم بعض المادة الإضافية من سير القديسين والمصادر الأثرية.

(٢) Muqaddasi, Ahsan al-Taqasim: The Best Divisions for Knowledge of the Regions, trans. R. Collins (Reading, 2001), p. 224.

(٣) See A. Cameron, 'Byzantine' Africa - the literary evidence', in Excavations at Carthage 1975, 1978, ed-J.H Humphrey, vol. VII (Ann Arbor, MI, 1977-78), pp. 29-62, reprinted in eadern. Changing Cultures in Early Byzantium (Aldershot. 1996),VII .

(٤) M. Brett and R. Fentress, The Berbers (Oxford, 1996), pp. 79-80, quoting Procopius, Bellum Vandalicum IV, xiii, pp. 22-8.

(٥) C.J. Wickham, Framing the Early Muldle Ages: Europe and the Mediterranean, c. 400-c. 800 (Oxford, 2005), p. 641.

(٦) Ibid., pp. 709-12, 725.

(٧) A. Leone and D. Mattingly, 'Landscapes of change in North Africa', in Landscapes of Change: Rural evolutions in late antiquity and the early Middle Ages, ed. N. Christie (Aldershot, 2004), pp. 135-62 at pp. 142-31.

(٨) J. Sjostrom, Tripolitania in Transition: Late Roman to Islamic settlement: with a catalogue of sites (Aldershort, 1993), pp. 81- 5.

(٩) Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 170.

(١٠) Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 170 . details the movement of Berber tribes to rlie west.

(١١) Sjostrom, Tripolitania, p. 26.

(١٢) Ibid.,p.40. See also D.Mattingly, 'The Laguatan : a Libyan tribai confederarion in the late Roman Empire', Libyan Studies 14 (1983); 96-108; D. Pringle, The Defence of Byzantine Africa from Zustinian to the Arab Conquest, British Archaeological Reports, International Series 99 (Oxford, 1981).

(١٣) The chronology here follows Chrisddes, Byzantine Libya, pp.38-39.

(١٤) Ibid., p. 15.

(١٥) Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 173.

(١٦) Ion Abd al-Hakani, Futuh, p. 184, Taha, Muslim Conquest, p, 57; Christides, Byzantine Libya, pp.42-3.

(١٧) Taha, Muslim Conquest, p. 58.

(١٨) Yaqut , Mucjam el-Buldan.

(١٩) Maslama b.Mukhallad al- Ansari.

(٢٠) Ion al-Athir, Al- Kamil fil Ta'likh, ed. C-J. Tornberg, 13 vols. (Leiden, III, p. 465,
حيث يقول فى وضوح إنه يبنى روايته على أساس مصادر شمال أفريقية «أهل التاريخ من المغرب لأن معلوماتهم كانت أفضل من معلومات الطبرى.
Mucjam al-Buldan, IV, pp. 212-13.

(٢١) Taha, Muslim Conquest, pp. 61-2.

(٢٢) Following Taha, Muslim Conquest, pp. 63-5, here.

(٢٣) جميع مصادر حملة عقبة الكبرى لاحقة زمنيا للأحداث بفترة طويلة، وأكمل رواية عند ابن عذارى (حوالى سنة ١٣٠٠م) . وهذا ما أدى بالبعض ، مثل برونشفيج، إلى الشك فى تاريخية الرواية كلها . وقد ناقش ليفى بروفنسال لأن يجادل بشكل مقنع بأن الرواية مستمدة من التراث المغربى الأندلسى ويجب تناولها بجدية وهو يترجم رواية منسوبة إلى من يسمى زبو على صالح بن أبى صالح بن عبد الحليم الذى كان فى نفيسة فى أعالى جبال الأطلس حوالى سنة ١٣٠٠م . ونشر النص العربى حسبما وعد ليفى بروفنسال فى مقالته لم يحدث بسبب موته سنة ١٩٥٤م. انظر :
Levi-Provencal, 'Un recit de la conquete dc l'Afrique du Nord', Arabic I (1954): 17-43.

(٢٤) Ihn Idhari, Bayan, II, p. 26.

(٢٥) Wickham, Framing, p. 336.

(٢٦) Ibn Idhari, Bayan, II, pp. 26-7.

(٢٧) Ibn Idhari, Bayan, II, pp. 25-6.

(٢٨) Ibn Idhari, Bayan, II, p. 26.

(٢٩) Ibn Idhari, Bayan, II, p. 27.

(٣٠) Ibn Idhari, Bayan, IT, pp. 30.

(٣١) Taha , Muslim Conquest, p. 68.

(٣٢) Ihn Idhari, Kayan, II, p. 35.

(٣٣) Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 200.

(٣٤) Bakri, Description de l'Afr'ique septentrionale, ed. Baron de Slane (Algiers, 1857), p. 37.

(٣٥) Gibbon, Decline and Fall, III, p. 300.

(٣٦) Following' the chronology proposed by Talbi in Encyclopaedia of Islam, 2nd edn,

(٣٧) بعض الروايات تنسب تأسيس تونس إلى ولاة لاحقين انظر :
Taha, Muslim Conquest, pp.72-3.

(٣٨) K. Ihn Abd al-Hakam, Futuh, p. 40.

(٣٩) Ibn Idhari, Bayan, II, p. 41.

(٧)

عبـــور نهـــر أموداريـــا

كان الفتح الأول لإيران قد اكتمل بحلول سنة ٦٥١م . وكانت الجيوش التى تطارد يزدجرد الثالث قد وصلت مرو[١]. ومن هنا كانت المسافة إلى نهر جيحون (أموداريا الحديث) مسيرة أيام قليلة باتجاه الشمال الشرقى. ووراء النهر عرفت المنطقة باسم ما وراء النهر ، وهى عالم يختلف تمامًا عن إيران . وعلى الرغم من أن كثيرًا من سكان المدن والقرى كانوا من الناطقين بالفارسية ، لم تكن الإمبراطورية الساسانية تسيطر حقًا على المنطقة بأى معنى إدارى . وبدلاً من الحكومة الإمبراطورية المركزية كان هناك عدة بلاطات فى قصور المدينة وفى قلاع الجبال، كما كانت هناك مضارب خيام البدو حيث السيادة بأيدى رؤساء القبائل التركية الكبار . وبعيدا فى الشرق تقع حدود الصين وكان الأباطرة الصينيون من أسرة تانج قد كسبوا ولاء سكان المنطقة. لقد كانت أرضًا غنية مليئة بالفرص والثروات ولكن كان يدافع عنها محاربون حريصون على استقلالهم للغاية . وقد برهن بريق الثروة وتحدى القتال أنه شىء لا يمكن للمحاربين العرب مقاومته .

ومن بين كل حملات الفتوح العربية الباكرة كان القتال فيما وراء النهر الأصعب والأطول فى مداه . ومرَّ قرن بكامله فيما بين فتح مرو (٦٥٠- ٦٥١م) وعبور العرب نهر جيحون لخوض معركة تلاس النهائية ، التى أنهت احتمال التدخل الصينى سنة ٧٥١م وقد شهدت المرحلة الأولى من الفتوح ، التى استمرت بشكل متقطع فيما بين خمسينيات القرن السابع وسنة ٧٠٥م، الولاة العرب يقودون غارات متفرقة عبر النهر ،

ولكنهم كانوا يرجعون دائما إلى قاعدتهم فى مرو قبل قدوم الشتاء ولا يتركون أى وجود دائم فى تلك الأنحاء . وكانت المرحلة الثانية هى ولاية قتيبة بن مسلم الباهلى من سنة ٧٠٥ إلى سنة ٧١٥م ، عندما كانت هناك محاولات منظمة لغزو طخارستان ، وبلاد الصُغد، وخوارزم وأقيمت حاميات عربية فى المدن الكبرى مثل بخارى وسمرقند . والمرحلة الثالثة من ٧١٦ إلى حوالى ٧٣٧م كانت تميزها انتكاسات خطيرة للعرب على أيدى الأتراك الذين استعادوا نشاطهم وحلفائهم من بين الأمراء المحليين. وكانت المرحلة الرابعة والأخيرة (٧٣٧– ٧٥١م) قد شهدت اثنين من الولاة العرب هما أسد بن عبدالله ونصر بن سيار ، توصلا إلى الاتفاق مع الأمراء المحليين يقضى بأن يعترفوا بالسيادة العربية على حين يحتفظون بالكثير من سلطتهم ومكانتهم.

وتاريخ الفتوح العربية فى آسيا الوسطى مهم لسبب آخر. إذ إن هذه الحملات هى التى وصلتنا عنها تقارير كاملة من بين جميع حملات الفتوح الإسلامية الباكرة حتى الآن بدلاً من الروايات الغامضة والأسطورية التى لدينا عن الفتوح السابقة ، وعن فتح إسبانيا الذى كان معاصراً ، فإن حكايات المعارك التى جاءت من بلاد ما وراء النهر فى أوائل القرن الثامن مليئة بالتفاصيل الواضحة الواقعية . وهنا فحسب يمكن أن نأمل فى الحصول على بعض الإحساس بالحقيقة القاسية للغزو والدمار ، وعن الهزيمة والنصر . ونحن ندين بهذه المادة لمؤرخ يسمى أبو الحسن المدائنى . ولد فى البصرة سنة ٧٥٣م ، ولكنه عاش معظم سنى حياته فى المدائن (حيث جاء لقبه) ، وفى بغداد حيث توفى فى وقت ما بعد سنة ٨٣٠م[٢]. ويقال إنه جمع عدداً ضخمًا من كتب التاريخ بما فيها تواريخ غزو خراسان وتراجم الولاة ، ومن بينهم قتيبة بن مسلم ونصر بن سيًار . وحوالى سنة ٩٠٠م حرر الطبرى هذه المادة، وأدخلها فى تاريخه ، مع الاعتراف الكامل بنقلها عن المدائنى ، وعن هذا الطريق وصلت المادة إلينا .

وبالمقارنة مع الروايات عن الفتوح الباكرة لبلاد الشام والعراق وإيران، نجد أن التتابع الزمنى مضمون أكثر على الرغم من أن الروايات لا تزال من تأليف مؤلفين مختلفين طوروا رواياتهم لأغراض مختلفة تمامًا[٣]. وتدخل بعض الخيوط فى نطاق الموروثات القبلية ، ومن الواضح أنها تمجد ذكرى شيوخهم الكبار والدور الذى لعبوه

فى هذه الأحداث الحيوية . فقد حفظت قبيلة الأزد ذكرى الأعمال والفضائل المنسوبة لشيخها الكبير المهلب وابنه يزيد، كما أن شهرة أعظم القادة المسلمين فى هذه الحملات، قتيبة بن مسلم، حفظها أتباعه من قبيلة باهلة . وفضلاً عن ذلك، فإن لدينا تراث تاريخى محلى مستقل محفوظ فى «تاريخ بخارى» الذى كتبه النرشخى ، يخبرنا بالكثير عن كيفية تأثير الفتح على مدينة واحدة والريف المحيط بها .

ونهر أموداريا نهر مدهش. فإذا ما قاربته على امتداد الطريق القديم إلى الشرق، مسافرًا عبر الصحراء المنبسطة الجرداء من مرو إلى نقطة العبور التقليدية عند شارجوى(*)، فإنك ستصل إليه فجأة . وهو يفيض فيما بين قراقوم (أى الرمال السوداء) فى الغرب، وقزل قوم (الرمال الحمراء) فى الشرق، وعلى ضفتيه جرف منخفض . وهناك القليل من الرى وقليل من المستوطنات ؛ ويشق النهر طريقه ويتعرج عبر أرض جرداء بلا سكان : فليس هناك نخيل وحقول وقرى مثل تلك التى تشكل ضفاف النيل فى مصر بحيث يبدو بهجة للناظرين أما النهر نفسه، وعرضه وقوة تياره ، فإنه يبدو غازيًا غريبًا فى هذا الفضاء الصحراوى المنبسط.

ويناجى الشاعر الفيكتورى ماثيو أرنولد Matthew Arnold فى نهاية قصيدته «سهراب ورستم» التى نظمها على أساس واحدة من القصص العظيمة فى الشاهنامة، النهر. وبعد أن قتل رستم ابنه الوحيد فى خطأ مأساوى ، عادت الجيوش الفارسية والتركية إلى معسكرها ، وأشعلوا نيرانهم، وبدءوا طهوهم ، تاركين البطل وحده مع الجثة. ويتخيل الشاعر مجرى النهر العظيم كله :

ولكن النهر الجليل استمر فى جريانه
خارجا من الضباب ومن طنين تلك الأرض الواطئة.
فى ضوء النجوم المكلل بالصقيع ، وهناك تحرك
فرحًا ، عبر أراضى خوارزم الخاوية الساكنة

(*) آمول القديمة.

تحت القمر المتوحد : فاض
صوب النجم القطبى مباشرة ، عبر أورجونچى
مُترعًا ، مضيئًا ، وكبيراً : ثم تبدأ الرمال
لكى ترسم الحواف على مسيرته المائية ، وتعترض جريانه
وتقسم تياراته ؛ لتجعل منها عُصبًا كثيرة
ونهر أموداريا المدّعم المنقسم يجاهد على طول مجراه
من خلال مجارى من الرمال والجزر المندفعة الملبدة
ونهر أموداريا نسى سرعته البراقة التى كانت
فى مهده الجبلى العالى فى بامير
جوالاً مبارزاً غير مباشر - حتى النهاية
يُسمع اصطدام الموجات الذى طال الشوق إليه ، وواسعًا
ينفتح موطن المياه المضئ فيه ، لامعًا
وهادئًا ، ومن أرضيته ، تبرز النجوم التى استحمت مجدداً
لتتلألأ فوق بحر الآرال.

لقد كان نهر أموداريا خط حدود حقيقيًا . وأشار العرب إلى ما وراءه ببساطة فى عبارة «ما وراء النهر»، واستمر هذا الاسم مستخدمًا حتى اليوم، بعد أن توقف الناس فى المنطقة عن الحديث بالعربية . وعلى مدى فترة طويلة استخدم الباحثون والرحالة الغربيون مصطلح «ما وراء النهر Transaxania لوصف المنطقة . وفى الفترة الإسلامية الباكرة ، كانت هذه الأراضى تعتبر جزءًا من خراسان ، تلك الولاية الشاسعة التى ضمت أيضًا شمال شرق إيران، وكانت تُحكم من العاصمة الإقليمية فى مرو، حيث كان الوالى يقيم عادة.

وهى أرض تضم بيئات كثيرة مختلفة حسمت أهداف العرب واستراتيجياتهم . وهناك وديان أنهار خصيبة حيث تتجمع المدن والقرى معًا . وبالقرب منها، فى بعض الأحيان لايفصلها سوى السور حول الواحة، كانت هناك صحراوات شاسعة حرّها قائظ فى الصيف ، وبردها قارص فى الشتاء ، لم يكن يستطيع العيش فيها سوى أشد البدو صلابة. ثم كانت هناك الجبال، التى ترتفع غالبًا بميل شديد مثل الأسوار من السهول، وهى الجبال التى آوت الثقافات القديمة وأساليب الجياة وكفلت لها الحماية على مدى القرون بعد أن سيطر الغزاة الغرباء على السهول . وهناك عالم آخر ، مختلف من القرى الجبلية النائية حيث كان الناس يتحدثون لهجات تستعصى على الفهم ويعبدون أمراءهم باعتبارهم آلهة.

كان التقسيم الأساسى الأعظم بين الناس الذين عاشوا فى هذه الأراضى المتناقضة يفرق بين الناطقين باللهجات الإيرانية وأولئك الذين استخدموا إحدى اللغات التركية المختلفة. وهو تمايز مستمر إلى اليوم بين الطاچيك الناطقين بالفارسية والأوزبك الناطقين بالتركية. وفى القرن السابع عندما وصل العرب لأول مرة، كانت الفروق اللغوية مصحوبة بفروق ثقافية ملحوظة ، إذ كان الناطقون بالفارسية ، عمومًا ، سكان المدن والقرى فى الأراضى المستقرة على حين كان الناطقون بالتركية فى معظمهم من البدو .

ومن الناحية السياسية والاجتماعية ، انقسمت الأراضى الواقعة على امتداد نهر جيحون إلى أربعة أقاليم متمايزة ومنفصلة[٤]. وحول وادى النهر الأوسط تقع أراضى طخارستان، التى يحدها من الشمال سلسلة جبال حصار وغيرها من السلاسل الجبلية، وإلى الجنوب جبال الهندوكوش العظيمة ، التى تشكل الحدود مع جنوب أفغانستان وسهول الهند. ومنذ القرن التاسع عشر شكل النهر الحدود بين أفغانستان فى الجنوب وطاچيكستان التى تحكمها روسيا فى الشمال، ولكن فى القرنين السابع والثامن لم تكن هناك مثل هذه الحدود وعلى كلا ضفتى النهر كان الناس جزءًا من المجتمع نفسه والثقافة نفسها.

كانت طخارستان مرصعة بالمستوطنات القديمة . وكانت أهمها بلخ ، التى لا تزال أسوارها الكبيرة المشيدة من الطوب اللبن تطل على السهل المنبسط المؤدى إلى الجبال فى الجنوب . وكانت بلخ المخربة المهجورة منذ دمرها جيش چنكيزخان فى سنة ١٢٢٠م ، ذات مرة من المدن الكبرى فى آسيا الوسطى . وكان الاسكندر الأكبر قد غزاها وصارت عاصمة المملكة الإغريقية فى بكتريا . وهناك فى قلب آسيا على ضفاف نهر جيحون، أسس جنود الإسكندر وسلالتهم مركزًا للثقافة الهيللينية . وقد سكوا العملات وعليها صور حكامهم ، على الطراز الإغريقى، تضاهى فى رقيها العملات التى تم إنتاجها فى العالم اليونانى. وكان قصر الملوك المطل على نهر جيحون عند آى خنوم مشهدًا معماريًا مستوردًا مباشرة من مقدونيا، وقد بنى بشوارع واسعة مستقيمة ، قصر به ساحة بالأعمدة وچيمنازيوم للألعاب الرياضية .

وكانت المملكة الإغريقية قد ذبلت بحلول القرن الثانى قبل الميلاد وحلّت الثقافة البوذية التى جلبها ملوك كوشان محل هيللنية البحر المتوسط وآلهة الإغريق . وصارت بلخ مركزًا كبير للثقافة البوذية وجاء الحجاج من مناطق نائية مثل الصين لكى يزوروا معبد نوبهار الكبير فى الحقول خارج المدينة .

وفى الوقت الذى بدأ فيه العرب لأول مرة يغزون المنطقة بعد سنة ٦٥٠م ، كانت طخارستان منقسمة إلى الكثير من الإمارات ، على الرغم من أن الأمراء ، الذى كان الواحد منهم يحمل لقب چبغو ، كانوا يزعمون لأنفسهم نوعًا غامضًا من السيادة العليا على المنطقة . وكان حكام هذه الإمارات من أصول إيرانية أو تركية ، وديانتهم إما زرادشتية أو بوذية . وكانت أبعدها ، على الطريق شرقا إلى أعالى نهر جيحون ، إمارة بدخشان الجبلية، حيث كان يتم استخراج الياقوت واللازورد من مناجمها ، ثم إمارات ختل ، قبذيان وصغانيان، وإلى الجنوب ، فى أعماق جبال الهندوكوش كثيرة الشقوق، ترقد باميان، حيث رأس بوذا العملاق فى كرم يطل على الحقول الخضراء الحية فى أرض الوادى، وفيما وراء ذلك كانت كابول .

وبعد المرور بمدينة ترمذ الحصينة، وهى واحدة من المستوطنات القليلة التى تقع فعلاً على ضفاف النهر ، يتحول نهر جيحون (أموداريا) شمالاً. وفى النهاية يصل إلى

الأراضى المنبسطة المعروفة باسم خوارزم، التى تعرف اليوم بخورزم، لتفصل ما بين أوزبكستان وطاچيكستان[٥]. وهنا ينقسم إلى المجارى المختلفة والقنوات المختلفة التى تشكل دلتا النهر. وبعيداً ، منعزلة فى الصحراء من جميع الجوانب، كانت هذه الأراضى الخصيبة مأهولة بالسكان من الألف الرابع قبل الميلاد الذين استقروا هناك بثقافتهم المتمايزة . وكانوا يتحدثون بلغتهم الإيرانية الخاصة التى تذكر الغريب «بشقشقة الزرازير ونقيق الضفادع»[٦]، والتى كانت تكتب فى صيغة خطية مأخوذة عن الخط الآرامى القديم. وكانت الأرض الخصيبة تحت حكم سلالة من الملوك ، شاهات أسرة الفرغانيين، الذين كانت لهم السيادة على مدى ثلاثة قرون قبل قدوم الجيوش العربية ، يبنون القصور الحصينة ويدافعون عن حدود بلادهم ضد البدو المعادين.

وأخيراً يصل النهر، أو كان من المعتاد أن يصل، إلى بحر الأورال . وا أسفاه ، فإن «تلاطم الأمواج» الذى تخيله الشاعر لا يمكن سماعه بعد الآن، لأن البحر جفت مياهه ، فقد أخذت منه مياه كثيرة لرى حقول القطن فى تركمنستان؛ أما الآن فإن قوارب الصيد ترقد حيث كان خط الشاطئ فيما قبل يحيط به عالم موحش من الرمال والغبار المحمّل بالملح .

وإلى الشرق من نهر أموداريا وشمال جبال حصار، فى أوزبكستان الحديثة ، تقع أرض الصغد، حول النهر المعروف فى أيامنا هذه باسم زرفشان (ناثر الذهب) ولكنه كان معروفًا للفاتحين العرب باسم «نهر الصغد». ويفيض النهر من الشرق إلى الغرب، صاعداً فى جبال تركستان، ويفيض عبر الأراضى المنخفضة، مروراً بسمرقند وبخارى، ثم يتبدد فى الرمال فى صحراء قزيل قوم قبل أن ينضم إلى نهر أموداريا . وقد خلق النهر بلاد الصغد مثلما خلق أموداريا خوارزم أو مثلما خلق نهر النيل مصر .

ومعلوماتنا عن بلاد الصغد أكبر كثيراً من معلوماتنا عن غيرها من المناطق . فقد كانت مركزًا لحضارة قديمة كانت لها أيضا لغتها الإيرانية الخاصة ، مكتوبة ، مثل لغة خوارزم، فى تنويعة من الخط الآرامى. وقد بقى من عوادى الزمن عدد كبير من الوثائق الصغدية . كما كانت مسرحًا لأطول وأصعب قتال فى الحملات العسكرية العربية ،

وتخبرنا المصادر العربية عن أعمال الملوك المحليين، مثل ملك سمرقند العنيد المراوغ غورك.

كانت بلاد الصغد أرضًا للأمراء ، وكان أهمهم متمركزين فى المركزين الحضريين الكبيرين بخارى وسمرقند. وكان هؤلاء الأمراء يحافظون على ثقافة البلاط والفروسية ، وقد بقيت منها صور على رسوم الجدران التى تم اكتشافها فى القصور الصغدية فى سمرقند القديمة وبنجيكنت . ويمكن أن نلمح شيئًا من جو بلاط إحدى هذه الإمارات فى الرواية التى يقدمها واحد من مؤرخى بخارى المحليين ، وهو النرشخى(٧)، عن بلاط مدينته قبل الفتح العربى بوقت قصير فى زمن السيدة خاتون (تقريبًا سنة ٦٨٠-٧٠٠م) ، التى قيل عنها « ... فى زمانها لم يكن هناك من هو أقدر منها. فقد حكمت بحكمة وكان الناس يطيعونها » هذا الثناء مدهش بشكل واضح على النقيض من الموقف المعادى عامة لحكم النساء فى المصادر التاريخية الإسلامية الباكرة. وقد اعتادت أن تركب يوميًا خارج بوابة القلعة الكبيرة فى بخارى إلى الأرض الرملية المفتوحة والمعروفة باسم رجستان. وهناك كانت تجمع بلاطها، وتجلس على العرش تحيط بها حاشيتها وخصيانها. وكانت قد أجبرت ملاك الأراضى المحليين والأمراء على أن يرسلوا مائتى شاب يوميًا يتمنطقون بأحزمة من الذهب يحملون السيوف على أكتافهم. وعند خروجها، كانوا يصطفون صفين وهى تستفسر عن شئون الدولة وتصدر الأوامر ، وتمنح أثواب التشريفة للبعض وتعاقب البعض الآخر . وفى وقت الغذاء كانت ترجع إلى القلعة وترسل صحاف الطعام إلى حاشيتها . وتخرج مرة أخرى فى المساء وتجلس على عرشها على حين ينتظر المُلاّك والأمراء فى حضرتها صفين . ثم تمتطى حصانها ثانية ، لتعود إلى القصر ويعود الضيوف إلى قراهم وفى اليوم التالى تحضر مجموعة أخرى، ويكون متوقعًا أن تأخذ كل مجموعة دورها فى البلاط أربع مرات سنويًا .

كانت بلاد الصغد أيضا بلاد التجار . وقد شهدت الفترة من القرن الخامس إلى القرن الثامن أول ازدهار كبير «لطريق الحرير» البرى فيما بين الصين والغرب . «وطريق الحرير» مصطلح يحبه المؤرخون الرومانسيون وشركات السفر مستحضرين عالمًا من بضائع الرفاهية ، والمدن المكسوة باللازورد ، يفوح منها عبق التوابل وأريج

رحلات القوافل النيرة الطويلة عبر أكثر الطرق الأشد عزلة وجدبًا على سطح الأرض. والحقيقة أكثر واقعية . إذْ إن الطرق البرية بين الصين والغرب لم تكن تستخدم للتجارة سوى على فترات منقطعة ، وعلى مدى فترات كثيرة من العصور الوسطى كان الطريق البحرى من الشرق الأوسط عبر المحيط الهندى إلى الصين أهم كثيرًا فى التجارة . وكانت هناك فترتان تاريخيتان رئيسيتان عندما ظهر الطريق البرى وعندما صار طريق الحرير بؤرة كبرى للتجارة العالمية. وكانت أولى هاتين الفترتين قبل الفتوح الإسلامية مباشرة وفى أثنائها ؛ أما الفترة الثانية فكانت فى القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى عندما وفرت الإمبراطورية المغولية قدرًا من الأمن على امتداد الطريق ، مما شجع تجارًا من أمثال ماركو بولو على السفر .

وعلى أية حال، فإن التأكيد على الحرير ليس صياغة فارغة مبتذلة : لأنه يعكس حقيقة مهمة. فعلى الرغم من أن الإمبراطورية الصينية استخدمت الكثير من العملات البيزنطية، فإنها لم تكن تملك من العملات ذات القيمة العالية سوى القليل جدًا، من الذهب أو الفضة . وبدلاً من ذلك ، كان الحرير إلى جانب مكاييل القمح، يستخدم بديلاً عن العملة . والكثير من هذه «النقود» شقت طريقها إلى آسيا الوسطى. وفى القرن السابع كانت السلطات الصينية تحاول تقوية سيطرتها فى سكنيانج بإنفاق الكثير من الموارد بالدفع للموظفين والجنود. ويمكن أن نخرج من الوثائق القديمة التى تم إنقاذها من صحراء جوبى بالقرب من معبد بوذا الكبير فى دونهوانج ببعض المؤشرات عن كيفية عمل هذا . وهناك مثال يصف ضابطًا بالجيش فى سنة ٧٤٥م كانت الحكومة المركزية مدينة له بمائة وستين كيلو جرامًا من العملة البرونزية عن راتبه فى نصف سنة[٨]. ومن خلال الدفع له بواسطة الحرير الخفيف الذى يمكن نقله بسهولة فقط، كان يمكن لهذا النظام أن يكون عمليًا . إذ إن الموظف سيكون قادرًا عندئذ على أن يبيع الحرير إلى التجار الصغد فى مقابل الفضة أو البضائع المجلوبة من الغرب. أما الصغد بدورهم فكانوا يحملون الحرير إلى أسواق إيران وبيزنطة . ومن المؤكد أن السيطرة على هذه التجارة الغنية كانت من أهم الأسباب التى جعلت العرب مصرّين على هذا النحو على مد سلطانهم فى هذه المنطقة البعيدة.

أما الجزء الرابع ، والأبعد ، من بلاد ما وراء النهر فكانت الأراضى الواقعة حول نهر سيرداريا الحديث (سيحون) ، وهى الآن جزء من أوزبكستان وقازقستان . وتقع هذه الأراضى على مسافة مائة وستين كيلو متراً شمال بلاد الصغد عبر السهول المعروفة باسم مناطق الإستبس الجائعة ، حيث تبدو آثار الزحف عبر الصحراء شاخصة فى العظام التى حال لونها إلى البياض للرجال والحيوانات الذين هلكوا على طول الطريق . وإذ كان نهر «سيرداريا» أصغر من نهر «أموداريا» ويمكن خوضه فى عدة أماكن ، فإنه كان يروى أراضى إمارة الشاش (طشقند الحديثة)، وعلى مسافة أبعد شرقًا ، سهول وادى فرغانة الشاسع المفتوحة. وفيما وراء ذلك، وعلى الجبال ، تقع كاشغر وأراضى الإمبراطورية الصينية.

ويوصف بدو آسيا الداخلية عامة فى المصادر العربية بأنهم الأتراك ، وحدث فى أثناء غزوات العرب أن واجهوا هؤلاء القوم للمرة الأولى، وكان مقدراً لهم أن يتركوا مثل هذا التأثير العميق على الثقافة الإسلامية[٩]. والعلاقة بين هؤلاء الأتراك وسكان تركيا الحديثة ليست مباشرة وواضحة . ففى زمن الغزو العربى، كانت تركيا الحالية جزءا من الإمبراطورية البيزنطية، وقيّض لها أن تبقى هكذا على مدى القرون الأربعة التالية. وفى حدود علمنا، لم يكن هناك تركى واحد يعيش هناك، وترجع أصول الأتراك إلى مناطق بعيدة فى الشرق. وفى منتصف القرن السادس الميلادى بدأت المؤرخات الصينية تشير إلى شعب يسمى Tu-chüch، كانوا يشيدون إمبراطورية فى أراضى الإستبس المعشوشبة الشاسعة شمال سور الصين العظيم صارت فيما بعد أراضى المغول . ويبدو أن مؤسس الإمبراطورية، حسبما جاء فى المؤرخات الصينية ، كان بومين الذى مات سنة ٥٥٢م، مع أخيه إيشتمى. ولدينا تأكيد لهذا فى سلسلة من النقوش الرائعة باللغة التركية القديمة ، منقوشة على حجارة وُجدت فى وادى نهر أورخون الذى يكسوه العشب فى منغوليا . وهناك ملك جاء فى فترة لاحقة كتب على الحجر سجلاً للأيام المجيدة لمؤسسى الأسرة الحاكمة :

«عندما تم خلق السماوات الزرقاء فى الأعلى وخلقت الأرض البنية فى الأسفل ، فيما بينهما خُلق أبناء الإنسان. وفوق جميع بنى الإنسان يقف أجدادى الكاغان(*) بومين وإيشتمى. ولما صارا سيدين على شعب الترك ، أسسا الإمبراطورية وحكماها وأرسيا دعائم القانون فى البلاد. وكان أعداؤهما كُثر ، ولكنهما أخضعاهم بالحملات العسكرية التى جرداهما ضدهم ، كما نشرا السلام بين أمم كثيرة فى أركان الدنيا الأربعة. وأجبراهم على أن يحنوا رؤوسهم ويثنوا ركبتهم . كان هذان حاكمين حكيمين (كاغان)، كانا كاغانات شجعان: وكان جميع ضباطهما حكماء وجسورين؛ أما النبلاء ، والناس جميعًا، والشعب فكانوا عادلين. كان هذا هو السبب فى أنهما تمكنا أن يحكموا إمبراطورية فى مثل هذه العظمة، ولماذا تمكنا من فرض القانون إبان حكمهما الإمبراطورية[١٠]» .

لم تقم قوة الأتراك على أساس العدالة والبسالة الفردية فحسب وإنما قامت على ما هو أكثر من هذا. فقد تأسست على مهارات أولئك البدو الذى تميزوا بالصلابة بوصفهم محاربين فرسان، وبوصفهم رماة راكبين أولاً وقبل كل شىء . إذ كان الأتراك الأوائل بدو خيل ؛ يعيشون على خيولهم ، يشربون لبن إناث الخيل، ويأكلون لحوم الخيول ، وفى الحالة القصوى قد يفتحون عروقها ويشربون دماء الحيوانات الحية . وغالبا ما يركب التركى الحصان قبل أن يتعلم المشى. وبالإضافة إلى كونهم فرسان مهرة ، كانوا شديدى الصلابة بشكل لايصدق . إذ تتم تربيتهم فى الحرارة القائظة والبرودة القارصة فى جوف آسيا، فإنهم يستطيعون تحمل الصعاب التى يمكن أن تودى بحياة غيرهم من الناس.

وقد جاء وصف أساليب القتال لدى الترك فى بداية القرن السابع فى كتاب الاستراتيجية Strategikum الذى يُنسب إلى الإمبراطور البيزنطى موريس ، وكتب مؤلفه : «إن أمة الترك أمة كثيرة العدد ومستقلة . وهم ليسوا بارعين أو مهرة فى معظم

(*) أى الخاجان ، ومرادفها «خان» كانت ألقاب تركية تقليدية معناها الحاكم أو الرئيس .

الأعمال الإنسانية ، ولا دربوا أنفسهم على أى شيء سوى توجيه أنفسهم بشجاعة ضد أعدائهم... ولديهم صيغة ملكية للحكم ويوقع حكامهم عقوبات قاسية عليهم جزاء أخطائهم . ولأن الخوف يحكمهم وليس الحب، فإنهم يتحملون الأعمال والمصاعب بإخلاص . وهم يتحملون الحرارة والبرد والعوز إلى الكثير من الضروريات، لأنهم قوم من البدو . وهم يؤمنون تمامًا بالخزعبلات ، وخونة ، فاسدين، لا دين لهم ، تتملكهم رغبة نهمة فى الثروة. ولايحترمون عهودهم، ولا يحافظون على معاهداتهم، ولا ترضيهم الهدايا. وحتى قبل أن يقبلوا الهدية، يضعون الخطط للخيانة ولنقض اتفاقياتهم. وهم بارعون فى تقدير الفرص المناسبة لفعل هذا والاستفادة منه تمامًا . وهم يفضلون أن يسودوا على أعدائهم بالخديعة والهجمات المفاجئة وقطع الإمدادات أكثر من اعتمادهم على القوة».

«وهم مسلحون بالزرد والسيوف والأقواس والحراب؛ وتتدلى الحراب فوق أكتافهم ويمسكون القسى فى أيديهم ، ليستخدموا الإثنين حسبما تدعو الحاجة . ولا يلبسون الدروع حول أجسادهم فحسب، وإنما يغطون أيضًا خيول قادتهم من الأمام بالحديد أو اللباد. ويهتمون اهتمامًا خاصًا بالتدريب على الرمى بالسهام من فوق ظهول الخيل.

«ويتبعهم قطيع هائل من الخيول ذكورًا وإناثًا لتوفير الغذاء لهم ولكى تعطى انطباعًا بضخامة الجيش أيضًا . وهم لا يعسكرون داخل المبانى مثلما يفعل الفرس والرومان، ولكنهم حتى يوم المعركة ينتشرون وفقًا للقبائل والعشائر ، ويرعون خيولهم صيفا وشتاء باستمرار . ثم يأخذون ما يظنون أنهم يحتاجون إليه من الخيول، ليربطوها إلى جوار خيامهم ، ويحرسونها حتى يحين تشكيل صف القتال، الذى يشكلونه تحت ستر الليل. ويقيمون حراسهم على مسافات متقاربة ليكون كل منهم على اتصال بغيره، بحيث لا يكون من السهولة مباغتتهم بالهجوم.

«وفى الاشتباك ، لا يشكلون صفوفهم فى أقسام ثلاثة، على نحو ما يفعل الرومان والفرس، وإنما فى عدة وحدات من أحجام غير منتظمة ، وكلها مربوطة إلى بعضها

البعض عن قرب لكى تعطى مظهر خط قتال واحد طويل. ولديهم قوة إضافية ، منفصلة عن قوتهم الرئيسية ، يمكن إرسالها فى كمين لعدو غير محترس أو تبقى احتياطيًا لمساعدة قسم يتعرض لضغط شديد. ويبقون خيولهم الاحتياطية قريبة خلف خطهم الرئيسى وقافلة أمتعتهم إلى اليمين أو اليسار على مسافة حوالى ميل، أو ميلين تحت حراسة ذات حجم معقول . وكثيرا ما يربطون الخيول الزائدة سويًا إلى المؤخرة من خط قتالهم لتوفير شكل من أشكال الحماية.

«وهم يفضلون المعارك التى يخوضونها على مدى طويل، والكمائن ، والإحاطة بخصومهم، والتقهقر المصطنع والعودة المفاجئة ، والتشكيلات التى تشبه الوتد ، أى فى مجموعات مبعثرة . وعندما يجبرون أعداءهم على الفرار، يتركون كل ماعدا ذلك ، ولايقنعون مثل الفرس والرومان وغيرهم من الشعوب، بمطاردتهم إلى مسافة معقولة ونهب ما معهم، ولكنهم لايتركونهم حتى يحققون الدمار الكامل لأعدائهم، ويستخدمون كل وسيلة لتحقيق هذه الغاية. فإذا ما لجأ بعض أفراد العدو الذى يطاردونه إلى قلعة فإنهم يبذلون جهودًا مستمرة متواصلة لكى يكتشفوا أى نقص فى الضروريات اللازمة للخيول أو للرجال. ثم ينهكون أعداءهم بمثل هذا النقص ويجبرونهم على قبول الشروط التى تناسبهم. ومطالبهم الأولية خفيفة تمامًا ، وعندما يوافق العدو عليها يفرضون شروطًا أشدَّ وطأة.

«ويكونون عرضة لنقص الأعلاف الذى يمكن أن ينتج عن العدد الضخم من الخيول التى يجلبونها معهم. وكذلك فى حالة المعركة، عندما يواجهون بقوة من المشاة فى تشكيل متماسك، فإنهم يظلون فوق خيولهم ولا يترجلون، لأنهم لايصمدون طويلاً فى القتال على الأقدام . فقد تمت تربيتهم على ظهور الخيل، وبسبب نقص تدريبهم ، فإنهم ببساطة لا يمكنهم السير كثيرًا على أقدامهم»[١١].

كان هؤلاء المحاربون الأشداء هم الذين واجههم العرب عندما عبروا نهر أموداريا الكبير، وانبهروا بهم.

وفيما بين سنة ٥٥٧م وسنة ٥٦١م ، تحالف الترك تحت قيادة أخى بومين وخليفته إيشتمى، مع الشاه الساسانى كسرى الأول (٥٣١- ٥٧٩م) لتدمير الشعب البدوى الذى يعرفه التاريخ باسم الهبثاليين Hepthalites ، الذين كانوا سادة مناطق الإستبس فيما وراء النهر على مدى قرن من الزمان. وقد جلب هذا القوة التركية إلى حدود الإمبراطورية الفارسية مباشرة. بل كان هناك زواج تحالف بين الشاه الساسانى وابنة الخاجان إيشتمى. وفى الوقت نفسه، قامت صلات دبلوماسية بين الأتراك والبيزنطيين، من أجل إنشاء تجارة فى حرير آسيا الوسطى عبر أراضى الإستبس شمال البحر الأسود.

هذه الإمبراطورية التركية العظمى الأولى لم يقدر لها أن تستمر . إذ إن المنازعات فيما بين أفراد العائلة الحاكمة أدت إلى نشوب حرب أهلية . وبحلول سنة ٥٨٣م كان الأتراك الغربيون قد انفصلوا عن أبناء عمومتهم الشرقيين وكانت خانية تركية منفصلة قد تأسست فى بلاد ما وراء النهر. وكان الخان التركى «تونج ينبغو» ما يزال حاكمًا عظيمًا عندما جاء حاج صينى بوذى اسمه «هسونج - تسانج» مارا بأراضيه وقابله شخصيًا ، ولكنه اغتيل بعد ذلك بوقت قصير وبدأت الخانية الغربية تتداعى وتنهار. وفى وقت وصول الجيوش العربية عند بداية القرن الثامن الميلادى، كان زعيم الترك ، تورجش خان، رئيسًا بدويا يعترف بالسيادة العليا للإمبراطور الصينى. وعلى الرغم من انهيار إمبراطوريتهم ، فعندما تحالف الترك البدو فى بلاد ما وراء النهر مع الأمراء الإيرانيين المحليين، برهنوا على أنهم ربما كانوا أشرس معارضة واجهها المسلمون على الإطلاق .

وكان فى هذه الفسيفساء من الشعوب المحاربة والثقافات الحربية المستقرة فى الأرض الشاسعة المتنوعة أن وصلت أولى الطلائع العسكرية العربية الأولى فى مطلع خمسينيات القرن السابع الميلادى.

كانت الاختراقات العربية الأولى عبر النهر حملات إغارات بسيطة ، هدفها الحصول على الجزية . والمصادر العربية غالبًا ما تقدم هذه الإغارة باعتبارها فتوحًا حقيقية كما أن المقاومة التالية للهجمات الأكثر انتظامًا فتقوم على أنها حوادث تمرد

ضد السلطة الإسلامية . وقد وصلت هذه الغارات الأولى حتى سمرقند ، ولكنها واجهت مقاومة شديدة وانسحبت الجيوش العربية قبل حلول الشتاء. وقد أتاح هذا الانسحاب للأهالي المحليين بعض الراحة لالتقاط الأنفاس، ونعرف أن «ملك خراسان» قابل القوات وانضم إليها، واتفقوا على ألا يهاجموا بعضهم بعضًا، ولكن على أن يتبادلوا المعلومات ويتعاونوا ضد الغزاة[١٢]. وكان مثل هذا التعاون نادرًا فى السنوات التالية .

وكان لموت أحد العرب فى هذه السنوات الباكرة من التوغل العربى عبر النهر عواقب غير متوقعة ولكنها كانت باقية. فقد قيل إن من بين المسلمين الذين قتلوا فى سمرقند فى الغارات الأولى كان قثم بن العباس، عم النبى محمد[١٣]. ولم يكن قُثم يتمتع فحسب بالمكانة المرجوة باعتباره من الصحابة ولكنه كان أيضًا أول أبناء عمومته. وعلى الرغم من أصله ونسبه وروابطه الرفيعة، فقد عرف بتواضعه ورفضه قبول أكثر من نصيبه العادى من الفيئ لنفسه ولفرسه . وعلى الدوام كانت ذكراه مبجلة بين مسلمى آسيا الوسطى، مهما كانت إنجازاته متواضعة ، ويُنظر إليه على أنه جلب نوعًا من جاذبية الدائرة المباشرة المحيطة بالنبى إلى هذه الأراضى النائية ، وهى رابطة مباشرة بين النبى محمد ومسلمى ما وراء النهر. وظهرت أسطورة تقول إنه لم يمت وإنما عاش فى مقبرته، فى أعماق أسوار سمرقند العتيقة المشيدة بالطوب اللبن وأطلق عليه اسم «الملك الحى» (شاهى زندا)، وفى عصر تيمورلنك (أواخر القرن الرابع عشر الميلادى / الثامن الهجرى) صار قبره مركزا لمجمع من المقابر دفن فيه أمراء وأميرات بلاط تيمورلنك . وتبقى أضرحتهم بقبابها الزرقاء والتركوازية من بين أفخم وأروع الأمثلة للعمارة الفارسية والزخرفة الفارسية فى أى مكان.

وفى سنة ٦٧١م رتب زياد بن أبى سفيان، والى العراق والشرق كله، لخروج خمسين ألف رجل من العراق، معظمهم من البصرة ، قاصدين مرو لتخفيف الضغط على الموارد. وحتى ذلك الوقت، كانت الجيوش العربية تأتى إلى خراسان سنويًا ، ثم تعود إلى العراق كل شتاء، ولاتترك سوى قوة صغيرة للدفاع عن المدينة. وقد غير وصول هذا العدد الكبير من العرب بقصد الإقامة الدائمة من طبيعة الوجود الإسلامى فى المنطقة . وربما كان عدد العرب المستقرين فى مرو والبلدات والقرى المحيطة بها

أكبر من عددهم فى باقى أنحاء إيران. وكانوا يتعطشون طموحًا إلى الثروة والمغامرة : وكان قدر هؤلاء الرجال أن يشكلوا قلب الجيوش المسلمة الغازية فيما وراء النهر.

وكان تعيين سلم بن زياد واليًا على خراسان سنة ٦٨١م علامة على أن الاختراقات عبر النهر قد باتت كثيرة ومتعمدة . وانطلق فى استعداداته على نحو منهجى، وكون جيشًا من عدة آلاف من الرجال من العرب المستقرين . وكان كثير من هؤلاء متطوعين أرادوا المشاركة فى الجهاد ولكن الحماسة لم تغلبهم : وهناك رجل[١٤]، هو صلة بن أشيم العدوى كان «... يأتى الديوان فيقول له الكاتب : يا أبا الصهباء ألا أثبت اسمك فإنه وجه فيه جهاد وفضل ؟ فيقول له: أستخير الله وأنظر، فلم يزل يدافع حتى فرغ من أمر النانس ، فقالت له إمرأته معاذة ابنة عبدالله العدوية: ألا تكتب نفسك؟ قال فرأى فى منامه آتيًا آتاه، فقال هل : اخرج فإنك تربح وتفلح وتنجح ، فأتى الكاتب فقال له : أثبتنى؛ قال فرغنا ولن أدعك ، فأثبته وابنه»(*).

ولدينا تفاصيل قليلة عن الحملة بغض النظر عن حقيقة أن «سلم» كان أول رجل يمضى الشتاء فيما وراء النهر ، ربما فى سمرقند ، مع رجاله . وهاجم الجيش خوارزم وأخذ منها الجزية قبل العبور إلى الصغد ، حيث عقدوا الصلح . ووفقا لتراث بخارى، هاجم «سلم» المدينة، وأجبر الملكة خاتون على أن تطلب الصلح، ولكن التفاصيل مرتبكة تمامًا[١٥]. وكان سلم قد أخذ زوجته معه وفى سمرقند وضعت طفلاً أطلقت عليه اسم «صغدى» تخليداً لذكرى مسقط رأسه. وأرسلت إلى زوجة صاحب الصغد تطلب استعارة بعض لوازم الطفل فأرسلت لها تاجها. وعندما تقهقر الجيش المسلم أخذت زوجة «سلم» التاج معها[١٦]. وهذا يوضح أن العلاقات بين الطبقات العليا العربية والإيرانية لم تكن عدائية دائمًا وأن زوجتى العدوين رأيتا أنهما متساويتان، على الرغم من أن التاريخ لم يحفظ لنا رد فعل الملكة الصغدية إزاء خسارتها لتاجها بصفة دائمة.

(*) النص من الطبرى، ج٥ ، ص٤٧٢ – ص٤٧٣ .

وقد توقفت كافة خطط سلم المحتملة لمواصلة الفتح فجأة ، بسبب الفوضى التى أنشبت مخالبها فى الفترة التى أعقبت وفاة الخليفة الأموى يزيد بن معاوية سنة ٦٨٣م. وكانت عائلة «سلم» تتولى قيادة مؤيدى الخليفة المتوفى، فترك خراسان آنذاك ليشق طريقه عائداً نحو الغرب ، يريد المشاركة فى المناقشات الدائرة حول ولاية العرش. وتُرك العرب فى خراسان دونما قائد رسمى، واندلعت المنافسات القبلية ، التى كان يحتويها الولاة، بضراوة مدهشة . وكانت هناك ثلاث جماعات قبلية رسمية ممثلة فى خراسان - مضر، وربيعة، وبكر بن وائل - وبدأوا فى ذلك الحين صراعاً مستعراً من أجل السيطرة على الولاية . وتولى عبدالله بن خازم المضرى زمام السلطة فى مرو . وأمر بقتل اثنين من رؤساء ربيعة . وبذلك صار هناك دم بين الجماعتين وباتت الحرب حتمية . وقد عادت جميع الخصومات القبلية التى شهدتها الجزيرة العربية قبل الإسلام للظهور فى هذا الموقع النائى من العالم المسلم، وزادت حدتها بسبب التنافس على الثروة فى البلاد المفتوحة . وبدأ غزاة القرن السابع هؤلاء يتنازعونها فيما بينهم.

وفرت قبيلتا ربيعة وبكر من مرو جنوبا إلى هرات ووطدوا أنفسهم هناك فى هذه المدينة العتيقة، وتبعهم عبدالله. وأقسم رجال القبائل الهاربون أنه لا مكان لمضر فى خراسان. وعلى مدى سنة كاملة تصدوا لقوات عبدالله. وعندما اخترق عبدالله صفوفهم فى النهاية، جرت عليهم مذبحة . وأقسم ليعدمن جميع الأسرى الذين يتم إحضارهم إليه قبل غروب الشمس، وقد كان عند كلمته . وقيل إنه ذبح ثمانية آلاف من ربيعة وبكر. ولم تعد الأمور فى خراسان إلى ما كانت عليه أبداً[١٧] ونشبت الحروب فيما بين القبائل العربية بوحشية ضارية ، حتى فى الوقت الذى كانت الجيوش الإسلامية تقوم بغزو مناطق جديدة. وعندما وصلت أنباء المذبحة إلى البصرة البعيدة، والتى كانت الوطن الأصلى لهؤلاء الرجال، أثارت دورة جديدة من العنف بين القبائل فى المدينة[١٨].

فى ذلك الحين بات عبدالله سيداً على خراسان ، ولم يكن مسئولاً أمام أحد سوى نفسه ، ولكن المتاعب كانت تختمر . وظن أن بوسعه الاستغناء عن مساندة قبيلة تميم القوية : فقد أهين عدد من أبناء القبيلة وحلفائهم ، وتم جلد اثنين منهم بالسياط حتى الموت. وعلى سبيل الانتقام خطفوا ابن عبدالله محمد الذى كان مسئولاً عن «هرات».

وبينما كان ملقى مقيداً فى معسكرهم تلك الليلة، جلسوا يشربون ، فإذا أراد أحدهم أن يتبول، فعلها على سجينهم وقتلوه قبل الفجر[١٩].

وإذْ أهين عبدالله وتملكته الرغبة فى الانتقام ردَّ لهم الضربة وتجددت الحرب فيما بين العرب بمزيد من الكثافة. بيد أنه كان لا يزال هناك مكان للفروسية القديمة على أية حال. فقد كان عبدالله رجلا تتكاثر حوله القصص . وفى إحدى هذه القصص وافق على مبارزة فردية مع واحد من زعماء المعارضة اسمه الحريش[٢٠] (الحُريش بن هلال) «... فتصاولا تصاول الفحلين، لايقدر أحد منهما على ما يريد..» ثم غفل عبدالله فضربه الحرُيش على رأسه . ولم يساعد عبدالله سوى انقطاع ركاب خصمه فهرب، عائداً إلى قومه وهو يحتضن رقبه فرسه[٢١]. وفى القتال العام الذى أعقب ذلك، انتصر رجال عبدالله، وأمسك بخصمه الذى تخلى عنه الجميع ولم يبق معه سوى اثنى عشر رجلاً ، صمدوا فى حصن مهجور وقد عقدوا العزم على الدفاع عن أنفسهم. وعرض عبد الله الصلح . وكان على خصمه أن يغادر خراسان ، وأن يدفع عبدالله أربعين ألف درهم ويتم دفع ما عليه من ديون . وبينما كان يناقشون شروط الصلح سقطت الضمادة التى حول رأس عبدالله بن خازم، والتى كانت تحمى الجرح الذى أصيب به فى المبارزة. وانحنى الحريش ليلتقطها ويضعها على رأسه «... فقال له ابن خازم : مَسُّك اليوم يا أبا قدامة ألين من مسِّك أمس، قال: معذرة إلى الله وإليك، أما والله لولا أن ركابى انقطعا لخالط السيف أضراسك. فضحك ابن خازم ، وانصرف عنه وتفرق جمع بنى تميم...».

وقال الحريش فى قتاله ابن خازم:

أزال عظم يمينى عن مركبه	حمل الرُّدينى فى الإدلاج والسحر
حولين ما اغتضمت عينى بمنزلة	إلاّ وكفى وساد لى على حجر
بزّى الحديد وسربالى إذا هجعت	عنى العيون محال القارح الذَّكر[٢٢](*)

(*) النص من الطبرى ، ج٥ ، ص٦٢٥ – ص٦٢٦ . (المترجم)

على هذا النحو كان يروق للبدو أن يتذكروا أبطالهم : أشداء، منعزلين ، يعتمدون على أنفسهم، وجسورين. كانت هذه الروح هى التى أخذت الجيوش العربية إلى حدود الصين.

وعلى أية حال، لم يكن ممكنا أن يكون هناك مزاح مع الرجال قتلوا ابن عبد الله وطاردهم فى قسوة لاترحم . ولجأوا إلى القلعة المبنية بالطين فى مدينة ميرفرود الصغيرة على ضفاف نهر المرغاب. وكان يقود الدفاع رجل يسمى الزهير كان جسورا ومغامراً ، وكان يشن هجمات على امتداد النهر الجاف ليفاجئ رجال عبد الله، وهو يحلف أن يطلّق امرأته إذا لم يكسر صفوف عبدالله. وفى إحدى المناسبات كان عبد الله قد أمر رجاله أن يضعوا خطاطيف فى رماحهم لكى تشتبك فى سلاسل الزرد التى يرتديها زهير ويسحبوه . وقد اشتبكت أربعة رماح فى كسوة الزرد التى يتدرع بها ولكنه كان قوياً بحيث استعصى عليهم، وسحب الرماح من قبضاتهم وعاد إلى قلعته ، واحتفظ بالرماح التى كانت تتدلى من سلاحه على سبيل التذكار(٢٣).

وكان للحصار الذى استمر سنة كاملة أن يستوفى ضريبته وكان اللاجئون على وشك الاستسلام . وحثهم زهير على الخروج للقتال واختراق صفوف عبد الله التى تفرض احصار، ثم قال إن طريقهم سيكون واضحاً مثل المربد ، الميدان الكبير المفتوح فى موطنهم البصرة على مسافة ألف كيلو متر . بيد أنه لم يستطع أن يحشد ما يكفى من التأييد بين المدافعين، الذين فضلوا الاستسلام والركون إلى الثقة فى رحمة عبدالله. وفتحوا البوابات ونزلوا وأيديهم مقيدة وجئ بهم إلى عبدالله . وتمضى القصة لتقول إنه حتى فى ذلك الحين كان على استعداد لأن يكون رحيماً معهم، ولكن ابنه الباقى موسى، الذى كان يقف إلى جانبه ، كان عديم الشفقة «... فأبى ابنه موسى ، وقال : والله لئن عفوت عنهم لأتكئن على سيفى حتى يخرج من ظهرى، فقال له عبد الله: أما والله إنى لأعلم أن الغيّ فيما تأمرنى به، ثم قتلهم جميعًا إلا ثلاثة...»(*) وهكذا مرة أخرى ،

(*) النص من الطبرى ، ج٦ ، ص٧٨- ص٨٠ . (المترجم)

خضع عبد الله لابنه الحاقد . وكان لزهير مطلب أخير: «... فقال له زهير: إن لى حاجة، قال: وما هى؟ قال: تقتلنى على حدة، ولا تخلط دمى بدماء هؤلاء اللئام ، فقد نهيتهم عمّا صنعوا وأمرتهم أن يموتوا كرامًا ، وأن يخرجوا عليكم مصلتين، وايم الله لو فعلوا لذعروا بُنَيّك هذا ، وشغلوه بنفسه عن طلب الثأر بأخيه فأبوا، ولو فعلوا ما قتل منهم رجل حتى يقتل ...»(*) وهكذا أخذ على حدة وتم قتله بشكل منفصل .

وطالما كانت الحرب الأهلية مشتعلة فى العراق والشام ، قلب الخلافة ، حكم عبدالله خراسان كأنها ضيعة خاصة ، ولكن بحلول سنة ٦٩١م، أحكم الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥م) سيطرته على دمشق وعقد العزم على استعادة قوة الحكومة المركزية. وكان جزء من خطته أن يقيم حكما فعّالاً على خراسان والمحاربين العرب الجامحين فيها . وبدأ بالتفاوض ، فكتب إلى عبد الله ، يعرض عليه شروطًا معقولة للغاية: أن يأخذ عائدات الولاية «طُعمة» له على مدى سبع سنوات . ولكن عبدالله كان متكبرا بحيث لايقبل الشروط ، وأمر الرسول أن يأكل خطاب الخليفة إيماء إلى احتقاره له. وفى الوقت نفسه ، بدأ الخليفة اتصالاته مع المنافسين المكنين فى الولاية. وتم تشجيعهم على التمرد ضد الطاغية . وبدأ الذعر يتملك عبدالله وغادر العاصمة فى مرو ليحاول الانضمام إلى ابنه موسى فى ترمذ. وقطع عليه أعداؤه الطريق. وانتهت المعركة فى منتصف النهار. وتم تثبيت عبدالله إلى الأرض بسن رمح على حين جلس رجل على صدره واستعد لقتله ، انتقامًا لقتل أخيه . ولم يكن عبدالله قد انتهى تمامًا بعد فبصق فى وجه قاتله مهمهمًا إن أخاه كان مجرد فلاح ، لا يستحق حفنة من نوى البلح، على حين أنه هو ، عبد الله، زعيم قبيلة مضر. وإذ بقى جسورًا حتى الرمق الأخير تم قتله وقطعت رأسه . وقال أحد الأهالى إنه رأى جثته ، مربوطة إلى جانب بغل ، معها حجر على الجانب الآخر لموازنتها . وتم إرسال الرأس إلى الخليفة. ومن المؤكد أن

(*) النص من الطبرى ، ج٦ ، ص٧٨- ص٨٠ . (المترجم)

كثيرين فرحوا لمصرعه ولكن أبناء قبيلته رثوه فى حزن لأنه كان زعيما شجاعًا وكريمًا وقال أحد شعرائهم :

فقد بقيت كلاب نابحات ... وما فى الأرض بعدك من زئير[٢٤]

وبحلول سنة ٦٩٦م كان هناك وال جديد ، هو أمية الذى عينه الخليفة عبدالملك وكان من السلالة الحاكمة من بنى أمية، هادئا ، كريمًا ، محبًا للسلام ، وزعم أعداؤه أنه كان متأنقًا مخنثًا . وتعين عليه أن يخوض صراعًا قاسيًا لكى يبقى عرب خراسان الجامحين خاضعين للنظام. وكانت أكثر الطرق لتحقيق هذا أن يقودهم فى حملة عبر النهر لكى يشغل أذهانهم بالأفكار الخاصة بالجهاد والغنائم بدلاً من النزاع القبلى والثأر . وتمت الاستعدادات للقيام بحملة كبيرة ضد بخارى . وأنفق أمية مبلغا هائلاً من المال على الخيول والسلاح، ويقال إنه اقترض هذا المال من التجار الصغديين[٢٥] . وتكشف العملية عن كيفية تعقد العلاقات بين العرب والأهالى المحليين . فقد كانت بخارى واقعة داخل بلاد الصغد ، ومع هذا كان هناك بعض الصغديين على الأقل مستعدين لإقراض الأموال إلى العرب الذى كانوا يحاولون غزو موطنهم فى بلاد الصغد . وكانت الحملة فى نظر كثير من العرب أيضا مغامرة محفوفة بالمخاطر : ونعرف أن رجلاً اقترض مالاً ليجهز نفسه للانضمام إلى الحملة ولكن ، عندما قرر ألا يذهب ، سجنه دائنوه وسدد أحد أصدقائه الأثرياء ديونه لكى يخرج من السجن[٢٦]. والحقيقة أنه يبدو أن كثيرا من العرب وجدوا أنفسهم يواجهون صعوبات مالية، وشكوا من أن ملاك الأرض المحليين قد تولوا مسئولية جباية الضرائب ، مما جعل لهم بعض السلطة على الفاتحين[٢٧]. وبالنسبة للعرب الفقراء الساخطين كانت الغارة عبر النهر مع إمكانية الحصول على الغنائم الوفيرة اقتراحًا جذابًا للغاية.

وفى خضم الأحداث يبدو أن أمية لم يكن يتمتع باحترام قواته وثقتها وكانت الحملة إخفاقًا تامًا . فبعد أن عبر هو ورجاله على جسر من القوارب نهر أموداريا عند آمل ، رفض القائد الذى يليه أن يمضى وراءه أبعد من ذلك ، وعبر النهر عائداً مع بعض رجاله ، وحرق جسر القوارب واتجه للاستيلاء على مرو وعيّن نفسه واليًا .

وفشلت الدعوات بالتضامن الإسلامى فى التأثير عليه ولم يبال بالقلق حول مصير القوات المسلمة تحت قيادة أمية التى باتت حينذاك معزولة وراء النهر، قائلا إن لديهم الأعداد والسلاح والشجاعة وأن بوسعهم أن يمضوا حتى الصين إذا رغبوا[٢٨]. وتمت الإحاطة بقوات أمية وفى غمرة اليأس اضطر إلى عقد الصلح مع البخاريين «على فدية قليلة»[٢٩] وعاد ليتولى زمام الأمور . وبات واضحًا أن الشئون السياسية والمنافسات فيما بين العرب قد صارت أهم من الجهاد ونشر الإسلام. وأظهرت الأحداث بوضوح أن الحدود الشرقية الشمالية لم تكن مكانًا مناسبًا للقادة الهادئين الساعين إلى السلم. وسرعان ما تم سحب أمية من الولاية .

وحينئذ أعطيت خراسان ، ومعها قيادة الحدود الشمالية الشرقية إلى ساعد الخليفة الأيمن، الحجاج بن يوسف الثقفى القاسى الكفء، والى العراق والمشرق بأسره وأحد مهندسى الدولة الإسلامية الباكرة . وعين بدوره رجلاً يسمى «المهلب بن أبى صفرة» ليتولى القيادة فى خراسان . وكان المهلب شخصًا ذا قوة تكاد تكون أسطورية فى ميدان المعركة وله سمعة ذائعة فى القيادة. وقبيلته الأزد واحدة من أهم القبائل وأكثرها عددًا فى الشرق، كانت تبجله هو وعائلته باعتبارهم أعظم قادتهم وحرصوا على الحفاظ على ذكراه حية فى الأسطورة والأغنية. وكان قد اكتسب شهرته من القتال فى حرب عصابات فى جنوب إيران ، وكانت حملات قاسية غير مجزية فى بلاد صعبة. وكان يُعزى إليه الفضل أيضًا فى إدخال الركاب المعدنى فى جيوش المسلمين.

وجاء المهلب بابنه يزيد معه . وكان متوقعًا بطبيعة الحال أن يشن الوالى الجديد حملة فى بلاد ما وراء النهر لكى يوفر فرصة الحصول على الغنائم(*): فلم يكن أبناء قبيلته من الأزد الذين جلبهم معه من العراق ولا العرب المقيمين منذ وقت طويل فى الولاية يتوقعون شيئًا أقل من ذلك. واختار كش هدفا له . وقد عُرفت كِش منذ القرن

(*) هناك إصرار عجيب من جانب المؤلف على الإيحاء بأن الرغبة فى الحصول على الغنائم كانت الدافع الوحيد وراء النشاط العسكرى للمسلمين فى تلك الأنحاء، ومع أن مصادره تخذله فى هذا الموقف فإنه يلح عليه بشكل يثير الدهشة. (المترجم)

الخامس عشر الميلادى باسم شاهرى سابز (المدينة الخضراء) ، واشتهرت فيما بعد بأنها مسقط رأس تيمور لنك الفاتح العظيم. وهى تقع فى وادٍ خصيب عند سفح الجبال التى ترتفع فى الشمال والشرق. ولم تكن واحدة من أهم المدن فى بلاد ما وراء النهر ، ولكنها كانت لا تزال جائزة كبيرة. ويبدو أن المهلب قد تصرف بحذر شديد. فقد حاصر المدينة على مدى سنتين ، ورفض النصيحة بأن يتجاوزها ويتوغل فى بلاد الصغد . وفى النهاية انسحب مقابل جزية من المال[٣٠]. ولم يكن من السهل الاستيلاء على مدن الصغد.

وقد تركت الفوضى ونقص التوجيه فرصًا مفتوحة أمام الرجال الأكثر مغامرة وتجردًا من الأخلاق ولم يكن هناك من هو أكثر مغامرة وانعدامًا للأخلاق من موسى، ابن الوالى القديم عبد الله بن خازم. وأقام لنفسه موضعًا على حدود العالم المسلم، فى أرض الحدود بين عالم الغزاة العرب وعالم الأمراء القدامى فى المنطقة. وهو يشبه على نحو ما السيد El Cid(*) فى إسبانيا القرن الحادى عشر، يعمل على الأطراف ، وكان سعيدًا بعقد التحالف مع أى شخص يمكن أن يساعده ، جشعًا يسعى إلى المال وكريمًا مع أتباعه. وتمامًا مثل السيد كان موسى موضوع ترجمة، أو ملحمة للأعمال البطولية ، وهكذا وصلت إلينا شهرته .

وقد تم تحرير ملحمة موسى بن عبدالله بن خازم بالشكل الذى لدينا الآن على يد المدائنى العظيم بعد أكثر من قرن على الأحداث . ومن الواضح أنه استخدم مصادر أقدم ولكنه لا يقدم أسماء مصادره[٣١]. وللقصة أساس من الحقيقة كما هو واضح ، ولكن هناك عناصر كثيرة تبدو خيالية ، بل أسطورية، وحتى هذه توفر لنا نظرة ثاقبة على عقليات الحدود فى الزمان والمكان . وعلى خلاف الكثير من النصوص التاريخية

(*) أحد صغار النبلاء القشتاليين واسمه Ruy Diaz de Bivar ، عمل فى خدمة الملك ألفونسو السادس ، كما عمل فى خدمة حاكم سرقسطة المسلم وأحرز شهرة واسعة فى معاركه ضد نصارى إسبانيا، وفى تلك الفترة عرف باسم El cid وهو اشتقاق من كلمة «السيد» العربية. ويعرف أيضا باسم السيد القمبيطور Campeador ودارت حوله ملحمة أسطورية جعلته مسيحيًا تقيًا كرَّس حياته لقتال أعداء المسيح. (المترجم)

العربية الباكرة ، فإن القصة عبارة عن سرد طولى ، لا يقطعه الإسناد أو الروايات البديلة . وهى تحكى حكاية مغامرات موسى، وحكمه لمدينة ترمذ وعلاقاته مع العرب وغير العرب على السواء ثم سقوطه فى النهاية. أما أخطاء موسى، وخاصة الطريقة التى انحنى بها أمام الضغوط من جانب أتباعه العرب ضد حكمه وتقديره الأفضل ، فلم يتم تفسيرها ، ولكنه يظهر بوضوح فى صورة البطل المحتال للرواية بأسرها . وتوضح الملحمة أن موسى كان يلقى مساندة من العرب ومن غير العرب، من المسلمين ومن غير المسلمين على السواء ، وفى الوقت نفسه، توضح أن كثيرا من أعدى أعدائه كانوا من العرب. وتم تفسير الشئون السياسية فى حياته التى مرت كالشهاب فى ضوء مصطلحات الهوية العرقية (العرب وغير العرب، والأتراك) والمنافسات القبلية . ولا يرد ذكر للدين على الإطلاق . ولم يكن هذا جهاداً ولم يزعم موسى أبداً ذلك. وربما يكون قد بنى مسجداً فى ترمذ وربما يكون قد صلى فيه، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فإنه لم يرد له ذكر فى المصادر. وعلى النقيض من كثير من الروايات عن الفتوح الباكرة ، لا يرد ذكر الحماسة للإسلام وثواب الآخرة . والقيم التى تنال التمجيد والإطراء هى قيم الشجاعة فى المعركة، والولاء للقرابة والرفاق، والتحمل والدهاء . كان عالم الحدود هذا بيئة مركبة معقدة حيث كانت التحالفات والانحيازات تتحول بسرعة ، حيث يعقد المسلمون وغير المسلمين تحالف ضد مسلمين وغير مسلمين آخرين، وحيث يحتل الجهاد مكانة ثانوية بعد الطموح الشخصى والرغبة فى الثروة والسلطة.

وكان موسى قد استولى على المدينة الحصن ترمذ فى أثناء حياة أبيه . وتقع ترمذ حيث يجرى نهر أموداريا سريع الجريان حول التلال المنخفضة والأسوار الطينية الصفراء المغبرة للقلعة، فى مواجهة جزيرة بالنهر تجعل من المكان مكانًا سهل العبور. وعلى امتداد القلعة المستطيلة[٣٢] كان هناك ربض مسوّر خارجها . وكان الإغريق قد أطلقوا عليها اسم الإسكندرية على نهر جيحون وفيما بعد تحت حكم الكوشان تم بناء عدد من الأبراج البوذية حولها . وتم هجران موضع المدينة القديمة منذ الغزو المغولى فى عشرينيات القرن الثالث عشر الميلادى/السابع الهجرى .

وربما كانت قوة القلعة والموقع الاستراتيجى عند معبر نهر أموداريا هو الذى جذب موسى إلى الموقع . وهناك وطد نفسه وتحدى القادمين جميعًا. وقد تم تصويره فى صورة الشخص المتوهج الأكبر من الحياة الذى يذهب إلى المعركة بعصابة حريرية حمراء حول خوذته ، فى أعلاها ياقوتة زرقاء(٣٢).

وكان قد جاء فى الأصل إلى ترمذ بمحض الصدفة تقريبًا . فعندما عبست الدنيا فى وجه أبيه وكان يخسر التأييد بين عرب مرو، أمره أبوه بأن يأخذ جميع متاعه ويضعه فى مكان أمين . وكان عليه أن يعبر النهر ويلجأ إلى أحد الأمراء المحليين أو يجد قلعة مناسبة ويحتلها. وانطلق ومعه مائتا فارس ، ولكن جماعته كانت تنمو كلما مضى مسافة أبعد. وعندما وصل إلى معبر النهر عند آمُل انضم إليه جماعة من الصعاليك (وليس واضحًا ما إذا كانوا من العرب أم من الإيرانيين) كما انضم إليه بعض الرجال من أبناء قبيلته . وصار عدد عصبته آنذاك أكثر من أربعمائة فرد. وعندها بات بحاجة إلى قاعدة يستقر بها هو ورجاله .

وكان أول مكان يحاول الاستيلاء عليه بخارى، ولكن أمير المدينة كان محقًا فى شكه وارتيابه فى موسى ونواياه «... وقال: رجل فاتك وأصحابه مثله أصحاب حرب وشر، فلا آمنه»(*) ولهذا أعطاه بعض المال وحيوانات الركوب وكسوة وصرفه . وبعد ذلك حاول موسى مع دهقان مدينة صغيرة بالقرب من بخارى. ومرة أخرى لقى استقبالاً باردًا ، وقال الدهقان إن الأهالى خائفون منه ولن يقبلوه . ومع هذا ، بقى لبضعة أشهر قليلة قبل أن ينطلق مرة أخرى بحثًا عن أمير مناسب أو قلعة مناسبة .

وفى سمرقند كان أسعد حظًا ، حيث كرمه الملك المحلى الطرخون وسمح له أن يبقى على أمل استخدام قدراته العسكرية ضد أعدائه . وكانت الأمور جيدة بحيث لم يكن ممكنًا أن تستمر طويلاً . وتمضى القصة لتقول إنه كانت هناك عادة محلية فى بلاد الصغد تقضى بأنه فى يوم معين من أيام السنة، تمد مائدة فيها طبق من اللحم

(*) الطبرى ، ج٦ ، ص٣٩٨- ص٣٩٩ . (المترجم)

والخبز وقدح فيه شيء من الشراب . وكان هذا طعام «ملك الصغد»، وكان هو الشخص الوحيد الذى يسمح له بتناوله . فإذا ما جرؤ أى شخص آخر على أن يأخذ شيئًا من الطعام، كان عليه أن يحارب الفارس والمائدة، ومن ثم يقاتل من أجل اللقب الذى سيؤول إلى من يقتل منهم الآخر. ولاحاجة بنا إلى القول بأن هذه كانت دعوة لم يكن أولئك العرب بصلابتهم وقسوتهم يستطيعون مقاومتها ، وجاء أحد رفاق موسى وجلس على المائدة، قائلا إنه سيحارب الفارس ويصبح هو «ملك بلاد الصغد» الجديد. «... وقيل لصاحب المائدة فجاء مغضباً فقال: يا عربى بارزنى ، قال: نعم وهل أريد إلا المبارزة ؛ فبارزه فقتله صاحب موسى، فقال ملك الصغد: أنزلتكم وأكرمتكم فقتلتم فارس الصغد، لولا أنى أعطيتك وأصحابك الأمان لقتلتكم ، أخرجوا عن بلدى ، ووصله...»(*).

وعندها صار موسى وأصحابه خارجين على القانون تماماً وكانت كل البلاد ضدهم. وعبروا الجبال جنوبًا إلى كيش. وهناك حمل الملك المحلى السلاح ضدهم وطلب المساعدة من طرخون سمرقند . وحارب موسى ورفاقه السبعمائة الملك يومًا بطوله وجرح عدد كبير من رجاله . وفى المساء بدأت المفاوضات . وجادل أحد رجال موسى الطرخون قائلاً إن قتل موسى لن يعود عليه بأية فائدة ؛ ولابد أنه سوف يفقد عدداً من أفضل رجاله ، فضلاً أن لموسى مكانة عالية بين العرب (وهى مسألة محل نظر فى تلك المرحلة) فإذا ما قتله لابد أن ينتقم العرب له . ومن جانبه قال الطرخون إنه ليس على استعداد للسماح لموسى بأن يبقى فى كيش، التى كانت قريبة بالقدر الذى يجعلها مصدر قلق . وهكذا تم الاتفاق على أن موسى ورجاله يجب أن يواصلوا ترحالهم مرة أخرى(٣٥).

وفى سنة ٦٨٩م سار جنوبًا إلى ترمذ على نهر أموداريا ، التى قُيِّض لها أن تكون قاعدة موسى بقية حياته . وهناك قابل أحد الدهاقين التابعين لترمذ شاه ، وكان على خلاف مع سيده وكان مستعداً لتقديم المشورة إلى موسى بشأن الاقتراب منه .

(*) الطبرى، ج٦ ، ص٣٩٩ . (المترجم)

«... فقال لموسى : إن صاحب الترمذ متكرم شديد الحياء، فإن ألطفته وأهديت إليه أدخلك حصنه ، فإنه ضعيف، قال: كلا، ولكنى اسأله أن يدخلنى حصنه ، فسأله فأبى ، فماكره موسى وأهدى له وألطفه ، حتى لطف الذى بينهما، وخرج فتصيد معه، وكثر إلطاف موسى له ، فصنع صاحب الترمذ طعامًا وأرسل إليه : إنى أحب أن أكرمك ، فتغدَّ عندى، وائتنى فى مائة من أصحابك . فانتخب موسى من أصحابه مائة ، فدخلوا على خيولهم، فلما صارت فى المدينة تصاهلت، فتطير أهل الترمذ وقالوا لهم : انزلوا ، فنزلوا ، فأدخلوا بيتا، خمسين فى خمسين ، وغدوهم»(*)، وعندما فرغوا من طعامهم «... اضطجع موسى، فقالوا له : أخرج ، قال : لا أصيب منزلاً مثل هذا ، فلست بخارج منه حتى يكون بيتى أو قبرى... » واندلع القتال فى المدينة. وقُتل عدد من السكان وهرب آخرون. وسيطر موسى على المدينة وطلب من الشاه أن يغادر المدينة على ألاّ يعترض طريقه . وهكذا غادر الشاه . وذهب يبحث عن المساعدة من البدو الأتراك . وطردوه باحتقار وسخروا منه لأنه سمح لمائة رجل أن يطردوه من موطنه «... وقد قاتلناهم بكس فنحن لا نقاتل هؤلاء ...» ولا يسجل التاريخ مصير الشاه ، الذى صار منفيًا ولكن بلاد ما وراء النهر فى القرن الثامن الميلادى / الثانى الهجرى لم تكن مكانًا لحاكم ساذج غافل مثله .

وحينذاك وطد موسى نفسه حاكمًا على الحصن والمدينة ولم يكن يدين بالولاء لأحد. وكان معه بالفعل سبعمائة وعندما قتل أبوه فى المعركة عندما حاول الانضمام إليه هناك نجا أربعمائة من أتباعه وانضموا إلى موسى . وبهذه العصبة القليلة انطلق ليضم المزيد من الأتباع ويحقق المزيد من الثروة ويدافع عن نفسه ضد أعدائه .

وكان هؤلاء كُثر . وقيل إنه استخدم ضد الأتراك خليطًا من الخداع والدهاء لكى يتجنب الصراع. ويبدو أن بعض القصص تنتمى إلى نوع من الفولكلور تكون فيها جماعة إثنية ذكية بشكل رهيب وجماعة أخرى بلهاء بشكل رهيب؛ فى هذه الحالة

(*) الطبرى ، ج٦، ص٤٠٠ . (المترجم)

«العرب الأذكياء ، والأتراك الأغبياء». وهى تعكس الكثير من النكات التى كانت منتشرة فى ذلك الوقت . وفى إحدى الحكايات غير الممكنة وصل وفد من الأتراك فى عز الصيف (حيث يمكن لدرجات الحرارة فى ترمذ يمكن أن تصل إلى خمسين درجة) ليجدوا موسى وأصحابه يجلسون حول نار وعليهم جميع ملابسهم الشتوية . وعندما سئلوا عما يفعلون فسروا ذلك بأنهم وجدوا الجو باردًا فى الصيف حارًا فى الشتاء. واستنتج الأتراك أنهم لابد أن يكونوا من الجن لا من الناس العاديين، ومن ثم تركوا العرب دون أن يقاتلوهم[٣٦]. وفى قصة أخرى أرسل الزعماء الأتراك إلى موسى هدية من السهام (علامة على الحرب) أو قناع من العطر الثمين (دليل على السلام) وطلبوا منه الاختيار بينهما. ورد موسى بكسر السهام ورمى القناع. وعند ذلك استنتج الأتراك أنهم لا يجب أن يؤاخذوا رجلاً فقد عقله .

وعندما صار أمية واليًا على خراسان فى سنة ٦٩١م، قرر أن يرسل حملة لاستئصال شأفة موسى . كما أن أهل ترمذ كانوا قد سئموا موسى وعصبته واقتربوا من الأتراك وعرضوا عليهم أن يتحالف جميعًا ضده . ووجد موسى نفسه محاصرًا بين جيش عربى من جانب وجيش تركى من جانب آخر . ولدينا خبر عن إحدى جلسات المشورة تلك التى يستخدمها الرواة العرب عندما يريدون مناقشة الاستراتيجية العسكرية . وفى النهاية تقرر أن يشن موسى هجومًا ليليًا على الأتراك لأن العرب كانوا متفوقين فى القتال الليلى . ونجحت الغارة وفاجأوا الأتراك وأخذوا من معسكرهم أسرى وأسلحة وأموالاً. وقرر موسى ورجاله أن يستخدموا خدعة عسكرية. وتطوع أحد رجال موسى لكى يضربه سيده بحيث يمكنه أن يذهب إلى القائد العربى بوصفه هاربًا. فعندما احتج موسى بأنه سوف يتعرض للجلد حقًا وربما تعرض للموت من جراء هذا، أجاب الرجل بأنه يخاطر بأن يقتل يوميًا على أية حال وأن ضربه أهون من بقية خطته. ولابد أن آثار الجلد على ظهره قد جعلت حالته جديرة بالتصديق لأنه قُبل باعتباره هاربًا وانضم إلى الدائرة الداخلية المحيطة بالقائد العربى . وفى أحد الأيام وجد الحاكم وحده بدون سلاح واحتج بأنه يظن أن ليس من الحكمة أن يتجرد من سلاحه على هذا النحو ولكن القائد سحب فراشه ليكشف عن سيف بلا غمد- وفى الحال

أمسك به رجل موسى وقتله . ثم عاد مسرعًا إلى موسى قبل أن يعلم أحد بما حدث. وانهار الجيش العربى المهاجم بعد مصرع قائده ، وهرب بعضهم عبر النهر، وطلب الآخرون من موسى الأمان فأمنهم(٢٧).

وبعد هذا الانتصار ضد العرب والأتراك المتحالفين سويًا، إزداد موقف موسى قوة. ولم يبذل الولاة العرب الذين خلفوا أمية أية محاولة لطرده من أملاكه على ضفة النهر. بل العكس، صار هو بؤرة لكل المستائين من الوجود العربى فى بلاد ما وراء النهر.

ومن بين هؤلاء كان اثنان من الأخوة هما حريث وثابت بنى قتبة . وكانا من الأهالى المحليين ، وربما من الطبقة العليا الإيرانية، ممن كانوا قد اعتنقوا الإسلام وصاروا من الموالى لقبيلة خزاعة العربية. وقد أدى هذا إلى أن صار لهما حلفاء من القبيلة . وجعلا نفسيهما نافعين للولاة العرب وجابيين للضرائب ووسيطين ، لأنهما كانا عارفين باللغات المحلية وبالأحوال المحلية. وكان ثابت بوجه خاص يتمتع بشعبية بين العجم ، وله سمعة عظيمة وشرف كبير . وقد قيل إنه إذا كان هناك من يريد أن يقسم بأيمان مغلظة، فإن يقسم بحياة ثابت ولايحنث فى يمينه أبدًا(٢٨). وكانا ثريين وذوى سلطان نافذ ولكنهما لم يقبلا على قدم المساواة مع العرب. وفى وقت ما، أسدى حُرْيث معروفًا إلى ملك كيش، وسمح بعودة الرهائن الذين أخذوا ضمانًا للجزية. وكان هذا ضد الأوامر الصريحة التى أصدرها والى خراسان، يزيد بن المهلب ، الذى شك بوضوح فى تعاطف حُرْيث تجاه الملك. وقد رد حُرْيث الهجوم بأن شكك فى نسب يزيد. واعترضته عصبة من الأتراك وطلبوا فدية ، وتباهوا بأنهم كانوا قد أخذوا فدية بالفعل من يزيد «... فقال حريث : ولدتنى إذن أم يزيد. وقاتلهم فقتلهم ، وأسر منهم أسرى ففدوهم ، فمّن عليهم وخلاّهم ، ورد عليهم الفداء»(*). وإذا كانت هناك طريقة أكيدة لإثارة غضب العربى ، فهى إهانة أمه، ووصلت كلمات حُرْيث الطائشة إلى مسامع

(*) الطبرى، ج٦ ، ص٣٥٢ .

يزيد ، الذى قبض عليه ، وأمر بجلده عارياً ثلاثين جلدة . وكان الضرب مبرحاً تماماً ، ولكن العار الناجم عن تعريته على الملأ كان أسوأ : «وقال حريث : وددت أنه ضربنى ثلثمائة سوط ولم يجردنى ، أنفًا واستحياء ، وحلف ليقتلن المهلب»(*)(٣٩).

وبعد هذا قرر حريث وأخوه التخلص من الوالى حينما يمكنهما ذلك. ورحلا ومعهما ٣٠٠ من شاكريتهما(**) ومعهما بعض العرب. وركبوا فى البداية إلى طرخون، ملك سمرقند ، الذى كان قد أطلق سراح موسى منذ فترة مضت . وتبنى قضيتهم وجمع المدد من أهل بخارى وبلاد الصغد وأميرين آخرين هما نيزك والسُّبل من خطل . وانطلقوا سوياً لكى يلحقوا بموسى فى ترمذ .

وفي الوقت نفسه انضم إلى موسى عدد كبير من رجال القبائل العربية الهاربين . فهناك فى الجنوب، فى سيستان ، كان الجيش العربى قد أعلن التمرد، بعد أن فاض به من الحملات الطويلة الصعبة فى بلاد قاسية وصعبة . وتحت قيادة عبد الرحمن بن الأشعث كانوا قد زحفوا غرباً إلى العراق لتحدى الحكم الأموى. وكان الخليفة عبد الملك بن مروان وساعده الأيمن الحجاج بن يوسف الثقفى أقوى منهم كثيراً ، وتمت هزيمة المتمردين ثم فرَّ الناجون صوب الشرق. وجاء منهم ثمانية آلاف إلى ترمذ لكى ينضموا لموسى .

كانت قوات موسى آنذاك قد زادت كثيراً، ولكن الشيء الوحيد الذى كان يجمعهم كانت كراهيتهم للحكم الأموى. وربما كانت العلاقات بين العرب وغير العرب متوترة ، ويبدو أن موسى قد أدرك أن عليه أن يتصرف بحذر شديد وبدبلوماسية حريصة فى التعامل مع قواته. وكان الحريث والأمراء الإيرانيون طموحين . واقترحوا على موسى عبور نهر أموداريا وطرد الوالى الأموى والاستيلاء على ولاية خراسان كلها .

(*) الطبرى، ج٦ ، ص٣٥٣ .

(**) كان الشاكرية هم الأتباع العسكريين والمدنيين للأرستقراطيين فى أسيا الوسطى فى ذلك الحين. وهم مجموعة من الشباب يقومون بالأعمال المنزلية وقت السلم ولكن يمكنهم أن يتحولوا إلى عصبة من المحاربين زمن الحرب.

وكانوا يظنون أن موسى سيكون أساسًا دمية بأيديهم وأنه سيتم الإطاحة بنصف قرن من الفتح العربي – المسلم. وكان العرب في جيش موسى مرتابين ، ولا يرون في الأمر شيئا لصالحهم : فإما أن يقوم الأمويون بهجوم مضاد ، لأنهم ببساطة لا يستطيعون ترك خراسان بأسرها تخرج من أيديهم، وإما يحكم الإيرانيون الولاية لصالحهم الخاص. وتمكنوا من إقناع موسى أن يتخذ لنفسه هدفا محدوداً ، طرد الولاة الأمويين من جميع أنحاء بلاد ما وراء النهر، بحيث « تكون هذه الناحية لنا نأكلها »[٤٠](*).

ويبدو أنه تم تحقيق هذا دون عناء كبير، وعاد أمراء ما وراء النهر إلى بلادهم حينئذ على أمل أن يكونوا قد وضعوا حداً للتهديد العربي على ديارهم . وحكم موسى ترمذ ومعه الحريث وثابت وزيرين رئيسيين. وتدفقت الموارد وصار موسى قويًا . وعلى أية حال ، استاء كثير من مؤيديه العرب من الإداريين الإيرانيين ونفوذهم ، وأخبروا موسى أنهما خائنان وحرضوه على قتلهما . وفي البداية رفض هذه المداهنات والتملق، قائلا إنه لن يخون رجالاً فعلوا الكثير من أجله، ولكنهم عملوا على إقناعه تدريجيًا .

وفي الوقت نفسه واجه موسى تهديداً أشد إلحاحًا . وربما كان الأمراء الايرانيون يرون فيه حليفًا ولكن البدو الأتراك لم يعتبروه كذلك. وفي ذلك الحين جمعوا جيشًا قالت عنه المصادر العربية ، بقدر من المبالغة ، إنه بلغ سبعين ألف رجل « ... صاحب بيضة ذات قونس»[٤١] وهي الخوذة المدببة في وسط آسيا التي تختلف عن الخوذة المستديرة التي يفضلها العرب. هذا الهجوم التركي الضخم ، إذا كان قد حدث حقا ، وفر لكاتب الملحمة فرصة أخرى لإظهار مهارة موسى العسكرية ودهائه . فقد كان موسى مثل كثير من معاصريه ، يقود المعركة جالسًا على كرسي ، وحوله حراسة من ثلاثمائة من الفرسان ثقيلي التسليح. وسمح للأتراك يخترقوا أسوار ضواحي ترمذ وجلس هادئًا ، يلعب ببلطة في يده حتى رأى اللحظة المناسبة للانقضاض عليهم ويسوقهم إلى الخارج.

(*) الطبري ، ج٦ ، ص٤٠٢ . (المترجم)

وانضم إلى المعركة ثم عاد إلى كرسيه وحسبما يقول الراوى، فإن الأتراك المرعوبين قارنوه بالبطل الإيرانى العظيم رستم (وهو الخصم الأسطورى للأتراك) وانسحبوا.

وفى الحدث التالى من أحداث الملحمة استولى الأتراك على بعض الماشية المملوكة لموسى وهى ترعى. وكان موسى محبطًا بسبب الإهانة التى نالت من هيبته ؛ ورفض أن يأكل «وجعل يعبث بلحيته»، وهو يفكر فى الانتقام. ثم قرر شن هجوم ليلى آخر . وقام ومعه سبعمائة من رجاله بالسير على امتداد مجرى نهر جاف، تخفيه النباتات من الجانبين حتى وصل إلى معسكر الأتراك. وهناك انتظروا حتى سيقت الماشية إلى المرعى فى الصباح. ثم أحاطوا بها، وقتلوا كل من اعترضهم، ثم ساقوا الماشية إلى ديارهم.

وفى الصباح التالى عاد الأتراك إلى القتال من جديد. ووقف ملكهم على أحد التلال يحيط به عشرة آلاف من رجاله فى أفضل تسليح (ومرة يجب أخذ الأعداد بحذر) ، وشجع موسى رجاله ، قائلاً إنهم لو هزموا هذه الجماعة ، سيكون الباقى سهلاً . وقاد الهجوم حريث ولكن سهمًا أصابه وجرحه فى رأسه. ومات بعدها بيومين ودفن فى قبته. وفى الوقت نفسه، فى هجوم ليلى آخر، جُرح موسى الملك وحصانه الى جرى مسرعًا إلى النهر. وهناك ثقل الملك بدرعه من الزرد فسقط فى النهر وغرق[٤٢]. وأخذت رؤوس الأعداء القتلى إلى ترمذ حيث «... بنوا من تلك الرؤوس جوسقين».

وبعد هذا النصر زادت التوترات بين العرب وثابت شقيق حُريث الباقى. وكان موسى تحت ضغط مستمر لكى يتخلص منه ولكنه رفض بإصرار ، ولذلك قرر العرب أن يتولوا الأمر بأنفسهم . وعلى أية حال ، كان ثابت واعيًا بأن هناك شيئًا يتم تدبيره ووجد شابًا عربيًا من قبيلة خزاعة ، القبيلة التى كان من مواليها ، وطلب منه أن يكون عينا له ينقل الأخبار. وكان للشاب أن يلعب دور الخادم المتواضع الذى وقع فى الأسر من باميان البعيدة فى قلب جبال الهندوكوش. وكان عليه أن يتظاهر بأنه لا يعرف اللغة العربية . وبقى ثابت على حذره ، ومعه شاكريته يحرسونه كل ليلة . وفى الوقت نفسه كان موسى ما يزال على رفضه بقتل ثابت لأنه لم يكن هناك مبرر لذلك وأن قتله سيؤدى إلى كارثة تحل بالجميع . وفى النهاية، قرر واحد من أخوته مع بعض العرب الأصدقاء

أن يأخذوا زمام المبادرة بأيديهم . وأرهقوا موسى حتى قبل فى ضعف اقتراحهم بأن يكمنوا لثابت عندما يأتى فى اليوم التالى ، ويأخذونه إلى بيت قريب ويقتلونه . وكان موسى متردداً للغاية وحذرهم مرة أخرى بأنها ستكون نهايتهم.

وبطبيعة الحال، كان الشاب عميل ثابت قد سمع هذا كله وأخبر سيده فى الحال، فجمع عشرين فارساً وانسل خارجًا فى تلك الليلة . وعندما طلع الصباح وكان ثابت قد اختفى لم تدرك المجموعة العربية فى بداية الأمر أن مؤامرتهم قد انكشفت، ولكنهم عندما وجدوا أن الشاب لم يعد معهم، فهموا الخدعة.

وتحصَّن ثابت ورجاله فى بلدة قريبة[٤٢]، حيث انضم إليه الطرخون والناس من أهل كيش . والنسف وبخارى الذين كانوا قد ساندوه عندما جاء فى الأصل إلى ترمذ . وصار الأمر صراعًا مباشراً بين العرب والأهالى . وإذ بات الصراع الواضح حتميًا ، أراد موسى أن ينهيه بأسرع ما يمكنه ، وقاد رجاله ليهاجم ثابت . وسرعان ما وجد نفسه ورجاله محاطين وضاق عليهم الخناق بشكل مرعب. ومرة أخرى كان لابد من استخدام الخديعة عندما تفشل القوة . وقرر يزيد. أحد مؤيدى موسى من العرب، أن القتل أهون من الموت جوعًا وجاء إلى ثابت متظاهراً بأنه فر من جماعته . ومن سوء حظه أن ابن عم له يدعى ظهير ، كان ناصحًا ومستشاراً مقربًا إلى ثابت وكان يعرف يزيد تمامًا : وكانت الانحيازات السياسية فى بلاد ما وراء النهر غالبًا ما تتقاطع مع الحدود العرقية بل وتقطع حدود القرابة . وحذر ثابت من يزيد . فقال يزيد بدوره إنه رجل عانى ما يكفيه ، وقد أجبرته السلطات الأموية على مغادرة العراق والقدوم إلى خراسان مع عائلته ، وعلى أية حال فإن ظهير كان يتصرف بدافع من الحقد. ولهذا تم السماح له بالبقاء طالما أبقى ولديه الشابين رهينتين .

وأمضى يزيد وقته منتظراً فرصته . وذات يوم جاءت الأخبار من مرو بأن ابنًا لواحد من مؤيدى ثابت العرب قد مات ، ومن ثم ذهب بصحبة حاشية صغيرة لتقديم العزاء. وعند رجوعهم كان الظلام قد حلَّ ، وجاءت لحظة انفصل فيها ثابت عن أصحابه،

(*) الطبرى، ج٦ ، ص٤٠٢ . (المترجم)

وانتهز يزيد الفرصة ووجه إليه ضربة قوية على رأسه بسيفه . وعانى على مدى أسبوعين قبل موته . وهرب يزيد ومعه شريكاه فى الجريمة ، ولكنه ترك ولديه التعيسين ليدفعا ثمن الجريمة . فقد أحضرهما ظهير إلى الطرخون ، الذى يبدو أنه تولى القيادة بعد موت ثابت . وتم إعدام أحدهما فوراً وألقيت رأسه وجثته فى النهر. أما الثانى فقد تحول ملتفتا عندما نزلت عليه الضربة وجُرح فى صدره ، وكان جرحه بليغًا فألقى فى النهر حيث غرق .

وبنهاية ثابت ، خارت عزائم أتباعه وحلفائه . وتولى الطرخون قيادة الجيش. وعندما جاءه تحذير بأن موسى على وشك محاولة القيام بهجوم ليلى على معسكره ، ملأه الاحتقار وقال: «... موسى يعجز عن أن يدخل متوّضاه ، فكيف ببيتنا». ولم يكن من الحكمة أبداً الحط من قدر موسى. فقد جاء الهجوم الليلى فى موعده ونشب قتال وحشى فى المعسكر وحوله . وفى إحدى المراحل وصل أتباع موسى العرب إلى خيمة الطرخون الخاصة ، ووجدوه جالسًا على كرسى أمام النار التى كان شاكريته قد أشعلوها. وهرب شاكريته الذين كان يجب أن يكونوا هناك لحمايته ، ولكنه حارب المهاجمين بنفسه ونجح فى الهجوم المضاد فى قتل أحد أخوة موسى. وأرسل رسالة إلى موسى الذى كان ، بطبيعة الحال، يعرف تمامًا أن عليه أن يستدعى رجاله إذا وافق على الانسحاب . وفى اليوم التالى حزم غير العرب أمتعتهم وعادوا إلى أراضيهم[44].

وعلى السطح بدا هذا وكأنه نصر شهير حققه موسى، ولكن الحقيقة أنه كان بداية النهاية. فقد كان قادراً على الحفاظ على استقلاله لأنه كان يتمتع بدعم أتباعه العرب وغير العرب تحت قيادة حُرَيْث ثم ثابت . وعندما كان لدى موسى ألف أو نحوهم من الأتباع العرب ، يبدو أنهم قادرون على التعاون ، ولكن مع وصول المزيد من العرب من الجيوش المتمردة المهزومة، ثبت أن الضغوط كانت فوق الاحتمال . وبدون مساندة غير العرب فى بلاد ما وراء النهر، تداعى حلم موسى فى الاستقلال . ومما يحسب له أنه هو نفسه قد فهم هذا وبذل جهوداً كبيرة لكى يحافظ على حلفه متماسكًا. ولكن فى النهاية كانت الدماء أكثر كثافة من الماء وانحاز إلى العرب ضد الباقين .

وجاءت النهاية سنة ٧٠٤م عندما أرسل والى خراسان الأموى الجديد[٤٥] المتحالف مع الأمراء الإيرانيين جيشا ضده فى ترمذ وقُتل موسى عندما تعثر حصانه وهو يحاول الهرب. وكان قد تمتع بخمس عشرة سنة من الاستقلال الفعلى ، ملكًا على موقعه الحصين على ضفة النهر ومغناطيسًا يجتذب المتمردين ومسببى القلاقل ، من العرب والإيرانيين على السواء . كان رجلاً ذاعت شهرته فى الآفاق . وفى مدينة قومس الإقليمية الصغيرة شمالى إيران ، على مسافة ثمانمائة كيلو متر من ترمذ ، كان هناك رجل اسمه عبدالله ، يتجمع شباب الناحية فى بيته، يروى القصص ، وبصفة عامة كان الرجل مسرفًا . وضيافة عبدالله تكلفه الكثير، وعندما تفاقمت ديونه ذهب إلى موسى قاطعًا هذا الطريق كله طلبًا للمساعدة . ولم يخذله وإنما كافأه بمنحة قدرها أربعة آلاف درهم فضة. وكان بين رجال مثل عبدالله أن بقيت ذكرى موسى حية، ومحل احتفاء الشعراء ، ولابد أنهم هم الذين تذكروا القصص التى تشكل أساس ملحمته كما وصلت إلينا .

الهــوامش

(١) أفضل رواية عن الفتوح الإسلامية لآسيا الوسطى تبقى رواية:

H. A. R- Gibb, The Arab Conquests in Central Asia (London, 1923).

التى اعتمدت عليها بشكل كثيف . انظر أيضا :

See also V. Barthold, Turkestan Down to the Mongol invasions, trans. H. Gibb (London, 1928, rev . edn, Gibb Memorial Series, V, London, 1968), pp. 180-93.

(٢) The Fihrist of al-Nadim, trans. B. Dodge, 2 vols. (New York, 1970), pp.220-25. See also the comments in T. Khalidi, Arabic Historical Thought in the Classical Period (Cambridge, 1994), pp-64-5; C. F. Robinson, Islamic Historiography (Cambridge, 2003). P. 34.

(٣) For this analysis, see Gibb, Conquests, pp. 12-13.

عن الجغرافيا التاريخية لهذه المنطقة انظر الدراسة الكلاسيكية :

Barthold, Turkestan, pp. 64-179.

(٥) عن خوارزم انظر المقالة الممتازة :

by C,E. Bosworth, 'Khwarazm', in Encyclopaedia of Islam, 2 nd edn.

(٦) Ibn Fadlan's journey to Russia: a tenth-century traveler from Baghdad to the Volga River, trans. R. Frye (Princeton, NJ, 2005), p. 29.

(٧) Narshakhi, History of Bukhara, trans, R. Frye (Cambridge, MA, 1954)- PP- 9-10.

(٨) E. de la Vaissiere, Sogdian Traders: A History (Leiden, 2005), p.176.

(٩) هناك أدبيات غزيرة عن أصول الأتراك وتاريخهم الباكر . وعن تقديم واضح انظر:

D. Sinor, 'The establishment and dissolution of the Turk empire', in Cambridge History of Early Inner Asia, ed. D. Sinor (Cambridge, 1900), pp. 285-316, with bibliography pp. 478-83.

(١٠) Trails. Sinor in Cambridge History of Karly Inner Asia, p. 297.

(١١) Maurice's Strategikan: Handbook of Byzantine military strategy, trans. G. T- Dennis (Philadelphia, PA, 1984), pp. Tifi-iS.

(١٢) Tabari, Ta'rikh, II, p. 394 .Gibh, Arab Conquests, is

يشك فى أن تكون المقابلة قد حدثت على الإطلاق .

(١٣) Baladhuri, Futuh, p. 412.

(١٤) Silah b. Ashyum al-cAdawi; Tabari, 'Ta'rikh, II, p, 393.

(١٥) Gibb.Arab Conquests, pp. 22-3.

(١٦) Tabari, Ta'rikh, II, pp. 394-5.

(١٧) Tabari, Ta'rikh, II, pp. 490-97.

(١٨) Tabari, Ta'rikh, II, p. 447.

(١٩) Tabari, Ta'rikh, II, p. 594.

(٢٠) Al-Harish b. Hilal al-Qurayci .

(٢١) Tabari, Ta'rikh, II, p. 596.

(٢٢) Tabari, Ta'rikh, II, p. 98.

(٢٣) Tabari, Ta'rikh, II, p. 696.

(٢٤) Tabari, Ta'rikh, II, pp. 831-5.

(٢٥) Tabari, Ta'rikh, II, p. 102.

(٢٦) 'Atlb b. Liqwa al-Ghudani had his debts paid by Bukayr b. Wishah al-Sacdi; Tabari, Ta'rikh, II,pp.1022-3.

(٢٧) Tabari, Ta'rikh, II, p. 1029.

(٢٨) Tabari, Ta'rikh, II, p. 1024.

(٢٩) Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1024, p. 1031.

(٣٠) Tabari, Tit'rikh, II, p. 1041; Gibb, Arab Conijifefts, pp. 26-7.

(٣١) Tabari . Ta'rikh , II , p. 1177 .

يعطى محمد بن المفضل (ت ٧٨٤-٧٨٥م) باعتباره مصدراً ، ولكن ليس من الواضح ما إذا كان هو المصدر للكثير من هذا التراث . وكان المفضل كاتب تراجم من الكوفة انضم إلى التمرد الذى قام به ابراهيم العلوى ولكن المنصور عفا عنه وأخذه لخدمة المهدى. وقد جمع الشعر العربى ما قبل الإسلام فى المجموعة المعروفة باسم المفضليات ولكنه لم يسجل عنه كتابة أى رواية تاريخية.

(٣٢) Tabari, Ta'rikh, II,p. 1147.

(٣٣) Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1162-3.

(٣٤) Tabari, Ta'rfkh, II, pp. 1146-7.

القصة بقايا من قصة الملك الكاهن أو بحيرة ينمى التى يبدأ بها جيمس فريزر . الفروة الذهبية.

The Golden Boueh (New York, 1922) .

(٣٥) Tabari, Ta'rikh, II, p. 1147.

(٣٦) 'Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1148-9.

(٣٧) Tabari, Ta'rikh, II, p. 1151.

(٣٨) Tabari, Ta'rikh, II, p, 1152.

(٣٩) Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1080-81.

(٤٠) Tabari, Ta'rikh, II, p- 1153.

(٤١) Tabari, Ta'rikh, II, p. 1153.

(٤٢) Tabari, Ta'rikh, II, p. 1154.

(٤٣) ورد الاسم في النص «حاشورا» أو تنويعات على ذلك ولكنه لا يزال بحاجة إلى تعريف .

(٤٤) Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1150-60.

(٤٥) Mufaddal b. al-Muhallab b. Abi Sufra; Tabari, Ta'rikh, 11, p. 1162.

(٨)

الطريق إلى سمرقند

إنجاز قتيبة بن مسلم (٧٠٥-٧١٥م)

مع بداية سنة ٧٠٥م كانت الجيوش العربية قد فتحت خراسان كلها حتى نهر أموداريا . وبقيت المناطق الجبلية الخارجية تقاوم وحدها . ولا يعنى هذا أن الولاية كلها كانت تحت الحكم السلمى للولاة العرب فيجمعون الضرائب من شعب مُنقاد ومطيع ، ولكن السلطات العربية كانت تمسك بزمام السيطرة . فقد كان بوسع هذه السلطات إرسال الحملات من قواعدها فى مرو وبلخ لسحق أى تمرد ونهب أراضى السكان وممتلكاتهم. وفيما وراء النهر كانت الأمور جد مختلفة. وباستثناء موقع موسى فى ترمذ، لم يكن هناك أى استقرار للعرب والمسلمين إطلاقًا ، وعلى قدر علمنا ، لم يتم بناء مسجد واحد. إذ ظلت السيطرة بأيدى الملوك المحليين والبدو الأتراك تمامًا .

كان هذا كله على وشك أن يتغير . ففى هذه السنة عين الحجاج، والى العراق والمشرق كله، واليًا جديدًا على خراسان. وكان هو قتيبة بن مسلم من قبيلة باهلة الصغيرة ، التى لم تكن مرتبطة بأى من القبائل الكبرى التى مزقت منازعاتها عرب خراسان شر ممزق . وهذا ما جعله مرشحا مناسبا لهذه المهمة العسيرة جدًا . إذ إنه تمكن من الاحتفاظ بحياده فى هذه المنازعات، كما كان بمنأى عن الضغط الرهيب الذى كان على زعماء القبائل الكبرى تحمله من أتباعهم طلبًا للحظوة والمجاملة. وكان يتمتع بمساندة الحجاج الداهية الصارم . وإذ كان يفتقر إلى ما توفره القبيلة الكبيرة

من الأتباع فإنه اعتمد على الحجاج فى سلطته . وكان هذا بدوره يعنى أن الحجاج كان على ثقة من أنه لن يقود حركة تمرد. لقد كان قتيبة رجلاً محترمًا أكثر منه رجلاً محبوبا. وتؤكد المصادر على كفاءته فى التنظيم وقيادة الجيوش، بيد أنه لا توجد حكايات عن كرمه أو رعايته للشعراء. وكان يمكن أن يكون خصمًا شرسًا ولم يكن ضميره ليردعه عن إعدام الأسرى، حتى أولئك الذين كان قد منحهم الأمان، إذا ما رأى ضرورة لهذا، ومن ناحية أخرى ، كان مستعداً للعمل مع الملوك والزعماء المحليين إذا ما شعر أن هذا سيكون لصالح المسلمين. كما تمتع بمساندة عائلته الكبيرة القادرة، وخاصة أخوه عبد الرحمن الذى كان يليه فى القيادة وكان ساعده الأيمن دائما .

وقدم قتيبة بسياسة واضحة ، وهى توحيد عرب خراسان حول قضية الإسلام والجهاد ، وأن يقودهم لفتح الأراضى الغنية عبر النهر، والتى لم يكن سابقوه قد حاولوا تأمينها . وكان يجمع فى كل ربيع الجيش الإسلامى فى مرو وينطلق ليعود إلى العاصمة فى الخريف حيث تتفرق القوات عائدة إلى مدنهم وقراهم فى خراسان حتى موسم الغزو فى السنة التالية . وكان مقيضا للحملات التى كانت على وشك أن تبدأ أن تبرهن على كونها الأشد والأكثر دموية وربما كانت الأكثر تدميراً بين جميع حملات حركة الفتوح العربية الكبرى. ووفقا لأحد شهود العيان، وصل قتيبة من العراق إلى العاصمة مرو بينما كان سلفه يراجع القوات قبل أن يقوم بغارة عبر النهر. وتولى القيادة فى الحال وخاطب جنوده يحثهم على الجهاد، وقال: «إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه، ويذب بكم عن الحرمات ، ويزيد بكم المال استفاضة ، والعدو وقمًا ، ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديث صادق ، وكتاب ناطق»، فقال : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾(*) ووعد المجاهدين فى سبيله أحسن الثواب ، وأعظم الذخر عنده فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ

(*) سورة الصف : ٩ .

مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(*) ثم أخبر عمن قتل فى سبيله أنه حى يرزق، فقال : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾(**) فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم ، وإياى والهونى»[٢].

ولدينا صورة مفصلة عن جيشه سنة ٧١٥م فى نهاية فترة ولايته[٣]. ويقال إن قتيبة فى هذا الوقت كان يقود أربعين ألف رجل جاءوا أصلاً من البصرة جنوب العراق. وكانوا منظمين فى جماعاتهم القبلية الرئيسية ، وجلبوا معهم الإحساس بالتضامن القبلى الذى خدمهم جيدا فى ميدان المعركة ، بيد أن المنافسات القبلية أيضًا كانت يمكن أن تؤدى بسهولة إلى اندلاع العنف. وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك قوات قوامها سبعة آلاف وصلوا حديثًا من الكوفة فى وسط العراق وسبعة آلاف من الموالى الذين انضموا إلى القوات الإسلامية من المسلمين غير العرب. وكانوا تحت قيادة رجل يقال له حيان النبطى. وكان أحد أسباب نجاح قتيبة يرجع إلى أنه اجتذب هذه الجماعات المحلية، التى كانت تؤلف حوالى اثنتى عشرة بالمائة من قواته إذا كان لنا أن نصدق الأرقام الواردة فى المصادر. ويبدو أنهم قد حاربوا بصلابة مثل العرب، ولا بد أن معرفتهم المحلية جعلتهم مفيدين بشكل خاص ، ولكن لم يكن كل العرب مستعدين لقبولهم على قدم المساواة ، وكان هذا التوتر كامنًا تحت السطح مباشرة . وربما كان أهم سبب فى نجاح قتيبة ، حتى نهايته المأساوية التى جاءت عندما ساءت الأمور ، هو أنه كان قادرًا على التعامل مع هذه الجماعات المتفرقة وأن يجعل لهم غرضًا مشتركًا وهدفًا عامًا هو توسيع رقعة الإسلام فى بلاد ما وراء النهر ربما حتى حدود الصين فى نهاية الأمر.

(*) سورة التوبة : ١٢٠-١٢١ .

(**) سورة آل عمران : ١٦٩ .

وبدأ قتيبة حملاته فى الحال، وقاد رجاله صاعدا النهر حتى طخارستان. وهناك كان غرضه الأساسى التهدئة لا الغزو . وقام بزيارة إلى بلخ ، حيث لقى الترحيب من ملاك الأرض المحليين. ثم عبر النهر وتقابل مع ملك الصغانيان ، الذى أعطاه الهدايا ومفتاحًا ذهبيًا يرمز إلى خضوعه . وفى عودته عرضت عليه الحماية ضد ملك الشومان المجاور، حيث كانت محطة قتيبة التالية. وهناك أيضا أسرع الملك لعقد الصلح وتسليم الجزية. وإذ أمَّن قتيبة جناحه الجنوبى بهذا العرض الذى مزج بين القوة والدبلوماسية ، عاد إلى مرو ليقضى الشتاء فيها.

وفى السنة التالية، ٧٠٦م بدأ بإقرار بعض الأعمال التى لم تكن قد انتهت فى الجنوب. ذلك أن أقوى الأمراء المحليين، نيزك البوذى ، حافظ على استقلاله فى المنطقة الجبلية فى باذغيس ، شمال غرب هرات. وكان قد أسر بعض المسلمين وحبسهم عنده. وأرسل قتيبة إليه رسولاً ، حذره من استفزاز الوالى الجديد. واضطر نيزك إلى إطلاق سراح الأسرى وذهب بشخصه إلى مرو لمقابلة الوالى. وعقد أهل باذغيس السلام على أساس أن قتيبة لن يدخل بلادهم[٤] هذا النوع من الترتيبات على أساس مبدأ عش ودع الآخرين يعيشون كان من خصائص طبيعة الفتح العربى للمناطق البعيدة من بلاد ما وراء النهر.

ثم حول انتباهه إلى هدفه الحقيقى، أى المدن الغنية فى بلاد الصغد ووادى زرفشان. وفى بداية الربيع عبر النهر إلى بيكند، الأقرب إليهم والأولى على الطريق الممتد من النهر ليعبر عند أمُل . وكان موقع المدينة آنذاك خرابًا ومهجورًا على بعد حوالى ستين كيلو مترًا غرب بخارى ، ولكن فى أوائل القرب الثامن الميلادى كان مركزًا تجاريًا كبيرًا، كان تجاره يزورون الصين بانتظام ويسافرون على طول طريق الحرير البرى. وهى تقع عند نهاية أراضى وادى زرفشان الخصيبة تمامًا وتحيط بها الصحراء . وكانت جائزة مغرية تمامًا ، ولكن المدينة كانت محمية جيدًا بالحوائط المبنية من الطوب اللبن وبها قلعة داخلية لها بوابة واحدة فقط[٥]. وكانت قوية لدرجة أنها كانت معروفة ببساطة باسم «القلعة» أو «القلعة البرونزية» ولم يكن السكان راغبين فى الرضوخ

لمطالب العرب المالية. ويبدو أن الفتح الأولى كان سريعًا تمامًا ، إذ تم دفع المدافعين إلى ما وراء الأسوار ثم طلبوا الصلح . وتم الصلح مقابل الجزية ، وعاد قتيبة يواصل مسيره من جديد إلى نهر جيحون حيث سمع أن السكان قد ثاروا وقتلوا الوالى الذى كان قد عينه؛ وكان هناك كما هو الحال غالبًا، قصة عن عربى حاول أن يأخذ الأفضلية فى بنات رجل قوى من الأهالى وتم طعنه نتيجة لذلك[٦]، ولكن يبدو من المحتمل أن يكون الأهالى قد شعروا فى ذلك الحين أن المسلمين قد انسحبوا، ولم يعودوا مضطرين إلى دفع الجزية التى كانوا قد أجبروا على الوعد بها.

وصمم قتيبة على أن يلقنهم درسًا يتعمله جميع أهل بلاد الصغد . وبعد شهر من الحصار ، أرسل عمالاً لكى يحفروا نفقًا تحت أسوار المدينة وغطى سقفه بالأخشاب. وكان قصده أن يحرقوا الدعامات الخشبية بحيث تنهار الأسوار . ولم تمض الأمور على نحو ما أراد وخطط ؛ إذ سقط السور بينما كانوا لا يزالون يضعون الدعامات ولقى أربعون من العمال التعساء حتفهم . وأسلوب حفر الأنفاق أثناء الحصار مشهود تمامًا فى الشئون الحربية الغربية منذ أيام الحروب الصليبية فصاعداً ، ولكن يبدو أن هذا كان المثال الوحيد الذى تم تسجيله عن استخدامه فى الفتوح الإسلامية الباكرة ، وربما كان هذا أسلوبًا تعلمه قتيبة من القوات المحلية التى جندها فى جيشه بآسيا الوسطى. وعلى الرغم من أن الأمور تبدلت بدرجة كبيرة نحو الأسوأ بالنسبة للعمال المنكوبين ، فإن النفق حقق النتيجة المرغوبة – إذ إن المسلمين دخلوا المدينة عنوة، وواجهوا مصاعب جمة أثناء ذلك ، من خلال الجزء المنهار من السور . وإذ تم الاستيلاء على المدينة عنوة ، فإن سكان المدينة وثروتهم كانت تحت رحمة الفاتحين . وقد قتل جميع الرجال المحاربين، وتم سبى النساء والأطفال، وباتت المدينة خاوية على عروشها. وقيل إن الكثير من التجار كانوا قد رحلوا للتجارة فى الصين. وعندما عادوا بحثوا عن نسائهم وأطفالهم ودفعوا الفدية للعرب وبدءوا إعادة بناء المدينة[٧]. وفى الحقيقة، يبدو أن بيكند لم تتعاف أبداً بشكل حقيقى من النهب الذى تعرضت له والدمار الذى عانته ، ولم تلبث أن توارت فى الظل بسبب نمو جارتها بخارى.

وتذكر المصادر العربية الغزو لابسبب البؤس الإنسانى الذى تسبب فيه ، وإنما بسبب الثروة التى تحققت من المغانم التى تم الحصول علهيا. وقد حاول أحد الأسرى أن يفدى نفسه بخمسة آلاف قطعة من الحرير الصينى ، ثمنها مليون درهم[٨]. ووجدوا تمثالاً من الفضة فى معبد بوذى (بوتخانه) وزنه أبعة آلاف درهم وكنوزا أخرى، من ضمنها لؤلؤتين الواحدة منها فى حجم بيضة الحمامة . وعندما سأل قتيبة من أين جاءت اللؤلؤتان . أخبروه أن طائرين جاءا ووضعاهما فى المعبد بمنقاريهما. وبالنسبة للكتاب المسلمين، كانت هذه الحكاية الأخاذة ببساطة دليلاً على خطأ البوذية[٩]. وتم إرسال اللؤلؤتين ، مع أشياء أخرى، إلى الحجاج فى العراق، وكان رده خطابًا يفيض تقريظًا لقتيبة على كرمه . وتمت إذابة بقية الفضة وسكت عملات لدفع رواتب الجند المسلمين : وبعملهم هذا ضاع الكثير من الفن القديم فى آسيا الوسطى إلى الأبد. لقد كان هناك الكثير من النقود الجديدة بحيث كانت كافية لأن يجهز المسلمون أنفسهم بأفخر الأسلحة والدروع ، وكان الجنود كالعادة يتوقعون أن يتم الدفع لهم لشراء أغراضهم الخاصة . وفى هذه الحال ، تم تسليم الأسلحة التى تم الاستيلاء عليها إلى القوات كذلك . وبعد النصر الذى حققه الجيش فى بيكند، تحرك إلى واحة بخارى، حيث شن هجومًا على بعض القرى وأرغموها على الصلح.

وفى السنة التالية ، أى سنة ٧٠٧م ، عاد قتيبة إلى الزحف مرة أخرى . ومن جديد كانت بخارى هدفه . وفى هذه السنة صحبه نيزك، الذى يظهر الآن عضواً فى جيشه، جنديا ورهينة فى آن معًا . ولم تحقق الحملة الكثير. إذ كان الصغد آنذاك واعين تمامًا للتهديد الذى كانت الجيوش العربية تمثله وكانوا قد عقدوا تحالفات مع الأتراك وأهل فرغانه البعيدة. وقد أخذ الحلفاء يجوبون مناطق الإستبس ، ينتظرون الفرصة للهجوم . وبينما تحرك الجيش العربى على امتداد الطريق نحو بخارى. كان منتشراً تماما على مدى يزيد على كيلو متر ونصف بين قتيبة الذى كان يتولى القيادة، وأخيه الذى كان ساعده الأيمن، عبد الرحمن الذى كان قائد مؤخرة الجيش. ورأى الأتراك الفرصة سانحة وهاجموا ذيل الطابور . وأرسل عبد الرحمن رسولاً إلى أخيه يطلب المساعدة . وفى الوقت الذى كان فيه قتيبة وبصحبته نيزك قد وصل إلى مؤخرة الجيش،

كانت القوات المسلمة تواجه الهزيمة، ولكن ظهوره قلب الأمور رأسًا على عقب ، إذ هرب الأتراك وحلت بهم الكارثة . وقرر قتيبة ألا يستمر فى مطاردتهم، ولكنه عاد إلى الجنوب وعبر النهر عند ترمذ وعاد عن طريق بلخ إلى مرو ليمضى الشتاء هناك.

كذلك كان موسم الغزو فى سنة ٧٠٨م فاشلاً . فقد هاجم قتيبة قوات حاكم محلى فى منطقة بخارى إسمه وردان – خُدا – ، ولم يكن قادرًا على أن يقوم بالغزو أو أن يأخذ الجزية . وتلقى من الحجاج توبيخًا لاذعًا زاد من آلامه[١٠].

وفى السنة التالية ، سنة ٧٠٩م، قرر قتيبة أن يتحرك ضد بخارى مرة أخرى. وربما ساعده على ذلك موت خصمه فى السنة السابقة، وردان خُدا . والروايات عن هذه الحملة غير واضحة بالمرة ، ولكن يبدو أنه عندما اقترب المسلمون من المدينة، طلب السكان المساعدة من الصغد الآخرين والأتراك ، وكان القتال الرئيسى ضد جيش الإنقاذ هذا. وتأتينا أكثر الروايات اكتمالاً عن هذا من قبيلة تميم ، وتبدو كما لو كانت رواية تنتمى إلى المراحل الباكرة من حركة الفتوح، فهى مليئة بالخطب البطولية والأفعال الفردية الباسلة ولكنها تترك الصورة الأوسع غامضة تمامًا . وقد تم تصوير قتيبة جالسًا على كرسى ليتولى القيادة ، وهو يرتدى عباءة صفراء فوق أسلحته . وفى إحدى النقاط تخبرنا القصة أن الكفار دخلوا فى معسكر قتيبة وعاثوا خلاله حتى بدأت النساء تضربهم وتجعلهم يتقهرقون بلطم وجوه خيولهم وببكائهن . وقد حفز هذا الرجال على الفعل وتم صد الهجوم . وهذه هى المرة الوحيدة التى يرد فيها ذكر النساء فى جيوش قتيبة، وبينما يمكن أن يكون الأمر اصطناعًا كاملاً، فإنه قد يوحى بأن النساء قد لعبن فعلاً دورًا مهمًا فى الحملات ولاسيما فى تنظيم المعسكرات .

ولا غرو أن يقول أبناء قبيلة تميم إن النصر جاء على أيديهم . وكان الأتراك فوق التل على الضفة الأخرى من النهر وكانت قوات المسلمين مترددة تمامًا فى عبور النهر والاشتباك معهم. وعزف قتيبة مباشرة على نغمة الكبرياء القبلى واستثارهم بقوله إنهم مثل معطف من الزرد تنكسر السيوف عليه ، وعاد إلى تقاليد القبيلة فى عصور ما قبل الإسلام قائلاً إنه يريدهم اليوم أن يحاربوا مثلما كانوا قد حاربوا قديما[١١].

وكان شيخ القبيلة وكيع بن الحسن التميمى بدويًا صلبًا ، أخرق ، بذئ اللسان ، صار فى ما بعد لعنة بالنسبة لقتيبة . وقد حمل الراية وأخذ يتقدم ماشيًا نحو العدو. وحثّ الفرسان على مواصلة التقدم، ولكن عندما وصل قائد الفرسان إلى النهر رفض أن يستمر؛ وعندما حثه وكيع على أن يمضى نظر إليه نظرة جمل متوحش، ورفض أن يتزحزح. وبدأ وكيع الذى كانت له شهرة يستحقها عن جدارة بالعنف والقسوة ، يشتمه وينخسه بالقضيب الحديدى الشائك، وإذ خجل قائد الفرسان من التصرف قاد رجاله إلى أعلى التل . وفى البداية تبعه وكيع بالمشاة ، وعندما شتت الفرسان انتباه الأتراك بمهاجمتهم من الجناحين ، تمكن المشاة من دفعهم من فوق التل.

وفى أعقاب المعركة، احتل العرب بخارى للمرة الأولى. ويبدو من الأرجح أنه ما إن تمت هزيمة قوة النجدة ، حتى عقد أهل المدينة صلحهم مع المسلمين ، وربما سمحوا ببقاء حامية مسلمة بالقلعة . وقد استمر فتح بخارى على مدى أربعة مواسم غزو على الأقل ، وكان السكان يجبرون على الخضوع ودفع الجزية فى كل سنة. ولم يحدث سوى بعد المرة الرابعة أن اتخذ قتيبة خطوات لتأسيس وجود إسلامى راسخ فى المدينة.

كانت بخارى فى هذا الوقت مكونة من ثلاث مناطق متمايزة. كانت أقدمها منطقة القلعة الآرك، على الأرض حيث كان يعيش الملك، الذى يحمل لقب بخارى - خُدا (أى سيد بخارى) وإلى الشرق قليلاً ، كانت المدينة المسورة تفصلها عن القلعة أرض مفتوحة ، وكانت تسمى الشهرستان حيث كان يعيش التجار وغيرهم من السكان . وأخيراً كان هناك الكثير من المساكن المحصنة وكل منها يسمى كُشك باللغة المحلية، وهى مبعثرة فى حقول الواحة وبساتينها . وكان قتيبة قد عقد العزم على أن يؤسس وجوداً إسلامياً فى قلب شهرستان ، بالإقناع أو الرشوة ، أو القوة إذا لزم الأمر. ودمّر معابد النار وبنى المساجد وفرض شريعة الإسلام . وقد أجبر السكان على أن يقدموا نصف بيوتهم وحقولهم إلى العرب حتى يمكنهم العيش معهم وأن يمدوهم بالعلف لخيولهم وبأخشاب الوقود . واختار كثير من السكان الأغنياء أن يغادروا المدينة بأسرها ويعيشوا فى منازلهم الريفية . وتم تقسيم المدينة المسورة إلى مناطق مختلفة خصصت كل منها لجماعة قبلية مختلفة لكى تسكن فيها. وسرعان ما قامت المساجد

على أيدى الجماعات المختلفة ، وكان أحدها قد أقيم موضع كنيسة مسيحية . وفى خلال جيل واحد يبدو أن المدينة المسورة قد صارت سكنًا لأغلبية كبيرة من المسلمين ذوى الأصول العربية على حين عاش الإيرانيون فى الضواحى والقرى(١٢). وعاش الأمراء العرب فى المدينة المسورة، واستمر الملوك بخارى - خُدا ، يعيش كما كان على الدوام، فى القلعة. وكانت العلاقات بين الولاة العرب والملوك عادة ، وليس دائمًا، علاقات ودية، كما أن طغشادا الملك الذى قبل حكم المسلمين على المدينة، قد سمى ابنه على اسم قتيبة ، تكريمًا للفاتح.

وفى سنة ٧١٢ بنى قتيبة مسجدًا كبيرًا فوق موضع بيت نار . فقد كان الدين الجديد قد أعلن على الملأ فى مركز القوة والهيبة القديمة . ولم يكن إيجاد جماعة من المؤمنين يمكنهم أن يملأوه بالأمر البسيط. إذ كان يتم دفع درهمين لكل من يحضر صلاة الجمعة من الأهالى تشجيعًا لهم. ولأنهم لم يكونوا يعرفون كيف يؤدون شعائر الصلاة، تم تعيين معلمين من الناطقين بالفارسية لكى يعلموهم كيفية الركوع والسجود. وكانت تتم قراءة القرآن بالفارسية لأن الناس لم يكونوا يعرفون العربية. ولم يكن أهل المدينة كلهم منبهرين بالدين الجديد، ونعلم أن الفقراء قد شدهم الدرهمان المقدمان ولكن كثيرين من الأغنياء بقوا فى منازلهم الريفية على سبيل العناد . وفى أحد أيام الجمعة خرج المسلمون إلى هذه المنازل الريفية ودعوا السكان للقدوم إلى المسجد . وكان الرد عليهم وابلاً من الحجارة. وحينئذ هاجم المسلمون المنازل. وعلى سبيل إهانة السكان خلعوا أبواب البيوت لكى تستخدم فى المسجد الجديد . وكانت هذه الأبواب تحمل صورا لآلهة العائلة ، وعندما أحضرت الأبواب إلى المسجد تم مسح صور الآلهة، إما نتيجة لمنع الإسلام للتصوير أو ببساطة أكثر ، لإهانة الديانة القديمة وأتباعها . وبعدها بسنوات كثيرة لاحظ النرشخى ، مؤرخ بخارى المحلى ، الصور التى أزيلت من على الأبواب واستفسر عما كان قد حدث، وهى القصة التى وصلت إلينا(١٣). كذلك حدد قتيبة مكانا لصلاة العيدين عند أسفل القلعة فى الرجستان (الميدان) وعندما جاء المسلمون للصلاة هناك أول مرة تلقوا الأوامر بأن يجلبوا أسلحتهم معهم ، لأن الإسلام كان ما يزال حديث عهد ولم يكن المسلمون بمأمن من الكفار(١٤).

وعلى الرغم من التغيرات التى جرت فى الشعائر والديانة والاحتفالات ، ظل ملوك بخارى يتمتعون بسلطة كبيرة فى المدينة والواحة المحيطة بها، وبقيت السلالة الملكية القديمة طوال حكم الخلفاء الأمويين والعباسيين حتى قدوم السامانيين فى نهاية القرن التاسع الميلادى/ الثالث الهجرى. وهكذا ، وكما حدث فى مناطق كثيرة من بلاد ما وراء النهر، كانت الحكومة المسلمة حقا محمية وكانت السلطات العربية تحكم مع الأرستقراطية المحلية ومن خلالها . وفى أعقاب هذا النجاح، جاء طرخون ملك بلاد الصغد من عاصمته سمرقند يطلب الصلح . واقترب من معسكر قتيبة ومعه رجلان ، جاعلاً نهر بخارى بينه وبين معسكر قتيبة وبدأ المفاوضات . ووافق على أن يدفع الجزية فى مقابل الاتفاق على ألا يقوم العرب بالغزو.

وإذا كان هناك أى شعور بالرضى قد غمر قتيبة عندما عاد إلى مرو بعد الفتح الأول لبخارى فى خريف سنة ٧٠٩ م، فإنه سرعان ما تكرر بطريقة فجة . إذ إن الأمير نيزك ، الذى كان قد جئ به إلى مرو وانضم إلى حملة قتيبة على بخارى، كان فيما يبدو آنذاك يشعر أنه إذا ما أراد استعادة استقلاله ، فإن عليه أن يتصرف قبل فوات الأوان «... فقال لأصحابه وخاصته : متهم أنا مع هذا، ولست آمنه ، ولذلك أن العربى بمنزلة الكلب ؛ إذا ضربته نبح ، وإذا أطعمته بصبص واتبعك ، وإذا غزوته ثم أعطيته شيئا رضى، ونسى ما صنعت به، وقد قاتله طرخون مراراً ، فلما أعطاه فدية قبلها ورضى ، وهو شديد السطوة فاجر...»(*) وكان مغزى هذا أن نيزك شعر أنه يمكن أن يحاول التمرد، فإذا فشل ، يمكن أن يصالح قتيبة ثانية. وعندما وصل الجيش إلى آمل على الضفة الغربية لنهر أموداريا، طلب نيزك الإذن لكى يرجع إلى بلاده ، ونال الإذن بذلك.

وقصد بلخ بما يمكنه من السرعة . وكان من الواضح أنه قد وضع خطة لإثارة جميع أمراء طخارستان ، وادى نهر أموداريا الأوسط، ضد الحكم العربى. وعندما وصل المدينة كان أول شىء فعله أن صلى فى معبد نوبهار البوذى الكبير وتبرّك به من

(*) النص من الطبرى، ج٦ ، ص٤٤٥- ص٤٤٦ . (المترجم)

أجل الفوز فى الصراع المرتقب. وكان يدرك أن قتيبة سرعان ما يأسف على منحه الإذن بالرحيل وسيأمر الوالى العربى المحلى باحتجازه ولهذا استمر فى تحركاته . وكتب إلى قائمة كاملة من الأمراء المحليين يحثهم على الانضمام إليه ، فكتب إلى إصبهبذ أمير بلخ ، وإلى باذام ملك مرو ، وإلى سهرب ملك الطالقان، وتوسل إلى ملك الفارياب والى ملك الجوزچان . وكان ردهم جميعًا إيجابيًا ورتب على أن ينضموا إليه فى ربيع سنة ٧١٠م. كما أنه أعد الترتيبات فى حالة فشل الأمر. وكتب إلى كابل شاه البعيد، الآمن بعيدًا عن متناول الجيوش العربية، طالبًا مساعدته . وأرسل نيزك الكثير من متاعه إلى كابل لتكون محفوظة بشكل آمن وتلقى ضمانًا بأن الشاه سوف يمنحه اللجوء إذا ما احتاج إلى ذلك[١٥]. ثم طرد والى قتيبة واستعد للانتظار حتى يتجمع حلفاؤه فى الربيع. واتخذ كافة الاحتياطات ولكنه لم يقدر خصمه حق قدره .

كان قتيبة آنذاك فى مقر قيادته الشتوية فى مرو ، وكانت معظم قواته قد تفرقت عائدة إلى بلادها، ولكنه أرسل فى الحال اثنى عشر ألف رجل تحت قيادة أخيه إلى بلخ وأمره أن يبقى هناك حتى الربيع . وفى أوائل السنة التالية (سنة ٧١٠م) ، قبل أن يتجمع المتمردون كان قد جمع جيشًا من مرو ومن المستوطنات العربية فى الأجزاء الغربية من خراسان وسار قاصدًا طخارستان. كانت أولى محطاته مرقرود ، وهى بلدة صغيرة على نهر المرغاب الأعلى، وكان حاكمها قد تعهد بتأييد نيزك . وهرب الحاكم نفسه ولكن قتيبة قبض على ولديه وصلبهما. وكانت الطالقان محطته التالية، حيث تحكى بعض الروايات، أنه قتل وصلب عددًا كبيرًا من الناس لكى يرعب السكان فى المنطقة[١٦]. ثم أعلن ملك الفارياب خضوعه المهين وتم إنقاذه هو وشعبه . وبسرعة هرب ملك الجوزجان وواصل قتيبة زحفه حتى تلقى طاعة أهل بلخ.

وكان بوسع نيزك حينذاك أن يرى انهيار خطته . ذلك أن تصرف قتيبة الحاسم والسريع قد جعل موقفه سيئًا وتصالح كل حلفائه من الأمراء تقريبًا مع قتيبة . وكان هناك ولاة عرب فى جميع مدن طخارستان . وعند ذلك فرَّ جنوبًا إلى الهندوكوش، آملاً فى الوصول إلى كابل . وترك قسمًا من أتباعه فى خُلْم (تشكر جان الحديثة) ، حيث يترك الطريق جنوبًا سهول نهر أموداريا ويدخل فى ممر ضيق ، ربما فى القلعة

التى لا يزال من الممكن رؤية أطلالها فى المدينة[١٧]. ولم يستطع قتيبة أن يجد طريقا يلتف حول هذه العقبة حتى اقترب منه أحد ملاك الأراضى المحليين وعرض عليه أن يدله على ممر يدور من خلف القلعة فى مقابل أن يضمن سلامته . ومرة أخرى ، أتاحت الانقسامات والمنافسات بين الأهالى للعرب أن يستفيدوا منهم. وانقض رجال قتيبة على الحامية تحت ستار الليل واستولوا على القلعة . وفى الوقت نفسه كان نيزك قد هرب على طول الطريق الذى يمتد عليه الطريق الحديث من وادى نهر أموداريا حتى ممر سلنج وكابُل. واختبأ فى ملجأ جبلى فى موضع لايمكن التعرف عليه الآن فى ولاية بغلان. وكان قتيبة يغذ السير فى أعقابه . وسرعان ما لحق به وفرض الحصار على ملجئه على مدى شهرين. وبدأت إمدادات نيزك فى النفاد ولكن قتيبة كانت له مشكلاته أيضًا ، فسرعان ما سيحل الشتاء عليهم ولم يكن يريد أن يقع فى فخاخ الشتاء والجبال .

وبدأت المفاوضات. وأرسل قتيبة مستشارا من لدنه يسمى سليم، أخذ معه أحمالاً من الطعام ، بما فى ذلك طبقا يسمى الخبيص يعمل من البلح والزبد النقى. وانقض الهاربون الذين عضهم الجوع على الطعام وأدرك نيزك أن عليه أن يعقد الصلح أو يهلك، خاصة عندما أكد سليم على أن قتيبة على استعداد لقضاء الشتاء هناك إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك. وعرض سليم الأمان. ولكن نيزك كانت تراوده شكوك كثيرة « ... قال : ما كانت آمنه على نفسى ، ولا آتيه على غير أمان، فإن ظنى به أنه قاتلى، وإن آمننى، ولكن الأمان أعذر لى وأرجى...»[١٨].

وهكذا مضوا فى طريقهم إلى أسفل من مخبأ نيزك إلى السهل ، حيث كانت حيوانات الركوب جاهزة ، وسليم الناصح يحاول طمأنته طوال الطريق . وعندما وصلوا إلى الممر، تسحبت جماعة الحراسة التى كانت مع سليم إلى الخلف وراء نيزك تحسبًا إذا ما غيّر رأيه وحاول أن يهرب ثانية إلى الجبال . وكانت تلك بادرة سوء بالنسبة لنيزك . وعندما أحضروه إلى قتيبة تحققت أسوأ مخاوفه . وعندما استجوبه الوالى ، قال إنه نال الأمان من سليم ولكن قتيبة بادره بالرد بأنه كان يكذب . وكان يمكنه

(*) الطبرى ، ج٦ ، ص٤٥٦- ص٤٥٧ . (المترجم)

بسهولة أن يثير تمردًا آخر. ومن ناحية أخرى، كانت عهود الأمان تؤخذ بجدية شديدة والحنث فى أحدها ربما كان يجعل المفاوضات مع المتمردين الآخرين أشد صعوبة فى المستقبل. وكانت آراء المستشارين حول الوالى منقسمة تمامًا. وأخيرًا قال أحدهم إنه سمع الوالى يقسم بالله إذا وقع نيزك فى يديه ليقتلنه وأنه إن لم يفعل هذا، فلن يكون بوسعه أن يطلب العون من الله مرة أخرى . «... قال : أقول إنى سمعتك تقول: أعطيت الله عهدًا إن أمكنك منه أن تقتله ، فإن لم تفعل لاينصرنك الله عليه أبدا . فأطرق قتيبة طويلاً ، ثم قال : والله لو لم يبق من أجَلى إلا ثلاث كلمات لقلت : اقتلوه، اقتلوه ، اقتلوه؛ وأرسل إلى نيزك فأمر بقتله وأصحابه فقتل مع سبعمائة»(*)، هذا القتل القاسى والغادر كان وصمة فى سمعة قتيبة إلى الأبد ولكنه أرعب بقية الأمراء وجعلهم يخضعون . إذ كان موت نيزك يعنى نهاية التمرد وكان معظم أمراء طخارستان، على الأقل آنذاك، تحت السيطرة العربية الراسخة.

وكان قتيبة لا يزال يواجه تحديا صغيرا لسلطته بيد أنه كان مهمًا . فقد كانت مملكة الشومان الصغيرة على الضفة الشمالية لنهر أموداريا . وكانت عاصمتها مدينة حصينة فى موضع «شنابى» عاصمة طاجيكستان الحديثة. وكان ملك الشومان قد عقد الصلح مع قتيبة وقيل إنه صار صديقًا لصالح شقيق الوالى، مما يعد مثالاً آخر على الروابط التى كانت تتطور بين العرب والنخب المحلية. وكان هناك مندوب سياسى عربى قد تم تعيينه. وفى ذلك الحين نقض الملك الصلح وطرد الوكيل السياسى . وتوحى السهولة التى تم بها هذا الأمر أن المملكة كانت قد «فتحت» بطريقة سطحية تمامًا ولم تكن هناك حامية عربية . وتمثلت ردود فعل قتيبة فى محاولة تجربة الدبلوماسية . واختار رجلاً وصف بأنه «من نُسّاك خراسان» ربما كان داعية وربما كان أشبه بالدرويش، ومعه عياش الغنوى. وعندما وصلا ، لقيا استقبالاً عدائيًا من الأهالى المحليين الذين أطلقوا السهام عليهما. وعاد الناسك أدراجه ولكن عياش كان أصلب عودًا ونادى بصوت جهورى متسائلاً عما إذا كان هناك أى مسلم فى المدينة. وأجابه رجل واحد.

(*) الطبرى، ج٦ ، ص٤٥٨ . (المترجم)

وخرج يسأل عما يريده عيّاش الذى أجابه بأنه يطلب المساندة فى شن الجهاد ضد الأهالى. وقبل الرجل، وعلى الرغم من حقيقة أنهما كانا اثنين فقط، فإنهما اشتبكا مع العدو بقدر من النجاح . ثم شعر المسلم المحلى بأن ولاءه تجاه أبناء مدينته أقوى مما يربطه مع رفيقه فى الدين الجديد، فاستدار خلف عياش وقتله . ووجدوا به ستين جُرحًا وسرعان ما ندم أهل شومان على ما فعلوه، قائلين إنهم قتلوا رجلاً شجاعًا .

بيد أن الضرر كان قد وقع . فبعد حركة التمرد القريبة التى قادها نيزك ، لم يكن بوسع قتيبة أن يترك أى ملك محلى يتحدى سلطته ويخرج عليها ووطد عزمه على أن يجبرهم على الطاعة ودفع الجزية، بالقوة إذا لزم الأمر. وعلى أية حال، كان الملك فى حال من التحدى والجسارة. ولم يكن خائفًا من قتيبة لأنه كان يمتلك أقوى قلعة بين قلاع الملوك. « ... وقال لرسول صالح: ما تخوفنى به من قتيبة، وأنا أمنع الملوك حصنًا أرمى أعلاه، وأنا أشد الناس قوسًا وأشد الناس رميًا، فلا تبلغ نشابتى نصف حصنتى، فما أخاف من قتيبة»[١٩](*).

وبالمثال كان قتيبة لايعوقه شىء. وسار إلى بلخ، وعبر النهر وسرعان ما وصل إلى قلعة شومان . وهناك أقام المجنيقات وبدأ يقصف الأسوار . وكانت إحدى هذه الآلات المستخدمة فى الحصار تسمى «الفحجاء»، وكانت تقذف الأحجار التى كانت تنزل داخل المدينة مباشرة وقتلت رجلاً فى بلاط الملك[٢٠]. ومنذ تلك اللحظة يبدو أن كل شىء قد انتهى بسرعة كبيرة. فعندما بات واضحًا أن الملك لن يستطيع الصمود أكثر من ذلك، جمع كل كنوزه ومجوهراته وألقى بها فى أعمق بئر بالقلعة ، حيث لم يتم استخراجها أبدًا . ثم خرج ليلقى مصرعه وهو يقاتل . وكان قتيبة قد استولى على القلعة عنوة وكان على المدافعين أن يدفعوا الثمن ؛ إذ تم قتل جميع المحاربين ، وتم سبى غير المحاربين. لقد تم الاستيلاء على شومان، وقُتل الملك، ولكن يبدو أن الإمارة نجت وبقيت لتستعيد هويتها، لأننا نسمع عن أمير لاحق لشومان يحارب بوصفه حليفًا للمسلمين .

(*) الطبرى، ج٢ ، ص٤٦٢ - ص٤٦٣ . (المترجم)

وفى طريق عودته إلى مرو، أرسل قتيبة أخاه عبد الرحمن لزيارة طرخون ، ملك سمرقند ، فقط لكى يتأكد من أنه لايخطط لأية أعمال عدائية وليجمع الجزية. وتقابل مع جيش طرخون فى أحد المروج بعد الظهر. وتفرق الجنود الصغد فى جماعات وبدءوا يشربون الخمر حتى «... عبثوا وعاثوا وأفسدوا، فأمر عبد الرحمن أبا مرضية - مولى لهم - أن يمنع الناس من شرب العصير، فكان يضربهم ويكسر آنيتهم ويصب نبيذهم، فسال فى الوادى، فسمى مرج النبيذ...»(*) واتخذت إجراءات صارمة لمنع العرب من أن يحذو حذوهم. وتم جمع الجزية وعاد عبد الرحمن إلى أخيه فى مرو.

كان سلوك قتيبة شديد الوطأة محل استياء فى الكثير من المناطق . ففى سمرقند كان هناك قلق متصاعد وعدم رضى متزايد تجاه موقف طرخون المتخاذل ؛ وكانوا يسمونه العجوز الشغوف بالإهانة ، كما ساءتهم حقيقة أنه وافق على أن يدفع الضرائب. وتم خلعه عن عرشه لصالح رجل يدعى غوزك(**)، قال البعض إنه أخوه[٢١]. وكان وقع الخلع على طرخون غاية فى السوء ، قائلا إنه يفضل الموت بيديه على أن يقتله أحد، وانكفأ على سيفه حتى خرج من ظهره[٢٢]. وكانت حالات الانتحار السياسى مثل هذه غير معروفة بالمرة فى العالم العربى، على الرغم من أنها كانت شائعة بطبيعة الحال فى روما الإمبراطورية، ويبدو أيضا أنها كانت معتادة فى آسيا الوسطى. وكان لموته عواقب وخيمة على سمرقند، لأنه أتاح لقتيبة أن يظهر فى صورة المنتقم لطرخون عندما قاد جيشه فى المرة التالية داخل بلاد الصغد، ولكن غوزك برهن على كونه حاكماً قديراً مخادعاً ، يحرص باستمرار على صون استقلاله عن جيرانه الأقوياء .

وشهد موسم الغزو التالى سنة ٧١١م ذهاب قتيبة جنوباً لمواجهة زُنبيل سيستان، الذى ربما كان أقوى الأمراء المعادين الذين واجههم المسلمون . وعلى أية حال ، ففى هذه المرة، لم يكن هناك قتال خطير ووافق الزنبيل على معاهدة الصلح . وسيكون من

(*) الطبرى، ج٢ ، ص٤٦٢ - ص٤٦٣ . (المترجم)

(**) أثبتها المؤلف فى النص الإنجليزى Ghurak غورك، والتصحيح من الطبرى، ج٦، ص٢٦٣ . (المترجم)

المثير أن نعرف ما إذا كان قتيبة قد سمع أنه فى السنة نفسها، ولكن على مسافة ستة آلاف كيلو متر غربًا، كان هناك قائد مسلم آخر ، هو طارق بن زياد ، قد عبر مضيق جبل طارق وبدأ فتح إسبانيا(٢٣).

وفى السنة التالية ، وقبل بدء الحملات، كان قتيبة قد تلقى تحذيرًا من أن الكثير من قواته قد أُنهكوا بعد الزحف الطويل من سيستان وأنهم يريدون سنة راحة من الحملات العسكرية(٢٤)، ولكن موقفا طارئًا أجبرهم على استئناف الحملات . فقد لجأ ملك خوارزم إلى قتيبة طالبا المساعدة ضد أخيه خُرّزاد المتغلب عليه. وكان خُرّزاد معتادًا على أن يتخذ لنفسه ما شاء من العبيد، أو حيوانات الركوب، أو البضائع الغالية التى كان مغرمًا بها، بل إنه كان يأخذ بنات رجال البلاط وأخواتهم غصبًا. وكان الملك عاجزا عن التصرف ولكنه أرسل سرًا رُسُلاً إلى قتيبة ، يدعوه إلى بلاده لكى يقبض على أخيه ويسلمه إلى العدالة . وعلامة على إخلاصه أرسل ثلاثة مفاتيح ذهبية إلى مدن خوارزم . وكانت فرصة جيدة. بحيث لا يفوتها قتيبة الذى كان يخطط لحملة أخرى إلى بلاد الصغد ، فقرر تحويل وجهته.

وأخبر ملك خوارزم نبلاءه أن قتيبة متوجه إلى بلاد الصغد وأنهم معفون من العمل العسكرى تلك السنة، ولذلك بدأوا يشربون ويسترخون ، على ما تقول الروايات . والشىء التالى الذى عرفوه أن قتيبة وجيشه ظهروا فى «هزارسب» (ومعناها بالفارسية الألف حصان) وهى المدينة التى تقع على الضفة الأخرى من النهر . وأقنع رجاله بأنهم لايجب أن يقاتلوا قتيبة، وبدأت المفاوضات : ووافقوا على الصلح فى مقابل عشرة آلاف أسير وبعض الذهب . وفى أثناء المفاوضات ، حارب شقيق قتيبة وساعده الأيمن عبد الرحمن شقيق الملك وقتله وأعدم كثيرين من مؤيديه بدم بارد. وكانت تلك مرحلة أخرى فى السيادة الإسلامية على المملكة القديمة فى دلتا النهر، ولكن السلالة الملكية آل فريغون واصلوا الحكم بخوارزم على مدى مائتى سنة أخرى ، كما استعادت المنطقة ثقافتها وهويتها المتمايزة الفردية.

وعلى أية حـال، كان الهدف الحقيقى من حملة سنة ٧١٢م سمرقند. فقد كانت سمرقند أكبر وأقوى مدينة فى المنطقة، وكانت العاصمة الفعلية لبلاد الصغد. والمدينة كما هى اليوم بنيت بعد نهب المغول لها سنة ١٢٢٠م وقد جمّلها تيمورلنك وأسرته أواخر القرن الرابع عشر وفى القرن الخامس عشر بالقباب ذات الطلاء الأزرق والمنائر التى جلبت لها الشهرة . وفيما بعد أضاف الحكام الأوزبك المزيد من المدارس وأتموا الميدان المعروف باسم رجستان، وبعد غزو سنة ١٨٨٠م، طور الروس المدينة بشوارعها الأنيقة التى تحف بها الأشجار من الجانبين . وتقع مدينة العصور الوسطى الباكرة وراء استحكامات قوية من الطوب اللبن بين المدينة التيمورية والنهر. والموقع الآن موحش ومهجور[٢٤]. ومن السهل أن تميّز خطوط السور وبقايا القلعة فيما وراء خنادقها المائية العميقة، تطل على النهر. ومن بين هذه الأطلال يوجد قصر قديم، أسواره مطلية ومرسوم عليها سلسلة متتالية من صور الأمراء الصغد وضيوفهم بأناقتهم، مما يعطى صورة حية للعالم الذى دمره العرب(*).

وتولى الملك الجديد غوزك حكم سمرقند ، وعقد العزم على مقاومة العرب بعنف . وقيل إن جيش قتيبة كان عشرين ألف رجل، وهى واحدة من بين أكبر القوات التى دفع بها المسلمون إلى ميادين القتال فى بلاد ما وراء النهر. وكانت نسبة معتبرة منهم مجندين من السكان المحليين فى خوارزم وبخارى، ولكن ليس من الواضح ما إذا كانوا قد اعتنقوا الإسلام وخرجوا تحت راية الجهاد ، أم أنهم كانوا من المرتزقة ، أم كانوا رجالاً أجبروا على القتال ضد إرادتهم.

ويبدو أن قتيبة قام فى البداية بمحاولة لمفاجأة المدافعين بإرسال أخيه عائدًا إلى مرو، بحيث يعطى الانطباع بأن الحملات انتهت فى تلك السنة، بيد أن الخدعة لم تنطل

(*) هذه العبارة الأخيرة تحمل عداء صارخًا وانحيازًا بيّنًا من المؤلف ؛ فالثابت أن الفتح الإسلامى لم يجلب الدمار والخراب على هذه المناطق ، والدليل على هذا فى كلماته هو نفسه فى الفقرة السابقة . فقد كان العرب يعيشون ويتركون السكان يمارسون حياتهم كما أنه ذكر فيما سبق أن العرب حكموا مع الأرستقراطية المحلية ومن خلالها . ولكن «آفة الرأى الهوى». (المترجم)

على المدافعين. وفى الوقت نفسه كان السمرقنديون قد لجأوا إلى ملك الشاش (طشقند) وإخشيد فرغانة طالبين منهما المساعدة ، وأقنعوهما بالمساعدة عندما حذروهما من أن العرب لو فتحوا سمرقند، فإن الدور سيكون عليهم بعد ذلك . وانطلقت قوة من الفرسان تم تجنيدهم من بين جميع الأرستقراطيين فى بلاد ما وراء النهر، ليشنوا هجوماً ليلياً مفاجئاً على المعسكر العربى. ومن سوء حظهم أن قتيبة كان قد عرف بخطتهم : ويبدو أنه كان لديه على الدوام جهاز مخابرات جيد . وأرسل واحداً من أخوته ، هو صالح ، ومعه قوة صغيرة ليكمن لهم . وكان القتال الليلى وحشياً للغاية . وقد أثبت نبلاء بلاد ما وراء النهر جدارتهم ، ولكن الهزيمة كانت من نصيبهم فى نهاية الأمر ؛ وقتل كثيرٌ منهم، وتم أخذ عدد قليل من الأسرى وفقدت كثير من العائلات الشهيرة أبناءها وخيولها . وغنم المسلمون معدات غالية وحيوانات ركوب ممتازة ، وسمح قتيبة لعصبة المنتصرين الصغيرة بأن يحتفظوا بالغنائم التى حصلوا عليها من الكمين الليلى، بدلاً من تقسيمها بين الجيش كله حسبما جرت العادة.

ويبدو أن هزيمة هذه القوة قد سلبت المدافعين شجاعتهم. وحاصر قتيبة المدينة على مدى شهر، ووضع آلات الحصار خارج الأسوار، وخلق ثلمة فى السور سدّها المدافعون بأكياس الحبوب. وضغط المسلمون داخل الفتحة ، وقد رفعوا دروعهم فوق وجوههم لحماية أنفسهم من زخّات السهام التى أطلقها الصغديون عليهم. وما أن تمكنوا من ركوب الأسوار حتى أرسل غوزك الرسل لطلب الصلح . ووافق قتيبة[٢٦]، وكان على السمرقنديين أن يدفعوا مبلغاً كبيراً من المال على سبيل الجزية سنويا ، وعدداً كبيراً من أفضل العبيد ليس فيهم شيخ ولا صبى. وكان لسيطرة قتيبة أيضاً جانب دينى واضح. فقد أصرّ على إقامة مسجد ومنبر وأمر بتدمير بيوت النار القديمة وتحطيم الأصنام التى بها. وتم نزع ما على جميع التماثيل فى سمرقند من زينتها الفضية والذهبية والحريرية وتكومت فى كوم كبير. وأمر قتيبة بحرقها . وحثه غوزك والصغد على ألاّ يفعل هذا ، محذرين من أن أى واحد يدمرها سوف يعانى من جراء ذلك، ولكن قتيبة لم يخش شيئاً وأشعل النار بنفسه. وتم سك مبلغ ضخم من المال من مسامير الذهب والفضة التى تم جمعها . هذه الإزالة العمدية للديانة القديمة لم تكن

عادية فى الفتوح الإسلامية . إذ كان قتيبة قد أوضح دائمًا أن حملاته كانت جهادًا ، على الرغم من أنه نادرًا ما كان مدمرًا على هذا النحو . وربما كان الأمر أيضا أنه أراد كسر المقاومة الصغدية إلى الأبد، وكان انتصاره واضحًا بشكل مؤكد عندما أشعل الشعلة لحرق تجهيزات الديانات القديمة.

وعلى أية حال، فإنه لم يدمر النظام السابق تمامًا. فقد بقى غوزك ملكًا على الصغد، ووطد نفسه فى اشتيخان ، على بعد حوالى ٤٠ كيلو متر من سمرقند، وقنع قتيبة بترك حامية عربية من حوالى أربعة آلاف رجل فى المدينة تحت قيادة أخيه عبد الرحمن . وصارت المدينة المسورة القديمة معقلاً عربيًا خالصًا. ولم يُسمح للأهالى من غير المسلمين بالبقاء داخل أسوار المدينة ، إلاّ إذا كانت بحوزتهم تصاريح على هيئة أختام من الصلصال على أيديهم: فإذا جفت قبل أن يرحلوا ، كان يجب قتلهم لأن ذلك يظهر أنهم بقوا فى المدينة وقتًا أطول من اللازم . فإذا جلب أحدهم السكاكين والأسلحة إلى داخل المدينة فينبغى أن يقتل ، ولم يكن مسموحًا لأى منهم بقضاء الليل داخل الأسوار(٢٧).

كان فتح سمرقند حاسمًا بيد أنه كان مزعزعًا أيضا. فقد كان غوزك وكثير من الصغد لا يزالون مستقرين بالمنطقة(٢٨)، على حين بقيت الحامية العربية معزولة فى بيئة معادية إلى حد كبير. ولا يمكن أن يكون هناك شك لدى الجنود المتمركزين هناك فى أن غوزك سيحاول طردهم إذا ما سنحت له فرصة.

وقد استجاب قتيبة لهذا الموقف ، لا بتقوية القبضة العربية على بلاد الصغد، وإنما بقيادة جيوشه بعيدًا ليقوم بالمزيد من الغزوات . وفى سنة ٧١٣م عبر النهر كالعادة. وبالإضافة إلى قواته العربية فرض على أهل بخارى وكيش، والنسف وخوارزم تقديم عشرين ألف رجل . وساروا عبر بلاد الصغد دون أن يواجهوا مقاومة واضحة . ثم أرسلت القوات المحلية شمالاً إلى الشاش على حين قاد قتيبة رجاله شرقًا إلى فرغانة . وهناك القليل من المعلومات التى يُعتد بها عما حققته هذه الإغارات - قصائد قليلة وروايات غير متسقة . ويمكن أن نكون متأكدين إلى درجة معقولة أنها لم تكن كارثة، بيد أنه لم يتم فتح أراض جديدة(٢٩).

وفى السنة التالية عاد قتيبة إلى ولايات الجاكسارات مرة أخرىٰ محاولاً السيطرة على طريق الحرير. بل إن هناك ما يشى بأنه وصل إلى كاشغر ، التى كانت من ضمن أراضى أباطرة أسرة تانج فى الصين[٣٠]. ومن المؤكد أن الصين كانت تلوح فى آمال العرب العريضة فى ذلك الوقت . إذ يقال إن الحجاج ، فى الكوفة البعيدة ، كان قد عرض منح ولاية الصين لمن يصل إليها أولاً من قادته فى المشرق[٣١]. وكانت القوات العربية آنذاك تقترب من حدود الإمبراطورية الصينية أكثر من أى وقت مضى ، وبدأ كل من العرب والصغد يرسلون الرُسل فى محاولة لكسب تأييد الصين . وفى سنة ٧١٣م وصل وفد عربى إلى البلاط الإمبراطورى . ونعرف من المصادر الصينية أن وفداً وصل وأنهم تسببوا فى فضيحة دبلوماسية برفضهم السجود للإمبراطور بالطريقة التقليدية ، ولكن كانت البعثة مع هذا تعتبر ناجحة. ولاشك فى أنه تمت مناقشة المسائل العسكرية والتجارية على السواء[٣٢]. وفى الوقت نفسه، لجأ حاكم الشاش ، تحت وطأة التهديد المتصاعد الذى تشكله قوة قتيبة ، إلى طلب المساعدة العسكرية من الصين ، ولكن شيئا لم يحدث.

هذه العلاقات الدبلوماسية المتبادلة بقيت ذكراها فى كل من المصادر الصينية وفى سرديات غير معتادة فى المصادر العربية . وكما وصلتنا المصادر العربية، فيها عناصر خيالية كثيرة وقد رفضها الباحثون الحديثون على أساس عدم جدارتها ؛ ذلك أن «الملك» الصينى ليس له اسم ولم يرد بها أى ذكر لموقع جغرافى . ومن غير الواضح تماماً ما إذا كان العرب قد زاروا العاصمة الإمبراطورية شانج - آن أم أنهم ببساطة قد تفاوضوا مع قائد أو حاكم صينى فى سنكيانج . إلا أنه يكاد يكون من المؤكد أن تاريخها يرجع إلى القرن الثامن الميلادى وتخبرنا بالكثير عن تصور العرب لأنفسهم ومواقفهم تجاه الشعوب الأخرى.

وتحكى القصة أن «ملك » الصين طلب من قتيبة أن يرسل إليه بعض الرُسل حتى يمكنه أن يعرف المزيد عن العرب ودينهم. وتم اختيار عشرة أو اثنى عشر رجلاً أقوياء حسنى المظهر وأرسلوا إليه . وعندما وصلوا إلى البلاط الصينى ذهبوا إلى الحمام ثم خرجوا وقد ارتدوا ملابس بيضاء وتعطروّا . ودخلوا البلاط . ولم يتحدث أحد من أى

من الجانبين ، ولم يلبثوا أن انسحبوا وعندما ذهبوا سأل الملك الصينى الحاضرين عن رأيهم، فأجابوه «... رأينا قومًا ما هم إلا نساء. ما بقى أحد منا حين رآهم ووجد رائحتهم إلا انتشر ما عنده »(٢٣). وفى اليوم الثانى لبسوا الوشى وعمائم الخز والمطارف ، وعندما ذهبوا قال من فى البلاط إنهم أشبه بالرجال وهم كذلك. وفى اليوم الثالث ذهبوا لرؤية الملك «... فشدوا عليهم سلاحهم ، ولبسوا البيض والمغافر ، وتقلدوا السيوف وأخذوا الرماح ، وتنكبوا القسى ، وركبوا خيولهم ، وغدوا فنظر إليه صاحب الصين فرأى أمثال الجبال مقبلة، فلما دنوا ركزوا رماحهم ، ثم أقبلوا نحوهم مشمرين، فقيل لهم قبل أن يدخلوا ارجعوا، لما دخل فى قلوبهم من خوفهم»(**).

وفى ذلك المساء قابل الملك رئيس الوفد. وشرح له أنهم لبسوا فى اليوم الأول مثلما يفعلون فى عائلاتهم ، وفى اليوم الثانى مثلما يفعلون عندما يحضرون مجلس الأمير، أما فى اليوم الثالث فإنهم فعلوا ما يفعلونه إذا لقوا أعدائهم. فقال الملك حينئذ إنه كان مستعدًا لأن يكون واسع الصدر عندما عرف مدى حاجة زعيم المسلمين ومدى قلة أتباعه ؛ ولو كان الأمر خلاف ذلك لأرسل إليهم من يقضى عليهم. ورد المبعوث المسلم فى حنق بأن جيش سيده كبير لدرجة أنه بينما يكون قادته فى الصين تكون مؤخرة الجيش فى منابت الزيتون(***)، وكيف يكون محتاجًا، وهو الذى ترك الدنيا بأسرها خلفه وهو قادر عليها. «... وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا أجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه ولا نخافه ، قال : فما الذى يرضى صاحبك؟ قال : إنه قد حلف ألاَّ ينصرف حتى يطأ أرضكم، ويختم ملوككم، ويُعطى الجزية ، قال : فإنا نخرجه

(*) الطبرى، ج٢ ، ص٥٠١ . (المترجم)

(**) رأيت إثبات النص بكامله حتى يستقيم المعنى، انظر : الطبرى، ج٦ ، ص٥٠٢ . (المترجم)

(***) يقول النص «قال ... فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف ، فإنى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه، قال له : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون !»

من يمينه ، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطأه ، ونبعث له بعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها ...»(*) وتم حفظ شرف الجميع، ولايمكن أن نرى الزعماء المسلمين وقد قبلهم الحكام القدامى الراسخون باعتبارهم أنداداً لهم.

وقد برهنت سنة ٧١٥م على أنها آخر سنوات غزوات قتيبة . فقد انتهت مسيرة غزواته، لا بواسطة القوة العسكرية الصينية، وإنما بفعل الأحوال السياسية الإسلامية الداخلية. فقد كانت غزوات قتيبة ناجحة إلى هذا الحد بسبب اندفاعه الشخصى ولأنه كان يتمتع بمساندة غير محدودة من السلطات الأموية؛ الحجاج والى العراق وجميع المشرق فى عاصمته الجديدة واسط، والخليفة الوليد بن عبد الملك . والآن اختفى هذان اللذان كانا يدعمانه ، فقد مات الحجاج فى صيف سنة ٧١٤م/شوال ٩٥هـ ، والوليد بن عبد الملك فى بداية فصل الربيع سنة ٧١٥م/جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ، وكان الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك معروفًا بأنه قريب من أسرة المهلب الذين كان قتيبة قد أخرجهم من خراسان . وكان قتيبة قلقًا من الخليفة الجديد، وخاف أن يفقد مركزه أو يحل به ما هو أسوأ من ذلك . وفى البداية ظهر كأن كل شىء على ما يرام وأرسل الخليفة الجديد خطابًا مشجعًا إلى قتيبة ، يحثه على القيام بعمله الطيب فى الفتوح، ولكن قتيبة بقى على قلقه واتخذ احتياطه بنقل أهله من مرو إلى سمرقند ، حيث سيكون من الصعب تمامًا أن يصل إليهم أعداؤه. ووضع حراسة على نهر جيحون عبروا ومعهم الأوامر بألا يدعوا أحدًا يمر من الغرب إلا إذا كان معهم إذن بالعبور[٣٤]. ومن المثير أن الرجل الذى عهد إليه بهذا الدور الأمنى المهم لم يكن عربيًا على الإطلاق ، ولكنه من مواليه من خوارزم ، وكان قد اعتنق الإسلام حديثًا . وكان هذا برهانا على المرارة التى تخلفت عن المنازعات فيما بين العرب بحيث أنه كان يشعر بالأمان أكثر فى سمرقند التى فتحت منذ وقت قريب، وهو محاط بالصغد الساخطين، بدلاً من العاصمة الإقليمية القديمة حيث كان الحكم الإسلامى قد رسخ على مدى خمس وستين سنة.

(*) نفسه، ج٦، ص٥٠٢ . (المترجم)

ويبدو أن قتيبة قرر أنه من المؤكد أن يفقد وظيفته تحت الإدارة الجديدة وقرر رفض سلطة سليمان ، واثقًا من أن ولاء رجاله سيوفر له الدعم العسكرى . وربما كان قد تصور أنه يقود جيش خراسان الذى صقلته المعارك وزادت صلابته غربًا إلى العراق ثم إلى بلاد الشام فى النهاية ، ليقيم على العرش خليفة مطيعًا ، مثلما فعل أبو مسلم الخراسانى ومؤيدو العباسيين بعد خمس وثلاثين سنة.

وخطب فى قواته[٣٥] خطبة بسط فيها إنجازاته كما رآها وطلب منهم مساندته . وأوضح كيف أنه كان قد جاء بهم من العراق ، وكان يوزع عليهم الغنائم ويدفع رواتبهم كاملة دونما تأخير . وعليهم فحسب أن يقارنوا بينه وبين من سبقوه من الولاة ليروا مدى تفوقه عليهم. وهم يعيشون فى سلام آمنين يرفلون فى النعيم. وقد أعطاهم الله فرص الفتح وكانت السُبل آمنة بحيث يمكن للمرأة أن تسافر على ناقة من مرو إلى بلخ دون خشية من تحرش أو مضايقة[٣٦].

وكان حتمًا أن تجىء تحية الخطبة التى ألقاها مثل صمت الحجارة. وربما لم يكن قد مهد للأمر أو استشار من حوله بما يكفى . فقد كان الجميع يعرفون أنه كان قائد عظيمًا ولكن موجة قوية من المعارضة الصامتة ضد فتح أبواب الحرب الأهلية كانت أمامه. وربما كان قتيبة قائدًا عظيمًا للمسلمين ضد غير المسلمين ، ولكنه لم يكن قادرًا على الاعتماد على المساندة القبلية القوية لدفع قضيته ضد المسلمين الآخرين . وكان قد تحمل جهدًا كبيرًا لزرع ولاء المسلمين من غير العرب فى خراسان وضمهم إلى جيشه ، ولكن هؤلاء أيضا كانوا مترددين فى التورط فى حرب أهلية فيما بين العرب. فقد قال قائدهم حيان النبطى لأتباعه : «هؤلاء يقاتلون على غير دين، فدعوهم يقتل بعضهم بعضًا»[٣٧].

ولم يكن هناك سبيل إلى التراجع . إذ كان قتيبة قد راهن بكل شىء على الدعوة العلنية لولاء قواته ولكنهم لم يستجيبوا . وبدا أنه فقد أعصابه تمامًا آنذاك وبدأ يشتم رجال القبائل العربية بكل الاحتقار الذى تحمله البلاغة العربية التقليدية . فقد أسماهم كناسة المصرْين (أى البصرة والكوفة) « ... جمعتكم من منابت الشيح والقيصوم

ومنابت القلقل»(*) حيث كانوا يركبون البقر والحمير. وكانوا عراقيين لكنهم سمحوا للجيش الشامى أن يرقد فى أفنية دورهم وتحت أسقفها . وأشار إلى كل قبيلة مفردة على حدة «... يا معشر بكر بن وائل ، يا أهل النفخ والكذب والبخل ...» ، «... يا معشر عبد القيس القساة، تبدلتم بأبر النحل أعنة الخيل، يا معشر الأزد تبدلتم بقُلوس السفن أعنة الخيل الحُصُن ...»(*) والمغزى واضح، أنهم كانوا فلاحين وصيادى أسماك، وليسوا عرباً مقاتلين فخورين . وفى غضون دقائق قليلة كان قد نجح فى إبعاد أى واحد ربما كان سيقتنع بتأييده . وعندما عاد إلى بيته ، شرح لأهل بيته ما فعله «... فقال لما تكلمت فلم يجبنى أحد غضبت ، فلم أدر ما قلت»(*) ثم واصل سب القبائل مرة أخرى : «... وأما بكر فإنها أمة لاتمنع يد لامس ، وأما تميم فجمل أجرب، أما عبد القيس فما يضرب البعير بذنبه، وأما الأزد فأعلاج شرار من خلق الله»(*).

وصار وضعه أنذاك يائسًا . فقد التفت المعارضة حول وكيع التميمى البدوى المسن الفظ. وتقدم المصادر العربية صورة حية لهذا الرجل فى مصطلحات تتخطى الصياغات المعتادة فى السباب. ومن بين أشياء أخرى، اتهمه أعداؤه بأنه سكير يجلس للشراب مع ندمائه حتى يلوث ثيابه الداخلية بفضلاته[٣٨]. أما مؤيدوه فزعموا أنه كان قادراً على تولى الأمر «... إن أحد لا يتقلد هذا الأمر فيصلى بحرّه ، ويبذل دمه ، ويتعرض للقتل ... فإنه مقدام لا يُبالى ما ركب ولا ينظر فى عاقبة»[٣٩]. وكان على استعداد لشن هجوم على قتيبة . وعقد اتفاقًا مع قائد غير العرب، حيان النبطى، يقضى بأنهما سوف يقتسمان عوائد الضرائب فى خراسان فيما بينهما. وتخلى الجميع أنذاك عن قتيبة ولم يبق معه سوى عائلته. وطلب عمامة كانت أمه قد أعطتها له كان يلبسها دائمًا وقت الشدائد وفرسًا جيد التدريب كان يعتبره محظوظًا فى الحرب. وعندما جاءت الفرس كان مضطربًا ولم يستطع أن يركبه . وكان هذا نذير شؤم أقنعه بنهاية اللعبة فترك نفسه لليأس، ورقد على سريره قائلاً «... هذا أمرٌ يراد...»[٤٠].

(*) من نباتات الصحراء. أنظر الطبرى، ج٦ ، ص٥١٠، ص٥١١ . (المترجم)

واستمر الضرر . وأرسل قتيبة أخاه صالح ، الذى كان صديقًا لملك الشومان، لكى يحاول التفاوض مع المتمردين ، ولكنهم أطلقوا السهام عليه وأصابوه فى رأسه . وتم حمله إلى قتيبة فى مصلاه وجلس قتيبة معه برهة قبل أن يعود إلى سريره . وانقض أهل السوق والغوغاء ، على أخيه عبد الرحمن ، الذى غالبًا ما كان يقود قوات المسلمين فى أشد المواقف صعوبة، وقذفوه بالحجارة حتى قتلوه. وعندما ضيَّق المتمردون الخناق على قتيبة نفسه أشعلوا النيران فى الإسطبلات التى كان يحفظ فيها إبله وخيوله . وسرعان ما قطعت حبال الخيمة الكبيرة واندفع المتمردون إلى داخلها وقتلوا قتيبة . وكما يحدث غالبًا كانت هناك منازعات حول من قتله فعلاً ومن كان له شرف أخذ رأسه إلي وكيع . وأمر وكيع بقتل جميع عائلة قتيبة وصلب الجثث.

وقد أدهش الغضب والحقد الذى تم به الهجوم على الرجل الذى قاد الجيوش المسلمة فى بلاد ما وراء النهر بهذا النجاح المعاصرين . وقد تعجب الفرس فى الجيش المسلم من أن العرب استطاعوا أن يعاملوا رجلاً أنجز كل هذه الإنجازات بهذا الشكل السيئ ؛ «... فقال رجل من عجم أهل خراسان : يا معشر العرب، قتلتم قتيبة ، والله لو كان قتيبة منا فمات فينا جعلناه فى تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا، وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة ...»[٤١] ولا حاجة بنا إلى القول بأن قصائد كثيرة قد نظمت عن الموضوع ، وقد مجد كثير منها أعمال أبناء القبائل الذين قتلوه . ولكن آخرين رثوا موت محارب عظيم فى سبيل الإسلام، مثل الشاعر[٤٢] الذى خاطب بكلماته الخليفة الجديد فى دمشق، يحمل شيئًا من الشعور بالإثارة والمغامرة فى المجهول الذى لابد وأن يكون قد خالج الكثير من أتباع قتيبة :

سليمان كم من عسكر قد حوت لكم	أسنتنا والمقربات بنا تجرى
وكم من حصون قد أبحنا منيعة	ومن بلد سهل ومن جبل وعر
ومن بلدة لم يغزها الناس قبلنا	غزونا نقود الخيل شهراً إلى شهر
مرنَّ على الغزو الجرور ووُقرت	على النَّفر حتى ما تُهال من النفر

وحتى لو ان النار شبت وأكرهت — على النار خاضت فى الوغى لهب الجمر
تلاعيب أطراف الأسنة والقنا — بلبَّاتها والموت فى لجج خضر
بهن أبحنا أهل كل مدينة — من الشرك حتى جاوزت مطلع الفجر
ولو لم تعجلنا المنايا لجاوزت — بنار دم ذى القرنين ذا الصخر والقطر
ولكن آجالاً قُضين ومدة — تناهى إليها الطيبون بنو عمر(*)

الضربة التركية المضادة ٧١٥- ٧٣٧م

كان موت قتيبة نهاية حقبة فى الفتوح الإسلامية فى آسيا الوسطى . فحتى ذلك الوقت كانت القوات العربية ، ومعها أعداد متزايدة من الحلفاء المحليين، قد أحرزت تقدمًا عامًا . حقًا كانت هناك نكسات ، ولكن النموذج الكلى كان نموذجًا للسلطة والنفوذ الإسلامى المتصاعد. وكان لهذا كله أن يتغير فى ذلك الحين . وكان جزء من السبب وراء هذا راجعًا إلى الحوادث السياسية فى العالم المسلم. فبعد موت الوليد بن عبد الملك سنة ٧١٥م تتابع على عرش الخلافة ثلاثة خلفاء هم سليمان (٧١٥-٧١٧م وعمر بن عبد العزيز (٧١٧-٧٢٠م) ويزيد الثانى (٧٢٠-٧٢٤م) بسرعة . وكان لكل خليفة مستشارون مختلفون يحملون أفكارًا مختلفة عن السياسة على الحدود الشمالية الشرقية . وكانت التغيرات المستمرة فى الولاة تعنى أن المنافسات القبلية والخصومات بين العرب وغير العرب قد باتت أكثر صراحة وعنفًا فى كثير من الأحيان . ولم يحدث حتى تولى هشام (٧٢٤-٧٤٣) أن تمتعت السياسة الإسلامية مرة أخرى بفترة من الاستقرار والاتساق .

بيد أنه كانت هناك ضغوط أخرى من الشرق الأقصى . ونعرف من المصادر الصينية أن أمراء بلاد الصغد كانوا يرسلون سفارات منتظمة إلى البلاط الصينى،

(*) الطبرى، ج٦ ، ص٥٢١- ص٥٢٢ .

يحاولون إقناع الصينيين بالتدخل لمساعدتهم ضد المسلمين . وفى سنة ٧١٨م، مثلاً قدم كل من طوغشادة ملك بخارى، وغوزك أمير سمرقند ، ونريانا ملك الكوماذ، التماسات يطلبون المساعدة ضد العرب ، حتى على الرغم من أن بخارى وسمرقند كانتا قد «فتحهما» العرب وكان ملكاهما قد دخلا فى معاهدة وترتيبات مع السلطات المسلمة. والحاصل أن الصينيين لم يكونوا مستعدين للتدخل مباشرة فى هذه المنطقة النائية جدا عن مراكز قوتهم ، ولكنهم قدموا بعض التشجيع إلى الأتراك الطورانيين لغزو بلاد الصغد مساندة للأمراء المحليين.

وتتحدث المصادر العربية عن اثنين من الزعماء الأتراك(٤٣). والرئيس هو الخاقان وكان الخاقان الذى أشار إليه المؤرخون العرب فى تلك الفترة هو الزعيم التركى الذى تعرفه المصادر الصينية باسم صو – لو . وهو يظهر أحيانا فى بلاد ما وراء النهر باعتباره زعيمًا للأتراك جميعًا . وله مرؤوس يسمى كورصول فى المصادر العربية وكان اسمه التركى كول – شور.

ويكاد هذان أن يكونا التركيين الوحيدين اللذين أسمتهما المصادر العربية فى رواياتها عن الغزو. فعندما تصف الجيوش العربية ، والأعمال البطولية (وغير البطولية) التى قاموا بها ، غالبًا ما كانت تتم تسمية أبطالها : فقد كان حفظ هوية الأفراد من أول اهتمامات الكُتّاب . أما الأتراك ، على النقيض ، فهم «الآخر» تمامًا ، كتلة من المحاربين دون أية ديانة أو أخلاقيات أو هدف واضح سوى العداوة الشاملة تجاه المسلمين ولديهم رغبة نهمة فى الغنائم والأسلاب . أما القادة من أمثال الخاقان ، والكوصول (الصول) فقد وضعوهما فى مصاف خصومهم الأقوياء مثل هرقل إمبراطور الروم، ورستم القائد الساسانى الذى هُزم فى القادسية. فهما شجاعان كريمان، على طريقتهما، ولكنهما لا يمتلكان عدم الثقة بالنفس وتلك المعرفة الداخلية العميقة بأن المسلمين سوف ينتصرون لأن الله معهم على نحو ما جاء فى وصف القائدين الرومى والساسانى .

والشئون الحربية فيما بين موت قتيبة سنة ٧١٥م وموت صو - لو وانهيار الترك سنة ٧٣٩م مربكة ولن نحاول أن نتتبع كل مواجهة بالتفصيل ولكننا سنقدم انطباعًا عن هذا الصراع المرير الذى كان القتال فيه صعبًا . فقد كان العرب والأتراك أعداء ألداء ، يحاربون من أجل السيادة على هذه المنطقة الحبلى بإمكانيات الثروة . وقد انحصر بينهم الأمراء المحليون الذين ناضلوا من أجل الحفاظ على استقلالهم وثقافتهم ، وأبرزهم غوزك ملك سمرقند. وكانوا يأملون أصلاً فى أن يحررهم الأتراك والصينيون من نير المسلمين ولكن عندما مضى الوقت اكتشفوا أن الأتراك أيضا كانوا سادة يتسمون بالصعوبة ويطلبون الكثير.

ولم يكن وكيع الذى كان الأداة لإسقاط قتيبة يمتلك شيئًا من مواهب سلفه لإبقاء المسلمين معًا . وتفرقت الجيوش ، وتوالى الولاة فى تتابع سريع . وفى ربيع سنة ٧٢١م قاد القائد التركى كورصول رجاله إلى داخل بلاد الصغد . وكانت لحظة مواتية لكى يضرب ضربته . وثمة وال جديد هو سعيد الذى عرفته قواته باسم خذينة ، وهى كلمة ربما تعنى «العابث» ، فلم يكن مقصودا بالاسم أن يكون مديحًا . وكان الشعراء قساة فى انتقادهم لافتقاره إلى الخصال المادية :

سريت إلى الأعداء تلهو بلعبة	وأيرُك مسلول وسيفك مُغمد
وأنت لمن عاديت عِرسٌ خفية	وأنت علينا كالحسام المهنَّد
فلله در السَّغد لما تحزبوا	ويا عجبًا من كيدك المتردد

وقد وصل خراسان دون أن تكون لديه أية معلومات مباشرة عنها وفى الحال وجد نفسه متورطًا فى نزاع معقد حول عدم انتظام الشئون المالية ؛ مما أدى به إلى طرد عدد من الموظفين ذوى الخبرة . وكانت الإدارة تعانى من الفوضى عندما أحاط الجيش التركى بموقع عربى صغير يسمى قصر الباهلى ، لا نعرف موقعه على وجه التحديد. وكانت هناك مائة أسرة مسلمة فقط فى الحصن وبدءوا يتفاوضون على استسلامهم . وفى الوقت نفسه دعا حاكم سمرقند المسلم المتطوعين لرفع هذا الحصار. وفى البداية

تطوع أربعة آلاف رجل، ولكن عندما ساروا فى إتجاه العدو أنسّل كثير منهم هاربين تاركين قائدهم «المسيب بن بشر الرياحى» مع حوالى ألف من رجاله عندما اقتربوا من القلعة المحاصرة . وأرسل المسُيَّب اثنين من الكشافة فى ليلة مظلمة لمحاولة الاتصال بالحامية المدافعة. ولم يكن الأمر سهلاً لأن الأتراك كانوا قد أغرقوا المنطقة المحيطة بالمياه . وأخيرا وجدوا حارسًا جاء بالقائد إليهم . وقال الرسولان إن قوة الإنقاذ كانت على مسافة فرسخين فقط (إثنى عشر كيلو مترا) وسألوا المدافعين ما إذا كان بوسعهم الصمود تلك الليلة. وأجاب القائد بأنهم قد أقسموا على حماية نسائهم وأنهم جميعًا على استعداد للموت سويًا فى اليوم التالى. وعندما رجع الرسولان إلى المسُيَّب أخبر رجاله أنه سيسير فى الحال. وانقض المسلمون على معسكر الأتراك فجرًا . وكان هناك قتال صعب وسقط عدد من المسلمين البارزين شهداء ، ولكن فى النهاية أجبر الأتراك على الفرار . ودخلت قوة الإنقاذ القلعة وجمعت الناجين من المسلمين . وتذكر أحدهم فيما بعد أنه قابل امرأة طلبت منه باسم الله أن يساعدها . وطلب منها أن تركب خلفه وجذب ابنها وأخذه بين ذراعيها . ثم أسرعوا وعلق المنقذ فى إعجاب بالمرأة « ... فإذا هى أفرس من رجل» وفى النهاية شق المنقِذون والمنقَذون طريقهم حيث يجدون الأمان داخل أسوار سمرقند، ولكنهم خسروا القلعة . وعندما عاد الأتراك فى اليوم التالى، لم يجدوا شيئا غير جثث رفاقهم(٤٥).

كان إنقاذ المدافعين عن قصر الباهلى قصة مثيرة عن المسلمين الذين يحمون مالهم، وقد حكيت مرات ومرات واحتفى بها الشعر والأغانى، وهى تكشف عن التضامن الذى أحس به هؤلاء المستوطنون فى بلاد معادية ، بيد أنها لم تستطع إخفاء أن المسلمين كانوا يواجهون المتاعب . وقام الوالى سعيد بقيادة حملة إلى بلاد ما وراء النهر ، ولكن ما أثار احتقار مؤيديه الأكثر تشددًا أنه لم يتخط سمرقند . أما ما كان أسوأ من وجهة نظرهم فكان أنه سمح لهم بنهب الصّغد بقوله إن «السغد بستان أمير المؤمنين». وكان يعنى بهذا أن بلاد الصغد من الأملاك التى يجب فرض الضرائب عليها بدلاً من تدميرها فى الصراع(٤٦).

وبحلول ربيع سنة ٧٢٢م كان الموقف فى بلاد النهر يوصف بأنه «كارثى» بالنسبة للعرب. وحل محل خذينه وال آخر اسمه «سعيد الحريش» . وكان على النقيض من سلفه عدوانيًا قاسيًا قد عقد العزم على إعادة بسط السيطرة الإسلامية فى بلاد الصغد. وتتسم الأحداث التى تلت ذلك بأهمية خاصة ، لأننا نجد سلسلة من الوثائق المعاصرة تمامًا تدعم سرديات المصادر العربية ، وهو أمر يكاد يكون فريدًا فى حوليات الفتوح الإسلامية. ففى سنة ١٩٣٣م اكتشف أحد الرعاة سلة من الوثائق الصغدية على جبل موغ فى طاچيكستان الحالية التى كانت آنذاك جزءًا من آسيا الوسطى السوڤيتية . وكان جبل موغ قلعة صغدية وكان المعقل والملجأ الأخير لآخر الأمراء الصغد المستقلين فى بنچيكنت ديواشيتش[٤٧]. (ديواشنى فى الطبرى، ج٧ ، ص١٠) ومن المفترض أن الوثائق كانت قد تركت عندما استولى العربى على الحصن سنة ٧٢٢م وهى تحتوى على مراسلات سياسية ووثائق إدارية وقانونية. ومن الواضح أن ديواشنى كان رجلاً طموحًا يتحدى غوزك أمير سمرقند على زعامة أمراء الصغد ، وحاول جمع تحالف من النبلاء المحليين لكى يواجهوا التقدم العربى. ومن سوء الحظ بالنسبة له ، أن اختار كثير من الصغد الهرب إلى الشمال الشرقى، إلى فرغانة ، هاربين طلبًا للملاذ بدلاً من الانضمام إلى تحالفه والقتال . وفضلاً عن ذلك ، فإن كورصول زعيم الأتراك الذى كان قد طلب منه المساعدة، أثبت أنه مراوغ ولم يأت لمساعدته . والخطابات مهمة لأنها توفر بعض الرؤية الداخلية للمنافسات بين الأمراء المحليين فى محاولتهم صياغة رد على الغزوات الإسلامية وإنما لأنها أيضا تؤكد بقوة رواية المدائنى لقصة الغزوات العربية حسبما استخدمها الطبرى[٤٨]. إنه أمر غير معتاد ، ولكنه مريح بالنسبة للمؤرخ، أن تتوفر هذه التأكيدات المباشرة على أن الروايات التى يقوم عليها فهمنا لهذه الأحداث تحمل الحقيقة التاريخية فعلاً .

وقد غزا العرب بينكت فى سنة ٧٢٢م . وهو أكثر موقع جرت به حفائر بين جميع المواقع فى الصُغد. وكانت المدينة القديمة قائمة على هضبة تطل على الأراضى الخصيبة فى وادى زرفشان الأعلى . وهى تنظر شرقا ، عبر السهل المنبسط حول النهر، حيث تبدو القمم الوعرة لسلسلة جبال تركستان ظاهر للعيان . وكانت المدينة نفسها قد بُنيت

من الآجر ومن الطوب اللبن وصارت بحلول سنة ٧٢٢م ملاذاً ومنفى لكثير من النبلاء الصغد[٤٩]. وتم تشييد المنازل الكبيرة المزينة بلوحات الجص الملونة (الفريسكو) تصور السادة الصغديين وهم يحاربون ، ويصيدون ويقيمون الولائم . وقد انتهت كل هذه العظمة مع الغزو العربي وتعرض الكثير من أنحاء المدينة للدمار . وتمت إعادة بناء بعض الأحياء، على مستوى أشد تواضعاً، بعد سنة ٧٤٠م، عندما كانت الإدارة العربية آمنة أكثر في هذه المنطقة وبدأت التجارة تنتعش من جديد، ولكن المدينة لم تستعد رخاءها السابق أبداً .

وعلى الرغم من مثل هذا النجاح الذى حققته الجيوش العربية أحيانا ، لم يكن أحد من الولاة فى تلك الفترة قادراً على أن يضاهى إنجازات قتيبة ، ويعيد تأسيس الوضع الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر. فقد كانت القوات المشتركة من الصغد والأتراك تعنى أن قبضة العرب على الأراضى فيما وراء النهر كانت هشة كما كانت دائماً . وبحلول سنة ٧٢٨م كانت الأماكن الوحيدة في وادى زرفشان التى بقيت بأيدى المسلمين هى مدينة سمرقند الحصينة الكبيرة والمدن الحصينة الصغيرة مثل الدبوسية وكمرجه ، واللتين كانت تحميهما حامية من المسلمين، على الطريق الرئيسى هناك . بل إن بخارى كانت قد ضاعت فعلاً . وكان النضال من أجل الحفاظ على هذه المواقع بمثابة فاتحة الحملات التى وُجهت إلى بلاد ما وراء النهر، ويعد حصار الأتراك لكمرجة فى تلك السنة من أكثر أحداث الحرب التى جرى وصفها بحيوية . وقد بدأ الصراع بالصدفة تقريباً . فقد كان الخاقان ، زعيم الترك، يسير على امتداد الطريق الرئيسى من سمرقند قاصداً بخارى. ولم يكن المسلمون فى مدينة كمرجه الصغيرة على جانبى الطريق مدركين لما يفعله حتى أخذوا حيواناتهم خارج المدينة للشرب، وجاءوا فوق تل وشاهدوا «... جبل حديد» من القوات التركية وحلفائهم الإيرانيين . وكان على العرب أن يتحركوا بسرعة للاحتماء خلف أسوار المدينة . وأرسلوا بعض حيواناتهم لتشرب من النهر على سبيل الخداع لصرف الأتراك بعيداً ، ثم أسرعوا إلى التحصينات بأسرع ما يمكن، وشاهدهم الأتراك عندئذ فأسرعوا يطاردونهم. ولأن العرب كانوا يعرفون الأرض بشكل أفضل من الترك، فإنهم وصلوا إلى هناك أولاً بدءوا يتمترسون وراء التحصينات الترابية وأشعلوا النار فى القصب لتدمير الجسر الخشبى فوق الخندق.

وفى المساء، عندما تخلى الأتراك مؤقتًا عن الهجوم ، تلقى المدافعون عرضين بالمساعدة. وكان أحدهما من حفيد آخر ملك ساسانى ، يزدجرد الثالث، الذى كان قد انضم إلى الأتراك على أمل استعادة إمبرطورية أجداده. وعرض أن يتدخل لصالحهم لدى الخاقان ويضمن لهم الأمان. ومن المؤكد أنه كان من المناسب له أن يكسب صداقة جماعة من المحاربين العرب. ولكنهم احتقروه وقوبل عرضه بالرفض والشتائم(٥٠).

وكان العرض الثانى معقولاً أكثر. وجاء من رجل يدعى «بازغرى» . وكان من أهل المنطقة يبدو أن خاقان وثق به ليكون وسيطًا . وجلب معه إلى أسوار المدينة بعض الأسرى العرب الذين كان قد تم أسرهم فى وقت سابق فى الحملة. ونادى على المدافعين لكى يرسلوا أحدًا يتفاوض معه. ولم يكن الرجل الأول الذى أرسلوه يفهم التركية ومن ثم كان عليهم أن يبحثوا عن رجل آخر، وكان من باهلة قبيلة قتيبة ، وكان يعرف اللغة التركية. وجاء بازغرى بعرض مالى من خاقان : أن يأخذ المدافعين العرب فى جيشه ويدفع لهم رواتب كبيرة؛ فأولئك الذين كانوا يأخذون ستمائة درهم سوف يأخذون ألف درهم ، ومن كانوا يحصلون على ثلاثمائة سوف يتقاضون ستمائة. وقابل المبعوث العربى هذا العرض باحتقار «... فقال له يزيد : هذا أمر لايلتئم ، كيف يكون العرب وهم ذئاب مع الترك وهم شاءً ، لايكون بيننا وبينكم صلح. فغضب بازغرى ، فقال له التركيان اللذان معه : ألا نضرب عنقه ؟ قال : لا ، نزل إلينا بأمان. وفهم ما قالا له يزيد ، فخاف فقال: بلى يا بازغرى إلا أن تجعلونا نصفين ، فيكون نصف فى أثقالنا ويسير النصف معه ؛ فإن ظفر خاقان فنحن معه ؛ وإن كان غير ذلك كنا كسائر دائن أهل السُّغد..» ثم ذهب إلى السور، وتعلق بحبل وسحبوه إلى أعلى، وعندما وصل إلى بر الأمان ، تغيرت لهجته تمامًا . فقد سأل الناس بكمرجه عما يكون شعورهم إذا ما عرض عليهم الكفر بعد الإيمان «... فنادى : يا أهل كمرجه اجتمعوا ، فقد جاءكم

(*) الطبرى ، ج٧ ، ص٦١ – ص٦٢ .

قوم يدعونكم إلى الكفر بعد الإيمان ، فما ترون ؟ قالوا : لا نجيب ولا نرضى قال يدعونكم إلى قتال المسلمين مع المشركين، قالوا : نموت جميعًا قبل ذلك . قال : فأعلموهم»(*).

وهكذا صاح الناس معلنين رفضهم.

وفي الوقت نفسه أمر خاقان رجاله بأن يقذفوا الأشجار الخضراء (حتى لاتحترق) فى الخندق الذى يحيط بالمدينة على حين قذف المدافعون الحطب اليابس فى الخندق (وقد احترق) . وعندما امتلأ الخندق أشعله المسلمون وساعدهم الله بأن أرسل ريحًا قوية وفى ساعة واحدة تم تدمير العمل الذى استغرق ستة أيام. كما أن الرماة من فوق الأسوار قاموا بواجبهم، وجرح أو قتل عدد كبير من المهاجمين، بما فيهم بازغرى الذى أصابه جرح ومات فى تلك الليلة. وفى ذلك الحين بدأت الأمور تتحول إلى شىء بغيض . فقد أعدم الأتراك الأسرى العرب الذين كانوا قد أسروهم بالفعل، وكان عددهم حوالى مائة قتلوهم بدم بارد ، وقذفوا برؤوس أشهرهم إلى المدافعين . وفى المقابل ذبح العرب مائتين من أبناء الكفار على الرغم من أنهم حاربوا باستماتة . ثم هاجم الأتراك البوابة ونجح خمسة منهم فى الوصول إلى أعلى السور ولكنهم أزيحوا من مكانهم .

وقد حفظت السرديات اللاحقة الحوادث الفردية بقدر كبير من الوضوح . وفى واحدة من هذه طلب أمير الشاش (طشقند) الإذن بالقتال ، باعتباره خليفا للخاقان . ورفض الخاقان ، قال إن هذا سيكون أمرًا غاية فى الصعوبة ، ولكن الأمير أجاب أنه إذا ما كوفئ بجاريتين عربيتين فإنه سيهاجم ، فأعطى الإذن بالهجوم. وجاء هو ورجاله إلى ثلمة فى السور كان بداخلها بيت فيه فتحة تفتح على الثلمة. وكان هناك رجل يرقد مريضًا فى المنزل، ولكن على الرغم من مرضه استطاع أن يقذف خطافًا اشتبك فى قميص الزرد الذى يلبسه الأمير. ثم نادى المرأة والصبيان فى البيت لكى يساعدوه فى سحب ضحيته إلى الداخل. ثم ضرب الأمير بحجر وطُعن حتى مات. وجاء شاب تركى وذبح القاتل، وأخذ سيفه ، ولكن المدافعين أخذوا الجثة(٥١).

(*) الطبرى، ج٧، ص٦٢ .

وفى حادثة أخرى ، أخذ المسلمون الألواح الخشبية المستخدمة لدعم جوانب قنوات الرى وأقاموها على قمة السور وصنعوا أبوابا يمكن اتخاذها للوقاية وعمل فتحات فيها للرماة . وفى أحد الأيام سنحت لهم فرصة كبيرة عندما جاء الخاقان نفسه ليتفقد الأحوال . وقذفه أحد الرماة فى وجهه ولكنه كان يضع خوذة تبتية لها قطعة تحمى الأنف (ربما كانت تشبه الخوذة النورمانية التى تظهر فى نسجية بايبى) ولم يصبه أذى. كما أنه عانى أيضا من جرح سطحى بالصدر وهرب دون إصابة خطيرة.

وطال الحصار ، وبات الخاقان قلقًا شديد الضيق. واتهم حلفاءه من أمراء الصغد بأنهم زعموا أن فى المدينة خمسين حمارًا فقط ، وأن الأمر سوف يستغرق خمسة أيام فقط، ولكن شهرين قد مضيا وبقيت المقاومة على قوتها. وبدأت المفاوضات . وقال الخاقان إنه ليس من عادة الأتراك أن يرفعوا الحصار دون فتح المدينة أو رحيل المدافعين، على حين أجاب المسلمون بأنهم لن يتخلوا عن دينهم . ولذلك عرض اقتراح بأن يرحلوا إلى سمرقند أو الدبوسية ، وهما المدينتان الوحيدتان بالمنطقة اللتان كانتا لا تزالان بأيدى المسلمين. وأرسل المسلمون رسولاً لمشاورة أهل سمرقند . وذهب فقابل صديقًا له من نبلاء الفرس (وهى صداقة أخرى بين الأجناس نراها تظهر فى هذه المنطقة). ورتب له أن يستعير حصانين من خيول الخاقان نفسه، كانت ترعى فى مرج قريب . ووصل إلى سمرقند فى اليوم نفسه . وهناك نصحوه بأن حامية كمرجه يجب أن ترحل إلى دبوسيه التى كانت أقرب إليهم. وكان الحصار قد استمر على مدى ثمانية وخمسين يوما ولم يكن المسلمون قد سقوا إبلهم على مدى الخمسة وثلاثين الأخيرة منها.

وتم الاتفاق على الاستسلام ، ولكن فى جو الشكوك المتبادلة التى تولدت عن الحصار وإعدام الرهائن، لم يكن من السهل ترتيب الأمور. وأعطى كل فريق خمس رهائن للطرف الآخر. ورفض المسلمون الرحيل حتى يكون الخاقان والجزء الأكبر من جيشه قد غادروا ، وحتى فى ذلك الحين فرضوا رقابة صارمة على الرهائن : فقد كان كل تركى يلبس ثوبًا فقط، وليس عليه درع ، ويجلس خلفه على الحصان عربى بيده خنجر . وفى الوقت نفسه كان الإيرانيون الراحلون مع المجموعة خائفين من أن حامية الدبوسية، التى قيل إن عددها عشرة آلاف رجل ، قد تخرج إليهم وتهاجمهم. وفى الواقع أن

حامية الدبوسية عندما رأوا الخيالة والأعلام وقوة عسكرية كبيرة تقترب ظنوا أن كمرجه قد سقطت وأن هذا جيش الخاقان يقترب منهم . واستعدوا للحرب . ثم تغير الحال تمامًا عندما أخبرهم رسول من الجيش بالقصة الحقيقية، وأسرع الفرسان لمساعدة الضعفاء والجرحى من خلال أسوار المدينة. وأذن للرهائن بالانصراف واحداً بعد الآخر ، ولكن ذلك لم يحدث سوى بعد إطلاق سراح الرهائن العرب مع الأتراك . وعندما لم يعد هناك سوى رهينة واحدة على كل جانب، لم يكن أى من الجانبين يريد أن يطلق سراح رهينته أولاً . وأخيراً أخبر الرهينة العربى[٥٢] لدى الأتراك الضابط التركى كورصول إنه سعيد لإطلاق سراح الرهينة الأخرى قبله، وفيما بعد سأله كورصول لماذا أقدم على هذه المخاطرة فأجابه العربى «... وثقت برأيك فىَّ ، وقلت ترفع نفسك عن الغدر فى مثل هذا؛ فوصله وسلحه وحمله على برذون ورده إلى أصحابه» . وكما يحدث فى الكثير جدا من الأمور الحربية فى العصور الوسطى، كانت القسوة الوحشية تختلط بتصرفات فروسية فردية، وبعض الأتراك على الأقل نالوا الاعتراف بأنهم خصوم شرفاء جديرون بالثقة.

وهكذا صارت سمرقند خلف تحصيناتها الكبيرة من الطوب اللبن المعقل العربى الرئيسى فيما وراء نهر أموداريا (جيحون) وكان فتحها قد بات واحداً من أهم إنجازات قتيبة وأبقاها . وكانت تحت ضغط عسكرى مستمر من جانب الصغد وحلفائهم الأتراك وكان سقوط كمرجه قد جعلها أكثر عزلة : ولم يكن متوقعًا للحامية العربية هناك أن تصمد وقتًا أطول . وفى بداية سنة ٧٣٠م / ١١١هـ تم تعيين والى جديد على خراسان هو الجنيد بن عبد الرحمن[٥٣]. وحسب أحاديث النميمة فى البلاط بدمشق، كان قد حصل على الوظيفة لمجرد أنه كان قد أعطى امرأة الخليفة قلادة ثمينة بها جوهرة . وكان شاباً عديم الخبرة ، ولم يكن قد زار الولاية قبل ذلك أبداً . وما إن وصل خراسان حتى عبر النهر وبدأ غزواته .

كان هدفه الأول طخارستان، ولذلك ذهب إلى بلخ، التى كانت قد بقيت بأيدى العرب. وكان قد قسَّم جيشه وأرسل أقسامًا فى اتجاهات مختلفة عندما جاءته رسالة من سورة بن الحر، القائد فى سمرقند ، قائلاً إنه يتعرض لهجوم وإنه غير قادر على

الدفاع عن السور الخارجي. وكان بحاجة سريعة إلى النجدة . وحذر ضباط الجيش المجربون الجنيد بأنه يجب أن ينتظر حتى يجمع قواته؛ إذ كان الأتراك جيشا قويًا «... فقالوا إن الترك ليسوا كغيرهم ، لايلقونك صفًا ولازحفًا ، وقد فرقت جندك ... وقال له المجشّر إن صاحب خراسان لا يعبر النهر فى أقل من خمسين ألفا ...»(*). وعلى أية حال كان الجنيد على وعى تام بالخطر الذى كان يواجه المسلمين فى سمرقند وبالضرر الذى سوف يلحق بسمعته إذا لم يساعدهم وسقطت المدينة. وأعلن أنه سوف يعبر النهر قاصداً سمرقند، حتى ولو كان معه فقط رجال قبيلته الذين جاءوا معه من بلاد الشام.

وكانت وقفته الأولى فى كيش. وهناك وجد أن الترك كانوا قد سمموا بالفعل الكثير من الآبار وأنهم يتقدمون ناحيته. وهناك طريقان من كيش إلى سمرقند . أحدهما طريق دائرى عبر السهول الواقعة غرباً ، ثم ينقطع عائداً حول نهاية الجبال إلى وادى زرفشان . وكان الطريق الآخر مباشراً أكثر ولكنه ينطوى على صعود ممر تشتكرتشه الوعر المنحدر . وعندما سأل الجنيد مستشاريه أى الطريقين ينبغى أن يسلكه ، كان معظمهم يفضلون الطريق المنبسط ، ولكن واحداً من أكثر ضباطه جدية ، وهو الذى كان قد نصحه بألا يعبر النهر بدون جيش كبير، قال إنه سيكون من الأفضل أن يذهب عبر الممر «... القتل بالسيف أمثل من القتل بالنار، إن الطريق المحترقة فيه الشجر والحشيش ولم يُزرع منذ سنين ، فقد تراكم بعضه على بعض ، فإن لقيت خاقان أحرق ذلك كله ، فقتلنا بالنار والدخان ...» .

وفى اليوم التالى انطلق الجيش ليتسلق الممر. وكانت المعنويات منخفضة : إذ كانت معظم القوات لاتثق بصراحة فى الجنيد وقدراته العسكرية ، وكما هى العادة زعموا أنه كان يفضل بعض القبائل على البعض الآخر. وقابلوا العدو على مسافة أربعة فراسخ (٢٤ كيلو مترا)(**) من المدينة . وظهر العدو حين كان الرجال قد توقفوا لتناول

(*) الطبرى ، ج٧ ، ص٧١ .

(**) فى الأصل الإنجليزى ستة فراسخ ، ولعلها خطأ مطبعى. (المترجم)

الطعام وبسرعة رتب الجنيد صفوف قتاله بين جانبى الممر، وكل مجموعة قبلية تحارب باعتبارها وحدة تحت تحت قادتها، وتتجمع تحت راياتها. وأمر الرجال أن يحفروا خنادق أمام مواقعهم(٥٤). وبدأ الجنيد قيادة القلب ولكنه سرعان ما انتقل إلى الميمنة، حيث كانت قبيلة الأزد تتعرض لهجوم عنيف فجاء الجنيد ووقف إلى جانب رايتهم مباشرة ليظهر لهم مساندته . ولم يلق تصرفه التقدير. «... فقال له صاحب راية الأزد: ما جئتنا لتحبونا ولا لتكرمنا، ولكنك علمت أنه لا يوصل إليك ومنا رجل حى، فإن ظفرنا كان لك، وإن هلكنا لم تبك علينا. ولعمرى لئن ظفرنا وبقيت لا أكلمك كلمة أبدا...»(*) لقد كان التضامن القبلى حول الراية هو الذى أبقى هذه الوحدات معًا، وليس الولاء للقائد ، ولا الولاء للخليفة القابع بعيداً فى دمشق.

كان القتال يدًا بيد وغاية فى الشراسة . وصارت السيوف كليلة بسبب كثرة استخدامها وقطع عبيد الأزد فروع الأشجار ليقاتلوا بها. واستمر القتال حتى نال الإجهاد والتعب من الجانبين . ولم يوضع ما عزم عليه حامل الراية محل الاختبار ، لأنه سرعان ما قُتل ، وهو يحارب بشجاعة ، ومعه حوالى ثمانين من الأزد .

وكما هى العادة فى الروايات عن معارك الفتوح الإسلامية الباكرة، لدينا عدد من الصور القلمية الصغيرة ، بدلاً من صورة شاملة . وبعض هذه الصور القلمية عبارة عن قصص الشهداء ، ولاشك فى أنها قد حفظت لإلهام المؤمنين فى الحملات اللاحقة. وهى جميعًا تستخدم كلمة «الشهيد»، وتوضح الطرق المختلفة التى نال بها الرجال الشهادة.

وإحدى هذه الصور القلمية تخص رجلاً ثريًا جدا(٥٥). كان قد عاد لتوه من الحج إلى مكة، وكان قد أنفق فيها مبلغًا ضخمًا وصل إلى مائة وثمانين ألف درهم، من المفروض أن معظمها قد أعطى على سبيل الصدقة . وفى ذلك الحين صحب الجيش ومعه قافلة إمدادات خاصة من مائة بعير محملة بالسويق، وهو نوع من ثريد الشعير ،

(*) الطبرى، ج٧ ، ص٧٤ .

للقوات الإسلامية. وقبل أن يرحل طلب من أمه أن تدعو الله أن يمنحه الشهادة ولقيت دعواتها الاستجابة . وكان معه عندما مات عبدان . وكان قد أمرهما بالهرب وإنقاذ نفسيهما ولكنهما رفضا وقاتلا معه حتى قتلوا جميعًا ، وصار أيضا شهيدين .

وفى قصة أخرى بطلها(٥٦) يلبس ثيابًا مزركشة فاخرة ، يمتطى فرسًا أشقر، «... عليه تجاف مذهّب ، فحمل سبع مرات يقتل فى كل حملة رجلاً، ثم رجع إلى موقفه، فهابه من كان فى ناحيته ، فناداه ترجمان للعدو: يقول لك الملك : لاتقبل وتحول إلينا ؛ فنرفض صنمنا الذى نعبده ونعبدك ؛ فقال محمد : أنا أقاتلكم لتتركوا عبادة الأصنام وتعبدوا الله وحده . فقاتل واستشهد »(*). وفى قصة أخرى مثل هذه، سأل الرجل الذى سينال الشهادة(٧٥) زوجته عما سيكون رد فعلها عندما يجيئون به من المعركة «... فى لبد ضرجة بالدماء ؟ فشقّت جيبها ودعت بالثبور ، فقال : حسبك ، لو أعولت علىّ كل أنثى لعصيتها شوقًا إلى الحور العين ؛ ورجع فقاتل حتى استشهد رحمه الله»(**).

ويبدو أن المعركة وصلت إلى ذروتها عندما شن الترك هجمة ضارية على صفوف العرب . وردّ الجنيد بأسلوب قتالى كان نمطيًا فى الجيوش الأموية. فقد أمر رجاله بالنزول عن الخيل إلى الأرض. وركعوا على الأرض وقد شرعوا رماحهم مرفوعة فى اتجاه العدو، وكونوا نوعًا من الحائط بأسنة الرماح. ولما كانت الخنادق التى حفروها من قبل تحميهم كان بإمكانهم مواجهة العدو بقدر من الثقة.

وعلى أية حال ، بقى موقف الجنيد ضعيفًا للغاية. وكان واضحًا أن قواته عانت خسائر فادحة كما أنه فشل فى اختراق صفوف العدو إلى سمرقند ، وقد احتجز فى المر الجبلى المقفر. وهناك مؤشر ما على أن الأتراك كانوا قد التفوا على مؤخرة جيشه وقطعوا خطوط إمداداته قرب كش(٥٨). وفى هذا الموقف الخطير قبل نصيحة بعض ضباطه وأرسل إلى سورة حاكم سمرقند، يأمره بأن يترك سلامة المدينة ويأتى لمساعدته

(*) للطبرى ، ج٧، ص٧٤ .

(**) الطبرى، ج٧ ، ص٧٤ - ص٧٥ .

ولم يكن هذا قرارًا شجاعًا. فقد أخبره ضباطه أنه أمام خيار بأن يهلك هو أو يترك سورة يهلك فأجاب بأن من الأهون عليه أن يترك «سورة» يهلك[٥٩]. وعندما تلقى سورة الأوامر بالانضمام إلى الجنيد، رفض الطاعة فى البداية وأوضح ضباطه أنه يسير ليدخل مصيدة الموت، ولكن الجنيد أرسل رسالة توبيخ ثانية ودعاه ابن امرأة داعرة «ابن اللخناء» وهدده بأن يرسل إليه واحدًا من أعدائه ليتولى مكانه . وفى النهاية ، أحس سوْرة أنه لايملك خيارًا سوى الطاعة . ومرة أخرى حثه ضباطه على توخى الحذر، واقترحوا أن يمضى بطريق النهر، ولكن سورة أجاب بأن هذا سوف يستغرق يومين ؛ وأنه بدلاً من ذلك سوف يأمر بالمسير ليلاً حتى يصل الجنيد فى الصباح . وعرف الترك فى الحال بهذه التحركات وقطعوا عليه الطريق فى الفجر. وجرى قتال عنيف وأشعل الأتراك النار فى الحشائش ومنعوا المسلمين من الوصول إلى الماء . ومرة أخرى سأل سورة ضباطه عن رأيهم . وأشار أحدهم إلى أن الأتراك يسعون فحسب للحصول على الحيوانات والغنائم : فإذا ذبحوا حيواناتهم، وحرقوا متاعهم، وسلّوا سيوفهم ، فإن الترك سوف يتركوهم . واقترح آخر أن يترجلوا جميعا ويسيروا والرماح مشرعة أمامهم أى يكونوا بمثابة نوع من حائط الحراب المتحرك . وقد رفض سورة هذه الاقتراحات كلها وعقد العزم على شن هجوم مباشر. وكانت الظروف مرعبة؛ فقد حُجب المسلمون والترك على السواء خلف الدخان والغبار ، وسقطوا فى اللهب . وسقط سورة فكسرت فخذه . وبفعل الحرارة والتراب تفرقت قوات المسلمين، وتصيدهم الأتراك واحدًا وراء الآخر. ولم ينج من الاثنى عشر ألفًا الذين خرجوا مع سورة من سمرقند سوى ألف رجل.

وفى الوقت نفسه انتهز الجنيد فرصة التحول وسار نحو سمرقند ، ولكن مشكلاته لم تكن قد انتهت. وبناء على نصيحة أحد كبار ضباطه[٦٠] أقام معسكره بدلاً من السير نحو المدينة. وخيرًا فعل، لأن الترك لو لحقوا به فى المناطق المفتوحة ، فربما قضوا عليه . وفى الصباح التالى جرى قتال شرس . وأمر الجنيد بعتق كل عبد يحارب مع المسلمين. وذهل المسلمون من الشراسة التى قاتل بها العبيد، فقد اتخذوا لبود الخيل نوعًا من الدروع بعد أن أحدثوا فيها فتحات أدخلوا فيها رؤوسهم . وانسحب الأتراك

فى النهاية وتمكن الجنيد من مواصلة السير إلى المدينة ، ليبقى آمنا خلف أسوارها الضخمة . وإذ حُرم الجيش التركى من النصر الكامل بدأ ينسحب وبقى الوجود العربى فى بلاد الصغد ، ولكن إلى حين.

كان حكم الرأى العام قاسيًا على الجنيد ، وانتقده الشعراء بوحشية :

أين حماة الحرب من معشر … كانوا جَمال المنسر الحارد

بادوا بآجال توافوا لها … والعاثر المُمهل كالبائد

فالعين تجرى دمعها مُسبلاً … ما لدموع العين من ذائد

أنظر ترى للميت من رجعة … أم هل ترى فى الدهر من خالد

كنا قديما يُتّقى بأسنا … وندرأ الصادر بالوارد

حتى منينا بالذى شامنا … من بعد عز ناصر آئد

كعاقر الناقة لا ينثنى … مبتدئًا ذى حنق جاهد

فَتَقْتَ ما لم يلتئم صدعُه … بالجحفل المحتشد الزائد

تبكى لها إن كشفت ساقها … جَدعا وعقراً لك من قائد

تركتنا أجزاء معبوطة … يقسمها الجازر الناهد

ترقّت الأسياف مسلولة … تزيل بين العضد والساعد

تساقط الهامات من وقعها … بين جناحى مُبرق راعد

إذ أنت كالطفلة فى خِدرها … لم تدر يوما كيدة الكائد

إنا أناس حربنا صعبة … تعصف بالقائم والقاعد

أضحت سمرقند وأشياعها … أحدوثة الغائب والشاهد

وكم ثوى فى الشِّعب من … جَلد القوى ذى مِرَّة ماجد

حـــازم يستنجد الخطب ويغشى الوغى	لاهـــائـــــــب غُـس ولا نـاكـــــد
ليـتك يوم الشُـعــــــب فى حـفـرة	مـــرمـــوســـة بالمدر الجـــامـــد
تلعب بك الحــرب وأبناؤهــــــا	لعب صــــقــــور بقطا وارد
طار لهـــا قلبك من خـــيـــفـــة	مــــا قـلبك الطائر بـالعـــائد
لاتحسبن الحـرب يوم الضحى	كـــــشـــربك المُزّاء بالبــــارد
أبغـضت من عـينك تبـريجُـهـــا	وصــــورة فى جـســــد فــاسـد
جنيـد مـا يمـيصك منسـوبــــة	نبـعًـا ولا جَـدّك بالصــاعــد
خـمـســون ألفـا قـتلوا ضـيـعـة	وأنت منهــم دعــوة الناشـــد
لا تعريـــنّ الحـــــرب من قابـــل	مــا أنت فى العــدوة بالحــامـد
قلدتـــــه طوقـا على نحــــره	طوق الحــمـــام الغـــرد الفـــارد
قـصـيـدة حبّـرهــــا شــاعـــر	تـسـعى بهـا البُـرْد إلى خــالد(*)

ولم يكن ممكنًا أن تبقى سمعة أى إنسان بعد هجوم مثل هذا . وفقد الجنيد أية جدارة ومصداقية بوصفه قائدًا عسكريًا وحلّ به العار إلى الأبد . وفى الوقت نفسه خيم أريج الشهادة على ميدان المعركة التى استشهد فيه سورة ورجاله . وزعم بعضهم أنهم رأوا خيامًا منصوبة بين الأرض والسماء من أجل أولئك الذين كانوا على وشك نيل الشهادة، وأكد آخرون أن الأرض التى استشهدوا فوقها كانت تفوح برائحة المسك[٦١].

وبعد أن مات الجنيد فى وظيفته سنة ٧٣٤م اندلع التمرد الصريح بين عرب خراسان وتهددت سلطة الولاة الأمويين من جانب جيش متمرد يقوده الحارث بن سريج.

(*) اختار المؤلف عدة أبيات فقط من هذه القصيدة، ورأيت إثباتها كاملة للفائدة، والشاعر اسمه «خالد بن المعارك»، وقد اشتهر باسم «ابن عرش» . انظر: الطبرى ، ج٧ ، ص/٨٦ ص٨٧ . (المترجم)

وتفاقم الاستياء كما أن مصاعب الحملات زادت من جراء آثار المجاعة والحروب المستمرة. وكانت السنوات التى شهدت ثورة الحارث ٧٣٤-٧٣٦م علامة على تدهور حظوظ العرب فى بلاد ما وراء النهر. ويبدو أن جميع الأراضى فيما وراء النهر قد ضاعت باستثناء كيش ويبدو أن الملك الصغدى غوزك قد استطاع استعادة السيطرة على عاصمته القديمة سمرقند(٦٢). وكانت أقسى انتكاسة عاناها الغزاة العرب فى أى مسرح عمليات، ومن اللافت للنظر أنها جاءت بعد وقت قصير من هزيمة العرب فى أوربا فى معركة بواتييه (بلاط الشهداء) فى سنة ٧٣٢م. ولكن كان هناك اختلاف مهم . ففى الغرب كانت بواتييه حقًا نهاية التقدم العربى. أما فى الشرق ، فإن النكسات التى أعقبت معركة ممر تشتكر تشه كانت نكسة خطيرة ولكنها مؤقتة.

أسد بن عبد الله ونصر بن سيّار وانتصار الإسلام ٧٣٧-٧٥١م

بدأ المد يتحول لصالح العرب فى سنة ٧٣٧م . فقد مات غوزك ملك سمرقند الناجى القديم الماكر لأسباب طبيعية وتم تقسيم مملكته بين ورثته . وفى خريف تلك السنة، قام الخاقان بالتحالف مع الحارث بن سريج المتمرد العربى بغزو طخارستان . وكان الوالى العربى آنذاك (أسد بن عبدالله) قد نقل عاصمته من مرو إلى بلخ. وربما كان يريد الهروب من الجماعات العربية المتحاربة فى العاصمة القديمة مرو ولكنها كانت دائما عاصمة الغزاة القادمين من الغرب، سواء كانوا من الساسانيين أو العرب، وربما يكون أيضا قد راوده الأمل فى أنه بالانتقال إلى العاصمة فى بلخ سيكون قادرًا على إرسال إشارة مختلفة إلى الأمراء المحليين . وكانت لأسد علاقات طيبة مع كثير منهم كما أن أفرادًا مهمين اعتنقوا الإسلام على يديه ، بما فيهم حسبما قيل برمك مؤسس أسرة البرامكة الشهيرة وسامان خُدا جد السامانيين الذين سيتولون حكم خراسان وما وراء النهر فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى. وربما كانت سياسة أسد الدبلوماسية والتصالحية قد أوجدت فرقا حاسمًا وأرست الأسس التى قامت عليها السيادة الإسلامية فى المنطقة مستقبلاً.

وفى ديسمبر سنة ٧٣٧م بدأ الخاقان يشن غاراته على المناطق المجاورة لبلخ . وارتكب خطأ قاتلا عندما وزع قواته لشن الغارات على البلدات والقرى فى طخارستان، وربما كانت تلك محاولة للعثور على الإمدادات فى ذلك الوقت القارس الشحيح من السنة. وسواء كان أسد قد كسبهم بفضل مواقفه الطيبة معهم أم كانوا قد ابتعدوا بسبب لصوصية أتباع الخاقان ، فإن بعض الأمراء المحليين رموا بثقلهم إلى جانب أسد والمسلمين. ويبدو أن أسداً ومعه ثلاثون ألف جندى، خرجوا لملاقاة الخاقان وفاجأوه فى مكان يسمى خاريستان فى لحظة لم يكن معه فيها سوى أربعة آلاف رجل . كان القتال شرسًا ولكن ملك الجوزجان حسمه، وكان من حلفاء أسد المحليين، عندما هاجم الخاقان من المؤخرة . وفرَّ الأتراك وأسد يطاردهم ولم ينجهم سوى عاصفة ثلجية أتاحت لهم الهرب ونجوا من مذبحة شاملة .

كانت معركة خاريستان أكبر قليلاً من مناوشة ، ولكنها كانت علامة النهاية لقوة الخاقان والامبراطورية التركية . وقد تراجع بعيدًا فى الشرق إلى قاعدته فى وادى إيلى. وعندما هزم ، وقد تلطخت سمعته اغتاله مرؤوسه كورصول. ولم يكن كورصول بدوره قادرا على لم شمل الأتراك سويًا فى مواجهة التدخل الصينى، وبحلول سنة ٧٣٩م كانت إمبراطورية الترك قد تفككت . ومضى قرنان آخران قبل أن تظهر دولة تركية أخرى فى وسط آسيا .

ومات أسد لأسباب طبيعية فى السنة التالية ٧٣٨م . وبعد فترة قصيرة عين الخليفة هشام بن عبد الملك نصر بن سيَّار واليًا . ومن بعض الوجوه كان هذا اختياراً غير عادى. فقد كان جميع الرجال الذين حكموا خراسان من قبل قد جاءوا كلهم تقريبا من الغرب. ولم يكن كثير منهم قد زاروا الولاية من قبل . وكان بعضهم قادراً ، وبعضهم يبدو أنهم قد عينوا لأنهم أسدوا خدمات سياسية أو شخصية لدمشق وليس لأنهم كانوا مناسبين لهذه الولاية الإقليمية فائقة الأهمية. وكان نصر بن سيَّار، على النقيض، قد أمضى ثلاثين سنة فى الولاية، أى حياته كلها بعد نضجه بالفعل . وكان ينتمى إلى مجموعة صغيرة من الضباط المحترفين الذين خدموا الولاة السابقين ولكنه كان أول من

يعين على قمة الولاية منهم. وكان مما ساعده أيضا على نحو ما، أنه كان مثل قتيبة من قبل ، ينتمى إلى قبيلة كنانة الصغيرة . ولم يكن متورطًا فى المنافسات القبلية الشرسة المتعمقة التى كانت قد أمسكت بخناق الكثير من العرب فى خراسان . ولكن ، مثلما كان الحال مع قتيبة ، كان لهذا الموقع جانبه السلبى: إذ كان نصر معتمدا على المساندة من دمشق ، فإذا لم توجد لأى سبب لم يكن ليستطيع أن يعول على المساندة القبلية لدعمه .

وتولى المنصب فى لحظة مواتية ؛ ذلك أن أسد بن عبد الله المأسوف عليه كان قد أرسى علاقات طيبة مع كثير من الأمراء المحليين. وفى الوقت نفسه ، لم يعد الأتراك قوة يُحسب حسابها. وكان بعض الأمراء لا يزالون على أملهم فى أن تتدخل القوة الصينية. وفى سنة ٧٤١م استقبل البلاط الصينى سفيراً من الشاش يشكو من أن الأتراك قد صاروا آنذاك رعايا الصين وأن العرب وحدهم لعنة على المملكة، ولكن بينما كان العاهل الصينى القابع بعيداً يمنح ألقاباً مدوية ذات رنين، بات واضحًا أن الصينيين لا يمكنهم التدخل لتقديم المساندة الفعالة. ولابد أن معظم الأمراء كانوا على وعى بأن ليس أمامهم سوى المسلمين : وكان عليهم الاختيار بين الاتفاق معهم أو الهلاك .

وقد عمل نصر ، مثل قتيبة قبله ، بسياسة ذات مسار مزدوج . وكما يقول چب «لقد رأى عدم جدوى السيطرة على البلاد بالقوة الغاشمة وحدها، كما أدرك عبثية الاستغناء عن القوة»[٦٣]. وبعد تعيينه بوقت قصير ألقى خطبة فى صلاة الجمعة بالمسجد الجامع بالعاصمة مرو[*]، كانت فى جوهرها إعلانا سياسيًا[٦٤]. وللوهلة الأولى يبدو أنها انصبت فى معظمها على النقود . وأوضح مسئوليته عن حماية المسلمين، وأن المسلمين منذ ذلك الحين فصاعداً (وليس العرب كما ينبغى أن نلاحظ) سيكون لهم وضع ضريبى تفضيلى. فستكون الأراضى كلها خاضعة لضريبة الخراج ولكن المسلمين

(*) كانت خطبة الجمعة إحدى المناسبات التى يمكن للوالى أن يخاطب فيها أعيان المسلمين فى المدينة ويطرح علنا الآراء حول الموضوعات السياسية الجارية.

سـوف يعفـون من الجـزية، التى هـى ضـريبـة رأس(*). وكـان المغـزى واضـحًـا : فكل المسلمين سـواء من المهاجرين العرب أو من السكان الذين اعتنقوا الإسـلام ، سيكون لهم الوضـع المـالى الممتاز نفسه؛ وجميع الكفار مهما كانت طبقتهم أو خلفيتهم العرقية ، سيكون عليهم أن يدفعوا . وقيل إن ثلاثين ألف مسلم كانوا يدفعون الجزية لم يعودوا يدفعونها آنذاك، بينما تعين على ثمانين ألفًا من الكفار أن يبدءوا فى دفعها. وبطبيعة الحال، كانت هناك مضامين أوسع لمرسوم نصر، أو بالأحرى لتنظيمه الموقف الفوضوى الذى كان سائدًا من قبل؛ إذ بات اعتناق الإسلام يعنى المساواة مع الجماعة الحاكمة . وكان ذلك استهلالاً واضحًا وجذابًا ولعب دورًا فى خلق طبقة حاكمة فى خراسان وبلاد ما وراء النهر حدده الدين الإسلامى لا الهوية العرقية العربية. وكان هؤلاء المسلمون الخراسانيون هم الذين ثاروا فيما بعد ضد نصر بن سيَّار والحكم الأموى فى سنة ٧٤٧م وأقاموا العباسيين حكامًا على العالم المسلم فى سنة ٧٥٠م.

وعلى المدى القصير بدا أن سياسة نصر ناجحة. وتوحى الحقيقة القائلة بأننا لانسمع بالفعل شيئًا عن طخارستان وخوارزم فى هذا الوقت ، ونسمع القليل عن الصغد ، بأن هذه المناطق كانت مسالمة إلى حد كبير تحت الحكم الإسلامى. ومن المحتمل أن معظم الأمراء فى هذه المنطقة قد اعتنقوا الإسلام آنذاك ، ومن المؤكد أن هذه حقيقة تصدق على الذين نعرف أخبارهم، ولا سيما حكام بخارى والبرامكة فى بلخ. فقد كانت هناك فيالق من بلاد ما وراء النهر تخدم فى جيوش نصر: فعندما كان يغزو الشاش فى سنة ٧٣٩م، كان عشرون ألف رجل من بخارى وسمرقند وكيش ومن أشروسنا

(*) يبدو أن هذه المسائل غير واضحة ، بالنسبة للمؤلف . فالجزية التى كانت تفرض على «أهل الذمة» من اليهود والنصارى كانت مقابلاً ماديًا لبقائهم فى دار الإسلام والتزام السلطات بحمايتهم والدفاع عنهم وعن عائلاتهم وأموالهم. ولم تكن الجزية تفرض سوى على القادرين على القتال، ويعفى منها النساء والأطفال والشيوخ والرهبان، كما كانت ذات فئات ثلاث: دينار للفقير ، وديناران للمتوسط ، وأربعة دنانير للقادرين . وكان يمكن تأجيلها للمُعْسِر . أم الخراج ؛ فهى ضريبة على الأرض الزراعية بغض النظر عن ملكيتها ؛ سـواء كـانت للمسلمين أو غير المسـلمين. وكان ينبغى على الجميع دفعها على أية حـال. وكانت السياسة الأموية عمومًا تفرق بين العرب وغير العرب من المسلمين فى هذه الأمور . وهذا ما جعل نصر يقرر إصلاح الأمور. (المترجم)

البعيدة المتوحشة ضمن قواته . وربما كان عدد قليل من هؤلاء ذوى أصول عربية ، ولكن الراجح أن معظمهم كانوا من الأهالى المحليين الذين انضموا للجيوش المسلمة على أمل أن ينالوا الرواتب ويحصلوا على الغنائم .

كما أنه انطلق فى تشجيع تجار الصغد، الذين كانوا قد هربوا شرقًا إلى فرغانة فى أثناء الحروب التى نشبت فى عشرينيات القرن الثامن الميلادى، على العودة . ولم تكن هذه مسألة بسيطة . فقد وضع الصغد شروطًا . وكان أولها أن أولئك الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام ثم ارتدوا آنذاك لايجب معاقبتهم. وكان هذا شرطًا صعبًا ؛ لأن عقوبة الردة كانت (ولا تزال) الموت، ولم يكن من السهل الالتفاف على هذا . ومن المثير أن نصر لم يشعر أنه يحتاج إلى سؤال أى من الفقهاء قبل أن يتخذ قراره . كانت تلك هى الأيام التى سبقت بلورة الشريعة الإسلامية، وقرر ببساطة بمبادرة منه تقديم هذا التنازل . وحتى بعد نصف قرن ، لم يكن يخطر على البال أنه يمكن التغاضى عن مثل هذا المبدأ الواضح من مبادئ الإسلام بناء على سلطة أحد ولاة الأمصار ، ولكن فى مثل هذه الظروف الحدودية التى تستدعى تمشية الحال كان بوسع نصر أن يفعل هذا فى سبيل المصالح الأوسع للإسلام. ثم جاءت مسألة متأخرات الضرائب التى كان كثير من التجار يدينون بها؛ وقد تم شطب هذه الديون . وأخيراً كانت هناك مسألة الأسرى المسلمين الذين يحتجزهم الصغد . وربما ما يثير الدهشة أن نصر وافق على أن هؤلاء لايرجعون إلا «بقضية قاض وشهادة شهود على عدول...». وقد نال نصر قدراً كبيراً من النقد فى بعض الأنحاء ، كما أن الخليفة هشام نفسه رفض فى بداية الأمر إعمال الاتفاق، ولكن فى النهاية تمت الموافقة عليه على أساس أن أهم شيء هو كسب هؤلاء الرجال الأقوياء الأثرياء إلى الجانب المسلم . وتم الاتفاق وعاد التجار إلى بلاد الصغد[٦٥].

كانت العملية الهجومية الكبرى الوحيدة التى قام بها نصر هى حملة سنة ٧٣٩م على الشاش وفرغانة. والروايات عن هذه الحملات تصويرية، لكنها مرتبكة كما أن مجرى الأحداث ليس واضحًا بالمرة. فعندما وصل جيش نصر إلى فرغانه البعيدة حاصروا مدينة قُبا ، وفى نهاية الأمر توصلوا إلى الصلح مع ابن الحاكم . وقامت

بالمفاوضات أم الأمير الشاب من خلال المترجم ؛ وقيل إنها قد انتهزت الفرصة لتلقى عظة قصيرة عن الملكية، وهو ما يعطينا لمحة أخرى، عن عقلية هؤلاء الحكام الإيرانيين الشرقيين.

« ... قالت لنصر: كل ملك لايكون عنده ستة أشياء فليس بملك : وزير يباثه بكتاب نفسه وما شجر فى صدره من الكلام، ويشاوره ويثق بنصيحته، وطباخ إذا لم يشته الطعام اتخذ له ما يشتهى، وزوجة إذ دخل عليها مغتمًا فنظر إلى وجهها زال غمه ، وحصن إذا فزع أو جهدُ فزع إليه فأنجاه - تعنى البرذون - وسيف إذا قارع الأقران لم يخش خيانته، وذخيرة إذا حملها فأين وقع بها من الأرض عاش بها »[٦٦](*).

وقد صدمها أيضا أن ترى معاملة أحد أبناء الوالى القديم قتيبة ، الذى كان يشغل مكانًا متواضعًا فى معسكر الوالى . فقالت شاكية « ... يا معشر العرب، ما لكم وفاء ، لا يصلح بعضكم لبعض . قتيبة الذى وَّطن لكم ما أرى، وهذا إبنه تقعده دونك . فحقك أن تجلسه هذا المجلس وتجلس أنت مجلسه »(*). وهذا تأكيد قوى على السمعة التى كان قتيبة ما يزال يتمتع بها بعد عشرين سنة من موته المُشين وأهمية مكانته الموروثة على السواء .

ويبدو أن هذه الحملة كانت علامة النهاية للحملات الهجومية الكبرى. وربما كان نصر قد أمضى بعض الوقت فى نشر الإسلام فى بلاد الصغد ولكن منذ سنة ٧٤٥م فصاعداً كان مشغولاً تمامًا فى مرو وخراسان بحركة التمرد التى سوف تصير فيما بعد الثورة العباسية . وتم إرسال السفارات إلى الصين لتنظيم العلاقات التى لم يعد الترك آنذاك يشكلون حائلاً دون قيامها بين القوتين العظميين. ويبدو أن سفارة ذهبت سنة ٧٤٤م بقصد تطوير الصلات التجارية وكانت تضم ممثلين عن المدن الصغدية مثل طخارستان ، والشاش وحتى زُبلستان (فى شمال أفغانستان). وتم إرسال المزيد من السفارات فى سنة ٧٤٥م وسنة ٧٤٧م[٦٧].

(*) الطبرى، ج٧، ص١٧٨ .

وبحلول سنة ٧٥٠م، كان فتح بلاد ما وراء النهر قد اكتمل بصورة جوهرية وقامت الحدود الشمالية الشرقية للعالم المسلم على امتداد خطوط قُيِّض لها أن تبقى بلا تغيير حتى قدوم الأتراك السلاجقة بعد ذلك بثلاثة قرون . وكانت تلك أيضا حدود مناطق الاستقرار. وقد أقيم الحكم الإسلامى فى مناطق كانت بها مدن قديمة وقرى مستقرة . وإلى الشرق بعد هذا فى الأراضى العشبية فى قزخستان وقرغيزستان ، بقيت المعتقدات القديمة وأساليب الحياة العتيقة دونما تغيير كبير. لقد كان فتح بلاد ما وراء النهر أصعب مهمة قامت بها الجيوش المسلمة. فقد كان خصومهم ذوى عزم ويتصفون بالمرونة، وتحملت جيوش الإسلام نكسات متكررة . وفى النهاية، كان الولاة من أمثال أسد بن عبدالله ونصر بن سيار ، عندما تعاونوا مع النخب المحلية، هم الذين جعلوا هذا ممكنًا . ولا شك فى أن الإسلام قد انتصر على الديانات المحلية فى هذه المنطقة، ولكن القيم والمثل الأميرية لدى حكام بلاد ما وراء النر قُدر لها أن تكون ذات تأثير عميق على ثقافة العالم الإسلامى الشرقى بأسره وعلى بقاء الثقافة الإيرانية فى داخله .

وعلى أية حال، كان لا بد من عمل أخير حاسم فى الصراع من أجل آسيا الوسطى ونحن بالفعل لا نعرف شيئًا عنه من المصادر العربية ، ولكن الحوليات الصينية تملأ بعض الفجوات . وفى سنة ٧٤٧م وسنة ٧٤٩م طلب أمير طخارستان مساعدة الصين ضد عصابات الچيلچيت، بالقرب من مصب نهر الهندوس ، وهى منطقة لم تدخلها الجيوش الإسلامية قط، على امتداد الطريق إلى الصين الذى كان التجار الصغد يستخدمونه فى بعض الأحيان. وأرسل حاكم كوشه الصينى موظفًا كوريًا للتعامل مع المشكلة. وفى سلسلة من الحملات المدهشة ، عبر الجبال على امتداد الطريق شديد الانحدار فيما هو الآن طريق قراقورم السريع ، وهزم المتمردين. ثم استدعاه ملك فرغانه ليساعده فى نزاع محلى مع ملك الشاش المجاور . وانتهى الأمر بالقوات الصينية بالاستيلاء على الشاش وهرب الملك سعيا وراء المساعدة من الوالى العباسى أبى مسلم الخراسانى، الذى كان قد وطد نفسه فى سمرقند . وأرسل قوة تحت قيادة واحد من مساعديه ، هو زياد بن صالح. وتقابل الصينيون ومعهم حلفاؤهم من فرغانة

وبعض الترك مع جيوش المسلمين قرب تراز فى يوليو سنة ٧٥١م . وكانت المرة الأولى والأخيرة التى اشتبكت فيها الجيوش العربية والصينية فى مواجهة مباشرة . وانتصر العرب ولكن المحزن أننا لانملك أية تفاصيل أخرى عن هذا الصراع .

كانت هذه المواجهة علامة على نهاية عصر. إذ إن القوات العربية لم تتوغل أبداً شرق فرغانة أو شمال شرق الشاش، ولم يحدث أبدا أن سلكت طريق الحرير إلى داخل سنيكيانج وعبر صحراء جوبى. وكانت تلك أيضا المرة الأخيرة التى تصل فيها الجيوش الصينية إلى هذه المسافة البعيدة شرقًا . وربما كانوا سيعودون بقوة لكى ينتقموا لهزيمتهم ، ولكن بعد أربع سنوات ، أى فى سنة ٧٥٥م ، كانت آسيا الوسطى ثم الصين نفسها قد تمزقت بسبب ثورة آن لوشان ، وكان لا بد من مرور ألف سنة قبل أن تظهر القوات الصينية فى كشغر مرة ثانية. وتلاشى أى أمل كان يراود أمراء الصغد بأن يساندهم الصينيون ضد العرب إلى الأبد. إذ إن معركة تراز أو تلاس ، مثل معركة بواتييه فى سنة ٧٣٢م فى الغرب ، لم ترد عنها سوى روايات قليلة فى المصادر العربية المصادر. وعلى الرغم من أن بواتييه كانت هزيمة وتلاس كانت نصرا للجيوش العربية، فقد كانت كلاهما علامة على أقصى حدود للتوسع العربى فى مناطقهما .

وقد ورد ذكر معركة تراز أو تلاس فى التراث العربى أيضا لسبب مختلف تماماً . فقد ذاع الاعتقاد بأن الصناع الذين أسرهم العرب فى مجرى الحملة جلبوا معهم تكنولوجيا صناعة الورق إلى العالم العربى. ومن المؤكد أن الورق كان معروفًا فى الصين قبل هذا ، ولكنه لايظهر فى المجتمع العربى سوى فى النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى / الثانى الهجرى، وحلّ محل الرق والبردى باعتباره مادة الكتابة الرئيسية . ولانستطيع أن نعرف الحقيقة التاريخية الكامنة وراء الروايات عن الأسرى القادمين من تلاس. والراجح ، على أية حال، أن الاتصالات مع الصين فى آسيا الوسطى أدت إلى استيراد مادة الكتابة الجديدة هذه. ولأن الورق كان رخيصًا سهل الإنتاج والاستخدام ، فقد قُيِّض له أن يكون ذا أثر كبير على الأدب والثقافة فى العالم المسلم ثم فى العالم الأوربى فيما بعد .

الهـــوامش

(١) Koran 3: 169.

(٢) Tabari, Ta'rikh. II, p. 1179.

(٣) Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1290-91.

(٤) Tahari, Ta'rikh, II, pp. 1185-6.

(٥) Barthold, Turkestan, p. 117.

(٦) Narshakhi, History of Bukhara, p. 44.

(٧) Tabari, Ta'rikh, [I, pp. 1185-90; Narshakhi, History af Bukhara, pp. 43-5.

(٨) Tabari, Ta'rikh, II, p. 1188.

(٩) Narshakhi, History of Bukhara, p. 45 and note B.

(١٠) Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1198-9.

(١١) Tabari, Ta'rikh, II, p. 1202.

(١٢) Narshakhi, History uf Bukhara, p. 63.

(١٣) Ibid., pp. 47-9.

(١٤) Ibid,, p, 52.

(١٥) Tabari, Ta'rikh, II, p. 1206.

(١٦) Tabari, Ta'rikh, II, p. 1207, but cf. p. 1218, where ills only a few brigands.

(١٧) E. Knohlocb, The Archaeology and Architecture of Afghanistan (Stroud, 2002), p. 162 and Plates 7 and 17.

(١٨) Tabari, Ta'rikh, II, p. izzi. {y.Tabari, Ta'rikh, II, p. 1226.

(١٩) Tabari, Ta'rikh, II, p. 1230.

(٢١) Gibb, Arab Conquests, p.42.

(٢٢) Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1229-30.

(٢٣) Tabari, Ta'rikh, II, p. 1235.

(٢٤) Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1240-41.

(٢٥) F. Grenet and C. Rapin, 'De la Samarkand antique a la Samarkand islamique; continuities et ruptures, in Colloque international d'archéologie islamique, ed. R.-P. Gayraud (Cairo, 1908), pp. 436-60.,

(٢٦) Tabari, Ta'rikh, II, p. 1245. See trans. n. 635 tor different figures given in Balcami and Ibn Actham.

(٢٧) Tabari, Ta'rikh, II, p. 1252.

(٢٨) Gibb, Arab Conquests, p. 45.

(٢٩) Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1256-7. 30- Gibb, Arab Conquests, pp. 52-3.

(٣١) Ya'qubi, Ta'rikh, IT, p. 346.

(٣٢) Gibb, Arab Conquests, p. 50.

(٣٣) Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1277-8.

(٣٤) Tabari, Ta'rikh, It, p. 1286. The word used tor pass is Jawaz, the modern Arabic word for passport.

(٣٥) Tabari, Ta'rikh, 11, p. T 287.

(٣٦) Tabari, Ta'rikh, II, p. 1288. 3 7. Tabari, Ta'rikh, II, p. 1291.

(٣٨) Tabari, Ta'rikh, II, p. 1291.

(٣٩) Tabari, Ta'rikh, II, p. 1290.

(٤٠) Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1294-5.

(٤١) Tabari, Ta'rikh, II, p. 1300-

(٤٢) Al-Asamm b. al- Hajjaj; Tabari, Ta'rikh, II, p. 1304, The translation is based on that of D. S. Powers in trans. xxiu 28, slighlly amended.

(٤٣) عن الترك فى حروب تلك الفترة انظر:

E. Esin, Tahari's report on the warfare with the Turgis and the testimony of teighth-century Central Asian art', Central Asiatic Journal 17 (1973); 130-34.

(٤٤) Tabari, Ta'rikh, II, p. 1431;

انظر أيضا القصيدة فى : Tabari, Ta'rikh, H,p.1432.

(٤٥) Tabari, Ta'rikh, II, pp. 142 i-S.

(٤٦) Tabari, Ta'rikh, II, p. 1430.

(٤٧) On the documents, see F Grenet and E. de la Vaissiere, 'The last days of Penjikent', Silk Road Art and Archaeology 8 (2002); 155-96; I. Yakubovich, Mugh 11 revisited', Studio Iranica 31(2002): 213-53.

(٤٨) Tabari, Ta'rikh, 11. pp. 1446-8, in which Diwashtich is called Dawashini.

De la Vaissiere, Sogdian Traders, p.272. (٤٩)

Tabari, Ta'rikh, II, p. 1518. (٥٠)

Tabari, Ta'rikh, II, p. 1521. (٥١)

Siba' b. al-Nu'man al-Azdi; Tabari, Ta'rikh, 11, pp. 1524-5. (٥٢)

Al-Junayd b. 'Abd al-Rahman al-Murri; Tabari, Ta'rikh, II, p. 1527. (٥٣)

Tabari, Ta'rikh, II, p. 1638. (٥٤)

yazid b. al-Mufaddal al- Huddani; Tabari, Ta'rikh, II, p.I537. (٥٥)

Muhammad b. 'Abd Allah b. Hawdhan; 'Tabari, Ta'rikh, II, p.1537. (٥٦)

Al-Nadr I). Rashid al-'Abdr; Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1537-8. (٥٧)

Tabari, Ta'rikh, II, p. 1539. (٥٨)

Tabari, Ta'rikh, II, p. 1539. (٥٩)

Al-Mu)'ashshir b. Muzahim al-Sulanii; Taban, Ta'rikh, II, p.I543. (٦٠)

Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1546, 1557-8. (٦١)

عن الدليل السلبي عن هذه الحال انظر:

Gibb, Arab Conquests, p. 79.

Ibid., p. 89. (٦٣)

Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1688-9. (٦٤)

Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1717-8. (٦٥)

Tabari, Ta'rikh, H, p. 1697, slig-hriy abbreviated. (٦٦)

Gibb. Arab Conquests, p. 92, (٦٧)

Ibid., pp. 95-6. (٦٨)

(٩)

المشرق الأقصى والمغرب الأقصى

مع نهاية القرن السابع الميلادى كانت جيوش المسلمين قد حققت نوعًا من السيطرة على شمال أفريقيا كله فى الغرب ، وخراسان ومعظم بلاد ما وراء النهر فى الشرق. ومن عدة جوانب كان هناك منطق جغرافى للحدود التى صنعوها بحيث كانت هى المكان المناسب لنهاية التوسع – مضيق جبل طارق غربًا وجبال شرق أفغانستان ومكران شرقًا . ولم يكن أى منهما يشكل عقبة دائمة ، ففى الاندفاع النهائى للفتوح العربية الباكرة فتحت جيوش المسلمين معظم شبه جزيرة أيبيريا والسند ، وهى الجزء الجنوبى من باكستان الحديثة .

كانت السند بعيدة تمامًا عن شبه جزيرة العرب والأرض التى تكون قلب الدولة المسلمة الباكرة[١]. وكان الطريق البرى يمضى عبر صحراء مكران القاحلة ، حيث كان المسار يؤدى من واحة عطشى إلى أخرى، وحيث يكاد يكون مستحيلاً الحصول على الإمدادات . وكان الإسكندر الأكبر واحداً من القلائل الذين حاولوا قيادة جيش عبر هذه الأرض، وبرهنت حملته على أنها كانت إحدى أصعب الصراعات التى تعيّن عليه مواجهتها. وكان الطريق البديل بالبحر، على امتداد الساحل الجنوبى المجدب لإيران ومكران حتى الموانئ الواقعة حول مصب نهر الهندوس . وفى أى من الحالين كانت المسافات وطبيعة الأرض تجعل الرحلة غاية فى الصعوبة.

ومعلوماتنا عن الفتح العربى للسند فى أوائل القرن الثامن الميلادى محدودة جداً . فقد كانت المنطقة مهملة إلى حد كبير من جانب المصادر العربية الكلاسيكية .

والبلاذرى وحده هو الذى يقدم رواية متسقة تشغل فقط حوالى اثنتى عشرة صفحة فى النص[٢]. وليس هناك مؤشر على أنه ، أو أى من المؤرخين الذين عاشوا بالعراق، قد زار هذه المنطقة النائية فى الدولة الإسلامية ، كما أن التفاصيل القليلة التى يقدمونها تلقى ضوءًا قليلاً على البلاد أو فتحها . فضلاً عن أن المصادر المحلية ليست هى الأخرى ذات فائدة أكبر، والمؤرخة السندية الوحيدة التى تناولت الفتوح هى الشاشنامة[٣] التى ألفها سنة ١٢١٦م على بن حامد الكوفى، وهى ترجمة لأصل عربى مفقود ، قيل إنه تم جمعها كتابة على يد قاضى الرور الذى زعم أنه من قبيلة ثقيف ، قبيلة الفاتح الأصلى محمد بن القاسم. والنصف الثانى من هذا الكتاب عبارة عن رواية عن المرحلة الأولى من الفتح أساسًا[٤]. ولم يول المؤرخون اهتمامًا كبيرا بكتاب الشاشنامة الذى يحتوى على كثير من الإضافات الأسطورية ، ولكن الكثير من جوهر الرواية يبدو مأخوذًا عن مصادر عربية : إذ إن المؤلف يذكر اسم المؤرخ المدائنى ، كما أن الخطوط العريضة للسرد، وبعض حوادث بعينها ، قامت على أساس نص البلاذرى بشكل قوى. وهناك موضوعان تم التأكيد عليهما فى النص . أحدهما الدور القوى الذى لعبه الحجاج فى العراق البعيد . فهو يوصف بأنه يباشر سيطرة يومية مطلقة على الحملات العسكرية. إذ إن محمد بن القاسم نادرًا ما يتحرك دون أن يكتب إلى سيده وينتظر رده، الذى كان يأتى دائما بسرعة لا تتناسب مع الظروف آنذاك صحبة البريد. وفى إحدى المناسبات يصف النص الحجاج وهو يأمر محمد بن القاسم بأن يرسم خريطة لنهر الهندوس حتى يمكنه تقديم المشورة عن المكان المناسب لعبوره[٥]. ومن الواضح أن ما يراد توصيله للقارئ هى السلطة التى كان الحجاج يمارسها على قادته فى الميدان. أما الموضوع الثانى فهو دور العرافين والحكماء ، الذين يخبرون أمراء السند باستمرار بأن الفتوح العربية كان قد تم التنبؤ بها وأن ليس هناك ما يمكن عمله لمنعها. وتحتوى الشاشنامه على بعض المادة التى قيل إنها كانت محفوظة فيما بين سلالة الفاتحين العرب الأصليين والتى ربما كانت مادة حقيقية ، وبعض الشعر العربى الذى لم تتم ترجمته إلى الفارسية مع بقية الكتاب. وهذا أيضا ربما كان فى أصله راجعًا إلى القرن الثامن الميلادى/الثانى الهجرى.

ولم تقدم الآثار الكثير من الأدلة ، بل إن مكان بعض المواقع الرئيسية ، مثل الدُيبل، التى كانت لا تزال مزدهرة فى القرن الثالث عشر الميلادى/السابع الهجرى ، تظل موضع شك. وباستثناء مُلتان ونيرون ، لم تحتفظ أى من المدن التى ورد ذكرها فى النصوص الباكرة بأسمائها حتى العصور الحديثة، ومن ثم فإن تحديد الأسماء غالبا ما يكون محل شك.

وكانت للعرب اتصالات مع السند، قبل الإسلام . ففى العصور الساسانية الأخيرة كانت هناك تجارة متنامية عن طريق البحر بين الخليج والسند وكانت هناك مجموعة من العرب لهم أهمية خاصة فى تطور هذه التجارة . وربما كانت قبيلة الأزد فى عمان بعيدة عن مراكز السلطة الإسلامية الباكرة فى الحجاز ولكنهم كانوا فى مكان جيد يسمح لهم بأن يلعبوا دورًا فى التجارة البحرية بالمحيط الهندى. وقد اعتنقوا الإسلام ولعبوا دورا مهمًا فى فتح فارس وغيرها من المناطق فى إيران . وقد شكلوا جماعة ضغط قوية، وأرادوا غزو السند لتوسيع تطلعاتهم التجارية.

وقد وُصفت السند فى هذه المرحلة بأنها «الحدود المتوحشة للحضارة الهندية»[٦] ولكنها كانت بالنسبة للمسلمين الأوائل أرض الذهب والتجارة ، أرض الدواء والأعشاب الطبية ، أرض الحلوى والسلوى، والأرز والموز والأشياء العجيبة[٧]. وقد أخذت اسمها من الكلمة السنسكريتية «سندهو»، وهو اسم النهر المعروف فى الغرب باسم نهر الهندوس والذى يعرفه العرب باسم مهران. والسند خلقها نهر الهندوس بالطريقة نفسها التى خلق نهر النيل مصر ، وقد أدرك الجغرافيون العرب فى القرن العاشر الميلادى/الرابع الهجرى هذا التشابه، وكتب ابن حوقل يقول إنه نهر كبير حلو المياه، ويوجد فيه التمساح ، مثل النيل، وهو يشبه نهر النيل أيضا فى حجمه وحقيقة أن ارتفاع مستوى مياهه تحددها أمطار الصيف . وينتشر فيضانه فوق الأرض ثم ينسحب بعد أن يخصِّب الأرض ، تماماً مثل النيل فى مصر[٨].

وفى وقت الغزو الإسلامى، كانت المناطق المستقرة من البلاد تحت حكم سلالة من الملوك من أصل براهمينى. وكانت هذه السلالة قد أسسها شاش (٦٣٢-٦٧١م تقريبا)

وكان يقودها فى أوائل القرن الثامن الميلادى/الثانى الهجرى داهر (٦٧٩-٧١٢م تقريبًا) الذى قاد المقاومة ضد المسلمين[٩]. ويبدو أن الملك كان يعيش فى المدينة التى أسماها العرب الرور، وكان الميناء الرئيسى فى مدينة الديبُل . وقد أدى تحول مسار دلتا الهندوس إلى صعوبة بالغة فى التعرف على هذا الموقع ، ولكن من الممكن ربطها بأطلال بانبهور التى تقع الآن فى مسطحات ملح منعزلة على بعد حوالى كيلو متر من البحر إلى الشرق من كراتشى . وأول ظهور للمدينة كان فى السجل التاريخى للقرن الخامس الميلادى، عندما كانت موقعًا بعيدًا فى الإمبراطورية الساسانية . وفى زمن الملك شاش وابنه داهر يبدو أنها كانت قاعدة للقراصنة، الذين يهاجمون التجارة بين الخليج والهند، وكان القضاء على هذه القرصنة أحد أسباب الهجوم الإسلامى[١٠].

وكانت أجزاء كثيرة من البلاد محتلة بقبائل شبه بدوية مثل الميد والجت ، الذين عرفتهم المصادر الإسلامية باسم الزُّط . وقد استعاض الميد عن معيشتهم على الكفاف فى أرضهم المجدبة بالقرصنة ضد السفن التجارية. وكان الزط مزارعين يستخدمون الجواميس فى زراعة أراضى المستنقعات على ضفاف نهر الهندوس ويزرعون قصب السكر. وحسب المصادر الإسلامية، تم نقل بعض الزط إلى جنوب العراق على يدى الشاه الساسانى بهرام جور (٤٢٠-٤٣٨م) لكى يجلب البهجة إلى شعبه بموسيقاهم[١١].

ووفقًا للتراث العربى كانت هناك خطط لغزو السند منذ سنة ٦٤٤م ، عندما هاجم المسلمون للمرة الأولى ولاية مكران المجاورة ، وربما كانت هناك أيضا حملات بحرية إلى الهند فى ذلك الوقت . وعلى أية حال، هناك روايات عن أن الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رفضا السماح بالإغارة فى هذه المنطقة البعيدة والخطيرة ، كما أن الروايات عن الحملات فى القرن السابع الميلادى ربما تكون أسطورية فى جانب كبير منها.

ونقف على أرض تاريخية أكثر رسوخًا مع حملة سنة ٧١٠- ٧١٢م . فبحسب كلام البلاذرى كان السبب المباشر لهذه الحملة أن «ملك جزيرة الياقوت» (سرى لانكا)

أرسل إلى الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق والمشرق كله ، بعض النساء ممن كن بنات لتجار مسلمين ماتوا فى بلاده . ويضيف الكاتب ملاحظة أن الجزيرة عُرفت باسم جزيرة الياقوت « ... وإنما سميت هذه الجزيرة جزيرة الياقوت لحسن وجوه نسائها ...»[١٢] وفى أثناء الرحلة، تعرضت السفينة لهجوم بعض قراصنة الميد الذين أبحروا من الدُيبل وتم الاستيلاء عليها وعلى جميع ركابها . وقيل إن واحدة من هاته النسوة صرخت منادية باسم الحجاج ، وعندما سمع بخبر الهجوم صمم على أن يبادر بالعمل .

وفى البداية كتب إلى داهر ، الملك ، يأمره بأن يطلق سراحهن ، ولكن الملك أجاب بأن لاسيطرة له على القراصنة الذين أسروهن وأنه عاجز عن تقديم المساعدة. وعندئذ أرسل الحجاج حملتين صغيرتين، ولكنهما لقيتا الهزيمة وقتل القائدان . وقرر عندها أن يرسل حملة أكبر . واختار لقيادتها ابن عم شاب له يسمى محمد بن القاسم الثقفى (من قبيلة ثقيف من الطائف أصلا) . وكان محمد إلى حد ما صبيا ذهبيا ووصف بأنه «أنبل ثقفى فى زمنه»[١٣]. وقيل إنه عين فى قيادة عليا وهو فى سن السابعة عشرة ولكنه برهن على أنه قائد كفء وحاكم متسامح حكيم . وقد تركت حياته القصيرة التى مرت كالشهاب ونهايته المأساوية ذكرى دائمة فى كل من السند والأراضى الإسلامية المركزية . وقد أمره الحجاج بأن يجمع جيشا فى مدينة شيراز التى تأسست حديثًا فى جنوب غرب إيران ؛ وتم إرسال ستة آلاف من الجنود المحترفين من بلاد الشام لكى يشكلوا قلب الجيش وأرسل إليه كل المعدات «حتى الإبر والخيط» . وعندما تم تجهيز كل شىء ، انطلقوا على طول الطريق البرى عبر جنوب إيران ثم إلى داخل مكران واستولوا فى طريقهم على مدينة فنزبور . وفى الوقت نفسه تم إرسال السفن بالرجال والأسلحة والإمدادات .

وتقابلت القوى خارج الديُبل، وبدأ محمد فى الحال يحاصر المدينة، ويحفر لأعمال الحصار. وأمر بإقامة رماح برايات القبائل تخفق عليها وأن تعسكر القوات إلى جانب راياتها . كما أنه أقام منجنيق يخدم عليه خمسمائة رجل، وكان اسمه العروس. ويوحى هذا بآلة حصار كبيرة تعمل باليد، وهو مثال من الأمثلة القليلة جداً التى لدينا عن استخدام القوات الإسلامية لآلات الحصار والمنجنيقات فى أثناء حركة الفتوح.

وكانت إحدى السمات الأساسية للمدينة وجود معبد وُصف بأنه «بُد» ، يشبه منارة كبيرة فى وسط المدينة؛ وربما كان هذا معبدا بوذيا (ستوبا) . وعلى قمة المعبد كان ثمة صارى (دقل) يرفرف منه علم أحمر كبير ويلتوى فى الهواء. وصار هذا الصارى هدف المنجنيق وعندما تم إسقاطه انهارت المعنويات داخل المدينة . وأمر محمد بن القاسم بوضع السلالم وسرعان ما تسلقها رجاله ليركبوا السور، ثم استولوا على المدينة عنوة[١٤]. وهرب الوالى الذى عينه داهر تحت ستار الليل. وأبيحت المدينة ثلاثة أيام للقتل وتم ذبح جميع الكهنة فى أثنائها إلى جانب آخرين. ثم أمر محمد بن القاسم ببناء مسجد كما خصص الخطط لتوطين أربعة آلاف مسلم .

وفى ذلك الحين شق محمد بن القاسم طريقه داخل البلاد نحو مدينة نيرون الحصينة قرب ضفاف نهر الهندوس . وهناك قابله اثنان من الرهبان البوذيين[١٥] وبدأت المفاوضات وعقدا الصلح معه كما رحبا به وأعطياه المؤن[١٦]. وبينما كان يحث الخطى باتجاه النهر، كان الأمر يتكرر، وكان الرهبان البوذيون يتصرفون فى كثير من الأحيان باعتبارهم صُناع سلام . وتروى الشاشنامه[١٧] أن مدينة سيويستان عانت بسبب الانقسامات بين أهلها . ففى ناحية كان الفريق البوذى ، وفى الناحية الأخرى كان حاكم القلعة الهندوسى ، وأخبر البوذيون قائد القلعة أنهم لن يحاربوا «إن ديانتنا ديانة سلام»، ومذهبنا النية الحسنة تجاه الجميع. ولن نكون مع إراقة الدماء أبداً» وأضافوا أنهم يخشون من أن يعتبرهم العرب من أنصار الحاكم فيهاجموهم ، وحثُّوه على الصلح مع العرب «إذ يقال إنهم يوفون بكلمتهم ، وإنهم يفعلون ما يقولون» . وعندما رفض الحاكم الاستماع إلى نصيحتهم أرسلوا إلى العرب يقولون إن كافة الفلاحين والصنّاع وعامة الناس قد انفضوا عن الحاكم وأنه لا يستطيع الاستمرار فى المقاومة كثيراً . وصمدت القلعة أسبوعا قبل أن يهرب قائدها فى ظلام الليل. ودخل المسلمون المدينة التى تمت استباحتها حسب العادة، ولكن ممتلكات الفريق البوذى حظيت بالاحترام. وكما هو الحال مع الشاشنامة دائمًا ، يصعب فصل الحقيقة عن الخيال، ولكن الرواية توحى فعلاً بأن نزعة المسالمة البوذية ربما كانت من عوامل نجاح الجيوش العربية ، كما أن الانقسام بين الناس العاديين من جهة والطبقة العسكرية الهندوسية من جهة أخرى أتاح للمسلمين الاستيلاء على بعض المدن بسهولة نسبية.

وكان فى أثناء هذا الزحف أن انضم إلى محمد بن القاسم أربعة آلاف من أبناء قبائل الزُط، مما زاد فى قواته زيادة كبيرة.

ويقى داهر زعيمًا للمقاومة . أما محمد بن القاسم على الضفة الغربية لنهر الهندوس فقد واجهه عبر النهر(١٨). تقدم الشاشنامة رواية مفصلة تبين كيف أن محمد عبر النهر لكى يهاجم داهر(١٩). وقرر أن يبنى جسرًا من القوارب وجميع القوارب المملؤة بالرمال والحصى والحجارة التى رُبطت معًا مع الألواح المتصلة . وفى الوقت نفسه ، تجمع أنصار داهر على الضفة الشرقية للنهر لكى يعترضوا نزولهم . وأمر محمد بأن تحضر جميع القوارب سويا بامتداد الضفة الغربية حتى يصل طول صف القوارب إلى مثل عرض النهر. ثم تجمع الجنود الشجعان المسلحون فوق القوارب وقاموا بتطويح صف القوارب حتى وصل الضفة الأخرى. وفى الحال ساق العرب أمامهم قوات الكفار بزخات من السهام وهبط الفرسان والرجالة على الضفة .

وقد خصص البلاذرى للمواجهة النهائية بين محمد بن القاسم وداهر سطورًا موجزة قليلة ولكن الشاشنامة وصفتها بمصطلحات درامية . كان الجيش السندى مكونًا من خمسة آلاف محارب محنك (أو عشرين ألفا من الجنود المشاة) وستين فيلاً. وكان داهر يركب فيلاً أبيض مسلحًا بقوس مشدود جيدًا ، ومعه جاريتان فى الهودج ، إحداهما تناوله ورق التنبول لكى يمضغه ، والثانية تمده بالسهام باستمرار . وألقيت خطب على الجانبين ووردت أسماء محاربين عرب كثيرين، وهى علامة أكيدة على أن هذا الجزء من الشاشنامة على الأقل قام على أساس أصل عربى. كما نعرف أيضا كيف أن العرب الذين كانوا قد انضموا من قبل إلى قوات داهر، ولأسباب غير مفهومة، جاءوا آنذاك إلى محمد بن القاسم ليقدموا له معلومات حيوية عن تحركات خصمه . وفى القتال العنيف الذى أعقب ذلك ، استخدم المسلمون سهامًا ملتهبة لإشعال النار فى الهودج الذى كان داهر يحارب من داخله وقذف الفيل نفسه فى الماء. وقبض على داهر وقُطعت رأسه، وقد تعرفت على جثته الجاريتان اللتان كانتا معه فى الهودج . ويحتفظ المؤرخ المدائنى قصيدة عن النصر قيل إن العربى الذى قتله أنشدها :

الخيل تشهد يوم داهــــــر والقنـــــا	ومـحـمــد بن القـاسم بن مـحـمـد
أني فـرجت الجـمع غـيـر مـعـــرد	حـتى علوتُ عظيـمـهـم بمهند
فتركته تحت العجـــاج مجـــدلاً	متعفر الخدين غير مؤسد[٢٠](*)

كانت هزيمة داهر وموته تعنى نهاية المقاومة المنظمة . وانتحرت نسوة كثيرات من حريم داهر، وأحرقن أنفسهن ، وخدمهن وكافة ما يمتلكن ، بدلاً من الوقوع فى الأسر. وتضع الشاشنامة خطبة قصيرة على لسان أخت الملك الصريع : «لقد ذهب مجدنا كما أن مشوار حياتنا قد انتهى، وطالما أنه لا أمل فى السلامة والحرية، فلنجمع الحطب والقطن والزيت . إن أفضل شيء لنا، فيما أظن، أن نحرق أنفسنا لنصير رماداً ونقابل أزواجنا بسرعة فى العالم الآخر»[٢١]. ودخلن جميعًا فى أحد البيوت ، وأشعلن النار به ليحترقن وهن أحياء. وعلى الرغم من هذه التضحية بالنفس، تقول الشاشنامة إن كثيراً من نساء الطبقة العليا ذوات الجمال الرائع قد أُرسلن إلى الحجاج بن يوسف الثقفى فى بغداد. وقد أرسلهن بدوره إلى بلاط الخليفة، حيث تم بيعهن أو منحهن للأقارب المفضلين والأتباع المقربين . أما بقايا قوات داهر فقد استمرت مطاردتهم حتى برهمناباذ ، بالقرب من المكان الذى بنيت فيه مدينة المنصورة الإسلامية فيما بعد ، وهناك تمت هزيمتهم للمرة الثانية، وتحفظ الشاشنامة رواية عن تعاملات محمد بن القاسم مع سكان برهمناباذ وهو ما قد يعكس الكثير من المسائل التى أثارها الفتح الإسلامى. إذ كانت استجابته المباشرة متمثلة فى الحفاظ على جميع الصناع والحرفيين وعامة الناس وإعدام الطبقات العسكرية[٢٢]. ولم يلبث أن أدرك الحاجة إلى تجنيد موظفين محليين فى الإدارة. وكانت حركته الأولى أن يقود إحصاء عامًا للتجار والصناع الذين اعتنقوا الإسلام أو أجبروا على دفع الجزية . وبعد ذلك عين رؤساء للقرى لجباية الضرائب. وفى الوقت نفسه سعى البرهمانيون إلى تأمين مكانتهم فى ظل النظام الجديد . فجاءوا إلى محمد بن القاسم وقد حلقوا رؤوسهم ولحاهم ، علامة على

(*) البلاذرى، فتوح البلدان، ص٤٢٢ .

الخضوع ، وتوسلوا إليه. وفى البداية ضمنوا الأمان لكل من بقى من عائلة داهر، بما فيهم زوجته لادى التى أخرجت من حجرتها الداخلية . وقيل إن محمد بن القاسم اشتراها وصارت زوجته[٢٣]. ومن المثير أن نقارن هذا بالزواج المعاصر لابن موسى بن نصير ، فاتح الأندلس ، بابنة رودريجو Rodrigo (لذريق) ملك القيزيقوط. ففى كل من الحالتين كان الفاتحون العرب يسعون إلى التحالف مع البيوت الحاكمة القديمة، ربما على أمل أن نسلهم سوف يصيرون حكاماً وراثيين. وفى كل من الحالتين، على أية حال، كان يعوقهم التصرف العنيف من جانب الحكومة فى دمشق.

ثم شرح البرهمانيون كيف أنهم كانوا يحظون بتشريف واحترام كبير فى المملكة القديمة . وقال محمد بن القاسم إنه ينبغى السماح لهم بالمزايا نفسها والمكانة نفسها التى كانوا يتمتعون بها تحت حكم الملك شاش أبى داهر . ويجب أن تورث هذه المكانة إلى أبنائهم . وبعد ذلك انشتر البراهمانيون ليكونوا جباة العوائد . وتم السماح لهم بالاحتفاظ بحقوقهم المعتادة من التجار والصناع .

ورُفعت شكاوى كثيرة من جانب القائمين على المعابد البوذية[٢٤]. وكانوا قبل ذلك يعيشون على الهبات الخيرية ولكن هذه كانت قد توقفت لأن الناس كانوا خائفين من الجنود المسلمين . وقد قالوا فى حزن «الآن معابدنا مهجورة خاوية على عروشها وليست لدينا فرصة لعبادة آلهتنا . ونحن نلتمس من حاكمنا العادل أن يسمح لنا بأن نصلح معابدنا البوذية ونبنيها ونمارس عبادتنا مثلما كان يحدث من قبل» وكتب محمد بن القاسم إلى الحجاج الذى أجاب بأنهم ما داموا يدفعون ما عليهم من الجزية ، فليست للمسلمين عليهم أى حقوق أخرى، ولذلك يجب السماح لهم بالحفاظ على معابدهم كما كان الحال من قبل. وفى اجتماع عقد خارج المدينة تماما، جمع محمد بن القاسم جميع رؤسائهم، وأعيانهم والبراهمة وسمح لهم ببناء معابدهم والتجارة مع المسلمين. كما أنه أخبرهم لكى يظهر عطفه على البراهمة أن يحتفلوا بأعيادهم مثلما كان آباؤهم وأجدادهم يفعلون من قبل، وربما كان الأهم من هذا كله ، أن يتم دفع ثلاثة بالمائة من الأموال التى تمت جبايتها إلى البراهمة وإرسال الباقى إلى بيت المال . كذلك استقر

الأمـر على أن يتم السـمـاح للبراهمـة (يفـتـرض أنهـم كانوا أولئك الذين لم يفـيـدوا من عوائد الضرائب) أن يتجولوا للتسول من باب إلى باب ومعهم الأوانى النحاسية ، بحيث يجمعون الذرة ويستخدمونها حسبما شاءوا .

كانت هناك مشكلة أخرى تتعلق بمكانة الجات[٢٥]. فقد وصف مستشارو محمد بن القاسم حالتهم المدنية وكيف كانت تمارس التفرقة والتمييز ضدهم فى عهد الملك شاش : إذ كان عليهم أن يرتدوا الثياب الخشنة ؛ فإذا ركبوا الخيول لم يكن من حقهم استخدام السروج أو الأعنة وإنما يستخدمون اللبود فحسب ؛ وكان عليهم أن يأخذوا الكلاب معهم بحيث يمكن تمييزهم؛ وكانوا ملزمين بأن يساعدوا بالعمل مرشدين وأدلاء للمسافرين ليلاً ونهاراً ؛ فإذا ما ارتكب أحدهم جريمة السرقة ، كان لابد من إلقاء أولاده وبقية عائلته فى النار وإحراقهم. وباختصار «فإنهم جميعا لهم الطبيعة الوحشية للبهائم . وكانوا دائمًا مشاغبين وغير مطيعين للحكام كما أنهم يرتكبون باستمرار جرائم قطع الطريق على المسافرين » واقتنع محمد بن القاسم فى سهولة أنهم «جماعة من الناس يتسمون بالخسة والحقارة» وأنهم يجب أن يعاملوا بناء على هذا .

وهذه المناقشات مثيرة للغاية ، ليس لأنها بالضرورة تسجيل دقيق لما حدث ولكن لما تخبرنا به عن الاستيطان الإسلامى وكيف كان فى رأى الناس. وعند المستوى الأكثر وضوحًا، توضح كيف كان المسلمون يتخذون الهيئة الإدارية الموجودة ويتركون البناءات الاجتماعية السائدة على حالها بدرجة كبيرة . وتخدم هذه الروايات غرضين مزدوجين ، فهى تستخدم لتشرح لجمهور المسلمين كيف استمر البراهمة على هذه الدرجة من النفوذ فى ظل الحكم الإسلامى الزاهد، ولماذا ينبغى التسامح إزاء المعابد . كما أنها كانت تُبيّن كيف كان ينبغى التسامح إزاء البوذيين والسماح لهم بممارسة ديانتهم . فبالنسبة لجميع غير المسلمين، أظهرت كيفية قبول مكانتهم من جانب الأب المؤسس للوجود الإسلامى فى السند، أى محمد بن القاسم، وناصحه العظيم الحجاج نفسه . أما بالنسبة للجات[*] التعساء ، فإنها أظهرت ببساطة أن مجئ الإسلام لم يجلب لهم أى نفع على الإطلاق .

(*) الجات، أو الزُّلط: طائفة منبوذة فى الهند.

وفى ذلك الحين صار زحف محمد بن القاسم نوعا من التقدم الظافر ، وفى نقطة ما كان المسلمون يلقون التحية من الأهالى الذين كانوا يرقصون على أنغام المزامير ودقات الطبول . وعندما سأل محمد بن القاسم عن هذا قيل له إنهم دائمًا يحيون حكامهم الجدد بهذه الطريقة(٢٦). كان الهدف الرئيسى التالى هو الرور، التى وصفت بأنها أكبر مدينة فى السند. وكان ابن داهر المسمى «فوفى» قد حصّن نفسه فى المدينة وعزم على المقاومة . ووفقا لما جاء فى الشاشنامة(٢٧) كان فوفى وأهل الرور يعتقدون أن داهر كان لا يزال على قد الحياة وأنه سرعان ما سيحضر لإنقاذهم . وحتى عندما أظهر محمد بن القاسم أرملته لادى وأكدت لهم أنه مات ، اتهم المدافعون المرأة بأنها تتآمر مع «أكلة البقر» وأكدوا من جديد إيمانهم بأنه سوف يأتى بجيش قوى لإنقاذهم . ووفقًا لهذه الرواية الخيالية ، لم يقتنعوا سوى بشهادة مشعوذة محلية . فعندما استشاروها، انسحبت إلى سكنها ثم ظهرت بعد ساعات قليلة قائلة إنها سافرت فى أرجاء العالم تبحث عن داهر ، وأبرزت إحدى ثمار جوز الطيب من سيلان دليلاً على رحلاتها ، ولكنها لم تعثر له على أثر . هذا الذكاء أقنع كثيرًا من السكان بأنهم يجب أن يبدءوا المفاوضات مع محمد، الذى كان شهرته بالفضيلة والعدل ذائعة فى كل مكان. وفى تلك الليلة تسلل فوفى وحاشيته تحت جنح الليل هاربين، وعندما بدأ العرب يهاجمون المدينة فى اليوم التالى، بدأ التجار والصناع المفاوضات ، قائلين إنهم تخلوا عن ولائهم للبراهمة وأنهم مقتنعون أن قوات الإسلام سوف تنتصر . وتقبل محمد بن القاسم اقتراحاتهم ، بعد أن تلقى تأكيدات بأنهم سوف يمتنعون عن القيام بأى عمليات عسكرية . وتجمع السكان عند ضريح يسمى النوبهار (وهو الاسم نفسه الذى يطلق على المزار البوذى الكبير فى بلخ) وانبطحوا سُجدًا أمام التمثال المصنوع من الرخام والألبستر. وسأل محمد بن القاسم القيم على المعبد لمن يكون ذلك التمثال . كما أنه أخذ أحد السوارات التى تغطى ذراعى التمثال . ثم ، أظهره وهو يضحك ووضعه ثانية على ذراع التمثال .

وبعد الاستسلام أمر محمد بن القاسم بإعدام عدد من المحاربين، ولكن لادى تدخلت قائلة، «إن الناس فى المدينة كانوا من البنائين العظام والتجار الكبار،

زرعوا أرضهم جيداً كما حافظوا على الخزانة عامرة باستمرار»، ولذلك أبقى محمد على حياتهم . ومرة أخرى تشير الرواية إلى المواءمات والعلاقات التى تم بناؤها مع حركة الفتوح : إذ لم يُمسُّ المعبد بسوء كما أن معيشة السكان بقيت على حالها . وتم الاحتفال بالفاتح العربى، ليس بسبب حماسته فى فرض المُثُل والقيم الإسلامية بأسلوب جامد، وإنما بسبب تسامحه وروحه السمحة . وهذا يتناقض أيضا بشكل واضح مع تدمير المعابد والأشخاص الدينيين فى أثناء الفتح العربى لبلاد ما وراء النهر فى الوقت نفسه . ومن الصعب أن نعرف ما إذا كان هذا نتيجة المسلك السلمى للبوذيين أم أنه كان ببساطة لأن المسلمين كان عددهم قليلاً بالقدر الذى لم يكن يسمح لهم بتحدى العادات الموجودة . وعندما خضعت المدينة تمامًا ، ترك محمد بن القاسم، اثنين من أتباعه العرب لتولى المسئولية ، وحثَّهم على أن يتعاملوا برفق مع الناس وينظروا فى مصالحهم.

وسقطت المدينة الكبيرة الأخرى، الملتان ، بعد ذلك بسرعة . وكان الفتح الذى أسماه العرب الظافرون «فرج بيت الذهب» ، أقصى نقطة وصل إليها تقدم المسلمين فى هذه المرحلة. كانت المدينة غنية وكان المعبد (البُدّ) بها مزاراً رئيسيًا من مزارات الحج البوذى . وقد أبدى السكان مقاومة عنيدة ونفدت إمدادات المحاصرين المسلمين إلى درجة كبيرة، حتى اضطروا إلى أكل حميرهم . ثم جاءت النهاية عندما أطلعهم البعض على الكيفية التى كانت مياه الشرب تدخل بها إلى المدينة وتمكنوا من قطعها . واستسلم الناس دونما شروط. وتم قتل جميع الرجال فى سن القتال والكهنة وسُبيت النساء والأطفال. وحصل المسلمون على كميات هائلة من الذهب[٢٨]. ومن الغريب والمثير أن هناك حكاية قديمة مأثورة عن أن خالد بن الوليد، المعروف فى التاريخ بأنه فاتح الشام، مدفون فى الملتان ومقبرته المفترضة أقدم مبنى إسلامى بالمدينة.

وقد ضعت الفتوح فى الهند نوعًا جديداً من المشكلات أمام المنتصرين. ففى معظم البلاد التى فتحها المسلمون الأوائل، كانت غالبية السكان يمكن اعتبارهم من «أهل الكتاب»، وهو ما كان يعنى أنه يمكنهم الحفاظ على حياتهم وممتلكاتهم وممارساتهم الدينية طالما كانوا يتقبلون الحكم الإسلامى ومكانتهم باعتبارهم «من أهل الكتاب» أيضا.

وكانت المشكلة فى السند أن معظم السكان كانوا إما من البوذيين أو الهندوس ، ولهم صورهم وتماثيلهم الكثيرة، ولم يكونوا أكثر من عبدة أصنام بوضوح وبساطة ، وكان يمكنهم القضاء عليهم إذا لم يعتنقوا الإسلام. وسرعان ما أضفى الفاتحون العرب فى السند على حماستهم الدينية قدراً من (البرجماتية) النفعية . وقيل إن محمد بن القاسم بعد أن استولى على الرور، قال بعقلانية إن البُد مثل كنائس النصارى، ومعابد اليهود وبيوت النار المجوسية، ويجب احترامها بالطريقة نفسها. ومن الناحية العملية كان معنى هذا أنه ينبغى قبــول الهندس والبـوذيين باعتبارهم من أهل الذمة . وفى كثير من الحالات استمر الرهبان البوذيون والبراهمة يديرون الإدارة المحلية لسادتهم المسلمين الجدد.

لقد وصلت الفتوح الأولية إلى منتهاها بصورة مفاجئة بسبب الأحداث التى جرت فى قلب العالم الإسلامى. ففى سنة ٧١٥م ، عندما كان محمد بن القاسم قد أمضى فى السند ثلاث سنوات ونصف ، حدث تغير كبير فى الحكم . ذلك أن الحجاج بن يوسف الثقفى، قريبه وحاميه، كان قد مات سنة ٧١٤م وتبعه الخليفة الوليد بن عبد الملك فى السنة التالية. وصحب ارتقاء سليمان بن عبد الملك عرش الخلافة الأموية رد فعل عنيفًا تجاه الحجاج وموظفيه وصدرت الأوامر لمحمد بن القاسم بالعودة إلى العراق حيث سجنه الوالى الجديد وعذبه، ولم يلبث أن مات فى سجنه. وكان يستحق ما هو أفضل. وهو مثل معاصِريه قتيبة بن مسلم فى خراسان، وموسى بن نصير فى إسبانيا، اكتشف أن إنجازاته فى خدمة الإسلام لم تكن لتحميه من المنافسات.

كان خلع محمد بن القاسم من منصبه علامة النهاية الفعلية للحملات النشطة. ففى الفترة القصيرة التى أمضاها فى الحكم ، كان قد أرسى أسس التوغل الإسلامى فى شبه القارة الهندية. فقد كان قد وضع الإطار الشرعى والسوابق التى أتاحت للمسلمين فيما بعد أن يعيشوا فى سلام مع البوذيين والهندوس. وإذا ما قورن بالغزاة الذين جاءوا من بعده لغزو شبه القارة الهندية مثل محمود الغزنوى فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى، فإنه ترك وراءه سيرة تتصف بالاعتدال والإنسانية والتسامح، وبكى الأهالى بسبب ما لحقه من الإهانة(٢٩). كما أنه جمع مبلغًا

طائلاً من المال . ويُحكى أن الحجاج عمل موازنة بسيطة لتكاليف الحملة كلها . وحسب أنه أنفق ٦٠ مليون درهم لتجهيز القوات ودفع مرتبات جنود محمد بن القاسم ، ولكن نصيبه من الفيئ بلغ ١٢٠ مليون درهم ، وهو مكسب ضخم بأى مقياس(٣٠). وربما كانت هناك مبالغة فى الأرقام كالعادة، بيد أن هذا هو السجل الوحيد لدينا عن أحد يحاول القيام بعملية حسابية كهذه فى تاريخ الفتوح الإسلامية كله. ويوضح المبلغ أن مثل هذه الحملات كان يمكن أن تدر عوائد كثيرة.

فى ذلك الحين كان العرب قد امتلكوا معظم وادى الهندوس الأدنى. وقُيِّض للمنطقة من المُلتان جنوبًا حتى مصب النهر أن تكون حدود الاستقرار الإسلامى فى شبه القارة الهندية. وكانت تفصلها عن بقية الهند الصحراء التى تفصل الآن بين الهند وباكستان شرق نهر الهندوس. وإلى شمال المُلتان ، كانت البنچاب خارج السيطرة الإسلامية حتى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى، حين قام الغزنويون من شرق أفغانستان بتوسيع نطاق الحكم الإسلامى صوب الشمال والشرق.

وثمة حاشية مثيرة على الفتح العربى للمسند فكما رأينا ، كان بعض الزُط قد استقروا فعلاً فى العراق قبل قدوم الإسلام . ويبدو أن المزيد منهم وصلوا نتيجة دخول المسلمين فى وطنهم بوادى نهر الهندوس . وسرعان ما نقل الخليفة الأموى بعضهم إلى السهول الحارة حول أنطاكية فى شمال بلاد الشام، ومعهم جواميسهم . وتم أسر بعض هؤلاء الذين كانوا شمال الشام فى غارة بيزنطية على عين زربة وأخذوا بعيداً ومعهم نساؤهم وأطفالهم وجواميسهم الغالية. والغجر فى إسمهم اليونانى آتسينجانوى Atsinganoi يظهرون فى جوار القسطنطينية فى القرن الحادى عشر. وقد بقى زط العراق عنصراً قلقًا من عناصر السكان المحليين، ولكنهم اختفوا من التاريخ فى سنة ١٠٠٠م. وفى سنة ١٩٠٣م ، نشر المستشرق الألمانى العظيم دى جويچى موضوعًا اقترح فيه أن هؤلاء الزط كانوا على الأقل أصل بعض الغجر فى أوربا الحديثة(٣١). ومن الواضح أن لغة الغجر ترجع فى أصلها إلى شمال غرب الهند، وربما كانوا قد هاجروا من بلاد الشام عبر الإمبراطورية البيزنطية إلى البلقان ، حيث يظهرون للمرة الأولى فى القرن الخامس عشر . وعلى أية حال، ليس هناك دليل مباشر على هذا، وتبقى النظرية مجرد تأملات استفهامية لا أكثر.

إسـبانـيا والبـرتـغـال

كان فتح إسبانيا والبرتغال ، المعروفة فى النصوص العربية باسم الأندلس ، وهى كلمة تبقى أصولها غير واضحة تمامًا ، سريعًا للغاية . ففى البداية عبرت قوات إسلامية كبيرة مضيق جبل طارق فى سنة ٧١١م ، وبحلول سنة ٧١٦م كان معظم شبه جزيرة أيبيريا تحت الحكم الإسلامى بشكل أو بآخر . ولاتكاد المؤرخات الكبرى التى تشكل الأساس لفهم تكوين الدولة الإسلامية فى الشرق الأوسط تذكر شيئًا عن الأحداث التى جرت فى شبه الجزيرة الأيبيرية. وكان التراث التاريخى العربى الأندلسى بطيئا فى انطلاقه . وهناك بعض المادة المبعثرة ، ولاسيما كتاب المؤرخ المصرى عبد الرحمن بن عبد الحكم، من القرن التاسع الميلادى/الثالث الهجرى، ولكن لم يحدث حتى القرن العاشر الميلادى/الرابع الهجرى، أى بعد مائتى سنة من الغزو الأصلى، أن بُذلت محاولة، من جانب مهاجر فارسى اسمه الرازى، لجمع المأثورات، والمذكرات والأساطير المتعلقة بالفتح ثم يرتبها على شكل مؤرخة . وليس من المدهش أن الروايات تخلو من التفاصيل المحددة وتغص بالأساطير والارتباك . ويمكن مقارنة المصادر العربية بما يسمى مؤرخة ٧٥٤م ، وضبطها عليها ، وهى تحمل اسم السنة التى حدث فى أثنائها موضوعها الأخير. ويقدم هذا الكتاب اللاتينى القصير سردا للخطوط العريضة . وربما تم تأليفها فى قرطبة ، ويحتمل أن مؤلفها كان مسيحيا يعمل موظفا فى الإدارة الإسلامية المحلية. ورواية الفتح الإسلام عبارة عن سرد واقعى بشكل غريب ويهتم اهتمامًا يكاد يكون تامًا بالأمور العلمانية . ولا يذكر فى أية مرحلة أن الغزاة كانوا مسلمين أو أنهم كانوا أصحاب ديانة مختلفة عن ديانة أهل إسبانيا .

وفى السنة نفسها التى كان محمد بن القاسم يستولى على الديُبل ويشق طريقه صاعداً فى وادى الهندوس ، كان قائد البربر فى موقع طنجة الإسلامى، طارق بن زياد، يضع الخطط لكى يقود رجاله عبر مضيق جبل طارق إلى جنوب إسبانيا. ولاغرابة فى أنه كان ينظر فى هذا الاتجاه – صخرة جبل طارق[٣٢] والتلال وراء جزيرة

طريقة يمكن رؤيتها بوضوح من الشاطئ الأفريقى. ولابد أن مشهد الغزو والغنائم كان مغريًا تمامًا ، وكان هناك كثير من البربر الذين اعتنقوا الإسلام منذ وقت قريب وكانوا يأملون فى الإفادة من مكانتهم الجديدة باعتبارهم غزاة فاتحين لا مقهورين.

وربما كان طارق مدركًا أنه كانت هناك منذ وقت قريب هبة سياسية رئيسية فى مملكة القيزيقوط فى إسبانيا . وكان القيزيقوط قد فتحوا شبه جزيرة أيبيريا فى القرن الخامس الميلادى . ومن عاصمتهم فى طليطلة كانوا قد حكموا واحدة من أكثر الممالك الجرمانية ، التى كانت قد استولت على الأراضى من الإمبراطورية الرومانية الغربية نجاحًا . وعلى الرغم من أن المملكة كانت موجودة على مدى ما يقرب من ثلاثة قرون، لايوجد هناك مؤشر على أنها كانت ضعيفة أو متدهورة. حقًا كانت المدن صغيرة وغير متطورة نسبيًا وأن الكثير من مناطق الريف كانت نادرة السكان فيما يبدو، ولكن المملكة كانت قوية وناجحة ولم يكن ثمة تقاليد للتمرد الداخلى أو الحركات الإنفصالية . وكانت الكنيسة راسخة تمامًا وعقدت سلسلة طويلة من المجامع الكنسية فى طليطلة لتشهد على حيوية تنظيمها وأنشطتها .

وعلى السطح، كانت فكرة أن مجموعة صغيرة من البربر ومعهم عدد قليل من الضباط العرب، تمكنوا من مهاجمة هذه الدولة القوية وتدميرها غير مفهومة بالمرة . كانت المملكة تمر بأزمة قصيرة المدى، على أية حال. ففى سنة ٧١٠م كان الملك ڤيتيزا غيطشة قد مات . وكان قد ترك أبناء بالغين، ولكن لأسباب لانفهمها تمامًا استولى رودريجو على العرش، وهو نبيل ربما كان من أقارب البيت الملكى وربما لم يكن قريبًا له. وكان أبناء Witiza (غيطشة) وأصدقاؤهم وحلفاؤهم أقوياء ومستائين . ولم يكن لدى رودريجو وقت لتوطيد سلطته قبل أن يقوم المسلمون بغزوهم . وكان لطارق بن زياد أيضا أسباب أكثر مباشرة تدعوه إلى التخطيط للغزو وكان الرجال الذين تولى قيادتهم فى أغلبهم من البربر الذين كانوا قد انضموا إلى الجيش الإسلامى فى السنوات القليلة السابقة . ومن غير المحتمل تمامًا أنه كان هناك أى نظام منتظم للدفع لمكافأتهم على

ولائهم للديانة الجديدة(*). وكان عليه لكى يحتفظ بولائهم أن يجد بسرعة مصدراً للدخل. وكانت إسبانيا المنطقة الواضحة التى يمكن أن يفعل فيها هذا .

وفى تاريخ ابن عبد الحكم[٣٣]، أول المؤلفات العربية التى وصفت الفتح، يتم إبراز قصة جوليان بشكل كبير . ويقال إن هذا الشخص الغامض كان سيد سبته ، وهى ميناء شرق طنجة تماماً ، وربما كانت لا تزال تحت السيادة البيزنطية . ووفقا لرواية ابن عبد الحكم «راسل طارق يُليان ولاطفه حتى تهاديا . وكان يُليان قد بعث بابنته إلى لُذريق (رودريجو) صاحب الأندلس، ليؤدبها ويعلمها فأحبلها ، فبلغ ذلك يُليان ؛ فقال : لا أرى له عقوبة ولا مكافأة إلا أن أدخل عليه العرب..»(*) ثم يستمر بعد ذلك ليصف كيف نقل يُليان بعض رجاله ذات مساء وأرسل سفنه مرة أخرى إلى الساحل الأفريقى لتحضر المزيد منهم فى المرة التالية. ولم يلق الناس على الجانب الإسبانى بالاً لأن السفن كانت تشبه تماماً سفن التجارة التى كانت غالبا ما تذرع المضيق ذهابًا وإيابًا . وجاء طارق فى السفينة الأخيرة وبقى الأسطول بالجزيرة الخضراء على حين زحف الجيش الإسلامى شمالاً ، تحسبًا لأى طارئ قد يستدعى إنقاذهم . ومن المستحيل أن نعرف مدى الحقيقة فى القصة أو ما إذا كان هناك فعلاً من يسمى «يُليان (جوليان) . وعلى أية على أية حال، فإنها لاتخرج عن الرصيد المعتاد لسرديات الفتح العربية، وربما تعكس حقيقة السخط المنتشر تجاه حكم رودريجو (لذريق).

وربما حدث فى أبريل أو مايو سنة ٧١١م أن وضع طارق القوة الصغيرة التى يقودها على متن السفن ليعبر بهم المضيق . وليس من المحتمل أن تكون القوة مؤلفة من أكثر من سبعة آلاف رجل، كانت بينهم أقلية صغيرة من العرب. وربما كان الهدف

(*) من حين لآخر يجنح المؤلف إلى هذه التفسيرات الأحادية التى تختزل السببية التاريخية فى الرغبة الجامحة للحصول على الأسلاب والغنائم ؛ وهو أمر يدعو للدهشة خاصة وأن المؤلف أستاذ عارف ، وباحث متمكن من مادته . ومن ناحية أخرى يتجاهل المؤلف الدوافع الأخرى التى كانت تتراوح بين المثالية الدينية والمطامع الدنيوية، وما بين الأسباب العامة والأسباب الشخصية لدى آلاف البشر الذين ضمتهم هذه الجيوش . وليس من المعقول أو المقبول علميًا أن نتصور أن هذه الجموع كانت تتحرك بدافع واحد فقط، ولكن يبدو أن المؤلف يريد أن يترك انطباعًا واحدًا وحيدًا لدى قرائه. (المترجم)

ببساطة شن غارة للنهب على نطاق واسع. وما إن عبر المسلمون حتى تمكنوا من أخذ «الجزيرة الخضراء»، حيث يقع ميناء Algeciras اليوم. وكان لهذه الميناء أن تصير قاعدة لهم لكى تتيح لهم أيضا فرصة التراجع إلى الساحل الأفريقى إذا ما ساءت الأمور.

كان رودريجو فى حملة عسكرية ضد عصيان الباسك فى أقصى شمال مملكته . وعندما سمع عن الإغارة الإسلامية ، أسرع عائدًا إلى الجنوب ، وتوقف فى مقر إقامته بقرطبة ليجمع المزيد من الرجال . ومثل هارولد ملك ملك إنجلترا والأنجلو سكسون فى معركة هاستنجز فى سنة ١٠٦٦م، لابد أن جيشه كان مرهقًا بسبب طول المسير لمواجهة الغزاة . واتبع طارق سياسة حذرة. فبدلا من الاندفاع لمهاجمة إشبيلية أو وادى النهر الكبير Guadalquivir، استمر قريبًا من قاعدته وطلب التعزيزات من إفريقية، ووصل خمسة آلاف من البربر ، مما رفع العدد الكلى إلى حوالى اثنى عشر ألف رجل على ما يبدو. وقيل إنه انضم إليه بعض أنصار أبناء ڤيتيزا (غيطشة) ، المعارضين للملك الجديد. ويدور الجدل حول الدور الذى لعبته (المعارضة) الڤيزيقوطية. وترى وجهة نظر إسبانية حديثة أنهم لو كانوا قد ساعدوا المسلمين حقًا ، لكانوا خونة . وهناك رأى آخر يقول إنهم ربما كانوا مثل الكثير من معاصريهم الذين لم يروا فى الغزو الإسلامى سوى غارة قد تستمر طوال الصيف على الأكثر ، ولم يكن بوسعهم أن يعرفوا أن المسلمين سيحكمون أجزاء من شبه جزيرة أيبيريا على مدى السنوات الثمانمائة القادمة.

وربما كان المسلمون قد تلقوا بعض الدعم من الجماعات اليهودية فى شبه جزيرة أيبيريا . وهذه أيضا مسألة خلافية تمامًا لها رنين واضح فى الوقت المعاصر . والحقيقة أننا لانملك دليلاً على هذا بالمرة. ونعرف أن ملوك الڤيزيقوط قد أصدروا باطراد قوانين قاسية معادية لليهود، انتهت بمرسوم يقضى باعتناقهم المسيحية . وكان من الطبيعى أن يرحب اليهود بالمسلمين أملا فى أن يحرروهم . ولا يوجد ما يشير إلى أن هذا المرسوم قد طبق على الإطلاق ، كما لايوجد بالمرة أى دليل على أن اليهود ساندوا المسلمين بشكل فعال فى أى وقت .

وجرت المعركة الحاسمة بالقرب من مدينة سيدونيا الصغيرة، Medina Sidonia وليس معروفا موقع المعركة بالضبط ولكن هناك اعتقاد شائع أنها وقعت على النهر الصغير Guadalete(٣٤). والروايات عن هذه المعركة نادرة تمامًا. وتلاحظ مؤرخة ٧٥٤م فى بساطة أن «روردیك» (رودريجو) توجه صوب جبال Transductine [وهو موقع غير معلوم] لمحاربة الرجال، وفى المعركة هرب جيش القوط بأجمعه ، وهو الجيش الذى كان قد جاءه بالخداع وفى التنافس بسبب الطموح إلى العرش الملكى، ولقى هو مصرعه . وهكذا فقد روردیك ليس حكمه فقط وإنما فقد وطنه أيضا، كما قتل منافسوه أيضا»(٣٥). وتقول المصادر العربية إن المعركة جرت فى ١٩ يوليو ٧١١م، وتقترح مثل مؤرخة ٧٥٤م أن الانقسامات بين صفوف جيش القيزيقوط أتاحت للمسلمين أن ينتصروا عندما هرب أنصار أخيلا بن غيطشه(٣٦).

ولن تكون التفاصيل مؤكدة أبدًا ولكن النقطة الأساسية واضحة: أنزل طارق ورجاله هزيمة فادحة بجيش القيزيقوط ، وقتل الملك وتفرق باقى الجيش فى فوضى.

ثم قاد طارق رجاله إلى الشرق على طول وادى النهر الكبير، قاصداً قرطبة Ecija حيث يعبر الطريق الرومانى نهر Genil ، ليواجه أول مقاومة واستولى على المدينة بالقوة . وبدافع السرعة قسَّم قواته.

وتم إرسال سبعمائة رجل، كلهم من الفرسان، إلى قرطبة تحت قيادة المولى مغيث. وسقوط قرطبة، التى سرعان ما صارت عاصمة الأندلس، مسجل مع بعض التفاصيل الظرفية ، وربما الخيالية ، فى المصادر العربية(٣٧). وعندما كان مغيث يقترب من المدينة على امتداد الضفة الجنوبية للنهر الكبير، قبض رجاله على راعى كان يرعى غنمه . وأحضروه إلى المعسكر وبدءوا فى استجوابه . وقال إن المدينة قد هجرها كل الأعيان من سكانها ولايوجد سوى البطريق (الحاكم) ومعه أربعمائة من الحرس وبعض الضعفاء . وعندما سألوه عن الدفاعات قال إنها فى حال جيدة باستثناء ثلمة فوق البوابة التى تؤدى إلى الجسر الرومانى عبر النهر . وفى تلك الليلة قاد مغيث رجاله عبر النهر وحاول تسلق السور بالخطاطيف ، ولكن ثبت استحالة ذلك. ورجعوا إلى الراعى الذى أرشدهم إلى الثلمة . وتسلق أحد المسلمين السور وخلع مغيث عمامته واستخدمها

ليسحب بها الآخرين إلى أعلى السور. وسرعان ما كان هناك عدد كبير من المسلمين فوق السور . ثم جاء مغيث إلى بوابة الجسر، التى كانت حطامًا آنذاك ، وأمر رجاله بالإحاطة بالحراس على الأسوار. ثم كسروا الأقفال ولم يلبث مغيث ورجاله أن دخلوا المدينة.

وعندما سمع الحاكم (الذى تسميه هذه الرواية الملك) أنهم قد دخلوا المدينة هرب ومعه أربعمائة من رجاله شرقا إلى كنيسة تحصنوا فيها . وفرض مغيث الحصار عليها . واستمرت المقاومة ثلاثة شهور حتى جاء فى أحد الأيام خبر إلى مغيث بأن الحاكم هرب وحده ، قاصدا أن يؤسس معقلاً فى الجبال الواقعة وراء المدينة. وانطلق مغيث يطارده حتى أمسك به بعد أن وقع من على فرسه الذى تعثر فى حفرة . ووجده مغيث جالسًا فوق درعه ، ينتظر أسره . ويقول ابن عذارى إنه كان الوحيد الذى تم أسره من بين ملوك الأندلس . أما الآخرون جميعًا فقد عقدوا الصلح أو هربوا إلى الأماكن النائية مثل جليقية . ثم عاد مغيث إلى الكنيسة. وتم إعدام جميع المدافعين ولكن تم الإبقاء على حياة الحاكم حتى يتم إرساله إلى الخليفة فى دمشق.

وتوجه طارق نفسه إلى العاصمة طليطلة . ويبدو أن هذا المدينة كان قد هجرها عدد كبير من سكانها : ووفقا لمؤرخة ٧٥٤م فإن كبير الأساقفة سيندريد **Sindered** «فقد أعصابه ومثل المأجور لا الراعى، وعلى العكس من مبادئ الأقدمين، تخلى عن شعب المسيح وتوجه إلى وطنه الرومانى»[٣٨] ويتمثل إسهام ابن عبد الحكم الوحيد فى تاريخ الاستيلاء على عاصمة القيزيقوط فى قصة الحجرة التى عليها الأقفال ، وهى مثل قصة يُليان ، وصلتنا فى التاريخ وفى الأسطورة . ووفقا لهذه القصة كانت هناك حجرة (يفترض أنها طليطلة) «... بيت عليه أقفال، لا يلى ملك منهم إلا زاد عليه قفلاً من عنده، حتى كان الملك الذى دخل عليه المسلمون، فإنهم أرادوا أن يجعل عليه قفلاً كما كانت تصنع الملوك قبله، فأبى، وقال: ما كانت لأضع عليه شيئًا حتى أعرف ما فيه. فأمر بفتحه، فإذا فيه صور العرب، وفيه كتاب، إذا فُتح هذا الباب دخل هؤلاء القوم هذا البلد»[٣٩](*).

(*) عبد الرحمن بن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب، ص٢٧٨ . (المترجم)

وربما كان طارق قد اندفع على طول الطريق الذى يؤدى إلى وادى الإبرو ، وربما أخذ Guadalajara قبل العودة فى الشتاء إلى طليطلة . وفى الوقت نفسه كان موسى بن نصير والى إفريقيه وقائده ، قد قرر الانضمام إلى ما بدا أنه مشروع مربح للغاية. ففى الربيع التالى ، سنة ٧١٢م جمع جيشًا قوامه ثمانية عشر ألف رجل على الساحل المواجه لجبل طارق . وكانت هذه قوة تختلف تمامًا عن القوة التى كان طارق قد تولى قيادتها قبل سنة . فقد كان معظم أفرادها من العرب . وقد ضمت بعض «التابعين» (أى الجيل الذى جاء بعد جيل صحابة النبى) وزعماء القبائل العربية الرئيسية . وفى يونيو سنة ٧١٢م عبر الجيش الجزيرة الخضراء Algeciras . وبدلاً من أن يسرع لكى يتقابل مع طارق بن زياد فى طليطلة ، يبدو أن موسى قرر أن يقوى منطقة الحكم الإسلامى فى الجنوب. وبدأ ببعض المدن الصغيرة، مدينة سدونيا وكرمونه، قبل أن يحول انتباهه إلى إشبيلية ، وهى واحدة من أكبر المدن فى شبه جزيرة أيبيريا. ولا يبدو أن المقاومة قد طالت كثيراً وأخلت الحامية القيزيقوطية المدينة وانسحبت إلى الغرب.

ثم ذهب موسى شمالاً على طول الطريق إلى مدينة ماردة Merida . وميريدا الآن مدينة إقليمية متوسطة الحجم ، كانت إحدى العواصم الرئيسية فى إسبانيا الرومانية ولا تزال الأطلال الكلاسيكية الباهرة تشهد على ثروتها ومكانتها. وفى العصور المسيحية الأولى كانت قد صارت مركزًا لتبجيل سانت إيولاليا St. Eulalia وعبادتها المزدهرة وهنا واجه المسلمون مقاومة أكثر جدية مما واجهوه فى أشبيلية أو طليطلة . ويبدو أن موسى كان مضطرا إلى فرض الحصار على المدينة فى أثناء الشتاء سنة ٧١٢- ٧١٣م وأن المدينة لم تستسلم نهائيًا سوى فى ٣٠ يونيو سنة ٧١٣م . ثم انطلق موسى لكى يقابل طارق بن زياد، ولكنه قبل هذا أرسل ابنه عبد العزيز إلى أشبيلية ، حيث كانت المقاومة قد انكسرت . وتقدم موسى شرقًا على طول نهر التاج. Tagus إلى عاصمة القوط التى كانت آنذاك تحت سيطرة طارق بن زياد . وهناك أجبر طارق على تسليم الكنز والثروات التى كان قد صادرها من الكنائس . وتهتم المصادر العربية ، مثلما يحدث غالبًا، بالغنائم وكيفية توزيعها . وفى هذه الحالة ، تحكى عن المنافسة بين طارق بن زياد وموسى بن نصير . ومحور الصراع كان «مائدة سليمان» ، التى كانت

محفوظة فى قلعة خارج طليطلة . وهى ذات قيمة هائلة من الذهب والجواهر . وكان طارق قد أخذها ولكن موسى أصرّ على أن يأخذها . ووافق طارق بعد تردد على تسليمها ولكنه أخذ إحدى الأرجل وثبت مكانها أخرى مزيفة وأقام موسى بن نصير نفسه سيداً حقيقياً على المدينة القديمة على حين كان طارق بن زياد قد عاد إلى قرطبة فى حال من الحنق الشديد. وكما هو الحال فى قصة يُليان ربما تشير هذه المادة الأسطورية الواضحة إلى توترات سياسية أوسع فى مداها بين طارق بن زياد وأتباعه من البربر وموسى وجيشه من العرب.

وفى الربيع التالى (سنة ٧١٤م) انطلق موسى مرة أخرى، قاصداً وادى نهر الإبرو. وفى وقت ما أثناء تلك السنة استولى على سرقوسة ، حيث وضع حامية عسكرية وبنى مسجداً . وفى غضون ذلك الصيف، استولى أيضا على ليريدا Lerida وتوجه صاعدا الطريق الرومانى الذى يؤدى إلى برشلونة وناربونة .

وغالبًا ما كان الخلفاء فى دمشق مُرتابين تساورهم الشكوك حول الفاتحين الناجحين خوفا، وربما عن حق، من أنهم قد يهربون من سيطرة الحكم . وكان موت الوليد بن عبد الملك سنة ٧١٥ م يعنى أن موسى بن نصير، مثل محمد بن القاسم فى السند، قد عُزل من منصبه وأعيد إلى دمشق . وقد حاول القائدان ، قبل رحيلهما أن يخضعا المناطق المحيطة بالجبال الشمالية. واستولى طارق بن زياد على ليون واشترجه Astorga ثم واصل تحركه حتى جبال كانتابريا Cantabria إلى أوڤيدو Oviedo وجيخون Gijon . وهجر كثير من السكان المدن وفرّوا إلى جبال Pico de Europa .

وعندها فحسب قرر الفاتحان إطاعة أوامر الخليفة . وعين موسى بن نصير ابنه عبد العزيز واليًا على الأندلس ، واثنين من أولاده على السوس والقيروان . ولو أن الظروف كانت مختلفة، فى أواخر الحكم الميروفنجي بفرنسا مثلاً ، فربما كان المغرب الإسلامى قد تطور ليصير دولة مستقلة تحت حكم عائلة موسى بن نصير . وفى الدولة الإسلامية الباكرة، كانت الروابط التى تربط أبعد الولايات بالعاصمة قوية للغاية . فقد تقبل كل من محمد بن القاسم فى السند وموسى بن نصير فى الأندلس مصيرهما،

وأطاعا الأوامر الصادرة لهما وعادا إلى الأراضى الإسلامية المركزية . وفى كل من الحالين لحقت الإهانة ببطلى الفتوح ، وتم تجريدهما من مكاسبهما وألقيا فى السجن . ومات موسى بن نصير سنة ٧١٦-٧١٧م ، وربما كان لا يزال فى الحبس . ولا نعرف شيئًا على الإطلاق عن مصير طارق بن زياد، ولكن لابد أنه قد مات فى الشرق الأوسط فى ظروف غامضة تماما.

وقد استكمل عبد العزيز بن موسى بن نصير عملية تقوية فتح الأندلس ومن المحتمل أنه فى أثناء ولايته (٧١٤-٧١٦م) تم إخضاع معظم البرتغال الحديثة وقطالونيا للحكم الإسلامى، ولكن المعلومات عن طبيعة هذا الاحتلال والظروف المحيطة به نادرة للغاية.

ولدينا معلومات أفضل عن فتح المناطق المحيطة بمرُسيه فى جنوب شرق إسبانيا. وكان يحكم هذه المنطقة نبيلٌ من القيزيقوط اسمه ثيودمير (تُدمير) . وتفاوض مع عبد العزيز على الصلح وعقد معاهدة يرجع تاريخ نصها إلى أبريل سنة ٧١٣م وهى مسجلة فى عدد من المصادر العربية[٤١].

«بسم الله الرحمن الرحيم. كتب هذا عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدُمير بن غبدوشن (النص من ابن عذارى)

والمعاهدة نموذج كلاسيكى لهذا النوع من الاتفاقات المحلية التى كانت تمثل حقيقة «الفتح» العربى فى أية منطقة من مناطق الخلافة . ومن الواضح أنه بدلاً من الشروع فى حملة عسكرية صعبة ومكلفة ، كان المسلمون يفضلون الاتفاق الذى يمنحهم الأمن من الأنشطة المعادية وبعض الفدية. وهى نموذج يمكن أن نلاحظه فى كثير من مناطق إيران وبلاد ما وراء النهر . ومن المثير أن نلاحظ أن الكثير من هذه الجزية كان يؤخذ عينًا (القمح والشعير والخل والزيت ، ولكن طبعا ليس هناك خمر) . وفى مقابل هذا، كان كان يسمح للسكان المحليين بالاستقلال الذاتى الكامل تقريبا . ومن الواضح أنه كان من المتوقع أن يستمر تيودمير فى حكم مدنه السبع والمناطق الريفية المرتبطة بها. وليس هناك ما يشير إلى أنه كانت هناك حامية عسكرية تمت إقامتها ،

أو إلى بناء مسجد . وربما كان تيودمير وكثير من أتباعه قد تخيلوا أن الغزو الإسلامى لن يدوم طويلاً وأن الأمر يستحق أن يدفعوا الجزية للحفاظ على أملاكهم حتى يحين وقت إعادة بناء مملكة القيزيقوط(*). والحقيقة أن خمسة قرون مرّت قبل أن تستطيع القوى المسيحية استعادة السيطرة على هذه المنطقة. ولا نعرف كم من الوقت استمرت الاتفاقية فعالة: إذ مات تيودور نفسه سنة ٧٤٤م عن عمر مديد حافل بالتميز . وربما لم يتم إلغاؤها بصورة رسمية أبداً ولكن زياد هجرة المسلمين وزيادة معدل انتشار الإسلام بين السكان أواخر القرن الثامن وفى القرن التاسع جعل شروطها غير ذات موضوع .

وانتهت ولاية عبد العزيز نهاية مفاجئة وغير سعيدة. وحسب رواية ابن عبد الحكم(٤٢)، كان قد تزوج إبنة لذريق (رودريجو) ، آخر ملوك القيزيقوط ، التى جلبت له ثروة طائلة وفكرة مثيرة لبناء الهيبة الملكية. فقد ساءتها حالة التواضع التى حافظ عليها والبساطة التى كان أتباعه العرب يعاملونه بها، ولايسجدون أمامه. وحسب القصة ، أقنعته أن يضع باباً منخفضاً فى قاعة مقابلاته بحيث يضطرون إلى الانحناء أمامه عندما يدخلون . وقد غضب العرب من هذا بقوة ، بل إن بعضهم زعموا أنها قد جعلته يعتنق المسيحية. وحيكت مؤامرة لاغتياله ومات الحاكم بالسيف . ومن الواضح أن القصة تنتمى للنوع الذى يناقض الطبيعة البسيطة ، بل الديموقراطية ، للحكم العربى ضد التراتبية والأبهة التى كانت تميز الإمبراطوريات والممالك التى حلّ العرب محلها . وربما تعكس أيضاً التوتر بين أولئك العرب الذين كان قد تزوجوا وريثات موسرات من الأهالى وعامة الجيش الغازى(*).

(*) يسرف المؤلف كثيراً فى استخدام تعبيرات لاتناسب البحث العلمى: مثل «ربما» ومن المحتمل ، وما فى معناهما، للتعبير عن رأيه الشخصى البعيد عن الاستنباط والاستنتاج القائم على القرائن والأدلة ؛ ومن الملاحظ أنه يستخدم هذا الأسلوب للتعبير عن رفضه –بأثر رجعى– للأحداث التاريخية التى كانت لصالح المسلمين ؛ فهو يحاول تفسير قبول بعض القيزيقوط لدفع الجزية ، ويرفض القصة التى تحكى مصرع عبد العزيز بن موسى بن نصير على الرغم من اتساقها مع الحقائق التاريخية المعروفة عن البساطة الأولى التى ميزت الحكم الإسلامى قبل أن تتحول بلاطات الحكام المسلمين إلى ما يشبه ما كانت عليه بلاطات الحكام الآخرين. (المترجم)

وقد بدأ حكام إسبانيا الجدد يتركون بصماتهم على الإدارة فى الحال تقريبا . ويمكن أن نرى هذا على أوضح ما يكون فى حالة العملة . فقد كان وصول موسى بن نصير مقرونًا بسك عملة ذهبية جديدة ، ليست قائمة على عملة قوطية وإنما على أساس من النماذج الموجودة فى شمال أفريقيا . وكانت أول هذه العملات تحمل العبارة اللاتينية :

"In Nomine Domini non Deus nisi Deus Solus" وهى ترجمة مباشرة لصيغة «لا إله إلاّ الله» الإسلامية، وهو مزج غير معتاد بين التقاليد الإسلامية والتقاليد اللاتينية . وربما تم سك هذه العملة فى دار سك نقود متحركة كانت تصحب الجيش لإعادة تدوير الغنائم ، ربما الأشياء الثمينة المأخوذة من الكنائس ، وتحويلها إلى نقود لكى يمكن تقسيمها بسهولة أكبر بين العسكريين لإنفاقها .

ولم يستقر غزاة إسبانيا المسلمون فى مدن عسكرية : إذ لم يكن هناك معادل إيبيرى للفسطاط أو القيروان . ويبدو أنه بدلاً من ذلك كان هناك نموذج للتوطين أكثر انتشاراً، يبدو فى بعض النواحى أكثر شبهًا بالطرق التى استوطن بها الغزاة الجرمان الذين غزوا الإمبراطورية الرومانية فى القرن الخامس الميلادى بلاد الغال وإسبانيا . ويبدو كما لو أن العرب، الذين جاء معظمهم بالضرورة من مناطق حضرية مثل الفسطاط أو القيروان ، قد اختاروا الاستقرار فى المدن والقرى فى وادى النهر الكبير ووادى نهر الإبرو ، حول قرطبة وإشبيلية وسرقوسة ، على حين توطن البربر، الذين جاءوا من خلفيات رعوية ، فى السهول المرتفعة بمسيتا Meseta وسط وجنوب الجبال .

كان الفتح ناجحًا بصورة مدهشة . ففى غضون خمس سنوات من الفتح الأولى تم إخضاع شبه جزيرة إيبيريا كلها تقريبًا لسيطرة الجيوش الإسلامية. وعلى أية حال، كان هناك استثناء مهم، تحول إلى استثناء قاتل فيما بعد ، لهذه القاعدة . ففى شمال إسبانيا، كما هو الحال فى بعض مناطق الشرق الأوسط، كان خط النسبة على الخريطة (الخط الكونتورى ١٠٠٠متر) يمثل حدود الأراضى التى يسيطر عليها المسلمون . وكان معنى هذا أنه فى الوديان الجنوبية العالية لجبال البرينيس (البرانس) وجبال بيكودى أوربا الواقعة غربًا فى أشتورياس ، أن تجمعت مجموعات صغيرة من اللاجئين

والسكان المحليين لحماية استقلالهم عن الحكم العربى. وفى جبال بيكوس دى أوربا ، قيل إن الحركة كانت تحت قيادة شخص يُسمى بيلايو Pelayo، ربما كان نبيلاً من القيزيقوط وعضواً فى بلاط لذريق. ولانعرف شيئًا عن هذا التمرد من المصادر العربية ، ولكن بالنسبة للمسيحيين فى مملكة أشتورياس ، كانت قصة التمرد الأساس الذى قامت عليه أسطورة تأسيس مملكتهم. وحسبمـا تحكى فى مؤرخـة ألفونسو(٤٣)، التى يحتمل أن تكون قد تم تأليفها بعد سنة ٩٠٠ ميلادية ، كاد بيلايو أن يقع فى أيدى العرب ولكن صديقًا حذره وفرّ إلى بيكوس دى أوربا. والأرض فى البيكوس جرداء بها ممرات منحدرة ونتوءات صخرية . وتسقط عليها الأمطار كثيراً بحيث جعلتها خضراء بشكل مدهش، بها الحقول التى تروى جيداً والغابات والأنهار سريعة الجريان. وكانت أرضًا تختلف تمامًا عن السهول المفتوحة فى مسيتا جنوبًا كما كانت تشكل عالمًا بعيداً عن صحراوات شمال أفريقيا ومصر. ولم تكن أبدا فى الحقيقة جزءاً من إسبانيا الرومانية، ولم يتم بناء مدن كبيرة هناك ، وليست هناك طرق رومانية تمرُّ من خلالها .

وتقول المؤرخة إن بيلايو استطاع الهرب عندما جاء إلى ضفة نهر سريع الجريان وعبره سباحة فوق ظهر جواده ؛ ولم يتمكن أعداؤه من ملاحقته . وهرب إلى الجبال وأسس مقر قيادة فى كهف صار مركز المقاومة واستخدمه الناس فى جميع أنحاء أشتورياس . وغضب الحاكم العربى غضبًا شديداً وأرسل جيشًا من مائة وسبعة وثمانين ألف رجل ، وهو رقم خيالى تمامًا ، لإخماد التمرد . وكان يقودهم عربى تسميه مؤرخة ألفونسو الثالث القاما Alqama ، وأسقف غامض اسمه أوبا Oppa ، تقدمه القصة فى صورة المتعاون مع العدو . وواجه المسلمون بيلايو فى مكان يُسمى كوڤادونجا Covadonga ، عاليًا فى الجبال . وخاطب الأسقف بيلايو وسأله كيف يظن أن بوسعه الصمود فى وجه العرب (الإسماعيليين) مع أنهم هزموا الجيش القوطى كله قبل وقت قصير . ورد بيلايو بعظة دينية صغيرة قائلا إن «المسيح أملنا ومن خلال هذا الجبل الصغير الذى تراه ، سوف تتم استعادة رفاهية إسبانيا وإعادة بناء جيش الشعب القوطى».

وبعد انهيار المفاوضات ، شن الجيش الإسلامى هجومه . وتم ذبح أعداد غفيرة منهم، وهرب الباقون . وقد اكتسبت معركة كوڤادونجا ، التى توضع عادة فى تاريخ سنة ٧١٧م ، مكانة أسطورية باعتبارها بداية المقاومة المسيحية . وقد أدى فشل القوات الإسلامية فى إخماد التمرد فى الحال إلى فقدان السيطرة على أماكن الاستيطان الشمالية مثل يخون وتأسيس مملكة مسيحية صغيرة مستقلة . وكانت هذه المملكة ، وكيانات صغيرة مشابهة فى وديان البرينيس وبلاد الباسك ، هى الأساس الذى قامت عليه حركة الاسترداد المسيحية فيما بعد .

وكانت هناك مناطق أخرى فى العالم الإسلامى عاشت فيها إمارات مستقلة جنبًا إلى جنب مع السلطات الإسلامية ، فى اعتدال وسلام فى جبال شمال إيران ، مثلا . وكانت الإمارات المسيحية فى جبال أرمينيا فى وضع لايختلف تمامًا عن وضع الإمارات المسيحية فى شمال إسبانيا، بيد أنه لم تكن أى من هذه الإمارات تهدد الحكم الإسلامى فى مناطق الجنوب بشكل خطير . وعندما قام سكان الجبال الديلم فى شمال إيران بغزو الكثير من مناطق إيران والعراق فى القرن العاشر الميلادى/الرابع الهجرى ، كانوا يفعلون هذا بوصفهم مسلمين ، وسرعان ما فقدوا هويتهم وذابوا فى السكان المسلمين . وحافظ الأرمن على استقلالهم ولكنهم لم يسعوا أبدًا إلى القيام بغزوات وراء أوطانهم التقليدية . وما كان يميّز إمارات شمال إسبانيا أنها حافظت على ثقافتها المسيحية اللاتينية . وفى الوقت نفسه ، حافظت على إحياء مملكة القيزيقوط وفكرة أن شبه الجزيرة كلها كانت ذات مرة ملكًا للمسيحيين وينبغى أن تعود إليهم ثانية . كذلك كانت لهم روابط بالعالم المسيحى الأوسع فى الشمال وكانوا يستطيعون الوصول إليه . وكانت هذه العوامل تعنى أنه، على خلاف الإمارات فى شمال إيران أو الإمارات الأرمنية، تحول المسيحيون فى إسبانيا على المدى الطويل إلى خطر يُهدد السيطرة الإسلامية ، حتى طردوا المسلمين فى النهاية ، بعد ثمانمائة مائة سنة.

ولم تنته طموحات العرب عند جبال البيرينيس . فسرعان ما أُخذت القوات الإسلامية تشن غاراتها على وادى الرون وعبر أراضى أقطانيا الخصيبة . ومن سوء الحظ أننا لا نملك سوى روايات موجزة تمامًا عن هذه الحملات المغامرة . وغالبًا ما

يكون مسار الغارات غير واضح بالمرّة . وكثيرا ما تكون المصادر العربية روايات ذات خط واحد ولدينا ملاحظات مختصرة فى بعض المؤرخات الديرية اللاتينية . هذه المواجهة الأولى بين شعوب شمال غرب أوربا والمسلمين يحجبها ضباب الغموض . ويقال إن الغارات الأولى كانت موجهة من جانب طارق بن زياد وأنها وصلت آفينيون Avignon وليون Lyon قبل أن تلقى الهزيمة على يد شارل مارتل Charles Martel(٤٤) وكانت الجماعات الغازية من المسلمين تذهب حول الطرف الشرقى لجبال البرينيس: برشلونة ، وجيرونه وناربونه كلها وقعت تحت سيطرتهم ، على الرغم من أن الحكم الإسلامى فى ناربونه كان قصير العمر وزال بسرعة . وتزعم المصادر العربية اللاحقة أن موسى بن نصير كان قد فكر فى خطة ضخمة وجسورة لزحف جيوشه عبر أوربا كلها والإمبراطورية البيزنطية عائدا إلى بلاد الشام(٤٥). ولا بد أنهم شعروا فى بعض الأحيان أنه لا يمكن وقفهم .

ولم يكن النجاح حليفهم على الدوام . ففى صيف سنة ٧٢١م قام والى الأندلس، السمح بن مالك الخولانى بغارة داخل أقطانيا ولكن الدوق إيديس Eudes ، حصّن نفسه فى تولوز . وفى معركة حامية فى ٩ يونيو ، تم دفع العرب وحدهم وقتل الوالى نفسه. وفى سنة ٧٢٥م شن العرب أكثر الغارات طموحًا حتى ذلك الحين. وبدءوا بالحصن الرومانى القوطى فى Carcassone ، واستولوا عليه بالقوة. ثم تحركوا شرقًا عبر Midi . وقد استسلمت نيميس Nimes سلمًا ، وقدمت الرهائن الذين تم إرسالهم إلى برشلونة . ثم قاد الوالى عنبسة بن سليم الكلبى رجاله فى غارة خاطفة صاعداً وادى الرون، ولم يواجه سوى القليل من المقاومة الجدية. ووصل الجيش إلى أعماق إقليم بورجندى، واستولى على أوتون Autun التى نهبوها تمامًا قبل عودتهم إلى الجنوب .

وجاءت ذروة الغزوات العربية لفرنسا مع المعركة المعروفة عمومًا باسم معركة بواتييه (بلاط الشهداء) . ومنذ أواخر القرن الثامن الميلادى/الثانى الهجرى كانت هذه المعركة قد حققت شهرة رمزية ، لأنها علامة على النقطة التى انتهى عندها التقدم

العربى فى أوربا الغربية على يد سيد الحرب الكارولنجى شارل مارتل . وفى غضون سنتين كان بيديه Bede(*)، فى نورثمبريا Northumberia البعيدة قد سمع عنها وأحس أنه قادر على أن يقول بثقة إن «السراكنة المسلمين الذين كانوا قد خربوا بلاد الغال قد لقوا عقابهم جزاء غدرهم» . أما جيبون فقد سمح لنفسه فى واحدة من أكثر شطحاته الخيالية فصاحة أن يتأمل فى ما كان سيحدث لو كانت نتائج المعركة مختلفة(٤٧):

«كان خط الزحف المظفر قد امتد على ما يزيد عن ألف ميل من صخرة جبل طارق حتى ضفاف نهر اللوار؛ وكان تكرار مسافة مماثلة سيصل بالمسلمين (السراكنة) إلى حدود بولندا ومرتفعات اسكتلنده : ونهر الراين لا يستعصى على الملاحة أكثر من نهر النيل أو نهر الفرات وربما كان الأسطول العربى قد أبحر دون أن يشتبك فى معركة بحرية فى مصب نهر التيمس. وربما كان تفسير القرآن يدرس الآن فى مدارس أوكسفورد ، وربما يوضحون لشعب مختون قداسة الوحى الذى نزل على محمد وحقيقته»(**).

ويواصل كلامه ليشرح كيف تم إنقاذ العالم المسيحى من «مثل هذه المصائب» بفضل عبقرية رجل واحد وحظه ، هو شارل مارتل .

وفى سنة ١٩١٥ ضمن إدوارد كريسى Edwaed Greasy معركة بواتييه، فى كتاب مؤثر من كتابات التاريخ الشعبى، باعتبارها واحدة من «خمس عشرة معركة حاسمة فى العالم» حسبما يعتقد. وفى الحقيقة أنها علامة على شىء من الأهمية الفاصلة .

(*) بيديه Bede، ويعرف أحيانا باسم بيديه المبجل ، كان من العلماء الإنجليز فى القرن الثامن ، وكتب تاريخا بعنوان «التاريخ الكنسى». وقد عاش راهبًا فى دير جارو بشمال انجلترا حتى مات سنة ٧٣٥م دون أن يغادر موطنه أبدا. وكان مدرسًا ورئيسًا للمدرسة الديرية فى جارو الذى تعلم فيه هو نفسه. (المترجم)

(**) تعكس هذه السطور الموقف العاطفى، أكثر من القدرة العلمية ، لدى إدوارد جيبون الذى ثبت أن آراءه التاريخية قد تخطاها الزمن ، وفندتها بحوث الباحثين الغربيين. (المترجم)

فحتى ذلك الوقت كان المسلمون يشنون الغارات على فرنسا طولاً وعرضا ، حتى ولو لم يحاولوا القيام بغزوات دائمة . ومثلما كان الناس فى آسيا الوسطى فى الوقت نفسه يظنون، لم يكن الأوربيون يعتقدون أن الغارات العربية يمكن أن تكون فاتحة لغزو أكثر دواما . وبعد هذا الوقت ، كان النشاط العسكرى محدوداً إلى درجة كبيرة فى المنطقة المحيطة بناربونة ، وبدأت الأندلس التحول من دولة جهادية إلى حكومة أكثر استقرارًا .

وبالنسبة للمؤرخين العسكريين الغربيين كانت معركة بواتييه قد اكتسبت أهمية أكثر من ذلك. وقد كان هناك رأى يجادل بأن شارل مارتل كان ناجحًا ، للمرة الأولى ، لأنه استخدم المحاربين الراكبين ذوى التسليح الثقيل ، أى الفرسان، فى هجمة منسقة دمرت العدو. ووفقًا لهذه النظرية ، كان هذا علامة على بداية التحكم فى ميدان المعركة بواسطة الفرسان ثقيلى التسليح المدرعين ، وهو ما صار من خصائص أوربا الغربية فى العصور الوسطى. ومع ظهور الفارس المدرع ظهر الإقطاع باعتباره الشكل المميز للسيطرة الاجتماعية والمالية.

وإنه لأمر يدعو إلى الإحباط تمامًا أن معلوماتنا عما حدث حقًا قصيرة ومرتكبة ، بل إن تاريخ المعركة غير مؤكد ، على الرغم من أن التاريخ التقليدى هو السبت ١٥ أكتوبر سنة ٧٣٢ م فإنه يمكن أن يكون مثل أى تاريخ آخر(٤٨). ويرد أقدم تقرير فى مؤرخة ٧٥٤م المسيحية . ويبدو أن المؤرخ الذى كان يكتب بعد ما لا يزيد على عشرين سنة بعد الأحداث، كان عارفًا وعلى إطلاع جيد بالأحداث ، وربما حصل عليها من المسلمين الذين نجوا من الحملة وعادوا إلى قرطبة. وهو يصف كيف أن الوالى ، عبد الرحمن الغافقى ، قد هزم فى البداية متمرداً مسلما، هو Munnuza فى جبال شرق البرانس . وكان مونوزا قد سعى للحصول على مساندة الدوق إيوديس دوق أقطانيا وذهب عبد الرحمن حينذاك لمطاردته . واشتبك مع الدوق وهزمه على ضفاف نهر الجارون .

وحينئذ صمم عبد الرحمن على أن يمضى قُدمًا فى المطاردة . ونهب بوردو وأحرق كنيسة سان هيلارى الشهيرة فى بواتييه . ثم قرر أن يواصل السير على طول الطريق

الرومانى لينهب كنيسة سان مارتن الكبيرة على نهر اللوار فى تور . وبينما كان على الطريق من بواتييه إلى تور واجهه شارل مارتل «وهو رجل أثبت أنه محارب منذ شبابه وخبير فى الأمور العسكرية، وكان الدوق إيوديس قد طلب مساعدته». وربما يكون الجيشان قد تقابلا عند بلدة صغيرة ما تزال معروفة باسم Moussais la Bataille .

«بعد أن كان كل جانب قد عذب الجانب الآخر على مدى سبعة أيام تقريبًا بالإغارات جهزوا أخيرًا خطوط قتالهم وقاتلوا بقسوة ووحشية ، وبقى الشماليون راسخين مثل حائط متماسكين مثل الجليد فى المناطق الباردة ، وفى غمضة عين، استأصلوا العرب بسيوفهم. أما أهل اوستراسيا Austrasia (أى أتباع شارل مارتل) ، الذين كانوا أكثر عددًا ومسلحين جيدًا ، فإنهم قتلوا الملك عبد الرحمن ، عندما وجدوه ، وضربوه على صدره. ولكن فجأة مع مشهد خيام العرب التى لا تُحصى، وضع الفرنجة سيوفهم بطريقة خسيسة ، وادخروا أنفسهم لكى يقاتلوا اليوم التالى لأن الليل هبط فى أثناء المعركة . ولما نهض الأوربيون من معسكرهم عند الفجر شاهدوا خيام العرب كلها مرتبة حسب مظلاتهم ، تمامًا مثلما كان المعسكر قائمًا من قبل. ولم يعرفوا أنها جميعًا خاوية وظنوا أن بداخلها كتائب من المسلمين (السراكنة) مستعدين للمعركة ، فأرسلوا كشافة للاستطلاع واكتشفوا أن جميع قوات الإسماعيليين قد رحلت . فقد كانوا جميعا قد هربوا فى صمت تحت ستار الليل فى تشكيل مترابط، وعادوا إلى بلادهم . ولكن الأوربيين الذين أقلقهم أن يكون المسلمون يخادعونهم ويحاولون أن يكمنوا لهم فى الممرات الخفية أبطأوا فى رد الفعل وبحثوا بلا طائل فى جميع الأماكن المحيطة . وإذ لم تكن لديهم النية فى مطاردة المسلمين أخذوا الأسلاب والغنائم ، وقسموها فيما بينهم بالعدل، وعادوا إلى بلادهم وقد غمرهم الفرح والسرور».

أما المصدر الفرنجى الرئيسى، وهو صلة تاريخ فردجار Fredegar، فهو مختصر تمامًا. فهو يحكى : «نظم الأمير شارل بشجاعة خط قتاله ضدهم (العرب) . وبمساعدة المسيح قلب خيامهم، وأسرع ليطحنهم بالذبح. ولما قتل الملك أبديراما Abdirama (عبد الرحمن) دمرهم ودفع الجيش الذى حاربه وانتصر»[٤٩].

ولا تحمل المصادر من التفاصيل ما يروى غليلنا، بيد أن هناك أموراً بعينها تظهر فى وضوح. وأولها أن هذه لم تكن معركة فرسان. إذ إن مؤلف مؤرخة ٧٥٤م، بصورته التى رسمها عن الجليد المتجمد ، يوحى بقوة أن الفرنجة حاربوا على الأقدام فى تشكيل نوع من الكتائب. كما أنه يوضح أنهم كانوا منظمين جداً . وفشلهم فى مواصلة النصر والأخطار التى قد تنشأ عن مطاردة العدو فى الظلام فى بلاد غير معروفة . وربما يكون معظم العرب قد نجوا بأنفسهم، ولكن من المؤكد أنهم تخلوا عن خيامهم والكثير من معداتهم العسكرية .

وقد أنهت هزيمة المسلمين عند بواتييه بالفعل الغارات التى كانوا يشنونها على نطاق واسع فى فرنسا. وصار واضحًا أنهم لن يستطيعوا فتح البلاد، أوحتى الاستمرار فى شن الإغارات بأى قدر من النجاح . وكانت بسالة الفرنجة العسكرية ، «مثل الجليد الشمالى» مجرد سبب من الأسباب التى أدت إلى نهاية التوسع . وربما كان المسلمون يعانون من نقص فى القوة البشرية . فقد أمكن القيام بفتوح شمال أفريقيا لأن أعداداً كبيرة من البربر كانت قد انضمت إلى الجيوش الإسلامية ، وهؤلاء البربر أنفسهم كانوا يشكلون فرقة رئيسية فى الجيوش التى قامت بغزو الأندلس . وليست هناك روايات يعتد بها عن أن الفرنجة أو غيرهم من سكان فرنسا انضموا إلى الجيوش الغازية. وربما كانوا غرباء بالقدر الذى لا يسمح بالتعاون السهل، ويحتمل أن وجودهم كان عابراً على الدوام بالقدر الذى لا يؤدى إلى الثقة ، ولكن أيا كان السبب ، فإن نقص التأييد المحلى ترك الجيوش الإسلامية معزولة جداً ومكشوفة تماما .

كذلك كان الوجود الإسلامى فى الأندلس آخذاً فى التغير. وبحلول سنة ٧٣٢م كان كثير من الفاتحين الأصليين قد طعنوا فى السن أو ماتوا، أما البنى الإدارية فكانت قد وضعت لجمع الضرائب ، و«عاش العرب مثل الملوك»، حسبما يقول أحد المصادر العربية على الأقل، أقلية صغيرة فى بلاد غنية، ولم يعودوا بحاجة إلى الغنائم والأسلاب من الغارات للحفاظ على أسلوب حياتهم وربما لم يكونوا راغبين حتى فى الاندفاع اليقظ الذى كانت الإغارة تولده بالضرورة.

ولكن ربما كان السبب الأكثر أهمية من أسباب التغيير هو التمرد الكبير الذى حدث فى شمال أفريقيا سنة ٧٤١م . إذ إن وحشية تجارة الرقيق كانت قد تسببت فى غضب عارم بجميع أنحاء المغرب وكاد البربر أن ينجحوا فى طرد العرب تماما. ولم تتم استعادة السيطرة الإسلامية في المنطقة سوى بإرسال جيش ضخم من بلاد الشام . وكان هذا الصراع الكبير يعنى أنه لا العرب ولا البربر كانوا قادرين على توفير القوة البشرية اللازمة لمد الفتوح ، وتوسيعها فى الحقول والغابات الباردة المعادية فى الشمال .

الهـــوامش

(١) أفضل تقرير حديث عن أحداث الفتح العربي للسند هو :

F. Gabrieli, 'Muhammad ibn Qasim ath-Thaqafi and the Arab conquest of Sind', East and West 15 (1964-5); 281-95; a broader view is provided by A. Wink, Al-Hind: The Making of the ludo-Islamic World, vol. is Early medieval India and the expansion of Islam, 7th-llth centuries (Leiden, 1990).

(٢) Baladhuri, Futuh, pp. 431-41.

(٣) Ali b. Hamid al-Kufi, Chachnumah: An Ancient History of Sind, trans. M. K. Fredunbeg (Lahore, 1995).

(٤) عن هذا الكتاب انظر :

Wink, Al-Hind, pp.194-6.

(٥) Al-Kufi, Chachnamab, p. 115.

(٦) Wink, Al-Hind, p. 51.

(٧) Muqadda-si, Ahsan al-Taqasim, p. 474.

(٨) Ibn Hawqal, Kitab Surat al-Ard, ed.j. H. Kramers (Leiden, 1939), p. 328.

(٩) Wink, Al-Hind, p. 153.

(١٠) Ibid-, p. 182.

(١١) M. J. De Goeje, Mémoire des migrations des Tsiganes a travers l'Asie (Leiden, 1903), pp. 1-2.

(١٢) Baladhuri, Futuh, p. 436.

(١٣) Gabriali, 'Muhammad ibn Qasim', pp. 281-2.

(١٤) Baludhuri, Futuh, pp. 426-7.

وردت القصة نفسها مع إضافات خيالية في :

Chachnamh, pp. 81-4.

(١٥) Sumaniyayn, on which see Baladhuri, Futuh, glossary s.v. smn.

(١٦) Baladhuri, Futuh, pp. 437-8. Al-Kuti, Chachnamah, pp, 91-3, 103-4, also stresses the role of" the Samani.

(١٧) Al-Kufi, Chachnamah, pp. 93-5.

(١٨) For the battle see the account in Wink, Al-Hind, pp. 204-5, based on details in Baladhuri, Futuh, pp. 438-9, and Al-Kufi, Chaehnamah, pp.135-9 .

(١٩) Al-Kufi. Chachnamah, pp. 125-6.

(٢٠) Baladhuri, Futuh, p.438.

(٢١) Al-Kufi', Chachnamah, pp. 153-4.

(٢٢) Al -Kufi. Chachnamah, p. 104.

(٢٣) Al-Kufi, Chachnamah. p. 176.

(٢٤) تخلط الشاشنامة بين الهندوس والبوذيين في عدة مناسبات ، ويرجع هذا جزئيا إلى أن الكلمة الفارسية بُدخانة مشتقة من «بيت بوذا» ولكنها صارت تستخدم لكى تدل على جميع المعابد التى بها أصنام . وربما كان المحتجون من الهندوس أيضا، وهو ما يشى به ارتباطهم الواضح بالبراهمة.

(٢٥) Al-Kufi, Chachnamah, p. 170.

(٢٦) Al-Kufi, Chachnamah, pp. 194-5.

(٢٧) Ai-Kurf, Chachnamah, pp. 178-80.

(٢٨) Baladhuri, Futuh, pp. 439-40.

(٢٩) Gabrieli, Muhammad ibn Qasim',p. 293.

(٣٠) Baldahuri, Futuh, p. 440; Al-Kufi, Chavhnamah, p. 191, has a parallel text in which the figures are 60,000 and 120,000 respectively .

(٣١) De Goeje, Mémoire. For a general survey of the history ot the Gypsies, see A. Fraser, The Gypsies (2nd edn, Oxford, 1992), 'see also A. S. Ba.smee Ansari, 'Djat', and C. E. Bosworth, 'Zutt', m Enyclopaedia of Islam, 2nd edn.

(٣٢) The name Gibraltar is derived from Jabal Tariq or 'Tariq's Mountain'.

(٣٣) Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 205, translated in O. R. Con.stable, Medieval Iberia: Readings in Christian, Muslim and Jewish Sources (PhiJadelphia, PA, 1997), pp.32-4.

(٣٤) E. Levi-Provencal, Histoire de l'Espagne Musulmane, vol. i: La Conquête et l'émirat hispano-umaiyade (710-912) (Paris, 1950), pp. 19-21, prefers the River Barbate.

(٣٥) Anon., The Chronicle of 754, in Conquerors and Chroniclers of Early Medieval Spain, trans. K. B. Wolf (Liverpool, 1990), pp. 28-45, III -58 at p. 131.

(٢٦) The main Arabic account is Ibn Idhari, Bayan, II, pp. 4-9, based largely on the work of Razi.

(٢٧) Ibn Idhari, Bayan, 11, pp. 9-10.

(٢٨) Chronicle of 754, cap. 52, p. 131.

(٢٩) Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 206, in Constable, Medieval Iberia, p.34.

(٤٠) Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 208, in Constable, Medieval Iberia, pp. 34-5.

(٤١) Constable, Medieval Iberia, pp. 37-8.

(٤٢) Ibn Abd al-Hakam,Futuh,pp. 211-1.

(٤٣) Anon-, Conquerors and Chroniclers, pp.164-8.

(٤٤) Levi-Provencal, Histoire, I, p. 55, based on Ibn Hayyan.

(٤٥) Ibid., p. 56, based on Makkari.

٤٦- عن مناقشة حديثة للمعركة والحملات التى شنت عليها ، انظر :

I. Wood, The Merovingian Kingdoms 450-751 (London, 1994), pp. 281-4; P. Fouracre, The Age of Charles Martel (London, 2000), pp, 84-8; E. Manzano, conguistadores, Emires y Califes: /o-" Omeyasy la formacion de al-Andalus (Barcelona, 2006), pp. 81-4, The military aspects of the battle are discussed in B. Bachrach, Early Carolingian Warfare: Prelude to empire (Philadelphia, PA, 2001), esp.pp. 170-77.

(٤٧) Gibbon, Dedine and Fall, III, p. 336.

(٤٨) Bachrach, Early Carulingian Warfare, pp. 170 and 352, n. 45..

(٤٩) For this translation, and a critique of the older but very influential translation by J. M. Wallace-Hadrill, see Fouracre, The Age of Charles Martel, pp. 148-9.

(١٠)

الحـــرب فـى البحـــر

فى صيف سنة ٦٢٦م، كان العالم القديم يمور بالاضطراب الشديد. فقد بدا أن الإمبراطورية البيزنطية تلفظ أنفاسها الأخيرة. وكان الآفار البدو يحاصرون القسطنطينية من الغرب على حين كان الفرس ينظرون إلى المدينة الكبيرة بعيون طامعة من خلقدونية، عير مضيق البسفور . وفى داخل أسوار القسطنطينية كان الإمبراطور هرقل يوجه الدفاع، الذى أنقذ المدينة، وربما كان قد خطط بالفعل للحملات الكبيرة سنة ٦٢٤-٦٢٨م التى أخذته هو وجيوشه بعيدًا وراء الخطوط الفارسية ليضرب فى قلب الإمبراطورية الساسانية . وفى الوقت نفسه ، فى شبه الجزيرة العربية البعيدة ، كان النبى محمد يناضل دفاعًا عن قاعدته فى المدينة ضد قوات مكة، ومن غير المحتمل أنه كان هناك أحد فى العسكريين البيزنطيين أو الفرس قد عرف شيئا عن حركته الجديدة أو كونه نبيًا ورسولاً من الله(*).

وفى الصيف نفسه كانت سفينة تجارية صغيرة تشق طريقها على الساحل الغربى لآسيا الصغرى. وبينما كانت تعبر خلال القناة الضيقة التى تضربها العواصف فى أغلب الأحيان والتى تفصل فى أيامنا هذه جزيرتى كوس Kos وكاليمنوس Kalymnos اليونانيتين عن الأراضى التركية الرئيسية، اصطدمت بحيد تحت الماء عند النتوء الصغير

(*) النص الأصلى كما كتبه المؤلف "or his claims to be the Prophet of God" لايقبله القارئ المسلم، ولهذا وضعت صياغته بهذا الشكل. (المترجم)

المعـروف باسم ياسى آدى (الجـزيرة المسطحـة)[١] وسـواء لأن طاقمـهـا لـم يكن يعلم بوجود الحيد البحرى (سلسلة الصخور تحت المـاء)، أو لأن السفينة الصغيرة كانت تحاول الاحتماء من الريح العاتية (Meltmi) ، فقد غاصت السفينة فى ثلاثين متراً من المـاء . ولابد أنها غاصت بسرعة لأن الوقت لم يسعفهم لنقل العملات الذهبية والنحاسية التى كانوا قد وضعوها فى خزانة لضمان حفظها أو لإخراج أدوات المطبخ من السفينة . وإذا لم يكونوا سباحين مـهـرة يمكنهم قطـع مسافة خمسين متراً إلى الشاطئ ، فربما هلكوا مع سفينهم .

والسفينة الغارقة «ياسى آدى» ذات أهمية بالغة فى فهمنا للملاحة فى البحر المتوسط عند نهاية العصور القديمة. ومنذ سنة ١٩٦١م إلى سنة ١٩٦٤م كانت موضوعاً لكشوف كبيرة تحت المـاء كشفت عن كمية ضخمة من المعلومات عن السفينـة وحمولتها . ولم تكن سفينة كبيرة؛ فقد كانت أقل من ٢١ متراً فى الطول وحمولتها حوالى ٦٠ طناً. وكانت سفينة بضائع ، وكانت محملة بحوالى تسعمائة أمفورا (قارورة، رفيعة العنق للزيت أو الخمر استخدمها الإغريق والرومان) ربما كانت مليئة بالخمـر. وكان قصد البحارة أن يسافروا بقدر من الراحة ، لأنه كان هناك مطبخ متقن تجاه مؤخرة السفينة، مجهز تماماً بأوانى الطهى وأدوات المائدة الفاخرة.

وطرأت فكرة بأن السفينة المنحوسة كانت ملكاً لإحدى الكنائس وكانت تستخدم فى نقل المؤن إلى الجيش البيزنطى، ولكن الحقيقة أننا لا نعرف من الذى كان يبحر على متنهـا ولمـاذا . ويرجع تاريخ السفينة إلى السنوات التى تسبق مباشرة بداية الفتوح الإسلامية، وتخبرنا بالكثير عن التجارة الساحلية فى شرق المتوسط فى السنوات الأخيرة من العصور القديمة . وكانت المياه التى أبحرت بها عاصفة وخطيرة، ولكنها كانت خالية إلى حد كبير من القرصنة والهجمات المعادية، كما كان حالها على مدى القرون الطويلة عندما كانت مياه البحر المتوسط «بحرنا Mare Nostrum» بالنسبة للبيزنطيين. وفى غضون عقدين من الزمان كان مقدراً لهذا كله أن يتغير وتصير مياه شرق المتوسط المسالمة مسرحاً لمواجهة بحرية وحشية ومدمرة[٢].

كانت هناك تقاليد وتراث لصناعة البحر عند العرب. ففى عصور ما قبل الإسلام ، كان العرب يركبون البحر بالفعل كما أن القرآن الكريم يقول ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾(*). هذه الإشارات وغيرها توضح أن بعض العرب على الأقـل كانوا معتادين على القيام برحلات بحرية للتجارة(٣). كذلك كان هناك تراث من عدم الثقة فى البحر بين المسلمين الأوائل . وقيل إن الخليفة عمر بن الخطاب على وجه الخصوص كانت تراوده شكوك عميقة حول البحر، باعتباره خطرًا على المسلمين . بيد أن هذا الحذر لم يعمّر طويلاً . ويتمثل أحد أكثر الجوانب إثارة للدهشة فى الفتوح الإسلامية الباكرة فى السرعة التى استطاعت بها الأساطيل الإسلامية ، أو بدقة أكثر الأساطيل التى تحت قيادة المسلمين، أن تتحدى القوة البحرية الراسخة للإمبراطورية البيزنطية . وجزئيًا كان ذلك مفروضًا عليهم بفعل الحاجة إلى الدفاع عن سواحل الشام ومصر ضد الإغارات التى كان يشنها الأسطول البيزنطى، الذى حافظ على قدراته لشن هجمات بحرية على المدن الساحلية طوال القرون الإسلامية الثلاثة الأولى. ولو أنهم تركوا البيزنطيين يتحكمون فى البحر دونما تحدٍ ، لما كان بوسع أحد على امتداد سواحل الشام أو فلسطين أو مصر أن يشعر بالأمان.

وسرعان ما بدأ المسلمون يرون إمكانية استخدام السفن فى الأغراض الهجومية كذلك. وكانت جزيرة قبرص ، التى تقع على بعد مائة كيلو متر فقط من ساحل الشام، هدفًا واضحًا(٤). وفى سنة ٦٤٩م أرسل والى الشام معاوية بن أبى سفيان ، الذى صار أول خليفة أموى فيما بعد ، حملة بحرية ضد الجزيرة . ومن المثير أن تاريخ الغزو يؤكده نقش يونانى يخلد ذكرى إعادة بناء بازيليكا فى سولى Soli ، كان قد تم تدميره فى الغارة ، على يد الأسقف يوحنا سنة ٦٥٥م(٥). وتكاد هذه أن تكون إشارة معاصرة فريدة إلى تدمير وإعادة بناء فى زمن الفتوح الإسلامية الباكرة.

(*) سورة الإسراء: آية ٦٦ . ومن الملاحظ أن هناك ارتباكا فى النص الإنجليزى الذى يشير إلى الآية رقم ٤٦ فى سورة الروم ولاعلاقة لها بالموضوع ، ثم يشير إلى الآية التى أثبتناها فى النص. (المترجم)

ووفقا للتراث الذى حفظته المصادر الإسلامية[٦]، كان عمر بن الخطاب قد رفض السماح لمعاوية أن يغامر فى البحر، ولكن خليفته، عثمان بن عفان، أعطى الإذن بشرط غريب هو أنه يجب على معاوية أن يأخذ زوجته معه، ويفترض أن ذلك كان لتشجيعه على عدم القيام بأية مخاطرة غير ضرورية . وذهب هو ، ومعه عدد من أعيان المسلمين ومعهم زوجاتهم بناء على ذلك. وبعد هذه الغارة الناجحة الأولى، اضطر أهل قبرص إلى دفع جزية سنوية إلى المسلمين . وكانوا بالفعل يدفعون جزية إلى البيزنطيين من قبل ، وهكذا خضعت الجزيرة لنوع من الحكم المشترك ، وكان كل من الجانبين يتلقى بعض المال ولكن أيا منهما لم يحتفظ بحامية عسكرية دائمة وفى سنة ٦٥٤م شن معاوية حملة ثانية لأن القبارصة، حسبما زعم المسلمون، كانوا قد قدموا سفنًا لمساعدة البيزنطيين ضدهم ، وبذلك خرقوا شروط المعاهدة. وقيل إن الأسطول الإسلامى كان يتألف من خمسمائة سفينة وكان يحمل قوة مؤلفة من اثنى عشر ألف رجل من الجنود النظاميين (أى من الرجال المسجلة أسماؤهم فى الديوان) . ويحكى أن معاوية فى ذلك الوقت قد بنى مسجداً وبنى مدينة جديدة على الجزيرة وطّن فيها رجالاً من بعلبك حامية وأعطاهم الرواتب . وقد استمر هذا الموقع الإسلامى المتقدم حتى سحب يزيد بن معاوية الرجال وهدم المدينة، ويفترض أن السبب فى ذلك أنه لم يكن يعتبر أنها تستحق نفقات الحامية العسكرية .

وفى أواخر القرن السابع، وطوال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين (١-٣هـ) ، كانت قبرص تتمتع بوضع فريد بين العالم الإسلامى والعالم المسيحى. ولم يكن الأمر سهلاً على الدوام فلم يكن القضاة المسلمون سعداء بمعاهدة يبدو أنها لا تتسق مع الشريعة الإسلامية فى كثير من الجوانب. ومن وجهة النظر العسكرية ، أيضا ، كان هناك دائمًا شك فى أن القبارصة يساعدون البيزنطيين . وقام الخليفة الأموى الوليد الثانى بترحيل كثير من القبارصة إلى الشام لأنه شك فى أنهم يساعدون البيزنطيين، ولكن سُمح لهم بالعودة فى عهد خليفته يزيد الثالث. واستمرت المشكلات تحت الحكم العباسى، وفى سنة ٨٠٦م أثناء حكم هارون الرشيد، قيل إن أهل الجزيرة قد تسببوا فى الاضطرابات وتم إرسال حملة لإخضاعهم ؛ وقيل إنه تم ترحيل ستة عشر ألف

رجل إلى الرقة، قاعدة هارون الرشيد فى شمال بلاد الشام، حيث تم دفع الفدية لبعضهم وبيع البعض الآخر فى أسواق النخاسة - وقد جلب أسقف قبرصى ألف دينار(٧).
وعلى الرغم من هذه الانتكاسات بقيت الثقافة المسيحية اليونانية حية فى قبرص عندما كانت قد اختفت بالفعل من أراضى الداخل القريبة . ففى مجمع نيقية الكنسى الثانى (فى الإمبراطورية البيزنطية) والذى عقد سنة ٧٨٧م ، لم يستطع أساقفة الكنائس فى البلاد الخاضعة لحكم المسلمين الحضور ، ولكن حضر ما لا يقل عن خمسة أساقفة من قبرص ، مما يكشف عن أن العلاقات مع العالم البيزنطى كانت لا تزال قوية.

وقد أعقب الغارة الأولى على قبرص هجمات أخرى على جزر البحر المتوسط رودس وكوس تعرضتا للنهب، ربما سنة ٦٥٤م(٨). وحتى هذا الوقت لم يكن المسلمون قد اشتبكوا مع الأسطول البيزنطى مباشرة ، فقد كان لا يزال سيد البحر فى شرق المتوسط. وكان أول اشتباك بحرى حقيقى بين المسلمين والبيزنطيين معركة ذات الصوارى، أو معركة فينيقيا قبالة ساحل ليكيا فى سنة ٦٥٥م(٩). وتعنى الأوصاف التى وردت فى كتاب ابن عبد الحكم، والمؤرخ البيزنطى ثيوفانس، وتاريخ ابن الأثير اللاحق زمنيًا(١٠)، أن لدينا المزيد من المعلومات عن هذه المواجهة أكثر مما لدينا عن أية معركة أخرى فى تلك الفترة . ووفقا لما جاء فى المصادر العربية بدأت الحملة عندما جمع الإمبراطور قنسطانز الثانى (٦٤١-٦٦٨م) بجمع حملة بحرية لمواجهة الفتح الإسلامى لشمال أفريقيا. وانطلق بأسطوّل من خمسمائة أو ستمائة سفينة ورجال أكثر مما جمعهم الروم من قبل منذ مجئ الإسلام ، وأرسل معاوية سعد بن أبى السرح الذى كان مسئولاً عن البحر أيضًا «على البحر» لقطع الطريق عليهم . وتقابل الأسطولان قبالة الشاطئ عند ليكيا. وكانت الريح ضد المسلمين عندما رأوا البيزنطيين للمرة الأولى، ولكنها سكنت ورمى الأسطولان مراسيهما . ووافق الجانبان على هدنة أثناء الليل ؛ وبات المسلمون فى قراءة القرآن الكريم والصلاة على حين كان البيزنطيون يدقون نواقيسهم. وفى الصباح التالى اقترب الأسطولان من بعضهما واشتبك المسلمون بالخطاطيف مع البيزنطيين . وكان القتال بالسيوف والخناجر وقتل كثير من الرجال على الجانبين . وفى النهاية نصر الله المسلمين، وجُرح الإمبراطور وهرب من المكان

ونجا عدد قليل فقط من الروم بحياتهم . وبقى ابن أبى سرح فى الموقع عدة أيام قليلة ثم عاد إلى بلاد الشام.

وأطول رواية لدينا عن المعركة هى تلك التى قدمها لنا ابن عبد الحكم ، الذى استخدم مصادر من مصر، يفترض أنها جُمعت هناك لأن كثيرين من الرجال فى الأسطول العربى كانوا من مصر وعادوا إليها . والرواية إلى حد كبير تمت صياغتها من روايات عديدة ، على أية حال ، ومن المخيب للآمال أن هناك مساحة كبيرة فى الرواية قد خصصت للحديث عن من تزوج ابنة من بعد الحادثة وأمور أخرى قليلة الفائدة بالنسبة للمؤرخ المهتم بالشئون البحرية. ووفقا لما يمكن استخلاصه من الرواية، كانت المعركة جزءًا من عملية مشتركة وكان نصف طواقم السفن (الشحنة) على البر فى وقت المعركة. وكانت لدى البيزنطيين ألف سفينة مقارنة بمائتى سفينة لدى المسلمين وعقد القائد عبدالله بن سعد بن أبى السرح مجلس حرب قال فيه رجل من أهل المدينة كان متطوعًا : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(*) وإذ ارتفعت معنويات المسلمين على هذا النحو اقترب الأسطولان من أحدهما الآخر وبدأ القتال «بالنبل والنُشاب» . وأرسل الإمبراطور[١١] رسائل ليعرف كيف كان يجرى القتال. وعندما سمع أنهم يقاتلون بالنبل والنُشاب قال إن البيزنطيين سوف ينتصرون ؛ وعندما سمع بعد ذلك أنهم يقذفون الأحجار، قال مرة أخرى إن البيزنطيين سيكسبون، ولكنه عندما سمع بأن السفن قد رُبطت معًا وأن الرجال يقاتلون بالسيوف تنبأ بأن العرب سيكونون هم الظافرين.

أما رواية ثيوفانس اليونانية فتقدم خلفية تختلف إلى حد ما . ووفقا له ، كان معاوية يُجهز أسطولاً للهجوم على القسطنطينية . وبينما كان يتم تجهيز الأسطول فى طرابلس (لبنان) «قام اثنان من محبى المسيح هما ولدا بوكيناتور Bucinator (نافخ البوق) باقتحام سجن طرابلس وأطلقا سراح عدد كبير من الأسرى البيزنطيين

(*) سورة البقرة : آية ٢٤٩ .

منه. ثم نهبوا المدينة وقتلوا الوالى قبل أن يهربوا إلى الأراضى البيزنطية . وعلى أية حال، لم يكن معاوية ليرتدع ، وانطلق الأسطول فى موعده تحت قيادة Phoenix فى ليكيا وكانت استعداداته هزيلة بشكل كارثى. وسرعان ما امتلأ البحر بدماء البيزنطيين ورمى الإمبراطور ثوبه الإمبراطورى حتى لا يعرف أحد بهروبه . ولم ينقذه سوى واحد من ولدى بوكيناتور الذى أنقذه من الماء وقُتل بدلاً منه .

وتتفق جميع الروايات على أن المعركة (ذات الصوارى) كانت نصرا كبيراً للمسلمين وكانت علامة على نهاية التفوق البحرى البيزنطى الساحق فى شرق المتوسط. ومن سوء الحظ أننا لا نملك صورة أكثر وضوحًا عما حدث . وأحدث مؤرخ كتب عن المعركة له رأى يحط من قدر كل من الجانبين :

«لقد تم تجاهل أكثر القواعد بدائية فى فن القتال البحرى على كلا الجانبين ، وكان السبب فى ذلك يرجع جزئيًا إلى أن البيزنطيين استهانوا بعدوهم . وقد واجه الأسطولان كل منهما الآخر طوال الليل قبل أن يشتبكا دونما خطة . ولم يكن هناك أى قذائف قذفت فيما بينهما سواء بالسهام أو بالحجارة التى تطلق من آلات خاصة . ولم تستخدم أى سفينة من الجانبين مقدمتها . ولأن ركوب البحر كان يتطلب مهارة عالية وجد العرب حلاً أكثر سهولة ؛ فقد عمدوا إلى ربط سفنهم بسفن العدو وبذلك حولوا القتال البحرى إلى قتال برى ... ولم يحسب أى من الطرفين حساب الريح»[١٢].

والمصادر شحيحة حقًا بالقدر الذى يحول دون معرفتنا ما إذا كان هناك ما يبرر هذا اللوم العنيف . وعلى أية حال ، فإنه يبدو واضحًا أن الأسطول الرسلامى بقى إلى حد كبير أقل من القوات البيزنطية. وقد تجلى هذا واضحًا بشكل خاص فى أثناء الهجوم على القسطنطينية ، الذى بدأ فى سنة ٦٧٤م[١٣]. وقد فهم المسلمون منذ البداية أنه من المستحيل أخذ المدينة بدون السيطرة على مياه البحار من حولها أولاً . وقد دخل أسطول عربى كبير، تحت إمرة ابن الخليفة معاوية بن أبى سفيان، وخليفته فيما بعد ، يزيد ، إلى بحر مرمرة . وعلى مدى أربع سنوات حاصر المدينة طوال الصيف، ثم يتراجع فى الصيف إلى كوزيكوس Cyzicus على الجانب الجنوبى من بحر مرمرة .

وقد ساعد البيزنطيين استخدام «النار الإغريقية» الشهيرة ، ومن الواضح أنها كانت المرة الأولى لاستخدامها، وكان قد اخترعها رجل من بعلبك فى بلاد الشام فرّ لاجئًا إلى بيزنطة من الأراضى التى فتحها العرب . وكانت النار الإغريقية مزيجًا من الزيت الخام ومواد أخرى تجعله يلتصق بالخشب . وكان يُشعل ويُدفع من إناء (سيفون) على سفن العدو. وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا أن البيزنطيين أخذوا التركيبة من البعلبكى ، فمن المؤكد أن ثمة احتمالاً بأن هذه التكنولوجيا جاءت من الشرق الأوسط فى الأصل. وهناك فى الحقيقة بعض الأدلة (انظر القصيدة التالية) على أن النار الإغريقية كانت بحوزة المسلمين أثناء حصار المدينة لأول مرة .

وتغنت بالنصر قصيدة كتبها باليونانية رجل اسمه Theodosius Gramaticus ثيودسيوس جراماتيكوس ، ومعظمها حمد ومديح تقليدى للرب الذى منح المسيحيين هذا النصر . ولكن هناك بضعة أبيات يبدو أنها تلقى الضوء على حقيقة معاصرة .

« لقد أنقذت ، يارب الجميع ، مدينتك من الموجات الساحقة من العرب أشر الناس وأقذرهم ، لقد سرقت منهم الخوف والرعشة وظلالهم المرتدة....

أيها الملعونون، أين الآن صفوفكم البراقة اللامعة من النشاب؟

أين الآن صوت الأنغام المنبعثة من أوتار نبالكم ؟ أين بريق سيوفكم وحرابكم ولمعان صفائح صدوركم والخوذات فوق رؤوسكم ، وبريق سيوفكم المعقوفة وتروسكم الداكنة ؟

أين السفن ثنائية السطح قاذفة اللهب ، وسفن السطح الوحيدة السريعة أيضًا فى القتال؟ ماذا تقولون يا بنى اسماعيل ، أيها الشرهون البائسون ؟ لقد كان المسيح قويًا فى عمل الخلاص يحكم بوصفه الرب والسيد . منح القوة وأعطى السند فى المعركة . شتت نبالكم ونشابكم وسحق القوة البشرية... ولهذا، مجد الرب وامتدحه أيها المحيط وقد كشفت عن القتلة وقد تمزقوا شرَّ ممزق ! وأنت أيتها الأرض اصدحى بكورس من الترانيم لمن يليق به الشرف والمجد والقوة بلا توقف دهورًا ودهورًا وعلى مدى السنوات الطوال(١٤).

وأخيراً لقى الأسطول الإسلامى الهزيمة وتشتت فى سنة ٦٧٨م واضطر الجيش البرى إلى الانسحاب . وفى طريق العودة إلى بلاد الشام، تم تدمير الكثير من سفن الأسطول العربى فى عاصفة هبت قبالة ساحل بامفيليا Pamphylia . وفى المحصلة الأخيرة كان نجاح الأسطول البيزنطى هو الذى أنقذ القسطنطينية.

وحدثت الحملة البحرية الكبرى الثانية ضد القسطنطينية فى السنوات ٧١٦- ٧١٨م. ومرة أخرى يكون المؤرخ اليونانى ثيوفانس شاهدنا الرئيسى لأن المصادر العربية مختصرة جداً. ووفقا لهذا الراهب اليونانى ، بدأت المعركة عندما نشب صراع على موارد الخشب الذى كان حيويا للغاية فى بناء السفن . فقد صار البيزنطيون على وعى بأن العرب فى مصر ذاهبون فى حملة إلى لبنان لإحضار الأخشاب . وقرر الإمبراطور أرتميوس Artemios أن يعترض الحملة وجميع السفن الشراعية السريعة لهذا . وتجمع الأسطول البيزنطى فى رودس تحت قيادة شماس من كنيسة أياصوفيا الكبيرة اسمه يوحنا، وكان أيضا وزير المالية . وكانت الأوامر الصادرة إليهم أن يغيروا على لبنان ويحرقوا الأخشاب . ولم تسر الحملة حسب الخطة . وكما يحدث غالبًا فى الإمبراطورية البيزنطية فى تلك الفترة، حدث تمرد، وتم اغتيال القائد الإمبراطورى وانطلقت القوات صوب العاصمة للإطاحة بأرتميوس ، وتركوا العرب يتفرغون لبناء سفنهم.

وفى سنة ٧١٦م انطلق جيش برى ضخم يقوده مسلمة بن عبد الملك صوب القسطنطينية وفى الوقت نفسه ، تم تجميع أسطول بحرى . ويبدو أن وظيفته الآساسية كانت مساندة الجيش البرى الذى كان مسلمة يهاجم به المدينة وإمداده بالمؤن. وكان شتاء ٧١٦-٧١٧م قد انقضى على الساحل القليقى . وفى الربيع أبحرت السفن غربًا ، ثم شمالاً. وأرسى فى أبيدوس Abydos على ساحل الدردنيل قبل الدخول فى بحر مرمرة. وفى ١٥ أغسطس بدأ مسلمة يفرض الحصار على المدينة وفى أول سبتمبر جاء أسطول ضخم قيل إن عدد سفنه وصل إلى ألف وثمانمائة سفينة ليرمى مرساه أسفل أسوار المدينة؛ وكانت بعض سفنه قرب الضواحى على الشاطئ الآسيوى للبسفور والبعض الآخر على الساحل الأوربى شمال القرن الذهبى . ويقول ثيوفانس إن السفن العربية كانت بلا فائدة لأنها كانت تنوء بحمولاتها الثقيلة . وكان الطقس بديعًا واندفعوا

داخل البسفور . وكانت هذه غلطة كبيرة . وقد أرسل الإمبراطور ليو الثالث ، الذى كان يراقب العمليات ويوجهها من الأكروبوليس (قلعة القسطنطينية) ، سفن النار الإغريقية فيما بين السفن العربية، فحولتها إلى حطام ملتهب : «وكانت بعضها ما تزال تحترق وهى تصطدم بالسور البحرى، على حين غاصت أخريات فى الأعماق . أما الرجال وغيرهم ، وقد استشاطوا غضباً ، فقد ابتعدوا حتى جزيرتى Oxeia أوخيا وبلاتيا Plateia (وهى جزر الأمراء الحديثة فى بحر مرمرة)». وابتهج سكان المدينة ابتهاجًا عظيمًا بهذا، على حين ارتعدت فرائص المهاجمين من الرعب «لأنهم عرفوا مدى قوة النار الإغريقية» ونجت بعض السفن العربية من الحريق الهائل وحاول الإمبراطور أن يستدرجهم داخل مياه القرن الذهبى بأن خفض السلاسل التى تمتد ما بين المدينة وغلطة Galata . وخاف القادة العرب من أنهم لو دخلوا فيه سترفع السلاسل ويقعون فى مصيدة محكمة . وبدلاً من ذلك أبحروا فى البسفور، حيث أمضوا الشتاء فى خليج على الساحل الأوربى حيث تقع قلعة روملى حصار العثمانية العظيمة الآن.

كان الشتاء قاسيًا للغاية. وظل الجليد على الأرض مائة يوم، وعانت قوات المسلمين على الأرض معاناة رهيبة من الجوع والبرد. وفى الربيع التالى وصلت الإمدادات ، أربعمائة سفينة تجارية تحمل الطعام من مصر يقودها سفيان ، تلتها مائتان وستون سفينة من شمال أفريقيا ومعها السلاح والمؤن على السواء. وكان كل من القائدين قد سمع آنذاك عن النار الإغريقية ، وبدلاً من الاقتراب من أسوار المدينة ، جعلوا سفنهم مستترة جيداً بعيداً عن الضرر على الشاطئ الآسيوى لبحر مرمرة .

وكان كثير من البحارة فى الأسطولين من القبط النصارى من مصر وقرر بعضهم على الأقل أن ولاءهم مع رفاقهم المسيحيين فى الإمبراطورية البيزنطية. وفى ليلة من الليالى أخذوا قاربًا خفيفًا من السفن التجارية وذهبوا إلى المدينة ، وأظهروا ولاءهم للإمبراطور. وأخبروا الإمبراطور عن الأسطولين المختبئين على امتداد الشواطئ الجنوبية للبحر وجهز سفنا قاذفة للنار الإغريقية ، وسفنا ذات طابقين . ويكتب المؤرخ المتدين (ثيوفانس) «بفضل مساعدة الرب ومن خلال تدخل أمه العذراء المقدسة، تم إغراق العدو فى مكانه، وتم الاستيلاء على البضائع والمؤن من الأساطيل العربية».

وجاءت النهاية فى ١٥ أغسطس سنة ٧١٨م عندما وصلت رسالة من الخليفة التقى عمر بن العزيز ، الذى كان حذرًا على الدوام من الحملات العسكرية الطموح، وأمر مسلمة بأن يعود. وكان هذا تدخلاً إليها آخر لنجدة البيزنطيين .

«وعندما كانت حملتهم فى طريق العودة إلى ديارهم ، انقضت عليهم عاصفة هوجاء : جاءت من الرب بتدخل من أمه . فقد أغرق الرب بعضهم قرب Prokonessos (جزيرة فى بحر مرمرة اشتهرت فى العصور القديمة بمحاجر الرخام وغرق آخرون عند Apostrophoi وغيرها من النتواءات الصخرية . وأولئك الذين ذهبوا يسارًا كانوا قد وصلوا بحر إيجه حيث انصب عليهم غضب الرب العنيف ؛ فقد نزل عليهم مطر نارى جعل مياه البحر تُزيد وتغلى (ربما كان هذا مرتبطًا بالزلزال الذى حدث فى بلاد الشام فى ذلك الوقت) . وما إن سقط القطران الذى يلحم السفينة ، حتى غاصت السفن إلى القاع ، بمن عليها وما عليها من الرجال والمتاع . ولم ينج سوى عشرة لكى يحكوا لنا وللعرب عن العظمة التى تعامل بها الرب معهم»(١٦).

كان إخفاق القوة البحرية الإسلامية أمام أسوار القسطنطينية وأساطيلها علامة على تغير رئيسى فى توازن القوى بين العرب والبيزنطيين . فقد كانت تلك آخر مرة تصل فيها السفن الإسلامية بحر مرمرة قبل أواخر القرن الحادى عشر . لقد أنقذت القوة البحرية القسطنطينية ومنعت المسلمين من تحقيق نصرهم النهائى .

وكانت المنطقة الأخرى التى شهدت النشاط البحرى فى أثناء الفتوح الإسلامية الباكرة ساحل شمال أفريقيا وصقلية . وكانت أول حملة بحرية إسلامية على صقلية فى سنة ٦٥٢م ، قبل أن يتم فتح شمال أفريقيا فعليًا بوقت طويل . فقد قامت قوة إسلامية من مائتى سفينة بنهب سواحل الجزيرة على مدى شهر، وأخذت غنائم من الكنائس والأديرة قبل عودتها إلى بلاد الشام(١٧).

ومع تأسيس مدينة تونس ، بدأت العرب يطورون قاعدة بحرية فى شمال أفريقيا . وكان تأسيس المدينة قد بدأ على الأرجح على يد حسَّان الوالى حوالى سنة ٧٠٠م فى أعقاب سقوط قرطاجة . والسبب فى اختيار موقع المدينة الجديدة بدلاً من استخدام

ميناء قرطاجة البيزنطى، ليس واضحًا . وربما يكون السبب أن الميناء القديم كان قد امتلأ بالرمال أو صار غير قابل للاستخدام لأى أسباب أخرى، ولكن الأرجح أن جاذبية تونس كانت تتمثل فى أنها لم تكن على البحر المفتوح، بحيث تكون عُرضةً للهجمات البحرية البيزنطية، ولكنها كانت على بحيرة ضحلة (جون) تربطها بالبحر قناة قصيرة فى ذلك الحين. وهو ما سهَّل تحصينها بدرجة كبيرة . وازدهرت المدينة لتصير القاعدة البحرية الرئيسية فى أفريقيا، على الرغم من أن مركز الحكم ظل فى القيروان بالداخل .

وحدث بعد ذلك بوقت قصير أن قام المسلمون بأولى فتوحهم فى جزر البحر المتوسط عندما استولوا على بانتيلليريا فى سنة ٧٠٠م على ما يبدو. وبعد ذلك بسنوات قليلة ، وربما فى سنة ٧٠٣م وصل أسطول مصرى كبير تحت قيادة عطاء بن رافع إلى شمال أفريقيا[١٨]. وكان الخريف قد حلَّ بالفعل ومن المتوقع هبوب العواصف . وحذَّر الوالى موسى بن نصير من القيام بحملة فى تلك السنة ولكن عطاء بن رافع كان يضع نصب عينيه ما يمكن الحصول عليه من الغنائم من الجزيرة ولم يكن على استعداد للانتظار . وقرروا شن غارة على سردينيا . وسارت الأمور سيرًا حسنا حتى رحلة العودة . وعندما كانوا على وشك الوصول إلى ميناء تونس، هبت عاصفة مفاجئة وغرق معظم الأسطول . وعلى الشاطئ القريب جمع عبد العزيز بن موسى بن نصير جثث الغرقى وبقايا حطام سفنهم وحمولاتهم . واحتمت السفن الناجية وطواقمها بتونس حيث قام موسى بن نصير برعايتهم . وربما كانت نتيجة ذلك الإحسان الذى أظهره تجاههم أن شكل هؤلاء الرجال أساس القوة البحرية التى غزا بها موسى بن نصير إسبانيا بعد ذلك بتسع سنوات .

وقد تركت هذه الكارثة البحرية صدى مثيرًا فى أوراق البردى المصرى. فمن بين عدد من الخطابات من الوالى العربى إلى الباجارخ (مالك أرض وموظف محلى) فى أفروديتو بمصر العليا يوجد خطاب يستفسر فيه الوالى عما حدث للبحارة ، وربما كانوا جميعًا من القبط، من أبناء المدينة والذين كانوا قد انضموا إلى الأسطول .

وياستجواب بيروقراطى ثقيل الوطأة تمامًا، يريد أن يعرف كم عدد الذين عادوا منهم إلى ديارهم وكم بقوا فى المغرب[١٩]. وهو أيضا يريد المزيد من التفاصيل عن أولئك الذين لم يعودوا، وعمن مات منهم ، ولماذا بقى بعضهم فى إفريقية . وليس لدينا سوى خطاب الوالى، ولكن الرد عليه ليس بحوزتنا ، ولكن خطاب البردى تكشف عن نقطتين بمنتهى الوضوح : مدى الإشراف الوثيق على الأسطول من جانب الوالى ، وكيف أنه حتى أفروديتو كوم أشقوه، التى تبعد حوالى خمسمائة كيلو متر عن البحر، كانت ملزمة بأن ترسل رجالاً للعمل فى الأسطول .

وبعد تأسيس دار صناعة السفن فى تونس، صار أسطول شمال أفريقيا مستقلاً بصفة جوهرية عن الأساطيل الإسلامية فى شرق المتوسط تحت قيادة الوالى المحلى. وكان فى جوهره عصبة من البحارة المستقلين الذين يعملون فى الواقع مثل القراصنة ، يغيرون على الجزر وعلى الخطوط الساحلية المكشوفة فى المنطقة الوسطى من حوض البحر المتوسط من أجل الحصول على المغانم والرقيق. وكما رأينا، كان بوسع الأسطول فى شمال أفريقيا أن يقدم ثلاثمائة وستين سفينة مسلحة . وفى بعض الأحيان كان البحارة يواجهون مقاومة بحرية ففى سنة ٧٣٢م لحق بهم أسطول بيزنطى قبالة صقلية استخدم النار الإغريقية ليحرق الكثير من السفن العربية[٢٠]. وفى العام التالى واجهت مجموعة أخرى سفنًا بيزنطية وخسرت حمولتها من الأسرى . وفى سنة ٧٤٠م تم القيام بحملة على نطاق واسع . وفى هذه المرة كان الهدف سيراكيوز عاصمة صقلية البيزنطية ، وجلب العرب خيولهم معهم فى الحملة . ويحتمل أن هذه كانت علامة على البداية الحقيقية لفتح صقلية ، لولا أنه حدث فى السنة التالية، أى سنة ٧٤١م، أن نشبت ثورة ضخمة من جانب البربر فى شمال أفريقيا ضد جباة الضرائب العرب وتجار الرقيق . وتم طرد العرب مؤقتا من معظم أنحاء المغرب الإسلامى ، ومن المؤكد أنهم لم يكونوا فى وضع يسمح لهم بالقيام بأية غارات هجومية.

الحفاظ على الأساطيل أمر صعب ، كما أنها مكلفة وتتطلب مصادر مكرسة لها لصيانة السفن والحفاظ عليها، حتى عندما لاتُدر أى أموال . ففى رقعة من الأرض يمكن جمع جيش برى بتكاليف قليلة تماماً . إذ كان الرجال سيخدمون انتظاراً للغنائم وقد يقومون بتوفير معداتهم ودفع ثمن طعامهم . حقًّا أنه كان يتم دفع الرواتب للجنود النظاميين فى القرن الثامن ولكن عندما كان الأمر يتعلق بالجهاد ضد الكفار كان المتطوعون يؤلفون شطراً كبيرا من القوات .

أما الحرب البحرية فكانت تختلف تماماً . إذ كان لا بد من بناء السفن قبل الحملة بوقت كاف . وحتى لو كانت هناك بعض السفن موجودة بالفعل ، فإنها كانت تحتاج إلى التأهيل وإعادة التأثيث. وربما كان الرجال المقاتلون يخدمون متطوعين على أمل الحصول على غنائم ولكن البحارة المهرة والمجذفين كان لا بد من إجبارهم أو الدفع لهم للدخول فى الخدمة. ويعنى هذا أن التنظيم ترك آثاراً ، حتى فى السجلات الإدارية المختلطة جدا التى بحوزتنا من العصور الإسلامية الباكرة.

كان التنظيم البحرى مرتكزاً على دور صناعة السفن. والكلمة الإنجليزية Arsenal، المأخوذة عن الإيطالية ، مشتقة فى الأصل من الكلمة العربية «دار الصناعة» . وهو مصطلح كان مستخدماً بالفعل فى القرن التاسع الميلادى/الثالث الهجرى، إن لم يكن قبل ذلك، لوصف القواعد البحرية التى تستخدمها الأساطيل الإسلامية . وكانت أولى القواعد البحرية فى مصر والشام. ويبدو أن أقدم قاعدة فى بلاد الشام كانت فى عكا، ولكنها نُقلت إلى صور على يد الخليفة هشام بن عبدالملك لأن مالك الأرض المحلى فى عكا رفض بيعها إلى الخليفة : ولا محل هنا للشراء الجبرى . وفى صور بنى فندقًا لإيواء العمال على ما يفترض كما بنى مخزنًا للغلال (مُسْتغَل)[٢١]. وفى ذلك الوقت تقريباً زار سان ويليبالد St. Willibald الأنجلو - سكسونى صور مرتين فى سياق حجه إلى الأرض المقدسة سنة ٧٢٤- ٧٢٦ م، ومن صور استقل سفينة فى طريقه للعودة إلى وطنه . وقد سجَّل بمرح كيف كان قادراً على أن يأخذ البلسم المقدس من خلال

الجمارك العربية بأن أخفاه فى قنينة زيت معدنى. ولاحظ أيضًا أن الميناء فى منطقة آمنة ومن يزورها دون إذن يتم القبض عليه[٢٢]. ولدينا أوصاف عدة عن صور من الجغرافيين العرب فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين/الثالث والرابع الهجريين . وأحد الجغرافيين يصفها بأنها رأس مدن الساحل وتضم دار الصناعة . ومن هناك تبحر سفن الحكومة فى حملات ضد اليونانيين (الروم). وهى جميلة جيدة التحصين[٢٣]. ويكتب آخر أن صور مدينة حصينة على البحر ولا يدخل المرء سوى من بوابة واحدة فقط، فوق جسر، ويحيط بها البحر من كل جانب ، وبقيتها تحيط بها ثلاثة أسوار ترتفع خارجة من البحر مباشرة . وهناك عمال لكل منهم تخصصه[٢٤].

وفى سنة ٨٦١م نقل الخليفة المتوكل القاعدة البحرية إلى عكا مرة أخرى، وفيما بعد، ربما فى سبعينيات القرن التاسع الميلادى، قام الحاكم شبه المستقل أحمد بن طولون والى مصر بتحسين رئيسى فى الميناء والدفاعات . ولدينا وصف عن العمل قدمه الجغرافى العربى المقدسى وهو أكمل رواية لدينا عن بناء الميناء الإسلامى الباكر[٢٥]. فيحكى بقدر كبير من الفخر عن إسهام جده فى العمل فيقول إن عكا مدينة حصينة على الساحل ، وتمت تقوية دفاعاتها كثيرا بعد أن زارها ابن طولون . وكان قد شاهد من قبل تحصينات صور حيث كان الميناء محميًا بسور محيط وأراد تحصين عكا بالطريقة نفسها. وتم إحضار الصنّاع من جميع نواحى البلاد ولكن عندما وصفوا الخطة لهم ردوا جميعًا بأن أحداً لا يمكنه أن يضع الأساسات تحت الماء . ثم ذكر أحدهم جد الجغرافى المقدسى أبا بكر البنّاء وقال إنه إذا كان يمكن عمل شىء كهذا ، فإنه الرجل الوحيد الذى يمكنه القيام بذلك . وهكذا أمر ابن طولون والى القدس أن يرسل إليه أبا بكر . وعندما وصل سألوه رأيه فأجاب بأنه ليست هناك مشكلة وطلب إحضار ألواح طويلة قوية من خشب الجميز . وعومها فوق سطح الماء على هيئة بناء قلعة على البر وربطها سويًا . وترك بوابة كبيرة على الجانب الغربى (ناحية البحر) ثم شد بناء بالحجارة والملاط عليها وقوّاها بأن أدخل عواميد عظيمة على مسافة خمسة أذرع بين كل منها والآخر. وبدأت ألواح الخشب تغوص تحت الثقل. وبمجرد أن استقرت على القاع الرملى للميناء ، أوقف العمل لمدة سنة حتى يثبت البناء . وأخيراً أوصل هذه

الدفاعات بأسوار المدينة القديمة وبنى جسرا عبر المدخل إلى الميناء . وحينما تكون هناك سفن فى الميناء ، كانت تمد سلسلة عبر المدخل مثلما كان الحال فى صور. وقبل أن يتم عمل هذا، كان العدو (البيزنطيون) معتاداً على الإضرار بالسفن المتجمعة هناك. وقيل إن جد الجغرافى المقدسى قد أخذ ألف دينار ذهبا علاوة على خِلعة تشريف، وخيول وهدايا أخرى مكافأة له ونُقش اسمه على العمل .

ولم يتبق شىء من العمل فوق الماء الآن ولكننا يمكن أن نتخيله بوضوح تام. إذ إن بقايا الأعمدة الكلاسيكية ، التى وضعت بشكل أفقى فى البناء لتقويته ، كانت نمط الهندسة الصليبية على ساحل شرق المتوسط ومن المثير أن نرى ذلك مستخدماً فى ذلك التاريخ الباكر.

وفى سنة ٧٨٠م تقريباً تم تأسيس قاعدة بحرية أخرى فى طرسوس بقليقية . وكانت طرسوس مدينة بيزنطية مهمة وهى موطن بولس . ويبدو أنها قد دمرت وهجرها سكانها فى أعقاب الفتح الإسلامى مباشرة لوقوعها فى المنطقة غير الخاضعة لأحد فيما بين الأراضى الإسلامية وأرض بيزنطة . وأمر الخليفة هارون الرشيد بتحصينها وصارت مركزاً للمتطوعين القادمين من شتى أرجاء العالم الإسلامى للجهاد ضد البيزنطيين. وربما كانت السفن ترسو فى مصب النهر الذى يربط طرسوس بالبحر ، ولم يرد ذكر لأى ميناء . وفى سنة ٩٠٠م أمر الخليفة(*) بإحراق السفن كلها ، ومن الواضح أن سبب ذلك خبر جاءه يشكك فى ولاء السكان . «... وكان فى المراكب نحو من خمسين مركبًا قديماً قد أنفق عليها أموال جليلة لا يُعمل مثلها فى هذا الوقت فأحرقت فأضر ذلك بالمسلمين، وكسر ذلك فى عضدهم، وأمنوا أن يُغزوا فى البحر»(*)(٢٦). وعلى الرغم من هذا التقييم المتشائم ، فإن طرسوس سرعان ما استعادت دورها لأنه حدث سنة ٩٠٤م أن أغارت السفن الإسلامية على امتداد ساحل الأناضول المطل على البحرالمتوسط حتى أنطاليا . وقد تم الاستيلاء على المدينة بالقوة ، وتم أسر حوالى خمسة آلاف أسير وأطلق سراح أربعة آلاف أسير حرب مسلم كانوا هناك. واستولى

(*) الطبرى، ج١٠ ، ص٨٠ ، والخليفة المعتضد بالله العباسى سنة ٢٨٧هـ. (المترجم)

المسلمون على ستين سفينة بيزنطية وحملت بالغنائم، بما فيها الذهب، والفضة والبضائع والعبيد . وتلقى كل مسلم شارك فى هذه الغارة حوالى ألف دينار . وابتهج المسلمون بالأخبار[٢٧]. وفى وقت كانت فعالية الجيش البيزنطى تتزايد ضد إغارات المسلمين البرية ، كان هذا النوع من الغنائم قد جعل الحرب البحرية تبدو جذابة جداً .

وتم تأسيس القواعد البحرية فى مصر بسرعة شديدة عقب الفتح الإسلامى، كما رأينا بالفعل ، وكان البحارة الأقباط يعملون فى بحر مرمرة وفى شمال أفريقيا عند بداية القرن الثامن الميلادى/الثانى الهجرى . وكما كان الحال على الساحل الشامى ، تم تطوير القواعد البحرية فى الموانئ التى كان يستخدمها البيزنطيون . وبطبيعة الحال كانت الإسكندرية أشهر هذه القواعد . ومن المؤكد أن هذه بقيت ميناء فى السنوات التى تلت الفتح الإسلامى. وقد وصل الحاج المسيحى أركولف Arcolf هناك بعد رحلة استمرت أربعين يوماً من يافا بفلسطين. ووجد الإسكندرية مدينة كبيرة لدرجة أن عبورها سيراً استغرق يوماً كاملاً ، تحيط بها الأسوار والأبراج . وهو يصف الفنار القديم «الفاروس» وكان لا يزال يعمل[٢٨]. ومن سوء الحظ أن المصادر العربية لاتكاد تخبرنا بشىء عن المدينة ومينائها . ونحن نعرف أن حامية عسكرية عربية كانت تقيم هناك بيد أنه لا يوجد ذكر للقوات البحرية[٢٩]. والقاعدة المهمة الأخرى على ساحل المتوسط كانت الفرما . ولكن مرة أخرى لاتذكر المصادر عنها سوى القليل. وكانت هناك أيضا قواعد فى رشيد ودمياط. وثمة خطاب مكتوب على البردى يرجع تاريخه إلى سنة ٧١٠م يحتوى على أوامر بإرسال إمدادات إلى دمياط «من أجل الأسطول الغازى» ، بيد أن أكمل معلوماتنا عن المدينة تأتى من رواية عن غارة بيزنطية فى أوائل صيف سنة ٨٥٣م. كان وقت عيد الفطر وكان والى مصر قد أمر فى غفلة بذهاب الحامية العسكرية إلى العاصمة الفسطاط للمشاركة فى الاحتفال بالعيد . وفى أثناء غيابهم قام أسطول بيزنطى مكون من مائة سفينة (شلندية) ، تحمل كل منها ما بين خمسين ومائة رجل ، بالهجوم وأحرقوا المسجد الجامع والكنائس، وأخذوا الأثاث ، والقند والكتان الذى كان من المنتظر نقله إلى العراق . ووجدوا أيضا معدات عسكرية وبحرية ، حوالى ألف حربة فى طريقها إلى القوات العربية المقاتلة فى كريت ، وأحرقوا المخازن التى تحتوى على

أشرعة السفن. وتم سبى حوالى ستمائة امرأة من المسلمات والقبطيات كما تم إغراق عدد أكبر من النساء والأطفال عندما حاولوا الهروب عبر البحيرة الضحلة . ثم تحرك المغيرون تجاه جزيرة تنيس ولكنهم وجدوا البحيرة ضحلة جدا بحيث لايمكن لسفنهم أن تعبرها بحمولاتها الثقيلة . فقنعوا بالهجوم على بلدة أوشتوم الصغيرة ونهبها ، وكان قد تم تحصينها منذ وقت قريب بسور وبوابات حديدية بناء على أوامر الخليفة . وهناك وجدوا دار صناعة آلات الحصار من المنجنيقات والعرادات أحرقوها . ثم عادوا أدراجهم إلى بلادهم دون أن تعترضها قوة إسلامية فى البحر أو على الأرض. ونحن نسمع عن بلدات محصنة وعن معدات عسكرية وبحرية ولكن لا يبدو أنه كانت هناك أية سفن إسلامية فى المنطقة لتدافع عنها.

كانت جزيرة الروضة فى النيل قرب الفسطاط مركزًا رئيسيًا من مراكز صناعة السفن وفى المصادر العربية الباكرة تسمى الجزيرة ببساطة «جزيرة الصناعة» . ويبدو أن هذه قد شيدت بعد غارة بيزنطية على بلدة البرلس الساحلية سنة ٦٧٣م، بسبب موقعها فى النهر تمامًا بعيدًا عن الساحل وهو الأمر الذى يسمح ببناء السفن وإصلاحها بأمان بعيداً عن أى مغير . وثمة وثيقة بردية تاريخها يرجع إلى سنة ٧٠٩م تبين الوالى وهو يطلب إرسال النجارين وغيرهم من الحرفيين إلى المشرف على دار الصناعة فى الفسطاط للمساعدة فى بناء السفن[٣٠].

وهناك مؤشرات أخرى على ما جرى فى دار صناعة السفن الإسلامية الباكرة يمكن أن نجده فى شكل خطاب تعيين من الخليفة (لم يرد إسمه) إلى الوالى (الذى لم يرد إسمه أيضا) على منطقة حدودية، مسجل فى مصدر يرجع إلى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى[٣١] ومثل معظم الوثائق المشابهة ، يمكن استنتاج الكثير منها بالسياق العام والاستنباط السليم. فهى تبدأ بسلسلة كاملة من الأوامر الدينية بوجوب طاعة ولى الأمر وطاعة الله ، وتفضيل الأخيار من الناس على الأشرار ، وهكذا ، ولكنها تعطى بالفعل أوامر مباشرة تتصل بالموانئ والسفن. إذ تحث الوثيقة الوالى على إرسال المال لصيانة السفن ومعداتها وإبقائها فى حالة جيدة وأن يخرج السفن من المياه فى الشتاء . وعليه أن يرسل الجواسيس ويبقى على علم بالأخبار . ولا يجب عليه

أن يسمح لأى من النفّاطين (خبراء قاذفات اللهب)، والبحارة والقذافين ، أو غيرهم من الحرفيين العاملين على السفن بالعمل ما لم يكونوا مؤهلين بطريقة صحيحة وقادرين على العمل بطريقة حسنة. ويجب أن يستخدم أفضل القوات فقط. وعليه أن يتفقد ساحة بناء السفن ويتأكد من أن هناك من المؤن ما يكفى من الحديد والأخشاب ، والكتان ، والزفت وغيرها من الأشياء حتى يتم بناء السفن على نحو صحيح ويتم تجهيزها جيداً وتزويدها بالمجاذيف والقلوع. ويجب اختيار البحارة المجربين الذين يمكن الاعتماد عليهم. وينبغى مراقبة التجار لئلا يكونوا جواسيس . وعليه أيضا أن ينتبه إلى الموانئ ليضمن ألا تدخلها سفينة أو تخرج منها دون معرفته . وكل شىء فى حوض بناء السفن لابد أن يكون نظيفا وتتم صيانته ليكون جاهزا للعمل . ويجب أن يتأكد من أن هناك ما يكفى من إمدادات النفط، والبلسم والحبال، فى حال جيدة.

وليس هناك شىء فى هذا يمكن أن يختلف حوله بحار. ولا شك فى أن دور صناعة السفن، مثل المؤسسات العسكرية فى كل مكان، غالبًا ما لا تصل إلى أعلى المستوَيات، ولكن من الواضح أن الإدارة كانت لديها فكرة جيدة عما هو مطلوب وكانت مستعدة ، على الأقل من حيث المبدأ ، لإنفاق المال عليه .

السفن الحربية[٣٢]

كان كل من العرب والبيزنطيين يعولون على تراث مشترك فى تصميم السفن. فقد كانت السفن ثلاثية المجاديف وخماسية المجاديف التى عرفتها الفترة الهيللينستية والفترة الرومانية قد اختفت منذ وقت طويل من مياه البحر المتوسط وحلت محلها سفن أصغر حجمًا وأخف وزنًا. ولم يتم التعرف على حطام سفن غارقة من تلك الفترة ولذلك فإننا نعتمد على إشارات متناثرة من المصادر المكتوبة وعدد صغير من الرسوم غير الكافية والمخططات لإعادة بناء ما كان عليه شكل السفن الحربية فى تلك الفترة . ويبقى قدر كبير من عدم اليقين . وتعنى طبيعة مادة المصادر، سواء المكتوبة أو المرئية ، أننا نعرف عن السفن البيزنطية فى العصور الوسطى الباكرة أكثر قليلاً مما نعرفه عن

السفن العربية، ولكن هناك أدلة قليلة على أن السفن الحربية التى استخدمها كل جانب اختلفت كثيراً عن سفن الجانب الآخر .

كانت سفينة الحرب البيزنطية النمطية فى تلك الفترة تسمى الدرومون **dromon** أو خلانديون **Chelandion** وقد استخدم العرب الطرازات نفسها، وأطلقوا عليها اسم الشينى أو الشلندى . وكانت السفن التجارية فى تلك الفترة تعتمد تماماً على الريح ولكن سفن الحرب كانت تسيَّر بالمجاديف ، ولاتستخدم القلوع سوى عندما تكون مبحرة فى طقس مناسب أو باعتبارها قوة احتياط . وكانت المجاديف أساسية لتوفير السرعة والقدرة على المناورة أثناء الاشتباك . ويقدِّر الباحثون أن الدرمون فى المتوسط كانت ثلاثين متراً فى طولها ، وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا نسبة الدعامة الأفقية إلى الطول (١ : ٨) ، فإن عرضها كان يتراوح ما بين ثلاثة أمتار وأربعة أمتار. ومن المحتمل أن السفن الإسلامية كانت مشابهة . وأكبر طاقم للدرومون عرفناه من المصادر البيزنطية كان مائتى وثلاثين مجدفاً وسبعين بحاراً على سفينة واحدة، ولكن معظمها فيما يبدو كانت تحمل ما بين مائة ومائتى رجل.

وقد شهدت العصور الوسطى الباكرة عدداً من التغيرات المهمة فى طريقة تصميم السفن وبنائها[٣٣]. وكان أول تغيير حدث فى بناء بدن السفينة . ففى العالم القديم، كان بدن السفينة يبنى باستخدام الألواح بوضع الحافة على الحافة وتربط معاً باستخدام وَصلات مُعشقة بالأسافين . وحسبما تمت إعادة بناء سفينة ياسا آدى **Yassa Adi** التى ترجع إلى سنة ٦٢٦م من الأخشاب المحفوظة فى الوقت الحاضر ، باستخدام إطار من الأضلاع تم تركيب الألواح عليها : فإنها كانت طرازاً من السفن أخف وزناً وأكثر اقتصادية ولكنها كانت أقل تحملاً للخدمة الشاقة. ولانعرف ما إذا كانت الأساطيل قد اغتنمت مزايا الأساليب الفنية الجديدة فى بناء بدن السفينة التى نجدها فى «ياسا آدى» ، ولكن الأرجح أن ذلك حدث، لأن هذه كانت أرخص ثمنا وأخف وزناً . وكان التغير الثانى هو التحول من مقدم السفينة الذى يكون تحت الماء إلى المهاميز الظاهرة فوق الماء عند مقدم السفينة . وكانت السفن الكلاسيكية تستخدم الكبش المركب فى مقدم السفينة تحت الماء باعتبارها سلاحاً مهماً فى الحروب البحرية ،

ولكن هذه كانت قد فقدت أهميتها فى نهاية العصور القديمة وصار بناء بدن السفينة الأخف وزنًا يشد بالرصِّ والتثبيت المباشر[٢٤]. وكان التجديد الثالث هو التغير الذى طرأ على شكل القلوع وترتيبها . وكانت السفن الرومانية اللاتينية قد استخدمت القلوع المربعة المركبة عبر العارضة الأفقية للسفينة ، ولكن حدث فى وقت غير معلوم فى العصور الوسطى الباكرة أن حلَّت محلها قلوع مثلثة الشكل جعلت توجيه السفن حسب الريح مسألة أسهل من ذى قبل . ويبدو أن السفن العربية كانت تستخدم القلوع المثلثة منذ البداية. وثمة تطور مميز آخر فى تلك الفترة تمثل فى استخدام «القلاع» الخشبية فوق سطح السفينة لكى توفر ميزة الارتفاع للبحارة عندما يقاتلون عن قرب . وفى أواخر العصور القديمة كان يتم توجيه السفن بمجدافين كبيرين فى مؤخرة السفينة، ويبدو أن هذا قد استمر حتى القرن العاشر أو القرن الحادى عشر، عندما حلَّت محل مجدافى التوجيه الدفة الوحيدة فى مؤخرة السفينة.

كانت العمليات الحربية البحرية أشبه بحرب برية تدور فوق ظهور السفن. وتوحى المقالات البيزنطية عن الحرب البحرية فعلاً بأن ترتيب الأسطول كان يأخذ شكل الهلال، والقائد فى المركز ومعه أقوى السفن. وتوحى إحدى المقالات أيضا بأنه إذا دارت المعركة قبالة ساحل العدو، فمن الأفضل أن تكون قرب الشاطئ حتى يمكن إغراء بحارة العدو بالتخلى عن السفن والسباحة تجاهه . ويبدو أنه وراء هذه كان هناك عدد قليل من المرشدين لنشر السفن تكتيكيًا. وعادة ما كانت المعركة تبدأ برمى المقذوفات ، والنشاب ، والحجارة والمواد القابلة للاشتعال . وبالإضافة إلى قاذفات النار الإغريقية ، التى كانت تركب عادة فى مقدمة السفينة ، كان لابد للسفن من أن تحمل المنجنيقات لقذف الأحجار وقوارير النار الإغريقية . وتمثلت إحدى الأفكار المثيرة للدهشة فى قذف حاويات للعقارب أو الأفاعى السامة على أسطح السفن المعادية ، وهى فكرة قد تبدو أشد جاذبية نظريًا مما كانت عليه فى الظروف العملية للقتال من سفينة إلى سفينة[٢٥]. كانت الأقواس والأقواس المتطورة الأسلحة الرئيسية وفى نهاية المعارك البحرية ، مثل معركة ذات الصوارى ، كان يتم الحسم بالقتال اليدوى المتلاحم بين الجنود ، مثلما كان يحدث فى معارك البر.

وكانت طواقم السفن تتكون من عنصرين ، المجدفين والبحارة من ناحية ، والجنود أو رجال البحرية من ناحية أخرى. وتوحى الأدلة المتاحة بأن السفن البيزنطية لم يكنفيها فصل كامل بين العنصرين وأن البحارة كان يمكن أن يتحولوا إلى مقاتلين إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك . أما فى الأساطيل الإسلامية الأولى، فعلى النقيض ، يبدو أنه كان هناك تمييز صارم تماماً بين الجنود الذين كانوا من المسلمين العرب ورجال البحر، الذين كانوا من المسيحيين الشوام أو الأقباط. مثل هذه التمييزات ربما صارت غير ذات موضوع بحلول القرنين التاسع والعاشر الميلاديين / الثالث والرابع الهجريين ، لاسيما فى سفن القرصنة.

أدلة البردى المصرى

تقدم لنا أوراق البردى الإدارية المصرية التى ترجع إلى القرنين السابع والثامن نظرة ثاقبة فى تجنيد البحارة وتموين الأسطول. وأهم هذه البرديات سلسلة الخطابات التى كانت موجهة من قرة بن شريك ، والى مصر العربى من ٧٠٩ إلى ٧١٤م إلى الموظف الإدارى فى مدينة أفروديتو الصغيرة فى مصر العليا ، وهى الآن كوم إشقاو ، وكنا قد اقتبسنا واحدة من هذه البرديات بالفعل فى مناقشة غارة سنة ٧٠٣م على سردينيا . والوثائق مكتوبة باليونانية والقبطية والعربية ، ولكن أهمها من وجهة نظرنا هى الوثائق اليونانية لأن اللغة اليونانية كانت لا تزال لغة الإدارة الرئيسية فى أقاليم مصر ، على الرغم من أن الحكومة المركزية فى الفسطاط كانت تعمل بالعربية.

وتبعد أفروديتو عن البحر مسافة طويلة ، وبينما كان الأهالى على دراية بالقوارب النهرية فى نهر النيل، فمن الصعب ، أن نتصور أنه كانت لكثير منهم أية خبرة مباشرة بالملاحة فى أعالى البحار. وعلى الرغم من هذا ، فقد كان من المتوقع أن يشاركوا فى الأسطول المصرى . وكان مطلوباً من كل منطقة أن تقدم عدداً معينا من البحارة . ونعرف أن هؤلاء ربما يكونوا قد تم تجنيدهم من الحمامين، والجزارين والرعاة أى الرجال العاملين فى مهن يدوية متواضعة ، وكان المفروض أن يكون فى كل قرية سجل بالرجال

اللائقين لهذا العمل . وكان ملاك الأراضى المحليون ملزمين بتقديم هؤلاء الرجال وتقديم ضمانات بأنهم إذا لم يظهروا ، يمكن للحكومة استئجار بدلاء لهم. وفى أحد الخطابات من ملاك الأراضى المحليين إلى الوالى يضمنون أنهم سيفعلون هذا:

«نحن نعلن بأننا على استعداد، وأننا نضمن، أننا مسئولون ونؤكد ويمكن الاعتماد علينا، بأن أشخاص هؤلاء البحارة وهم العاملون فى حقولنا ، والذين نورد أسماءهم لك فى آخر إعلان الضمان هذا. ونحن نرسلهم شمالاً باعتبارهم بحارة فى السنة السابعة من الوحدة الزمنية الثامنة(*). وبهذه الطريقة سوف يقومون بواجبهم باعتبارهم بحارة فى إحصاء سكان مصر دون ما انحراف . ولكن إذا حدث انحراف ، فإننا على استعداد لدفع أى غرامة قد يفرضها سيدنا والوالى المشهور علينا»[٣٦].

وتنتهى الوثيقة بأسماء ثلاثة بحارة وعناوينهم مع توقيعات الضامنين.

وفى خطاب آخر ، تصدر الأوامر إلى الأهالى المحليين لإرسال مصروفات اثنين ونصف (!) من البحارة للانضمام إلى الأسطول الذى كان ينظمه عبدالله بن موسى بن نصير فى إفريقية. وكان سيتم دفع واحد وسدس صولدى ومصروفات سفر قدرها ١١ وسدس صولدى من «بيت المال» ويفترض أنها الأموال التى كانت الناحية مدينة بها من أموال الخراج.

ولم يكن ممكنًا أبدًا أن يكون التجديف فى السفن ، لاسيما السفن الحربية التى تنتمى إلى طبقة حاكمة غريبة ، اختيارًا محبوبًا لمجال العمل، ولكن الخطابات توحى بأنه، على الرغم من أن الخدمة كانت إجبارية من الناحية النظرية إذا ما كان اسم الشخص مدرجًا فى القائمة ، فإنه على الأقل سيتلقى أجرًا لقاء ذلك. ولم يكن هؤلاء من عبيد السفن كما كان معتادًا فى روما القديمة . وعلاوة على ذلك ، من الواضح أنه فى بعض الأحيان ، ولكنه لم يكن دائمًا بأى حال، كان من الممكن جعل البدل النقدى عوضًا عن القيام بالخدمة شخصيًا . بل إن إحدى البرديات تحتوى على طلب وسائد ،

(*) أى استخدام وحدات زمنية كل منها تمتد خمس عشرة سنة indiction حسب التاريخ الرومانى القديم.

وافترض البعض أنها كانت مطلوبة لمقاعد المجذفين[٣٧]، وربما كان ذلك نوعا من الإفراط فى التفاؤل . وقد لاحظنا بالفعل كيف كتب قرة بن شريك مستفسراً عن مصير أولئك الرجال من أفروديتو الذين كانوا قد انضموا إلى أسطول عطاء بن رافع فى غارته الفاشلة . فقد كان البعض قد ماتوا، وعاد البعض الآخر إلى ديارهم على حين بقى آخرون فى إفريقية، وأراد الوالى أن يعرف السبب. فهل كان من الممكن أن توفر الخدمة فى الأسطول لبعض الرجال على الأقل فرصة الهرب من قيود الحياة القروية ويبدأون بداية جديدة ؟

وإذا كان الأسطول بحاجة إلى الرجال، فإنه كان يحتاج أيضًا إلى المواد لبناء السفن. ومرة أخرى كان مطلوبًا من ملاك الأراضى فى أفروديتو تقديم المساعدة . ومن الواضح أن الأخشاب كانت أهم هذه المواد . وكانت بعض الأخشاب تُجلب من الغابات القديمة على الجبال اللبنانية ولكن مصر نفسها كانت تنتج بعض الأخشاب الجيدة . كانت هناك شجرة اللبخ التى قيل عنها إنه لو تم توصيل قطعتين منها ببعضهما بثبات وتركتا فى الماء لمدة عام صارتا مثل قطعة واحدة ، وشجرة السنط ، التى يقال إن خشبها فى صلابة الحديد . وثمة خطاب من قرة بن شريك يطلب من الموظف الإدارى فى أفروديتو أن يرسل ألواحًا من جذوع النخيل وخشب الجميز لبناء السفن على جزيرة بابليون (الفسطاط) على أن يتم تسليمها فى تلك السنة لبناء السفن اللازمة للقيام بالإغارة فى السنة التالية .

وكان الحديد مطلوبًا مثل الأخشاب تماما لعمل المسامير، ومرة أخرى كان مطلوبًا من أهالى أفروديتو أن يأخذوا الخردة أو الحديد الخام من مخازن الحكومة ، ويحولوها إلى مسامير ويرسلوها إلى رئيس عمليات بناء السفن فى الفسطاط . ولم تكن مصر تنتج ولذلك فإن هذا الحديد لا بد أنه كان مستورداً ربما من إسبانيا أو ربما كان حديداً أعيد استخدامه أخذ من المبانى البيزنطية . وأخيراً كانت الحبال ، ومن المثير أن نلاحظ أن كلمة Cable الإنجليزية تعود فى أصلها إلى كلمة «حبل» العربية. وكان بمصر تموين جيد من القنب لهذا الغرض .

وإلى جانب هذا النشاط البحرى الحكومي الرسمى . كانت هناك عمليات حربية عربية غير نظامية ، ولا يُدفع مقابلها على أمل الحصول على الغنائم(*). وكانت مثل هذه العمليات لا أساطيل الخليفة، هى المسئولة عن فتح كريت سنة ٨٢٤م ، وتأسيس أوكار قرصنة فى جنوب إيطاليا على نهر جريجيليانو Garigliano وفى جنوب فرنسا عند فراكسينتوم Fraxinetum (فريجو Fréjus) فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر. بيد أن هذا خارج عن مجال هذا الكتاب .

(*) من اللافت للنظر أن هذه العبارة كررها المؤلف بنصها فى جميع فصول الكتاب مهما اختلف السياق ، وأيا كانت المناسبة. (المترجم)

الهـــوامش

(١) G. F. Bass and F. H. Van Doominick, Yassi Ada, vol. I:.A Seventh-cent ury Byzantine Shipwreck (College Station, TX, 1982).

(٢) عن رؤية عامة للحروب البحرية فى البحر المتوسط من منتصف القرن السادس حتى منتصف القرن الثامن للميلاد ، انظر:

J. H. Pryor and E, M.Jeffreys, The Age of the Dromon: The Byzantine Navy ca 500-1204 (Leiden, 2006), pp. 19-34.

وعن رواية مفصلة للفترة الإسلامية الباكرة انظر:

E. Eickhoff, Srekrieg und Seepolitik zwischen Islam und Abendland: das Mittelmeer unter byzantinischer und arabischer Hegemonies (650-1040) (Berlin, 1966).

(٣) Sec P. Crone, 'How did the quranic pagans make a living?', Bulletin of the School of Oriental and African Studies 63 (2005); 387-99 at P.395.

(٤) عن قبرص فى ذلك الوقت انظر:

A. Cameron, 'Cyprus at the time of the .Arab conquests', Cyprus Historical Review I (1992): 27-49, reprinted in eadem, Changing Cultures in Early Byzantium (Aldershot, 1996), VI. For the Arab attacks, see A. Beihammer, 'Zypern und die Byzantinisch-Arabischc Seepolitik vom 8. bis zum Begi'nn des 1o-Jahrhundens', in Aspects of Arab Seafaring, ed. Y.Y. al-Hijji and V Christides (Atlienh, 2002), pp, 41-61.

(٥) Cameron, 'Cyprus', pp. 31-2.

(٦) Baladhuri, Futuh, pp. 152-3.

(٧) Baladhuri, Futuh. p. 154; Tabari, Ta'rikh, III, p. 709.

(٨) عن مشكلات المصادر وصعوبات تحديد الهجمات وتواريخها انظر:

L. I. Conrad, 'The Conquest of Arwad; A source-critical Study in the historiography of the early medieval Near East', in The Byzantine and Early Islamic Near East, vol. I. Problems in the literary sourer material (Papers of die First Workshop on Late Antiquity and Early Islam), ed. A. Cameron and L. I. Conrad (Princeton, NJ, 1991), pp. 317-401.

(٩) See A. N. Stratos, 'The Naval engagement at Phoenix', in Charanis Study : Essays in honor of Peter Charanis, ed. A. E. Laiou-Thomadakis (New Brunswick, 1080), pp. 219-47.

(١٠) Ibn Abd al-Hakam, Futuh, pp. 189-9; Ibn al Athir, Kamil, p. 119-20.

(١١) ويسميه هرقليوس بالخطا Ibn Abd al-Hakam.

(١٢) V. Christides, 'Arab-Byzantine struggle in the sea naval tactics (AD 7th-llth centuries); theory and practice', in Aspects of Arab Seafaring, ed. Y.Y. al-Hijji and V. Christides (Athens, 2002), pp. 87-101 at p. 90.

(١٣) عن استخدام النار الإفريقية انظر:

Theophanes, ed. de Boor, I, pp. 351-4; Eickhoff, Seekrieg, pp. 11-3; j. Haldon, Byzantium in the Seventh Century (Cambridge, 1990), pp. 63-5 - Also j. Haaldon and M. Byrne, 'A possible solution to the problem of Greek fire', Ryzanfinische Zeitschrift 70 (1977):91-9.

(١٤) Abridged translation of the text in D. Olster, 'Theodosius Gramniaricus and the Arab Siege of 674-78', Bywntmoslavica 56 (1995) PP. 23-8; C. Makrypoulias, 'Muslim ships through Byzantine eyes', in al-Hijji and Clirisrides, Aspects, p. 179-90.

(١٥) Theophanes, Chronographia, pp. 396-8.

(١٦) Theophanes, Chronographia, p. 399.

(١٧) Baladhuri, Futuh, p. 235; Eickhoft', Seekrieg, pp. 16-17.

(١٨) Eickhoff, Seekrieg, pp. 18-9.

(١٩) A. M. Fahmy, Muslim Naval Organisation in the Eastern Mediterranean from the Seventh to the Tenth Century A.D. (2nd edn, Cairo, 1966), p- 66.

(٢٠) Eickhoff, Seekrieg, p. 37.

(٢١) Baladhuri, Futuh, pp. 117-8- See the Glossary for this usage of Mitstagkhal.

(٢٢) J.Wilkinson, Jerusalem Pilgrims before the Crusades (rev. edn, Warminster, 2002), pp. 145, 247.

(٢٣) 'Ya'qubi, Buldan, p. 327.

(٢٤) Muqaddasi, Ahsan al- Taqasim, pp. 163-4.

(٢٥) Muqaddasi, Ahsan al--Taqasim, pp. 162-3.

(٢٦) Tabari, Ta'rikh, III, p. 2200.

(٢٧) Tabari, Ta'rikh, III,p. 2250.

(٢٨) Wilkinson, Jerusalem Pilgrims, pp.196-8

(٢٩) Ibn Abd al-Hakam, Futuh, pp. 191-2

(٣٠) Fahmy, Muslim Naval Organisation, pp. 36-7

(٣١) Qudama b. J a'far, Al-Kharaj wa Sina'at ai-Kitaha, ed. Muhammad Husayn al-Zubaydi (Baghdad, 1981), pp. 47-50.

(٣٢) عن تصميم السفن الحربية فى تلك الفترة انظر :

Pryor and Jeffreys, The Age of the Dromon, pp. 123-61, and F. M. Hocker,'Late Roman, Byzantine and Islamic fleets', in The Age of the Galley: Mediterranean Oared Vessels! since Pre-classical Times, ed. R. Gardiner (London, 1995), pp. 86-100. See also Makrypoulias, 'Muslim ships through Byzantine eyes'.

(٣٣) عن هذه الابتكارات الفنية، انظر :

Ptyor and Jeffreys. The Age of the Dromon, pp. 123-61.

(٣٤) Hocker, 'Late Roman, Byzantine and Islamic fleets', pp. 99-100.

(٣٥) Ibid., p. 99.

(٣٦) Fahmy, Muslim Naval Organisation, pp. 102-3.

(٣٧) Ibid ., p. 84.

(١١)

أصـــوات المغـــلوبين

لا ينطبق مبدأ «للظافرين الغنائم» على مجرد الحقيقة المادية للنصر العسكرى فحسب، وإنما غالبًا ما يصدق على تدوين تاريخ الأحداث أيضًا. وغالبًا ما تضيع أصوات المقهورين فى غمرة رنين النصر الذى يهيمن على التواريخ التى يكتبها الفاتحون . وفى حالة الفتوح الإسلامية، لدينا عدد من المؤلفات، والتواريخ، والنبوءات، والقصائد ، تلقى نظرة ثاقبة توضح كيف رأى الناس فى أعقاب الفتوح سادتهم الجدد وما الذى اعتبروه خسارة ، وفى بعض الأحيان مكسبًا، جلبته عليهم الفتوح.

وفى هذا الفصل، اخترت سلسة من ردود الأفعال بهدف بيان سلسلة من الاستجابات المختلفة من مصادرها الأولية تجاه الفتوح الإسلامية[١]. ومن الناحية الجغرافية ، امتدت من إسبانيا فى الغرب إلى رواية أسير حرب صينى فى الكوفة. وتتنوع من حيث النغمة ما بين إدانة صفرونيوس Sophronius للمسلمين بأنهم برابرة تمامًا وقناعة مار جابرييل بأنهم أفضل كثيراً من رفاقه فى الدين ، البيزنطيين. وأصوات المسيحيين واليهود والزرداشتيين جميعًا تطرق أسماعنا فى تنويعة من اللغات التى نطقوا بها تجمع ما بين اليونانية واللاتينية والسوريانية والصينية.

أما أقدم رد فعل لمجئ العرب وأشدها عداوة فيمكن أن نجده فى الخطابات اليونانية ومواعظ صفرونيوس بطريرك بيت المقدس، الذى تحدثنا عنه باختصار فى الفصل الرابع[٢]. كان صفرونيوس من أهالى دمشق، التى كانت أيام صباه فى أواخر القرن السادس الميلادى لا تزال قادرة على أن تقدم تعليمًا ممتازًا فى الفلسفة اليونانية والبلاغة .

ومنذ سنة ٥٧٨م تقريبًا حتى سنة ٥٨٣م درس فى الإسكندرية إبان الازدهار الأخير للتعليم الكلاسيكى فى المدينة. وعندما اكتملت دراسته عاد إلى فلسطين لكى يصبح راهبًا فى دير سان ثيودوسيوس بالقرب من بيت المقدس. وفى سنة ٦١٤م تعكر صفوه بشكل قاس بسبب الغزو الفارسى الذى عانت فى أثنائه الكنائس خارج أسوار بيت المقدس وحولها بصفة خاصة معاناة سيئة . وفى غضبه وحزنه ألف مرثية ينعى بها مصير المدينة:

بالخديعة جاء الميديون

من فارس المرعبة

ينهبون المدن والقرى ويشنون الحرب ضد حاكم إيدوم (روما)

يتقدمون فى الأرض المقدسة

لقد جاء الشرير الحاقد

لكى يدمر مدينة الرب ، القدس

فلتصرخوا فى حزن أنتم يا قبائل المسيحيين المباركين

فقد خربت القدس المقدسة

إذ ظهر شيطان بحنق مخيف

ويحسد مرعب من محارب

لينهب المدن والبلدات التى باركها الرب

بخناجره القاتلة الغادرة

ومن المؤكد أنه كانت لصفرونيوس تجربة مع البرابرة قبل زمن طويل من الفتوح الإسلامية. فقد أجبر على الفرار إلى روما سنة ٦١٥م. وقد أمضى بعض الوقت أيضًا فى شمال أفريقيا ، حيث قابل رجل كنيسة عظيمًا آخر من سنِّه ، وهو مكسيموس

المعترف Maximus confessor وتوطدت بينهما صداقة راسخة ، كما أنه زار القسطنطينية فى مناسبة واحدة على الأقل. وعاد إلى القدس بعد أن أعاد هرقل فتحها، وفى سنة ٦٣٣م رضى تحت الضغط الشعبى أن يقبل منصب البطريرك .

وواجه صفرونيوس المسلمين بوصفه بطريرك القدس والزعيم السياسى الفعلى لها . وتأتى إشارته الأولى فى خطاب رعوى، وربما كان قد كتبه سنة ٦٣٤م فى المراحل الباكرة من فتح العرب لبلاد الشام، وفيه يأمل أن تكون لدى الإمبراطور هرقل القوة «لكسر غرور كل البرابرة وخاصة السراكنة (المسلمين) الذين، بسبب خطايانا، قد ظهروا الآن ضدنا بشكل غير متوقع وخربوا كل شىء بخطة قاسية وحشية، وفى وقاحة لادين لها ولاتعرف الرب» وفى عيد الميلاد من تلك السنة لم يستطع رجال الكنيسة فى القدس أن يذهبوا بموكبهم إلى بيت لحم، حسبما جرت عادتهم ، خوفًا من المسلمين . «ومثلما حدث ذات مرة من جيش الفلسطينيين، فإن جيش المسلمين الذين لا يعرفون الرب قد استولى على بيت لحم المقدسة ومنع مرورنا إلى هناك، وهددونا بالذبح والدمار إذا ما غادرنا هذه المدينة المقدسة وجرؤنا على الاقتراب من بيت لحم محبوبتنا المقدسة». وفى النهاية بقى متفائلا : «إذا تبنا عن خطايانا وكفّرنا عن ذنوبنا فإننا سوف نضحك على زوال أعدائنا المسلمين وفى زمن قصير سوف نشهد دمارهم وخرابهم التام. لأن سيوفهم الدموية سوف تنغرس فى قلوبهم هم، وقسِيّهم سوف تتكسر ، وسهامهم سوف تترك لاصقة بهم وسوف يفتحون الطريق إلى بيت لحم أمامنًا ».

ومن عدة وجوه كان صفرونيوس واحدًا من أواخر رجال الكنيسة فى العصور القديمة، فقد نشأ وترعرع فى عالم كان ينزلق فى غياهب النسيان حتى وهو يتكلم . فقد تمكن من السفر فى أنحاء شرق المتوسط بحثًا عن التعليم، والصداقة ، والديانة الحقيقية : فبيت المقدس، الإسكندرية، والقسطنطينية وقرطاجة وروما كانت كلها مألوفة بالنسبة له . وفى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع ، كان هذا نموذجًا عاديًا تمامًا . وعندما مات صفرونيوس سنة ٦٣٩م كان مثل هذا الترحال الواسع المدى قد انقضى زمنه وكان العالم الذى تربى فيه قد انكسر على نحو لا يمكن إصلاحه . وكتب

باللغة اليونانية الطنانة التى كانت تميز بلاغة أواخر العصور القديمة، فقد كان رجلاً ذا تعليم راق يخاطب جمهوراً عالى التعليم. وقد اتخذ صفرونيوس نظرة معتمة للغاية تجاه العرب. فقد كانوا فى رأيه لايعرفون لهم رباً أو كارهين للرب. ولا يعطى أى مؤشر على أنهم يبشرون بدين جديد فى كتاباته أو خطبه . فقد كانت وظيفتهم بمثابة أدوات سخط الرب ضد المسيحيين بسبب خوضهم فى الهرطقة ، وطريقة ضربهم لم تكن تجييش الجيوش أو تزويد أسوار المدن بالرجال المحاربين ، ولكن بأن يرجعوا جميعًا إلى الإيمان الصحيح الحقيقى.

وكثير من الاستجابات الباكرة تجاه الفتح الإسلامى التى توجد فى التراث المسيحى الشرقى أخذت شكل النبوءات، أى التنبؤ بالأيام الأخيرة ونهاية العالم[٣]. وفى نبوءات نهاية العالم هذه، ينظر إلى قدوم العرب أحيانا باعتباره إحدى الإشارات الدالة على النهاية. وهى نادراً ما تنطوى على معلومات تاريخية صلبة وراسخة ، ولكن حسبما لاحظ باحث كبير حديثا «نبوءات نهاية العالم فعالة للغاية ومؤشرات حساسة جدًا على آمال الناس ومخاوفهم واحباطاتهم»[٤]. وأحد أكثر هذه النصوص إفصاحًا وتقدمًا هى نبوءة ميثوديوس المزيف Psaudo-Methodius[٥]، والذى اتخذ هذا الاسم لأنه يُنسب خطأ إلى ميثوديوس أسقف أوليمبوس ، الذى مات سنة ٣١٢م، أى قبل أكثر من ثلاثة قرون من تأليف النص فعلاً . والحقيقة أنه يحتمل أن يكون تاريخه راجعًا إلى الجيلين الأولين بعد الفتح الإسلامى. كانت الحرب الأهلية العربية الثانية (٦٨٣-٦٩٢م) فترة عنف واضطراب ، وارتبطت بالوباء والمجاعة فى سنة ٦٨٦-٦٨٧م، وعلى هذه الخلفية كتبت نبوءة نهاية العالم. ولأن النبوءة كتبت أصلاً باللغة السريانية ، ثم تُرجمت إلى كل من اللغة اليونانية واللغة اللاتينية، مما يكشف عن انتشارها الواسع بين مختلف الجماعات المسيحية. ويقدم المؤلف لقرائه، الذين يُفترض أنهم الجماعة المسيحية فى جنوب بلاد الشام، تحقيقًا متقنًا لأمنيتهم ، حافلاً بالإشارات إلى الكتاب المقدس. وتبدأ الأيام الأخيرة بقدوم الإسماعيليين (أى العرب) الذى سيهزمون مملكة الروم فى جابيثا (إشارة إلى معركة اليرموك) . ثم يلى ذلك تقرير عن آثار الغزوات الإسلامية

حسبما رآها المسيحيون أواخر القرن السابع الميلادى ، على الرغم من أن أحداثها تدور فى المستقبل ، لأنها نبوءة :

«لم ينزل هذا العقاب بالبشر وحدهم وإنما وقع أيضا على كل ما يوجد فوق وجه الأرض – الرجال، والنساء، والأطفال، والحيوان ، والماشية ، والطيور . وسوف يُعذب الناس بهذا العقاب، الأزواج وزوجاتهم وأطفالهم، النبات والممتلكات؛ العجوز والضعيف، والمريض والقوى ، والفقير والغنى. لأن الرب سمَّى اسماعيل جدهم الأعلى «جحش البرية الوحشى». وسوف تعانى الحيوانات البرية والأليفة وتموت ، وسوف يحيق الدمار بأجمال نباتات الجبال، وتخرب المدن المزدهرة . وتبقى الأقاليم خاوية لايمرّ بها أحد : وسوف تلوث الدماء الأرض وتحرم من نتاجها .

«لأن هؤلاء الطغاة ليسوا رجالاً، وإنما هم أبناء الخراب. إنه يولون وجوههم صوب الخراب فهم مدمِّرون ... إنهم هم الدمار وسوف ينطلقون لتدمير كل شىء . فهم ملوثون يحبون التلوث. وعند انطلاقهم من البرية سيخطفون الأطفال من أحضان أمهاتهم ليضربوهم فى الأحجار، كما لو كانوا حيوانات قذرة.

«وسوف يضحون بمن يخدمون فى الساحة المقدسة ، بل إنهم سوف ينامون مع نسائهم ومع السبايا داخل الساحة المقدسة ، ويجهزون الأردية المقدسة لأنفسهم ولأبنائهم . وسوف يربطون مواشيهم إلى توابيت الشهداء وقبور الرجال المقدسين . إنهم سفاحون متغطرسون ، ومدمرون سفاحون للدماء : إنهم أتون اختبار لجميع المسيحيين».

ثم يتحدث الكاتب عن المصاعب التى سيسببها الوباء والضرائب «سينام الشخص فى المساء ثم ينهض فى الصباح ليجد عند بابه رجلين أو ثلاثة يستخدمون القوة وهم يطلبون الجزية والمال. وجميع الحسابات عما يعطى ويؤخذ سوف تختفى من على وجه الأرض. وفى ذلك الوقت سوف يبيع الناس نحاسهم، وحديدهم وأكفانهم» .

ثم عندما يبلغ السوء مداه ، سيأتى الفرج بصورة إعجازية ؛ إذ إن ملك الروم سوف يهاجمهم : «سوف ينهض ضدهم ، مثل رجل تخلص من المر الذى شربه» .

ثم يجئ دور العرب فى المعاناة : «فهم وزوجاتهم، وأطفالهم ، وجميع مضارب خيامهم، وكافة أرض البرية التى تنتمى لأسلافهم سوف يقعون فى يدى ملك الروم: وسوف يتسلمهم السيف والخراب، والسبى والذبح. ونير عبوديتهم سيكون أشد وطأة سبعة أضعاف نيرهم» ويواصل ليصف المصاعب والشدائد التى ستحل بهم. وعندها سوف يحل السلام العالمى «سوف تتجدد الكنائس ، ويعاد بناء المدن، وسوف يُعفى القساوسة من الضرائب. وسوف يستريح القساوسة والشعب فى ذلك الوقت من الشقاء، والتعب ، والاضطهاد».

بيد أن الأمر لم ينته بعد . فإن «أهالى الشمال»، سوف يقومون بغزوهم مسببين الكثير من الخراب والمذابح ، ولكن الرب سوف يرسل واحداً من ملائكته، سوف يدمرهم فى لحظة واحدة . ثم يتوجه ملك الروم لكى يعيش فى القدس قبل أن يقف على الجلجثة واضعًا تاجه على الصليب المقدس رمزًا إلى أنه قد استعفى من الحكم ، وسوف يؤخذ الصليب والتاج إلى السماء. وهناك حينئذ رواية عن ظهور المسيح الدجال فى فلسطين «ابن الهلاك» والمزيد من الأذى قبل قدوم المسيح لينهى أخيراً وجوده ثم تتلاشى الرؤيا.

والنبوءة عبثية واهية كما أنها تتحرك على نحو مريب. وفيها يمكن أن نسمع صوت السكان الخاضعين(*). فهو قس وحيد منعزل ، ربما كان يكتب فى دير بشمال

(*) هذا الخيال المرعب الذى جعل «رجل الكنيسة» قادراً على كتابة ما كتبه يشى بأن هناك رغبة ما لدى هذا القسيس فى التلذذ بوصف التفاصيل البشعة لما أنتجه خياله . وهو أمر يدفع المرء إلى طرح السؤال عن نوعية «رجل الدين» الذى يطيب له بث الرعب والخوف فى نفوس سامعيه وقرائه . وهى شريحة لا تزال موجودة فى رجال الدين حتى الآن ولاتقتصر على أتباع دين بعينه، وإنما هى منتشرة فى كل زمان ومكان على أية حال . والحقيقة أننا لا نستطيع أن نوافق المؤلف على رأيه بأن هذا كان تعبيراً عن رأى الناس ، فإن التعايش مع المسلمين ، الذين زادت أعدادهم تدريجيًا على مر السنين بتحول من السكان إلى الدين الجديد، يكذب نبرة الحقد والعداء المرير التى ميزت كتابات الأسقف الذى خسر مكانته بسبب قدوم المسلمين من ناحية، وتناقص عدد رعاياه من ناحية ثانية، وخوفه من أن يدفع الضرائب من ناحية ثالثة. وعلى أية حال ، فإن الشروط التى وضعها عمر بن الخطاب للنصارى فى بيت المقدس قد كذبت نبوءته بشكل واضح، كما أن الأحداث التاريخية الفعلية كشفت عن عبثية ما كتبه. (المترجم)

بلاد الشام، يحلم باليوم الذى يحدث فيه التدخل الإعجازى الذى سيضع العرب المكروهين فى مكانهم. والعرب متهمون بالقتل والإيذاء ، وتدمير المدن والبيئة الريفية، وعدم احترام الكنائس ، والفسق الجنسى فضلاً عن الضرائب الباهظة . إنها تهمة بلاغية، وقد جاءت على هذا النحو لأن تاريخها يرجع إلى الفترة التى كان الحكم الإسلامى فيها يترسخ. وعلى أية حال، فإنه لم يتصور فى أية لحظة أن المسيحيين يأخذون زمام الأمور فى أيديهم ويحاربون ضد قاهريهم. فبالنسبة له كان العرب وجوداً للشر والضغينة . وهو مثل صفرونيوس، لم يذكر أبداً أنهم جاءوا بدين جديد، فإنهم ببساطة لا إله لهم ولكنهم، فى الوقت نفسه الأداة التى يعاقب بها الرب شعبه بسبب شرورهم . ولا بد أن كثيرا من الناس الذين قهرهم العرب فى القرن السابع كانوا يشاركون فى هذه النظرة السلبية للغاية.

ولكن لم يكن جميع المسيحيين يشتركون فى مثل هذه الآراء السوداء. ذلك أن كلاً من صفرونيوس ، وكاتب نبوءة ميثوديوس المزيف كانا رجلين رأيا فى إعادة الحكم البيزنطى أملاً بالنسبة لهما. فالنسطورى حنا البنكاييى، الذي كتب فى تسعينيات القرن السابع الميلادى، وافق على أن العرب كانوا أداة الرب، أرسلهم لمعاقبة المسيحيين بسبب الفساد الأخلاقى، والهرطقة ، قبل أى شىء آخر؛ ولكن بالنسبة له كان كلٌ من الكنيسة الخلقدونية التى تساندها السلطات البيزنطية والمونوفيزيتيين هم الأعداء حقًا . فقد كتب:

«ينبغى ألانفكر فى قدوم العرب باعتباره شيئًا عاديًا ، وإنما هو عمل من الأعمال السماوية. فقبل أن يناديهم الرب، كان قد أعدهم سلفًا لإبقاء المسيحيين مكرمين . والآن عندما جاء هؤلاء الناس بأمر الرب ، واستولوا على كل من المملكتين [الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية]، ليس بالحرب أو بأية معركة ، وإنما بأسلوب عبودى ، تمامًا مثل جمرة قد استخرجت من النار ؛ لا يستخدمون أسلحة الحرب أو الوسائل البشرية، وضع الرب النصر بين أيديهم».

. . .

لقد كان الرب يعاقب الكنيسة لأنها كانت تغازل الهرطقة وكان العرب أدوات العقاب. ولكن العرب، أيضا، كانوا خاضعين للغضب الربانى بسبب الخطايا التى ارتكبوها فى أثناء الغزو، وانقسمت إمبراطوريتهم إلى قوتين متعاديتين، فى إشارة إلى الحرب الأهلية بين على ومعاوية التى أعقبت اغتيال الخليفة عثمان بن عفان سنة ٦٥٦م. ولم يكن لدى يوحنا شىء سوى مديح الخليفة الأموى معاوية (٦٦١-٦٨٠م) الذى يقول عن عهده «... انتشر السلام فى ربوع الدنيا بحيث أننا لم نسمع أبدا، سواء من آبائنا أو من أجدادنا، أو نرى أنه كان هناك سلام مثل هذا على الإطلاق». ومن نافلة القول إن هذه الحال السعيدة للأمور لم تدم . وفى جو السلام والازدهار هذا، تحولت الكنيسة مرة أخرى إلى الانحلال الأخلاقى والهرطقة . ومرة أخرى استخدم الرب العرب لمعاقبة المسيحيين على هذا السلوك ، مسببًا الحرب الأهلية المدمرة التى اندلعت فى سنة ٦٨٣م بعد وفاة يزيد بن معاوية (وهى الحرب الأهلية نفسها التى تشكل الخلفية التى قامت عليها نبوءة ميثوديوس الزائف)، التى ينتهى بها تاريخه . فقد انتشرت المجاعة والوباء فى كل مكان، وهى مزيد من العلامات على سخط الرب. وبالنسبة ليوحنا كان العرب أدوات الرب؛ وحكمهم ربما يكون جيداً وربما يكون سيئا بحسب سلوك المسيحيين.

ولم يذكر يوحنا أى اتصال شخصى مع العرب ولكن مسيحيين آخرين فى المنطقة كانوا عازمين على إقامة علاقات طيبة معهم. فقد كان مار جبريل (ت ٦٦٧م) مقدم دير فى قرطمين(٦). وتقع قرطمين فى الجبال التى تسمى طور أبدين جنوب شرق تركيا، بالقرب من سهول الجزيرة . وفى زمن جبريل كان الدير بالفعل مؤسسة قديمة، ومما يلفت النظر أن هذا الدير لا يزال باقيا بوصفه واحداً من أكثر المراكز تبجيلا فى الديرية المسيحية الشرقية حتى اليوم. وكانت قرطمين معقل أولئك الذين رفضوا المسيحية الأرثوذكسية البيزنطية، وقد اعتبر جبريل أن قدوم الحكم الإسلامى فرصة وليس مصيبة.

ويحكى كاتب سيرته القصة :

«فضل مار جبريل قدوم العرب على اضطهادات البيزنطيين ، ولهذا قدم لهم العون وساعدهم. وذهب فيما بعد إلى الجزيرة للقاء أميرهم الذي استقبله بكثير من الفرح وكرّمه كثيرا بسبب ما فعله لصالحهم ؛ وقد أعطاه مرسوما وقعه بخط يده بأوامر لكل النقاط التى طلبها ؛ وفى هذا المرسوم منح كافة الأرثوذكس السريان حرية ممارسة عبادتهم وطقوسهم فى كنائسهم – السمانترا [أى اللوح الخشبى الذى يُدق عليه فى الكنائس الشرقية لجمع الناس إلى الصلاة] ، واحتفالات المهرجان ، ومواكب الجنازات وبناء الكنائس والأديرة ؛ وأعفى من الجزية القساوسة والشمامسة والرهبان . وبينما ثبت قيمة الجزية بالنسبة للناس الآخرين عند أربعة دراهم [وهو مبلغ متواضع] . كما أنه أصدر تعليماته إلى العرب الوثنيين بأن يهتموا كثيراً بالحفاظ على أرواح الأرثوذكس السريان»(٧).

وتكاد سيرة مار جبريل أن تكون المؤشر الوحيد على أن المسيحيين الأرثوذكس السريان قد ساعدوا الفتح الإسلامى فعلاً على عكس من وصفهم بأنهم مراقبون لا حول لهم ولاقوة وغير مرتبطين بأى جانب ، ولكننا لا نملك الوسيلة لمعرفة مدى شيوع هذا الموقف.

أما المصادر القبطية فتحمل آراء قوية عن قدوم المسلمين. ومن بين هذه المصادر ، سيرة البطريرك بنيامين (٦٢٢-٦٦١م) الذى توافقت فترة توليه المنصب مع الفتح الإسلامى. وقد وصلتنا فى ترجمة عربية كتبها ساويرس بن المقفع ، أسقف الأشمونين فى مصر الوسطى أواخر القرن العاشر الميلادى / الرابع الهجرى. وحسبما يوضح فى مقدمته ، على أية حال، فإنه يجمع تراجمه من مصادر يونانية وقبطية وربما كانت سيرة بنيامين والآراء التى تضمنتها أقدم زمنًا وربما كانت ترجع فعلاً إلى القرن السابع الميلادى.

وقد صار بنيامين البطريرك فى أثناء الاحتلال الفارسى لمصر ، ولكن المؤلف ليس لديه سوى القليل ليقوله فيما عدا أن هرقل قتل كسرى، الملك غير المؤمن. وعندما صار

هرقل إمبراطوراً عين كيروس والياً . وإذ ووجه بنيامين بتعيين هذا الشخص الحلقدونى الصارم ، حذره ملاك من الرب بأن يهرب . ورتب أمور الكنيسة، وكتب إلى جميع الأساقفة يأمرهم بالاختباء واختفى هو نفسه فى أحد الأديرة المجهولة فى صعيد مصر معرض للجو والعاصفة ، ولاشك فى أنه لقى العون من نبوءة الملاك بأن حكم قيروس سوف يدوم عشر سنوات فقط.

ويظهر كيروس باعتباره الشرير الحقيقى فى القصة ؛ ذلك أن عدة أساقفة ممن لم يعملوا بنصيحة البطريرك بالاختباء «أمسكوا مثل السمك فى الشبكة» واستشهد أخو بنيامين نفسه لأنه رفض قبول مراسيم مجمع خلقدونية. والذين عينهم هرقل تصرفوا مثل الذئاب المفترسة ، يلتهمون المؤمنين فى مصر. وعلى النقيض من هذا الذم، يقدم مؤلفنا تقريراً مكتوبا عن دعوة محمد الذى أعاد من يعبدون الأصنام إلى معرفة «الله وحده» وقال إن محمداً رسول الله. وكانت أمته تمارس الختان وتصلى باتجاه الجنوب صوب المكان الذى يسمونه الكعبة(٨).

ثم تخلى الرب عن جيش الرومان بسبب فسادهم واعتناقهم لمراسيم مجمع خلقدونية . ويصف الغزو العربى بلغة مختصرة واقعية. ويصف المؤلف المعاهدة بين المسلمين والمصريين، وهى نوع المعاهدة التى كان محمد، رئيس العرب، قد أوصاهم بعقدها، والتى تقضى بأن أى مدينة توافق على دفع الجزية سوف لا يتم المساس بها ولكن المدن التى لا توافق سوف يتم نهبها وأسر رجالها «لهذا السبب»، ويستمر الكاتب فى قوله إن المسلمين كفوا أيديهم عن البلاد وسكانها، ولكنهم دمروا أمة الرومان»(٩).

وعندما وصل المسلمون الإسكندرية دمروا الأسوار وأحرقوا كنائس كثيرة بالنيران، بما فى ذلك كنيسة القديس مرقص . ويلفت النظر أن المؤلف يتحدث بهدوء عن هذا الدمار ، ربما لأن معظم الكنائس بالمدينة كانت بأيدى الخلقدونيين . والأهم كثيرا من وجهة نظره هى عودة بنيامين الظافرة . وقد تم التفاوض على هذا من جانب دوقس قبطى اسمه سانوتيوس، أخبر عمرو بن العاص عنه. وحينئذ أصدر عمرو خطاباً

أمّن فيه بنيامين وعاد إلى المدينة، وقوبل بفرح عظيم ، ثم قدمه سانوتيوس إلى عمرو، الذى أعجب به ، قائلا إنه فى جميع البلاد التى فتحها لم ير رجلاً للرب مثل هذا الرجل. وفى الوقت نفسه، كان كيروس قد انتحر ، وتجرع السم من خاتمه . وصدر الأمر لبنيامين بأن يستأنف ولاية أمور كنيسته ورعيت . ثم طلب منه عمرو بن العاص أن يصلى من أجل أن يحقق النصر السريع والعودة السريعة من الحملة التى كان يخطط للقيام بها ضد القرى الخمس (بنتابوليس) فى إقليم برقة . وأخيرا ، ألقى البطريرك عظة أثرت على الجميع، وأعطى عمرو بن العاص نصيحة سرية، تحققت كلها، قبل أن يغادر «معززًا مكرّما» . وقد فرحت أرض مصر كلها به . ثم رحل عمرو فى موعده وصحبه سانوتيوس وسفينته. وقد تمكن سانوتيوس أيضا أن يعطى البطريرك المال ليعيد بناء كنيسة القديس مرقص. وحتى بعد أن كان عمرو بن العاص قد غادر الإقليم وحل محله ابن أبى السرح ، «المحب للمال» الذى وضع الإدارة فى الفسطاط ، يحجم المؤلف عن الانتقاد الصريح للإدارة الإسلامية.

وبالنسبة لكاتب سيرة حياة بنيامين ، كان قدوم العرب فجرًا جديداً لبطله . وهو فى الحقيقة لايقول أبدًا فى عبارات واضحة إنه كان أمرًا جيدًا ، ولكن من الواضح أنه كان راحة عظيمة بعد حكم كيروس . والتأكيد على العلاقات الطيبة بين عمرو بن العاص وبنيامين ودور الدوقس سانوتيوس أمور تشير كلها إلى الروابط الوثيقة بين النخبة المسلمة والنخبة القبطية.

ويأخذ مصدرنا القبطى الرئيسى الآخر، مؤرخة يوحنا النقيوسى، رؤية أقل وردية للفاتحين العرب . وكما هو الحال مع كاتب سيرة بنيامين ، يلعب كيروس دور الشرير الرئيسى فى هذه الرواية ومعه الرومان الخلقدونيون، وهو يقول بصراحة إن المسلمين ساعدتهم الاضطهادات التى جرت فى عهد الإمبراطور هرقل من حيث أنها جعلت الأهالى المحليين معادين للرومان[١٠]. وكانت خطايا الخلقدونيين السبب فى أن الرب سمح للعرب أن يفتحوا مصر، «لأن لم تكن لديه رحمة بأولئك الذين كانوا قد تعاملوا بخيانة ضده ولكنه سلمهم إلى أيدى الإسماعيليين»[١١].

وتم تصوير العرب فى صورة البرابرة المتوحشين. ففى غاراتهم الأولى على الفيوم قتلوا الناس دونما تمييز ؛ وفى إحدى المدن أعملوا السيف فى جميع الذين استسلموا ولم يبقوا على أحد، من الشيوخ المسنين أو الأطفال أو النساء»[١٣]. وفى نقيوس «مضوا ليضعوا السيف فى كل من وجدوهم فى الشوارع والكنائس ، من الرجال والنساء والأطفال دون أن تأخذهم الرحمة بأحد»[١٤] وقبض عمرو بن العاص على كبار الموظفين الروم ووضع أيديهم وأقدامهم فى قيود الحديد والألواح الخشبية على حين أخذ ممتلكاتهم . والأمور ليست أفضل كثيرا بالنسبة للفلاحين لأن الضرائب تضاعفت وكان عليهم أن يحملوا العلف لخيول المسلمين». وبعد الفتح النهائى للإسكندرية ، ألزم عمرو بن العاص نفسه بأن يأخذ الضرائب التى كان قد تم الاتفاق عليها ولكنه لم يستولْ على أملاك الكنائس و،حافظ عليها طوال أيامه . ويبدو على أية حال، أن الضرائب كانت باهظة بالنسبة للآخرين ، فقد كان الناس يهربون بعيداً لعجزهم عن تدبير الأموال لدفعها .

وقد استخدم كلمات قاسية فى الحديث عن العرب وعن الذين تعاونوا معهم من السكان المحليين. إذ كان المصريون مجبرين على حمل العلف ، وتقديم اللبن والعسل والفاكهة . وقد أرغموا على حفر القناة من بابليون إلى البحر الأحمر «... وكان النير الذى وضعه العرب على المصريين أثقل من ذلك الذى كان فرعون قد فرضه على إسرائيل ، وكان حكم ربهم عليه عادلاً بحيث أغرقه فى البحر الأحمر مع جيشه كله بعد كثير من الأوبئة التى ضربت الرجال والماشية على السواء. وعندما يسطع حكم الرب على هؤلاء الإسماعيليين ، فربما يوقعه عليهم كما أوقعه على فرعون». ثم يستمر يوحنا ليقول إن هذا عقاب على خطايا الناس ولكنه يثق فى أن الرب سوف يدمر أعداء الصليب حسب وعد الكتاب المقدس[١٥].

وعلى الرغم من هذه الوحشية كان هناك تيار تحتى من التعاون . ومنذ وقت مبكر نسمع عن «المصريين الذين كانوا قد ارتدوا عن الديانة المسيحية واعتنقوا ديانة الوحش»[١٦]

وعن الموظفين المحليين الذين كانوا ، بإرادتهم أو رغمًا عنهم ، يعملون لدى المسلمين[١٧](*).

ويمكن أن نرى استجابة مسيحية مختلفة ولكنها مختلطة بالقدر نفسه فى المؤرخة التى كتبها مؤلف مجهول باللاتينية سنة ٧٥٤م[١٨]. وربما كان المؤلف قد عاش فى قرطبة وربما كان قد بلغ من العمر ما يجعل لديه ذكريات شخصية عن سقوط مملكة القيزيقوط. ذلك أن ألفته مع تاريخ الأندلس وشئونه السياسية توحى بأنه ربما كان موظفًا لدى المسلمين فى الإدارة. فقد انطلق ليكتب مؤرخة عالمية، قبل ثمانين سنة من الوقت الذى كتب فيه . ولا يذكر شيئًا فى أى مكان من كتابه عن حقيقة أن المسلمين كانوا أتباع دين جديد . فهو يقول ببساطة إن المسلمين (السراكنة) ثاروا وغزوا بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية وبلاد النهرين «بفضل الخداع لابقوة زعيمهم محمد، ونهبوا الأقاليم المجاورة ومضوا لا بواسطة الهجمات الصريحة بقدر ما توغلوا من خلال الغزوات السرية». وعلى الرغم من احتقاره للقدرات القتالية لدى العرب، يقدم الكاتب تقريرًا واقعيًا عن الخلفاء الأوائل منسوج بتاريخ الإمبراطورية البيزنطية . فبعض الخلفاء رجال صالحون : يزيد بن معاوية (٦٨٠-٦٨٣م) ، الذى كان يوحنا بار بنكايى John bar Pekaue قد استبعده على أساس أنه «مغرم بالألعاب الصبيانية والمسرات الفارغة «ويحكم باستبداد «لاعقل له»[١٩]، ينال المديح من كاتب المؤرخة سنة ٧٥٤م باعتباره «أكثر أبناء معاوية مدعاة للسرور» وكان «محبوبًا للغاية من كل شعوب الأراضى التى كانت خاضعة لحكمه . فإنه لم يسع أبدًا ، مثلما هى عادة الرجال، إلى أى مجد لأنه كان ملكًا ، ولكنه عاش عيشة مواطن عادى مع الآخرين»[٢٠].

(*) لا بد من الإشارة إلى حقيقة أن نص يوحنا النقيوسى لم يصلنا فى لغته الأصلية وإنما جاء فى ترجمة حبشية متأخرة عن الأحداث بعدة قرون؛ ومن ثم فإنه ليس مؤكدًا أن تكون العبارات القاسية عن الإسلام والمسلمين من عبارات يوحنا النقيوسى نفسه وربما يكون إضافات من المترجم الحبشى الذى أباح لنفسه التعبير عن مشاعره الدينية الغالبة بين ثنايا النص المترجم عما كتبه يوحنا ... خاصة أن أسلوب النص الحبشى يختلف فى الجزء السابق على الفتح الإسلامى عنه فى الجزء الذى تناول أحداث الفتح، انظر: عمر صابر عبد الجليل ، تاريخ مصر ليوحنا النقيوس، ص٣٦- ص٣٧ . (المترجم)

هذا الموقف الذى بلغ حد اللطف يتغير بحدة عندما يصل المؤرخ إلى مناقشة الفتح الإسلامى لإسبانيا ، فهو يدين موسى بن نصير باعتباره بربريا عنيفًا :

«لقد دمر المدن الجميلة، وأحرقها بالنيران؛ حكم على السادة والرجال ذوى المكانة بأن يصلبوا وذبح الشباب والأطفال بالسيف. وبينما أشاع الرعب فى نفوس الجميع بهذه الطريقة، فإن بعض المدن التى بقيت تتوسل من أجل السلام تحت التهديد وبعد مطاردتها والسخرية منهم بأساليب خداع معينة، منح السراكنة لهم ما طلبوه دونما تأجيل. وعندما رفض المواطنون فيما بعد ما كانوا قد قبلوه بدافع الخوف والإرهاب، حاولوا الهرب إلى الجبال حيث خاطروا بمواجهة الجوع وأنواع مختلفة من الموت».

وبعد هذه الإدانة البلاغية العنيفة ، ترجع المؤرِّخَة إلى لهجتها الواقعية السابقة. فهناك حكام مسلمون صالحون، وحكام طالحون مثلما يوجد حكام مسيحيون صالحون وطالحون . ورواية معركة بواتييه (٧٣٢م) حيث ألحقت القوات المسيحية (بقيادة شارل مارتل) هزيمة حاسمة بالمسلمين ، تقدم تفصيلات مفيدة جدًا ولكن دونما أى شعور بالانتصار المسيحى[٢١]. وأسوأ الأشرار فى المؤرخة هم أولئك العرب الشاميون الذين عبروا إلى داخل شبه الجزيرة بعد هزيمتهم أمام المتمردين البربر فى سنة ٧٤٢م وبدأوا يتنازعون السيطرة مع أحفاد الفاتحين الأصليين من العرب والبربر[٢٢]. وحتى نهاية المؤرخة ، نجد المؤلف عارفًا تمامًا بأحداث المشرق الإسلامى كما هو عارف بالأحداث فى إسبانيا. وعلى النقيض من هذا ، فإن فرنسا وإيطاليا ، وكلتاهما تكتب باللاتينية ، ومناطق مسيحية، تكادان تكونان مجهولتين تمامًا بالنسبة له. وقد عاش المؤرخ كاتب مؤرخة سنة ٧٥٤م وعمل فى عالم كانت التفاعلات بين المسلمين والمسيحيين يومية وتدور حول الأعمال ، وعلى نحو ما ، كان من الواضح أنه مرتبط بدوائر الحكم الإسلامى فى قرطبة على حين كان يحافظ بوضوح على هويته المسيحية. وكان هناك رجال فى موقعه فى الإدارة العربية بالشرق ؛ وليست لدينا شهادة مباشرة عن مواقفهم ولكن لابد أنها كانت مماثلة.

ومثل النصارى ، طور يهود الشرق الأوسط أدبًا تنبؤيًا بنهاية العالم، على الرغم من أنه فى حالتهم كان الهدف التنبؤ بزمن قدوم الماشيح (المخلص) لا التنبؤ بنهاية

العالم. فبالنسبة لليهود كانت السنوات الأخيرة من الحكم البيزنطى فى بلاد الشام فترة من الضغوط والاضطهاد . وكان الغزو الفارسى قد أدى إلى بعض الراحة ولكن إعادة فرض الحكم البيزنطى منذ سنة ٦٢٨م فصاعداً أدى إلى تجدد الاضطهادات . وبالنسبة لليهود، كان قدوم العرب، على الرغم مما صحبه من الكثير من العنف والقسوة، واعداً ببعض التحسن فى حالهم. ونجد أوضح عرض للآراء اليهودية فى كتاب «النستروط» أو الأسرار المنسوبة إلى أحد الربيين اليهود فى القرن الثانى، وهو سيمون بن يوهاى، ولكن من الواضح أنه كتب، أو أعيدت كتابته، بعد قدوم المسلمين[٢٣].

ففى إحدى الفقرات ، يقال إن سيمون قد هرب من الإمبراطور البيزنطى (الذى يُشار إليه على أنه ملك إدوم فى النص كله) فى كهف . وبعد أن صام وصلى سأل ربه أن ينير له السبيل : «منذ رأى سيمون مملكة إشماعيل (العرب) آتية بدأ يقول «ألم يكن كافيًا ما فعله ملك إدوم الشرير لنا ، ولكننا نستحق مملكة إشماعيل أيضا ؟» وفى الحال أجابه متاترون ، كبير الملائكة ، بقوله : «لا تخف ، يا ابن الإنسان ، لأن الرب العظيم يجلب مملكة إشماعيل فقط لكى يخلصكم من هذه المملكة الشريرة (بيزنطة) . وقد رفع فوق الإشماعيليين نبيًا بحسب مشيئته وسوف يغزو الأرض من أجلهم وسوف يجيئون ويعيدونها إلى العظمة وسوف يجيء رعب عظيم بينهم وبين أبناء عيساو (أى البيزنطيين) .

وثمة فقرة تالية تقدم حكمًا محببًا على الخليفة الثانى، عمر بن الخطاب (٦٣٤-٦٤٤م) «الملك الثانى الذى يظهر من شعب إشماعيل سيكون محبًا لإسرائيل. سيعيد لهم عهودهم وعهود المعبد، ويشق جبل موريا ، ويجعله مستويًا ويبنى مسجداً هناك على صخرة المعبد». ولم تكن كلها أخباراً طيبة، على أية حال ، ويشكو المؤلف ، مثل كثير من المصادر المسيحية فى تلك الفترة ، من أن المسلمين يقومون بمسح الأرض بقصد فرض الضرائب عليها . «إنهم سوف يقيسون الأرض بالحبال كما يقال، وسوف يقسّم الأرض بثمن»[٢٤] وكان المؤلف أيضا مصدوماً من جراء ممارسات الدفن عند المسلمين وتعاملهم مع المقابر: «كما أنهم سوف يجعلون المقابر فى مكان معشب ترعى فيه الأغنام ؛ وعندما يموت أحدهم، سيدفنونه فى أى مكان يجدونه ثم يحرثون الأرض فيما بعد

ويضعون البذور فيها» وهي ملاحظة تنطبق على ما نعرفه عن الموقف المعتاد للمسلمين الأوائل تجاه دفن موتاهم .

وربما يكون اليهود قد تطلعوا إلى قدوم المسلمين بترحاب أكثر من أية جماعة أخرى بين الشعوب المقهورة ، ولكن من الواضح أنهم عانوا أيضًا من الآثار الكئيبة للحرب والاضطراب(*).

أما آراء الإيرانيين فى الفتوح الإسلامية فقد ضاعت لأن الزرادشتية قد اختفت بشكل أكبر مما جرى للمسيحية ولم تكن هناك أديرة لتحفظ المؤلفات القديمة. ولدينا قصيدة واحدة باللغة الفهلوية، وربما يرجع تاريخها إلى القرن التاسع الميلادى / الثالث الهجرى، وفيها نستطيع أن نرى شيئًا من مواقف مؤيدى الديانة القديمة فى وقت كان فيه اعتناق الإسلام يسير سيرًا حثيثًا وكانت بيوت النار تغلق . ومثل ميثوديوس الزائف ، فإن هذه القصيدة تتنبأ بنهاية العالم، وتتنبأ بأن الخلاص سوف يأتى عندما يظهر واحد من سلالة ملوك القدماء قادمًا من الهند.

«عندما سيأتى رسول من الهند ليقول إن شاه فهرام من عائلة كيس (السلالة القديمة الأسطورية فى حكم إيران) قد جاء ، ومعه ألف فيل ، ولكل فيل منها سائس فمن الذى سيحمل الراية؟ وبطريقة كسرى سيحملون الراية أمام الجيش . وستكون هناك حاجة لإرسال رسول إلى القادة حقًا، ومترجم ماهر، وعندما يأتى سيحكى فى الهند ما رأينا على أيدى عصابات الطاچيك [العرب] فى جمع واحد . فقد دمرت الديانة الزرادشتية (دين) وتم ذبح ملك الملوك (الشاهنشاه) مثل الكلب. وأكلوا الخبز . ونزعوا السيادة من كسرى. ليس بالمهارة والقوة ولكن بالخديعة والاحتقار أخذوها. وبالقوة أخذوا من الرجال زوجاتهم وممتلكاتهم الحلوة، المتنزهات والحدائق . وفرضوا

(*) يبدو أن الحديث عن اليهود ، حتى فى غير محله ، ومحاولة وضعهم فى الصورة التاريخية بأى شكل لضمان حضورهم «التاريخى»، قد صار بمثابة «الإتاوة» التى يجب على الباحثين الغربيين دفعها ؛ وهو ما يظهر فى المثال . فلم يكن اليهود آنذاك شعبًا له دولة فتحها المسلمون ، مثل المسيحيين والزرادشت وغيرهم وإنما كانوا أقليات ضئيلة ، وأفرادا فى بعض الأحيان. (المترجم)

الضرائب ، ووزعوها على الرؤوس. وطلبوا مرة أخرى من المسئول ضريبة باهظة . تأمل كم الشر الذى جلبه هؤلاء الأشرار على العالم، والذى لا يفوقه شيء سوءًا . إن العالم يفلت منا . ونحن سوف نحضر شاه قهران هذا صانع الأعمال العظيمة ليصب انتقامه على العرب ... وسوف نهدم مساجدهم وسوف نشعل النيران، وسوف نحفر معابد أصنامهم ونطهر العالم منها حتى تختفى جرثومة الشرير من هذا العالم. وينتهى الأمر فى سلام وفرح»(٢٥).

ويمكن أن نرى رأيا آخر عن الفتوح العربية فى شاهنامة الفردوسى . وقد جاء الفردوسى (توفى حوالى ١٠٢٠م)(٢٦) من طوس فى خراسان. وهو ابن لعائلة من الدهاقين، أى كبار ملاك الأراضى . وفى هذه الأوساط ظلّ الإخلاص لتقاليد إيران القديمة حيًا ، كما كان يتم الاحتفال بإنجازات ملوك إيران قبل الإسلام. وكان الفردوس مخلصًا لإيران ، ولغتها وثقافتها . وعلى النقيض من كاتب القصيدة الفهلوية المجهول، الذى كان من الواضح أنه يأمل فى إحيـاء الزرادشتية ، كان الفـردوسى بالتأكيد مسلمًا ، ولكنه نادرا ما يترك ديانته تظهر فى كتابته . ويبدو أنه لم تكن أمامه صعوبة فى التسامح مع ديانة أبطاله الزرادشتية واستمرارية إلههم لأنه كان يؤمن بالله ..

وقد ذكرنا بالفعل الخطاب الشعرى الذى زعموا أن القائد الفارسى رستم قد كتبه إلى أخيه عشية معركة القادسية الفاصلة ، عندما تم تدمير الحكم الفارسى فى العراق وقتل هو نفسه. ويتضح من الدليل الداخلى أن الخطاب ليس وثيقة أصلية قد أدخلت فى النص ولكنه تم نظمه عندما كان الشاعر يكتب هذا الجزء من عمله الكبير ، ربما فى العقد الأول من القرن الحادى عشر الميلادى/الخامس الهجرى. وجزء من الخطاب(٢٧) فى أساسه نبوءة تعبر عن رؤية رستم لعواقب الفتح الإسلامى، وهو مثير للغاية من حيث أنه يبين كيف رأى أحد أبناء الارستقراطية الفارسية فى تلك الفترة مجئ المسلمين. وهو لايدين صراحة الإسلام أو العرب ، ولكنه يرسم مشهدًا يبعث على الأسف عن نتائج الفتح الإسلامى وما جرته على الثقافة والقيم الإيرانية التقليدية . ذلك أن انهيار النظام الاجتماعى القديم الناجم عن مجيء الإسلام يؤدى إلى انهيـار المعنويات العامة والشخصية .

وهو يبدأ القسم بمرثية عامة:

ولكن عندما يتساوى المنبر مع العرش

ويشتهر اسم أبى بكر واسم عمر

فإن كفاحنا الطويل سيغدو مثل العدم

وسيخبو المجد الذى عرفناه ويسقط

ثم يعلق على خشونة الحكام المسلمين عامة مقارنة بالفخامة التى كان عليها بلاط الشاهنشاه القديم. ومن المثير أن نرى كيف أن تعليقاته على بساطة ملابس المسلمين تعكس الصورة التى أوردتها تلك الروايات العربية عن الفتوح التى تمجد فقر الفضيلة التى تحلّوا بها فى تناقض مع الرفاهية الفارسية.

إنهم جميعًا يلبسون السواد(*) وستكون أغطية رؤوسهم مصنوعة

من قطع طويلة ملفوفة من الحرير أو القماش الأسود المطرز

ولن تكون هناك أحذية ذهبية أو رايات حينئذ

ولن تُرى تيجاننا وعروشنا مرة أخرى

وسيكون عهداً من الظلم والاضطهاد وانهيار النظام الاجتماعى القديم:

سيفرح البعض على حين يعيش الآخرون فى خوف

وستختفى العدالة والإحسان

وسيحكمنا الغرباء عندها بقوتهم

وسوف ينهبونا ويحولون أيامنا إلى ليال

ولن يهتموا بالرجال العادلين أو الصالحين

(*) كان اللون الأسود هو شعار الخلفاء العباسيين منذ سنة ٧٥٠م فصاعداً .

وساعتها سوف يزدهر الخداع والاحتيال
وسيمضي المحاربون على أقدامهم ، على حين يركب المنتفخون غروراً
وسوف يسلح المتباهون الفارغون أنفسهم ويركبون ؛
وسيعاني الفلاحون من الإهمال
ولن ينال الأصل والمهارة أي احترام
وسيصير الرجال لصوصاً يسرقون بعضهم بعضاً بلا خجل
وما خفي سيكون أسوأ مما ظهر
وسيستولي على العرش ملوك قلوبهم من صخر
ولن يثق رجل في ابنه وبالمثل
لن يثق ابن في أمانة أبيه
وسوف يحل محل الطبقة الحاكمة الفارسية التقليدية رجال من طبقات اجتماعية دنيا ومن جنسيات مختلفة.
وسوف يخفي الرجال ثرواتهم ، ولكنهم حين يموتون
سينهب الأعداء كل ما يخبئون
وسوف يتظاهر الناس بأنهم مقدسون وبأنهم حكماء
لكي يتعيشوا من قول الأكاذيب
والأسف والكرب ، والمرارة والألم
ستكون مثلما كانت السعادة في عهد
بهرام جور(*) - قدر البشرية المعتاد

(*) شاه ساساني حكم من سنة ٤٢٠ إلى سنة ٤٢٨م وكان يُعتبر مثال المحارب المهذب، وكان صياداً عظيما وراعياً للموسيقيين.

ولن تكون هناك أعياد، ولامهرجانات للدولة
ولامباهج ، ولاموسيقيون ، لاشيء من هذا :
ولكن ستكون هناك أكاذيب ، وفخاخ وخيانات.
وسيكون اللبن الحامض طعامنا ، والثياب الخشنة ملبسنا
وسوف ينجب الطمع إلى المال المرارة
بين الأجيال : وسوف يغش الرجال
بعضهم بعضاً بينما يتظاهرون في هدوء
بأنهم مؤمنون في الدين . والشتاء والربيع
سيمران على البشر دون أثر(*)، ولن يحضر أحد
النبيذ ليحتفل بمثل هذه اللحظات ؛
وبدلاً من ذلك سوف يريقون دماء رفاقهم

إنها لصورة قوية عن التدهور السياسي والأخلاقي وخسارة القيم الأرستقراطية القديمة . وكسر التمييز الطبقي واختلاط الأعراق المختلفة كلها جزء من هذا الدمار الذي حلَّ بالقيم التقليدية . وعلى النقيض من آراء المسيحيين ، لانجد مؤشراً على أن مصائب الغزوات الإسلامية كانت جزءًا من عقاب الرب على الخطايا. وإنما هي مصيبة من مصائب القدر وهي موضوعة ، بطبيعة الحال، على لسان القائد الذي يعرف أنه سوف يلقى الهزيمة ويقتل وأن النظام الذي يسانده سوف يختفي ، ولكن من الصعب أن نتخيل أن هذا الرأي الأجوف عن تأثير قدوم الحكم الإسلامي لايعكس آراء الكثير من أبناء الأرستقراطية الإيرانية في القرون التي أعقبت الفتوح .

(**) إشارة إلى عيد النوروز ، أو النيروز، الإيراني التقليدي العظيم، أي رأس السنة، الذي يتم الاحتفال به في مارس عندما تبدأ المحاصيل في إظهار البراعم.

وبطبيعة الحال، لم يفتح العرب الصين ولم يقوموا بغزوها قط ، ولكنهم أسروا بالفعل عدداً من الصينيين فى الحملة التى أدت إلى معركة تراز أو تلاس بين الجيش المسلم والجيش الصينى سنة ٧٥١م . ومن بين هؤلاء الأسرى كان «توهوان» الذى أخذ إلى العراق وبقى هناك أسيراً حتى سُمح له بالعودة إلى وطنه سنة ٧٦٢م . وروايته عن المسلمين قصيرة ولكنها مثيرة للغاية، فهى تبين كيف كان العالم الإسلامى عند نهاية فترة الفتوح الكبرى يبدو فى عينى واحد ينتمى إلى ثقافة مغايرة تماما[٢٨].

«العاصمة إسمها الكوفة [Ya - chü- lo] واسم الملك العربى مومين [أى أمير المؤمنين]. وجميع الرجال والنساء يتسمون بالوسامة وطول القامة، كما أن ملابسهم لامعة نظيفة ، وسلوكهم مهذب . وعندما تخرج امرأة إلى العلن عليها أن تغطى وجهها بغض النظر عن مكانتها الاجتماعية سواء كانت راقية أو متواضعة . ويؤدون الصلاة خمس مرات يوميًا . ويأكلون اللحم . ويصومون ، ويعتبرون ذبح الحيوانات أمراً سليمًا . وهم يلبسون أحزمة من الفضة حول أوساطهم ويعلقون بها خناجر من الفضة . ويحرّمون شرب الخمر ويمنعون الموسيقى. وعندما يتشاجر الناس فيما بينهم لا يتبادلون الضربات. كما أن هناك قاعة احتفالات [المسجد] تسع عشرات الآلاف من الناس. وكل سبعة أيام يخرج الملك للصلاة (صلاة الجمعة)، ويرتقى منبراً عاليًا ليلقى خطبة على الجمع المحتشد عن الشريعة. فيقول : «الحياة الإنسانية صعبة للغاية. وطريق الاستقامة ليس سهلاً، والزنا خطأ . وليس هناك ذنب أكبر من السرقة أو النهب، أو أتفه أشكال غش الناس بالكلمات، وأن يؤمّن المرء نفسه بجلب الخطر على غيره، وخداع الفقير، وقهر المسكين . وجميع الذين قتلوا فى المعارك ضد الإسلام سيدخلون الجنة . اقتل العدو وسوف تنال السعادة التى تفوق الوصف» .

« لقد تحولت الأرض بأسرها؛ ويتبع الناس عقيدة الإسلام مثل ما يتبع نهر مجراه، ويطبق القانون بأسلوب لين فقط، ويدفن الموتى بشكل بسيط دونما إسراف . وسواء كان الناس داخل أسوار مدينة كبيرة أو فى داخل بوابة قرية، فإنهم لايحتاجون إلى شىء مما تنتجه الأرض. إذ إن بلادهم محور العالم حيث البضائع الوافرة كثيرة ورخيصة، حيث أقمشة القصب المطرزة الفاخرة ، واللآلئ والنقود تملأ الحوانيت على حين تملأ

الجمال والخيول والحمير والبغال الشوارع والأزقة . وهم يقطعون أقصاب السكر لبناء الأكواخ التى تشبه الحمالات الصينية وحينما تكون هناك عطلة يحضر الأعيان بأوانى من زجاج وأوانى من النحاس تفوق الحصر . ولايختلف الأرز الأبيض والدقيق الأبيض عنه فى الصين . ومن ضمن فواكههم الخوخ والتمور التى زرع نخيلها من ألف سنة. واللفت عندهم كبير الحجم ومستدير وطعمه شهى جداً، ولكن خضرواتهم الأخرى تشبه الخضروات فى البلاد الأخرى . وحبات العنب عندهم كبيرة مثل بيض الدجاج . وأكثر الزيوت قيمة لديهم نوعان ، أحدهما يسمى الياسمين والثانى اسمه المر. وقد عمل الصناع الصينيون الأنوال الأولى لنسج خيوط الحرير وكانوا أول من عمل فى صياغة الذهب والفضة وكانوا أول الرسامين».

وتكشف الرواية عن مجتمع مسلم ناضج ، وهو ما يتوافق مع الصورة التى نعرفها من المصادر الأخرى. وترجع هذه الصورة إلى السنوات الباكرة من الخلافة العباسية قبل تأسيس بغداد مباشرة ، والذى بدأ سنة ٧٦٢م، أى السنة التى سُمح فيها للصينى «توهوان» بالرجوع إلى بلاده . ونعرف من المصادر العربية أن الخليفة المنصور كان مشهوراً بخطبه البليغة فى المساجد ، ومن المثير أن نرى تأكيد مراقبنا الصينى على إدانة القهر والظلم من ناحية وعلى الجهاد ومكافأة الجنة من ناحية أخرى. وتظهر أمامنا صورة مجتمع تطهرى حيث حجاب النساء ومنع الخمور والموسيقى ، فى العلن على الأقل ، من الأمور الواضحة . كما أنه مجتمع رفاهية ، وهو مجتمع تنعم بازدهاره جميع الطبقات الاجتماعية سواء فى المدينة أو فى القرية. ومن المفهوم أن كثيرا من الناس الذين فتح العرب بلادهم كانوا يودون لو أنهم صاروا جزءًا من هذا المجتمع المزدهر الثرى. وكانت الكوفة ، بطبيعة الحال، مدينة إسلامية جديدة ومكانًا يتوقع المرء أن يجد فيه التزامًا شديداً بالنظام الأخلاقى الإسلامى. وفى الوقت نفسه يلفت النظر أنه ليس هناك ذكر لغير المسلمين، الذين كان لا بد أن يشكلوا الأغلبية حتى ذلك الحين ، حتى فى العراق، التى كان التحول إلى الإسلام فيها سريعًا .

إن أصوات المغلوبين مبعثرة ، وفى كثير من الأحوال يكون تأثير المسلمين فى المرتبة الثانوية بالنسبة للمؤلف. وليست هناك مناقشة للدين الإسلامى الجديد وعقائده .

وثمة اتفاق عام على الطبيعة المدمرة للغزو الفعلى ولكن الآراء تختلف حول جدارة الحكومة المسلمة. وعبء الضرائب التى فرضها المسلمون موضوع يتردد كثيرًا . وبالنسبة لمسيحيي منطقة الهلال الخصيب، كان قدوم العرب ونصرهم الذى لايمكن تفسيره ، نتيجة حتمية لغضب الرب وكانت الهرطقة، قبل غيرها، سبب غضب الرب. وعلى العموم، رأى الكتاب فى الطوائف النصرانية المنافسة، وفى اليهود، بطبيعة الحال، العدو الحقيقى الذى يجب تحديه وهزيمته . وعلى النقيض ، كان يمكن التسامح مع العرب، بل واستخدامهم لخدمة أغراض طائفية . ولم يقترب أحد حتى من اقتراح مقاومة مسيحية أو القيام بمجهودات متوافقة لإعادة الحكم المسيحى(*). وكانت هذه المواقف عاملاً مهمًا فى تفسير الكيفية التى حقق بها المسلمون سيطرتهم وحافظوا عليها. وتظهر الآراء الفارسية رد فعل مختلف تمام الاختلاف ، رثاء خسارة العظمة القديمة والنظام الاجتماعى القديم، والأسف فى الحقيقة ، من جانب الطبقة الحاكمة التى خُلعت من الحكم . وعلى العموم ، فإن السمة اللافتة أكثر من غيرها فى هذه الأصوات هى اختلاف الاستجابات لقدوم الحكم الإسلامى . وربما لم يرض كثير من الناس بهذا الحكم ، ولكن القلائل هم الذين حولوا عدم رضاهم إلى مقاومة نشطة . وكانت الطبيعة المتشرذمة للمغلوبين سببًا مهمًا فى نجاح المسلمين ، سواء فى الفتوح الأولية أو فى تقوية حكمهم.

(*) يتحدث المؤلف هنا «من خارج التاريخ» ؛ أى أنه يتجاهل ما هو معروف بالضرورة من أن الحكم البيزنطى لم يكن بالنسبة للمسيحيين فى منطقة الهلال الخصيب «حكما مسيحيا» بقدر ما كان حكم دولة أجنبية مكروهة وظالمة «وخارجة عن الإيمان القويم» ومن ناحية أخرى، كان معظم سكان هذه المنطقة من القبائل العربية التى نزحت قديمًا من شبه الجزيرة العربية، وعاشوا فى الريف والمدن وعلى الساحل ، كما عاشوا فى الصحراء . ومن المعلوم تمامًا أن الروابط التى تجمعهم بأقاربهم القادمين من شبه الجزيرة العربية كانت أفضل كثيرًا من علاقتهم بالروم . ومن ناحية أخرى، كان مبدأ «عش ودع الآخرين يعيشون» الذى اتبعه المسلمون – وأشار إليه المؤلف نفسه– من أهم أسباب عدم المقاومة. (المترجم)

الهــوامش

(١) المصدر الذى لا غنى عنه عن آراء غير المسلمين عن الإسلام فى عصوره الباكرة هو :

Hoyland, Seeing Islum as Others Saw It.

(٢) عن صفرونيوس وكتابته انظر :

Wilken, The Land Called Holy, pp. 226-39; Hoyland, Seeing Islam, pp. 67-73.

(٣) For a general introduction, see P. J. Alexander, 'The Byzantine Apocalyptic Tradition (Berkeley, CA. 1985).

(٤) Hoyland, Seeing Islam, p, 258,

(٥) For a translation of the text described here, see The Seventh Century in Western-Syrian Chronicles, trans.. A. Palmer (Liverpool, 1993), pp. 222-42, and the discussions in G. J. Reinink, 'Ps.-Methodius : A concept of history in response to the rise of Islam', in The Byzantine and Early Islamic Near East, I. Problems in the literary source material, ed. A. Cameron and L, I. Conrad (Papers of the First Workshop on Late Antiquity and Early Islam) (Princeton, NJ, 1992). pp. 149-87; Hoyland, Seeing Islam, pp. 263-7.

(٦) عن جبريل وتاريخ قرطمين عامة انظر:

A. Palmer, Monk and Mason on the Tigris Frontier (Cambridge, 1990), esp. pp. 153-9.

(٧) Quoted in S. Brock, 'North Mesopotamia in the late seventh century: Book XV of John Bar Penkaye's Ris Melle', Jerusalem Studies in Arabic and Islam p (1987); 51-75, p.57 note b.

(٨) Sawirus, 'Life of Benjamin', p.492.

(٩) Sawirus, 'Life of Benjamin', p. 494.

(١٠) John of Nikiu, Chronicle, pp. 184,200.

(١١) John of Nikiu, Chronicle. 186.

(١٢) John of Nikiu, Chfronicle, p. 179.

(١٣) John of Nikiu, Chrmicle, p. 188,

(١٤) John of Nikiu, Chronicle,p. 182,

(١٥) John of Nikiu, Chronicle, p. 195.

(١٦) John of Nikiu, Chronicle', p. 182.

(١٧) John of Nikiu, Chronicle, p. 181.

(١٨) The Chroniclr of 754 in Conquerors and Chroniclers of Early Medieval Spain, trans. K. B, Wolf (Liverpool, 1900), pp. 28-45, III-58.

(١٩) Brock, 'North Mesopotamia', p. 63.

(٢٠) Chronicle of 754, cap. 31, p. 123.

(٢١) Chronicle of 754, cap. 80, pp. 143-4.

(٢٢) Chronicle of 754, cap 85-6, pp 148-50.

(٢٣) Hoyland, Seeing Islam, pp.308-12, 526-7.

(٢٤) Daniel 11:39.

(٢٥) Text and translation in H. W. Bailey, Zoroastrian Problems in the Ninth- Centutry Books (Oxford, 1945), pp. 195-6; see also the comments in. Hoyland, Seeing Islam, pp, 531-2.

(٢٦) عن حياة الفردوسى وببليوجرافيا شاملة انظر:

D. Khaleghi-Motlagh, 'Ferdowsi', in. Encyclopaedia Iranica, ed. E. Yarshater (London, 1985-) vol. ix,pp. 514-23.

(٢٧) See Firdawsi, Shahnamah, trans. D. Davis, vol. iii: Sunset of Empire (Washington, DC, 1998-2004), pp.494-5.

(٢٨) عن النص وسياقه انظر: Hoyland, Seeing Islam, pp. 246-8.

خاتمة

تحديد الحدود

بحلول سنة ٧٥٠م كانت الدولة الإسلامية قد وصلت الحدود التى كان لها أن تبقى ثابتة على مدى السنوات الثلاثمائة التالية بشكل أو بآخر . والفتوح المهمة الوحيدة التى تمت فى هذه الفترة اللاحقة فى عالم البحر المتوسط ، كانت فتح صقلية وكريت . ومن حيث الحجم والسكان كانت الدولة الإسلامية مشابهة للإمبراطورية الرومانية فى عزها فى القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى ؛ ولم يكن هناك ما يجاريها سوى الصين تحت حكم أسرة تانج. وكانت حوالى نصف الأراضى التى يحكمها الخلفاء من دمشق (الدولة الأموية) قد خضعت من قبل لحكم روما فى القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد. وقد تضمنت هذه الأراضى بلاد الشام وفلسطين ومصر، وشمال أفريقيا وإسبانيا . وكان الرومان، بطبيعة الحال، قد حكموا أيضا فرنسا، وبريطانيا ، وإيطاليا والبلقان وتركيا . وعلى الرغم من أن فرنسا وإيطاليا وتركيا (الدولة البيزنطية قديما) عانت جميعًا من الإغارات الإسلامية ، وبعض الاحتلال المؤقت ، فإنها لم تخضع أبدًا للحكم العربى. ومن ناحية أخرى ، كانت دولة الخلافة تضم العراق وإيران وبلاد ما وراء النهر والسند، وهى مناطق كانت دائمًا خارج حدود الإمبراطورية الرومانية .

وكانت تخوم الامبراطورية الرومانية محددة بالحدود الثابتة limes . وفى بعض الأحيان ، كما هو الحال فى أسوار هادريان شمال بريطانيا ، كان هناك حقا خط مستمر من الأسوار الحجرية به حصون وضعت على مسافات منتظمة . وعلى كثير من الحدود الأخرى، فى بادية الشام وصحراء الأردن ، مثلاً ، لم يكن هناك خط مُحصَّن

وإنما شبكة من القلاع الصغيرة والتحصينات لإيواء الحاميات العسكرية ولحراسة حواف الصحراء . ولم تطور الدولة الإسلامية الباكرة حدوداً limes بالطريقة نفسها. ففى كثير من المناطق كانت الحدود عبارة عن تحديد غائم جداً ، وفى مناطق أخرى كانت الحدود تتوه فى الصحراء. وفى جهات قليلة فقط، على امتداد حدود الأناضول مع الإمبراطورية البيزنطية ، مثلاً ، أو الأماكن التى كانت المعاقل الإسلامية والمسيحية تواجه بعضها بعضا فى أعالى وادى نهر الإبرو فى إسبانيا، كانت توجد حدود حصينة تفصل ما بين المسلمين وغير المسلمين .

وقد فصل البحر المتوسط ما بين المسلمين وكثير من الأعداء المحتملين فى الشمال والغرب. وفى القرنين التاليين لحركة الفتوح الأولى كانت سواحل العالم الإسلامى على البحر المتوسط تكاد تكون محصنة ضد الهجوم . ولم يكن يحدث سوى من حين لآخر أن تقوم الأساطيل البيزنطية بالإغارة على الموانئ فى شرق المتوسط وفى مصر ، وبينما كان يمكن أن تنهب وتحرق فإنها لم تكن قادرة أبدا على تأسيس وجود مستمر لها .

وتقع الحدود الشمالية للأندلس ، إسبانيا المسلمة ، على امتداد سفوح البرينيس فى الشرق وجبال كانتابريا فى الغرب، على امتداد الخط الكنتورى ١٠٠٠ - متر بالضبط تقريبا. وكانت تحمى المسلمين سلسلة من المدن الحصينة - هويسكا سرقوسة، طليطلة Calatayud ومدريد ، وتالافيرا Talavera ، والتى غالبا ما تحميها الأسوار الرومانية . أما فى البرتغال وغرب إسبانيا فيبدو أنه كان هناك حزام عريض من الأرض المحايدة بين المعاقل الشمالية للمسلمين والمملكة المسيحية الصغيرة التى تحتمى بجبال كانتابريا Cantabrian mountains ، ويحميها فى الشرق وادى نهر الإبرو . وكانت المعاقل الإسلامية والمسيحية منفصلة عن بعضها البعض بعدة كيلو مترات قليلة فقط.

أما فى شمال أفريقيا من مراكش فى المغرب الأقصى حتى مصر فى الشرق، فكانت حدود العالم الإسلامى تقع على امتداد الحواف الشمالية للصحراء الكبرى،

وفى مصر أيضًا كانت الصحراء هى الحدود . وفى وادى النيل كان الحكم الإسلامى ينتهى عند أسوان . فهناك كانت الدبلوماسية مع النوبيين قد أمنت الحدود الضيقة التى يسهل الدفاع عنها. وحول شبه الجزيرة العربية ، وعلى امتداد <الخليج والمحيط الهندى> وعلى الرغم من اندلاع أعمال القرصنة من حين لآخر ، لم يكن العالم المسلم يواجه تهديدًا من هذا الاتجاه على الإطلاق.

وفى السند كان الموقف أشد تعقيدًا . فقد اختفى الحكم الإسلامى شمال المُلتان ولكن يبدو أن الحدود كانت سلمية نسبيًا ؛ ومن المؤكد أنه لا يوجد ما يشير إلى وجود تحصينات رئيسية أو تأسيس حاميات عسكرية للدفاع عن الأراضى الإسلامية وكان موقع أفغانستان الحديثة، كما هو الحال دائما، أشد تعقيدا بكثير . فقد كان المسلمون يسيطرون على عدد من المواقع فى الأراضى المنخفضة ، إلى الشمال والجنوب من الهندوكوش. فقد كانت بُشت ، وهرات، ويلخ كلها مدن حدود بشكل أو بآخر ، ولكن أهالى الجبال الذين لم تفتح أراضيهم كانوا مصدر إزعاج من آن لآخر، لكنهم لم يشكلوا تحديًا خطيرًا للحكم الإسلامى.

وفى بلاد ما وراء النهر لم تكن الحدود محددة بالحدود على الخريطة وإنما بنقاط السيطرة ، فقد كان المسلمون يمتلكون المدن ومناطق الاستقرار ، وإلى جانبهم الأتراك يجوبون الصحراء وفى كثير من المناطق أسس المسلمون الأربطة أو الرُبط (جمع رباط)، وهى قلاع يسكنها ويدافع عنها الغزاة أى المحاربون الذين كرسوا أنفسهم لخدمة الإسلام.

وفى القوقاز كان خط الخريطة الكنتورى مرة أخرى هو الذى حدد حدود السيطرة الإسلامية . فقد سيطروا على السهول ووديان الأنهار حتى تبليسى فى قلب الجبال، ولكن القمم التى تغطيها الثلوج فى سلسة الجبال العالية منعتهم من المضى أبعد من ذلك كما أن سهول جنوب روسيا حاليًا بقيت خارجة عن سلطانهم . وعند الطرف الشرقى للقوقاز فقط، حيث تنزل الجبال إلى بحر قزوين ، كانت هناك حدود حصينة . وكانت القلعة الحجرية الكبيرة التى تعرف الآن باسم الدربند تسمى «باب الأبواب»

عند العرب، وكان الساسانيون قد أسسوها لحراسة الحدود، ثم أخذها المسلمون، وتم وضع حامية عسكرية عربية هناك فى تاريخ مبكر جدًا . وفيما وراء الباب كانت أراضى الإستبس فى جنوب روسيا ، يسيطر عليها شعب تركى، هم الخزر ، الذين كانوا يشنون غارات داخل الأراضى الإسلامية فى الجنوب من فترة لأخرى.

وكانت الحدود مع الإمبراطورية البيزنطية جنوب شرق الأناضول هى أكثر الحدود تحصينًا فى العالم الإسلامى وكانت تشغل مكانا فريدًا فى الوعى العربى[1]. وبحلول سنة ٧٠٠م كادت الحدود أن تكون ساكنة . ومرة أخرى سيطر المسلمون على الأراضى المنخفضة على حين كانت الجبال فوق ارتفاع ألف متر فى أيدى البيزنطيين . وقد بقى البيزنطيون، على الرغم من هزيمتهم زمن الفتوح الأولى، هم العدو الأول، القوة الوحيدة التى كان المسلمون يشعرون إزاءها أنهم يتنافسون على أساس من الندية . وكان البيزنطيون وحدهم من بين الشعوب التى عاشت على امتداد حدودهم الذين يمتلكون جهاز دولة متطورًا بدرجة عالية، وجيشا نظاميًا ، وديانة دولة والإمبراطور الذى كان بوسعه أن يراسل الخليفة على قدم المساواة . وقد عرف المسلمون أنهم أصحاب الدين الحقيقى الوحيد، ولكن بعضهم على الأقل عرفوا أن هناك الكثير الذى يمكنهم أن يتعلموه من ثقافة الروم، وفلسفتهم وعلومهم.

وفى السنوات التى أعقبت فتح الشام والجزيرة مباشرة ، وهى الولايات التى تشترك حدودها مع الإمبراطورية البيزنطية، كانت الحدود مائعة وتميزها الأراضى التى لايملكها أحد لا الخطوط الثابتة . أما منطقة قليقية المنخفضة التى تتوفر بها إمكانيات الثراء ، عند الركن الشمالى – الشرقى للبحر المتوسط ، فكانت مهجورة بالفعل . وبالتدريج ، فى أثناء القرن الثامن الميلادى، أسس المسلمون قلعة حدودية ، وكان يتولى الدفاع عنها رجال يتقاضون رواتبهم من بيت المال. ولم يكن هناك سور وإنما سلسلة من المدن الحصينة من طرسوس فى الغرب حتى ملطية فى الشرق ، وكانت بها حاميات عسكرية مسلمة . وكانت هذه المعاقل الإسلامية دائمًا فى السهول أو فى وديان الأنهار: أما جبال طوروس وطوروس المضادة فكانت بأيدى البيزنطيين . وكان من هذه الحصون أن شن المسلمون هجماتهم الصيفية ، والشتوية فى بعض الأحيان ،

داخل الأراضى البيزنطية. وغالبًا ما كانت هذه الغارات أقرب إلى عمليات سرقة الماشية ، ولكن فى بعض الأحيان كانت حملات كبيرة. وكانت تلك الحروب الوحيدة التى شارك فيها الخلفاء وورثتهم بنشاط ، وكادت كثير من الحملات أن تكون ذات طبيعة طقسية ، فقد كان الخليفة يقود المسلمين ضد أعدائهم الموروثين .

وعلى العموم ، لم تعان الدولة الإسلامية من الضغوط الخارجية التى هددت الامبراطورية الرومانية على نهر الراين، ونهر الدانوب ونهر الفرات التى كانت تشكل الحدود . إذ إن المسيحيين من شمال إسبانيا ، والخزر من سهول جنوب روسيا والأتراك فى بلا ما وراء النهر ربما كانوا يقومون بإغارات داخل الأراضى الإسلامية ، ولكن تأثيرهم كان محدوداً وكان يمكن أن يستخف بهم سكان بغداد أو القاهرة . إن الدولة التى أسستها الفتوح العربية الكبرى كانت تحقق الاكتفاء الذاتى على المستوى الاقتصادى وتجلب الثقة بالنفس على المستوى العسكرى . وفى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين الثالث والربع الهجريين، نجا هذا المجتمع المسلم من انهيار الحكومة المركزية بطريقة لم تتمكن من عملها الإمبراطورية الرومانية فى القرن الخامس الميلادى عندما كان الغزاة البرابرة يهددونها.

نجاح الفتوح العربية

والآن حان وقت العودة إلى السؤال الذى طرحه يوحنا بار بنكاييى والذى بدأ به هذا الكتاب : لماذا كانت الفتوح العربية سريعة على هذا النحو وممتدة بهذه الطريقة ولماذا تحولت إلى البقاء والاستمرار هكذا؟

ولنبدأ بالنظر إلى الأراضى التى فتحوها لنرى كيف وبأى الطرق ربما كانت مكشوفة . كانت هناك عوامل طويلة المدى تعمل عملها ، من الصعب أن نحددها بدقة أو نحددها بصورة كمية ، ولكن من المؤكد أنها مهمة. وربما كان التدهور السكانى ذا مغزى هنا. وبطبيعة الحال، فإن لدينا عدداً قليلا من الأرقام المفيدة عن السكان فى تلك الفترة ، ولكن الانطباع الذى تتركه عدة مصادر متنوعة أن كثيراً من المناطق فى القرن

الذى أعقب ظهور أول طاعون وبائى فى عالم البحر المتوسط سنة ٥٤٠م، وأن هذه الخسارة فى السكان كانت قاسية للغاية فى المدن والقرى . ويبدو أن الجيوش العربية قد تحركت فى بعض الأحيان عبر فضاء خالى. فالفتح السريع لمناطق شاسعة فى إيران وشبه جزيرة أيبيريا، مع أقل قدر من المقاومة من جانب الأهالى يوحى بهذا . وحقيقة أن قدراً كبيراً جداً من الغنائم التى تم الاستيلاء عليها فى الحرب كانت على شكل أسرى وسبايا يشى مرة أخرى بأن البشر كانوا مرغوبين تماماً . فعندما فتح الفرس أنطاكية سنة ٥٤٠م أو أفاميا سنة ٥٧٣م ، رحلوا أعداداً كبيرة من المواطنين ليستقروا فى مدن جديدة أو لتوسعة مدن فى الإمبراطورية الساسانية ، وهى سياسة تبدو معقولة فقط إذا ما كان هناك نقص فى عدد السكان . ويوضح العدد الكبير من العبيد الذين تم أخذهم فى شمال أفريقيا وجلبهم إلى الشرق الأوسط كيف كان الناس مورداً قيماً وربما نادراً . والواضح أن المدن العريقة والشهيرة قد سقطت دون أية مقاومة جدية، ويوضح مصير ثلاث من أهم المدن فى أواخر العصر الرومانى هذا بوضوح . فقد استسلمت أنطاكية بأقل قدر من المقاومة ، ربما فى سنة ٦٣٦م ؛ ويبدو أن قرطاج كانت مهجورة إلى حد كبير عندما احتلها المسلمون فى سنة ٦٩٨م، وقد فشلت طليطلة ، على الرغم من أنها كانت عاصمة القيزيقوط وتحصيناتها الطبيعية الممتازة ، فى تأخير الجيوش المسلمة أية فترة أطول سنة ٧١٢م . والأدلة على التدهور السكانى متناثرة وغير مباشرة ونادرة ، ولكنها تبدو مقنعة فعلاً فى نهاية الأمر . ولم يتسبب هذا التدهور بطبيعة الحال، فى الفتوح العربية ، ولكنه ربما كان يعنى أن المقاومة كانت أقل شراسة، وأن طريق الجيوش العربية لم تكن تعترضها مدن كثيرة السكان، يعتلى سكانها الأسوار عازمين على المقاومة . وربما لم يحدث سوى فى بلاد ما وراء النهر أن وجدنا هذا النوع من المقاومة الشديدة التى أبداها سكان محليون تحركهم دوافع سامية .

وإلى جانب هذه العوامل بعيدة المدى، كانت هناك التأثيرات قصيرة المدى للحرب وما سببته من تشوش واضطراب . فقد كانت هناك صراعات كثيرة بين الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية منذ هزم البارثيون كراسوس وقواته سنة ٥٣ ق.م ،

ولكن الحرب التى اندلعت بعد اغتيال الإمبراطور موريس فى سنة ٦٠٢م كان الأبعد فى مداها والأكثر تدميراً . وقد أثرت عواقب الاكتساح الفارسى لأراضى الإمبراطورية البيزنطية فى المجتمع على عدة مستويات . فقد دمرت السيطرة الإمبراطورية البيزنطية على أراضى الشرق الأدنى ، كما قطعت العلاقات والروابط مع القسطنطينية؛ إذْ توقف تعيين الولاة ، وتجريد الجيوش، كما توقف دفع الضرائب . وفقدت الكنيسة الأرثوذكسية الخلقدونية حمايتها الإمبراطورية وصارت مجرد طائفة بين طوائف أخرى كثيرة. وهرب كثير من رجال الكنيسة وغيرهم من أبناء النخبة طالبين الأمان النسبى فى شمال أفريقيا وإيطاليا . وقد أوحى العمل الأثرى ، فى الأناضول على الأقل، بأن تقدم الجيوش الفارسية ألحق ضرراً بالغًا بالحياة الحضرية وأن الناس هجروا المدن الخالية فى السهول لاجئين إلى القلاع فوق القمم الجبلية . وقد استعادت السيطرة الامبراطورية البيزنطية سطوتها قبل سنة أو سنتين فقط قبل مسير الجيوش العربية من المدينة المنورة ، وربما لم تكن هناك هياكل سياسية أو عسكرية على الإطلاق فى كثير من المناطق .

وثمة صفة مميزة اتسمت بها هذه «الحرب العظمى الأخيرة فى العالم القديم» هى أنها خرَّبت كلاً من الإمبراطوريتين بقدر متساوٍ من الوحشية . فقد كان غزو هرقل لفارس الإمبراطورية مدمراً بقدر ما كانت الغزوات الفارسية للإمبراطورية البيزنطية مُخرِّبةً ؛ إذ إن معبد النار الكبير فى شيز، حيث كان يتم تتويج ملوك فارس، كان قد ناله التدمير كما نُهب القصر الملكى فى دستجرد . والأكثر وحشية أن الملك كسرى الثانى (٥٩١-٦٢٨م) قتل على أيدى قادة جيشه. وكانت الإمبراطورية الساسانية بخلاف الإمبراطورية البيزنطية ، دولة تحكمها سلالة وراثية ؛ وقد أطاح هجوم هرقل بالهيبة التى كانت للسلالة الحاكمة وبالثقة فى النخبة الفارسية الحاكمة . وقد تسبب الاقتتال فيما بين الأسرة الحاكمة فى فترة اضطراب كبير. وفى الوقت الذى تم قبول يزدجرد الثالث (٦٣٢-٦٥١م) شاه على إيران على نطاق واسع، كانت الجيوش العربية تهاجم الحدود العراقية بالفعل.

وقد ساعد على نجاح الفتح أيضًا سلسلة المنازعات التى شلّت الدولة البيزنطية بعد موت هرقل فى فبراير سنة ٦٤١م . ذلك أنه يبدو أن صراع القوة فى البلاط البيزنطى كان السبب المباشر للفشل فى شن عملية هجومية للدفاع عن مصر . فلو أن هرقل كان قد خلفه على العرش إمبراطور جديد قوى وحيوى ، فربما كان البيزنطيون قد استطاعوا أن يشنوا هجومًا مضادًا فى بلاد الشام أو على امتداد سواحل البحر المتوسط، لاسيما فى أثناء الفترة المضطربة تمامًا التى أعقبت قتل الخليفة عثمان بن عفان فى سنة ٦٥٦م(*). فقد قضى المسلمون فترة جيل لكى يشددوا سيطرتهم وسلطتهم على الأراضى التى كسبوها من البيزنطيين.

كانت هناك عوامل قوة مشتركة لدى كل من الإمبراطوريتين العظميين ، وكانت أيضا ويا للتناقض، من عوامل الضعف عندما ساءت الأمور . وفى الدولة البيزنطية والدولة الساسانية، كان يتم تركيز القوة العسكرية تركيزًا شديدًا ، وكانت كل منهما تعتمد على جيش محترف يتم الإنفاق عليه من خلال النظام الضريبى فى الدولة . وقد كان هذا التطور جديدًا نسبيًا. ففى الإمبراطورية البيزنطية وجدت قوات الثغور limitanei، التى وضعت على امتداد الحدود وأعطيت الأرض والرواتب للدفاع عن حدود الإمبراطورية . وفى أثناء النصف الأول من القرن السادس تم حل هذه القوات وحلت محلها قبائل البدو الغساسنة حلفاء للبيزنطيين. وبعد سنة ٥٨٢م تم الاستغناء عن هؤلاء أيضا واعتمدت الإمبراطورية على جيش ميدان دائم للدفاع عنها . ويبدو أن البيزنطيين لم يكونوا مستعدين بالمرة لمواجهة هجوم من الصحراء . ويقدم كتاب الاستراتيجوكون Strategikon، وهو كتاب عمليات عسكرية كتب سنة ٦٠٠م تقريبًا، تعليمات عن كيفية قتال الفرس، والترك والآفار ، ولكنه لا يذكر العرب على الإطلاق ؛ ومن الواضح أنهم لم يكونوا يعتبرون مصدر تهديد مهم. وبغض النظر عن الحلفاء العرب،

(*) يعود المؤلف هنا لكى يستخدم «لو» ، على الرغم من أن التاريخ لا يبحث فى الاحتمالات والإمكانيات، وإنما يحاول تفسير «ما حدث بالفعل» فى الماضى . ويبدو أن المؤلف يصرّ على إعلان تمنياته بأثر رجعى. (المترجم)

يبدو كما لو أن قلة من الجنود البيزنطيين الذين حاولوا الدفاع عن الإمبراطورية ضد الغزاة المسلمين كانوا من أهل المنطقة. فقد كانوا إما من الناطقين باليونانية من أجزاء الإمبراطورية الأخرى أو من الأرمن. وقد حدث تطور مشابه فى الإمبراطورية الساسانية. ففى النصف الأول من القرن السادس كان قد تم تركيز الإدارة على يد كسرى الأول (٥٣١- ٥٧٩م) الذى كان قد أسس جيشًا إمبراطوريًا يتم دفع رواتبه من إيرادات الضرائب . ومثل البيزنطيين فى الفترة نفسها، كان الساسانيون قد قرروا الاستغناء عن خدمات الملوك اللخميين الذين كانوا يتولون الدفاع عن الحدود الصحراوية . وفى ذلك الحين كان جيش الشاه وحده يدافع عن الدولة.

ومن عدة وجوه يمكن أن نرى فى هذه التطورات علامة على تزايد سلطة الحكومة وتعقدها، ولكنها على النقيض نتج عنها هذه الدول القوية ظاهريًا والمكشوفة بشكل غير متوقع أمام الأعداء . ولو أن الحكومة الإمبراطورية كانت تعانى من التفكك ولو أن الجيش الإمبراطورى لقى الهزيمة فى معركة كبيرة ، لما وُجدت قوات للمقاومة المحلية تتحمل عبء الدفاع . ولم تكن هناك جيوش بالمدن من المواطنين المحليين، ولا ميليشيا من الفلاحين يمكن الاعتماد عليها. ومن الأمور ذات الدلالة أن المناطق التى واجه فيها العرب أقوى مقاومة كانت مناطق مثل بلاد ما وراء النهر، وأرمينيا وجبال البورز وجبال كانتابريا فى شمال إسبانيا ، وهى أماكن كانت على الدوام خارج الحكم المباشر للإمبراطوريات والملكيات فى مناطق الأرض المنخفضة . فهناك دافع الأهالى بحمية عن أوطانهم ضد الغزاة.

وهناك مؤشرات من مناطق كثيرة فتحها المسلمون على أن الغزاة أفادوا من التوترات الداخلية فى الإمبراطوريات القديمة ، وهو ما كان يعنى أنه، فى بعض الحالات، كان ينظر إليهم على أنهم المحررون، أو على الأقل بديل يمكن احتماله . وفى بعض الأحيان كانت هذه التوترات دينية : ذلك أن المسيحيين المونوفيزيتيين فى مصر وشمال الشام كان لديهم بالتأكيد مالا يجعلهم يحبون السلطات البيزنطية ، على الرغم من أن هناك قدراً قليلاً من الأدلة على أنهم ساعدوا الغزاة بالفعل.

وربما كان الفلاحون فى أرض السواد بالعراق قد أحسوا كذلك بالراحة لتدمير الطبقة الحاكمة الفارسية ؛ كما أن التجار وأرباب الحرف والصنائع فى السند قيل إنهم تعاونوا بإرادتهم مع المسلمين ضد الطبقة الحاكمة العسكرية البرهمانية. وفى شمال أفريقيا ، حارب البربر معاركهم ضد الغزاة ، وعقدوا تحالفات وخدموا معهم تاركين البيزنطيين ليواجهوا مصيرهم.

ولم تطور المجتمعات الخاضعة ثقافة مقاومة بعد الفتوح الأولى. وشكوا من الولاة القساة الظالمين ، ولكن بقدر علمنا ، لم يظهر دعاة أو كتاب يشجعون على المعارضة النشطة ضد نظام الحكم الجديد . وتلجأ الدعاية المضادة للمسلمين فى المصادر المسيحية إلى الأدب المتعلق بنهاية العالم الذى سيجىء فيه إمبراطور عظيم أوشخص بطولى من الخارج لكى يخلص الشعب المسيحى. وفى الوقت نفسه ، كان كل ما فى وسعهم أن يصلوا ويتمسكوا بديانتهم . أما عداوتهم تجاه المسيحيين الآخرين من الطوائف المختلفة ، وتجاه اليهود قبل غيرهم ، فكانت أقسى وأشد وقعًا من عداوتهم تجاه العرب. ولم يكن هناك صوت بين أصوات المغلوبين يحرِّض على القيام بعمل للإطاحة بنظام الحكم الجديد.

هذه الأحداث الداخلية فى الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية كانت أساسية فى نجاح الفتوح العربية . ولو أن النبى محمد كان قد وُلد قبل جيل وحاول هو وخلفاؤه أن يرسلوا الجيوش ضد الإمبراطوريتين العظميين فى سنة ٦٠٠م ، مثلا ، فمن الصعب أن نتصور أنهم كانوا سيحققون أى تقدم على الإطلاق(*).

لم يكن ضعف البنى السياسية القائمة، بحد ذاته، هو الذى ضمن نجاح الجيوش العربية . إذ كانت هناك قوى كامنة تعمل جعلت القوات الإسلامية أكثر قوة وفعالية من أية قوة كانت من قبل أو جاءت من بعد .

(*) هذه ليست كتابة «تاريخية» تقوم على محاولة استرداد الحدث من «الماضى» ومحاولة الإجابة عن الأسئلة التى تبدأ بكلمة «لماذا» ، ومحاولة تفسير «ما حدث» . أما الإسراف فى استخدام "if" (لو) فى مثل هذه النقاط بالذات، فهو أمر يثير العجب خصوصا وأن المؤلف باحث ممتاز، وعارف بموضوعه، ومصادره التاريخية! (المترجم)

وقد قيل ما يكفى بالفعل عن الدافع الدينى لدى الغزاة، وعن قوة فكرة الاستشهاد والجنة باعتبارها من عوامل الحفز فى المعركة . وقد امتزج هذا بالمثل العليا التقليدية قبل الإسلام عن الإخلاص والولاء للقبيلة ووشائج القربى، والإعجاب بالمحارب الوحيد البطل. وقد كان مزيج القيم الثقافية للمجتمع البدوى مع أيديولوچية الدين الجديد قويًا وراسخًا .

ويجب أن نتذكر أن جيوش الفتوح الإسلامية الباكرة كانت كذلك بالضبط – جيوشا . فلم يكونوا هجرة جماعية من رجال القبائل البدوية. فقد تركوا نساءهم وأهلهم، وأطفالهم وعجائزهم فى بلادهم، فى خيمة أو فى منزل . وكانوا منظمين فى جماعات وكان قادتهم يعينون ، عادة بعد المشورة ، من قبل الخلفاء أو الولاة . ولم تكن عائلات المحاربين تنضم إليهم سوى بعد تحقيق النصر.

وكما رأينا ، لم تتوصل الجيوش العربية إلى تكنولوچيا جديدة لم يكن أعداؤهم يملكونها ، كما أنهم لم يهيمنوا بفضل الأعداد الكبيرة ، وإنما كانت لديهم بعض الميزات العسكرية الخالصة . وكانت الحركية أهم هذه الميزات . فالمسافات التى غطتها الجيوش الإسلامية فى الفتوح مدهشة حقًا . وتمتد المسافة أكثر من سبعة آلاف كيلو متر من أبعد نقطة فى المغرب الأقصى غربا حتى الحدود الشرقية للعالم المسلم فى آسيا الوسطى. وعلى النقيض من ذلك ، فإن الإمبراطورية الرومانية من حائط هادريان إلى حدود الفرات كانت أقل من خمسة آلاف كيلو متر . وقد عبرت كل هذه المناطق وأخضعتها جيوش إسلامية سريعة الحركة . وكانت معظم أراضى البلاد التى عملوا فيها جرداء غير مضيافة ، ولايمكن أن يعبرها سوى قوم يتسمون بالصلابة وسعة الحيلة. وكانت جيوشهم تتحرك بدون قافلة إمدادات. ويبدو أن المحاربين حملوا طعامهم معهم واشتروا أو سرقوا أو أخذوا المؤن عندما أعوزتهم الحاجة . وكان هؤلاء الناس وحيواناتهم على السواء معتادين على أن يقتاتوا بأقل القليل ، الغذاء الزهيد الذى يقيم به البدوى أوده، وكانت لديهم الخبرة فى النوم الخشن. وكان السفر ليلاً عندما يبرد الهواء وتسطع نجوم السماء بما يكفى لإرشادهم ، جزءًا مهمًا من حياة الصحراء،

وهناك عدد من المعارك سجلتها حوليات الفتوح أظهرت فيها الجيوش العربية أنها يمكن أن تتقهقر داخل الصحراء، وأن تتخذها ملجأ ، أو تعيد تجميع نفسها بعد الهزيمة أو تأخذ العدو على غرة.

ومن الواضح أن نوعية القيادة في الجيوش المسلمة كانت راقية للغاية . إذ إن النخبة من سكان مدن الحجاز ، ومعظمهم من قريش والقبائل المرتبطة بها التي قدمت معظم القيادات العليا، أنجبت بعض الرجال المقتدرين للغاية . فقد كان خالد بن الوليد في الشام، وعمرو بن العاص في مصر، وسعد بن أبي وقاص في العراق ، جميعا قادة عسكريين متميزين. وفي الجيل الثاني يمكننا أن نشير إلى عقبة بن نافع في شمال أفريقية ، وطارق بن زياد وموسى بن نصير في إسبانيا ، وقتيبة بن مسلم في بلاد ما وراء النهر، ومحمد بن القاسم في السند باعتبارهم قادة عظماء . وتتحدث المصادر العربية أيضا كثيراً عن مجالس الحرب وعن القادة الذين يأخذون المشورة قبل أن يقرروا مجرى العمل. وهذا جزئيًا خيال أدبي ، صمم لكي يوضح الخطوط العريضة للنشاط العسكري الممكن ويؤكد على الطبيعة «الديموقراطية» للمجتمع المسلم الباكر ، ولكنه قد يكون انعكاسًا حقيقًا للممارسة ، حيث كان يتم اتخاذ القرارات بعد عملية المشاورة والنقاش.

وربما كانت كفاءة القيادة في جزء منها نتاجًا للتقاليد السياسية في المجتمع العربي. فقد كانت القيادة تنتقل من جيل إلى جيل يليه في عائلات بعينها وعشائر محددة ، ولكن في داخل هذه المجموعات كان على أي قائد بازغ أن يثبت نفسه، ويبين لأتباعه أنه شجاع وذكي ودبلوماسي. فإذا أخفق ، يبحثون عن غيره . وكان عليه أيضا أن يحسب حساب آراء أولئك الذين يأمل في قيادتهم ووجهات نظرهم . وكونه ابن شخص ما، لم يكن مؤهلاً يكفي على الإطلاق . ودهشة الملكة الأم الإيرانية من أن أبناء قتيبة بن مسلم العظيم لم يرثوا مكانه مؤشر على الفرق في الثقافة بين الإيرانيين والعرب في هذا الصدد . ولم يكن من الممكن أن يبقى القادة المستبدون وغير الأكفاء طويلاً . ذلك أن عبيدالله بن أبي بكرة في أفغانستان والجنيد بن عبدالرحمن في بلاد ما

وراء النهر من بين الأمثلة القليلة على الفشل فى القيادة ؛ ولم يستمرا سوى فترة قصيرة وهجاهما الشعراء بقسوة وحشية ، كما انتقدهما المعلقون السياسيون فى زمانهم بعنف .

وكانت هناك ملامح أخرى فى بناء القيادة الإسلامية أدت إلى النجاح . فالمصادر تؤكد باستمرار على دور الخلفاء والولاة ، لاسيما الخليفة عمر بن الخطاب (٦٣٤- ٦٤٤م) فى تنظيم الفتوح وتوجيهها . ومن المستحيل تمامًا أن يكون عمر قد استطاع كتابة كل الرسائل المتعلقة بالتفاصيل الدقيقة للعمليات التى تنسبها المصادر إليه ، ولكن هذه السرديات قد تعكس حقيقة أنه كانت هناك درجة قوية من التنظيم والسيطرة من المدينة المنورة ثم من دمشق فيما بعد. وهناك أمثلة قليلة عن القادة الذين يعصون الأوامر، وكذلك أمثلة قليلة عن التمرد ضد العاصمة من جانب القادة فى الأقاليم البعيدة وميادين المعارك النائية. وهذا كله أمر مذهل لأنه يتناقض مع الأحداث فى الإمبراطورية البيزنطية المعاصرة ، حيث كانت الكفاءة العسكرية للدولة تتدهور باستمرار بسبب تمرد القادة العسكريين الذين يأملون فى الاستيلاء على العرش الإمبراطورى . والطريقة التى تقبل بها قادة ناجحون من أمثال خالد بن الويد، وعمرو بن العاص ، وموسى بن نصير ومحمد بن إسحق طردهم من مناصبهم وعودتهم فى هدوء إلى العاصمة ، ليواجهوا العقاب والإهانة فى الغالب ، مذهلة تمامًا .

وثمة عنصر أساسى فى نجاح الفتوح تمثل فى الشروط السهلة نسبيًا التى فُرضت على المغلوبين . وعادة ما كان القادة العرب يقنعون بعقد اتفاقيات تحفظ أرواح المغلوبين وممتلكاتهم، بما فيها الحقوق المرتبطة بأماكن عبادتهم ، مقابل دفع الجزية والوعد بأنهم لن يساعدوا أعداء المسلمين. أما المدافعون المهزومون فى المدن التى تم فتحها عنوة فكان يتم إعدامهم فى بعض الأحيان ، ولكن كانت هناك أمثلة قليلة على المذابح الجماعية للسكان كلهم. ونادرًا ما كانت هناك طلبات بمساكن ليستقر بها المسلمون ، مثلما حدث فى حمص، أو أية مطالبات أخرى بالممتلكات . كما أنه نادرا ما حدث دمار متعمد أو تخريب مقصود للمدن والقرى القائمة . وهنا نجد تناقضا رئيسيًا مع المغول فى القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى مثلاً، بشهرتهم

التى يستحقونها تمامًا فى الذبح والتدمير . وعلى الرغم من أننا لا يمكن أن نكون واضحين بشأن هذا، فربما كان العرب فى البداية على الأقل، أقل طلبا للموارد والخدمات من الناس العاديين من أسلافهم البيزنطيين والساسانيين ، وربما كانت الضرائب التى فرضوها فعلاً أقل. ولم يحدث حتى نهاية القرن السابع أن وجدنا شكاوى من القهر فى جباية الضرائب . ولابد أيضا أن المغلوبين ظنوا أن العرب فى غارة موسمية ، يمكن إتقاء شرها بالمال هذه السنة ولن تحدث ثانية : ومن الأفضل دفع المال وتوقيع الوثائق الضرورية بدلاً من المخاطرة باجتياح المدينة ، وقتل الرجال وسبى النساء والأطفال لكى يباعوا فى أسواق النخاسة.

وبدأت القوات العربية الإسلامية تستقر فى المناطق المفتوحة حديثًا بسرعة بعد الفتوح وعندما استوطنوا ، كانوا على الدوام تقريبا منفصلين عن السكان المحليين. ففى العراق كانوا متمركزين فى ثلاث مدن إسلامية جديدة؛ الكوفة والبصرة والموصل . وفى البداية كان الاستقرار العربى فى مصر محصوراً فى نطاق الفسطاط ، التى بنى الكثير منها على أرض مفتوحة ؛ وفى إفريقية اتخذ الاستقرار الإسلامى الباكر مكانه الرئيسى فى مدينة القيروان الجديدة ، على حين كان فى خراسان أكبر استقرار عربى فى مرو، حيث تم بناء حى جديد كامل خارج أسوار المدينة الساسانية القديمة . وفى بلاد الشام ، كان العرب يميلون إلى الاستقرار فى الضواحى الخارجية للمدن الموجودة مثل حماة وحلب، بدلاً من التملك فى العاصمة أو المركز. وإلى حد كبير حال هذا الوضع دون الاحتكاك الحتمى الذى كان سينشب بين الجيش الفاتح والسكان المحليين إذا ما تقاسموا سويا الشوارع والساحات الضيقة.

ومن الناحية الجغرافية أيضا كان الفتح العربى منتشراً . فقد سار العرب على الطرق الرئيسية ، واجتاحوا المدن الكبرى أو تقبلوا استسلامها . ولكن بعيداً عن الطرق السريعة كانت هناك بالضرورة ، فى الجبال والوديان البعيدة ، جماعات كثيرة لم ترَ العرب أبدًا ، ولم يسمعوا سوى بعد أسابيع ، أو شهور ، وربما سنوات ، أنهم لم يعودوا من رعايا الشاه أو الإمبراطور. وربما كانت جبال أذربيجان، وجبال جنوب بحر قزوين،

وتلال كردستان ، وجبال الأطلس الأعلى جنــوب المغرب ، وجبال سييرا دى جريدوس فى إسبانيا ، كلها أماكن لم يظهر فيها العرب المسلمون إلا نادراً . ولم يحدث سوى فى القرنين أو القرون الثلاثة التالية للفتوح الأولى أن وُجدت أقليات مسلمة ، من التجار والمغامرين ، قد دخلت هذه الأراضى وبدأت تنشر الدين الجديد وأخبار السلطات السياسية الجديدة. ولم يكن هناك دافع لدى أهل هذه المناطق لمقاومة الغزاة، لأن الغزاة ببساطة تجنبوهم ومروا من جوارهم .

وكما رأينا مراراً وتكراراً ، مارس الفاتحون المسلمون قليلا من الضغوط ، أو لم يمارسوا أى ضغط ، على السكان الذين أخضعوهم ، لاعتناق الإسلام . وربما كانت أية محاولة لإجبارهم على اعتناق الإسلام ستكون سببًا فى إثارة الغضب والعداوة الصريحة على نطاق واسع . ولكن الواقع أن السلطات الإسلامية أقامت علاقات ناجحة مع رؤساء الكنائس وغيرها من المؤسسات الدينية التى صارت تحت سلطانهم آنذاك . لقد كان اعتناق الإسلام راجعًا بصورة جزئية إلى الضغوط المالية، والرغبة فى الهروب من ضريبة الرأس الكريهة ، ولكن اعتناق الإسلام كان يتيح أيضا الفرصة للهروب من القيود الاجتماعية الراهنة والانضمام إلى الطبقة الحاكمة الجديدة . إذ كان لا بد لمن يريد الدخول فى زمرة العسكريين أن يكون مسلمًا . وبحلول القرن العاشر، الميلادى / الرابع الهجرى وقبله فى بعض المناطق ، كان قد بات من الصعب تماما أن يضمن أحد وظيفة ناجحة فى الإدارة المدنية دون أن يكون مسلمًا . كان الجذب ، وليس القهر ، هو مفتاح جاذبية الدين الجديد.

وفى أثناء القرن الأول، كانت الدولة الإسلامية مجتمعًا مفتوحًا بحق . كانت النخبة فى الدولة الجديدة هم المسلمين والإسلام دين لكل البشر. ولم يكن ممكنًا حرمان أى فرد يعتنق الإسلام عضويته فى هذه النخبة الجديدة. وعلى النقيض ، كانت المواطنة الرومانية أو عضوية العائلات الأرستقراطية الفارسية حصرية ، ووضع ممتاز يدافع عنه من يتمتعون به. وباعتناق الدين الإسلامى، يتحول المغلوبون ليصيروا من الفاتحين،

أى أعضاء من الطبقة الحاكمة الجديدة ، ومن الناحية النظرية على الأقل، يصيرون مساوين لغيرهم من المسلمين . وبطبيعة الحال، سرعان ما ثارت المشكلات وكانت هناك صدامات طويلة وعنيفة بين المسلمين والمسلمين الجدد من العرب ومن غير العرب ، بيد أن هذا لم يستطع أن يقوّض حقيقة أن الإسلام كان مفتوحًا أمام الجميع .

هذا هو الجانب الآخر من انهيار النظام الاجتماعى القديم والحدودالطبقية التى رثتها المصادر الفارسية من تلك الفترة . وكانت هناك بعض الأمثلة الباهرة على هذا الحراك . فقد كان نصير أسير حرب ، وربما كان من أصل آرامى متواضع ، وتم أسره فى إحدى الحملات الباكرة التى شنها العرب على العراق . واعتنق الإسلام ، وصار ابنه موسى واليًا على شمال أفريقيا والقائد الأعلى للقوات الإسلامية فى فتح إسبانيا . وعند مستوى أكثر تواضعًا ، كان الفلاحون الذين رفضوا إطاعة أوامر ملاك الأراضى الفرس فى العراق، والأقباط الذين اختاروا أن يبقوا فى شمال أفريقيا بدلاً من إجبارهم على العودة إلى موطنهم مصر، أو الأهالى الذين خدموا مع الجيوش العربية فى بلاد ما وراء النهر، جميعا قد رأوا فى قدوم المسلمين فرصة لتحسين أحوالهم، وانتهزوا ميزة الحرية والفرص التى يتيحها لهم النظام الجديد.

وقد جلب المسلمون الأوائل معهم قدرًا كبيرًا من الثقة بالنفس ثقافيًا . فقد تكلم الله إليهم من خلال النبى (عليه الصلاة والسلام) ، بلسان عربى مبين ، وكانوا هم حملة الدين الصحيح واللغة التى نزل بها الوحى(*). ومن المثير أن نقارن هذا بالغزاة الجرمان فى غرب أوربا القرن الخامس الميلادى. فعندما احتلوا أراضى الإمبراطورية

(*) ترجمت هذه العبارة بتصرف، فقد كتب "God's own language" . ولاتثريب على المؤلف؛ فهو ابن ثقافة أخرى، ويؤمن بدين آخر، ولكن المعنى الحرفى للعبارة «لغة الله نفسه» لا يستقيم مع حقائق الدين الإسلامى؛ فالله سبحانه وتعالى ليس كمثله شىء وهو ما يعنى أن ليست له لغة خاصة مثل البشر، ولكن الوحى نزل بالعربية ؛ ومن ثم كتب بها القرآن الكريم مما أعطاها المكانة السامية فى قلوب جميع المسلمين. (المترجم)

الرومانية ، تخلوا عن آلهتهم القديمة واعتنقوا المسيحية ، ديانة الإمبراطورية التى كانوا قد غزوا لتوهم ، وفى حدود علمنا، لم يزعم أحد أن الرب كان يتحدث الجرمانية .
وكانت هذه الثقة بالنفس الثقافية تعنى أن اللغة العربية صارت لغة الإدارة ولغة الثقافة الرفيعة الجديدة. وكل من كان يريد أن يشارك فى الحكومة أو فى الحياة الفكرية مشاركة كاملة كان لا بد أن يكتب بالعربية ويفضل أن يكون مسلمًا. ومرة أخرى يتجلى التناقض مع الغرب الجرمانى . فهناك فى الغرب بقيت اللغة اللاتينية لغة الإدارة والثقافة الرفيعة حتى القرن الثانى عشر الميلادى على الأقل، واتخذت الطبقة الحاكمة ألقابًا لاتينية مثل الدوق (dux) والكونت (Comes) ، وبقيت اللغات الجرمانية بمثابة لغات دارجة فحسب . أما الألقاب الإسلامية : خليفة ، وأمير، ووالى فكانت جميعًا عربية الأصل.

ومع هذا ، كان الفتح فاتحة اعتناق الإسلام . فقد أسس الإطار السياسى والاجتماعى الذى فى داخله أمكن حدوث عملية التحول إلى الإسلام الأشد بطئًا . وبحلول سنة ١٠٠٠م، ربما كانت أغلبية السكان فى جميع المناطق المختلفة التى تم فتحها سنة ٧٥٠م من المسلمين[٣]. ولم يتسبب الفتح فى التحول إلى الإسلام ولكنه كان تمهيدًا أساسيًا له: فبدون الفتح لم يكن الإسلام ليصبح الدين السائد فى هذه المناطق.

كان نجاح الفتوح الإسلامية نتاجًا لمجموعة فريدة من الظروف والدعوة إلى ديانة توحيدية جديدة وبسيطة . كانت هناك ملامح كثيرة فى الإسلام جعلته قابلا للتعامل بالنسبة للمسيحيين واليهود . فقد كان له نبى، وكتاب مقدس ، وأشكال راسخة فى الصلاة والطعام وقوانين الأسرة. وكان ابراهيم وعيسى من الأنبياء الذين يحظون بمكانة عظيمة فى تراث الإسلام. ومنذ بداية البداية رسخ الإسلام باعتباره دينًا جديدًا، وجاء ليكمل الديانات التوحيدية الأخرى لا ليدمرها . وليس به أية أمور غريبة مثل تلك الموجودة فى البوذية ، مثلاً. هذه التشابهات، وهذا التراث المشترك، لا بد أنهما ساعدا وشجعا على اعتناق الإسلام .

ومن عدة جوانب كان قبول الحكم الإسلامى نتيجة للسياسة التى اتبعها المسلمون تجاه العدو، فقد كان من الأفضل دائمًا الاستسلام للغزاة وعقد الصلح ودفع الجزية بدلاً من المقاومة حتى النهاية . ولم تكن الأسلمة والتعريب الذى أعقب الفتوح ليحدث على مدى القرنين أو القرون الثلاثة التالية لو لم يكن الفتح السياسى قد نجح بالفعل . ولكن الأسلمة والتعريب لم يكونا من النتائج المباشرة والحتمية للفتح . وبدلا من ذلك كانت عملية التحول تدريجية وتكاد تكون سلمية تمامًا بسبب الحقيقة القائلة أن المزيد والمزيد من الناس أرادوا أن يتماهوا مع الثقافة السائدة فى عصرهم ويشاركوا فيها .

وفى التحليل الأخير ، كان نجاح الفتح الإسلامى نتيجة الطبيعة المضطربة الفقيرة لعالم ما بعد الرومان الذى وقعت فيه الفتوح، وصلابة المحاربين البدو واعتمادهم على أنفسهم، والإلهام والخاصية المفتوحة للدين الإسلامى.

الهـــوامش

(١) عن هذه الحدود انظر :

J. F. Haldon and H. Kennedy, 'The Arab-Byzantine frontier in the eighth and ninth centuries; military organisation and society in the borderlands', Zbornik radove Vizantolnskog instituta 19 (1980): 79-116, reprinted in H, Kennedy, The Byzantine and Early Islamic Near East (Aldershot, 2oo6),VIII.

(٢) C. Foss, 'The Persians in Asia Minor and the end of antiquity', English Historical Review 90 (1975): 721-47, reprinted in idem, Histo'ry and Archaeology of Byzantine Asia Minor (Aldershot, 1990), I.

(٣) For the classic discussion of conversion to Islam, see R. Bulliet, Conversion to Islam in the Medieval Period, An Essay in Quantitative History' (Cambridge, MA, 1979). See also idem, Islam: The View from the Edge (New York, 1994), pp, 37-66, for the processes of conversion.

ملحق الصور



١ - الإمبراطور چستنيان الأول: فسيفساء حوالى ٥٤٧م



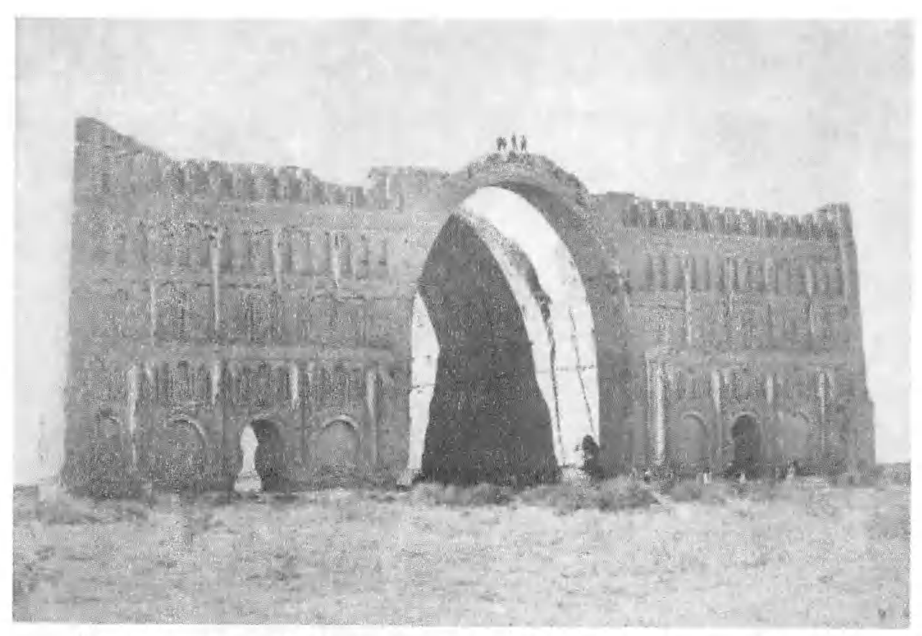
٢ - صحن يصور الملك يزدجرد الثالث (٦٣٢ - ٦٥١م) فى رحلة صيد: المدرسة الفنية الساسانية ، القرن السابع الميلادى .



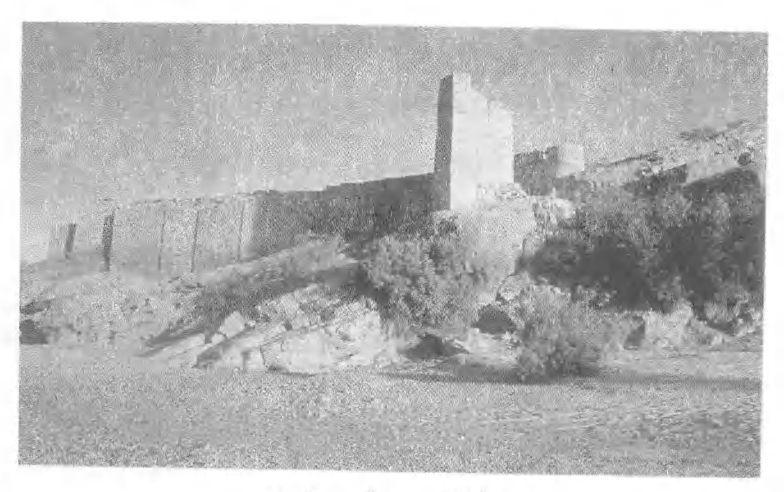
٣ - كنيسة المشبك ، سوريا .



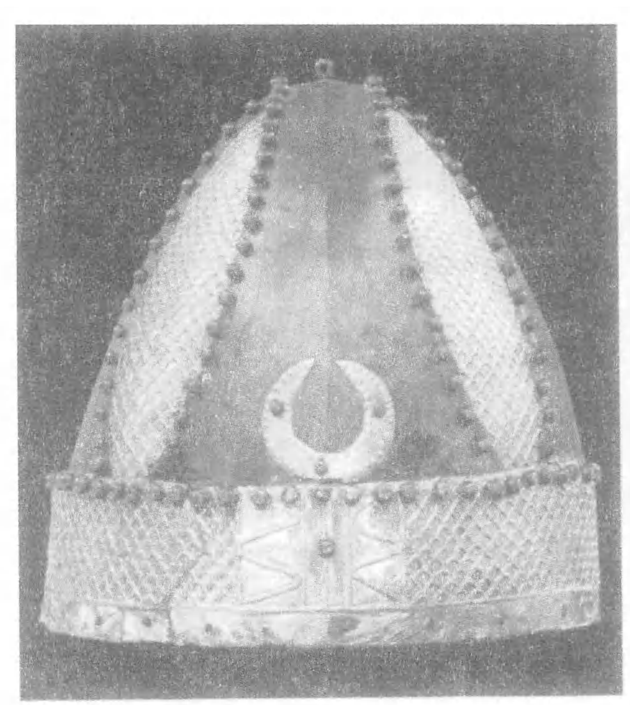
٤ - بيت نار زرادشتى فى كونور مياه - فارس .



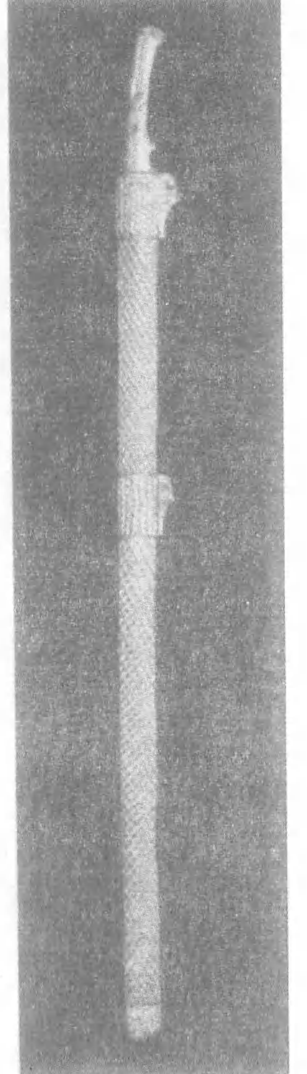
٥ – تقى – كسرى ، العراق : إيوان القصر العظيم فى طيسفون [إيوان كسرى بالمدائن] .



٦ – أطلال سد مأرب ، اليمن .



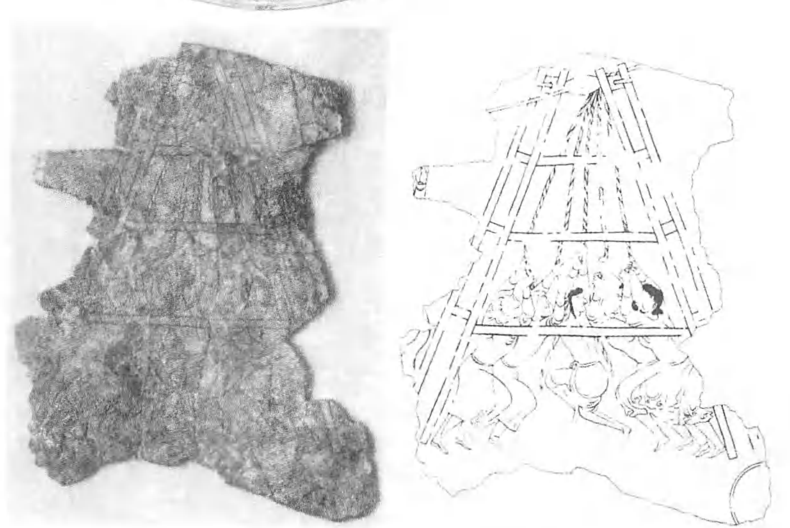
٧ - خوذة ساسانية من القرن السابع .



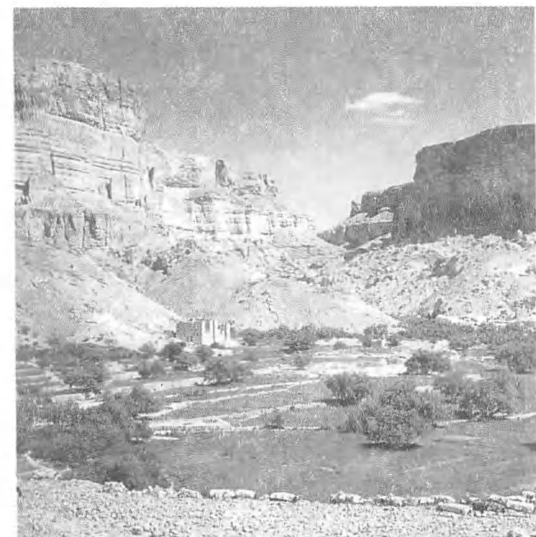
٨ - سيف ساسانى من القرن السابع .



٩ - أسلحة ودروع القوات البيزنطية حسبما رسمت على «صحون داود» .



١٠ - آلة حصار متحركة أثناء العمل ، من رسم على الحائط يرجع إلى بواكير القرن الثامن الميلادى .
قطعة من القرميد ورسم تخطيطى حديث .



١١ - وادى دعان .



١٢ - صحراء بلاد الشام .



١٣ - أسوار دمشق الرومانية القديمة .



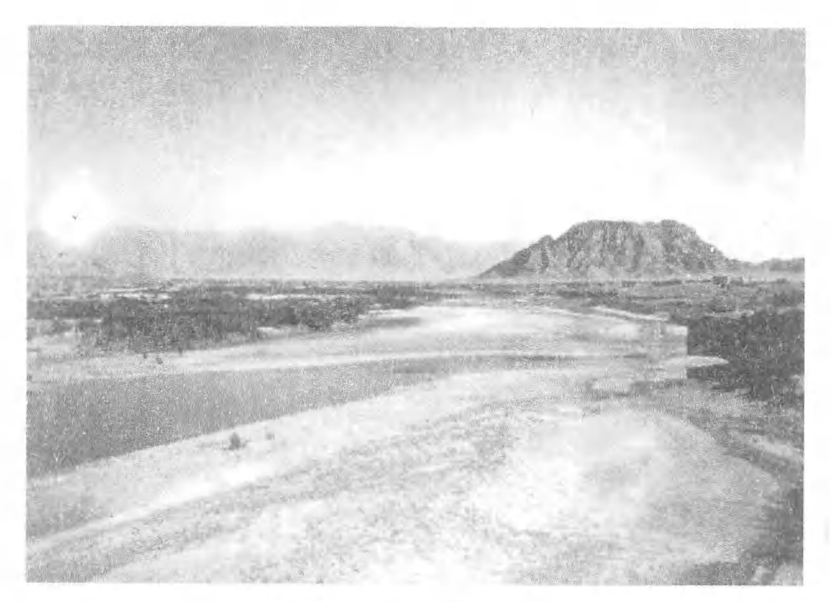
١٤ - القدس كما تشاهد من جبل الزيتون .



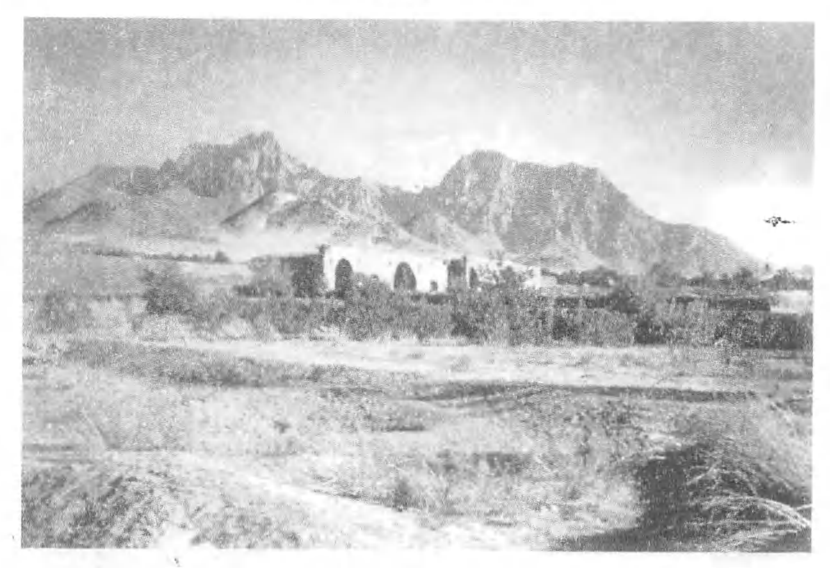
١٥ – جبـال زاجـروس .



١٦ – أسـوار بيشـاور .



١٧ - منظر طبيعى فى وسط الهند .



١٨ - الأرض الوسطى فى إيران حيث الجبال مقسمة بسهلين وتسمح بالحركة السريعة للقوات عبر المسافات الطويلة .



١٩ – تحصينات سمرقند القديمة .



٢٠ – بخارى القديمة كما تشاهد من أسوار القلعة .



٢١ – ممر طشتكراشا فى الجبال جنوب سمرقند .



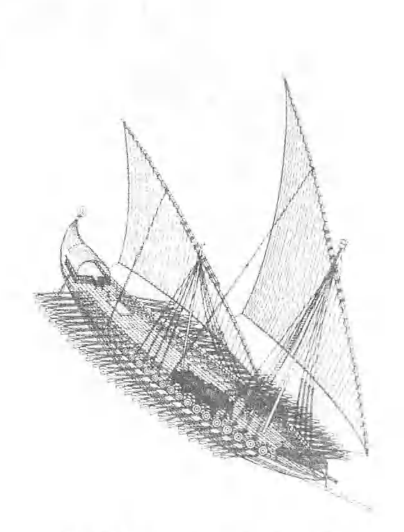
٢٢ المشهد من أسوار بلخ القديمة المطل على الهندوكوش .



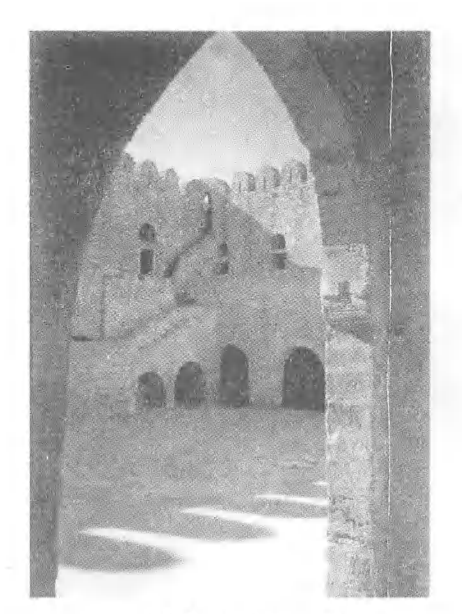
٢٣ - قرطبة ، إسبانيا .



٢٤ - طليطلة ، إسبانيا .



٢٦ - إعـادة بناء حـديثـة لمركب شراعي بيزنطى (الدرومـون) .



٢٥ - رباط سوسة، تونس .



٢٧ - صــور - لبنــان .

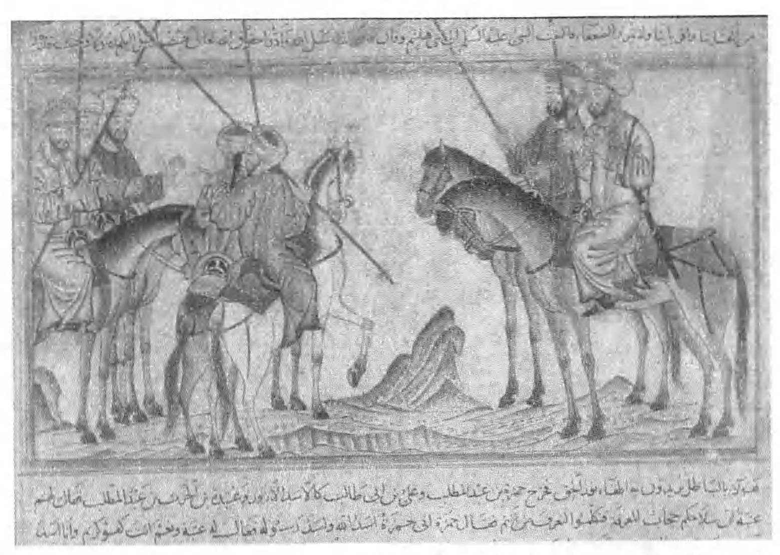


٢٨ - موضع البصرة الإسلامية الباكرة ، العراق .



٢٩ - مركز الكوفة القديمة ، العراق .

الفتوح التى بقيت ذكراها



٣٠ - استعدادات النبى محمد (ص) لمعركته الأولى ضد قريش بمكة فى غزوة بدر سنة ٦٣٤م.
مخطوط فارسى يرجع إلى أوائل القرن الرابع عشر .



٣١ - اغتيال خسرو الثانى سنة ٦٢٨م ،
مخطوط فارسى من القرن الخامس عشر.

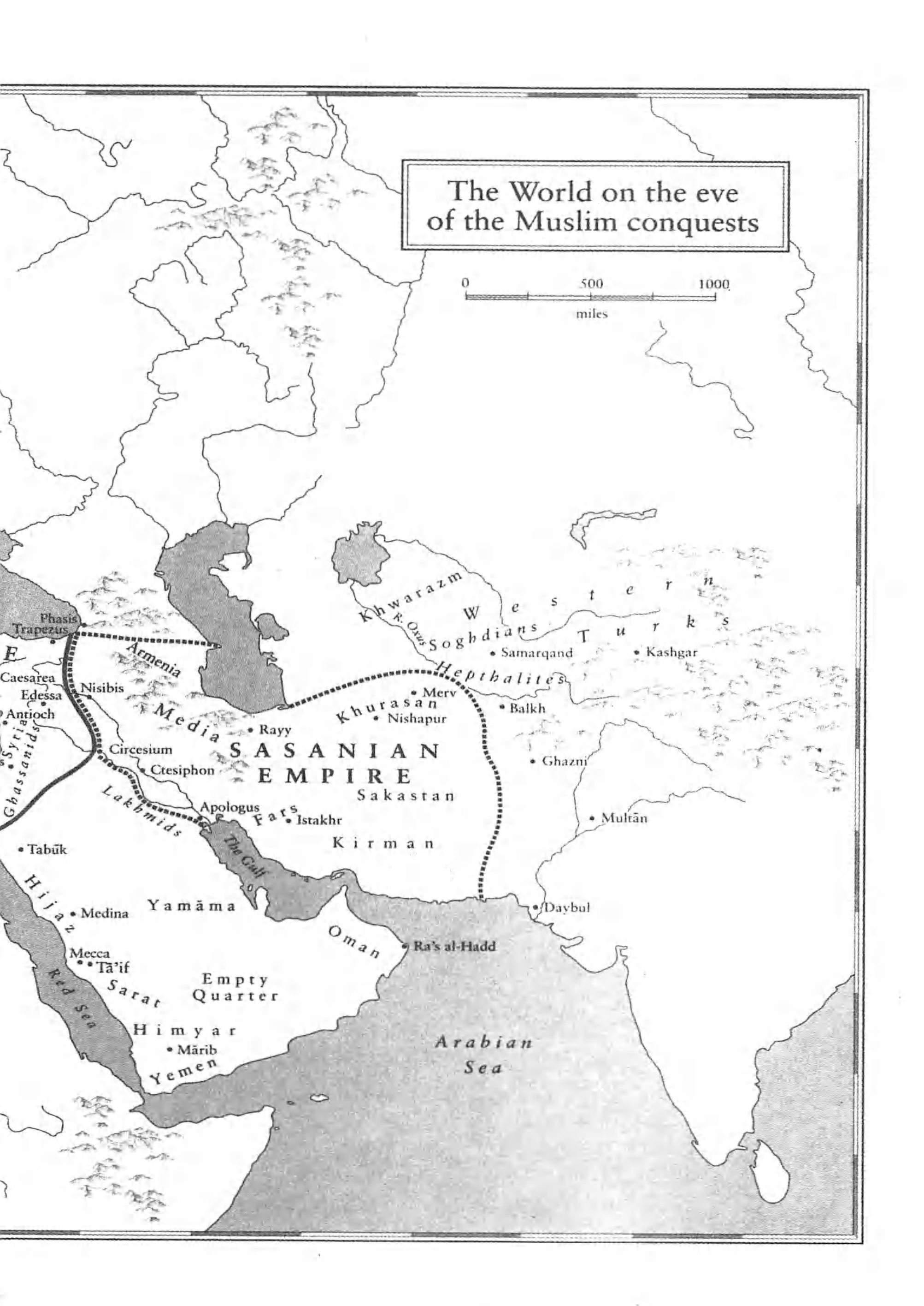


٣٢ - معركة القادسية - كتاب تصوير فارسى من القرن الخامس عشر .



٣٣ - أسطورة الصليب الحقيقى، رسمها بييرو ديللا فرانسيسكا (١٤١٥-١٤٩٢م) تقريباً .

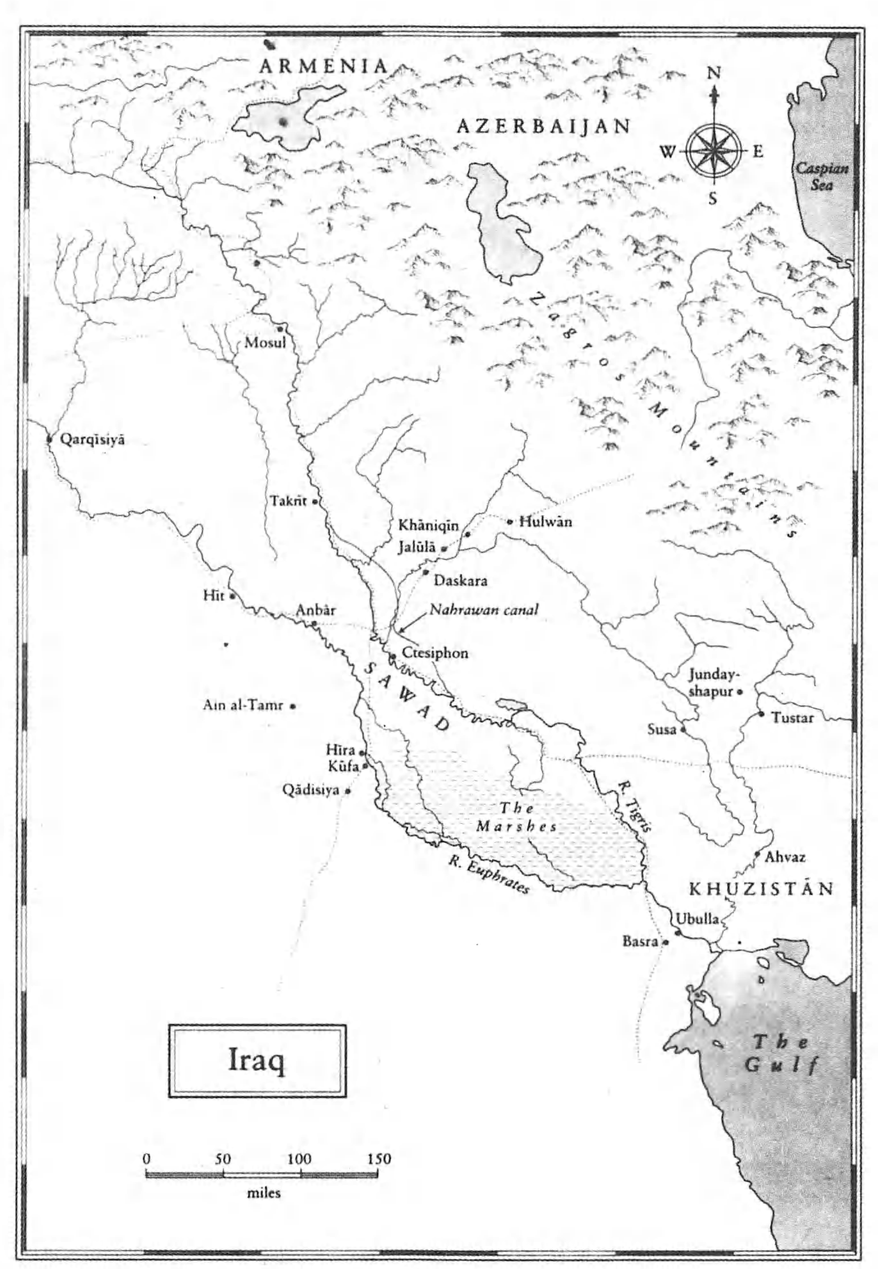
ملحق الخرائط


The World on the eve of the Muslim conquests
0
500
1000
miles
Khwarazm
R. Oxus
Western Turks
Soghdians
Samarqand
Kashgar
Hepthalites
Merv
Balkh
Khurasan
Nishapur
Ghazni
Phasis
Trapezus
Armenia
Caesarea
Edessa
Nisibis
Antioch
Media
Rayy
Syria
Ghassanids
Circesium
Ctesiphon
SASANIAN EMPIRE
Sakastan
Lakhmids
Apologus
Fars
Istakhr
Multān
Kirman
Tabūk
The Gulf
Hijaz
Medina
Yamāma
Daybul
Oman
Ra's al-Hadd
Mecca
Tā'if
Empty Quarter
Red Sea
Sarat
Himyar
Mārib
Yemen
Arabian Sea

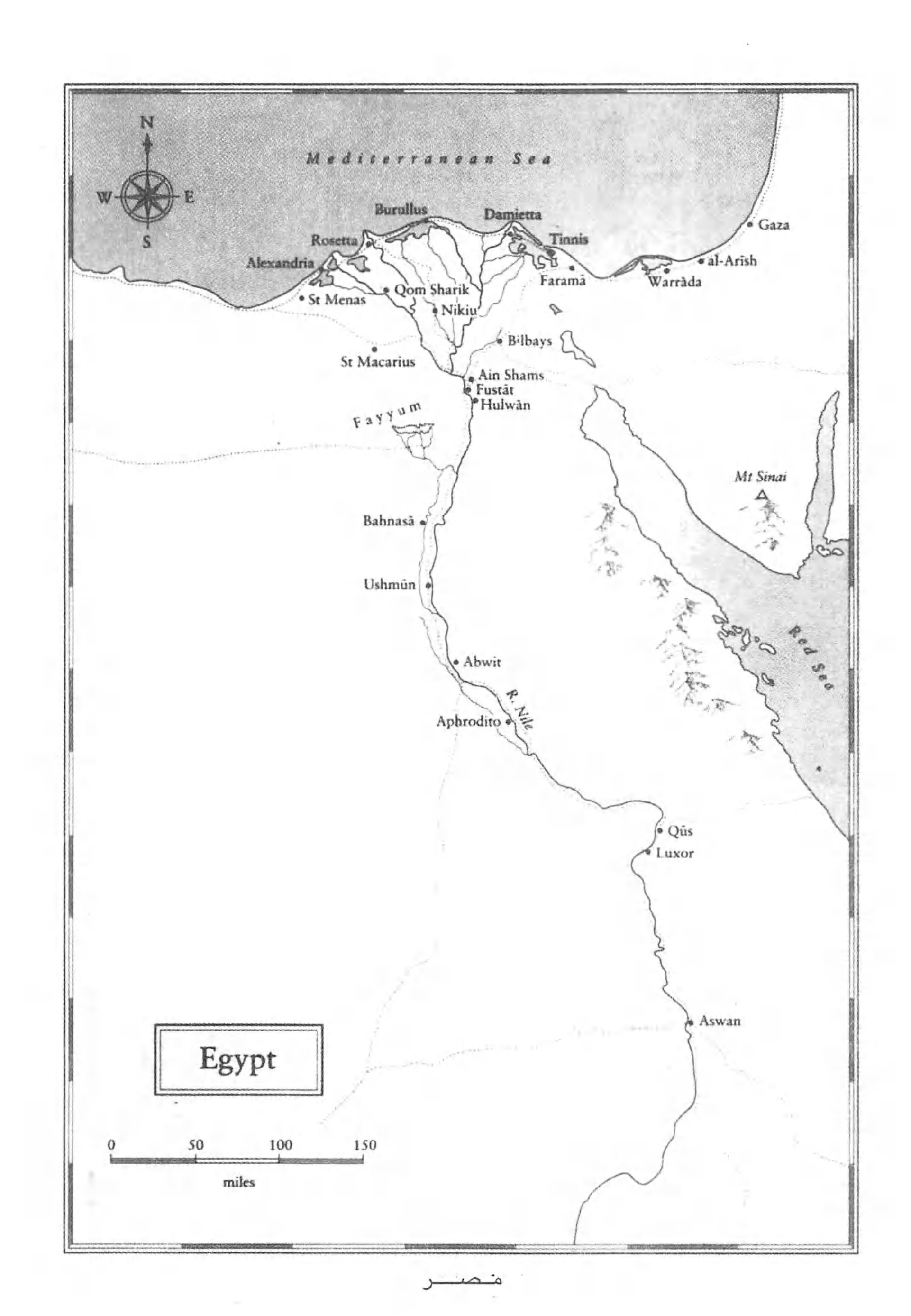

N
W
E
S
Anglo-Saxons
Franks
R. Danube
Avars
Lombards
Ravenna
Massilia
Visigoths
Toledo
Rome
Constantinople
BYZANTI
Anato
Ephesus
Sicily
Carthage
Africa Proconsularis
Byzacena
Tangier
Mauretania
EMPIRE
Tripoli
Barca
Cyrenaica
Alexandria
Babylon
Egypt
Sahara



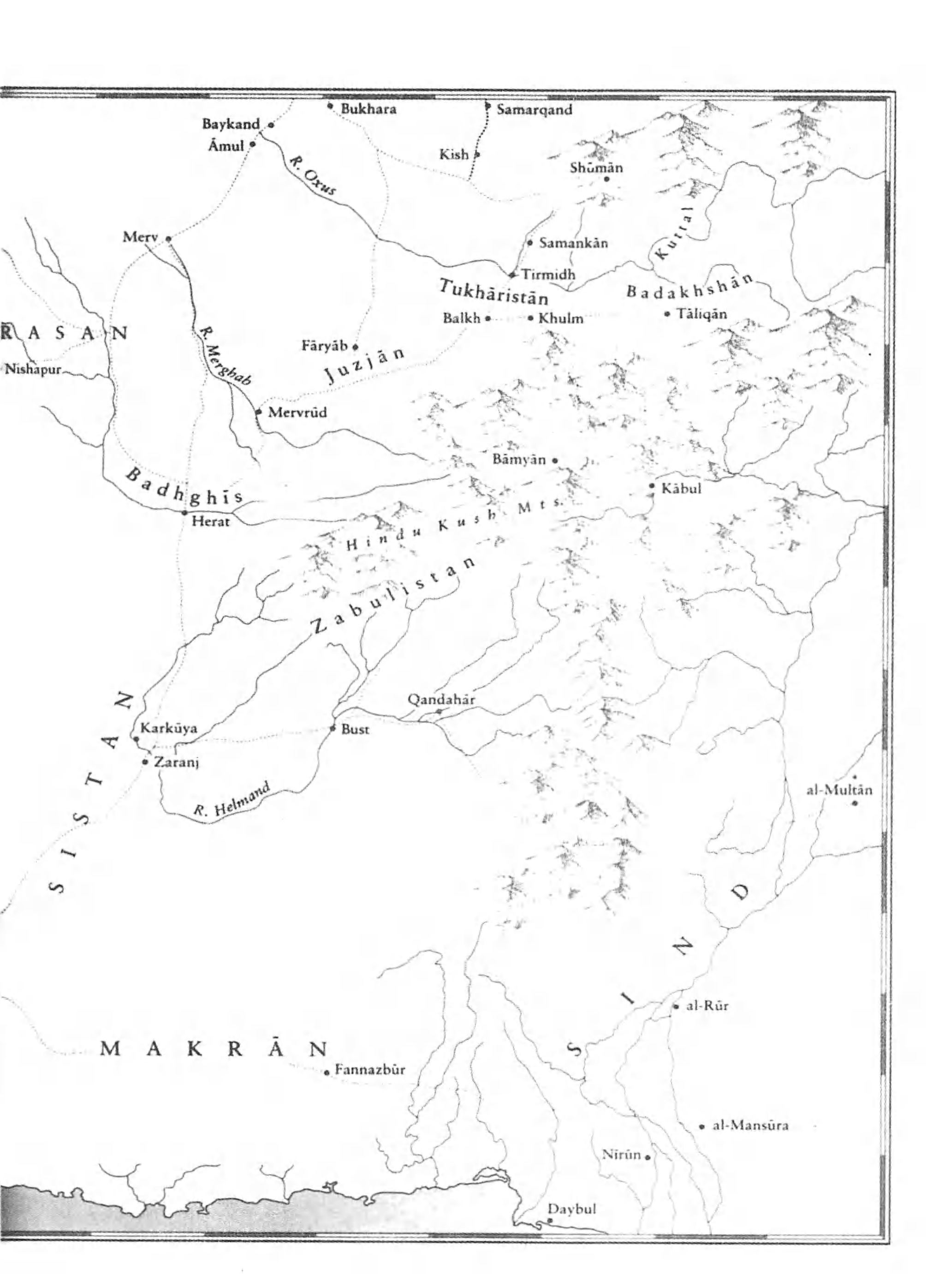
بـــلاد الشـــام وفلســطـين

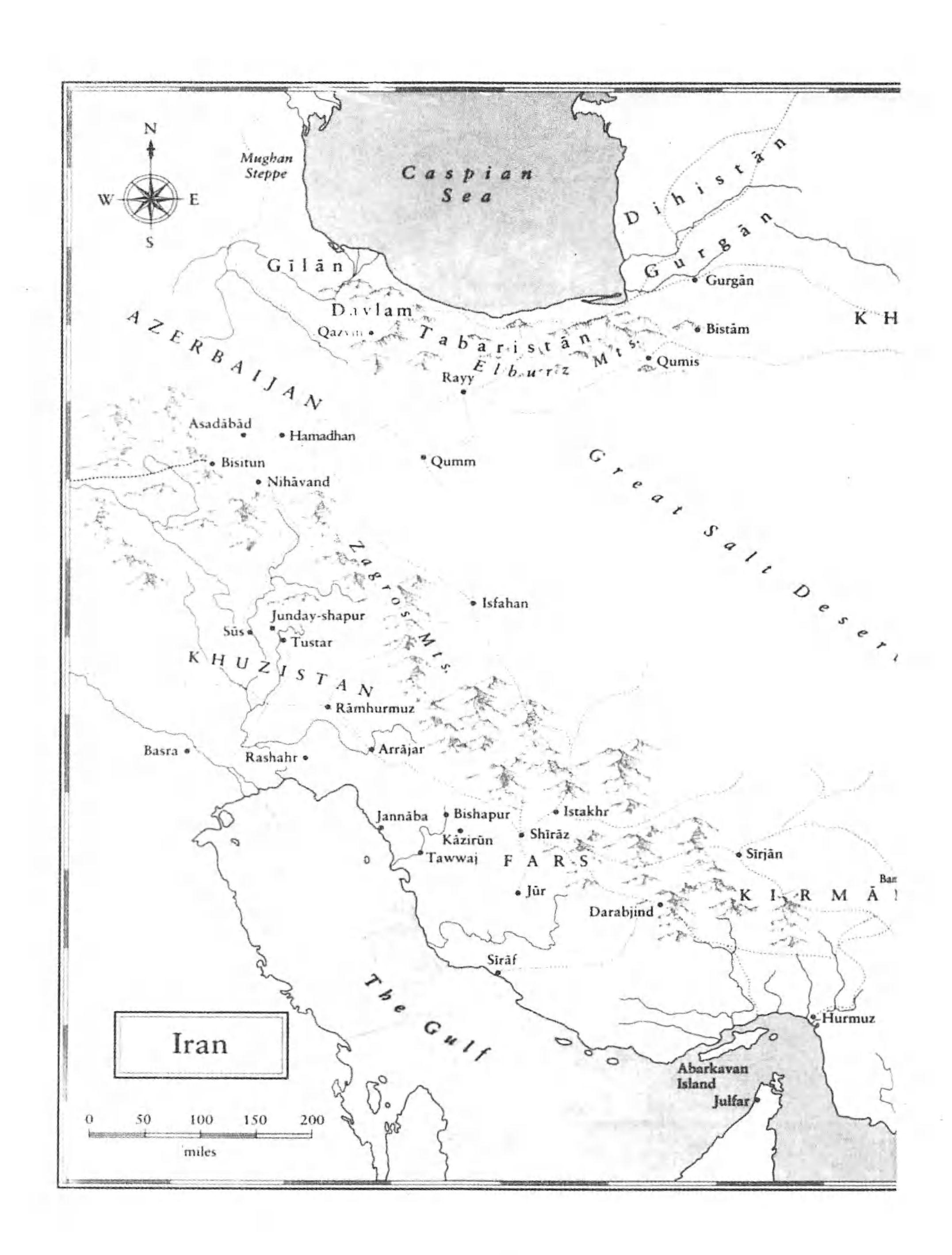

ARMENIA
AZERBAIJAN
N
W
E
S
Caspian Sea
Zagros Mountains
Mosul
Qarqīsiyā
Takrīt
Khāniqīn
Hulwān
Jalūlā
Daskara
Hit
Anbār
Nahrawan canal
Ctesiphon
SAWAD
Junday-shapur
Tustar
Susa
Aın al-Tamr
Hīra
Kūfa
Qādisiya
The Marshes
R. Tigris
R. Euphrates
Ahvaz
KHUZISTĀN
Ubulla
Basra
The Gulf
Iraq
0
50
100
150
miles

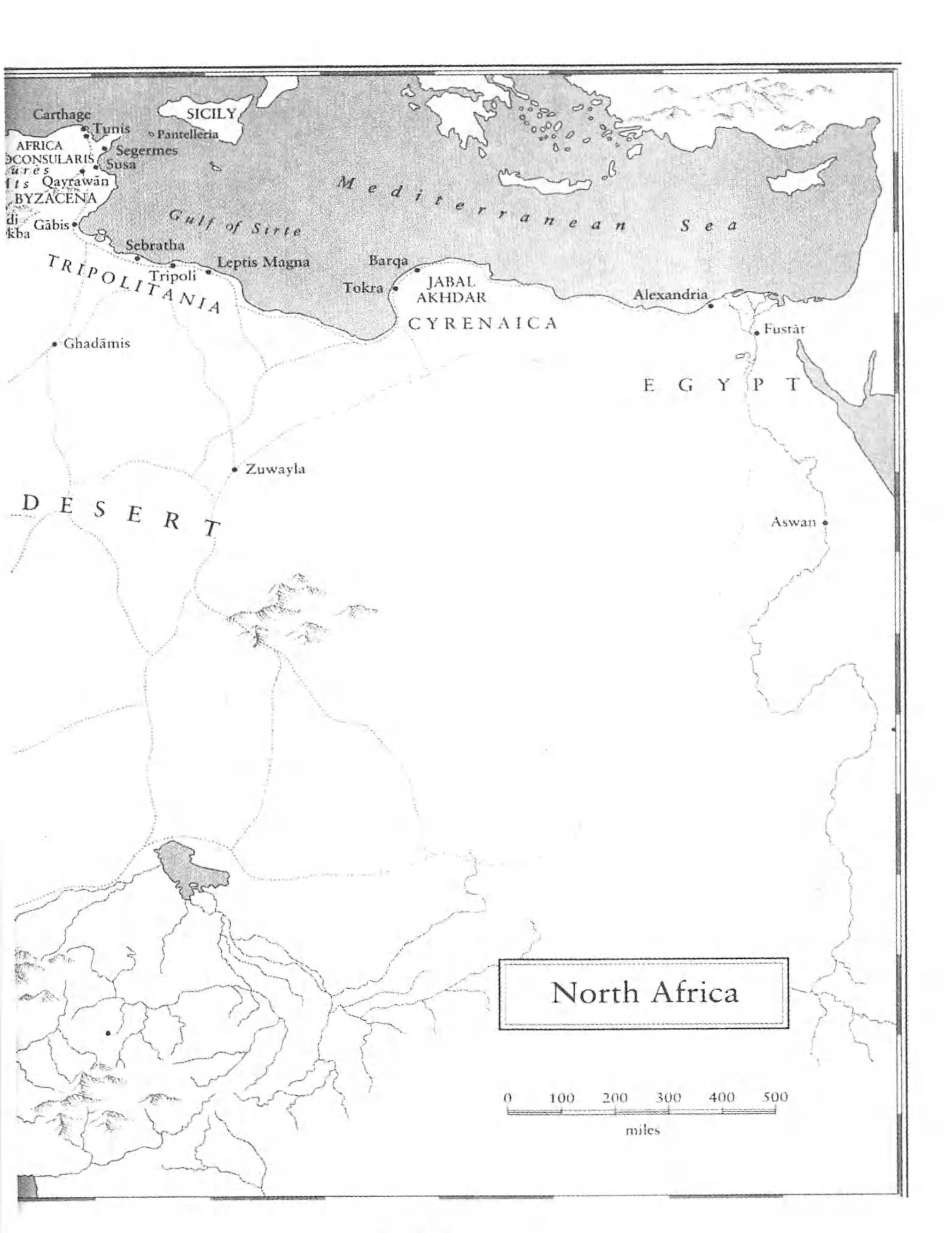
العــراق


N
W
E
S
Mediterranean Sea
Burullus
Damietta
Rosetta
Tinnis
Alexandria
Faramā
Warrāda
al-Arīsh
Gaza
St Menas
Qom Sharik
Nikiu
Bilbays
St Macarius
Ain Shams
Fustāt
Hulwān
Fayyum
Mt Sinai
Bahnasā
Ushmūn
Red Sea
Abwit
R. Nile
Aphrodito
Qūs
Luxor
Aswan
Egypt
0
50
100
150
miles

مصر

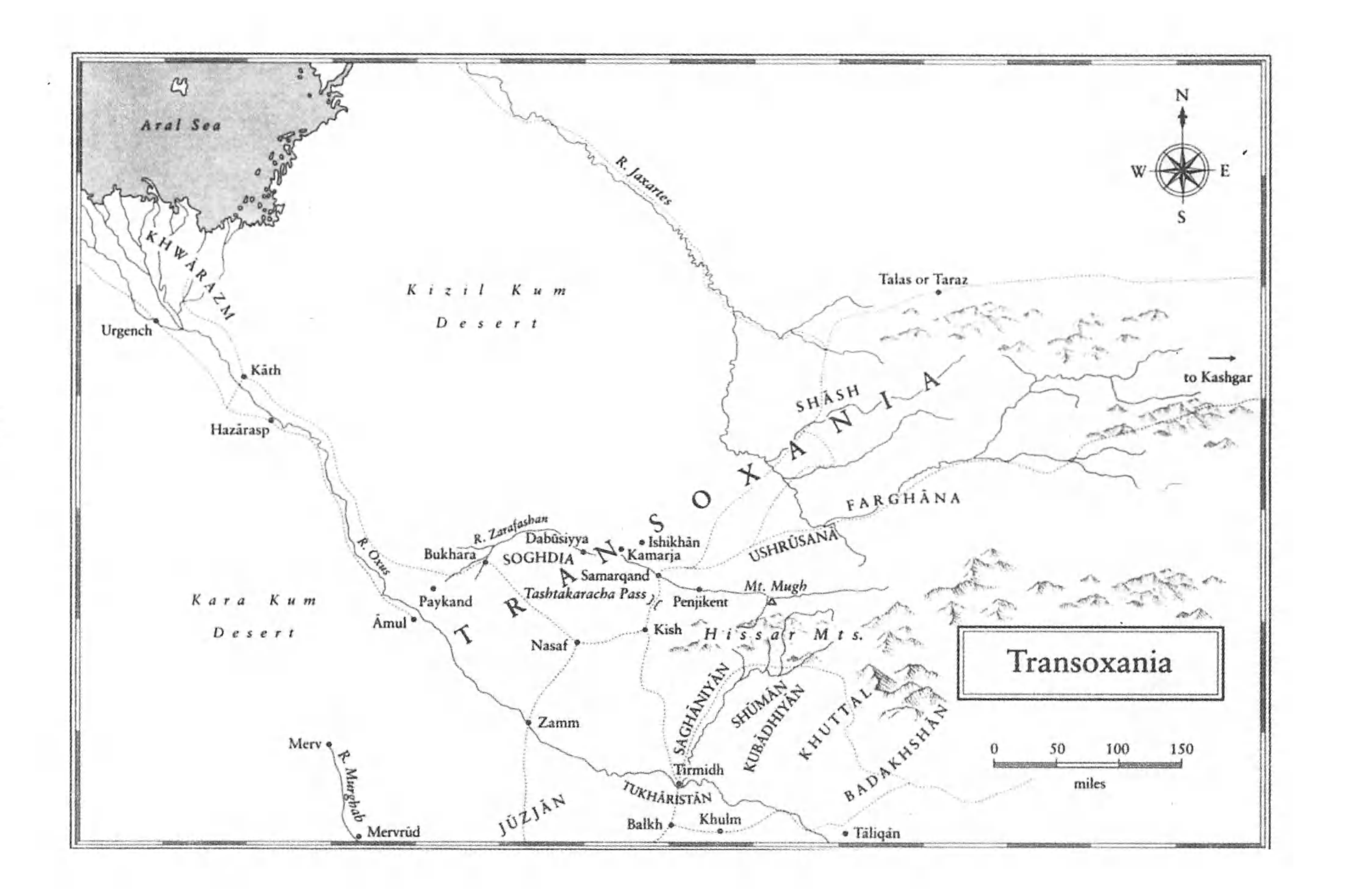

Bukhara
Samarqand
Baykand
Āmul
Kish
R. Oxus
Shūmān
Merv
Samankān
Kuttal
Tirmidh
Tukhāristān
Badakhshān
Balkh
Khulm
Tāliqān
RASAN
Fāryāb
Juzjān
Nishapur
R. Merghab
Mervrūd
Bāmyān
Badhghis
Kābul
Herat
Hindu Kush Mts.
Zabulistan
Qandahār
Karkūya
Bust
Zaranj
SISTAN
R. Helmand
al-Multān
SIND
al-Rūr
MAKRĀN
Fannazbūr
al-Mansūra
Nīrūn
Daybul

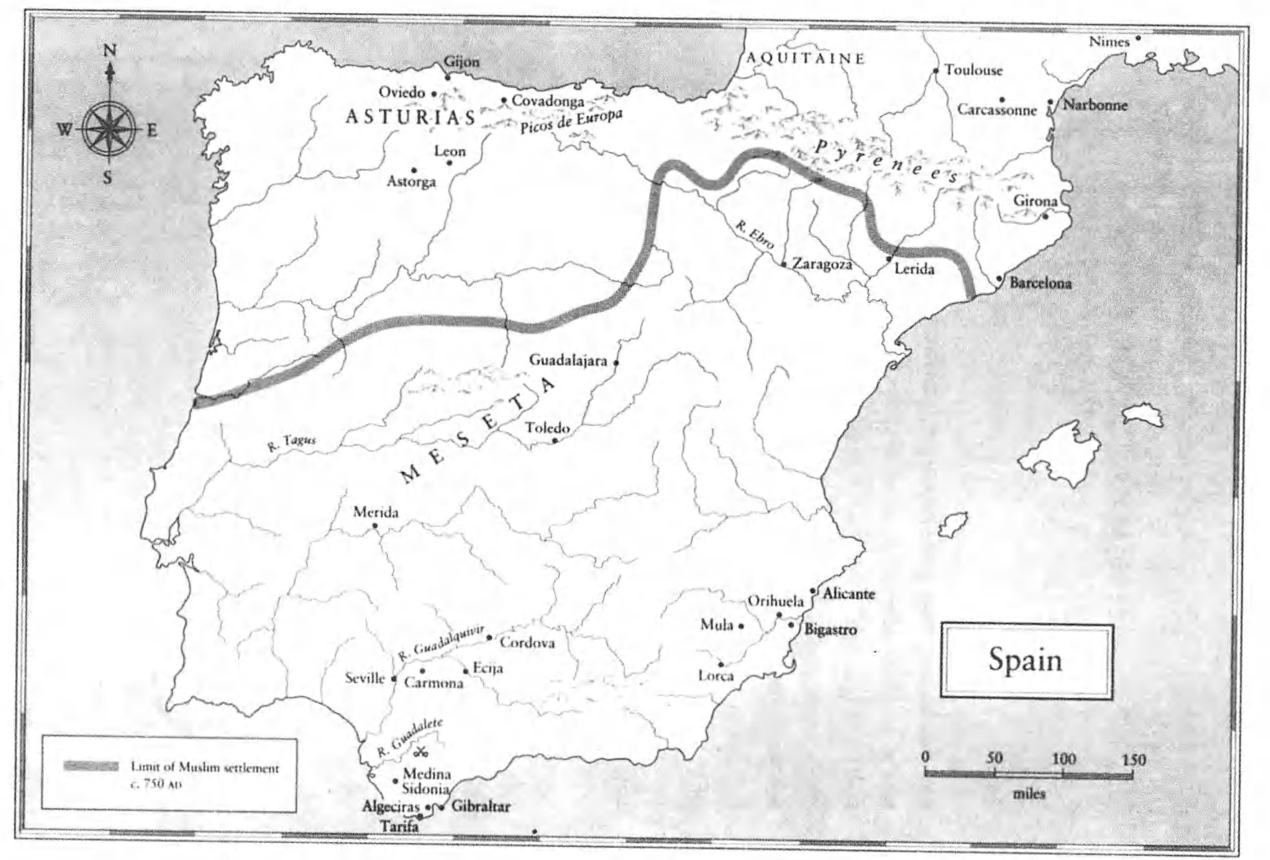

Caspian Sea
Mughan Steppe
N
W
E
S
Gīlān
Daylam
Qazvin
AZERBAIJAN
Tabaristān
Elburz Mts.
Rayy
Dihistān
Gurgān
Gurgān
Bistām
Qumis
KH
Asadābād
Hamadhan
Bisitun
Nihāvand
Qumm
Great Salt Desert
Zagros Mts.
Isfahan
Junday-shapur
Sūs
Tustar
KHUZISTAN
Rāmhurmuz
Arrājar
Basra
Rashahr
Jannāba
Bishapur
Istakhr
Kāzirūn
Shīrāz
Tawwaj
FARS
Sīrjān
Jūr
Darabjind
KIRMĀ
Sīrāf
The Gulf
Hurmuz
Abarkavan Island
Julfar
Iran
0 50 100 150 200
miles



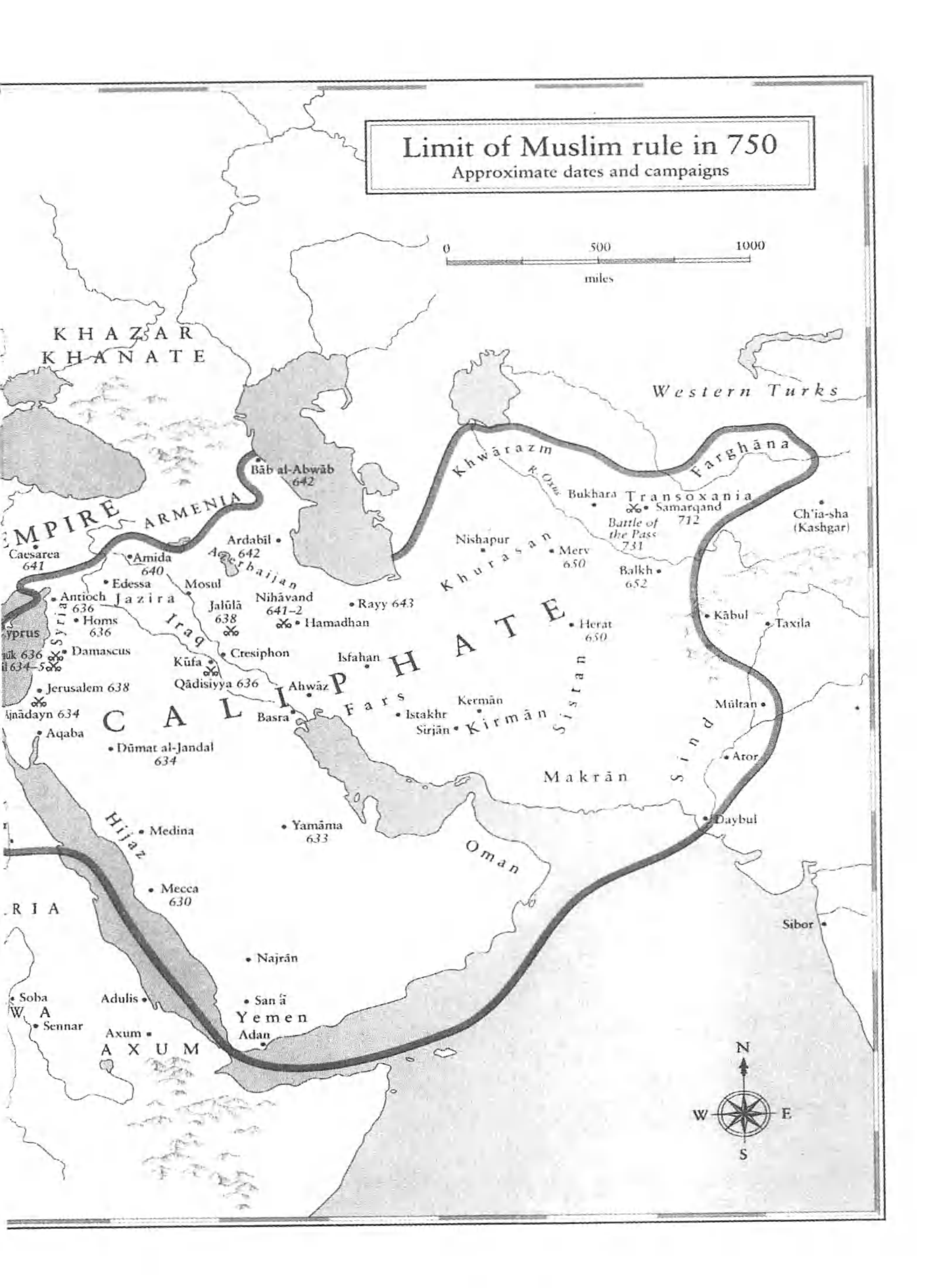
شـــمــال أفـريقيــا


N
W
E
S
Tangier
Ceuta
Volubilis
Tlemcen
Tahert
Aghmāt
Agadir
Wadi Sūs
Atlas Mountains
Wadi Dra
SAHARA


Transoxania
0
50
100
150
miles
N
E
S
W
Aral Sea
KHWĀRAZM
Urgench
Kāth
Hazārasp
R. Jaxartes
Kizil Kum Desert
Kara Kum Desert
Talas or Taraz
to Kashgar
SHĀSH
TRANSOXANIA
FARGHĀNA
USHRŪSANA
R. Zarafashan
Dabūsiyya
Ishikhān
Kamarja
Bukhara
SOGHDIA
Samarqand
Tashtakaracha Pass
Penjikent
Mt. Mugh
R. Oxus
Paykand
Āmul
Kish
Hissar Mts.
Nasaf
SAGHĀNIYĀN
SHŪMĀN
KURĀDHIYĀN
KHUTTAL
BADAKHSHĀN
Zamm
Tirmidh
TUKHĀRISTĀN
Balkh
Khulm
Tāliqān
JŪZJĀN
Merv
R. Murghab
Mervrūd


Spain
0 50 100 150
miles
N
E
S
W
Limit of Muslim settlement c. 750 AD
AQUITAINE
Nimes
Toulouse
Carcassonne
Narbonne
Pyrenees
Girona
Barcelona
Lerida
Zaragoza
R. Ebro
Gijon
Oviedo
Covadonga
Picos de Europa
ASTURIAS
Leon
Astorga
Guadalajara
Toledo
MESETA
R. Tagus
Merida
Alicante
Orihuela
Bigastro
Mula
Lorca
R. Guadalquivir
Cordova
Ecija
Seville
Carmona
R. Guadalete
Medina Sidonia
Algeciras
Gibraltar
Tarifa

إسبانيا



Limit of Muslim rule in 750
Approximate dates and campaigns
0
500
1000
miles
KHAZAR KHANATE
Western Turks
EMPIRE
ARMENIA
Bāb al-Abwāb 642
Khwārazm
Fargāna
R. Oxus
Bukhara
Transoxania
Samarqand 712
Battle of the Pass 731
Ch'ia-sha (Kashgar)
Caesarea 641
Amida 640
Ardabīl
Azerbaijan 642
Nishapur
Merv 650
Khurasan
Balkh 652
Edessa
Mosul
Antioch 636
Jazira
Jalūlā 638
Nihāvand 641–2
Rayy 643
Hamadhan
Homs 636
Syria
Iraq
Kābul
Taxila
Herat 650
Cyprus
Damascus
Kūfa
Ctesiphon
Isfahan
Sistan
Jerusalem 638
Qādisiyya 636
Ahwāz
Ajnādayn 634
Basra
Fars
Istakhr
Kermān
Sirjān
Kirmān
Multān
Aqaba
CALIPHATE
Dūmat al-Jandal 634
Sind
Ator
Makrān
Daybul
Hijaz
Medina
Yamāma 633
Oman
Mecca 630
RIA
Sibor
Najrān
Soba
Adulis
San'ā
Yemen
Sennar
Axum
Adan
AXUM
N
W
E
S


Anglo-Saxons
Bretons
CAROLINGIAN EMPIRE
Poitiers 732
AQUITAINE
Narbonne 719–20
Lombards
AVAR KHANATE
Constantinople
BYZANTINE
AL-ANDALUS
Toledo
Cordova
Sardinia
Sicily
Pantelleria
Carthage 698
Qayrawān 670
Tangier 708
Subaytila 647
MUSLIM
Crete
Ghazwat al-Sawārī
Battle of the Masts 655
Tripoli 647
Barqa 644
Alexandria 641
Ghadāmis
Babylon al-Fustāt 641
Egypt
Fazzan
Tibesti
Dongola
Air
Bornu-Kanem
Darfur

المراجـع

HISTORICAL AND GEOGRAPHICAL SOURCES IN ENGLISH TRANSLATION

Muslim Sources

Alī b. Hāmid al-Kūfī, *Chāchnamah: An Ancient History of Sind*, trans. M. K. Fredunbeg (Lahore, 1995).

Al-Bakrī, *Description de l'Afrique septentrionale*, trans. Baron William Mac Guckin de Slane (Paris, 1859).

Al-Balādhurī, *The Origins of the Islamic State*, trans. P. Hitti and F. Murgotten, 2 vols. (New York, 1916–24).

Ibn Fadlan's Journey to Russia: A tenth-century traveler from Baghdad to the Volga River, trans. R. Frye (Princeton, NJ, 2005).

Firdawsi, *Shahnāmah*, trans. D. Davis, vol. i: *The Lion and the Throne*; vol. ii: *Fathers and Sons*; vol. iii: *Sunset of Empire* (Washington, DC, 1998–2004).

Ibn Ishāq, *The Life of Muhammad*, trans. A. Guillaume (Karachi, 1955, repr. 1967).

Al-Muqaddasī, *Ahsan al-Taqāsim*: *The Best Divisions for Knowledge of the Regions*, trans. B. Collins (Reading, 2001).

Narshakhī, Muhammad b. Ja'far, *History of Bukhara*, trans. R. Frye (Cambridge, MA, 1954).

Al-Tabarī, *Ta'rīkh: The History of al-Tabarī*, ed. Y. Yarshater, 39 vols. (Albany, NJ, 1985–98).

Christian Sources

Anon., *The Chronicle of 754* in *Conquerors and Chroniclers of Early Medieval Spain*, trans. K. B. Wolf (Liverpool, 1990).

Anon., *The Chronicle of Zuqnin Parts III and IV A.D. 488–775*, trans. A. Harrak (Toronto, 1999).

Fredegar, *The Fourth Book of the Chronicle of Fredegar with its Continuations*, trans. J. M. Wallace-Hadrill (London, 1960).

John of Nikiu, *The Chronicle of John (c. 690 AD) Coptic Bishop of Nikiu*, trans. R. H. Charles (London, 1916).

Maurice's Strategikon: Handbook of Byzantine military strategy, trans. G. T. Dennis (Philadelphia, PA, 1984).

Movses of Dasxuranci, *The History of the Caucasian Albanians*, trans. C. J. F. Dowsett (Oxford, 1961).

Nikephorus, Patriarch of Constantinople, *Short History*, trans. C. Mango (Washington, DC, 1990).

Sawīrus b. al-Muqaffa, 'Life of Benjamin I the thirty-eighth Patriarch AD 622–61', in *History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria*, trans B. Evetts (*Patrologia Orientalis* I.4, 1905), pp. 487–518.

Sebeos, *The Armenian History*, trans. R. W. Thomson, with notes by J. Howard-Johnston and T. Greenwood, 2 vols. (Liverpool, 1999).

Theophanes, *The Chronicle of Theophanes the Confessor: Byzantine and Near Eastern History AD 284–813*, trans. C. Mango and R. Scott (Oxford, 1997).

Various, *The Seventh Century in Western-Syrian Chronicles*, trans. A. Palmer (Liverpool, 1993).

OTHER PRIMARY SOURCES

Ibn Abd al-Hakam, Abū'l-Qāsim 'Abd al-Rahmān b. 'Abd Allāh, *Futūh Misr*, ed. C. C. Torrey (New Haven, CT, 1921).

Anon., 'Doctrina Jacobi Nuper Baptizati', ed. with French trans. V. Déroche in *Travaux et Mémoires* (Collège de France, Centre de recherche d'histoire et civilisation de Byzance) 11 (1991): 47–273.

Ibn A'tham al-Kūfī, *Kitāb al-Futūh*, ed. S. A Bukhari, 7 vols. (Hyderabad, 1974).

Ibn al-Athīr, 'Izz al-Dīn, *Al-Kāmil fi'l-Ta'rīkh*, ed. C. J. Tornberg, 13 vols. (Leiden, 1867, repr. Beirut, 1982).

Al-Bakrī, *Description de l'Afrique septentrionale*, ed. Baron de Slane (Algiers, 1857).

Al-Balādhurī, Ahmad b. Yahyā, *Futūh al-Buldān*, ed. M. J. de Goeje (Leiden, 1866, repr. Leiden, 1968).

Al-Balādhurī, Ahmad b. Yahyā, *Ansāb al-Ashrāf*, vol. XI, ed. W. Ahlwardt (Greifswald, 1883).

Al-Dīnawarī, Abū Hanīfa Ahmad b. Dāwūd, *Al-Akhbār al-Tiwāl*, ed. V. Guirgass and I. I. Krachkovskii (Leiden, 1912).

Ibn Hawqal, Abū'l-Qāsim, *Kitāb Sūrat al-Ard*, ed. J. H. Kramers (Leiden, 1939).

Isfahānī, Abu Nu'aym, *Geschicte Isfahans*, ed. S. Dedering (Leiden, 1931).

Al-Istakhrī, Abū Ishāq Ibrāhīm b. Muhammad, *Kitāb Masālik wa'l-Mamālik*, ed. M. J. de Goeje (Leiden, 1927).

Ibn Khayyāṭ Khalīfa, *Ta'rīkh*, ed. Akram Diyā' al-'Umarī (Beirut, 1977).
Al-Kindī, Muhammad b. Yūsuf, *Kitāb al-Wulāt*, ed. R. Guest (London, 1912).
Al-Kindī, Ya'qūb b. Ishāq, *Al-Suyūf wa Ajnāsiba*, ed. Abd al-Rahman Zaki, *Bulletin of the Faculty of Arts*, Cairo, vol. 14 (1952), Arabic section, pp. 1–36.
Al-Mas'ūdī, 'Alī b. al-Husayn, *Murūj al-Dhahab*, ed. C. Pellat, 7 vols. (Beirut, 1966–79).
Michael the Syrian, *Chronicle*, ed. with French trans. J.-B. Chabot, 4 vols. (Paris, 1899–1924).
Al-Nadīm, Muhammad b. Ishāq, *Fihrist*, ed. G. Flügel (Leipzig, 1871–2). Note that in this book, page references are to *The Fihrist of al-Nadīm*, trans. B. Dodge, 2 vols. (New York, 1970).
Narshakhī, Muhammad b. Ja'far, *Ta'rīkhi Bukhārā*, ed. Muhammad b. Zafar b. Umar (Tehran, 1972).
Qudāma b. Ja'far, *Al-Kharāj wa Sinā'at al-Kitāba*, ed. Muhammad Husayn al-Zubaydī (Baghdad, 1981).
Sa'īd ibn Batrīq, *Das Annalenwerk des Eutychios von Alexandrien*, ed. M. Breydy, in *Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium*, vol. 471: *Scriptores Arabici*, t. 44 (Leuven, 1985).
Al-Tabarī, Muhammad b. Jarīr, *Ta'rīkh al-Rusul wa'l-Mulūk*, ed. M. J. de Goeje et al., 3 vols. (Leiden, 1879–1901)
Al-Ya'qūbī, Ahmad b. Abī Ya'qūb, *Kitāb al-Buldān*, ed. M. J. de Goeje (Leiden, 1892).
Al-Ya'qūbī, Ahmad b. Abī Ya'qūb, *Ta'rīkh*, ed. M. Houtsma, 2 vols. (Leiden, 1883).
Yāqūt, Ya'qūb b. 'Abd Allāh, *Mu'jam al-Buldān*, ed. F. Wüstenfeld (Leipzig, 1886).

SECONDARY READING

Adams, R. McC., *The Land behind Baghdad: A history of settlement on the Diyala Plain* (Chicago, IL, 1965).
Alexander, P. J., *The Byzantine Apocalyptic Tradition* (Berkeley, CA, 1985).
Bachrach, B., *Early Carolingian Warfare: Prelude to empire* (Philadelphia, PA, 2001).
Bagnall, R., *Egypt in Late Antiquity* (Princeton, NJ, 1993).
Bailey, H. W., *Zoroastrian Problems in the Ninth-century Books* (Oxford, 1943).
Barthold, V., *Turkestan Down to the Mongol Invasions*, trans. H. Gibb (London, 1928, rev. edn, Gibb Memorial Series, n.s. V, London, 1968).

Bashear, S., 'The mission of Diḥyā al-Kalbī', *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* 14 (1991): 64–91, reprinted in *idem*, *Studies in Early Islamic Tradition* (Jerusalem, 2004), VIII.

Bass, G. F. and F. H. Van Doorninck, *Yassi Ada*, vol. 1: *A Seventh-century Byzantine Shipwreck* (College Station, TX, 1982).

Behbehani, H., 'Arab–Chinese military encounters: two case studies 715–751 AD', *Aram* 1 (1989): 65–112.

Behrens-Abouseif, D., 'Topographie d'Alexandrie médiévale', in *Alexandrie médiévale* 2, ed. C. Décobert (Cairo, 2002), pp. 113–26.

Beihammer, A., 'Zypern und die Byzantinisch-Arabische Seepolitik vom 8. bis zum Beginn des 10. Jahrhunderts', in *Aspects of Arab Seafaring*, ed. Y.Y. al-Hijji and V. Christides (Athens, 2002), pp. 41–61.

Bloom, J., *Paper before Print: The History and Impact of Paper in the Islamic World* (New Haven, CT, 2001).

Borrut, A., 'Architecture des espaces portuaires et réseaux défensifs du littoral syro-palestinien dans les sources arabes (7–11 siècle)', *Archéologie Islamique* 11 (2001): 21–46.

Bosworth, C. E., *Sistan under the Arabs from the Islamic Conquest to the Rise of the Saffarids (30–250/651–864)* (Rome, 1968).

—— 'Ubaidallah b. Abi Bakra and the "Army of Destruction" in Zabulistan (79/698)', *Der Islam* 1 (1973): 268–83.

—— 'The city of Tarsus and the Arab–Byzantine frontiers in early and middle Abbasid Times', *Oriens* 33 (1992): 268–86.

—— *The New Islamic Dynasties* (Edinburgh, 1996).

Bowersock, G. W., P. Brown and O. Grabar (eds.), *Interpreting Late Antiquity: Essays on the Postclassical World* (Cambridge, MA, 2001).

Brett, M. and E. Fentress, *The Berbers* (Oxford, 1996).

Brock, S., 'Syriac views of emergent Islam', in *Studies on the First Century of Islamic Society*, ed. G. H. A. Juynboll (Carbondale, 1982), pp. 9–21, 199–203, reprinted in *idem*, *Syriac Perspectives on Late Antiquity* (London, 1984).

—— 'North Mesopotamia in the late seventh century: Book XV of John Bar Penkaye's *Rīš Mellē*', *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* 9 (1987): 51–75.

Brunschvig, R., 'Ibn 'Abdal-hakam et la conquète de l'Afrique du Nord par les Arabes: étude critique', *Annales de l'Institut des Etudes Orientales* 6 (1942–47): 108–55.

Bulliet, R., *The Camel and the Wheel* (Cambridge, MA, 1975).

—— *Conversion to Islam in the Medieval Period. An Essay in Quantitative History* (Cambridge, MA, 1979).

—— *Islam: The View from the Edge* (New York, 1994).

Busse, H., ''Omar b. al-Khattāb in Jerusalem', *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* 5 (1984): 73–119.

—— ''Omar's image as the conqueror of Jerusalem', *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* 8 (1986): 149–68.

Butler, A. J., *The Arab Conquest of Egypt*, 2nd edn, ed. P. M. Fraser (Oxford, 1978).

Caetani, L., *Annali dell'Islam*, 10 vols. (Milan, 1905–26).

Cambridge History of Early Inner Asia, ed. D. Sinor (Cambridge, 1990).

Cambridge History of Egypt, vol. i: *Islamic Egypt, 640–1571*, ed. C. Petry (Cambridge, 1998).

Cambridge History of Iran, vol. iii: *The Seleucid, Parthian and Sasanian Periods*, ed. E. Yarshater (Cambridge, 1983), vol. iv: *The Period from the Arab invasion to the Saljuqs*, ed. R. Frye (Cambridge, 1975).

Cameron, A., 'Byzantine Africa – the literary evidence', in *Excavations at Carthage 1975–1978*, vol. vii, ed. J. H. Humphrey (Ann Arbor, MI, 1977–78), pp. 29–62, reprinted in *eadem*, *Changing Cultures in Early Byzantium* (Aldershot, 1996), VII.

—— 'Cyprus at the time of the Arab conquests', *Cyprus Historical Review* 1 (1992): 27–49, reprinted in *eadem*, *Changing Cultures in Early Byzantium* (Aldershot, 1996), VI.

Chevedden, P. E., 'The hybrid trebuchet: the halfway step to the counterweight trebuchet,' in *On the Social Origins of Medieval Institutions. Essays in Honor of Joseph F. O'Callaghan*, ed. D. Kagay and T. Vann (Leiden, 1998), pp. 179–222.

Christensen, A., *L'Iran sous les Sassanides* (rev. 2nd edn, Copenhagen, 1944).

Christides, V., *Byzantine Libya and the March of the Arabs towards the West of North Africa*, British Archaeological Reports, International Series 851 (Oxford, 2000).

—— 'Arab–Byzantine struggle in the sea: naval tactics (7th–11th C AD): theory and practice', in *Aspects of Arab Seafaring*, ed. Y.Y. al-Hijji and V. Christides (Athens, 2002), pp. 87–101.

Cole, D. P., *Nomads of the Nomads: the Āl Murrah Bedouin of the Empty Quarter* (Arlington Heights, 1975).

Collins, R., *The Arab Conquest of Spain: 710–797* (Oxford, 1989).

—— *Visigothic Spain, 409–711* (Oxford, 2004).

Cook, M., *Muhammad* (Oxford, 1983).

Conrad, L. I., 'The conquest of Arwād: a source-critical study in the historiography of the early medieval Near East', in *The Byzantine and Early*

Islamic Near East, I: Problems in the literary source material, ed. A. Cameron and L. I. Conrad (Papers of the First Workshop on Late Antiquity and Early Islam) (Princeton, NJ, 1992), pp. 317–401.
—— 'The Arabs', in *Cambridge Ancient History*, vol. xiv: *Late Antiquity: Empire and Successors, AD 425–600*, ed. A. Cameron, B. Ward-Perkins and M. Whitby (Cambridge, 2000), pp. 678–700.
Constable, O. R., *Medieval Iberia: Readings in Christian, Muslim and Jewish Sources* (Philadelphia, PA, 1997).
Crone, P., *Slaves on Horses. The Evolution of the Islamic Polity* (Cambridge, 1980).
—— *Meccan Trade and the Rise of Islam* (Oxford, 1987).
—— 'How did the quranic pagans make a living?', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 63 (2005): 387–99.
Crone, P. and M. A. Cook, *Hagarism: The Making of the Islamic World* (Cambridge, 1977).
Crone, P. and G. M. Hinds, *God's Caliph: Religious Authority in the First Centuries of Islam* (Cambridge, 1986).
De Goeje, M. J., *Mémoire des migrations des Tsiganes à travers l'Asie* (Leiden, 1903).
De la Vaissière, E., *Sogdian Traders: A History* (Leiden, 2005).
Dennett, D., *Conversion and Poll-tax in Early Islam* (Cambridge, MA, 1950).
Djaït, H., *Al-Kūfa: naissance de la ville islamique* (Paris, 1986).
Donner, F. M., *The Early Islamic Conquests* (Princeton, NJ, 1981).
—— *Narratives of Islamic Origins: The Beginnings of Islamic Historical Writing* (Princeton, NJ, 1998).
Donner, H., *The Mosaic Map of Madaba: An introductory guide* (Kampen, 1992).
Dunlop, D. M., 'A new source of information on the Battle of Talas or Atlakh', *Ural-Altaische Jahrbücher* 36 (1964): 326–30.
Eickhoff, E., *Seekrieg und Seepolitik zwischen Islam und Abendland: das Mittelmeer unter byzantinischer und arabischer Hegemonies (650–1040)* (Berlin, 1966).
El Cheikh, N. M., *Byzantium Viewed by the Arabs* (Cambridge, MA, 2004).
Esin, E., 'Tabarī's report on the warfare with the Türgis and the testimony of eighth-century Central Asian Art', *Central Asiatic Journal* 17 (1973): 130–49.
Fahmy, A. M., *Muslim Naval Organisation in the Eastern Mediterranean from the Seventh to the Tenth Century AD* (2nd edn, Cairo, 1966).
Fentress, J. and C. J. Wickham, *Social Memory* (Oxford, 1992).
Fiey, J. M., 'The last Byzantine campaign into Persia and its influence on the attitude of the local populations towards the Muslim conquerors 7–16

H/628–36 AD', in *Proceedings of the second symposium on the history of Bilad al-Sham during the early Islamic period up to 40 AH/640 AD*, ed A. Bakhit (Amman, 1987), pp. 96–103.

Firestone, R., *Jihād: The Origin of Holy War in Islam* (Oxford, 1999).

Foss, C. 'The Persians in Asia Minor and the End of Antiquity', *English Historical Review* 90 (1975): 721–47, reprinted in *idem, History and Archaeology of Byzantine Asia Minor* (Aldershot, 1990), I.

—— 'The Near Eastern countryside in Late Antiquity: a review article', in *The Roman and Byzantine Near East: Some recent archaeological research*, vol I: *Journal of Roman Archaeology, Supplementary Series* 14 (1995): 213–34.

—— 'Syria in transition, AD 550–750: an archaeological approach', *Dumbarton Oaks Papers* 51 (1997): 189–270.

Fouracre, P., *The Age of Charles Martel* (London, 2000).

Fowden, E. K., *The Barbarian Plain: Saint Sergius between Rome and Iran* (Berkeley, CA, 1999).

Fowden, G., *Empire to Commonwealth: Consequences of Monotheism in Late Antiquity* (Princeton, NJ, 1993).

Fraser, A., *The Gypsies* (2nd edn, Oxford, 1992).

Fraser, J., *The Golden Bough* (New York, 1922).

Gabrieli, F., 'Muhammad ibn Qāsim ath-Thaqafī and the Arab conquest of Sind', *East and West* 15 (1964–65): 281–95.

Gayraud, R.-P., 'Fostat: évolution d'une capitale arabe du VII au XII siècle d'après les fouilles d'Istabl ʿAntar', in *Colloque international d'archéologie islamique*, ed. R.-P. Gayraud (Cairo, 1998), pp. 436–60.

Gerö, S., 'Only a change of masters? The Christians of Iran and the Muslim conquest', in *Transition Periods in Iranian History. Actes du Symposium de Fribourg-en-Brisgau (22–24 mai 1985), Cahiers de Studia Iranica* 5 (1987): 43–8.

Gibb, H. A. R., *The Arab Conquests in Central Asia* (London, 1923).

Gibbon, E., *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. D. Womersley, 3 vols. (Harmondsworth, 1994).

Goldziher, I., *Muslim Studies*, ed. and trans. C. R. Barber and S. M. Stern, 2 vols., (London, 1967, 1971).

Grenet, F. and C. Rapin, 'De la Samarkand antique à la Samarkand islamique: continuities et ruptures', in *Colloque international d'archéologie islamique*, ed. R.-P. Gayraud (Cairo, 1998), pp. 436–60.

Grenet, F. and E. de la Vaissière, 'The last days of Penjikent', *Silk Road Art and Archaeology* 8 (2002): 155–96.

Haldon, J., *Byzantium in the Seventh Century* (Cambridge, 1990).

Haldon, J. and M. Byrne, 'A possible solution to the problem of Greek fire', *Byzantinische Zeitschrift* 70 (1977): 91–9.
Haldon, J. F. and H. Kennedy, 'The Arab–Byzantine frontier in the eighth and ninth centuries: military organisation and society in the borderlands,' *Zbornik radove Vizantoloskog instituta* 19 (1980): 79–116, reprinted in H. Kennedy, *The Byzantine and Early Islamic Near East* (Aldershot, 2006), VIII.
Heck, G. W., 'Gold mining in Arabia and the rise of the Islamic state', *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 42 (1999): 364–95.
Helms, S. W., 'Kandahar of the Arab conquest', *World Archaeology* 14 (1982–83): 342–51.
Hill, D. R., *The Termination of Hostilities in the Early Arab Conquests AD 634–656* (London, 1971).
Hinds, G. M., 'The banners and battle cries of the Arabs at Siffin (657 AD)', *Al-Abhath* 24 (1971): 3–42.
—— 'The first Arab conquests in Fars', *Iran* 22 (1984): 39–53, reprinted in *idem*, *Studies in Early Islamic History*, ed. J. L. Bacharach, L. I. Conrad and P. Crone (Princeton, NJ, 1996).
Hocker, F. M., 'Late Roman, Byzantine and Islamic fleets', in *The Age of the Galley: Mediterranean Oared Vessels since Pre-classical Times*, ed. R. Gardiner (London, 1995), pp. 86–100.
Hönigmann, E., *Die Ostgrenze des byzantinischen Reiches: von 363 bis 1071 nach griechischen, arabischen, syrischen und armenischen Quellen* (Brussels, 1935).
Hoyland, R., *Seeing Islam as Others Saw It: A Survey and Evaluation of Christian, Jewish and Zoroastrian Writings on Early Islam* (Princeton, NJ, 1997).
—— *Arabia and the Arabs: from the Bronze Age to the Coming of Islam* (London, 2001).
Hoyland, R. and B. Gilmour, *Medieval Islamic Swords and Swordmaking: Kindi's treatise 'On swords and their kinds'* (London, 2006).
Johns, J., 'Archaeology and the history of early Islam: the first seventy years', *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 46 (2003): 411–36.
Jones, A., *Early Arabic Poetry*, 2 vols. (Oxford, 1992).
Kaegi, W. E., 'Initial Byzantine reactions to the Arab conquest', *Church History* 38 (1969): 139–49.
—— *Byzantium and the Early Islamic Conquests* (Cambridge, 1992).
—— 'Egypt on the eve of the Muslim conquest', in *Cambridge History of Egypt*, vol. i: *Islamic Egypt, 640–1517*, ed. C. Petry (Cambridge, 1998), pp. 34–61.
—— *Heraclius, Emperor of Byzantium* (Cambridge, 2003).
Keenan, J. G., 'Egypt', in *Cambridge Ancient History*, vol. xiv: *Late Antiquity: Empire and Successors, AD 425–600*, ed. A. Cameron, B. Ward-Perkins and

M. Whitby (Cambridge, 2000), pp. 612–37.
Kennedy, H., 'From Polis to Medina: urban change in late antique and early Islamic Syria', *Past and Present* 106 (1985): 3–27, reprinted in *idem, The Byzantine and Early Islamic Near East* (Aldershot, 2006), I.
—— *Muslim Spain and Portugal: a Political history of al-Andalus* (London, 1996).
—— 'Syria, Palestine and Mesopotamia', in *Cambridge Ancient History*, vol. xiv: *Late Antiquity: Empire and Successors, AD 425–600*, ed. A. Cameron, B. Ward-Perkins and M. Whitby (Cambridge, 2000), pp. 588–611.
—— *The Armies of the Caliphs* (London, 2001).
—— ed., *An Historical Atlas of Islam* (2nd rev. edn, Leiden, 2002).
—— *The Prophet and the Age of the Caliphates* (2nd rev. edn, London, 2004).
—— 'Military pay and the economy of the early Islamic state', *Historical Research* 75 (2002): 155–69, reprinted in *idem, The Byzantine and Early Islamic Near East* (Aldershot, 2006), XI.
—— 'The military revolution and the early Islamic state', in *Noble Ideals and Bloody Realities: Warfare in the Middle Ages*, ed. N. Christie and M. Yazigi (Leiden, 2006), pp. 197–208.
Khalidi, T., *Arabic Historical Thought in the Classical Period* (Cambridge, 1994).
Knobloch, E., *The Archaeology and Architecture of Afghanistan* (Stroud, 2002).
Kraemer, C. J., Jr, *Excavations at Nessana*, vol. 3: *Non-Literary Papyri* (Princeton, NJ, 1958).
Krasnowalska, A., 'Rostam Farroxzād's prophecy in Sāh-Nāme and the Zoroastrian apocalyptic tests', *Folia Orientalia* 19 (1978): 173–84.
Kubiak, W., 'The Byzantine attack on Damietta in 853 and the Egyptian navy in the 9th century', *Byzantion* 40 (1971): 45–66.
—— *Al-Fustāt, Its Foundation and Early Urban Development* (Cairo, 1987).
Kulikowski, M., *Late Roman Spain and Its Cities* (Baltimore, MD, 2004).
Lancaster, W., *The Rwala Bedouin Today* (Cambridge, 1981).
Landau-Tasseron, E., 'Sayf ibn Umar in medieval and modern scholarship', *Der Islam* 67 (1990): 1–26.
Le Strange, G., *Palestine under the Moslems: A description of Syria and the Holy Land from AD 650 to 1500* (London, 1890).
—— *Lands of the Eastern Caliphate* (Cambridge, 1905).
Lecker, M., 'The estates of ʿAmr b.al-ʿĀs in Palestine', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 52 (1989): 24–37.
Leone, A. and D. Mattingly, 'Landscapes of change in North Africa', in *Landscapes of change: Rural evolutions in late antiquity and the early Middle Ages*, ed. N. Christie (Aldershot, 2004), pp. 135–62.
Levi-Provençal, E., *Histoire de l'Espagne Musulmane*, vol. I: *La conquête et*

l'émirat hispano-umaiyade (710–912) (Paris, 1950).
—— 'Un récit de la conquête de l'Afrique du Nord', *Arabica* 1 (1954): 17–43.
Lings, M., *Muhammad: His life based on the earliest sources* (rev. edn, London, 1991).
Little, L. (ed.), *Plague and the End of Antiquity: The Pandemic of 541–750* (Cambridge, 2006).
Lyall, C., *The Dīwāns of ᶜAbīd ibn al-Abras, of Asad and ᶜĀmir ibn at-Tufayl, of ᶜĀmir ibn Saᶜsaᶜah* (London, 1913).
Makrypoulias, C., 'Muslim ships through Byzantine eyes', in *Aspects of Arab Seafaring*, ed. Y. Y. al-Hijji and V. Christides (Athens, 2002), pp. 179–90.
Manzano, E., *Conquistadores, Emires y Califes: los Omeyas y la formación de al-Andalus* (Barcelona, 2006).
Matheson, S., *Persia: An Archaeological Guide* (2nd rev. edn, London, 1976).
Mattingly, D., 'The Laguatan: a Libyan tribal confederation in the late Roman Empire', *Libyan Studies* 14 (1983): 96–108.
Mayerson, P., 'The first Muslim attacks on southern Palestine (AD 633–640)', *Transactions of the American Philosophical Association* 95 (1964): 155–99.
Morony, M., *Iraq after the Muslim Conquest* (Princeton, NJ, 1984).
Mottahedeh, R. P. and R. al-Sayyid, 'The idea of the *Jihād* in Islam before the Crusades', in *The Crusades from the Perspective of Byzantium and the Muslim World*, ed. A. E. Laiou and R. P. Mottahedeh (Washington, DC, 2001), pp. 23–29.
Mourad, S., 'On early Islamic historiography: Abū Ismāᶜil al-Azdī and his *Futūh al-Shām*', *Journal of the American Oriental Society* 120 (2000): 577–93.
Nicolle, D., *Armies of the Muslim Conquests* (London, 1993).
—— 'War and society in the eastern Mediterranean', in *War and Society in the Eastern Mediterranean 7th to 15th centuries*, ed. Y. Lev (Leiden, 1997), pp. 9–100.
Noth, A., 'Isfahanī-Nihāwand. Eine quellenkritische Studie zur frühislamischen Historiographie', *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft* 118 (1968): 274–96.
Noth, A. with L. I. Conrad, *The Early Arabic Historical Tradition: A source-critical study*, trans. M. Bonner (Princeton, NJ, 1994).
Olster, D., 'Theodosius Grammaticus and the Arab siege of 674–78', *Byzantinoslavica* 56 (1995): 23–8.
Palmer, A., *Monk and Mason on the Tigris Frontier* (Cambridge, 1990).
Pourshariati, P., 'Local histories of Khurasan and the pattern of Arab settlement', *Studia Iranica* 27 (1998): 41–81.
Pringle, D., *The Defence of Byzantine Africa from Justinian to the Arab Conquest*, British Archaeological Reports, International Series 99 (Oxford,

1981).
Pryor, J. H., 'From Dromon to Galea: Mediterranean bireme galleys AD 500–1300', in *The Age of the Galley: Mediterranean Oared Vessels since Pre-classical Times*, ed. R. Gardiner (London, 1995), pp. 101–16.
Pryor, J. H. and E. M. Jeffreys, *The Age of the Dromon: The Byzantine navy ca. 500–1204* (Leiden, 2006).
Reinink, G. J., 'Ps.-Methodius: a concept of history in response to the rise of Islam', in *The Byzantine and Early Islamic Near East, I. Problems in the Literary Source Material*, ed. A. Cameron and L. I. Conrad (Papers of the First Workshop on Late Antiquity and Early Islam) (Princeton, NJ, 1992), pp. 149–87.
Retsö, J., *The Arabs in Antiquity: Their History from the Assyrians to the Umayyads* (London, 2003).
Ritner, R. E., 'Egypt under Roman rule: the legacy of ancient Egypt', in *Cambridge History of Egypt*, vol. i: *Islamic Egypt, 640–1517*, ed. C. Petry (Cambridge, 1998), pp. 1–33.
Robinson, C. F., *Empire and Elites after the Muslim Conquest: The Transformation of Northern Mesopotamia* (Cambridge, 2000).
—— *Islamic Historiography* (Cambridge, 2003).
—— 'The conquest of Khuzistan: a historiographical reassessment', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 67 (2004): 14–39.
Rodziewicz, M., 'Transformation of ancient Alexandria into a medieval city', in *Colloque international d'archéologie islamique*, ed. R.-P. Gayraud (Cairo, 1998), pp. 368–86.
Rubin, U., *The Eye of the Beholder: The Life of Muhammad as viewed by early Muslims: a textual analysis* (Princeton, NJ, 1995).
Rubin, Z., 'The Sasanian monarchy', in *Cambridge Ancient History*, vol. xiv: *Late Antiquity: Empire and Successors, AD 425–600*, ed. A. Cameron, B. Ward-Perkins and M. Whitby (Cambridge, 2000), pp. 638–61.
Schick, R., *The Christian Communities of Palestine from Byzantine to Islamic Rule: A historical and archaeological study* (Princeton, NJ, 1995).
Shaked, S., *From Zoroastrian Iran to Islam: Studies in religious history and inter-cultural contacts* (Aldershot, 1995).
Shoufani, E., *Al-Riddah and the Muslim Conquest of Arabia* (Toronto, 1973).
Sjöström, I., *Tripolitania in Transition: Late Roman to Islamic Settlement: With a catalogue of sites* (Aldershot, 1993)
Stratos, A. N., 'The naval engagement at Phoenix', in *Charanis studies: essays in honor of Peter Charanis*, ed. A. E. Laiou-Thomadakis (New Brunswick, 1980), pp. 229–47.

Taha, A. D., *The Muslim Conquest and Settlement of North Africa and Spain* (London, 1989).
Talbot Rice, D., 'The Oxford excavations at Hira, 1931', *Antiquity* 6.23 (1932): 276–91.
—— 'The Oxford excavations at Hira', *Ars Islamica* 1 (1934): 51–74.
Von Grunebaum, G. E., 'The nature of Arab unity before Islam', *Arabica* 10 (1963): 5–23.
Walmsley, A., 'Production, exchange and regional trade in the Islamic east Mediterranean: old structures, new system?', in *The Long Eighth Century. Production, Distribution and Demand*, ed. I. L. Hansen and C. J. Wickham (Leiden, 2000), pp. 265–343.
Watt, W. M., *Muhammad at Mecca* (Oxford, 1953).
—— *Muhammad at Medina* (Oxford, 1956).
—— *Muhammad, Prophet and Statesman* (Oxford, 1961).
Wellhausen, J., *The Arab Kingdom and Its Fall*, trans. M. G. Weir (Calcutta, 1927).
Wickham, C. J., *Framing the Early Middle Ages: Europe and the Mediterranean, c. 400–c. 800* (Oxford, 2005).
Wilken, R. L., *The Land Called Holy: Palestine in Christian History and Thought* (New Haven, CT, 1992).
Wilkinson, J., *Jerusalem Pilgrims before the Crusades* (rev. edn, Warminster, 2002).
Wink, A., *Al-Hind: The Making of the Indo-Islamic World*, vol. 1: *Early Medieval India and the Expansion of Islam, 7th–11th Centuries* (Leiden, 1990).
Wood, I., *The Merovingian Kingdoms 450–751* (London, 1994).
Yakubovich, I., 'Mugh I revisited', *Studia Iranica* 31 (2002): 213–53.
Zakeri, M., *Sāsānid Soldiers in Early Muslim Society. The origins of 'Ayyārān and Futuwwa* (Wiesbaden, 1995).

In addition the reader should refer to the two editions of the *Encyclopaedia of Islam*. The first edition, 4 vols. (Leiden, 1913–42), is still useful but many of the articles are now outdated. The second edition, 12 vols. (Leiden, 1954–2004), is now complete. It is also accessible on CD-ROM. A third edition is planned. Many of the articles are of great scholarly value and the *Encyclopaedia* should always be used to supplement other reading. Another important reference tool is the *Encyclopaedia Iranica*, ed. E. Yarshater (London, 1985–), which contains descriptive articles and is still incomplete. For further bibliography, readers should use *Index Islamicus: A bibliography of books, articles and reviews of Islam and the Muslim World from 1906* (published 1958 onwards and available on CD-ROM).

المؤلف فى سطور :

هيو كينيدى

- درس اللغة العربية فى مركز الشرق الأوسط للدراسات العربية ، قبل العمل مدرسًا للعربية ، والفارسية والتاريخ فى كمبردج .
- منذ سنة ١٩٧٢م يقوم بالتدريس فى قسم تاريخ العصور الوسطى بجامعة سانت أندروز .
- تم انتخابه زميلاً للجمعية الملكية فى إدينبرج سنة ٢٠٠٠م .

المترجم فى سطور :

قاسم عبده قاسم

- أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الزقازيق .
- له عدة مؤلفات فى تاريخ المماليك ، وتاريخ الحروب الصليبية .
- قام بترجمة عدد من الكتب فى تاريخ العصور الوسطى بفروعها المختلفة .
- حصل على جائزة الدولة التشجيعية ووسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى سنة ١٩٨٣م ، وحصل على جائزة الدولة للتفوق سنة ٢٠٠٠م .
- عضو فى عدد من الجمعيات والاتحادات العلمية المتخصصة فى التاريخ .

المصحح اللغوى : خالد منصور
الإشراف الفنى : حسن كامل